

الأستاذ جاوید أحمد غامدی

مِيزَانُ

نقله إلى العربية

الدكتور محمد غطريف شرباز الندوي



غامدي سينتر
المورد أمريكا

مِيزَانٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جميع الحقوق محفوظة لـ

**Ghamidi Center
of Islamic Learning**

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع



info@ghamidi.org
Phone: (972) 370-5083
www.ghamidi.org
3620 N Josey Ln, Suite 230
Carrollton, TX 75007

+961 3 703 701

daralkalam
www.alkalam.com

+961 1 556 976

darkalam
info@alkalam.com

Airport Old Road - Near
Al Mostapha School - Bdeir Bldg
Beirut - Lebanon

ISBN-10: 9953-72-676-0
ISBN-13: 978-9953-72-676-2

جميع حقوق الملكية الادبية و الفنية محفوظة © لدار القلم بيروت - لبنان و يحظر طبع او تصوير او ترجمة او اعادة تنضيد الكتاب كاملا او مجزأ او تسجيله على اشرطة كاسيت او ادخاله على الكمبيوتر او برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطيا.

Exclusive rights by ©DAR AL KALAM Beirut-Lebanon. No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without a prior written permission of the publisher.

جاويد أحمد غامدي

مِيزَانٌ

نقله إلى العربية
الدكتور محمد غطريف شهباز الندوي



غامدى سينتر
المورد امريكا

فاتحة الكتاب

إن الدين عند الله الإسلام فقط، وقد بيّنته في هذا الكتاب كما فهمته خلال دراسة وتحقيق ممتدين إلى ربع قرن من الزمن على أقل حد، وعليك أن تعتقد كل بيانه المحكم نعمةً من ربي الجليل أولاً وثانياً مما أخذته واستفدته من رشحات فكر أستاذنا الجليل الإمام أمين أحسن الإصلاحي. وإذا بدا لك فيه بيان سقيم فلك أن تحمّله إلى قصور علمي كما قال الشاعر الفارسي ما مفهومه:

كل ما أملك من دولة العشق وخزانة الطرب هو من يُمن عزيمة.

المورد لاهور

١٠ من إبريل ١٩٩٠م

جاويد

المقدمة (١)

الأصول والمبادي

الدين هو هدى الله الذي ألهمه أولاً في فطرة الإنسان وبعد ذلك أعطاه إياه بكافة تفاصيله الضرورية بواسطة أنبياءه ورُسُلِهِ ثانياً، ومحمد ﷺ خاتم رُسُلِهِ، ولذا فالآن إن شخصية محمد ﷺ الفذة هي المأخذ والمصدر الوحيد للدين على هذه الأرض، فإنه هو الوحيد الذي من طريقه يتوفر ويتيسر لبني آدم الهدى من عند ربهم تعالى إلى يوم القيامة. وإن هذا شأنه فقط أن الشيء الذي يقرره ديناً بقوله وفعله وتقريره وتصويبه هو الذي يكون ديناً حقاً إلى يوم القيامة. كما قال تعالى جل وعلا:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^(١).

فهذا القانون والحكمة هو الدين الحق الذي يُعبر به «الإسلام» ونبيّ مصادره ونفصلها أن هذا الدين قد بلغنا بإجماع صحابته وتواترهم القولي والعملي وانتقل إلينا عبر طريقين:

١. القرآن

٢. السنة

(١) سورة الجمعة، الآية: ٢.

أما القرآن الكريم فكل مسلم مطلع على هذه الحقيقة أن هذا الكتاب قد أنزله تعالى على رسوله الخاتم محمد ﷺ، وهو متواجد عند المسلمين منذ نزوله بكل صراحة إجماعية منهم أن هذا الكتاب هو الذي نزل على محمد ﷺ ونقله إلى العالم صحابته الأبرار بطريق إجماعهم وتواترهم القولي بكل احتفاظ ومن غير أدنى تغيير.

وأما السنة فنعني بها رواية الدين الإبراهيمي التي أجازها النبي ﷺ بعد تجديدها وإصلاحها وبعد الإضافات العديدة إليها في متبعيه والمؤمنين به. وبما أن القرآن قد ألزمه باتباع ملة إبراهيم وكانت هذه الرواية أيضًا من ضمن اتباع الملة الإبراهيمية. فقد قال تعالى:

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١).

فالدين الذي وصل إلينا خلال هذا الطريق هو مشتمل على مايلي:

- العبادات: ١. الصلاة ٢. الزكاة وصدقة الفطر ٣. الصوم والاعتكاف ٤. الحج والعمرة ٥. الأضحية وتكبيرات أيام التشريق.
- التعاشر: ١. النكاح والطلاق وما يتصل بهما من أمور ٢. الحيض والنفاس واجتناب إقامة العلاقات الزوجية فيهما.
- الأكل والشرب: ١. حرمة الخنزير والدم والميتة وما ذبح لغير الله، ٢. تذكية الحيوان بتسمية إسم الله عليه لإبعاد رجسه وإزالة نجاسة الحيوان.
- التقاليد والآداب: ١. الأكل باليد اليمنى وإسم الله، ٢. السلام عند اللقاء ورد السلام، ٣. قول الحمد لله عند العطس وتشميت العاطس بـرحمك الله، ٤. قص الشوارب، ٥. قص شعر العانة، ٦. قص شعر الإبط، ٧. تقليم الأظفار المزادة، ٨. ختنة الأطفال، ٩. تطهير الأنف والفم والأسنان، ١٠. الاستنجاء، ١١. الاغتسال بعد الحيض والنفاس، ١٢. غسل الجنابة، ١٣. غسل الميت، ١٤. التجهيز والتكفين، ١٥. التدفين، ١٦. عيد الفطر، ١٧. عيد الأضحى.

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٣.

فهذه هي السنة. وقطعي تمامًا أنه لا فرق بينها وبين القرآن الكريم اعتبارًا بالثبوت. فكما أن القرآن وصلنا بإجماع الصحابة وتواترهم القولي فالسنة أيضًا بلغتنا بإجماعهم وتواترهم العملي ولا تزال تثبت بإجماع المسلمين مثل القرآن، فلا مجال فيها لأي بحث ونزاع الآن.

ولا ريب أن الدين منحصر في هاتين الصورتين فقط، فلا شيء دين علاوة عليهما ولا يُقرر كدين. أما أخبار الأحاديث المشتملة على قول النبي وفعله وتقريره وتصويبه ﷺ، والتي يطلق عليها عمومًا مصطلح «الحديث»، فالحقيقة التي لا تجحد فيها أن النبي ﷺ لم يهتم أبدا بتبليغها وحفظها، بل تركها للسامعين والناظرين أن يبلغوها إلى من بعدهم إذا شاؤوا أو لم يبلغوها إن لم يشأوا، فإنها لا تضيف إلى الدين عقيدة وعملاً، فالأشياء التي تتضمنها والمتصلة بالدين إنها في الواقع تفهيم وتبيين للدين المحصور في الكتاب والسنة وبيان للأسوة الحسنة للنبي ﷺ. فدائرة الحديث في هذا الأمر هي هذا. فكل شيء خارج هذه الدائرة لا يسمى حديثًا ولا يُقبل من حيث كونه حديثًا فقط. نعم داخل هذه الدائرة تقوم حجتة على كل شخص يقبله من حيث كونه قولًا وفعلاً وتقريرًا وتصويبًا للنبي ﷺ بعد الإطمئنان إلى صحته. ولا يجوز له الانحراف منه إذا، بل يجب عليه أن يستسلم له إذا كان فيه أمرًا وقضاءً للنبي ﷺ: قال تعالى:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾⁽¹⁾.

والقرآن الكريم والسنة والحديث - كل واحد منها محل للتدبر فالأشياء اللازمة التي يحب أن تكون أمام أهل العلم والنظر عندنا حتى يكونوا على نظرة صحيحة إزاء كل منها سوف نبينها فيما يأتي بترتيب.

(1) سورة النساء، الآية: ٦٥.

مبادئ تدبر القرآن

وخذ أولاً تلك المبادئ التي يجب أن تُلاحظ للتدبر في القرآن الكريم.
العربية المعلاة: وأول شيء من ذلك أن اللسان الذي نزل فيه القرآن هو العربي المعلى 'لأم القرى'، الذي كان ينطق به قبيلة قريش في زمن الجاهلية. ومما لا مرية فيه أن الله تعالى قد جعله معجزة خالدة للفصاحة والبلاغة. وأنه في الحقيقة لغة كان ينطق بها رسول الله وكان ينطق بها أهل مكة في ذلك الزمان. فقال جل وعلا:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾⁽¹⁾.

ولذا فإن الفهم الصحيح لهذا الكتاب متوقف على العلم الصحيح لهذه اللغة وذوقها السليم، ولا بد للتدبر في هذا الكتاب ولشرحه وتفسيره أن الإنسان يكون عالماً جيداً بهذه اللغة وأن يتذوق أساليبها تذوقاً أن لا يحول لسانه في طريقه للوصول إلى فهم مدلول القرآن على أقل حد.

ولا تحتاج هذه الحقيقة إلى شرح مزيد على ذلك، ولكن ليفهم كل طالب له فهماً كاملاً أنها ليست عربية كتبها الحريري والمتنبي والزمخشري والرازي، أو التي تذاع في جرائد مصر وسوريا في هذا الزمان ويكتبها أدباءهما وشعراءهما. نعم هذه أيضاً لغة عربية. ولكن العربية التي نزل بها القرآن والتي ينبغي تسميتها بالعربي المعلى 'بجدارة'. هناك فرق كبير في لهجات وأساليب البيان والألفاظ والمحاورات لتلك اللغة ولهذه اللغة. وهو فرق كمثال فرق وقع في لغة أردية لمير⁽²⁾ وغالب⁽³⁾ ولفارسية لسعدي⁽⁴⁾ وخيام⁽⁵⁾ على الأقل وبين لغة أردية وفارسية يكتبها الجرائد والصحف الهندية والإيرانية في زماننا هذا المعاصر.

(1) سورة مريم، الآية: ٩٧.

(2) ميرتقي ميرهو أكبر شعراء اللغة الاردية الكلاسيك.

(3) غالب، أسد الله خان هو ثاني أكبر شعراء اللغة الاردية الكلاسيك.

(4) سعدي أحد شعراء الأخلاقيين للفارسية.

(5) خيام هو من كبار الشعراء الفارسية عرف بمربعاته الشعرية.

فمن الحقيقة أن لغة الجرائد هذه لا تولد ذوقاً سليماً للسان القرآن، بل على عكس من ذلك إنها تجعل المرء غافلاً عنه تماماً وإذا كانت هي تتغلب عليه فربما تحرم الإنسان من فهم القرآن تماماً. فأول شيء يجب الرجوع إليه للغة القرآن هو القرآن نفسه. فلا يجحد شخص عن القرآن أنه إذا نزل بأم القرى فمع أن مكانته الإلهامية صارت محلاً للنزاع والنقاش لمدة بلا شك، ولكن لم يمكن لشخص أن يتحدى عربيته أبداً. وقال إنه ليس كلاماً أعجمياً واستدل له لأنه نزل بلسان عربي مبين. إنه قرر نفسه معجزة للغة والأدب والفصاحة والبلاغة وتحدى قريشاً أن يأتوا بسورة من مثله، حتى أعلن أن يدعوا لذلك ممن أرادوا من الأدباء والشعراء والخطباء والكهنة وليس فقط الإنسان بل يدعوا من يشاؤون من الجنات والشياطين والآلهة معهم. فمن الحقيقة التي لا تجحد أنه لم يتمكن أحد من العرب من جحود عربيته كما لم يمكن لشخص أن يستجيب لتحديه أبداً. كما قال تعالى:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾⁽¹⁾.

وقال في موضع آخر:

﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾⁽²⁾.

وليس فقط ذلك بل حينما سمعه نقاد كبير للأدب في أم القرى كمثل وليد بن مغيرة فلم يلبث إلا أن قال:

والله ما منكم رجل أعرف بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيره مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله ان لقوله الذي يقوله حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلوا ولا يُعلَى،

(1) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

(2) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

وإنه ليحطم ما تحته⁽¹⁾. وكان ليبد من شعراء السبع المعلقات حيًا آنذاك، وقد أسلم. وهو شاعر سجد لشعر له⁽²⁾ شاعر كبير مثل فرزدق، فقد أصيب بذهول أمام القرآن لدرجة أن قال حينما التمس منه عمر رضي الله عنه بقول الشعر:

«ما كنت لأقول شعراً بعد أن علمني الله البقرة وآل عمران»⁽³⁾ وهذا ما كان اعتراف رجل واحد فقط بل إنه يعني أن فصاحة العرب وبلاغته سجدت للقرآن وخضعت له. ثم إنه من الحقيقة أن هذه المعجزة اللسانية قد انتقلت إلينا لفظاً بغير أدنى تغير ودون تبديل في أي حرف. ولذا فهذه الحقيقة ثابتة مسلمة اليوم أن القرآن ليس فقط حجة الله للدين في هذه الأرض بل إنه قول فصل للغة عصر نزوله وبرهان قاطع له. ويوجد هذا اللسان بعد القرآن في الحديث النبوي وذخائر آثار الصحابة. ولا شبهة أن جزءاً قليلاً من هذه الذخائر يُقدم كسند وحجة في صدد تحقيق اللغة بسبب الرواية بالمعنى ولكن هذه البقية الباقية أيضاً متاع قيم ثمين لأصحاب الذوق، فإنها لغة أفصح العرب والعجم ولسان الصحابة الأفضحين الأقحاح. وهو مثل أعلى اعتباراً بالألفاظه ومحاوراته ومن حيث أساليب بيانه للسان عربي مبين نزل فيه القرآن.

وفي أدعية النبي ﷺ وأمثاله ومكالماته وحديثه مع الصحابة، بما أن هناك اهتمام للرواية باللفظ في عامة الأحوال ولذا توجد نظائر تلك اللغة أكثر من كل شيء في روايتهم. فإن شاء طالبوا القرآن أن يغوصوا في بحار ذاخرة للآثار يستجمعون الكثير من اللآلي الثمينة منها وسيجدون نصرة كبيرة في حل المشكلات اللفظية والمعنوية للقرآن من هذه الذخيرة للآثار والأحاديث.

وبعد ذلك إن كلام العرب هو مأخذ كبير لهذه اللغة، وهو شعر الشعراء من أمثال إمروء القيس وزهير وعمرو وكلثوم ولبيد ونابغة وطرفة وعنترة والأعشى

(1) السيرة النبوية لابن كثير ٤٩٩/١.

(2) والشعر هو هذا:

وجلا السيول عن الطلول كأنها زبر تجد متونها أقلامها

(3) الاستيعاب لابن عبد البر بهامش الإصابة ٢٣٧/٣.

والحارث بن حلزة وكلام الخطباء من مثل قيس بن ساعدة الأيادي. ويعرف أهل العلم أن معظم كلام العرب يوجد في دواوين الشعراء وجامعي كلام العرب من أمثال الأصمعيات⁽¹⁾، المفضليات⁽²⁾، الحماسة⁽³⁾، السبع المعلقة⁽⁴⁾ وكتب الجاحظ والمبرد وأمثالها من أهل الأدب⁽⁵⁾. ولقد نشرت في زماننا هذا الكثير من دواوين شعراء الجاهلية لم توجد ولم تظهر قبل اليوم. ومما لامية فيه أن معظم لغات العرب قد تم نقلها بإجماع أهل اللغة وتواترهم واحتفظت ذخيرتها الكبيرة الثراء في أمهات اللغة من مثل التهذيب⁽⁶⁾، المحكم⁽⁷⁾، الصحاح⁽⁸⁾، الجمهرة⁽⁹⁾ والنهاية⁽¹⁰⁾ وغيرها. ولكن إنه أيضاً حقيقة أن كلام العرب هذا هو المصدر المتعمد عليه للبحث والتحقيق في ذخيرة لغة العرب التي لم تواترت مثل ذلك. نعم هناك كلام منحول أيضاً. ولكن كما أن العلماء الناقدين للحديث يمكن لهم تمييز صحيحه من سقيمه يتمكن كذلك ناقدوا كلام العرب من تمييز خالصه من منحوه على المعايير الواضحة للرواية والدراية. ولذلك قد أجمع علماء الأدب واللغة دائماً أن كلام العرب يعتمد عليه بعد كلام الله والذي يقوم كحجة وسند في تحقيق اللغة بناءً على صحة النقل والرواية باللفظ. يقول في ذلك صاحب خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب عبد القادر بن عمر البغدادي:

- (1) الأصمعيات لأبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي.
- (2) المفضليات للمفضل بن محمد بن يعلى بن عامر بن سالم الضبي.
- (3) الحماسة لأبي تمام ليب بن أوس الطائي.
- (4) وهي مجموعة للقوائد السبعة المنتخبة للعربية.
- (5) مثلاً البيان والتبيين للجاحظ والكامل في اللغة والأدب للمبرد، وجمهرة أشعار العرب لأبي زيد ومختارات شعراء العرب للابن الشجري، والفحول لأبي تمام وحماسات للبحري والخلديان ولابن الشجري ولأبي هلال العسكري وديوان المعاني لأبي هلال من هذا النوع.
- (6) التهذيب في اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري.
- (7) المحكم والمحيط الأعظم لعلي بن سيده.
- (8) تاج اللغة وصحاح العربية لأبي نصر اسماعيل الجوهري.
- (9) الجمهرة في اللغة، لأبي بكر محمد بن دريد الازدي.
- (10) النهاية في غريب الحديث والأثر لأبي السعادات المبارك ابن محمد الجزري ابن الأثير.

«الكلام الذي يستشهد به نوعان: شعر وغيره فقائل الأول قد قسمه العلماء على طبقات أربع: الطبقة الأولى: الشعراء الجاهليون وهم قبل الإسلام كامرء القيس والأعشى، والثانية: المخضرمون وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام كلبيد وحسان، والثالثة: المتقدمون ويقال لهم الإسلاميون وهم الذين كانوا في صدر الإسلام كجرير وفرزدق، والرابعة: المؤلدون ويقال لهم المحدثون وهم من بعدهم إلى زماننا كبشار بن برد وأبي نواس، فالطبقتان الأوليان يُستشهد بشعرهما إجماعاً⁽¹⁾.

وقد قال هذا القول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يخطب المسلمين من على منبره:

يا أيها الناس، عليكم بديوانكم، شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم⁽²⁾.

وقال ابن عباس رضي الله عنه عالم جليل الشأن بعلم الدين في الصحابة: إذا خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر، فإنه ديوان العرب⁽³⁾..

وليلاحظ هنا أن كلام أهل الجاهلية هذا ليس فقط مأخذ اللغة وأساليب اللغة بل إنه مع ذلك مأخذ أيضاً لثقافة العرب وحضارته التي إذا لم يتواجد تصويره الصحيح في ذهن سيصعب فهم أساليب الإشارة والتلميح والتعريض والكناية التي هي رأس مأل البلاغة في روائع الأدب هذه.

فما هي الخصائص الأساسية لمعاشرة واجتماع العرب؟ وما هي الأشياء التي يرونها معروفاً أو منكراً؟ وما هي معايير الخير والشر في اجتماعيتهم؟ وما هي نوعية ديانتهم وآدابهم وتقاليدهم؟ وما هي الأسس التي قامت عليها ثقافتهم وتشكل بها اجتماعهم؟ وما هي نظراتهم السياسية وشغلهم الشاغل ليلاً ونهاراً؟ فهل كانوا قطعاً للبهائم رفعهم الإسلام وأوصلهم إلى منصب قيادة العالم؟

(1) خزانة الأدب ٣/١.

(2) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/١١٠.

(3) المستدرك للحاكم، رقم: ٣٨٤٥.

أوهم مع كل وحشتهم قوم يحمل خصائص وأوصافاً قد مُنِحوا الكتاب مثل القرآن بناءً عليها، وفازوا بمكانة شهادة الحق للعالم كله من الله سبحانه وتعالى؟ هذه تساولات يأتي جوابها الصحيح من هذا الكتاب. وهذا الجواب في ضوئه تتوضح إشارات القرآن وتلميحاته وتعريضاته وكنياته في جماله الأدبي الرائع وفي كمال معنويته الخالدة على طالبيه ومحقيقيه.

ولذا ليس فقط في أمر اللغة بل لكل هذه الأمور المذكورة فليراجع طالبوا القرآن إلى كلام العرب.

إبانة اللغة: والأمر الثاني أن القرآن لم ينزل في اللسان العربي فقط بل في لسان عربي مبين. أي في لغة مبينة واضحة لا غموض فيها ولا تعقيد. كل لفظها واضحة وكل أسلوبها مأنوس لمخاطبيه، كمال قال تعالى:

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾⁽¹⁾.

وقال: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾⁽²⁾.

فهذه حقيقة واضحة للقرآن. إذا سلمت بها فعليك أن تسلم كنتيجة لازمة لذلك أن أية لفظة للقرآن وأي أسلوب له لم يكن شاذاً في مفهومه ومعناه، لأنه نزل في ألفاظ وأساليب معروفة متداولة لمخاطبيه. فليست فيه أية غرابة لغوية من أي نوع كانت. بل كل شيء فيه واضح معروف. ولذا من اللازم رعاية معاني معروفة ومدلولات غير منكرة في ترجمة معانيه وتفسير مفاهيمه في كل مكان ولا يقبل أي تأويل دون ذلك. ولذا فالنجم في ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾⁽³⁾ لم يكن إلا في معنى النجم و«تمنى» في ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّيَ﴾⁽⁴⁾ تعطي معنى الإرادة والأمنية والإبل في ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ﴾⁽⁵⁾ قد جاء في معنى الإبل والجمال

(1) سورة الشعراء، الآيات: ١٩٣ – ١٩٥.

(2) سورة الزمر، الآية: ٢٨.

(3) سورة الرحمن، الآية: ٦.

(4) سورة الحج، الآية: ٥٢.

(5) سورة الغاشية، الآية: ١٧.

و«البیض» فی ﴿يَبِضُّ مَكْنُونٌ﴾⁽¹⁾ لیس إلا فی معنی البیض. وانحر فی ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾⁽²⁾ تعطي معنی الأضحیة والقربان فقط. فلا یراد بها «الأعشاب»، و«التلاوة»، و«السحاب» و«الغشاء المكن للبیضة» و«وضع الذراعین علی الصدر».

وعلاوة علی الألفاظ تُعامل مع وجوه الإعراب وأسالیب البلاغة أيضا نفس المعاملة، إن علماء البلاغة والنحو قد جعلوا أشياء كثيرة فیما یتعلق بهذه الفنون من الشواذ والمستثنیات. ولكن الحق أن ذلك ناشئ من قلة التتبع والبحث فقط، ففي عصرنا هذا إن العمل الذي تم علی أيدي أكابر مدرسة الفراهي: الإمام حمید الدین الفراهي والأستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاحی علی لغة القرآن اتضحت منه هذه الحقيقة أن أسلوب القرآن فی هذه الأمور هو أسلوب العرب المعروف لا غیر. فطالبوا القرآن الذين يتذوقون بهذه المباحث یمکن لهم العثور علی كثير من الإرشادات فی ذلك فی «مفردات القرآن» و«أسالیب القرآن» و«جمهرة البلاغة» للإمام الفراهي وفي «مجموعة التفاسیر» له وفي «تدبر القرآن» للأستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاحی. فإن رعاية هذا الأصل فی تفسیر القرآن یتقاضاها إبانته. وإبانته كما مر آنفاً ثابتة بنص القرآن. وعلیه فلا یصح شرح وتفسیر للقرآن بغض النظر منها.

ندرة الأسلوب

والشیء الثالث أن أسلوب القرآن هو أسلوب منفرد، فإنه یحمل سزاجة النثر وربطه وسلاسته وتسلسله. ومع ذلك لا یقال له نثر، كما أنه یحمل غناء النظم وموسيقاه وحسن تناسبه ولكنه لا یقال له نظم أيضًا. ولا هو کتاب كمثّل کتابات نحن واقفون علیها، والتي یبحث فیها عن موضوع أو موضوعات تحت أبواب وفصول. وأهل العرب كانوا أحياناً یقولون إنه شعر وأحياناً یشبهونه بسجع

(1) سورة الصافات، الآية: ٤٩.

(2) سورة الكوثر، الآية: ٢.

الكهان. ولكن ترددهم هذا ينم عن عدم اطمئنانهم هم في مقولتهم هذه. والواقع أن القرآن كتاب فذ فريد باعتبار أسلوبه. يحمل سلاسة الأنهار وشدة البحار وندرة حسن الاستدلال، وطرّاز ربط المعنى. أمثلة وقصص ورجوع الكلام إلى مركزه مرات ومرات، وأساليب متنوعة للتهديد والزجر والعتاب. والأسف والحسرة، شدة اليقين مع صور الإعراض والإنكار. ففيه كيف على مواقع العجب والالتفات، تصويره شاعر فارسي بقوله: «ما هذا الذي يقع على صدري كالندى، وفيه مشهد على مواقع الغضب عبر به الشاعر كأنه طوفان تنبض منها وتتشعر قلوب الأنهار».

وفيه تصرفات عجيبة للخطاب أن المرء يفقد نفسه فيه. ولهذه الخصائص الأسلوبية يقول عنه:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشْيَعًا مُّصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١).

ولكن من أي أصناف الكلام هو؟ كل ما يمكن أن يقال في ذلك أنه يشبه كلام الخطباء. ولاشك أن هذه المشابهة هي فقط إلى حد التشابه لا غير. فلا يمكن أن يطلق عليه وصف الكلام الخطابي على الإطلاق، لكنه متقارب له ولذا يطلب من دارسيه وطالبيه أشياء تالية:

■ تبذل الجهود في سبيل فهم القرآن لتفهم ما حوله من ملابسات وخلفيات وحالات نزلت فيها سورة من القرآن ولا تحتاج لذلك إلى شيء خارج من القرآن. بل هذه الأشياء سوف تتوضح في ضوء القرآن نفسه. فإذا تدبر أحد في القرآن وعكف على كل لفظ له ويحاول فهم هيكل الجمل والأساس الذي تقوم عليه الكلمات يظهر له مواقع الكلام للسورة بتمامها مظهرًا تامًا وتدلل على وجودها دلالة لا تحتاج إلى دليل آخر معها. يقول الأستاذ الإمام:

(١) سورة الحشر، الآية: ٢١.

«الطريقة الصحيحة إنما هي أن تحاول لفهم خلفية القرآن من اشاراته هو. فإذا عرفت من الذين يخطبهم الكلام. ولأي من المخاطبين خطابه مباشرًا ولمن هو غير مباشر. وبأية مرحلة يمر بها المخاطب. وما هي السؤالات التي أثارها تلك المرحلة، تنتظر جوابها الأصدقاء والأعداء وأية نوعية اختارتها معاداة الأعداء وفي أية حالة الأصدقاء. وما هي الأحزاب في صفوف الأعداء وما هي وسائلها وسلاحها وفي أي طراز تتفكر جماعات مختلفة للموافقين، ينكشف لك نظام الكلام كله تلقائيًا. فإن هذا كله يتكلم من داخل فحوى الكلام نفسه. فإذا سعدت جهودك بتعيين هذه الأشياء ينكشف لك نظم الكلام بنفسه ويتأثر القلب بقرأة سورة من القرآن تأثره بالإستماع إلى خطبة مناسبة لخطيب مصقع»⁽¹⁾.

وثانيًا أن يُعين وجهة خطابه في كل مكان، ففي القرآن يختلف توجيه الخطاب في الوقفات القليلة بل في الآية الواحدة أحيانًا مرات. فالآن كان المسلمون مخاطبين إذ صار توجيه الخطاب إلى المشركين. والآن كان أهل الكتاب مخاطبين أن فأجأ الخطاب المسلمين. ويكون هذا التغير في صيغتي الواحد والجمع. ثم إن هذه المسئلة لم تكن في منتهى الخطاب بل في صدره أيضًا. فالآن كان الله عز وجل يتكلم أن بدأ جبرئيل يتكلم. وكان جبرئيل يتكلم إذ جرى الخطاب على لسان رسول الله ﷺ، فكما أن الخطيب لا يزال يغير مخاطبيه أثناء الخطاب من طريق تغيير لهجته وأسلوبه ومن دوران العيون والجواب ومن طريق نبرات الكلام، يتغير الخطاب في القرآن الكريم أيضًا في لحظة وأن. فلا بد من إعطاء أهمية كبيرة لذلك في تفسير القرآن ومن بذل الجهود لتعيين مصدر الخطاب هل هو مثلاً الله سبحانه أو جبريل أو الرسول ﷺ أو الناس، ويُعين منتهى الخطاب كذلك مثلاً هل هو الله سبحانه أو جبريل أو الرسول أو الناس. ثم ليوضح في كون الناس هل هم مسلمون أو منافقون أو اليهود والنصارى أو المشركون من بني إسماعيل أو اثنان منهم أو الثلاثة أو الكل، ثم يكون هناك مواقع

(1) مبادئ تدبر القرآن، ص ٢١٠.

الالتباس بأن تخاطب الأمة عن طريق خطاب النبي ﷺ، أو يكون الخطاب بظاهر الحال إلى النبي ﷺ ولكن يراد توجيه الخطاب إلى رؤساء قريش أو إلى اليهود والنصارى. ففي القرآن أمثلة كثيرة لذلك هنا وهناك. ولذا من اللازم أن يكون هناك تمييز بحیطة كاملة في ذلك، ويُعين توجيه الخطاب في واقع الأمر، لأنه بدونه لا يتوضح مضمون القرآن بطريقة صحيحة.

الثالث أن يميز بين عامه وخاصه، فإن القرآن ينهج نهجاً في مواضع كثيرة أن يستخدم ألفاظاً عامة بظاهرها ولكن سياقها وسباقها يدلان دلالة قطعية أنه لم يرد بها حكماً عاماً، فمثلاً القرآن يستعمل كلمة الناس ولكن لم يرد بها أحياناً العرب كلهم فضلاً عن سائر العالم. وهو يستخدم تعبير على الدين كله ولكنه لم يرد به أديان العالم كلها. ويستعمل لفظة «المشركون» ولم يرد بها المشركين أجمعين. ويأتي بالفاظ «وإن من أهل الكتاب» ولكنه لم يرد بها سائر أهل الكتاب في العالم كله، كما يستخدم كلمة «الإنسان» ولم يرد بها سائر أولاد بني آدم كذلك. فهذا هو أسلوب عام للقرآن إذا لم يُراعَ يَطل مراد المتكلم في تفسير القرآن من أساسه. ويصل الكلام إلى مالم يقصده المتكلم، ولذا لا بد في ذلك من إبقاء حكومة عرف القرآن وسياقه وسباقه على ألفاظه على كل حال.

الميزان والفرقان

الرابع أن القرآن نزل في هذه الأرض كميزان للحق والباطل وفرقانا بينهما ومُهيماً على سلسلة الوحي كلها، كما قال تعالى:

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾⁽¹⁾.

و «و» هنا قبل الميزان جاء للتفسير فصار «الميزان» بياناً «للكتاب» في الحقيقة وعليه فالآية تقول إن الله عزوجل قد أنزل القرآن للتمييز بين الحق والباطل وهو في الواقع ميزان للعدل. فأنزله لينظر كل شخص ما هو الحق وما

(1) سورة الشورى، الآية: ١٧.

هو الباطل. فهو وحده الميزان، لا شيء في هذه الدنيا سواه ما يوزن عليه القرآن. وكما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾^(١).

فالفرقان في هذه الآية أيضا يعطي المفهوم نفسه، أي كتاب هو حجة قاطعة في الميزة بين الحق والباطل، فهنا أيضا أريد بيان الحقيقة أن هذا الكتاب هو القول الفصل في كل شيء. وهو الصحيفة المعيارية، فيكون مرجعاً في النزاعات كلها والخلافات جميعاً. لا يحكم عليه شيء بل هو يحكم في كل مكان من دولة العلم والهدى وكل أمرء مسئول ألا يقدم عليه شيئاً.

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾^(٢).

ففي هذه الآية تعطي لفظة المهيمن ذاك المفهوم وهو إسم صفة من «هيمن فلان على كذا» في معنى المحافظ والرقب. والآية تقرر أن القرآن مهيمن على الصحف السابقة ومعنى ذلك أن النسخة المعتمدة للكتابات الإلهية الآن هو القرآن المجيد فقط. فإذا كانت المتون للصحف السماوية الأخرى قد فقدت أو دخلت التحريفات الكثيرة في تراجمها فبقي القرآن الآن حكماً ومعيّراً يميز بين الحق والباطل. فكل ما يمكن إثبات صحته على معياره هو صحيح. وما لا يمكن إثبات صحته هو بالتأكيد خطأ ويجب رفضه.

وهذه هي منزلة القرآن التي أعلنها بنفسه له فيجب أن نسلم بناءً عليه كمبادي أشياء تالية له:

أولاً: لا يحدد القرآن وحي خفي أو جلي خارج القرآن ولا تخصص حكمه ولا يغير فيه ولا يأتي بأي تعديل حتى والرسول ﷺ الذي نزل عليه لا يفعل ذلك. فكل شيء يُرد أو يُقبل في الدين في ضوء آياته البيات. ويتبدى كل

(١) سورة الفرقان، الآية: ١.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

بحث للإيمان والعقيدة منه ويختتم عليه، وكل وحي وكل إلهام وكل إلقاء وكل تحقيق أو رأي يتبعه. والحقيقة التي لا تجحد فيه أن حكومته تقوم على كل من أبي حنيفة والشافعي والبخاري ومسلم والأشعري والماتريدي والجنيد والشبلي، على الكل ولا يؤخذ ولا يُقبل شيء منهم ما يخالف القرآن ويعارضه.

وثانيًا: أن دلالة ألفاظه على مفاهيمه قاطعة فما يريد قوله يقوله بكل صراحة وصراحة، ولا يقصر عن بيان مدلوله تقصيرًا في أي أمر كان. ومفهومه هو الذي تقبله ألفاظه، لا يختلف منه ولا يتباين. وهناك باب واحد فقط للوصول إلى مدينة معانيه وهو ألفاظه لا غير. والتي تعطي مفاهيمها بقطعية كاملة لا ريب فيها ولا شك.

فهذان مما يتقاضاهما كون القرآن ميزانًا وفرقانًا، لا يختلف فيه اثنان. ولكن هناك تساؤلات عديدة مما تخالج بعض الناس وهي كالتالي:

أولاً: هناك خلافات للقراءة في بعض المقامات في القرآن. وهي تؤثر ليس في التلفظ بها بل أحيانًا على معاني الألفاظ أيضًا. ففي مثل هذه الحالة لا يكون شيء قاطعًا وحاسمًا إذا كانت هناك خلافات. مثلاً إذا كانت ﴿أَرْجُلَكُمْ﴾ التي جاءت في الآية السادسة من سورة المائدة يُقرأ بالنصب وبالجر أيضًا فكيف تحسم على أساس القرآن أنه لا بد من غسل الأرجل في الوضوء ولا يُمسح عليهما؟

وثانيًا: إن ما نفهم من القرآن من معنى نستطيع فهمه من طريق ألفاظه وتركيب جملة والحال أن فهمنا هذا موقوف على علوم وفنون ظنية كلها أي النحو واللغة والبلاغة وغيرها. فكيف يقال - والحالة هذه - إن دلالة ألفاظ القرآن قاطعة تمامًا على مفهومه؟

وقد جاء الإمام الرازي بهذا السؤال وبسطه في تفسيره كالتالي:

«دلالة الألفاظ على معانيها ظنية لأنها موقوفة على نقل اللغات ونقل

الإعرابات والتصريفات مع أن أول أحوال تلك الناقلين أنهم كانوا آحادًا ورواية الآحاد لا تفيد إلا الظن. وأيضًا فتلك الدلائل موقوفة على عدم الاشتراك، وعدم المجاز، وعدم النقل وعدم الإجمال وعدم التخصيص وعدم المعارض العقلي فإنه بتقدير حصوله يجب صرف اللفظ إلى المجاز، ولا شك أن اعتقاد هذه المقدمات ظن محض، والموقوف على الظن أولى أن يكون ظناً⁽¹⁾.

وثالثًا: لقد بين القرآن في موضع عن نفسه أن من آياته ما هو محكم وبعض منها متشابه. ولا يعلم تأويله ومفهومه إلا الله، فهذا أيضًا مما يقدر في كون القرآن قولًا فصلًا. فإننا إن كنا لا نميز المحكم من المتشابه ولا ندري مفاهيم الآيات المتشابهات فكيف إذن نعين مراد القرآن ومدلوله في تلك الآيات. وكيف نقرر القرآن حكمًا على كل شيء آخر غيره بناءً على ذلك.

ورابعًا: هناك أحاديث وروايات تغير في مراد القرآن. وعلماءنا يعبرون عن ذلك في بعض المقامات بنسخ وفي بعضها بتحديد وتخصيص وتقييد وما إلى ذلك من الاصطلاحات الأصولية الفقهية. فإن نوقن بهذا فكيف نسلم للقرآن تلك المنزلة المذكورة فيما مر آنفاً؟

فهذه هي السؤالات التي تقدم بهذا المجال عمومًا.

خلافاً في القراءة

القرآن هو فقط الذي ثبت في المصحف والذي يتلوه معظم الأمة المسلمة بإستثناء بعض المناطق المغربية. وماعدا هذه التلاوة والقراءة التي تتم مطابقتها لها لا تعتبر قرآنًا غيرها ولا تقوم من حيث كونه قرآنًا. فلا يثبت هذا السؤال من أساسه عندنا. ونفصل فيما يأتي مذهبنا هذا: قال الله تعالى:

﴿سُنْقِرْتُكَ فَلَا تَنْسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾⁽²⁾.

(1) التفسير الكبير ٢٨/١.

(2) سورة الأعلى، ٦ - ٧.

وأيضاً قال:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأَهُ فَالْتَفِعْ قُرْآنَهُ،
* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿⁽¹⁾

فإن المخطط الإلهي عن نزول القرآن وترتيبه وتدوينه الذي جاء في الآيات المذكورة يتلخص كما يأتي:

أولاً، لقد أخبر الرسول ﷺ أنه بالطريقة التي يعطى بها القرآن لك نجماً نجماً وفق الحالات هي الطريقة الصحيحة لمنحه. ولكن ليس لك أن تردد في حفظه وجمعه وترتيبه بسبب تلك الطريقة، الآن هذه القراءة الجارية له أثناء نزوله نستبدل بقراءة أخرى له إذا اكتمل نزوله. فعند ذلك إن شاءت حكمة الله سبحانه بإزالة شيء منه ينسخ ذلك منه ويُقرء به الله سبحانه بحيث لا يمكن فيه سهو ولا نسيان وتُمنحه في أكمل صورته وأتم.

ثانياً: قد أخبر ﷺ أن هذه القراءة الأخرى إنما تتم بعد جمعه بصورة كتابية ويلزم لك اتباع تلك القراءة فقط ولا يجوز لك قراءته وفق القراءة الأولى.

وثالثاً: وأخبر أيضاً أنه إذا كانت هناك ضرورة إلى شرح وتفسير لإطلاقات القرآن في أي أمر من الأوامر سيتم ذلك أيضاً في هذه المناسبة وهكذا سيتم هذا ككتاب بعد جمعه وترتيبه وتفهمه وتبيينه من قبل من ينزله عليك سبحانه وتعالى.

فهي القراءة الأخيرة للقرآن والتي يصطلح لها «قراءة العرضة الأخيرة». وجاءت في الروايات أن جبريل الأمين يعرض عليه ﷺ كل عام ما قد أنزل عليه من القرآن في شهر رمضان المبارك. وقد عرض عليه مرتين في عامه الأخير من حياته حين تمت العرضة الأخيرة. كما قال أبو هريرة: كان يعرض على النبي ﷺ القرآن كل عام مرة، فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض فيه ⁽²⁾.

(1) سورة القيامة، ١٦ – ١٩.

(2) صحيح البخاري، رقم: ٤٩٩٨.

وحينما ودع النبي ﷺ العالم كانت هذه قراءته. وكان الخلفاء الراشدون بعده وجميع المهاجرين والأنصار يتلون القرآن مطابقاً لهذه القراءة. لا خلاف بينهم في ذلك، وقد سُميت فيما بعد «بقراءة عامة» كما يقول أبو عبد الرحمن السلمي:

«كانت قراءة أبي بكر وعمر وعثمان وزيد بن ثابت والمهاجرين والأنصار واحدة، كانوا يقرءون القراءة العامة وهي القراءة التي قرأها رسول الله ﷺ على جبريل مرتين في العام الذي قبض فيه، وكان زيد⁽¹⁾ قد شهد العرضة الأخيرة وكان يُقرء الناس بها حتى مات⁽²⁾».

فهذه القراءة هي التي نالت تواتراً قولياً للمسلمين منذ الصحابة رضي الله عنهم. والدقائق والخفايا الفنية للهجات العرب تؤخذ فيها من رواية الحفص ولذا يصطلح عليها العلماء بناءً على ذلك «بقراءة الحفص». ولذلك يُتصور أن ذلك اختيار لهم مثل القراءات الأخرى، غير أنها هي القراءة العامة. يتعارفها السلف⁽³⁾ في عامة الأحوال بألفاظ تؤدي هذا المفهوم كما مر من قبل فقد روي عن ابن سيرين: القراءة التي عرضت على النبي ﷺ في العام الذي قبض فيه هي القراءة التي يقرؤها الناس اليوم⁽⁴⁾.

فإذا تدبرت في القرآن بضوء نظمه فتشهد لذلك الشواهد الداخلية للقرآن بقطعية كاملة. والعمل الذي قد عمله أكابر أهل العلم من المدرسة الفراهية على القرآن الكريم يبرهن برهنة تامة أن متن القرآن لا يقبل قراءة غير هذه القراءة العامة. وإذا شاء شخص أن يرى أمثلة لذلك فعليه الرجوع إلى تفسير «تدبر القرآن» للأستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاحي في مواقع كثيرة. إنه بنفسه يصرح:

(1) ومن الممكن أن يحضر الموقع صحابة آخرون أيضاً كما جاء ذلك في رواية لابن عباس عن عبد الله بن مسعود انظر المعجم الكبير للطبراني رقم: ١٢٦٠٢.

(2) البرهان للزركشي ١/ ٣٣١.

(3) انظر للاستزادة في ذلك مقال «اختلاف القراءة في كتابنا: مقامات».

(4) الاتقان، السيوطي ١/ ١٨٤.

«إنه قد تم إبعاد اختلاف القراءات أيضاً في هذا التفسير، إن القراءة المعروفة والمتواترة هي التي ضُبط عليها المصحف الذي بين أيدينا. ففي هذه القراءة يتم تأويل كل آية للقرآن وكل لفظة له في ضوء لغة العرب ونظم الكلام وشواهد القرآن أن لا يحتمل شكا وشبهة. ولذا قد قمت بتأويل كل آية بناءً على هذا القراءة وأقول بثقة كاملة إنه لا يمكن تفسير القرآن على أساس غير هذه القراءة بغير تجريح بلاغة القرآن وحكمته ورقته ومعناه⁽¹⁾.

على أنه قد يمكن أن يخالغ في صدور بعض الناس رواية «السبعة الأحرف» التي وردت في مؤطا الإمام مالك كما يلي:

عن عبد الرحمن بن القاري أنه قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها وكان رسول الله ﷺ أقرئها فكدت أن أعجل عليه، ثم أمهلته حتى انصرف، ثم لبيته برداءه فجئت به رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرئنيها، فقال رسول الله ﷺ: أرسله ثم قال: إقرأ يا هشام، فقرأ القراءة التي سمعته يقرأ فقال رسول الله ﷺ: هكذا أنزلت. ثم قال لي: إقرأ فقرأتها فقال: هكذا أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه⁽²⁾.

وهناك بعض الحقائق حول هذه الرواية إذا وضعتها أمامك اتضح لك أنها رواية سخرية واهية غير قابلة للاحتجاج بها في هذا المبحث الهام.

أولاً: هذه الرواية وإن جاءت في أمهات كتب الحديث ولكن مفهومها لغز لم يحلها بعد أحد في تاريخ الأمة. وقد نقل السيوطي في كتابه «الاتقان» أقوالاً متعددة في تعيين معناها ولكنه قد شعر بضعفها كلها واعترف في

(1) تدبر القرآن ٨ / ٨.

(2) رقم: ٥٦٧.

شرحه للمؤطا «تنوير الحوالك» إن هذه الرواية من جملة المتشابهات التي لا يعلم كنهها إلا الله فيقول:

«وارجحها عندي قول من قال: إن هذا من المتشابه الذي لا يُدرى تأويله⁽¹⁾».

وإن كان هناك أى توجيه معقول لذلك فيكون أن تحمل «سبعة أحرف» على مختلف لغات العرب ولهجاتها. ولكن متن الرواية يردده أيضا لأن المختلفين فيها عمر الفاروق وهشام بن حكيم كلاهما قرشي فكيف يُتصور أي خلاف بينهما.

الثالث: إن كان الخلاف يتصور بين أفراد القبائل المختلفة فكيف يوجه لفظة «أنزل» في هذه الرواية لأن القرآن يصرح صراحة تامة أنه نزل بلسان عربي مبين بلغة قريش. وبعد هذه الصراحة لك أن تقول إنه قد رخص وأجيز للقبائل المختلفة أن يقرؤه بلغاتهم ولهجاتهم المختلفة ولكن كيف نسلم أن الله تعالى هو الذي أنزله في لغات مختلفة لقبائل مختلفة؟

الرابع: إن هشامًا قد أسلم بعد فتح مكة. فإن قبلت هذه الرواية فعليك أن تعترف أن رسول الله ﷺ كان يعلم القرآن لبعض الناس خفية حتى بعد فتح مكة بطريق لم يعرفه كبار أصحابه مثل عمر على خلاف ما كان يعلم لعشرين سنة على أقل حد. وكانوا يسمعون منه ويحفظونه في صدورهم وفي صحفهم. يمكن لكل شخص أن يتصور مدى خطورة هذا القول وأين يمكن أن يقع ضربه.

وهذا الذي يقال عن روايات وآثار رويت عن جمع القرآن وتدوينه أولاً في عهد الصديق ؓ ثم في عهد عثمان ؓ في كتب الحديث والآثار. إن القرآن كما قدمنا في ابتداء البحث يصرح صراحة تامة أنه قد تم ترتيبه وتدوينه في حياة النبي ﷺ نفسه وإرشاد من الله سبحانه مباشرة. على أن هذه الروايات تحكي

(1) (١٥٩/١).

حكاية أخرى لا يقبلها القرآن ولا العقل العام. وجاءت في الصحاح أصلاً من طريق محمد ابن شهاب الزهري وأئمة الرجال يتهمون بالتدليس والإدراج زد إلى ذلك ما وصفه الإمام الليث بن سعد في رسالته إلى الإمام مالك. فإذا أخذنا بالاعتبار ما وصفه فلا تقبل إذن أية رواية له في مثل هذه الأمور المهمة جداً. فيقول الليث:

«وكان يكون من ابن شهاب اختلاف كثير إذا لقيناه، وإذا كاتبه بعضنا فربما كتب في الشيء الواحد على فضل رأيه وعلمه بثلاثة أنواع ينقض بعضه بعضاً ولا يشعر بالذي مضى من رأيه في ذلك الأمر. فهو الذي يدعوني إلى ترك ما أنكرت تركي إياه⁽¹⁾».

فهذه هي حقيقة تلك الروايات والآثار، فصار قطعاً أن القرآن له قراءة واحدة فقط، وأما القراءات الأخرى التي تتواجد في كتب التفسير أو تدرس في المدارس أو اختارها بعض الناس في بعض المناطق كانت من باقيات تلك الرؤى المنحرفة التي لم تخل من أثارتها شعبة من علومنا وبالأسف ولم تصن.

ويمكن أن تكون قد بدأت بسبب إصرار بعض الناس على قراءة ما قبل العرضة الأخيرة وبسبب سهو ونسيان رواتها فيها ولكن بعد ذلك راجت سوقها تحت بواعث الوضع والاختلاف في الحديث لدرجة أن وجدت عشرات القراءات إلى اختتام دور بني أمية.

فيحكى أن أبا عبيد قاسم بن سلام المتوفى في ٢٢٤ هجرية قد التقط منها خمسين وعشرين قراءة في كتابه. والقراءات السبع المشهورة المتداولة اليوم قد انتقاها أبو بكر بن مجاهد في زمن من أواخر القرن الثالث الهجري. فهذا مما يسلم به عموماً أن القراءات لا يعين لها عدد بل كل قراءة رويت بسند صحيح وتوافق موافقة محتملة بالمصاحف العثمانية وتنسجم مع اللغة العربية ولو بصورة ما تُعد قرآناً. وبعض منها يقول لها الناس متواترة على أن النظر العابر

(1) تاريخ يحيى بن معين الدوري ١٠٩/٤.

في أسانيدھا المتواجدة في الكتب يحتم بغير شبهة أنها أخبارًا آحادًا فقط. وأكثر رواھا مجروحون متهمون عند أئمة الرجال. فلا يقبلھا صاحب نظر من حيث الحديث فضلًا عن كونھا قرآنًا متواترًا.

دلالة الألفاظ

والإجابة على السؤال الثاني أن هذا التقرير عن دلالة الألفاظ كله محل للنظر، فإن المفاهيم التي تدل عليها الألفاظ والأساليب لكل لغة حية من لغات العالم تكون متواترة ومبنية على القطع بكل وجه تام. واللغة والنحو وكذلك العلوم الأخرى كل ذلك يبين ذلك التواتر. فلا يحث فيها عن صدق الناقلين وكذبهم وعن عددهم كذلك أساسًا. والألفاظ والأساليب التي تعد شاذًا وغريبًا لا تكون شاذًا من حيث مفاهيمها بل تكون كذلك بناءً على قلة أو كثرة استعمالها وعلم واطلاع رواھا ودارسيھا. فرحلة الكلمة ومعناها لا تنفصل أبدًا. طالما يتم استخدامه مع معناه. وربما نكون قد أخطأنا في معنى الكلمة وتعيين مفهومها ولكن لا يتصور أن كلمة ظلت مستخدمة بدون قطعية مفهومها أو كانت كذلك في عصر من العصور. كما أن الشعور بمواقع استعمال المجاز والكناية والإجمال والتخصيص وغيرها أيضا متواتر. وهو رأس المال الإنسان المشترك بين جل لغات العالم. «الأسد ملك الغابة» «أي أسد قادم حتى يرتجف ميدان القتال؟» هاتان جملتان ربما يخطأ شخص في فهم معناه وفي تمييز الحقيقة من المجاز فيهما. ولكن الشعور الجماعي للإنسان لا يتردد في ذلك وفي ضوء هذا الشعور الجماعي نطلع الفرد على خطأه. فهذه حقيقة عن اللغة، وبناءً عليها نكتب ما نكتب ونتكلم ما نتكلم لأننا نوقن بأن الآخرين سيفهمون بما نريد إفهامه إياهم. والوثائق التي تكتب كل يوم في العالم والأفضية التي تصدر والأحكام التي تجري والاطلاعات التي توصل والعلوم التي يتم إبلاغها إن جاءنا خيال في كلمة ولو للمحة، أن دلالة الألفاظ فيها ليست قاطعة في مفهومها فكل شيء

من ذلك يكون لا معنى له. فهذه النظرية سو فسطائية محضة لايسعها دنيا العلم أبدا⁽¹⁾.

وقال الشاه إسماعيل الشهيد في كتابه «عبارات» معلقا على ذلك مانصه:

لا يخفى على من له أدنى ممارسة بأساليب الكلام أن هذا القول ناشئ عن جهل متراكم إذ وضع الألفاظ لمعانيها من المتواترات، فلا مدخل لعصمة الناقلين فيه. (عبقة خامسة)

ويقول ابن القيم:

«من ادعى أنه للطريق لنا إلى اليقين بمراد المتكلم، لأن العلم بمراده موقوف على العلم بانتفاء عشرة أشياء فهو ملبوس عليه ملبس على الناس، فإن هذا الوضع لم يحصل لأحد العلم بكلام المتكلم قط، وبطلت فائدة التخاطب وانتفت خاصية الإنسان، وصار الناس كالبهائم، بل أسوأ حالا، ولما علم غرض هذا المصنف من تصنيفه، وهذا باطل بضرورة الحس والعقل، وبطلانه من أكثر من ثلاثين وجها مذكورة في غير هذا الموضوع⁽²⁾.

المحكم والمتشابه

والجواب على السؤال الثالث أنه لا يصح القول بأنه لا يمكن لنا التمييز بين المحكم والمتشابه بثقة كاملة، أو أننا قاصرون عن فهم معنى المتشابه. فجل آيات القرآن التي يدور عليها هديه وإرشاده محكمة. أما المتشابهات فإنما فهي آيات تذكر نعمة من نعم الآخرة أو نقمة لها في أسلوب التمثيل والتشبيه، أو آيات تصور صفات الله سبحانه وأفعاله أو تتحدث عن عالم من عوالم الله تعالى في أسلوب تمثيلي ما ورائي لنا، لا يحيط به علمنا أو مشاهدتنا، مثلاً نفخ الله تعالى

(1) انظر للاستزادة في ذلك مباحث آتية في كتابنا «مقامات» العلم الاضطرابي، أساس العلم، قطعي الدلالة، القطعي والظني والعام والخاص.

(2) اعلام الموقعين ٣/ ١٠٩.

في آدم من روحه أو خلقه المسيح ابن مريم من دون أب، أو مقامات وأحوال للجنة والنار. فكل الأشياء التي لم توجد لها الألفاظ حتى الآن، لا يمكن وصفها إلا بأسلوب التمثيل والتشبيه. فإنه يتم وصف حقائق العالم الغير المرئي بنفس الطريقة في آداب جميع لغات العالم.

فمثلاً إذا كان هناك شخص منا قبل قرنين منذ اليوم، ويصف المصباح الكهربائية استباقاً للمستقبل فكان من المحتمل أن يصف ذلك بطريقة المصباح المشتعلة في العالم حيث لا يتم سكب الزيت ولا تحتاج إلى إشعال النار. فالآيات المتشابهة أيضاً من هذا النوع. إنها ليست غير معينة ولا إبهام في مفهومها، فألفاظها عربية نفهم معناها من دون تردد، نعم ربما لا نفهم كنهها وحقيقتها في هذا العالم. ولكن معرفتها أو عدم معرفتها لا تمت بصلة إلى فهم القرآن ولذا لا ينبغي لأي شخص مؤمن أن يتعرض له. يقول الأستاذ الإمام في إيضاح ذلك:

«إن هذه الأشياء لها علاقة بالحقيقة التي هي بنفسها واضحة مبرهنة ويعقل العقل جزءاً لها ما يجب عليه إدراكه. ولكن بما أنه يتعلق بعالم غير مشهود ولذا يقدمه القرآن في أسلوب تمثيلي وتشبيهي حتى يستفيد منه طالبو العلم بقدر استعدادهم، ويسلموا كنهه وحقيقته إلى الله تعالى. وهذه الأشياء تتعلق بصفات الله وأفعاله أو بنعم الآخرة وآلامها. فندركها إلى مدى الضرورة. ونزيد علماً وإيماناً بذلك. ولكن إذا تعدى حدودنا ونسعى أن نأخذ كنهها وحقيقتها يكون ذلك لنا فتنة، وينتج منه أن الإنسان في محاولة إخراج شوكة للشك من ذهنه تخترقه أشواك لا حصر لها ولا عد كنتيجة لذلك. حتى أنه يفقد ثروته الحاصلة في طلب الثروة المنشودة، ويقدم على تكذيب حقائق واضحة لأنه لم يبرز له صورتها وأشكالها بعد⁽¹⁾.

والآية القرآنية التي أخطأوا فهمها وقالوا إنه لا يمكن فهم المتشابهات

(1) تدبر القرآن ٢/ ٢٥ - ٢٦.

لم يقل الله فيها إنه لا يعرف معنى التشابهات أحد سواه، بل قال إنه لا يعرف حقيقته إلا الله. ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ فجاءت لفظة التأويل فيها كما جاء التأويل في الآية من سورة يوسف قال: ﴿يَتَأَبَّىٰ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾^(١). فرؤيا يوسف جاءت في ألفاظها وعبارة مفهومه لكل الناس، وكل طالب العربية العام يستطيع أن يفهم تلك الآية التي جاءت فيها تلك الرؤيا بدون مشقة. (١٢: ٤) ولكن ماذا كانت مصداقية الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً رآها يوسف تسجد له؟ ما كان لشخص أن يقف عليها وقوفاً قطعياً ما لم تبد له في صورتها الأصلية. فقرر القرآن أشياء من هذا القبيل متشابهة. وليس المتشابه في معنى المشتبه والمبهم كما يفهمها الناس عموماً، حتى تتجرح منه مكانة القرآن كميزان وفرقان بين الحق والباطل جرحاً ما. والآية هي:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾^(٢) فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٣).

الحديث والقرآن

والإجابة على السؤال الرابع أن مقولة نسخ القرآن بالحديث النبوي وتحديده وتخصيصه إنما نشأت عن خطأ الفهم وقلة التدبر. إنه لم يقع نسخ أو تحديد وتخصيص في القرآن الكريم بطريق تشبه منه حيثية القرآن كميزان وفرقان أيما اشتباه. فإذا لم يفهموا بعض الأساليب القرآنية أخطأوا في بعض

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.

(٢) جاء ألفاظ المحكم والمتشابه هنا في مفهوم اصطلاحي خاص أوضحناه في المذكور أعلاه. وقد ورد هذان اللفظان في مواضع مختلفة للقرآن في معنى مختلف منه. أي المحكم للآيات الجامعة والموجزة والمتشابه في مفهوم الآيات المتماثلة والمتجانسة. انظر لذلك: هود ١١ والزمر: ٣٩ — ٢٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٧.

المحامل له، ولم يتضح لهم المحمل الصحيح لأقوال النبي ﷺ أيضًا وأحاديثه. فمعظم الأمثلة التي تُقدم عمومًا بهذا الصدد تتعلق من هذا النوع وحالها هذا. ومع أنها هناك بعض الإشكاليات في بعض أسانيدها ولكن لأنها تعرض مثالاً لها ولذا بغض النظر عن أسانيدها نأتي على كل واحد منها ونقدم رأينا فيها هنا بوضوح تام.

١ - من الحيوانات التي تتواجد في العالم ما هو يؤكل ومنها ما لا يؤكل. فإذا كان أكل هذا النوع الآخر يؤثر على تزكية الإنسان فلذا إن طبيعة الإنسان تأبى منه. وفي عامة الأحوال فإن فطرة الإنسان ترشده ترشيدها صحيحًا وتفصل وتقضي في ما يأكل وما لا يأكل من غير تردد.

إنه يعلم أن الأسد، والنمور، الفيل، النسر والغراب، والصقر والأفعى والعقرب والإنسان نفسه كل ذلك مما لا يؤكل. كما أنه يعرف معرفة جيدة أن الفرس والحمير للركوب لا للأكل ويعرف جيدًا نجاسة أبوالها وأبرازها كذلك. نعم ربما أخطأت فطرته وتمسخ أيضًا أحيانًا ولكن إن دراسة طبائع الإنسان تقول إن الجم الغفير من الناس لا يخطئ في هذا المضممار في عامة الأحوال.

ولذا فإن شريعة الله سبحانه لم تجعل مسألة حلة الحيوان وحرامها موضوعها، بل تركت الإنسان في ذلك مع فطرته واقتنعت بإرشادها فقط أن كافة الطيبات حلال كمبدأ وكافة الخبائث حرام.

وانطلاقًا منه فإن الشريعة الإسلامية تتحدث في هذا الباب عن البهائم والحيوانات وما يتعلق بها، التي كان يتصعب على العقل بوحده أن يحكم بحلتها أو بحرمتها وبالتالي بكونها طيبًا حلالًا أو بكونها خبيثًا محرّمًا. فمثلًا الخنزير الذي هو نوع من البهائم من الأنعام، ولكنها تأكل اللحم أيضًا في جانب آخر، فكيف يمكن الفصل في كونه مما يؤكل أو مما لا يؤكل؟ أو ماذا يكون حكم الأنعام التي نأكلها بعد الذبح، إذا ماتت بدون ذبح؟ وهل يُعد دم البهائم كهذه نجسًا مثل أبوالها وأبرازها أو تكون حلالًا طيبًا؟ وهل تبقى حلالًا إذا ذبحت باسم غير الله؟ وبما أن الإجابة الصحيحة على هذه الأسئلة كانت صعبة عسيرة،

ولذا من الممكن أن يخطئ الإنسان في هذه المسألة. كما يفهم ذلك من تعبير القرآن ﴿عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾⁽¹⁾ ولذا فقد أرشد الله سبحانه بطريق أنبيائه أن الخنزير والدم والميتة ولحم ما ذبح لغير الله ليس طاهراً حلالاً للإنسان، فليجتنب من كل ذلك، لأن الخنزير كما جاء من قبل يأكل اللحم أيضاً مثل الوحوش الضواري، وليجتنب من الدم لأنه مما يبعث على الشراسة والوحشة، وليجتنب من الميتة لأن الدم يتجمد في الوريد والأمعاء بسبب الموت الطبيعي، ومن الذبيحة لغير الله كذلك، لأنه شرك صريح، يرتكبه الماردون فالحیوان كهذا وإن كان طاهراً تنجسه نجاسة العلم والعقيدة هذه.

فالشريعة في باب الحلة والحرمة قد تكلمت أصلاً في هذه الأربعة المذكورة ولذلك حصر القرآن بيانه في بعض المواضع بقوله: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ وفي بعض المواضع بقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ﴾ هذه الأربعة أي حرم مما سوف يأكلها الناس بظنهم أنها طيبات. فجاءت في البقرة: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ⁽²⁾ وجاء في الأنعام: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾⁽³⁾ وجاءت في الروايات أن النبي ﷺ قد حرم أيضاً لحوم كل ذي ناب مخلب من الطيور والوحوش⁽⁴⁾. ووضح مما سقناه في ما مر أنه بيان للفطرة التي أودع علمها في الإنسان. وأخطأ الناس إذ جعلوه بياناً للشريعة (بياناً للفطرة)، على أنها لا تمت بصلة بحرمان الشريعة التي جاءت في القرآن، حتى نقول على أساسها أن الحديث نسخ القرآن أو يخصه في مدلوله.

(1) سورة الأنعام، الآية: ١٤٥.

(2) سورة البقرة، الآيتان: ١٧٢ — ١٧٣.

(3) سورة الأنعام، الآية: ١٤٥.

(4) مسلم رقم ٣٤٣٣ و٤٩٩٤.

٢- إن اللغة التي نزل بها القرآن أسلوبها العام أن المفهوم الذي يترشح تلقائياً بدلالة الألفاظ والقرائن والمقتضيات العقلية للمحكم لا تبينه الألفاظ، ومن أمثلته العامة حذف بعض أجزاء الجملة في أسلوب التقابل والمعطوف عليه للجملة المعللة وفي الجمل التي تأتي كالقسم عليه وكجواب الشرط. وترى ذلك مثلاً في آية الميراث من سورة النساء، الآية: (١١). حذف «اثنين» قبل «فوق اثنين» ولأبيه الثلثان بعد ﴿فَلَأُمُّهُ الثَّلَاثُ﴾ وحذف «لأبيه» بعد ﴿فَلَأُمُّهُ السُّدُسُ﴾ أو ما شابههما من الألفاظ. وأيضاً حذف المعطوف عليه في ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾. في الآية ١٢٧ من سورة النساء على هذا الأسلوب. وكذلك جاءت آية في سورة الأنعام. (٦)

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾^(١) فانظر فيهما قد حذف بعض الألفاظ المقابلة فمثلاً ذكرت في الجملة الأولى ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وحذفت مقابلها ﴿فِي السَّمَاءِ﴾. وجاءت في الجملة الثانية ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ فحذفت ألفاظ «تدب على رجلها أو أرجلها» نعم ليس هذا أسلوباً مستخدماً في لغتنا نحن. الأردنية. ولكن العربية المعلاة للقرآن مفعمة بأمثلة ذلك في كل مكان. فمثلاً نشهد هذا الأسلوب في سورة النساء حيث ذكرت النساء اللاتي حرم النكاح منها في مقامين أولاً قال تعالى: ﴿وَأَمَهْتُكُمْ أَلَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوْتُكُمْ مِنَ الرِّضْعَةِ﴾^(٢) وقال جل وعلا:

﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾^(٣).

ففي الحكم الأول حرمت الأخت من الرضاعة مع الأم المرضع. فإن كان الكلام قد ختم على ذكر الأم فقط. ففيه لا مجال بالتأكيد لأية زيادة ولكن إذا كانت العلاقة الرضاعية تجعل من شربت معه الحليب أختاً له فواضح صريحاً أنها تعطي هذه الحرمة والقداسة للعلاقات الأخرى للأم الرضاعية أيضاً بالتأكيد.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٣.

(٣) سورة النساء، الآية: ٢٣.

فإذا كانت الشراكة في الحليب تجعل امرأة أختًا، فلماذا لا تجعل الأم الرضاعية خالة، وزوجها أبًا، وأخت الزوجة عمّة، وحفيدته للأب ابنة الأخ وحفيدته للأم ابنة الأم؟ فهذا قطعي أن هذه العلاقات كلها محرمة. قد قصدها القرآن وألفاظه ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ مِّنَ الرُّضْعَةِ﴾ تدل على ذلك دلالة لا تخفى على من يتدبر في القرآن.

وكذلك الأمر الثاني فإذا كان الجمع بين الأختين في العلاقات الزوجية تصنع ذلك أمرًا فاحشًا فكذلك الجمع بين العمّة وابنة الأخ والجمع بين المرأة وخالتها أيضًا أمر كأنه الجمع بين المرأة وابنتها، فكان مراد القرآن بلا شك أن يقول لا تجمعوا بين الأختين وبين المرأة وعمتها وخالتها. إنه يريد أداء هذا الغرض لكنه لم يأت بهذه الألفاظ بعد الجمع بين الأختين، لأن دلالة المذكور على هذا المفهوم بالاعتناء العقلي واضح جلي، لدرجة أن شخصًا واقفًا على أساليب القرآن لن يخطئ في فهم ذلك. وقال النبي ﷺ «يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة»⁽¹⁾. وقال: «لا يُجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها»⁽²⁾.

فإرشادات النبي ﷺ هذه بيان ملفوظ لمدلول القرآن الملحوظ ولم يتعد حدود الشرح والبيان أيما تعدي.

٣ - وآيات ١١ - ١٢ من سورة النساء تبين حكم تقسيم الوراثة، حيث بين الله تعالى أسهم وحصص الوارثين المختلفين مع بيان لطيف للأساس الذي يقوم عليه حق الوراثة، هو القرابة النافعة. فقال تعالى: ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾⁽³⁾ فهذه المنفعة متواجدة بالطبع في القرابات للوالدين، والأولاد، والأخ والأخت، والزوج والزوجة، والأقرباء الآخرين. ولكن إذا صار أحد منها

(1) الموطأ رقم: ١٨٨٧.

(2) الموطأ رقم: ١٦٠.

(3) سورة النساء، الآية: ١١.

مؤذياً في صالح المورث فعلة الحكم هذه تتقاضى أن يُحرم من الوراثة. وهذا الاستثناء، إذا تدبرت علمت، أنه لم يدخل الآية من خارجها، إنه متضمن فيها من البداية فإذا بينه عالم للقرآن لا يُحكم عليه أنه تغير وتبدل في حكم القرآن. بل إنه فقط وضع لفظاً لما أضمره القرآن. فمثلاً في ضوء هذا قال النبي ﷺ في مشركي جزيرة العرب واليهود والنصارى فيها أن: لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم⁽¹⁾ أي إذا كان هؤلاء المنكرون من المشركين وأهل الكتاب ظهروا أعداء لله وللمسلمين يلزم منه أن تنتهي القرابة النافعة بين هؤلاء والمسلمين للأبد ولذا لا يتوارثون الآن.

٤ - وقد بين الله سبحانه في الآيتين ٣٣ - ٣٤ من سورة المائدة عقوبة مجرمي الفساد في الأرض أنهم يقتلون شر قتلة، أو يصلبون أو يُنفون، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف. وقد أطلق النبي ﷺ هذه العقوبة على الفاحشات في زمانه فقال: خذوا عني، خذوا عني، فقد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد مئة ونفي سنة، والشيء بالشيء⁽²⁾ جلد مئة والرجم⁽³⁾.

وكان مراده أن هؤلاء النسوة بما أنهن لسن زانيات فقط، بل ارتكبن مع ذلك الدعارة والخلاعة والفساد في الأرض فتجلد منهن من كانت يمكن إعطاؤها أية رخصة بسبب ملابساتها، مئة جلدة، بحكم الآية الثانية من سورة النور ولغرض حماية المجتمع من شرهن وفسادهن، ويُنفين جزاء لخلاعتهن بحكم الآية ٣٣ من المائدة، وكذلك من كانت منهن لا يمكن إعطاؤها أية رخصة، إنها تُرجم تحت حكم أن يقتلوا» وعليه إرشاد النبي ﷺ هذا أيضاً لا يحول ولا يغير في مقصد القرآن أي تغيير.

والميتة مما حرمه الله تعالى وكل شخص مطلع على أساليب العربية

(1) رواه البخاري رقم: ٦٧٦٤.

(2) رواه مسلم رقم ٤٤١٤.

(3) وجاءت في الرواية جلد مئة والرجم وذلك فقط لتوضيح القانون فإنه إن كان هناك عقاب آخر قد ذكر مع الموت فإنه يذكر فقط في بيان القانون والحكم ولكنه لا ينفذ فعلاً.

يعرف جيداً أن الميتة لها مفهوم لغوي، وهي تستعمل برعاية العرف والعادة. ففي الصورة الأولى يطلق على كل شيء ورد عليه الموت، وفي الصورة الثانية لا يستعمله شخص واقف على العربية للسّمك الميت والجِراد الميتة مثلاً. فقد روي أن النبي ﷺ:

«أحلت لنا ميتتان ودمان: الجِراد والحيتان والكبد والطحال⁽¹⁾. وهذه الرواية موقوفة بهذا الإسناد عند المحدثين. وكذلك الرواية الآتية عن السرقة هي أيضاً مرسلة. ولكن هناك رواية لهذا المعنى وصلت إلى درجة الحسن⁽²⁾.

ويقول الزمخشري: فإن قلت: في الميتات ما يحل وهو السمك والجِراد، قال رسول الله ﷺ: أحلت لنا ميتتان ودمان قلت: قصد ما يتفاهمه الناس ويتعارفونه في العادة ألا ترى أن القائل إذا قال: أكل فلان ميتة لم يسبق الوهم إلى السمك والجِراد كما لو قال: أكل دما لم يسبق إلى الكبد والطحال. ولا اعتبار العادة والتعارف قالوا: من حلف لا يأكل لحماً فأكل سمكاً لم يحنث وإن أكل لحماً في الحقيقة⁽³⁾.

٦ - وجاءت عقوبة السرقة في سورة المائدة كما يأتي: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾⁽⁴⁾.

فوضح من ذلك أن هذه العقوبة لكل رجل سرق ولكل امرأة سرق، واستخدم القرآن لذلك لفظان. السارق والسارقة. وهما صيغتان للصفة وذلك يدل على الاهتمام في وقوع الفعل، وعليه فلا يطلق على سرقة يسيرة بل يطلق على ما يتعارفه الناس من إطلاق السرقة عليه وعلى مرتكبه السارق. مثلاً طفل سرق روبيات عديدة من جيب أبيه أو امرأة أخذت روبيات من زوجها، أو سرق شخص شيئاً تافهاً أو قطف ثمرات من حديقة أحد أو أخذ خضروات من حقل

(1) رواه البيهقي رقم: ١١٢٨.

(2) رواها النسائي أيضاً رقم ٤٩٦.

(3) الكشف: ١/ ٢٤٠.

(4) سورة المائدة، الآية: ٣٨.

شخص، أو أخذ مالا ملقى في مكان من غير إهتمام للاحتفاظ به. أو إن أخذ بقرة شاردة ترعى، أو اضطر أحد إلى ارتكاب هذا الفعل الشنيع. فهذا كله بلا شك يُعد من الأفعال المخلة بالآداب العامة ويجب تأديبهم وتخديرهم، ولكن ليس كل هذا سرقة جاء بيانها في الآية المذكورة.

والرواية التي جاءت عن النبي ﷺ في صدد ذلك هي بيان لمضمون القرآن في هذا الباب لم ينحرف ولم يتعد من حدوده فقد قال رسول الله ﷺ: لا قطع في ثمر معلق ولا في حريسة جبل، فإذا آواه المراح أو الجرين فالقطع فيما يبلغ ثمن المجن⁽¹⁾.

كتاباً متشابهاً

الخامس أن القرآن يبين ما يدعو إليه في مختلف الصور والأساليب المتنوعة حتى أنه صار بنفسه تفصيلاً لإجماله وشرحاً وتفسيراً لكلامه المعجز، لدرجة أنه لا نظير له في كتابات العالم للأخرى، وبناء عليه يعرف القرآن نفسه بألفاظ «كتاباً متشابهاً». فقد قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا﴾⁽²⁾.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا﴾⁽³⁾. وفي الآيات الأخرى الكثيرة لهذا المضمون فقد أوضح القرآن هذه الحقيقة نفسها بلفظ «التصريف» أي تقديم القول بطريق الطرائق المتقدمة والأساليب المتنوعة كما قال أيضاً: ﴿كُنْتُ أَهْكُمْتُ عَيْنُهُ، ثُمَّ فَصَلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾⁽⁴⁾ أي جاءت الآيات أولاً في طريق موجز جامع مركز، ثم فصلت تلك الآيات الموجزة الجامعة

(1) الموطأ: رقم ٢٥٩٤.

(2) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

(3) سورة الإسراء، الآية: ٤١.

(4) سورة هود، الآية: ١.

كأنها جمل موجزة يقول الأستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاح في هذا الوصف للقرآن:

«إذا تلوت القرآن أحسست أن مضموناً واحداً يتكرر في سور مختلفة. وربما يخيل إلى المبتدي أن ذلك تكرير لمضمون واحد فقط. ولكن المتدبرين فيه يعلمون أن القرآن مطهر من التكرار المحض. فإن القول المتكرر في القرآن لا يأتي بخلفية وحدة ومقدمة مماثلة، ومع لواحق وتضمنات مماثلة، بل تكون أطرافها وجوانبها متبدلة في كل مكان، وروابطها وعلاقاتها متغيرة في كل مقام. وتجيء بتعديلات مناسبة بكل مكان. فما خفي في مكان يتوضح في مكان آخر. وجهة تأتي في سياق مخفية وتأتي في سياق آخر معينة. بل تجربتي الطويلة تفيد أن لفظة تبدو مبهمة في آية تنكشف انكشافاً بيّناً في آية أخرى، وهكذا لم يتضح دليل لقول ولكنه يتلمع لمعان الشمس في موضع آخر. وهذا الأسلوب القرآني كما يظهر إلي لأن ترسخ كل مقولة في عقول الطالبين. ولذا أقول تحديثاً للنعمة أن مشكلات القرآن تتوضح علي بالقرآن نفسه لدرجة لم تحل من أي شيء آخر كما يقول شاعر أردني مير أنيس ما مفهومه.

مضمون واحد - لوردة سأؤديه من مئة ألوان
من الممكن أن يكون ذلك مبالغة شعرية في كلامه ولكنه حق ثابت في باب القرآن، ففيه يأتي الكلام بأساليب متنوعة متعددة أنه إذا حاز الإنسان بذوق سليم فإنه يأخذ فحواه حتماً⁽¹⁾.

فهذا بيان لأكبر عارف بالقرآن في العصر الحاضر بعد الإمام حميد الدين الفراهي وتجربته الممتدة إلى حياته. فطالب القرآن إن تدبر فيه ودرسه درساً دقيقاً وجد هذه الحقيقة ثابتة في كل أوراقه. ففي ضوء ذلك ينبغي أن نسلم مبدئياً أن قاعدة القرآن «يفسر بعضه بعضاً» لا يصح ذلك فقط في تعليمات القرآن وإشاراته

(1) تدبر القرآن. ٢٨/١.

التاريخية وتلميحاته، بل إن معجزة القرآن العجيبة أنه يحتوي على ذخيرة غالية للنظائر والشواهد لحل مشكلات الألفاظ والأساليب فيه. يقول الأستاذ الإمام:

«إنه لا يسعنا هنا التفصيل وإلا سوف نريك أن القرآن يرفع لفظة غير هامة من الكلام العام ثم يستعمله في معنى أرفع بكثير من معناه المعروف، ويوجد له بطريق تنوع الاستعمال له بيئة خاصة، أن طالباً للقرآن يفهم كل ما له وما عليه لدرجة لا يكذبه شيء في يقينه، وذلك بدون إرشاد من «لسان العرب» و«صاح الجوهري». وهذا حال القرآن في أساليب الكلام وفي باب التأليف النحوي أيضاً وبالإضافة إلى ألفاظه المفردة. فإن تراكيب القرآن التي يتعقد فيها أرباب النحو ولم يجدوا طريقاً لحل تلك المعضلات إذا فحصت عن أمثالها في القرآن نفسه، سوف تجدها في أكثر من مقام وتجدها مع دلائل مقترنة مع الذهاب والإياب أن لا يجرح شيء يقيننا فيها⁽¹⁾.

كتاب أخير للدين

السادس أن القرآن ليس كتاباً أولاً بل أخيراً للدين الذي جاء به. وتاريخ هذا الدين يرجع إلى زمن أبدع فيه الإنسان. واستودع من الحقائق الأساسية لهذا الدين في فطرة الإنسان وخلقته. ثم أخبر أولاً بطريق أبي الآباء آدم ﷺ أن الله تعالى هو خالقه وربّه ومالكه وحده، فهو وحده الجدير بأن يُعبد، وثانياً إنه بعث به في هذا العالم للابتلاء والامتحان، فهدي إلى النجدين: الخير والشر بشعور كامل. ومنح الإرادة والاختيار والمكنة في الأرض، وامتحانه هذا سوف يجري إلى آخر لمحة من حياته في هذا العالم. فإن فاز فيها ونجح حصل على ملك أبدي خالد لله تعالى، لا خوف فيها ولا هم. وثالثاً إن الخالق تعالى سوف يرسل إليه هدايته حيناً بعد حين نظراً لاحتياجاته، فإن اهتدى عصم من كل ضلال، وإن عصى يشقى شقاوة أبدية إلى يوم القيامة.

(1) مبادئ القرآن ٦٠.

فصدق الله وعده وانتقى بعض عباده الصالحين لإرشاد بني آدم عن طريقهم. وكان هديه وترشيده مشتملاً على الحكمة والشرعة، والحكمة مما لا تتغير ولكن الشرعة لا تزال تتغير وتنزل نظراً لاحتياجات كل قوم. حتى أنها صارت كسنة واضحة لكافة البشرية في نبوة إبراهيم عليه السلام إلى حد كبير. ثم إذا جاءت مرحلة قيام دولة منظمة لبني إسرائيل في زمان سيدنا موسى عليه السلام أنزلت التوراة، ونزلت فيها أحكام وشرائع اجتماعية. وفي تلك البرهة من الزمن لما غابت بعض الجوانب عن الأنظار، أبرزت ثانياً بنزول الإنجيل والزيور. ثم إذا لم تبق متون هذه الكتب الإلهية في لسانها الأصلية، بعث الله محمداً خاتماً لرسله وأنزل عليه هذا الكتاب القرآن فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾^(١).

وهذا هو تاريخ الدين ونظراً إلى ذلك، فإن المقدمات التي تنطلق منها دعوة القرآن هي كالتالي:

١ - حقائق الفطرة

٢ - رواية الدين البراهيمي

٣ - صحف الأنبياء

ويتعلق الأول منها بأساسات الإيمان والأخلاق. ويعبر بالجزء الكبير لها من المعروف والمنكر في مصطلح خاص له. أي الأخلاقيات التي تعرفها الفطرة الإنسانية كالخير والمنكر هي العادات التي تأبأها الفطرة وتسوؤها. والقرآن لا يقدم فهرساً جامعاً ومانعاً لها. لكنه انطلاقاً من تسليم أن مخاطبيه وكان المعروف والمنكر كلاهما معروفان عندهم مع بعض الانحرافات ويميزون بينهما يطلب

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

منهم أن يعرفوا المعروف وينكروا المنكر فيقول: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(١).

وقد اختار القرآن تعبير «ملة إبراهيم» فكل من الصلاة والزكاة والصوم والحج من متبقيات ملة إبراهيم التي كان مخاطبو القرآن واقفون عليها، بل عاملون عليها إلى حد كبير كما تفيد به رواية رواها مسلم عن إيمان سيدنا أبي ذر، يصرح فيها أنه كان يواظب على الصلاة قبل مبعث النبي ﷺ^(٢). وكما هو معلوم عن إقامة الجمعة أنها لم تكن شيئاً أجنبياً غريباً لمخاطبي القرآن^(٣). وكانوا يصلون صلاة الجنازة^(٤). ويصومون كما نصوم اليوم^(٥). وكانت الزكاة حقاً متعيناً عندهم كما هي متعين اليوم^(٦). وكل من له إمام بالعلم يعلم أن الحج والعمرة مناسكهما في الجملة باقية على طريقة إبراهيمية، مع إدخال قریش بعض البدع فيها، ولكن الروايات أيضاً تفيد أن الناس كانوا يعرفون هذه البدعات فيها، فقد روى البخاري ومسلم أن حجة النبي ﷺ التي قد قام بها قبل بعثته، كانت حجة خالصة من بدع قریش على ملة إبراهيم والتي لم تزل جارية عليها^(٧).

وهذا أيضاً يطلق على القربان، والاعتكاف والختنة وبعض الرسوم والآداب الأخرى. فهذه الأشياء لم تزل جارية معلومة ومتعينة ومتعارفة جيلاً بعد جيل. فما كانت حاجة أن يفصلها القرآن. فالألفاظ التي كانت مستعملة لها في اللغة العربية مصداقيتها متواجدة أمامهم. فلما جاء القرآن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والإتيان بالحج والعمرة كانوا يعرفون من قبل ما هي الصلاة والزكاة والحج والعمرة. أي القرآن لم يبدأها أصلاً إنه قام بالإصلاح

(١) سورة التوبة، الآية: ٧١.

(٢) مسلم رقم ٦٣٥٩.

(٣) لسان العرب ٣٥ / ٢.

(٤) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام جواد علي ٣٣٨ / ٦.

(٥) انظر: البخاري رقم ٢٠٠٢ ومسلم رقم ٢٦٤١.

(٦) المعارج: ٧٠ - ٢٤.

(٧) البخاري رقم ١٦٦٤ ومسلم رقم ٢٩٥٦.

والتجديد فيها، وإنه يوضح منها ما يطلبه مقصد الإصلاح والتجديد، من توضيح وتفسير. وهذا الجزء من الدين الإبراهيمي الذي يصطلح عليه بـ «السنة» هو «الدين» عند القرآن، فإذا ما يأمر النبي ﷺ باتباع ملة إبراهيم عليه السلام فكانه يأمر بأخذ هذه السنة تمامًا. ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾⁽¹⁾.

والشيء الثالث الصحف السماوية المتواجدة اليوم في صورة مجموعة صحائف الكتاب المقدس العهدين: الجديد والقديم (التوراة والزبور والإنجيل) نعم قد ضيع الجزء الكبير منها حاملو هذه الكتب المقدسة السيئ الحظ وأدخلوا تحريفات كثيرة فيها، ومع ذلك فقد يمكن رؤية خزانة ثراء للحكمة والشرعة المنزلة من السماء في أساليب البيان الخاصة بها. ويعرف طالبو القرآن أنه قد أشار إليها هنا وهناك. وخاصة أشار إليها ببيان للمجمل في قصص الأنبياء التي جاءت فيه وقد رد عليها على تحريفات اليهود والنصارى كما رفض التاريخ الذي يقدمه اليهود والنصارى. وإتمام الحجة كله الذي قام به القرآن على أهل الكتاب هو مبني على هذه الصحف السماوية، فمصدره ومنبعه أيضًا تلك الصحف

فقال تعالى: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾⁽²⁾.

وقال: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالْتَيْسِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾⁽³⁾.

(1) سورة النحل، الآية: ١٢٣.

(2) سورة آل عمران، الآيتان: ٣ و ٤.

(3) سورة النساء، الآية: ١٦٣.

فهذه هي الخلفية التي برعايتها علينا أن نسلم بعض الأشياء كمبادئ
لشرحه وتفسيره:

أولاً: إن هذا الدين كله يكتمل من حقائق مبتنية على شعور الحسن والقبح
المستودع في الفطرة الإنسانية منذ الأزل، والذي يعبره القرآن بالمعروف
والمنكر. وأوامر الشريعة ونواهيها التي بينها القرآن بالتعيين تبني على تلك
المعروفات والمنكرات وتقوم على أساسها هي: فإن أقيم تصور للشرع
بتركها يكون ذاك التصور ناقصاً وخلاًفاً لمراد القرآن خلافاً كلياً.

وثانياً: إن السنة لا تتخلف القرآن بل تتقدمه. ولذا تؤخذ باللزوم بإجماع
وتواتر الحاملين له. والأحكام التي يذكرها القرآن من هذه السنة تعين
تفاصيلها برواية مبتنية على ذاك الإجماع والتواتر ولا يؤخذ من القرآن
مباشراً كما فعله بعض مفكري القرآن بزعمهم في هذا الزمان، وغيروا بذلك
في مراد القرآن ومدلوله تغيراً معاكساً.

الثالث: إنه لفهم أساليب القرآن وإشاراته ولتفصيل إجماله عما يتعلق
بأساليب خاصة للصحف السماوية، وتاريخ اليهود والنصارى وقصص
أنبياء بني إسرائيل والموضوعات المختلفة المتصلة، تكون الصحف
العتيقة المأخذ الأصلي. وعليها يتأسس سائر البحث والنقد في الدراسة.
والروايات المنقولة في هذا الباب في كتب التفسير جلّها أو أغلبها يبنّي
على الأقاويل السماعية فلا تستحق أي التفات إذن.

فإن الضوء الذي يحصل على هذه الموضوعات من الصحف العتيقة
وبطريق تقبل ألفاظ القرآن تفاصيلها، أو توضح الحقائق الأصلية عن شيء جاء
في تلك الصحف، لا تكون هذه الروايات التفسيرية بدلاً له بأي طريق كان. والتي
لا تؤثر إطمئناناً في طالب للقرآن وليست هي تصير حجة على أهل الكتاب بأي
طريق.

حكاية إنذار الرسول

وسابعاً: إن القرآن هو حكاية إنذار الرسول ﷺ باعتبار مضمونه. تقرأه من البداية إلى النهاية ترى هذه الحقيقة ثابتة بكل صفحة منه، ووجه ذلك أن الله تعالى لم يجعله فقط مجموعة التشريعات والحكم فقط بل أنزله كوسيلة للإنذار قومه. فقال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾⁽¹⁾.

ومعلوم عن الرسول ﷺ أنه كان فائزاً على منصب الرسالة مع النبوة. فمن يبعثه الله تعالى لهداية الخلق ويرشدهم بطريق الوحي والإلهام يطلق عليه اسم «النبي» ولكنه ليس ضرورياً لكل نبي أن يكون رسولاً أيضاً. فإن الرسالة هي منصب خاص، ناله العديد من الأنبياء فقط. ويبدو مما فصله القرآن في ذلك أن الرسول يأتي كعدالة إلهية ويودع الدنيا بعد الفصل فيهم. ويفيد القرآن أن هذا القضاء الحاسم في دعوة الرسل يصدر مروراً بمراحل الإنذار، الإنذار العام، إتمام الحجة والهجرة والبراءة، ويصدر بحيث تقوم محكمة السماء على وجه الأرض وتظهر دينونة الله سبحانه وتقوم القيامة الصغرى لمخاطبي الرسول. وتاريخ الدعوة الذي بينه القرآن يُعلم منه أنه تكون هناك صورتان في عامة الأحوال بهذه المناسبة. إحداهما أن يقل أصحاب الرسول ولم يتهياً له دار الهجرة أيضاً. والثانية أنه يخرج مع عدد مناسب لأصحابه وأنصاره، وقد هيا الله سبحانه له قبل خروجه المعاش الحر، والتمكن في أرض. وفي كلتا الصورتين تصدق سنة الله على الأرض فيما يتعلق برسله مصداقية لازمة. والتي جاءت في القرآن على النحو التالي:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾⁽²⁾.

ففي الصورة الأولى ينفذ على القوم هذا القضاء بعد أن هجرهم الرسول

(1) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

(2) سورة يونس، الآية: ٤٧.

سواء بوفاته أو بهجرته إلى دار آخرة، بطريق أن تنزل عليهم جنود من السماء وأرسل عليهم طوفان من الساف والحاصب، وجنود السحب والرياح تهاجمهم بطريق لا يبقى ولا يذر أي معادي للرسول. ولكن يتم ذلك مع المشركين في مصطلح القرآن. أما الناس الذين يعتقدون أصلاً بتوحيد الله سبحانه لا يكون ذلك معهم. بل الضابطة فيهم أن يسلط عليهم عذاب الذلة والمحكومية والهوان. ومعلوم أن بني إسرائيل كان معها هذا الأمر. وعلى خلاف ذلك قد دثرت الأقوام الكثيرة من وجه الأرض، بما فيها قوم نوح وقوم هود وقوم صالح، وقوم لوط وقوم شعيب والأمم الأخرى غيرها كذلك. وهذه الضابطة نفسها تُختار وتُتخذ يوم القيامة أيضاً كما قال في سورة النساء في الآية ٤٨ أن الله تعالى لن يغفر الشك هناك أيضاً ويغفر دون ذلك لمن يشاء.

ويصدق هذا القانون نفسه في الصورة الثانية ولكن ينفذ قضاء العذاب فيها بطريق سيوف الرسول وأصحابه. ويمهل القوم إمهالاً مزيداً في هذه الصورة. والرسول يقوم بإتمام الحجة على مخاطبيه في دار هجرته. ويقوم بتربية المؤمنين به وتطهيرهم وتركيتهم وبياعدهم لهذه المحاربة بين الحق والباطل. ويحكم اقتداره وسلطته في دار هجرته استحكماً أن يناضل المنكرين ويستأصلهم ويُنجز الحق وأهله.

قد حدث مع النبي ﷺ هذه الصورة الثانية. ولذا فإن القرآن هو كله حكاية عن إنذار النبي ﷺ، الإنذار العام، وإتمام الحجة والهجرة والبراءة والعقاب للمعاندين والجزاء الحسن للمؤمنين الموافقين. وكل سورة نزلت في هذه الخلفية وكل أبوابه ترتبت من هذه الناحية. فرعاية تلك الأشياء التي يجب أن يكون أمام كل طالب للقرآن في تفسير القرآن وتوضيحه لازمة وهي كالتالي:

أولاً: يجب أن يتعين زمان نزول كل سورة بطريق التدبر فيها حسب مراحل الدعوة النبوية هذه بطريق يطمئن عنه القول مثلاً إنها نزلت في زمن الإنذار أو في زمن الهجرة والبراءة وزمن الجزاء والعقوبة. وفيهم مدلول كل آية بهذه الخلفية.

وثانيًا: يجب في كل سورة تحديد مخاطبيها الأصليين هل هم مشركو عهد الرسالة، أهل الكتاب المنافقون، أو الرسول وأصحابه المؤمنون أو جماعة خاصة للمخاطبين. كما يجب تحديد الالتفات إلى أي شيء يتوجه وإلى أين، ثم يجب أن يوضح مرجع كل ضمير ومعهود كل لام التعريف ومصادقية كل تعبير في ضوء ذلك.

ثالثًا: يجب أن يتعين بكل تحقيق وبخاصة عن آيات غلبة الحق والاستخلاف في الأرض وآيات الجهاد والقتال أنه أي شيء فيها حكم ثابت للشريعة وقضاء أبدي إلهي وأي شيء قانون خاص لمخاطبي الإنذار والرسالة لم يبق بعد للناس الآن.

نظم الكلام

وثامناً أن القرآن لكل سورة منه نظم متعين للكلام. وليس هو مجموعة للإرشادات المتفرقة والهدايات المتباينة. بل له موضوع خاص ومعظم آياته تتعلق به، بترتيب حكيم ومناسبة مترابطة. فإذا درست كل سورة له من خلال وضع هذا الموضوع في المقدمة عند الدراسة، واتضح نظامها اتضحاً تاماً برعاية الموضوع، رأيت أنها تتكون بذلك وحدة جميلة جداً. وما هي قيمة وقدر ذاك النظم؟ يقول عنه الأستاذ الإمام أمين أحسن:

«إن هذا الخيال عن النظم أنه من قسم اللطائف العلمية فقط ولا قيمة له اعتباراً بمقصد أصلي للقرآن خطأ محض. وعندنا القيمة الأصلية للنظم تقع في الوصول إلى معارف القرآن وحكمته إذا أمكن، يمكن أن يكون من خلال نظمه فقط، فمن يقرأ القرآن بدون إرشاد للنظم جل ما يحصل عليه هو الأحكام المفردة والهدايات الشتى المفترقة.

نعم قد تكون قيمة كبيرة للأحكام المفردة والهدايات الجزئية لكتاب أعلى وأرفع ولكن شتان ما بين أن تعلم تأثيرات وخواص للحشائش من أي كتاب المفردات الطبي وبين أن يقوم طبيب حاذق بترتيب نسخة ذات تأثير بالغ قوي.

ويمكن أن تكون التوابل المستخدمة في بناء «التاج محل»⁽¹⁾ قد استخدمت في العديد من المباني المتفرقة حول العالم، ولكن «التاج» هو التاج وحده. فأقول بلا شبهة أن الألفاظ والتراكيب التي تتركب منها القرآن الكريم هي تتصل على كل حال باللغة العربية، باللسان العربي ولكن الترتيب اللاهوتي للقرآن قد أضفر عليها جمالاً وكمالاً لا يقارنه شيء على وجه الأرض.

وكما تكون شجرات عائلية تكون كذلك شجرات للحسنات وللمساوئ. وربما نخال حسنة أنها تافهة ولكنها تتصل بعائلة من الخيرات التي تتفرع عليها كافة الحسنات الكبيرة، وأحياناً نعتقد سيئة حقيرة غير أنها تتعلق بأسرة من المساوئ، تتفرع منها الأمراض والمهالك كافة. ومن يريد أن يتفقه حكمة الدين لا بد له من معرفة المراحل والمراتب للخير والشر معرفة جيدة، ولا يخاف أن يضع في اعتباره المرض الذي يشعر إلى عسر الهضم مقدمة للبرد ويعتقد علاج حدوث البرد كحالة من عسر الهضم. وهذه الحكمة القرآنية لا تتوضح من أجزاء كلامه بل من نظم كلامه كلياً. فالذي يعرف آيات لسورة من القرآن ولكن لا يعرف النظم الحكيم لتلك الآيات، لا يقف على تلك الحكمة المشار إليها آنفاً. وكذلك قد أوضح القرآن الكريم دلائل الأنفس والآفاق أو دلائل تاريخية على المبادئ الأصولية في سور مختلفة. وهذه الدلائل قد بينت بترتيب حكيم تام. فمن وفق على ذاك الترتيب المتناسق إذا تلا تلك السورة تلاوة تدبر أحس وشعر كأنه قد قرأ خطبة جامعة مستدلة تشرح الصدر، وعلى عكس منه الذي لا يعرف ذاك الترتيب فهو يحرم تمامًا من حكمة السورة مع أنه يعرف الأجزاء⁽²⁾.

ثم إنه قد أوضح أهمية النظم من ناحيتي الاجتماعية والسياسية كما يأتي:

«وكل شخص يعلم أن هذه الأمة اجتمعت شرائعها وجمعت كلمتها بطريق القرآن الكريم، وبحبل الله المتين وأمر المسلمون كلهم أن يجتمعوا

(1) يشير إلى أجمل البنايات وأمتعها في العالم، والذي بناه الملك المغولي المسلم شاه جهان في بلدة آغرة بالهند مقبرة تذكارية لزوجته الحبيبة «ممتاز محل» بعد موتها.

(2) تدبر القرآن: ١/ ٢٠ - ٢١.

ويتشبهوا بهذا الحبل تشبهاً محكمًا، وأن لا يتفرقوا. والمقتضى الفطري لهذه الهداية أن الخلافات المتولدة بيننا مهما كانت، نرجع إلى القرآن للحسم فيها ولكن من سوء حظنا أن آراءنا لم تتفق في القرآن أيضًا، فهناك أقوال كثيرة في تأويل آية واحدة يناقض بعضها بعضًا، ولا يوجد عندنا شيء يفصل فيها أيها قول حق. وإن كان هناك خلاف في تأويل كلام فأكبر شيء يطمئن إليه القلب في رفع ذاك الخلاف سياق ذاك الكلام وسياقه لا غير. ولكن المصيبة الأعظم في القرآن أن الناس لا يعتقدون فيه نظامًا. فكانت النتيجة أن أي خلاف ثار بيننا قد أرسخ علمه وغرّز رأيه. والكثير من اختلافات الفقه الإسلامي قد ثارت بعدم النظر في الكلام برعاية النظم وسياق الكلام، وإلا إذا لاحظنا السياق ونظم الكلام لوجدنا أن المقامات الكثيرة بحيث لا يوجد فيها متسع لإطلاقات أخرى ما عدا قول واحد.

والأخطر من الاختلافات الفقهية هو ضلالات الفرق الضالة. فمعظم الفرق الضالة التي ولدت فينا قد استدلوا بآيات القرآن نفسها. قد قطعوا آية من سياقها وسبقها ثم وضعوا لها معنى جاء لهم. والظاهر أنه يسع لك أن طبقت معاني كثيرة إذا أردت بعدت الكلام عن سياقه وسباقه، وربما تكون بعض تلك المعاني مما لا يتصورها القائل أبدًا. وإن لم أخف طول الكلام يمكن لي أن أحيل إلى آيات كثيرة، تستخدم في الخطابات والكتابات ليس فقط في المعنى الخاطئ بل في المعاني المضللة جدًا. ولا يوفق أحد أن يتجشم النظر في آية مناسبة قد جاءت الآية، وما هو سياقها وسبقها. فإن عندهم كما قلت، ليس هناك سؤال لنظم الكلام وتناسب الآيات في القرآن من أساسه⁽¹⁾.

فوضح من ذلك أن الشيء الذي يجعل القرآن برهانًا قاطعًا ويثبت له أحقية ما قاله الإمام الفراهي:

(1) تدبر القرآن ١/ ٢١-٢٢.

«القرآن لا يتحمل إلا تأويلًا واحدًا⁽¹⁾ هو نظم القرآن وحده. ويقول الأستاذ الإمام في تفسيره في ذلك:

وبما أنني أعرت لنظم الكلام أهمية كبيرة في تفسيري هذا ولذا إنني أخطرت قولاً واحداً في كل مكان، بل إن أردت بيان الحقيقة في تعبير أصح لقلت إنني اضطررت لأختار قولاً واحداً، لأنه بعد رعاية نظم الكلام لم يكن هناك إمكان لشخص أن يتيه في أودية مختلفة، والقول الصحيح الثابت يظهر منقحاً بطريقة أنه إذا لم يكن المرء أصم وأعمى متعصباً يمكنه أن يضحي بحياته ولكن لا يحتمل الانحراف عنها⁽²⁾.

وهذا النظم للقرآن هو الذي من سببه، حين تحدى القرآن مخاطبيه فقد تحداهم للإتيان بسورة أو أكثر وليس لإتيان آيات متفرقة كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾⁽³⁾ وقد قال في موضع آخر:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ أَسْطَعَتْكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾⁽⁴⁾.

وقد قام أئمة المدرسة الفراهي في تفاسيرهم ببرهنة هذا النظم بطريقة لم تترك مجالاً للبحث والنقاش في وجود أو عدم وجوده، ولكن ما هو نوعية هذا النظم؟ نفصلها فيما يأتي بصورة نكات متعددة.

١ - لكل سورة موضوع يؤلف بين أجزائها ويوحدها. والذي يؤلف مضمون السورة ويسري في وجود كل سورة مثل الروح.

٢ - وتحوز كل سورة عامة بتمهيد وخاتمة. ويمكن لنا توسيع مضمون السورة

(1) رسائل الإمام الفراهي: ٢٣.

(2) تدبر القرآن ١/ ٢٢.

(3) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

(4) سورة هود، الآية: ١٣.

في بعض السور إلى فصول وجمل، وإلى جمل فقط في بعضها. والجمل تبرز وقفات المضمون والفصول تبرز تغيراته، كما أن آيات التمهيد والخاتمة أيضًا تقسم إلى جمل باعتبار المضمون في بعض المقامات.

٣ - وهذه الجمل لا تشكل كلامًا مربوطًا بطريقة ربط الآيات بل يتعلق بعضها من بعض بأساليب التمثيل، التعليل، التأصيل، التكميل، السؤال والجواب، التفرع، النتيجة والإيراد، التنبيه والتقابل والتشابه، العود على البدء الاستدراك والجوانب الأخرى مثلها، وتجعل السورة كلامًا مربوطًا.

٤ - ويبلغ مضمون السورة في هذه الجمل والفصول إلى تمامه بارتقاء تدريجي. فتحصل السورة بنتيجة ذلك صورة مفردة ومتعينة وتصير في وجودها وحدة كاملة تامة من كل جانب.

السبع المثاني

والتاسع أن سورة القرآن لم ترتب ولم تجمع بطريقة غير منظمة، بل رتبها الله تعالى بنظام خاص، وعلى مثل نظم الكلام في السور فإن هذا الترتيب أيضًا ترتيب مناسب حكيم جدًا برعاية الموضوع. ويمكن أن نوجز ذلك إجمالاً بأن جميع سور القرآن الكريم رتبت على سبعة أبواب، وكل سورة لها توأم ومثنى بلحاظ مضمونها، وبينهما مناسبة كمنااسبة تكون بين زوجين. والعديد من السور مستثنى من ذلك. فمثلاً سورة الفاتحة منها جاءت كفاتحة الكتاب كله. والبقية جاءت تنمة وتكملة للقرآن مثل خاتمة الباب. ثم رتبت هذه السور كلها في صورة مجموعات سبعة عبرناها بالأبواب. وهذه الحقيقة قد جاءت في القرآن في سورة الحجر كنحو تال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾^(١).

فكل باب من أبواب القرآن يبتدأ من سورة مكية أو أكثر ويختم على سورة مدنية.

(١) سورة الحجر، الآية: ٨٧.

والباب الأول يبدأ من الفاتحة ويختم على المائدة، وفيه الفاتحة مكية والبقية الأربعة مدنية.

والباب الثاني يبدأ من سورتين مكيتين هما الأنعام والأعراف، ويختم على الأنفال والتوبة سورتين مدنيتين.

وفي الباب الثالث السور الأربعة عشر الأولى من يونس إلى المؤمنين مكية وفي آخره سورة واحدة، التوبة هي مدنية.

الباب الرابع يبدأ من الفرقان ويختم على الأحزاب وفيه السور الثمانية الأولى مكية ومدنية وسورة واحدة فيه مدنية أي الأحزاب.

الباب الخامس يبدأ من السبا ويختم على الحجرات ففيه ثلاث عشرة سورة مكية وثلاث سور مدنية في آخره.

الباب السادس يبدأ من ق ويختم على التحريم وفيه سبع سور مكية وبعدها عشر مدنية.

والباب السابع يبدأ من الملك وينتهي على الناس. وفيه معظم السور مكية ما عدا السورتين الآخرتين أي المعوذتين وهما مدنيتان.

ولكل باب من هذه الأبواب موضوع خاص به ورتبت فيه جميع السور برعاية ذاك الموضوع، فمثلاً موضوع الباب الأول هو إتمام الحجة على اليهود والنصارى وتأسيس أمة جديدة من بني إسماعيل مكانهم، وتركية تلك الأمة وتطهيرها والعهد الأخير لله تعالى معها.

والباب الثاني يبين إتمام الحجة عليهم ووعيد العذاب لهم كنتيجة له وبشارة غلبة الحق في أرض العرب ويمكن لنا أن نلخص كل ذلك في لفظتين الإنذار والتبشير. وإذا استثنينا الباب الأول منها رأينا أن ترتيب هذه الأبواب في القرآن يسير من الختام إلى البدء. فيكتمل الباب السابع على الإنذار والتبشير، وبعد ذلك يشتمل مضمون الإنذار والتبشير مع مضمون التزكية والتطهير أيضاً في الأبواب السادسة والخامسة والرابعة والثالثة. أما الباب الثاني الذي هو الباب

الأخير من هذه السلسلة فيبلغ فيه إنذار النبي منتهاه. ولذا يبدو فيه قضاء المحكمة السماوية للمخاطبين مع إتمام الحجة عليهم ومع التزكية والتطهير، والذي نعبر عنه بالدينونة الأخيرة لله سبحانه قيل يوم القيامة.

فالباب الأول منفرد لأنه يختص باليهود والنصارى بدلاً من المشركين ولكن إذا نظرت في القرآن من منظار فاتحته، فهذا الباب أيضًا مرتبط بمضمون الدينونة التي جاءت في سورة التوبة، بعد إتمام الحجة والتزكية والتطهير، كما أن الأبواب المذكورة أعلاه ارتبطت واتسقت بترتيب صعودي إن جئتها من النهاية إلى البداية. ولذا فالباب الثاني كأنه ذروة سنام حيث يبلغ مضمون واحد مع فارق تغير المخاطبين إلى نقطة كماله وينتهي. فاتضح منه أن أسلوب الترتيب النزولي بعد الباب الأول قد اختير برعاية هذه الضرورة للربط بالباب الأول، ومضمون الإنذار والبشارة وإتمام الحجة قد جاء في السور المكية عمومًا ومضمون التطهير والتزكية في المدنيات. ولكن هذين أيضًا متناسقان ومنسجمان مع كل باب، كأن الجزع يتفرع من الأصل، وتتفرع الأغصان من الجزع. فهذا ترتيب القرآن إذا رأيته نظرة تدبر فإن الترشيد الذي يحصل منه لطالب القرآن في فهم خلفية السور وزمان النزول، وفي تعيين مخاطبي القرآن وتعيين مضمون السورة من حيث المجموع لا يحصل من وسيلة أخرى خارج القرآن.

خلفية التاريخ

العاشر أن القرآن له تاريخ يقول إنه أنزل على محمد ﷺ في القرن السابع الميلادي وكان نزوله في أرض نعرفها بجزيرة العرب. وهذا التاريخ يقول إن النبي ﷺ أيضًا قد أوضح مفاهيمه على الناس إذا احتاج إليه، ولم يزل وعلماء الصحابة كما أن علماء الأمة ومحققوها أيضًا يقومون بخدمة الفهم والتفهم للقرآن ولا يزالون. هذا التاريخ مسلم ويقتضي بعض الأشياء من طلابه وهي كالتالي:

الأول يجب أن يطلع المرء على تاريخ جزيرة العرب وتاريخ زمان نزوله.

فإن كل طالب للقرآن واقف على أنه يذكر اندثار الأقبام البائدة من العرب مثلاً قوم عاد وثمود وقوم مدين. ويبحث عن معتقداتها، ويتحدث عن دعوة أنبيائها وما كان من رد فعل لها على دعوة الأنبياء. ويحكي عن مقدم سيدنا إبراهيم عليه السلام وتقديم ابنه إسماعيل للذبح وتعمير بيت الله بمكة، ويشير إلى تأثير هذه الأحداث على الحالات الحضارية والأخلاقية والاجتماعية والمعيشية لجزيرة العرب.

كما أنه قد أشار إلى ما جاءت به قريش من تحريفات في دين إبراهيم وكيف استبدلت مركز التوحيد بيت الله الحرام في بيت الأصنام، وما جاءت ببدعات ورسوم نتيجة لذلك. وكذلك يبحث عن ملابسات زمن النزول والأحداث والوجهات السياسية والعقائد الدينية والتصورات، فلفهم هذا كله لا بد من الاستفادة بتاريخ معاصر لنزوله إلى حد ما أمكن التعثر عليه، مع إبقاء حكومة ألفاظ القرآن ونظمه إبقاءً كلياً. فمن الحقيقة أنه يساعد مساعدة كبيرة في فهم بعض إشارات القرآن وفي كشف غوامضه.

الثاني يجب إعطاء أهمية كبيرة لما جاءت من أخبار وروايات عن النبي صلى الله عليه وسلم ومن آثار مروية متصلة عن الصحابة في كتب الأحاديث والآثار. ولا شبهة أنها اشتملت كل رطب ويابس ثم إن الرواية بالمعنى أيضاً قد غيرت الكلام تغيراً كثيراً ولكن أهل النظر يعرفون أنه لا تقل الجواهر الكريمة حيث توجد الحجارة والخزف. وما هو التعامل الصحيح في ذلك؟ فقد قال الأستاذ الإمام في مقدمة تفسيره بما يأتي:

«إن أشرف شيء وأزكاها في المصادر الظنية للتفسير هو ذخيرة الأحاديث والآثار. ولو حصل لنا الاطمئنان الكامل في صحتها لكانت لنا في الأهمية والعظمة مثل السنة المتواترة. ولكن بما أننا لا نطمئن في صحتها اطمئناناً تاماً اضطررنا على الاستفادة بها ما دامت تتوافق المبادئ القطعية التي ذكرناها فيما مضى أعلاه، والذين يعطون الأحاديث والآثار أهمية بالغة أن يجعلونها حاکمة على القرآن بذاته، لا يعرفون قدر الحديث ولا قدر القرآن. وعلى عكس من

ذلك الذين لا يحتاجون بالأحاديث احتجاجاً ما إنهم يحرمون أنفسهم من ضوء أثمن وأعلى بعد القرآن. وأعتقد أن الأحاديث كلها مأخوذة ومستنبطة من القرآن بالذات، ولذا لم أتقيد بالاستفادة بأحاديث وروايات وردت صريحة عن آية من أي القرآن بل استفدت من ذخيرة الأحاديث كلها ما أمكن لي، وبخاصة وجدت مساعدة في حل مسائل حكمة القرآن من الأحاديث ما لم أجدها من أي شيء آخر. وإذا وجدت حديثاً مصادماً مع القرآن توقفت فيه برهة ولم أتركها إلا في صورة وضحت لي أن تسلم هذا الحديث إما أن يؤدي إلى مخالفة القرآن، وإما أن يصادم أصلاً من أصول الدين. أما الأحاديث الصحيحة فقل أن لم تتوافق مع القرآن بأي وجه كان. لكن إذا واجهتني حالة كهذه رجحت القرآن على كل حال وقمت ببيان وجوه الترجيح بتفصيل⁽¹⁾.

الثالث أن ننظر دائماً فيما رآه وقاله العلماء والمحققون في شرح وتفسير القرآن. لأن العلم والفن يتقدمان دوماً بالاستفادة من تحقيقات المتقدمين وأفكارهم وآرائهم ولا يمضيان قدماً بغض النظر عنها. فالعلم الصحيح إنما يحصل بالتواضع وحب الحق الصادق لا بالتمرد والعنوت. ولذا يجب على طالبي القرآن أن ينظروا نظرة في أمهات كتب التفسير في سبيل فهم وتفهم القرآن وبناء رأي في آية من آياته.

وقبل العمل التفسيري الذي قام به أئمة المدرسة الفراهية في هذا الزمان كانت قد حصلت تلك المكانة الكبرى لتفاسير ثلاثة: جامع البيان لابن جرير الطبري، التفسير الكبير للرازي، والكشاف للزمخشري. فتجد أقوال السلف مجموعة في جامع البيان لابن جرير الطبري، ويوجد القيل والقال لعلم الكلام في التفسير الكبير للرازي، ويمكن الاطلاع على مسائل وقواعد النحو والأعراب في الكشاف. فهي التفاسير التي من أمهات هذا الفن. وعلى طالبي القرآن أن يقبلوا فقط قولاً تقبله الألفاظ القرآنية ونظمه، ولكن لا ينبغي صرف النظر والأعراض عن عمل هؤلاء المتقدمين في أي حال.

(1) تدبر القرآن: ١/ ٣٠.

مبادئ تدبر السنة

ما هي السنن؟ قد ذكرناها في بداية هذا المقال بطريقة معينة. ولتعيين هذه السنة هناك أصول وقواعد عدة نفصلها فيما يأتي:

الأصل الأول

السنة تكون فقط ما هو دين باعتبار نوعيته. أي ما يتعلق إما بالعبادات أو بتطهير البدن أو بتطهير الأكل والشرب أو بتزكية الأخلاق. لأنه إن استقصي جميع أحكام الدين اتضح أنه منحصر في هذه الأشياء الأربعة. والقرآن واضح كل الوضوح أن أنبياء الله كانوا قد بعثوا لإبلاغ الدين. وهذا كان دأثرهم في العلم والعمل. فكانوا لا يتعلقون أصلاً بشيء آخر. ولا شك أنه كان منهم إبراهيم بن آزر، وموسى بن عمران وعيسى ابن مريم ومحمد بن عبد الله مع مكانتهم النبوية، ولكنهم لم يقوموا بأية مطالبة من الناس في حشيتهم هذه، فكانت مطالباتهم كلها من الناس من حيث إنهم أنبياء الله، وما أوتوا من حيث الأنبياء هو الدين لا غير، وإبلاغ هذا الدين إلى الناس هو مسؤوليتهم الحقيقية. كما قال تعالى:

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾^(١).

فهذا معلوم أن رسول الله ﷺ قد استخدم السيف فالنبل والأسلحة الأخرى في الحرب. وقد سافر على الجمال وبنى المسجد وسقّفه بجذوع النخيل، وأكل بعض الأطعمة باعتبار الثقافة العربية العاصرة، أحب بعضها وكره بعضها، ولبس لباساً من وضع خاص كان يُلبس في العرب آنذاك. وفي اختياره كان هناك تدخل لذوقه الشخصي. على أنه ليس شيء من ذلك يعتبر سنة. ولا أحد من أهل العلم يقوله سنة. والنبي ﷺ بنفسه قد أوضح ذلك في مناسبة. فقال:

(١) سورة الشورى، الآية: ١٣.

«إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر، فإني إنما ظننت ظناً فلا تأخذوني بالظن. ولكن إذا حدثكم عن الله شيئاً فخذوا به فإني لن أكذب على الله، أنتم أعلم بأمر دنياكم⁽¹⁾ و⁽²⁾».

الأصل الثاني:

والأصل الثاني أن السنة تتعلق كلياً بالحياة العملية أي بالأفعال والأعمال فلا تتعلق إذاً بالعلم والعقيدة وشأن النزول وما إلى ذلك من أشياء. والسنة تطلق في العربية على الطريق الموطأ، وما فعله الله تعالى مع الأقوام من الجزاء والعقاب أطلق عليه سنة الله. فلفظ السنة تأبى أن تطلق على الإيمانيات والأشياء النظرية وكذا العلمية فدائرتها الأفعال والأعمال فلا تشمل الأشياء الخارجة من هذه الدائرة فيها.

الأصل الثالث

والأصل الثالث أنه لا تطلق السنة على أعمال وأفعال ابتدأت من القرآن نفسه لا من الرسول. فمثلاً عرف أن النبي ﷺ قطع أيدي السارقين وجلد الزانين ورجم الماجنين ورفع السيف على المنكرين ولكن لا يقال سنة لأي واحد من هذه العمليات، إنما هي أحكام قرآنية وردت فيه أصلاً وأن النبي ﷺ قد أمثل بها. وكذا جاءت أحكام الصلاة والزكاة والحج والصوم والقربان في القرآن على مواقع كثيرة، وجاء القرآن بإصلاحات وتعديلات عديدة فيها، وقد أوضح القرآن بالذات أنه كانت بدايتها من الرسول بعد تحديد الرواية البراهيمية وبتصويبها ولذا هذه سنن لازمة مؤكدة بالقرآن، وأي شيء بدأه القرآن أصالة وأوضحه النبي ﷺ أو عمل به طابق النعل بالنعل فلا نقول لعلمية الرسول هذه سنة، بل نقول إنه تفهيم وتبيين للقرآن والأسوة الحسنة. وتطلق السنة فقط على الأشياء التي تجيء

(1) رواه مسلم رقم الحديث ٦١٢٨ - ٦١٢٦.

(2) هذه إشارة إلى رأيه الذي قد أعطاه لأهل المدينة في قضية تأبير النخل على مناسبة.

أصالةً في قول وفعل وتقرير وتصويب نبوي ولا يمكن القول أنه عمل بالقرآن أو تفهيم وتبيين له:

الأصل الرابع

الأصل الرابع أنه إذا عمل بسنة متطوعاً لم تكن سنة أخرى جديدة. ونحن نعلم أن رسول الله ﷺ قد صلى صلاة نافلة علاوة على الصلوات الخمسة المفروضة في اليوم واللييلة بموجب قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾^(١) كما أنه قد تطوع في الصوم مع صوم رمضان وقام بقربان نافل، ولكن ليس أي شيء من ذلك سنة في حيثيته هذه. فلنا أن نقول أن طريقة النبي ﷺ في القيام بهذه النوافل هي أسوة حسنة له في العبادات. ولكنها إذا صارت سنة في حيثيتها الأولى لا تصير سنة مرة بعد مرة ولا تشمل في فهرس السنن.

وذلك يطلق أيضاً على إنجاز عمل لحد كماله. ووضوء النبي ﷺ واغتساله خير مثال لذلك. فليس هناك في طريقة قام بخلالها بهذين العاملين شيء زايد على الأصل، بل إنه اكتمال تام من كل جهة للأصل تظاهر بنموذجه في وضوئه واغتساله. فهذه الأشياء كلها تدرج في ذيل الأسوة الحسنة ولا تُجعل سنة.

الأصل الخامس

الأصل الخامس أن الأشياء التي جاءت لبيان الفطرة محضاً ليست سنة، سوى إذا كان الأنبياء ﷺ قد رفعوا شيئاً منها وقرروه جزءاً مستقلاً للدين، فمثلاً ما روي عن النبي ﷺ من تحريم لحوم السباع ذات الأنياب والطيور ذات المخلب هو أيضاً من هذا القبيل^(٢). كما أوضحنا من قبل في بيان مبادي تدبر القرآن في مبحث العلاقة بين القرآن والحديث تحت عنوان الميزان والفرقان

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٨.

(٢) رواه مسلم رقم الحديث: ٣٤٣٣ و٤٩٩٤.

بدلائل واضحة إنها بعد تحديد «﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾⁽¹⁾ و﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُم﴾⁽²⁾» بيان لتلك الفطرة ويعلم الإنسان من طبيعته منذ الأبد أن الأسد والنمور والفيل من الأشياء الغير المأكولة ولم تولد الفرس والحمير للذة المائدة، وكما جاءت بعض الأشياء الأخرى أيضًا في الروايات، فيجب اعتبارها أيضًا من هذا القبيل ويجب تقديمها في فطرة الإنسان خارج السنة.

الأصل السادس

الأصل السادس أنه لا تعد من السنة تلك الأشياء التي جاءت عن النبي ﷺ لترشيد الناس ولكن نوعية ذلك الترشيح بنفسها تقطع أنها لم يرد بها النبي ﷺ إجماعها من حيث السنة. ومثل ذلك الأذكار الواردة في القعدة في الصلاة. فتفيد الروايات أن النبي ﷺ قد علّم الناس التشهد والصلاة عليه كما علم الأدعية المختلفة لهذا الموقع. ولكن هذه الروايات هي الأخرى توضح أنه لم يقرر ولم يعين منها شيئاً، ولم يلزم على الناس وردها وذكرها. نعم هذه أذكار محبة له فلا يتصور شيء أحب وأطيب منها. ولكن أسوته تفيد أنه لم يرد إلزام الناس بشيء بل يريد تركهم في خيار، إما أن يختاروا الأذكار المأثورة أو اختاروا ما شاءوا من الأوراد والأدعية، فإن السنة إذاً هو جلوس المصلي في الركعة الثالثة والركعة الأخيرة على الركبتين في القعدة، وليس شيء علاوة على ذلك سنة مقررة لهذا الموقع.

الأصل السابع

الأصل السابع أنه كما أن القرآن لا يثبت بالخبر الواحد كذلك لا تثبت السنة أيضًا بخبر الواحد. لأن السنة لها مكانة مستقلة بالذات في الدين، وكان رسول ﷺ مكلفاً لإبلاغ السنة إلى الناس بكل اهتمام واحتفاظ وبقطعية كاملة. وكانت مما لا تترك على مشيئة الناس كأخبار الأحاد إن شاءوا نقلوه، إلى ما

(1) سورة الأنعام، الآية: ٤٥.

(2) سورة البقرة، الآية: ١٧٣.

بعدهم وإن شأؤوا لم ينقلوا. ولذا فمصدر السنة هو إجماع الأمة كمثل القرآن، فكما أنه وصل إلى أيدي الأمة بإجماع الصحابة وتواترهم القولي فكذلك بلغت السنة الأمة بإجماعهم وتواترهم العلمي. ولا شك أن رواية كتفهم النبي ﷺ وتبيينه ولأسوته الحسنة يمكن أن تقبل إذا جاءت بطريق أقل درجة من ذلك ولكن لا يثبت القرآن ولا السنة به أبداً.

فهذه أصول ترشيدية سبعة لتعيين السنة. إذا تدبرت في ضوئها في رواية الدين التي انتقلت إلى الأمة بطريق النبي ﷺ علاوة على القرآن، لتعينت السنة أيضاً بقطعية تامة مثل القرآن.

مبادي تدبر الحديث

إن الروايات لقول النبي ﷺ وفعله وتقديره وتصويبه، التي انتقلت إلينا في أكثر الأحيان على طريقة الأخبار الأحادية، والتي اصطلح عليها بالحديث، فشيء واحد عنها واضح جداً أنها لا تضيف إلى الدين عقيدة وعمالاً. كما أننا صرحنا في بداية كلامنا صراحة كاملة أن ذلك لا يأتي في دائرة الحديث أن يصير مأخذ الحكم الجديد في الدين. ومع ذلك فهذه أيضاً حقيقة أن الحديث هو المصدر المهم والأكبر لمعرفة سيرة النبي وأسوته الحسنة وتفهمه للدين وتبيينه له. فللحديث إذاً مكانة كبيرة لا يستغني عنه طالب للدين ولهذه المكانة الكبرى للحديث لا بد لنا من بيان قواعد وأصول للتدبر فيه أيضاً بعد القرآن والسنة. فأولاً لنأخذ أصولاً وقواعد يجب مراعاتها في رد وقبول أي حديث:

سند الحديث

إن الذي يوصل شيئاً إلى درجة الحديث بالنسبة إلى النبي ﷺ هو سند ذلك الشيء، فعدالة الرواة وضبطهم واتصال سلسلة الرواية ثلاثة أشياء يجب أن ينظر فيها بدقة نظر في ضوء تلك المواد التي، قد وفرها أئمة الرجال بجهد كبير في هذا الباب مع مراعاة علل الإسناد. نعم عدالة الصحابة مستثناة في ذلك لا الله

تعالى بنفسه قد شهد لهم ووثقهم في كتابه⁽¹⁾: هذا المعيار لتحقيق إسناد الحديث قد أقامه المحدثون⁽²⁾ وهو قطعي لدرجة أنه لا يمكن الاختزال ولا الزيادة فيه.

ولأن الرواية لكلام مشتبّه منسوب إلى النبي ﷺ يبعث على النتائج الخطرة في الدنيا والآخرة، ولذا أصبح من الضروري اللّازم أن يطلق هذا المعيار على كل رواية متصلة بالنبي ﷺ وأن يتم ذلك بطريقة محتمة للغاية دون أي تنازلات، وتقبل فقط تلك الروايات التي يصدقها ذلك المعيار من كل جهة. ولا يقبل دون ذلك شيء منسوب إلى النبي ﷺ وإن خرج كبار الأئمة في أمهات كتب الحديث البخاري ومسلم والموطأ للإمام مالك وغيرها.

متن الحديث

وبعد تحقيق سند الحديث الشيء الثاني هو متن الحديث. والأئمة المحدثون وإن لم يألوا جهدًا في التوصل إلى معلومات صحيحة عن حالات الرواة وسيرتهم، ونفقوا أعمارهم في هذه العملية ولكن مع ذلك قد بقي بعض الخلل الفطري في رواية الحديث كما هو الحال في كل عملية إنسانية⁽³⁾، فنظرًا إلى ذلك الخلل لا بد من أن ينظر إلى هذه الأشياء الآتية في متن الحديث أيضًا.

أولاً: أن لا يكون في متن الحديث ما يخالف القرآن ولا السنة.

وثانيًا: أن لا يكون فيه ما يعارض مسلمات العقل.

وعما يتعلق بالقرآن فقد قلنا من قبل أنه بمثابة الميزان والفرقان في الدين. وهو مهيم على كل شيء وأنزل حكمًا للتمييز بين الحق والباطل، ولذا لا نحتاج إلى استدلال زائد على ذلك أنه إذا كان هناك شيء يخالف القرآن يرد لازماً.

وهذا هو أمر السنة أيضًا فإن هداية الدين التي وصلتنا بطريق السنة قد ثبت عنها بقطعية كاملة أن النبي قد أجراها باهتمام كامل مثل القرآن، فلا فرق فيها

(1) انظر الآية رقم ١١ من سورة آل عمران.

(2) يمكن الرجوع لتفصيله إلى ما كتبه الأئمة المحدثون في كتاباتهم في أصول الحديث.

(3) انظر للاستزادة في ذلك مؤلف الأستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاح «مبادئ تدبر حديث».

بين القرآن والسنة من حيث اعتبار الثبوت. فكما أن القرآن ثابت بإجماع الأمة فكذلك السنة أيضًا تؤخذ من إجماع السنة. وبما أن هذه الحقائق المتصلة بالسنة قاطعة تامة، فإذا كان خير الواحد ينافي السنة ولا وجه بينهما للتوافق فيرد خبر الواحد لازماً.

ومسلمات العلم والعقل أيضًا تحرز هذه الحثية في هذا الباب. والقرآن صريح في ذلك، فإن دعوته تقوم تمامًا على هذه المسلمات، ويقوم استدلاله في مباحث التوحيد والمعاد الجزرية أيضًا عليها أصالةً. وإنه يبرز للناس بطريق تعليماته مما تتقاضاه مسلمات العلم والعقل وتطالبه. فكل طالب للقرآن وافق على أنه يقدمها كحكم لدعوته فقد قدمها أمام مشركي العرب وأمام اليهود والنصارى أيضًا كقول فصل. وهو يقول إنه من يخالف مسلمات العقل والنقل فإنه يتبع هواه. فحقائق الوجدان ومصداقات التاريخ، وثمرات ونتائج التجربة والمشاهدة قد جاءت في القرآن كمسلمات للعقل والعلم. ولذا فالأشياء التي جعلها القرآن بذاته معيارًا للتمييز بين الحق والباطل، إذا جاء هناك خبر الواحد ينافيها فكيف تقبله؟ والظاهر أننا سنرده على كل حال.

فإن الأئمة المحدثين قد ذهبوا هذا المذهب في هذا الباب. الكفاية في علم الرواية هو أم الكتاب في فن أصول الحديث ومصنفه الإمام الخطيب البغدادي يقول:

«ولا يقبل خبر الواحد في منافاة حكم العقل وحكم القرآن الثابت المحكم والسنة المعلومة والفعل الجاري مجرى السنة وكل دليل مقطوع به^(١).

ولنأخذ بعد ذلك مبادئ فهم الحديث

ذوق العربية

الأول أن لغة الحديث أيضًا كمثل القرآن عربية معلاة. ولا شك أنه قد

(١) (٤٣٢)

روي الحديث في أكثر الأحاديث روايةً بالمعنى، ولكن مع ذلك فقد احتفظت لغة النبي ﷺ ولغة الصحابة لحد أنه يمكن لصاحب ذوق أن يميز بينها وبين الأشياء الأخرى إلى حد كبير. فعلى نحو القرآن للحديث أيضًا معيار لغوي لا يرتضى بشيء آخر أقل معه. ولذا من الضروري أن يحصل لطالبي الحديث براعة أن لا يترددوا في رد أشياء مثل «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة»⁽¹⁾، بمحض أساس لغوي. وأن لا يواجهوا صعوبة في فهم أساليب مشكلة لغوية ونحوية. ولا بد من نظر عميق على ما قد كتبه العارفون البارعون لهذه الفنون في هذا الباب. فإنه لا يمكن لشخص أن يحل مشكلات الحديث دون وقوف على دقائق اللغة وأساليب العربية.

ضوء القرآن

والثاني أن يفهم الحديث في ضوء القرآن وقد بينا من قبل ما للقرآن من مقام رفيع في الدين. وما قاله النبي ﷺ في مكانته الرسالية والنبوية قد انبثق من القرآن بذاته، فهو مصدره ومأخذه القطعي. فعلاقة القرآن بالحديث علاقة تكون لأصل بفرعه ولمتن بشرحه، وذلك في معظم مضامين الحديث. فلا يمكن فهم الفرع والشرح إلا بالرجوع إلى متنه وأصله أيما فهم. وإذا استعرضنا أخطاء أو سوء فهم الحديث بدقة النظر حتى اليوم لوجدنا هذه الحقيقة واضحة جلية. فالكثير من الأحكام التي صارت مصدر ارتباك من مثل أحداث الرجم في العهد الرسالي وقتل كعب بن أشرف، وروايات عذاب القبر والشفاعة وحكم «أمرت أن أقاتل الناس»⁽²⁾ وحكم «من بدل دينه فاقتلوه»⁽³⁾ فقد حصل ذلك لأنه لم تتم محاولة لفهم هذه الأمور بربطها بأصلها في القرآن. فإذا لاحظنا هذه القاعدة في فهم الحديث لتتم تصفية معظم الارتباكات في فهم الحديث.

(1) رواها الموطأ رقم ٢٥٦٨ وابن ماجه رقم ١٥٣.

(2) رواه البخاري رقم ٢٥ ومسلم ١٢٩.

(3) رواه البخاري رقم ٣٠١٧.

الموقع والمكان

الثالث أن يعين مدلول الحديث برعاية مضمونه ورعاية محل وروده. أي أن ينظر في أي وقت اتجه الكلام وفي أي صدد ولمن؟ فإنه إذا لم تُلاحظ هذه الأمور فأحياناً يصير الكلام الواضح أيضاً عقدة لا تحل. وعليه فهذا الأصل له أهمية كبيرة في فهم الحديث. فهناك رواية مشهورة «الأئمة من قريش⁽¹⁾». وأخطأ علمائنا بظاهر ألفاظه أن أئمة المسلمين في السياسة يجب أن يكونوا من قريش فقط. مع أنه إذا سلمنا هذا المبدأ فما هو الفرق بين الإسلام والبرهمية في النظام السياسي على أقل حد؟ والباعث على هذا الخطأ في الفهم أن هذا الكلام الذي قد روي في خلفية وفاة النبي ﷺ والحالة السياسية ما بعده فوراً، وقد تم حمله على أنه حكم ديني مستقل. وفي ذخيرة الحديث هناك روايات كثيرة مثل ذلك وردت في مواضيع هامة. وفي فهم مرادها لا بد من رعاية هذا المبدأ.

النظر في أحاديث الباب

الرابع أنه يجب وضع روايات الباب جميعها امام النظر في وقت تعين مدلول الحديث ومراده. فربما يفهم إنسان مفهوماً خاصاً من الحديث ولكن إذا درست روايات ذلك الباب كلها يبرز ذلك المفهوم في صورة أخرى تماماً. ومثل ذلك روايات واردة في ما يتعلق بالتصوير. فيبدو لمن قرأ بعضها أن التصاوير كلها محرمة وممنوعة. ولكن إذا جمعت تلك الروايات كلها اتضح لك أن الحرمة إنما جاءت فقط في صور اتخذت للعبادة، ويمكن لنا تقديم عشرات أمثلة من هذا النوع من ذخيرة الحديث، ولذا أصبح من اللازم أنه في حالة تردد في دلالة وفهم حديث ما أن لا يُبنى رأي قاطع فيه دون جمع أحاديث الباب تامة.

(1) رواه أحمد رقم ١١٨٩٨.

العقل والنقل

الخامس أنه يجب أن يراعى في فهم الحديث أنه لا تعارض بين العقل السليم والنقل الصحيح. وقد أوضحنا في المذكورة أعلاه أن الدين متأسس على مسلمات العقل والنقل، ولذا فإذا بدا لنا شيء يعارضها ويخالفها يجب أن يُنظر فيه مرارًا وتكرارًا. فليست هذه طريقة علمية أن يتعجل المرء في الحالة كهذه إلى رد الحديث فورًا ويتفرغ منه أو أن يقبل له معنى مرجوحًا أو خطأ، مغمضًا عينيه عن العقل وتشهد التجربة أنه إذا صح النظر في دراسة أي حديث لم يبق هناك اختلاف في الأكثر وتوضح الأمر من كل ناحية. والظاهر أن ذلك إنما يحصل عندما يعتقد المرء وبثقة كاملة أنه لا يمكن هناك أي تعارض بين العقل والنقل ولا منافاة.

ومن لا حظ هذا المبدأ من محققي السلف والخلف يمكن أن ترى ثمرات ونتائج ذلك في تحقیقاتهم في أمكنة كثيرة. ولذا فلا ينبغي أن يغض النظر عن ذلك في فهم الحديث في أي حال.

اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه.

المقدمة - (٢)

الدين الحق

إذا أردنا بيان حقيقة الدين في لفظة واحدة فهو عبادة الله تعالى في مصطلح القرآن فما يشاء خالق العالم أصلاً من عباده هو عبادته فقال تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١) وقد أبان القرآن في أكثر من مقام أن الله تعالى قد أرسل رُسله إلى الناس لإعلامهم بهذه الحقيقة فقد قال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(٢).

فما هو معنى العبادة هذه؟ يتضح ذلك إذا تدبر من هذه الآية نفسها من سورة النحل فإنها تأمر باجتنب الطاغوت في مقابلة عبادة الله وحده، وقد استعمل «الطاغوت» و«الشیطان» في القرآن في المعنى المترادف، فالطاغوت هو من يستكبر ويتمرد على الله سبحانه، وضد ذلك هو العبودية والذل كما هو ظاهر. فمعنى العبادة عند أئمة اللغة هو: أصل العبودية الخضوع والتذل. وهذا الشيء إذا حصل مع الشعور الصحيح لرحمة الله وقدرته وربوبيته وحكمته اختار صورة التذل الشديد أمام الله مع حبه الشديد وخوفه الكبير. وجاءت ألفاظ كثيرة من القرآن للتعبير عن هذا الكيفية الداخلية التي تتولد في داخل الإنسان وتحيط بوجوده كلمه من أمثال: الخشوع والخضوع والإنابة والخشية والتضرع والقنوت

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٢) سورة النحل، الآية: ٣٦.

وغيرها. كما أن التعبيرات الذكر والشكر والتقوي والإخلاص والتوكل والتسليم والتفويض والرضا كلها مظاهر باطنية للعلاقة بين العبد ومعبوده.

ومعنى ذلك أن العبد في هذه العلاقة مع الله تعالى يطمئن قلب بذكره ويشهد في نفسه أن مشاعر الشكر والامتنان له تتصاعد كالسيل الطامي، ويخاف من سخطه ويكون له كله ويعيش توكلاً عليه، ويسلم إليه كل أموره وكل وجوده، ويرتضى بقضائه فيه. وجاء القرآن بتصوير هذه المظاهر لظهور علاقة العبد لله سبحانه بقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ * نَتَجَاوَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾⁽¹⁾.

فهذا الركوع والسجود والتسبيح والتحميد والدعاء والمناجاة والتضحية في سبيل الله رضا للرب تعالى هذا هو أصل العبادة. ولكن بما أن الإنسان له وجود فعلي تطبيقي أيضاً في هذا العالم وانطلاقاً منه. فإن هذه العبادة تتعلق بالوجود العملي له وهكذا تشتمل مع مظهر العبودية مظاهر الطاعة له. فحينئذ تتطلب من الإنسان أنه يجب أن يخضع ظاهره كما قد خضع له باطنه، ويجري ذلك على ظاهر الإنسان كما قد جرى في باطنه حتى لا يستثنى منه جانب من جوانب حياة الإنسان، وفي تعبير آخر يكون العبد لله في كل معنى الكلمة كما قال تعالى:

﴿يَتَّيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾⁽²⁾.

وهذه العبادة إذا تقوم بتعيين الأساسات ما بعد الطبيعية والأخلاقية وتعيين المراسم وتقرر الحدود والقيود لإحسان العلاقة بين العبد وربّه، ولتكميل مقتضيات هذه العلاقة في الدنيا فيعبر ذلك بتعبير القرآن بالدين. وصورة هذا

(1) سورة السجدة، الآيتان: ١٥ و١٦.

(2) سورة الحج، الآية: ٧٧.

الدين التي قد أوضحها الله بطريق أنبيائه يسميها القرآن «الدين» ويهدي العباد أن يقيموه وأن لا يتفرقوا فيه كما جاء في سورة الشورى:

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾^(١).

والأساسات ما بعد الطبيعية والأخلاقية التي جاءت لدين الله هذا، لهذه «العبادة» يعبرها القرآن بـ «الحكمة» ومراسمها وحدودها وقيودها بـ «الكتاب» أي القانون والتشريع كما جاء: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾^(٢). ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٣). ويعبر هذا الكتاب «بالشريعة»: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٤).

ولا زالت الحكمة واحدة ولكن الشريعة ما زالت تتغير بتغير التمدن الإنساني والرقى فيه. كما قال: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾^(٥).

ويُعلم من دراسة الكتب الإلهامية أن التوراة تذكر الشريعة في الأكثر والإنجيل تذكر الحكمة. والزبور هو مزبور لتمجيد الرب تعالى في تمهيد تلك الحكمة، والقرآن نزل ببيان رائع أدبي جامع لكليهما، وكصحيفة الإنذار والبشارة، كما جاء ذلك بصورة واضحة في الآيات من البقرة والنساء التي مرت آنفًا، أما التوراة والإنجيل فقد قال الله تعالى فيهما في موضع متحدثًا عن

(١) سورة الشورى، الآية: ١٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ١١٣.

(٣) سورة النساء، الآية: ١١٣.

(٤) سورة الجاثية، الآية: ١٦.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

كلامه لسيدنا المسيح ﷺ القيامة: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ
وَالْإِنْجِيلَ﴾^(١). والحكمة أساسياً تبحث عن مباحث تالية:

أولاً: الإيمانيات

وثانياً: الأخلاقيات

والمباحث التي جاءت تحت عنوان الكتاب هي كالتالي:

- ١ - قانون العبادات ٢ - قانون الاجتماع والعشرة ٣ - قانون السياسة.
- ٤ - قانون المعيشة. ٥ - قانون الدعوة. ٦ - قانون الجهاد. ٧ - الحدود والتعذيرات.
- ٨ - أحكام الأكل والشرب. ٩ - التقاليد والآداب. ١٠ - أحكام القسم وكفارته.

فهذا هو الدين في مجموعته. ورسَل الله الذين جاؤوا بهذا الدين هم أنبياء
الله ويفيد القرآن أن بعضهم فازوا بمرتبة الرسالة أيضاً مع منصب «النبوة».

والنبوة عبارة عن وصول شخص منتخب من بني آدم للوحي من السماء.
ولبشارة الناس بالعاقبة الحسنى للذين يؤمنون به وتحذيره الناس وإنذارهم
بالعاقبة السيئة لمن يكفرون به. ويعبر القرآن ذلك بالإنذار والتبشير. كما قال:
﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾^(٢).

والرسالة أن يأتي نبي إلى قومه كمحكمة إلهية أن إذا كذبه قومه نفذ عليه
قضاء الله المبرم في هذه الدنيا، وتقوم غلبة الحق على قومه كما قال تعالى:
﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٣).
وقال في موضع آخر:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ * كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَكَ
أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٤).

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

(٣) سورة يونس، الآية: ٤٧.

(٤) سورة المجادلة، الآيتان: ٢٠ و ٢١.

فهذا هو قانون الرسالة الذي قال عنه القرآن بالإشارة إلى النبي ﷺ خاصةً فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (١).

وتكون صورته أن ينتخب الله رُسله لإظهار دينوته وتقوم القيامة الصغرى قبل القيامة الكبرى على الأرض. وبنه مخاطبهم أنهم إذا قاموا بميثاقهم مع الله سبحانه يُجزون عليه جزاءً خيراً وإن انحرفوا منه عوقبوا عليه في هذه الحياة الدنيا. وكنتيجة لذلك القضاء الإلهي يكون وجود رُسُل الله آيةً إلهيةً حيةً في الناس فالناس كأنهم يرون الله تعالى معهم، يمشي معهم ويقوم بالحكم. ويؤمر رُسُل الله أنهم بما رأوا من آيات الله برأس أعينهم فعليهم أن يبلغوا على أساسها رسالات الله إلى قومهم تامةً قاطعةً. فهذه هي «الشهادة» في تعبير القرآن. إذا قامت تكون سبباً لقضاء الله في الدنيا والآخرة. فيغلب الله رُسله هؤلاء على قومهم وينزل عذابه على منكري دعوتهم، وانطلاقاً من ذلك فقد قال القرآن عن النبي ﷺ إنه شاهد وشهيد: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ (٢).

ومنصب الشهادة هذا قد تم إعطاؤه لذرية سيدنا إبراهيم ﷺ أيضاً علاوةً على الرُّسل. ومن هنا سماهم القرآن ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ (٣) بين رسل الله وعباده، وتحدث عنهم أنهم قد انتخبوا لهذا المنصب الجليل كما قد تم انتخاب بعض الشخصيات الجليلة من بني آدم للنبوة والرسالة فقال:

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (٤).

وقد أنزل الله تعالى كتبه مع أنبيائه ورسله عامةً. وبين القرآن أن إنزال

(١) سورة الصف، الآية: ٩.

(٢) سورة المزمل، الآية: ١٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٤) سورة الحج، الآية: ٧٨.

الكتب يهدف إلى أن تكون ميزاناً للحق والباطل حتى يحكم الناس في خلافاتهم بهذه الكتب ويكونون قائمين بالقسط فقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ (١). وقال:

﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (٢).

وابتدأت سلسلة النبوة هذه من آدم عليه السلام واختتمت على النبي ﷺ، فبرحيله من الدنيا قد انسد باب الوحي والإلهام إلى الأبد واختتمت النبوة عليه كما جاء في سورة الأحزاب: (٤٠)

فالعلماء بعد النبي ﷺ هم المسؤولون إلى يوم القيامة بإقامة الناس على الدين، ويقومون بفريضة «الإنذار» كما جاء في سورة التوبة: ﴿وَمَا كَانُ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (٣).

وقد فرض الله تعالى أن هذا الإنذار يكون بوسيلة القرآن فقال: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (٤) وقال: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (٥) وبناءً عليه فإن رسول الله ﷺ هو الآن نذير للعالمين جميعاً والعلماء بدورهم ليسوا إلا نائبين له، في عملية الإنذار قال تعالى: ﴿وَأَوْحَى إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ (٦) وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (٧) فهذا الدين هو الإسلام والذي قد قال الله عنه في كتابه إنه لا يقبل من بني آدم ديناً غيره

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٥.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.

(٤) سورة ق، الآية: ٤٥.

(٥) سورة الفرقان، الآية: ٥٢.

(٦) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

(٧) سورة الفرقان، الآية: ٧.

قال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ * * وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿١﴾.

ولفظ الإسلام كما هو مستعمل لدين الله كاملاً يستعمل كذلك لظواهر الدين. وهو بظاهره هذا عبارة عن أشياء خمسة آتية:

١ - شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.

٢ - أن تقام الصلاة

٣ - وتؤتي الزكاة

٤ - وأن يُصام صوم رمضان

٥ - وأن يُحج بيت الله الحرام

والقرآن يؤكد لها في أكثر من مقام كما ذكرت كلها مجموعة في حديث لرسول الله ﷺ بلفظ آت:

الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت^(٢).

وباطن الدين «الإيمان» وهو بدوره أيضاً عبارة عن أشياء خمسة فصلها القرآن وهي:

١ - الإيمان بالله

٢ - الإيمان بالملائكة

٣ - الإيمان بالأنبياء

٤ - الإيمان بالكتب

٥ - الإيمان بيوم الجزاء

فجاء في سورة البقرة: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾^(٣).

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٩ و ٨٥.

(٢) رواه مسلم رقم ٩٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

وقد أشمل فيها النبي ﷺ الإيمان بالقدر، خيره وشره، وهو أصلاً فرع للإيمان بالله، ثم بين الإيمانيات كالتالي: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره^(١). وهذا الإيمان إذا ثبت في القلب حقيقة والقلب يصدقه فوجوده يقتضي شيئين:

الأول العمل الصالح

والثاني التواصي بالحق والتواصي بالصبر كما قال: ﴿وَالْعَصْرُ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾^(٢).

والعمل الصالح كل عمل يتولد كنتيجة لتزكية الأخلاق. وأسسها كلها ثابتة بالعقل والفطرة، وقد نزلت شريعة الله لتهدي الإنسان للعمل الصالح هذا. أما التواصي بالحق والتواصي بالصبر فأريد به أن يأمر الإنسان بعضه بعضاً بالثبات على الحق والتناصح له. وهذا مما يقتضيه التسليم للحق اقتضاءً بديهاً وقد عبر القرآن بمصطلح «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» أيضاً. أي تلقين الناس في البيئة القريبة بمعروفات يدل عليها العقل والفطرة ونهي الناس عن منكرات عقلية وفطرية. فقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٣).

﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٤).

إلا أن يؤدي ذلك إلى إتلاف حق أو اعتداء على النفس والشرف والمال. وواضح من كلمات الآية أن المسلمين مخاطبون به ليس بصفاتهم الفردية، بل

(١) رواه مسلم رقم: ٩٣.

(٢) سورة العصر، الآيات: ١ - ٣.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٧١.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

بصفتهم الجماعية، فيتعلق هذا الأمر بأصحاب السلطة. قال الله تعالى إنه عندما حصل المسلمون على الاستقلال السياسي في هذه الأرض، فمن مسؤوليتهم الآن تعيين بعض الناس من بينهم لهذه المهمة لدعوة الناس إلى الخير، ومنعهم من الشر، والحث على الخير.

ومن الواضح أن هذه المسؤولية ستتحقق في بعض الأحيان بالوعظ والإرشاد، وفي بعض الأحيان بقوة القانون. ففي الحالة الأولى هناك منبر جمعة، وهو مخصص للقيام بهذا الغرض الدعوي والنصح والترشيد. ومن ناحية أخرى، هناك قسم للشرطة تم إنشاؤه للقيام بهذه المسؤولية في الحكومة الإسلامية، وهو ينشط دائماً في القيام بهذا العمل ضمن الحدود المقررة له. أما الأحكام التي تتحقق فيها هذه المسؤولية بالقوة فهي الأحكام التي أعطيت لاجتماع مسلم لآحاد المسلمين. والأحكام التي تخاطب الأفراد المسلمين لها علاقة فيما بين العبد وربه، وليسوا فيها مسؤولين أمام الحكومة والقانون، بل مسؤولون أمام ربهم. فلا سلطة فيها لحكومة إلا للإصلاح بوسائل التربية والتعليم وكل مسلم مسؤول عن الإتيان بهذا الاقتضاء بباعث النصح والخير. فإنه لا تتم هذه المسؤولية بدون هذا الشعور وبغير روح صحيح للدين. فقد قال النبي ﷺ:

الدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم⁽¹⁾.

فهذه هي مطالبات الإيمان من المسلمين في الحالات العامة. ولكن ربما تطرأ على الإنسان حالات خاصة نظراً إلى الأوضاع الخارجية في هذا العالم. فبرعايتها تتولد مطالبات ثلاثة أخرى غيرها للإيمان وهي كما يأتي:

الأول الهجرة

والثاني النصرة

والثالث القيام بالقسط

فإن كان المؤمن يواجه صعوبات خطيرة في القيام بعبادة الرب تعالى.

(1) رواه مسلم رقم: ١٩٦.

إنه يُعذب لأجل دينه ولا يمكن له حتى إظهار إسلامه فحينئذ يقتضي منه إيمانه أن يهاجر من مكانه إلى مقام آخر، يمكن له فيه أن يعمل بدينه علانيةً. ويسميه القرآن الهجرة. وحينما دعي الناس إلى الهجرة مباشرةً من الله ورسوله في الزمان الرسالي فوعد القرآن بجهنم الذين يُعرضون عن الهجرة: كما جاء في سورة النساء:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمُلَاحِظِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(١).

وبهذه الطريقة إذا كان الدين يحتاج إلى إقدام لنشر دعوته أو حفظ كيانه فيطلب الإيمان أن يُنصر الدين بالمال والنفس. ويعبر القرآن هذه العملية بنصرة الدين. فلما احتاج الرسول ﷺ إلى نصرة الدين بعد أن قامت سلطته في المدينة المنورة وطلب من الناس أن يقوموا بالجهاد والقتال، فدعا هم القرآن إلى ذلك على موقعة بأسلوب آتي وقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَى تَحَرُّقٍ نُنَجِّكُمْ مِنْ عَذَابِ آلِيمٍ * تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى يُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَيُشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾^(٢).

ومهما حصلت من جهود تجديدية وحركات إصلاحية لحفظ الدين وبقائه في السلف والخلف، قامت كل ذلك وفاءً بهذا المقتضى الديني. فهذه النصرة هي المأخذ لكل الجهود الإصلاحية لساناً وقلماً، سيفاً وسناناً ودرهماً وديناراً في تاريخ الأمة كلها. ويطلب القرآن إنه إذا حان وبدا هذا المقتضى للإيمان فلا

(١) سورة النساء، الآية: ٩٧.

(٢) سورة الصف، الآيات: ١٠ - ١٤.

يعز على عبد مؤمن أي شيء دنيوي مقابلًا له. ولذا قال القرآن عندما بدت هذه المرحلة في الدعوة المحمدية فقال:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِمَّنْ أَلَّفَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾⁽¹⁾.

ثم إذا جاءت العواطف البشرية والتعصبات والمصالح والأهواء تحرفه من جادة العدل والإنصاف في أية معاملة للدنيا والآخرة، فهذا الإيمان نفسه يتقاضاه أن العبد المؤمن وليس فقط ما يزال يقوم على الحق والعدل، بل إذا طلبا منه الشهادة أنجز طلبهما بتضحية النفس والنفس في سبيل ذلك. يقول بالحق ما دام حيًا ويسلم للحق وينصف، ويشهد له ولا يختار أي شيء سوى الحق والإنصاف عقيدة وعملاً. وهذا هو القيام بالقسط في مصطلح القرآن قال تعالى في ذلك:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾⁽²⁾. وقال في موضع آخر:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾⁽³⁾.

إن المقصد الذي يهدفه هذا الدين هو «التركية» في مصطلح القرآن. والتركية يعني تربية فكر الإنسان وإنماء عمله وإنماء صحيحًا بطريق تركية حياته

(1) سورة التوبة، الآية: ٢٤.

(2) سورة النساء، الآية: ١٣٥.

(3) سورة المائدة، الآية: ٨.

الفردية والاجتماعية. والقرآن يؤكد في أكثر من موضع أن الجنة المعلاة والمُلك الخالد الذي وصفه القرآن بحالة ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ هما نصب عينه. ويضمن القرآن للوصول إلى ذلك الفوز العظيم لمن يزكى نفسه في هذه الحياة الدنيا فقال:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾^(١).

وعليه فالتزكية هي الغاية التي يرمي إليها الإنسان والمقصد الذي تم لحصوله بعث الأنبياء والرسول، وقد نزل الدين كله لكي يرشد الإنسان لبلوغ ذلك المقصود ولوصول تلك الغاية كما قال تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^(٢).

والطريقة التي يجب على متبعي هذا الدين للعمل به هي طريقة الإحسان. والإحسان أن تأتي بعمل على أحسن وجه. فإذا حصل عمل ما مقرون فيه الإحسان روحًا وقالبًا باتزان كامل. وبرعاية كل أجزائه رعاية تامةً ويعتبر الإنسان أثناء ذاك العمل كأنه في الحضرة الإلهية فهناك يتم الإحسان. كما قال تعالى:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾^(٣).

وقد أوضح الإحسان النبي ﷺ في أسلوبه البليغ كما يلي:

الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك^(٤).

(١) سورة الأعلى، الآيات: ١٤ — ١٦.

(٢) سورة الجمعة، الآية: ٢.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٢٥.

(٤) رواه مسلم رقم الحديث: ٢٣.

الجزء الأول : الحكمة

الباب الأول:

الإيمانيات

الإيمان مصطلح قديم ومادة «آمن» متواجدة في اللغة العبرانية أيضًا ويستعمل في معنى الصدق والاعتماد، واشتق منه كلمة «آمين» التي تصدق بها كلامًا. فجاء هذا التعبير لإعطاء هذا المفهوم في القرآن. ومن هنا إذا تسلم بشيء بإيقان قلبي كامل يقال له الإيمان. وأصله الإيمان بالله فإذا أسلم العبد لله بأن يسلم له عقله وقلبه حتى آخر درجة من التسليم والرضا فهو مؤمن بالمصطلح القرآني. فقد قال الإمام حميد الدين الفراهي في تفسيره:

«إن اليقين المقرون بكافة لوازم وشرائط الخشية والتوكل والاعتقاد هو الإيمان. والذي يؤمن بالله وبآياته وأحكامه ويسلم كله له ويرتضي بما يقضي له فهو مؤمن⁽¹⁾».

فهذه هذه حقيقة الإيمان التي على بنائها يقتضي القرآن أن يصدق عليه قول الإنسان وفعله مع تصديق القلب لها. ومن هنا يقرر كل حسنة خاصة للإيمان وصفة لازمة للمؤمنين تشير إلى ذلك الروايات التي تقول مثلاً: المسلم من سلم

(1) نظام القرآن: ٣٩٣.

المسلمون من لسانه ويده^(١). وأن الإيمان بضع وسبعون فرعاً ومنها الحياة^(٢):
وأن من آمن بالله واليوم الآخر فليصل جاره وليكرم ضيفه وليقل خيراً أو
ليصمت^(٣). وواضح من ذلك أن القرآن يذكر العمل الصالح بعد الإيمان كتفسير
له كما هو نوعية عطف الخاص على العام عموماً. ويقول الإمام الفراهي في
ذلك:

«إن محل الإيمان هو العقل والقلب، وفي الأمور العقلية والقلبية ربما
وليس يخدع الإنسان غيره فقط بل ينخدع بنفسه أيضاً. فتعتقد نفسه مؤمناً وهو
غير مؤمن، ولذا جعل للإيمان شاهدان القول والعمل. وبما أن القول قد يكون
كذباً فلم يعتبر المقر باللسان فقط مؤمناً بل لزم أن يصدق عمل الإنسان قوله
بالإيمان»^(٤).

وقال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ
زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ
* أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾^(٥).
وقال أيضاً:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾^(٦).

ولا شك أن كل شخص يقر بالإسلام بلسانه يُعتبر مؤمناً في نظر القانون.
ولا يزداد إيمانه هذا ولا ينتقص. وأما ما يتعلق بالإيمان الحقيقي فليس شيئاً

(١) رواه البخاري رقم: ١ ومسلم رقم ١٦٢.

(٢) رواه البخاري رقم ٩ ومسلم رقم ١٥٣.

(٣) رواه البخاري رقم ٦٠١٩ ومسلم رقم ١٧٦.

(٤) نظام القرآن: ٣٩٦.

(٥) سورة الأنفال، الآيات: ٢ - ٤.

(٦) سورة الحجرات، الآية: ١٥.

جامداً. فالآيات التي نقلناها في المذكور أعلاه من سورة الأنفال تفيد أن الإيمان يزداد من ذكر الله وتلاوة آياته ومن ظهورها في الآفاق والأنفس. قد شبهه القرآن بشجرة أصولها ثابتة في أعماق الأرض وفروعها منتشرة في آفاق السماء فقال:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾⁽¹⁾.

وقد فسر الأستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاحي هذه الآية الكريمة بما يأتي:

«الظاهر أن الكلمة الواردة في الآيات يراد بها كلمة الإيمان. وقد شبهها الله تعالى بمثل شجرة مثمرة أصولها متعمقة في أعماق الأرض، وفروعها ممتدة في الفضاء امتداداً وهي لا تزال تؤتي ثمارها بإذن الله في كل فصل، وقصد من تعمقها في أعماق الأرض رسوخه واستحكامه في الفطرة الإنسانية فإنه ليست كشجرة نبتت على القمامة ليست لها أصل ثابت تجتثها موجة خفيفة من الأحداث كما جاء في كلمة الكفر» ﴿اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾⁽²⁾. بل إنها تحور بأصول عميقة مثل شجرة مظلة وقائمة، إنها لا تززعها الزلازل. ثم قال مشيراً إلى استثمارها وإفادتها أنها ليست شجرة نكدة قاحلة لا تظل ولا تثمر، بل يقف في ظلال فروعها الوارفة القوافل وتكتسب من أثمارها الغذاء والراحة في كل موسم وكل فصل. والظاهر أن ذلك يشير إلى الفيوض والبركات التي تترتب على حياة صاحب إيمان من إيمانه هو، وعلى نفوس الأقربين قرابة بواسطة منه. فهذه الفيوض والبركات تكون لازمة من النوعين علمياً وعملياً وتشهد لإيمانه ويحصل له منها رفعة من الله والقبول⁽³⁾.

(1) سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٤ و ٢٥.

(2) سورة إبراهيم، الآية: ٢٦.

(3) تزكية النفس: ٣٢٥.

وهذا ثابت في نقص الإيمان أيضًا. فإن ذهب الإنسان خلاف المقضيات
الإيمانية ولم يزد إيمانه بطريق العلم النافع والعمل الصالح ففي هذه الصورة فإن
إيمانه لم ينتقص فقط بل ينتهي برأسه في بعض الحالات كما يفيد بذلك الآية:
﴿هُمُ لِلْكَافِرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾^(١) وما شابهها من الآيات وقد صرح
القرآن أنه من يتلبس بالذنوب والآثام تحيط بحياته كلها، ومن يستعصي إلى حد
أن يتعد حدوده على علم منه أو يقتل مسلمًا متعمدًا فإنه لا يُعتبر إيمانه ويدخل
في جهنم خالدًا فيها (البقرة: ٧١ النساء: ١٤، ٩٣) إلى أن يشاء الله ويعفو عنه
وفقًا لحكمته تعالى. ولذا قال في موضع أنه لا يقبل عند الله دعوى للإيمان بعد
الانحراف من إطاعة الرسول كما قال تعالى:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا
فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(٢).

وقد وردت بعض الأحاديث التي توضح هذه الحقيقة إيضاحًا تامًا فقال
رسول الله ﷺ:

«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو
مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن»^(٣). وقال ﷺ:

«لا يكون أحدكم مؤمنًا حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس
أجمعين»^(٤) وقال: «أقسم بالله بيده نفسي لا يكون العبد مؤمنًا حتى أحب لأخيه
ما يحب لنفسه»^(٥) وقال أيضًا: «إذا رأى أحدكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع
فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»^(٦) فتوضح من ذلك أن

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٧.

(٢) سورة النساء، الآية: ٦٥.

(٣) رواه البخاري رقم ٥٥٧٨ ومسلم رقم ٢٠٢.

(٤) رواه البخاري رقم ١٥ ومسلم رقم ١٦٨—١٦٩.

(٥) رواه البخاري رقم ١٣ ومسلم رقم ١٧٠.

(٦) رواه مسلم رقم ١٧٧—١٧٩.

الإيمان والعمل متلازمان، فكما أن العمل لازم للإيمان فكذا الإيمان أيضًا ضروري للعمل. فإن القرآن اشترط ذلك منه كشرط أول للإيمان ووجه ذلك أن الإنسان إذا جحد بربه وبآياته عن علم وشعور منه أو افترى عليه أو أشرك له شريكًا فذلك استكبار والقرآن واضح كل الوضوح أن المستكبرين لا يدخل الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط، كما قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُلَاجِ الْجَمْلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ * لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾^(١).

ولذا قال إن كل عمل محروم من الإيمان ضائع ومثله كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف فلا تبقى ذرة منه أن تقدم يوم القيامة في حضرة الرب تعالى فكل كسبهم ثمة يذهب سدىً ويبقى وباله عليهم. فقال:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾^(٢).

وقد مثل الله تعالى في سورة النور مثل أعمال الذين كفروا كسراب بقية خادعة يحسبه الظمان ماءً حتى إذا جاءه انكشف سره أن الشيء الذي كان يراه ماءً مائجاً إنما هو سراب لمعان. فقال:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّيْتُهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(٣).

فهذا هو الإيمان الذي يطلبه القرآن من متبعيه. وهو عبارة عن خمسة أشياء:

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ٤٠ و ٤١.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١٨.

(٣) سورة النور، الآية: ٣٩.

١ - الإيمان بالله. ٢ - الإيمان بالملائكة. ٣ - الإيمان بالأنبياء. ٤ - الإيمان بالكتب. ٥ - الإيمان بالآخرة. فقد قال عز وجل:

﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾^(١).

الإيمان بالله

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ جَزَّوَأُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ جَزَّوَأُ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢).

والله اسم لمن هو خالق الأرض والسماء وخالق كل شيء. والألف واللام فيه للتعريف، وهو اسم ما زال مختصاً للخالق سبحانه، وقد كان يُستخدم في العرب في زمن الجاهلية في هذا المفهوم نفسه، قبل مبعث النبي ﷺ وهو من بقية الدين الإبراهيمي الذي ورثه العرب. ومن ثم قال تعالى:

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِقَوْلِنَا اللَّهُ فَانْفُكُوا * اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِقَوْلِنَا اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٣).

والقرآن يقول إن إقرار ربوبية الله تعالى وديع في فطرة الإنسان منذ الأزل،

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٢) سورة الحشر، الآيات: ٢٢ - ٢٤.

(٣) سورة العنكبوت، الآيات: ٦١ - ٦٣.

كما يبين أن ذلك الإقرار ويقول القرآن إن أول ظهوره كان قد تم في شكل عهد وميثاق. ذكره القرآن كأمر واقع، ولكن بما أن الإنسان قد بعث في هذا العالم لغرض الامتحان، ولذا قد تم محو ذاك الواقع من ذاكرته، ولكن قد بقيت حقيقة ثابتة في صفحة قلبه ومنقوش في داخل دماغه أن لا يمحوه شيء. ولذا إذا لم يكن هناك مانع في الخارج وذكره الإنسان تذكيراً اندفع إليه من فوره كما يندفع الطفل إلى أمه. وهو لم يشهد نفسه يخرج من بطن أمه. ويندفع ييقين كأنه كان يعرفها من قبل. فالإنسان يشعر أن إقرار الإله استجابة لحاجة فطرية يتواجد اقتضاؤه فيه، فإذا وجد ذاك الاقتضاء نالت مع ذلك كل اقتضاءات النفس مكانها. ويقول القرآن إن شهادة باطن الإنسان هذه قطعية إلى حد، أن كل إنسان يكون مسؤولاً عند الله تعالى بمجرد هذه الشهادة كما قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾⁽¹⁾.

ومع هذا الإرشاد الباطني البشري فإن الإنسان قد أعطي أيضاً صلاحية استنباط الحقائق التي هي ما وراء حواسه إضافة إلى مؤهلات السمع والبصر والإحساس بحواسها الظاهرة. ومثالها العام هو قانون التجاذب (Law of Gravitation).

التفاحة حينما تنقطع من الشجرة تقع على الأرض. وإذا أردت التقاط حجرة من الأرض تفرغ لذلك الطاقة. والصعود يكون دائماً صعباً بإزاء الهبوط إلى الأرض. والأقمار والنجوم تسبح في الأفلاك. لا يزال الإنسان يشهد كل ذلك لقرون حتى اكتشف العالم نيوتن ذات يوم أن ذلك كله من جراء قانون التجاذب. وهذا القانون غير مشاهد بذاته. ولكن العالم المعاصر يسلمه كقانون علمي مسلّم

(1) سورة الأعراف، الآيات: ١٧٢ — ١٧٤.

به، ووجه ذلك لأن هذا القانون يتوافق مع كل الحقائق المعلومة، ويوجه كافة مشاهدات الإنسان توجيهًا موفقًا. ولم يأت بعد نظرية أخرى مثلها تتطابق مع الواقع لهذه الدرجة.

وظاهر أن هذا استنباط غير المحسوس من المحسوس. فإذا درس الإنسان الكون الممتد في ما حوله بإعمال صلاحيته هذه، فمطالعتة تلك أيضًا تشهد لهذه الحقيقة المكنونة في باطنه. فيرى أن كل شيء لهذه الدنيا هو إظهار بارع ومؤثر عظيم على الخلق المبدع، وفي كل شيء له آية، ومعنوية عميقة، واهتمام كبير، وحكمة بالغة، ومنفعة كبيرة، ونظم عجيب، وترتيب تام، ورياضة لا نظير لها. لا توجيه لكل ذلك إلا أن هناك خالقًا كبيرًا وذاك الخالق ليس طاقة أصم وأبكم بل إنه ذهن كبير لا نهاية له ولا حد. فإن الطاقة إذ لم تصدر ولم تنفجر إلا من ذات عليم وحكيم وجب أن تكون جبرًا محضًا. إلا أن الحقيقة أنه ليس كذلك، بل هناك توافق حكيم وانسجام عظيم في الخلق والإبداع، تحصل منه فوائد عجيبة كبيرة وتحدث تغيرات محيرة. لا تحصل من طاقة أبكم وأصم. فالحقيقة التي لا تجحد أن لا يطمئن العقل البشري إلا بالإيمان بها. ولذا قال إن الإيمان بالله هو نور السماوات والأرض. ويكون من ذلك الصدر البشري مطلعًا للأنوار. وإن لم يكن هذا فيسظلم العالم وتسود الدنيا. فقال:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَضَرِبَ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (1).

وهذه الشواهد وإن كانت كافية ولكن الله تعالى لم يكتف بها بل قام باهتمام مزيد عليها كي يتم الحجة، فقد بدأ بخلق البشرية بإيجاد وتكوين إنسان، سمع كلامه ورأى ملائكته وشهد الحقيقة الكبرى مباشرة وارتحل من الدنيا

(1) سورة النور، الآية: ٣٥.

شاهدًا عليها. حتى ينتقل علمه هذا إلى أجياله القادمة جيلاً بعد جيل يتوارثه ذريته، ولا يكون التصور الإلهي تصوراً غريباً أجنبياً لأي عهد، لأي منطقة أرضية ولأي إقليم، لأي قرية ولأي صلب ولأي جيل أبداً. وأفاد القرآن أن بعض المخلوقات الأرضية المتفوقة عليه قد أمرت بعد ولادة آدم وحواء أن تسجد لهما.

وكان الهدف من ذلك إخبارهم بأن النجاح الحقيقي ليس في التولد من النور أو النار، بل هو في طاعة الله سبحانه والتسليم له. وقد ذكر القرآن أن تلك المخلوقات كلها قد سجدت لآدم انقياداً لأمره تعالى ولكن إبليس أبى واستكبر وجحد من السجود. ثم قيل لآدم وحواء أن اسكنا في جنة جهزت لهما فيها كافة التسهيلات والضروريات، إلا أن شجرة منعت لهما، وكانت شجرة التناسل، ثمرتها وسيلة للبقاء في هذه الحياة الدنيا. فقد حرمها الله عليهما مع الانتباه أن إبليس هو عدو لهما مبين وأنه سوف يحاول لإغوائهما وتحريضهما على المعصية والعدوان. فكان كذلك، وجاءهما إبليس في لباس ناصح شفيق وقال لهما إن الحياة الخالدة والمُلك الأبدي كامن في هذه الشجرة التي محرمة عليكما. ومن جراء هذا الترغيب والتحريض فإنهما قد رغبا إلى الإذعان له، وأكلا تلك الشجرة مغلوبين بالهيجان الشديد الذي يطرأ على الإنسان طمعاً في تلك الشجرة. فوضح من ذلك أن الامتحان الأكبر والابتلاء الأشد الذي يواجهه الإنسان في حياته، يتأتى من طريق الأنانية والجبلة الجنسية. ولذا أمرهما الله أن أخرجاً من هذه الجنة واهبطا إلى الأرض. فندم آدم وحواء على ذلك وتوجها إلى الله سبحانه ووفق لهما التوبة وألقى إليهما كلمات مناسبة للتوبة وتاب الله عليهما. وقال تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * وَقُلْنَا يَتَّخِذْ أَسْكُنَ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ

وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ * فَلَنَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ
كَلِمَتٍ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾.

ثم لم يكتف بذلك بل كان هناك اهتمام إلى برهة طويلة أن بني آدم إذا شأوا معرفة قبول إيمانهم وعملهم أو عدم قبولهما علموا ذلك، كأنه كان إيصال الحقيقة إلى درجة التجربة والمشاهدة لكل شخص في ذلك الزمان، كي يشمل هو أيضًا في شهود الأبوين. وتكون صورته أن الناس قربوا قرباناً في حضرة الله تعالى، ونزلت نار من السماء وتآكل القربان إعلالاً لقبول ذلك كما تذكر الآية رقم ١٨٣ من سورة آل عمران، وكان قتل ابن آدم هابيل كنتيجة لواقع من هذا النوع. فذكرت الأناجيل أن هابيل كان راعياً للغنم وقايل كان فلاحاً. فذات يوم جاء قايل بثمره من حقله كقربان عند الله، وجاء هابيل بقربان مشتمل على الخروف المولود الأول وبعض من شحمه، فتقبل القربان من هابيل ولم يتقبل من قايل، فغضب عليه غضباً شديداً فقتله. وجاء ذلك في القرآن كما يلي:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِإِذَىٰ إِلَيْكَ لِأَفْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْشُرَ بِإِئْتِيَّ وَإِنَّمَا تَقُوتُ مِنَ الْأَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢﴾﴾.

فاتضح من ذلك أن وجود الذات الإلهي هو حقيقة بديهية، ورث تصورها الإنسان من آبائه، والتي تشهد لها النفس والمادة كلاهما من وجودهما. ولكن ما هو الذات الإلهي؟ وما هي صفاتها؟ وما هي السنن التي عينها لذاته؟ فهذه التساؤلات تثور في ذهن الإنسان بالزوم إذا شاء معرفة ربه. وهذه المعرفة لا بد

(١) سورة البقرة، الآيات: ٣٤ — ٣٧.

(٢) سورة المائدة، الآيات: ٢٧ — ٣٠.

منها للإيمان. والقرآن إذ طلب الإيمان بالله فقد أجاب على تلك التساؤلات. فما هي إجابة القرآن؟ نذكرها فيما يلي:

الذات

فقد صرح القرآن صراحة تامة في ذات الله سبحانه تعالى أنه لا يدركه الإنسان، إذ إن وسائل الإدراك وذرايعه يحيط بها الذات الخالق ويدركها، ولكن هذه الآلات والوسائل لا تحيط بها ولا تدركها أيما إدراك. ثم ليتوضح أن إدراكنا هو انفعال محض. فمثلاً البصارة من أهم الحواس التي أعطاها الله الإنسان ومنح لذلك العينان. ولكن العينان أيضاً تقصران من رؤية شيء إذا لم ينعكس النور منه. ولذا قال تعالى:

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(١).

وقد تحدث القرآن قصة موسى إذ التمس من ربه: رب أرني أنظر إليك، كي لا يتعد الإنسان حدوده ويستحضر دائماً أنه إذا لم يمكن إدراك الذات الإلهي ورؤيته لموسى كليم الله، فأثنى هذا للآخرين فقال:

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرْنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرْنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

وقال الأستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاحي في تفسير الآية ما نصه:

«هذه المشاهدة قد تمت لطمأنينة موسى عليه السلام كي يعلم أن لا تستطيع الجبال الرواسي تحمل التجلي الإلهي مع جمودها وصلابتها، فكيف بك كإنسان ضعيف البنيان، الإنسان يحرز قوة التحمل المحدودة، أبصارها تستطيع رؤية

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٤٣.

النور ولكن إذا تعد النور حدًا خاصًا وتجاوزه تشوهت العيون، بل ربما سلبت منها البصر. وأذان تسمع الأصوات ولكن تتحمل فقط سماع الأصوات إلى حد مقرر، فإن تجاوزت رعدة البرق تجاوزًا فسدت وتمزقت طبلة الأذان، والإنسان في حاجة ماسة إلى حرارة الشمس لبقاء حياته، ولكن نورها وحرارتها تكون له مقوية ما دامت تتوصل إلى الإنسان عبر مسافات طويلة وعبر العديد من الستائر الهوائية، وما دامت توصل نورها إلى الإنسان إمرارًا لها أولاً بكثير من المناخل، ثم من خلالها تتوصل إليه. فإن قربت الشمس منه ذات يوم، وألقت نظرتها إليه لأحرقت الحيوانات كلها وصارت رمادًا. فإذا كانت الطاقة البشرية ضعيفة مثل هذا الضعف بإزاء مخلوقات هذا الكون، فكيف تتحمل تجلي الذات البحت، التي هي نور مطلق، وما وراء كل الكيف والكم، سبحانه وتعالى⁽¹⁾.

ولا شبهة أن أهل الإيمان يرون ربهم كما تفيد بذلك الآية: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾⁽²⁾.

وذلك لمنكري الحق فعلم منه أن أهل الإيمان لا يكونون محرومين منه، ورفعت لهم كافة الستائر والحجابات. ولكن للرؤية أيضًا درجات. فهذه الرؤية لا تكون إدراكه بالأبصار والأغلب أن تكون صورته أن ترفع الحجابات ويرى الناس ربهم كما يرون الشمس والقمر ويرون النجوم والكواكب. ورؤيتهم لها لا تزيد على أن يروا نورًا يبلغهم منعكسًا من هذه الأجرام الفلكية. وعلى سؤال الناس له قد أخبرهم النبي ﷺ بمثل كهذا⁽³⁾، وقال: ترون ربكم لا يحول بينه وبينكم إلا رداء الكبرياء⁽⁴⁾. ولم يبق بعد ذلك إلا طريق التشبيه والتمثيل وقد اختاره القرآن في بيان الجنة والنار. والنفس الإنسانية تختار هذا الطريق في بيان مشاهداتها الروحية في عالم اليقظة وفي الرؤيا أيضًا. ولكن لا إمكان له هناك في

(1) تدبر القرآن: ٣/ ٣٦٠.

(2) سورة المطففين، الآية: ١٥.

(3) البخاري رقم: ٤٥٨١ ومسلم رقم: ٤٥١.

(4) رواه البخاري رقم ٤٨٧٨ ومسلم رقم ٤٤٨.

ما يتعلق بالله تعالى. فإن الإنسان إنما يقيم تصور الأشياء بتواجد شيء مماثل لها في داخله أو في خارجه، وليس عنده شيء مماثل له فيما يتعلق بذات الباري تعالى. فبابه أيضًا مغلق للأبد فقال:

﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾⁽¹⁾.

الصفات

أما صفات الله تبارك وتعالى فإن الإنسان يستطيع إدراكها في درجة ما. ووجه ذلك أن الإنسان يحوز ببعض الأشياء المتصلة بالصفات ولو بدرجة تافهة جدًا. فإن الله قد أعطانا جزءًا من علمه وخبره وقدرته وربوبيته ورحمته وحكمته تعالى. فلنا أن نقيم تصورًا لصفات الله تعالى قياسًا على تلك الصفات. ونفهم ذلك بطريق آخر وهو أن الإنسان هو انفعال محض. وهو عبارة عن الإرادة والقول والمشية والكلمة والأمر الذي يصدر عن الفاعل الحقيقي، ودلت الآية رقم ٨٢ من سورة يونس على ذلك تقول: إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون. فحقيقة الشيء هي الإرادة الإلهية التي تظهر في الشيء هي صفات هذه الكلمة. وهو حقيقة وجود الإنسان. ثم إن الإنسان يشعر بوجوده ولذا يفهم صفات فاعله لحد ما. ولكن لازم لذلك أن يدوم الإنسان على إيقاظ عقله وعلى التفكير في آيات الله في الآفاق والأنفس، في ضوء وحي الله سبحانه. ومن هنا يحرض القرآن في أكثر من مرة مخاطبيه على التعقل والتفكير والتذكر.

وقد أوضح الأستاذ الإمام أمين أحسن هذه التعبيرات فقال:

«والهدف من التعقل أن الإنسان لا يتبع أهواءه وشهواته وعواطفه فقط في أمور حياته، ولا يتبع أوهامه وأخيلته بل يسترشد العقل الذي أعطاه الله ويعتمد على ترشيده، والتفكير يعني أن يتفكر الإنسان في قوانين نظام العالم، ومطالبات الفطرة الإنسانية ومقتضياتها، وأن ينقاد للقواعد والأصول التي تتولد منها، لحياة

(1) سورة النحل، الآية: ٧٤.

الإنسان بصدق كامل وديانة تامة، ويعني التذكر أن يتذكر الإنسان تلك البدهيات التي يعتقدونها في خضم شهواته ومشاعره وأن ينقاد بدون تردد ما للنتائج اللازمة من البدهيات»⁽¹⁾.

فإذا تفكرت بهذا الطريق علمت أن كل شيء في الأنفس والآفاق يشهد أن الله ليس هو علة العلل محضاً وواجب الوجود صرفاً، ابتدأت منه سلسلة العلة والمعلول، والذي كان ويكون على كل حال، بل هو صاحب الإدراك والإرادة الذي يحمل سائر الصفات العالية.

وفيما يأتي نوضح ذلك أيضاً مفيداً.

١ - المادة خالية من الإرادة كما هي خالية من العلم والعقل أيضاً. وكذلك معرفة النفس وإرادتها وقواتها الأخرى ليست ذاتية لها بسبب ضعفها ونسيانها وقلة العزيمة لها. ومع ذلك فقد تحدث منها فوائد جمة وتغيرات كثيرة عجيبة لا تحدثها طاقة صماء ولا بكماء وعمياء. ولذا فكلاهما مخلوقان. وكل مخلوق يطلب لنفسه خالقاً. كما قال تعالى:

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾⁽²⁾ وقال أيضاً:

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾⁽³⁾.

٢ - وهذا الخالق للأرض والسما لا يحتاج إلى شيء. لأن الخلق إنما نشأ عن علة واحدة وهي إرادة الرحمة، فإذا أراد أن ينعم خلق الخلق وأعطى مخلوقه من النعم والآلاء مما لا يُعد ولا يحصى. ولذا سمي نفسه الرحمن مع اسمه الله. فقال:

﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

(1) تزكية النفس: ٩٢.

(2) سورة الطور، الآيتان: ٣٥ و٣٦.

(3) سورة غافر، الآية: ٦٢.

بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الزُّلْزَالَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَحْسِرُوا الْمِيزَانَ * وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١﴾.

٣ - والعلم هو العلم للقوة محضاً، ولذا كل علم هو شهادة للقوة. وهذه القوة إذا لم تكن من صاحب الإرادة والإدراك لزم أن تكون جبراً محضاً. ولكن نظم العالم وترتيبه الخاص ومعنويته العميقة ينفي ويرد الجبر المحض. لأن كل شيء من ذلك لا يكون بدون تصرفات العلم والعقل، ولذا ليس الخالق فقط قديراً بذاته بل هو مع ذلك عليم وحكيم. كما قال تعالى:

﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَكَفُّرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَجَعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَىٰ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَوْقَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لَيْلٌ أَوْ نَهَارٌ * ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾.

٤ - إن قيام الأنفس والآفاق حقيقة لا تجحد، ولا يتصور بغير وجود حي قائم. ولذا فإن الخالق ليس حياً قائماً بل قيوماً كما قال:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٣﴾.

٥ - وما هو الزمان؟ هو تصور منتزع من صفة البقاء لصفات ذلك الخالق الحي

(١) سورة الرحمن، الآيات: ١ - ١٣.

(٢) سورة فصلت، الآيات: ٩ - ١٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

القيوم. فهو الأول ليس قبله شيء، وهو الآخر ليس بعده شيء. وهو الظاهر ليس فوقه شيء، وهو الباطن ليس تحته شيء، إنه لا يحده زمان ولا مكان وعلمه البتة يحيط بالزمان والمكان كليهما كما قال عز من قائل: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١).

٦ - وتصور الذات بدون صفات إنما هو مفروض. وسائر النزاعات والنقاشات في ذلك لفظية ومرفوضة ولذا كافة المحاسن الذاتية والصفات الحسنة من خلق وعدل، ورحمة ورأفة وعلم وحكمة، ثابتة لله سبحانه ومقدمة على آثارها، لأن علة الشيء تتقدمه دائماً. ومن هنا قال إنه يبقى جلال الله وإكرامه في شأنه العظيم بعد الفناء العام للدنيا، فقال:

﴿كُلٌّ مِنْ عَلَيْهَا فَإِنْ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾^(٢).

٧ - ولكن يجب مراعاة جهة الحسن في فهم صفات الله عز وجل فإن القدرة تمدح عند ما تكون مع الرحمة والكرام والعدالة. ويختص ظهور صفات الغضب من الانتقام والقهر والغضب، إذا وجد ضد الظلم والعدوان. كما أن صفات الرحمة والمغفرة والجود والكرم تستحق المدح والثناء في محلها، ويرشدنا إلى ذلك النكة اللطيفة. جهة الحسن. بما جاء القرآن بازدواجية الغني مع الحميد والعليم مع الحكيم وربط العزيز بالغفور وما إلى ذلك من صفات فقال:

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٣).

٨ - وأيما تصور أقمته الله تعالى لا يخلو من صفات الجلال والجمال والكمال، فإذا كان الواحد الأحد الصمد مثلاً صفات كمالية، والقدوس السلام

(١) سورة الحديد، الآية: ٣.

(٢) سورة الرحمن، الآيتان: ٢٦ و ٢٧.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

المؤمن صفات الجمال، فالملك العزيز الجبار كلها صفات الجلال. وصفات الجلال تحدث في قلب الإنسان عواطف الخوف والمدح والتعظيم، وصفات الجمال تحدث مشاعر الحمد والرجاء. ثم إن صفات الجلال تقترب من الحواس الظاهرة وصفات الجمال تكون أقرب من العقل والقلب. فإذا وضعت أمامك ربك تغلب صفات الجمال وإذا رأيت النفس الإنساني قدامك، يبرز جانب الجلال، والإنسان يهلع إلى ربه بخشية ويلتجئ إلى صفات الجمال لربه كما يشهد عليه دعاء النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك منك»⁽¹⁾ فهذا دعاء عبد مستغرق في حب الخالق تعالى ويخشى من استغناؤه وكبريائه، ويشتاق للقياء ويستسلم لقضائه، بأدب جم وخلوص تام، فعندما يقول القرآن إن له الأسماء الحسنى كلها، فيعني به أن كل اسم ينبئ عن جلال الله وكما له وجماله هو حسن، وهو له ويمكن أن يدعى منه، فقال:

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾⁽²⁾.

وقد أسهب في هذه المباحث الإمام حميد الدين الفراهي في كتابه «القائد إلى عيون العقائد» ما نصه: «وبالجملة فليكن الرب تعالى في قلبك كريماً. رحيماً. غفواً. غفوراً. ضاحكاً مبتسماً. ملاطفاً في كمال الجمال والرافة، أكرم الكرماء وأرحم الراحمين، ناصراً لك. منتقماً من أعدائك. لتسكن إليه وترغب في قربه وتشتاق للقاءه. ثم تعلم إنه قدوس وهو الحق المبين فمحال في العقل أن يفرق بين المحسن والمسيء. أو يتقرب إليه الخبيث المتدنس الظالم العنيد، مناع للخير معتد مريب، الملح المصير على مخالفة الحق والخير، ولكنه تواب لمن تاب، وبدل حسناً بعد سوء. ثم بعد ذلك لا يزال مذكراً لكمال عظمته وكبريائه، ليحافظ على الأدب والخشوع، ويعلم أنه لا حاجة له إلى أحد من الخلق، غني عن العالمين، رفيع الدرجات في تدبيره، فمع أنه لا يحكم إلا بالحق والرحمة لا

(1) رواه مسلم رقم ١٠٩٠.

(2) سورة الإسراء، الآية: ١١٠.

يعلمون منه إلا بقدر ما يليق بهم فيجب التسليم لما قضى والرضا بما أمر ونهى. فهذا العبد المتصف بالمحبة للرب والشوق للقاءه وبالخشية لاستغناؤه وكبريائه وبالآدب والتسليم لقضائه، يتعبد له ويفر إليه ويتوكل عليه⁽¹⁾.

٩ - وعظمة الله تعالى تبرز من صفات كماله، فإذا أقام الإنسان تصورًا صحيحًا لها ينتج من ذلك أن تؤمن بالله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي هو ملجأ الكل ومالك ما في السماوات والأرض لا غير، لا شريك له في ملكه، ولا سهيـم له في قدرته، لا يخفى عليه شيء من الدنيا. ولا يغيب عنه شيء منه. وكل شيء محتاج إليه ولا يحتاج إلى شيء. وتسبح له السماوات وكل شيء من الجماد والنبات والحيوان وتهلله. قدرته لا نهاية. وسعه غير محدود ومشيته جارية في كل ذرة من الكون. يفني ما يشاء ويحييه إذا شاء. بيده العزة والذلة. والكل فان، وهو وحده الباقي. وهو وراء الورا لكنه أقرب من حبل الوريد، يحيط علمه واقتداره بكل شيء. وهو خبير بذات الصدور. إرادته نافذة في كل إرادة. وحكمه عالٍ على كل حكم. إنه طاهر من كل عيب ومنزه من كل سوء، وبريء من كل اتهام. فقال تعالى:

﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾⁽²⁾.

١٠ - وأهم الصفات الكمالية لله تعالى هو توحيده. وقد أكد عليه القرآن أكثر من كل ذلك وأوضحه إيضاحًا تامًا. حتى أن الباب الأخير لهذه الصحيفة

(1) ص ٤٣.

(2) سورة الحديد، الآيات: ١ - ٦.

السماوية قد اكتمل بلحاظ مضمونه على سورة أرشد الله عز وجل فيها رسوله أن يعلن التوحيد ويصرحه أمام الناس فقال:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾⁽¹⁾.

وهدف كل جهود الأنبياء ﷺ هو إقامة هذا التوحيد، فإن كل لفظ لتاريخه الذي بينه القرآن يشهد لذلك. يقول الأستاذ الإمام في ذلك:

«إنهم يأتون إلى العالم أن يخرجوا عباد الله من عبادة الآخرين إلى عبادة الله وحده. حتى يؤمنوا به خالقاً وملكاً يعبدونه فقط، ويطيعونه ويتوكلون عليه ويستغيثون منه. يشكرون على نعمته ويستغيثون منه إذا داهمتهم مصيبة. ويلتجئون إليه في الطمع والخوف والرجاء وفي كل حال. يسلمون نفوسهم له بالكلية. فتكون محبتهم تابعة لحبه ورضاهم تابع لرضاه، ويعترفون بأحديته تعالى في كل صفاته، في حقوقه وفي ذاته ولا يشركونه أحداً في هذه الأشياء، لا ملكاً ولا جنّاً ولا نبياً ولا ولياً ولا أحداً ولا أنفسهم»⁽²⁾.

ولهذه الأهمية للتوحيد قد صرح القرآن أنه لا يقبل عمل بدونه ويمكن أن يغتفر كل ذنب وخطأ مع تواجده فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾⁽³⁾.

ووجه ذلك أن العبد لا يكون متمرداً وملحاً على الذنب مع التوحيد ولا يحرم من التوبة والاستغفار بعد ارتكاب ذنب أو خطأ. إنه يرجع إلى ربه ويتوب باللزوم ويستحق العفو والصفح عنه قبل مثوله في يوم القيامة، وبناءً على ذلك قال النبي ﷺ: إن إقرار التوحيد ضامن لدخول الجنة فإن الله تعالى لا يلقي العبد

(1) سورة الإخلاص، الآيات: ١ - ٤.

(2) حقيقة التوحيد والشرك ص ٣١٠.

(3) سورة النساء، الآية: ٤٨.

الموحد في النار⁽¹⁾ ويكفي للاستدلال عليه أنه ليس لأحد دليل على اشتراك أحد في ألوهيته تعالى، فقد تحدى القرآن مخاطبيه في أكثر من مقام أن يأتوا بدليل من العقل والنقل على شركهم إن كان ذلك بوسعهم. إن لله تعالى شريك أم لا، الشهادة الحقيقية على ذلك يمكن أن تكون من الله نفسه، ولا يتم ذلك إلا بكتب نازلة وروايات وآثار، توارثتها البشرية جيلاً بعد جيل من أنبيائه ورسله. فليس فيها شهادة مؤيدة على الشرك، قال تعالى:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنُونِ بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾⁽²⁾.

وعلاوة على ذلك فإن دلائل التوحيد التي جاءت في القرآن هي مبنية على مسلمات العلم والعقل وعلى دلائل باهرة، وقد جاء الأستاذ أمين أحسن الإصلاحي في تفسيره «تدبر القرآن» بتفسيرها وتوضيحها في مقامات كثيرة. نأتي هنا بآيات عديدة فجاءت في سورة البقرة:

﴿وَاللَّهُ كُذِّبَ إِلَهٌُ وَجِدْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَنَصْرَفِ الرِّيحَ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾⁽³⁾.

«إذا تدبرت في هذه الآية رأيت أنها تذكرت من أولها إلى آخرها عناصر الكون المتقابلة بل المتضادة مع الإشارة إلى توافقها العجيب ووحدتها المحيرة، وإلى ملاءمتها التي لا نظير لها التي توجد فيها لخدمة هذا الكون مجموعياً. فإذا رأيت بذلك أن السماء مع الأرض والليل مع النهار، والنهر مع الفلك تتواجد فيها بينها نسبة الضدين بظاهرها. ولكن إذا أمعنت النظر رأيت أن هناك نسبة

(1) رواه البخاري في حديث رقم ٥٩٦٧ ومسلم رقم ١٣٦، ١٣٨، ١٣٩.

(2) سورة الأحقاف، الآية: ٤.

(3) سورة البقرة، الآيتان: ١٦٣ و ١٦٤.

أخرى أيضًا فيما بينها مع نسبة الضدين، وهي نسبة الزوجين للمعاشرة والحياة الاجتماعية لهذا الكون ربطًا واتصالًا. فإن لم يتواجد هذا السماء وشمعتها الوهاج وقمرها اللامع لذهب كل روعة وكل ربيع للكون، بل يتلاشى وجود من أساسه كما أنه إذا لم يوجد هذه الأرض فمن يعلم أيًا من الكواكب النجمية التي لا تعد ولا تحصى في هذا الفضاء اللامتناهي ستكون مقفرة؟ وعلى هذا القياس فكما أن حياتنا وحياة كافة الأحياء لهذا الكون مثلنا تحتاج إلى حرارة النهار وشدته وضياءه وطربه، فإنها أيضًا تحتاج إلى برودة الليل ولطافتها وتسكينها ونومها. فكلاهما يسكنان معًا هذا المنزل. وترى البحر كذلك. فكم من امتداده يبعث على الاستعجاب وهو يُرى إلى مدى لامتناهٍ. وكم هو أمواجه مهيبية مرهبة ومع كل ذلك فإنه يخرج لنا من فوق عين صدره الشوارع المصفاة والممهدة، حتى تسير عليها سفن وبواخرات لنا ليلاً ونهارًا وتربط الشرق بالغرب في التجارة والأعمال المعيشية والحضارية والعلوم والفنون وفي كل شيء.

ثم ذكر نزول المطر من السماء وإحياء الأرض من ذلك المطر واخضرارها وعمارتها من جديد. فانظر أين السماء وأين الأرض منه. ولكن مع ذلك التباعد بينهما ارتباط واتصال عميق جدًا. والأرض تتضمن خزائن الحياة والتطور، ولكنها تبقى كامنة في بطن الأرض حتى تنزل المطر من السماء وتكون سببًا لبروزها. وهناك ارتباط كهذا بين الهواء والغيوم. وكأن سفن السحاب والغيوم الحافلة قائمة فاتحة أشرعتها ولا تبرح من مكانها لإنشٍ واحد حتى ترحلها الرياح وتدفعها لتصل إلى جهات مقررة لها. فهي التي تدفعها تارة إلى الشمال والجنوب وتارة إلى الشرق والغرب، وتغييها إذا شاءت وتبرزها من جديد على الآفاق إذا شاءت.

وهناك سؤال ماذا تقضي نظرة تأن وتدبر في هذه الدنيا؟ هل هي معترك الأضداد والمناقضات؟ والتي تتصادم فيها قوات وإرادات في صراع دائم؟ أو يحكمها حكيم مدبر يستخدم هذه العناصر المختلفة تحت نظام خاص له، بحكمة ولمقصد جماعي؟ والظاهر أن مشاهدة هذا الكون تقضي بك إلى نتيجة

ثانية. ثم إذا تدبرت تدبراً مزيداً لوجدت حقيقة أخرى وهي أن هذا العالم لم يولد تلقائياً ولم يتقدم تقدماً تلقائياً، لأنه إن كان ذلك كذلك فمن أين جاء توافق وانسجام نجده في كل ناحية من هذا الكون؟⁽¹⁾:

وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا وَعَلَى يَقُولُونَ إِذَا لَا بُغْوًا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾⁽²⁾.

«وكان مشركو العرب قياساً على ملوك العالم وملوكيتهم يعتقدون أن الله تعالى هو المعبود الأعظم وهو صاحب التاج والملك الأكبر. ولكن كانت هناك آلهة كثيرة يشركونها في الوهية الله تعالى. باعتقادهم منهم أنها تقربهم إلى الله زلفى، وتفي لعبادها بحاجاتهم وضرورياتهم منه. فالآية رد على توهمهم ذلك فقال إن كان معه آلهة شركاء معه كما تزعمون لساووا يوماً يخاصمون رب العرش العظيم ويتنازعون، وذلك ليفضي إلى فساد نظام العالم كله. يعني إذ تخيلتهم آلهة كثيرة قياساً على سلاطين وملوك الأرض فانتم ترون في الأرض حكومات تجيء ودول تذهب على مر الأيام. فإن كان هناك شركاء مع الله فلماذا يقعدون ساكنين ولا يبذلون جهودهم حتى يكونوا صاحب عرش وكرسي. ولكن ترون هنا أن الشمس لم تنزلق انزلاقاً من محورها يوماً، ولم تنحرف الأرض من مدارها. وعبر القرآن بهذه الحقيقة في مقام آخر بقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾⁽³⁾ و⁽⁴⁾.

وجاء في سورة الحج:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

(1) تدبر القرآن: ١ / ٤٠١.

(2) سورة الإسراء، الآية: ٤٢.

(3) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

(4) تدبر القرآن: ٤ / ٥٠٨.

وَالنُّجُومَ وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابَّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١﴾.

«وهذا دليل التوحيد الذي يشهد له كل شيء من هذا الكون بوجوده. وقد أشرنا من قبل أن كل شيء للكون له مزاج إبراهيمي في حيثته التكوينية. فإن كلاً من الشمس والقمر، والنجوم والجبال والدواب كلها مسخر لله سبحانه فهي تحت أمره ونهيه. لا يستطيع أي شيء منها أن ينحرف انحرافاً ما من القوانين الإلهية. خذ الشمس، التي عبدتها الملل الكثيرة أكثر من كل شيء، تشهد بوجودها أنها لا تبرح تعبد ربه قياماً وقعوداً وسجوداً في كل يوم. إنها ترفع رأسها من السجود وقت طلوعها ولا تزال على هذه الحالة إلى الظهيرة، ثم ترقع بعد زوالها وتخر لله ساجداً عند غروبها، وما تبرح على حالة السجدة طوال الليل. وهذه الحقيقة يُبديها القمر من عروجه ومحاقه كما أن النجوم تقوم بها بطلوعها وغروبها. وهو حال الجبال والأشجار والبهائم أيضاً، فظلال هذه الأشياء ما تزال في حالة القيام والركوع والسجود وفي كل وقت. ثم إذا تعمقت النظر رأيت أن فطرة هذه الظلال إبراهيمية كذلك لأنها تخالف الشمس دائماً. فإن كانت الشمس في جهة الشمس تمتد الظلال إلى جانب الغرب، وإن كانت في جهة الغرب تمتد الظلال إلى جهة الشرق، فكان ظلال كل شيء تشهد بوجودها وتقول لنا إن الله تعالى هو يستحق السجود فقط ولا تجدر له الشمس. نعم هذا الدليل التوحيدي نوعيته كالإشارة. فلا يأخذه المنطق ولكن المتدبرين في نظام الكون يعطون لهذه الإشارات مكانة كبيرة. أن كس است اهل بشارت كه اشارت داند⁽²⁾ و⁽³⁾.

السنن

السلوك الذي يسلك الله تعالى مع عباده وبطريق يسلكه اصطلاح عليه

(1) سورة الحج، الآية: ١٨.

(2) مقولة فارسية تقول: من الذي يفهم الإشارة هو من أهل البشارة).

(3) تدبر القرآن ٥/ ٢٢٩.

القرآن الكريم بالسنة الإلهية، وقد قال الله تعالى في ذلك أن هذه السنن لا تتغير ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ لَسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾. فكما أن معرفة صفات الله تعالى ضرورية لمعرفة الله فكذلك لا بد لنا من معرفة السنن الإلهية أيضًا. ونأتي فيما يأتي بتفصيل سنن الله، ولكن قبل ذلك يليق بنا أن نذكر مقدمات تمهيدية للمبحث.

فيقول الأستاذ الإمام:

١ - إن الله عز وجل قد خلق كل إنسان على فطرة سليمة طيبة من مبدأ الفطرة. وأعطى له التمييز بين الخير والشر، وله الخيار الكامل أن يختار أيًّا منهما. وبعد ذلك يتوقف صلاحه أو شره على عمله هو أو لا، وعلى التوفيق الإلهي ثانيًا. فإن حاول أن يهتدي وفقه الله تعالى، وإن أراد مذهب الشر تركه الله - إن شاء - أن يذهب مذهب الشر أيضًا.

٢ - الأشياء التي يؤجره الله فيها أو سيأخذها عليها قد جعل له حرية الاختيار والإرادة. ومن حُرِّم ذلك الخيار والإرادة فقد برأهم الله من المؤاخذه أيضًا. وهذا الخيار والإرادة ليست له إرادة ذاتية بل منيحة من الله تعالى: ويتم استخدامها أيضًا تحت مشيئة الله تعالى. فيمكن إن شاءت حكمة الله تعالى ومشيئته أن لا تتم إرادة للإنسان. لكن إذا كانت تلك الإرادة مبنية على الخير ولم تتم لا يحرمه الله تعالى من أجر ذلك الخير، وكذلك إذا لم تتم أية إرادة للشر لأي إنسان فلا يعني ذلك بالمرّة أن ذلك الإنسان سيكون بريئًا من المؤاخذه الأخروية أيضًا بالتأكيد.

٣ - وحيثما ذكرت مشيئة الله على جهة الإطلاق إنما يعني ذلك أنه ليس هناك آخر سواه غيرها أو يمنعها. ولا يعني أن مشيئته لا تتقيد بعدل وحكمة من أساسها. فإن الله عادل وحكيم ولا يخلو عمل له من العدل والحكمة. ولذا حيثما قد ذكر مشيئة قد ذكر مشيئة فلنفهمها تابعة لقانون العدل والحكمة. الذي قد ارتضى به أن يسير نظم العالم متوافقًا به. فلا يصح إذن أن السنة التي هو بنفسه أجراها وقانون العدل الذي هو ارتضى به، يهدمه هو بنفسه بمحض مشيئته. ومثلاً قال إنه: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. فلا

يعني أنه ليس هناك مبدأ مقرر مبني على العدل والحكمة للهداية والضلالة. وإنما يعني أن هذه الهداية والضلالة تتم وفقاً لسنة الله التي قد أجراها في باب الهداية والإضلال، وليس لأحد أن يهدمها أو يغيرها.

٤ - وقد نسب الله تعالى في القرآن الكريم بعض الأفعال إلى نفسه والمقصود من ذلك ليس نسبتها بذاتها كما أشرنا من قبل، بل يراد بها نسبة تلك الضوابط والقوانين التي تقع تحتها تلك الأفعال. وبما أن الضوابط والقواعد مما قررها الله سبحانه بالذات، ولذا فأحياناً نسب الله تعالى الأفعال الواقعة تحتها إليه، فمثلاً قال في موضع: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾^(١). أو قال في موضع آخر: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ﴾^(٢). ففي المواقع كهذه، يذكر القرآن الكريم الأصول التي تقع تلك الأفعال تحتها في عامة الأحوال. مثلاً يقال إن الله لا يضل إلا القوم الفاسقين، وتعني هذه الإشارة أن القارئ والدارس يتوجه إلى الحقيقة الأصلية ولا يقع في خطأ مغلوط منخدعاً بظاهر الألفاظ.

٥ - إن علم الله تعالى الأزلي الأبدي والمحيط للكل لا ينفي سنة من سنن الله المقررة، فلا شك أن الله تعالى يعلم عن كل شخص بعينه منذ الأزل أن يذهب مذهب الضلال أو يختار الرشد، ومع ذلك فإنه يعرف جيداً أن العبد يختار الهدى أو الضلال مطابقاً لسنة الله التي قد قررها الله للهداية والضلالة^(٣).

وليتضح مع ذلك شيئان وضوحاً مزيداً:

أولاً تنسب بعض الأشياء إلى الله تعالى لكونه هو علة العلل، فلا يتواجد شيء ما بغير إذنه وبدون مشيئته. كما تنسب إلينا بعض الأشياء أن نستحق بعضها في بعض الأحيان. كما قال تعالى:

(١) سورة الصف، الآية: ٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٠.

(٣) تدبر القرآن ١ / ١١٤.

﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا * مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾⁽¹⁾. ويقول الأستاذ الإمام في تفسير ذلك:

«فخاطب أولاً أناساً ينسبون النجاح إلى الله تعالى وينسبون الفشل إلى رسول الله ﷺ، فقال نعم الأصل أن ظهور الخير كمقتضي لرحمة الله سبحانه، والشر يترتب على أعمال الإنسان وأفعاله، ومن هنا يتعلق الشر بنفس الإنسان بذاته. ولا يخفى هنا أن الله سبحانه هو خير مطلق وقد خلق العالم لإظهار رحمته ولذا نسبة الشر إليه منافية لصفاته الطيبة الحسنة. فإنما يظهر الشر كله من سوء اختيار الإنسان. وقد شرف الله الإنسان بالحرية في دائرة خاصة، وهي نعمة كبيرة للإنسان وعليها يتوقف كل شرف الإنسان، ومن ذلك يستحق الإنسان العقاب أو الجزاء الحسن في الآخرة. ولولا هذه الحرية لذهب كل فرق بين الإنسان والحيوان. ولكن ليست هذه الحرية حرة مطلقاً. بل إنها محددة في دائرة خاصة كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

ثم إنها واقعة تحت مشيئته وتابعة لحكمته في تلك الدائرة أيضاً. فلا يستطيع الإنسان إتمام أي إرادة له بغير إذن الله وبدون مشيئته. فالإرادة الصالحة تتم بتوفيق من الله وإرادة السوء تتم بأمهال من الله. وبما أن الله قد أمهل إرادة الشر لأحد أن تكون، فنسبت من هذه الجهة إلى الله سبحانه، ويمكن من جانب آخر أن يكون هو فعل الإنسان لأنه هو أرادها بنفسه وهو مختار في إرادته.

وانظر ذلك من ناحية أخرى، عندما أمهل الله تعالى لأحد أو لمجموعة أن ترفع شرها رأسها فقد يكون هناك مصالح للخلق من الحيثية المجموعية. فأحياناً يكون فيه ابتلاء لأهل الحق، فتبعد منهم أسقامهم وتربو محاسن الأخلاق فيهم. وأحياناً يقصد منه إتمام الحجة على أهل الباطل، وفي بعض الأحيان تخلق

(1) سورة النساء، الآيتان: ٧٨ — ٧٩.

الطبيعة نفسها ظروفًا تهدي إلى إبراز ما قد تم قمعه في داخل الطبائع، وبه تظهر الفضائل وتظهر شرور من يختبئ فيهم الشر أيضًا»⁽¹⁾.

والثاني أن ما يقوم عليه حكم القبح والحسن والخير والشر هو مطابقة شيء لصفات الله تعالى أو مخالفته لها. فنقول العدل حسن لأنه من صفات الله عز وجل واستحسانه مودع في طبيعتنا بناءً على ذلك. فكان لهذا بلا شك حكمًا إضافيًا ومع ذلك فإنه حكم أبدي، لأن صفات الله أزلية وأخلاقه أبدية. ثم إنها ليست متناقضة متصادمة فلا يمكن أن يريد الله مرة حكمًا متوافقًا مع صفاته، ويريد مرة أخرى حكمًا معاكسًا تمامًا. لا، لأنه قائم بالقسط على كل حال. كما قال:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾⁽²⁾.

ويقول الأستاذ الإمام:

«إن ما أشار إليه الله تعالى من صفة كونه قائمًا بالقسط هو من أهم أجزاء الإيمان به، وله دخل في حقيقة الإيمان لدرجة كأن الإسلام عبارة عنه فقط. وتقتضي أهميته أن نذكر هنا بعض النكات للأستاذ الإمام حميد الدين الفراهي المتعلقة عنه. كي يستفيد من ذلك الذين يتدبرون في حكمة الدين. فعنده حكمة وأهمية هذه الصفة تبدو من جوانب تالية:

أولاً: الإيمان من الأمن ويعني أنه يتضمن الاعتقاد والاعتماد فطريًا، ولزم منه أنه لا بد من الإيمان به أن يكون لدى المرء إيقان راسخ بوجود الله تعالى. ولا يحصل ذلك ما لم يعتمد على أن العقل جُبِلَ أصلًا للإرشاد لا للإضلال. يعني أن العقل مجبول كميزان قسط في داخل الإنسان، ثم استلزم ذلك نتيجة أخرى أن الفطرة قد أقامها فاطرها على مبادئ الحق

(1) تدبر القرآن ٢ / ٣٤٤.

(2) سورة آل عمران، الآية: ١٨.

والعدل، وكلها نتائج لازمة عقلية بل من البديهيات. فعُلم من ذلك أنه لا يثبت شيء حقاً ما لا يؤمن بفاطره حقاً وعدلاً. ويثبت من ذلك كون أفعاله تماماً حقاً وعدلاً. وكما أنه لازم عقلاً يتوفر ثبوته بطريق المسلمات الأخلاقية كذلك.

وتفصيل هذا الإجمال أن الله تعالى قد أدخل الصلاح في الفطرة وأودع في القلوب رغبة لقبول الصلاح وإكرامه، فلا يمكن لنا إذن أن نحب الصلاح ولا نؤمن أن الله يحب الصلاح أيضاً. فكيف بنا نطمئن بإصابة وصحة حبا للخير والصلاح إذا لم يطمئن قلبنا أولاً على حب الفاطر تعالى للخير والصلاح. ونرغب إرضاء الرب تعالى بفعل الخير والصلاح لطمأنيتنا أنه يحب الخير. كما أننا نصفه بصفات حسنة طيبة بناءً على اعتمادنا على صحة فطرتنا في حب هذه الصفات اعتماداً كلياً.

وثانياً: أن أصل الإيمان هو محبة الله تعالى. إننا نؤمن بمعبود، نحبه ونرجو منه ونبتغي رضاه. وهذا لا يمكن حتى نوقن أن ربنا تعالى طاهر من كل شائبة الظلم وعدم العدل. وأنه ينعم على مطيعيه ويعذب فقط من يستحق التعذيب. فإنه أمر مخالف تماماً للطبيعة البشرية أن تحب سيّداً ظالماً غير عادل:

وثالثاً: الطلب الذي يظهر في فطرة الإنسان بعد التفكير في أنعم الله عز وجل وآلائه للإيمان به، بناؤه الشكر. وذلك يلزم عندما نتسلم أن ذلك مما يقتضيه إنعام الباري تعالى وهو حق المنعم الكريم. ومن هذا المنطلق يصطلح القرآن للشرك بظلم وللإيمان بشكر. وانطلاقاً منه فإن وجوب العدل هو البناء لاستحقاق كل الحقوق. وهذه حقيقة بديهية للشريعة والقانون يعني القسط والعدل هما الأساس والبناء لكل شريعة.

ورابعاً: الطاعة الإلهية هي ثمرة الإيمان وثمره الطاعة هو رضاه الله تعالى. والله قد أقام هذه العلاقة بين الأفعال وبين ثمراتها وأثراتها، بطريق خلقه وتدبيره وبحكمه وأمره في كل ناحية وكل جانب. وقد تم إرشادنا من قبله

إلى ذلك بطريق مختلفة، وبما أننا نعتد اعتماداً كلياً على نتائج الأعمال هذه، ولذا فاعتماداً على وعده تعالى نطيعه ونأتي بأمره. فإن لم نعتد على أن الله تعالى لا يخلف وعده لتهدمت قائمة الأعمال من أساسها، ويكون كل الاعتماد على أي أمرين. إما على شفاعة كاذبة كالنصارى الذين يعتمدون اعتماداً كلياً على المسيح عليه السلام فقط، يعبدونه ويحبونه حباً أكثر من الله. أو على حيرة اليهود وضلالهم الذين تركوا سفينتهم على الجانب المواجه للريح ولم يرتضوا بقضاء الله تعالى بسبب استكبارهم وحسدهم. كأنهم ليس عندهم ما يميزون به بين ما هو صالح وما هو طالح. فلاجل الاجتناب من هذا الضلال لزم أن نؤمن كل الإيقان أن الله هو قائم بالقسط، وكل وعده صادق وكل أمره عدل كما قد قال: ﴿وَكَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ (1) و(2).

تعال ندرس الآن في ضوء ما قدمناه أنفأ السنن الإلهية:

١ - الابتلاء: إن الله خلق هذا العالم للابتلاء والامتحان. وقانون الابتلاء هذا من حيث القانون الكوني العام محيط بعالم الإنسانية كلها. فما هو وديع في طبيعة الإنسان يبرز بذلك الاختيار وتفتح كوامن النفس البشري بهذا كما تتعين درجات العلم والعمل به. وقد أخبرنا القرآن أن معمل الحياة والموت هذا قدم وجوده ليميز الخالق الصالح المنقاد من المتستكبر المعاند. ولاشك أنه خبير وعليم بكل شيء، ولكن سنة الله الجارية في الخلق أنه لايعامل معهم معاملة العقاب والجزاء بناءً على مجرد علمه بل يتم ذلك بناءً على عمل الناس أنفسهم، وقد تم إقامة الابتلاء هذا فقط لهذا الغرض. كما قال: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (3).

فالحالات المختلفة التي يتعرض لها الإنسان في هذه الدنيا من الغم والراحة، والفقر والثروة والسراء والضراء، تطراً وفق هذا القانون، يبلو بها الله

(1) سورة الأنعام، الآية: ١١٥.

(2) تدبر القرآن ٥٥/٢.

(3) سورة الملك، الآية: ٢.

تبارك وتعالى عباده ويميز الصحيح من السقيم بها. فمن شرفه بإعطاء كنز أو ثروة أو بجز وجه يبلوه هل يشكره عليه أم لا. ومن يبتليه بالفقر والمسكنة يبلوه بالصبر والبلاء، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾⁽¹⁾.

يقول الأستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاحي في موضع لتفسيره ما يلي:

«فمن يعطيه مالا وجاهاً يعطيه أن ينظر هل يكونون بعد الحيازة بنعمة الله تعالى عباداً شاكرين متواضعين ومطيعين له، أو يصبحوا مستكبرين مرحين يدعون المساكين ويحتكرون نعم الله تعالى. كما إذا أعطي الفقر لأحد يؤتيه أن يعلم الصابر القانع بأنعم الله الحاصلة والراضي بقدره مكتفياً بذاته في فقره، من القانط اليأس المتكسر الهمة، الفاتر العزيمة الشاكي من قدره والغاضب من الله والذليل البئيس الذي أصابه الخور»⁽²⁾.

فزخارف الأرض كلها التي يشغف بها الإنسان مهياة له لغرض الامتحان فقط. إنها ليست متعة العيش بل وسيلة للامتحان. قد وضع الله الإنسان فيها لكي يرى هل يحصل الإنسان عن طريقها على معرفة الله فيفوز هكذا بفلاح الآخرة ونجاحها أو يفتقد سبيله ضائعاً مغيباً في متاع الأرض وزخرفها. كما قال تعالى:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾⁽³⁾.

يقول الأستاذ الإمام:

«إن هذه الدنيا دار للابتلاء ننظر فيها أيهم يطلب الآخرة إعمالاً لعقله وصلاحية تمييزه. وأيهم يصبح لها عابداً متبعاً أهواءه. ولقصد هذا الامتحان إننا لمعنا وجهها ببودة من الحسن والرواء والبهجة الخلافة. فهناك جذب كبير وخلق كثير في المال والأولاد، وفي الحرث والبيدر لها، وفي حدائقها ومنزهاتها وفي سياراتها وقصورها، وفي منازلها الرفيعة وقلاعها الشامخة وفي

(1) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.

(2) تدبر القرآن ٣/ ٦٠.

(3) سورة الكهف، الآية: ٧.

رئاساتها ووزاراتها. ولذاتها نقد عاجل ومراراتها مخفية. ومقابل ذلك إن كافة نجاحات الآخرة مخبوءة وطالبوها تصيبهم مصائب كبيرة لا تحصى لأجلها في هذه الدنيا نقداً. وهذا الابتلاء ابتلاء شديد، إنجاز له ليس بالمهمة السهلة سينجزه فقط أولئك الذين لهم حيازة على بصيرة تامة، أن لا يهتمهم كم يقع هذا العالم في التظاهر بالتباهي، لكنهم يعرفون هذه العجوزة ذات ألف ختن، في كل طرازها وكل لباسها، ولمن لا يضحون أبداً نعماء الآخرة الأبدية بالوقوع في حبها الكاذب»⁽¹⁾.

وهذا قانون عام للابتلاء. وله جانب خاص أيضاً بينه القرآن الدينونة التي تقوم من جانب الله القاهر كنتيجة لبعث الرسل. يفتن فيها أهل الإيمان والإسلام ببعض المحسن والشدائد التي لا تصيب عامة الناس في عامة الأحوال كما قال في مقام: ﴿أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكَوْا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾⁽²⁾.

وتظهر هذه الابتلاءات بعد إتمام الحجة من الرسل، وقبل العذاب العام لغرض التطهير والتمييز كما يظهر من ألفاظ الآتية: فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين. ومدلول الآية هو التمييز عن موقف مخاطبي الرسل قبل القضاء المحتوم الأخير، وقد جاء ذلك في بعض المقامات الأخرى للقرآن أيضاً فقال في موضع آخر:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾⁽³⁾.

٢ - الهداية والضلالة

وقد مر من قبل أنه قد طلب من الإنسان في هذا الابتلاء أن ينتخب الضلال

(1) تدبر القرآن ٤/ ٥٥٨.

(2) سورة العنكبوت، الآيتان: ٢ و٣.

(3) سورة البقرة، الآيتان: ١٥٥ و١٥٦.

ويختار لنفسه الهدى، وأخبرنا القرآن أن هذه الهداية قد تم توديعها في فطرة الإنسان. ثم إذا بلغ أشده يوجه إليه الكثير من علامات وآيات في الأرض وفي السماء. وسنة الله أنه إذا قدر الإنسان هذه الهداية ويستفيد بها ويشكر نعمته الله هذه المبذولة عليه، فإن الله تعالى يزيده إضاءةً ويؤلد فيه طلباً مزيداً للهداية، ويوفقه للإستماع بهدي الله الذي جاء به الأنبياء ﷺ. فقال تعالى:

﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾⁽¹⁾. وقال في موضع آخر:

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ يَقُونَهُمْ﴾⁽²⁾.

وهذا إتمام الهداية وقد صرح القرآن صراحة تامة أنه بغير مشيئة الله لا يأتي حتى طلبه في قلب أحد. ومشيئته متعلقة بالقانون الإلهي المذكور أعلاه، فإن الله عليم وحكيم إنه يؤتي هذه النعمة فقط للذين يقبلون هدايته الوديدة في فطرته كما قال:

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * يَدْخُلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾⁽³⁾.

وإذا أعرض الإنسان عن هذه الهداية الفطرية ولم يستخدم عقله وينحرف عن الحق فهذا ظلم وفسق في اصطلاح القرآن، وإنه لا يهدي ظالماً ولا فاسقاً بل يتركه يتيه في متاه الظلام والضلال. ﴿وَمَا كَأَن لِّنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾⁽⁴⁾.

وينتج منه أن المجرمين كهؤلاء ازدادوا عناداً ونفسانياً وتمادياً ويحرمون

(1) سورة النور، الآية: ٣٥.

(2) سورة محمد، الآية: ١٧.

(3) سورة الإنسان، الآيات: ٢٩ - ٣١.

(4) سورة يونس، الآية: ١٠٠.

عن صلاحية التفكير والتعقل على طريق سوى بالمرة، حتى أن يختم الله على قلوبهم عقاباً لهذه الجريمة كما جاء في القرآن:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾⁽¹⁾.

وقال في موضع آخر:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَنَقَلِبْ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصُرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾⁽²⁾.

ويقول الأستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاحي في تفسير هذه الآية:

«وهذا بيان لسنة الله التي يحظى شخص بالإيمان تحتها ويحرم شخص منه. فمن تدبر في آيات الله المنتشرة في الكون والتي لا تحصى، وفي وجود الإنسان نفسه ويتشبت بنتائج بديهية حاصلة من ذاك التفكير والتدبر حظي بالإيمان. وعلى عكس من ذلك الذين يصرون في غيهم وتماديهم وضلالهم مع رؤيتهم كل آيات الكون وكل آيات الأنفس ولا يفتحون أعينهم مع التذكير القرآني والرسالي المتكرر يقلب الله أبصارهم وأفئدتهم ويحرمون من صلاحية النظر والفكر بالمرة. فلا يؤثر عليهم معجزة كبرى ولا آية عظيمة. وسنة الله في الناس الذين لا يرون نظرة سوية بل يعكسون نظرتهم، ولا يختارون صراطاً مستقيماً بل يتبعون السبل المنحرفة أن تراغ قلوبهم و تراغ فكرتهم كذلك، فأخذوا يرون الأشياء من الزاوية المخصوصة المعوجة فقط. وقد أشار الله تعالى إلى هذه السنة بقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾⁽³⁾.

فأشار هنا إلى تلك السنة المعلومة وقال: وما يشعركم أن الآيات التي

(1) سورة البقرة، الآيتان: ٦ و٧.

(2) سورة الأنعام، الآيتان: ١٠٩ و١١٠.

(3) سورة الصف، الآية: ٥.

يطلبونها إذا جاءت يؤمنون. فإن الآيات متواجدة في الكون وفي الأنفس وأرشدهم القرآن إليها برفع الأصابع إليها، وأوضح دلائلها ومراميها ولكن لم يؤمنوا بها. فإذا لم ينتج شيء من ذلك في تقويم قلوبهم وأنظارهم أول مرة فكيف تقلبهم آية جديدة رأساً على عقب؟ حجاب اليوم كيف ينكشف غداً وعمي اليوم أين يذهب عند ظهور آية جديدة؟ فبطريق كانوا يجحدون آيات كثيرة باهرة حتى اليوم لئن جاءتهم آية جديدة ليجحدونها. وقلب الماهية الذي تجدهم عليه اليوم في قلوبهم وأبصارهم يعمل ذلك عند مجيء آية أخرى أيضاً⁽¹⁾.

٣ - التكليف بما لا يطاق.

إنه لا يوجد حكم في شريعة الله التي أنزلها للناس بطريق أنبيائه ورسله خارج عن تحمل الإنسان. فإنه في كل أعماله لا يزال هذا المبدأ قائماً أن لا يثقل الناس مما لا يتحملون، ومهما يجيء من حكم لهم يجيء متوافقاً مع الفطرة البشرية ومنسجماً متناسقاً مع صلاحيات الإنسان. ولذا فلا مؤاخذه في هذه الشريعة على نسيان وسوء الفهم وعلى خطأ غير إرادي، وإنما تطلب من الناس العمل بأحكامها بكل صداقة ظاهراً وباطناً وبكل أمانة وديانة. فالآية: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾⁽²⁾ وما شابهها من الآيات تبين سنة الله هذه، إلا أنه لا يعني ذلك أنه إن تمادت العباد لا يكلفهم الله بها عند ذلك أيضاً. لا، فإنه يعلم من القرآن أن العباد يكلفون تكليف ما لا يطاق تأديباً وتريئاً أحياناً⁽³⁾ وتعذيباً⁽⁴⁾

(1) تدبر القرآن ٣/ ١٤٠.

(2) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(3) اقرأ آية البقرة رقم ٢٨٦ التي جاء فيها: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْهِ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾.

(4) هذا المضمون عام في القرآن ورد في مقامات كثيرة فليراجع إليها.

في وقت آخر أو لإراءة الناس سوء عاقبة أعمالهم السيئة^(١) أو إظهاراً لعجزهم في مقابلة الله تعالى^(٢).

٤ - العزل والنصب

وتحت قانون الابتلاء الذي ذكر من قبل كما ينتخب الله أفراداً مخصوصين لامتحان الصبر والشكر. ينتخب كذلك أقواماً وشعوباً. وإذا فاز قوم بالعلامة نتيجة لذلك الانتخاب لا يغير الله معاملته معه حتى يغير ذلك القوم وينحطوا في الدرجة السافلة علماً وأخلاقاً. وهذه سنة الله التي لا تبدل لها. فإذا أراد الله بقوم سوءاً مطابقاً لسنته تلك، ومع تنبيهاته المتكررة فلا يرد إرادته أحد. وحتى قوة عالمية لا يمكنها أن تساعد تلك الأمة مجابهةً لله تعالى. والتاريخ الإنسان الطويل يشهد لظهور هذه السنة في عزل ونصب الأمم والأقوام. فقال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾^(٣).

فقد قال إن هذه المعاملة سوف تتم مع كل أمة وانطلاقاً منه سيسود قوم ويواجه العقاب الشديد قوم آخر. ويشهد التاريخ أن أولاد حام وسام قد انتخبوا لذلك أولاً ومنذ نصف مليون سنة إن أولاد يافث قد تم انتخابهم لذلك، فهي أقوام وأمم أخيرة وعليها ستكون خاتمة التاريخ وبعد ذلك سوف تقوم القيامة: فقال:

﴿وَأَنَّ مِنْ قَرَبٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾^(٤).

(١) انظر القلم رقم الآية ٤٢ — وسورة النساء، الآية: ١٥٥.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٢٣ و٢٤.

(٣) سورة الرعد، الآية: ١١.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٥٨.

٥- النصرۃ الإلهية

وإذا فوض الله مهمته الخاصة لشخص أو جماعة ويكلفها للقيام بها، ينصره نصرًا من عند الله. وقد تكون هذه المهمة مهمة الدعوة أو مهمة الجهاد والقتال. ومثلاً تبين الآية: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١). وما شابهها من الآيات هذا المضمون أكثر من مرة أن الله أوجب عليه نصر المؤمنين في الآيتين مهمة كهذه فقال:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾^(٢).

ولا تكون هذه النصرۃ بالصدفة بل لها ضابطة تأتي متوافقة معها. ونريد أن نلقي بعض الأضواء على ذلك في هذا الكتاب نفسه فيما يأتي من المباحث تحت عنوان «قانون الجهاد» ولكن ليكون متضحاً هنا أن الصبر والتقوى هما أهم شيء لهذه النصرۃ. فعند وقعة أحد عندما شجع النبي ﷺ المسلمين بأن الله سينصرهم نصرًا مؤزرًا بثلاثة آلاف من الملائكة مردفين فقد أيد الله قوله وأضاف عليه ألفين من الملائكة لكن بشرط أن يصبر المسلمون ويثبتوا ويتقوا الله فقال:

﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾^(٣).

٦- التوبة والاستغفار

الإنسان إذا أتى بذنب فله سعة التوبة والاستغفار. وقد قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(٤)، والقاعدة في ذلك أن العباد إذا استغفروا الذنوب

(١) سورة الروم، الآية: ٤٧.

(٢) سورة محمد، الآية: ٧.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٢٥.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٥٤.

من فورهم غفر الله تعالى بالتأكيد. ولكن لمن يغفر للذين عاشوا طوال حياتهم غارقين في الذنوب، وإذا رأوا أن جاءهم الموت على عتبة بابهم أخذوا يتوبون، كما أنه لا يقبل توبة الجاحدين للحق جحودًا شعوريًا وداموا عليه إلى حين الموت. ويبين القرآن هذه السنة الإلهية للتوبة والاستغفار فيما يأتي: ﴿التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(١).

٧ - الجزاء والعقاب

إن إعطاء الجزاء والعقاب بعد الموت حقيقة ثابتة، ولكن القرآن يخبرنا أن هذا العقاب ربما قد يتم في هذه الدنيا أيضًا. وذلك تمهيدًا للعدالة الإلهية التي سوف تظهر أتم ظهور يوم القيامة. وصوره التي قد جاءت في أساليب متعينة هي كالتالي:

أولاً - إن طالبي الدنيا الذين يحيون ويموتون لها فقط، ويعيشون بدون مبالاة للأخرة يوفيهم الله حسابهم في الدنيا بإيتائهم مهما يريدون من متاع الدنيا وزخرفها وثمره أعمالهم كلها من توهم. كما قال:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾^(٢). وثانيًا يأتي العذاب على منكري الرسول في هذه الدنيا بعد إتمام الحجة عليهم وينزل على متبعيهم بركات السماء والأرض. كما قال تعالى:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٣).

(١) سورة النساء، الآيتان: ١٧ و ١٨.

(٢) سورة هود، الآية: ١٥.

(٣) سورة يونس، الآية: ٤٧.

وهذه سنة الله التي لا تبدل لها فما يقص علينا القرآن من أحداث قوم لوط وقوم شعيب ومن إبادة جماعية لعاد وثمود هي قصة تلك الدينونة وحكاية ذاك العذاب الإلهي الذي نزل بهم، وهذه الدينونة أقيمت أخيراً لقوم محمد ﷺ ثم قضى عليها بالنهاية للأبد. وقال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ فَأَخَذْنَاهُم بِغَنَّةٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (1).

وثالثاً قد وعد الله لذرية سيدنا إبراهيم ﷺ أنها إذا قامت على الحق حصل لها إمامة الأقيام وقيادة الشعوب وإذا انحرفت منه عزلت من منصب السيادة وابتليت بعذاب الذل والهوان. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذاك العهد بقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ (2) وكما جاءت الإشارة إلى ذلك في تهديد ﴿وَلَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ (3) وقد قال تعالى:

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (4).

ولهذا الوعد الإلهي الخاص قد جاء قوله تعالى لبني إسرائيل خاصة كالتالي:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ (5). وكذلك تقص علينا صحف كافة الصحف المقدسة للأناجيل بتفاصيل ذلك.

(1) سورة الأعراف، الآيتان: ٩٤ و ٩٥.

(2) سورة البقرة، الآية: ٤٠.

(3) سورة الإسراء، الآية: ٨.

(4) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(5) سورة المائدة، الآية: ٦٦.

فجاء في كتاب التثنية :

«وَإِنْ سَمِعْتَ سَمْعًا لِصَوْتِ الرَّبِّ إِلَهَكَ لِتَحْرِصَ أَنْ تَعْمَلَ بِجَمِيعِ وَصَايَاهُ الَّتِي أَنَا أَوْصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ، يَجْعَلَكَ الرَّبُّ إِلَهَكَ مُسْتَعْلِيًّا عَلَى جَمِيعِ قِبَائِلِ الْأَرْضِ، وَتَأْتِي عَلَيْكَ جَمِيعُ هَذِهِ الْبَرَكَاتِ وَتُدْرِكُكَ، إِذَا سَمِعْتَ لِصَوْتِ الرَّبِّ إِلَهِكَ.

مُبَارَكًا تَكُونُ فِي الْمَدِينَةِ، وَمُبَارَكًا تَكُونُ فِي الْحَقْلِ
وَمُبَارَكَةً تَكُونُ ثَمَرَةُ بَطْنِكَ وَثَمَرَةُ أَرْضِكَ وَثَمَرَةُ بَهَائِمِكَ، نِتَاجُ بَقَرِكَ وَإِنَاثُ
غَنَمِكَ.

مُبَارَكَةً تَكُونُ سَلَّتُكَ وَمِعْجَنُكَ
مُبَارَكًا تَكُونُ فِي دُخُولِكَ، وَمُبَارَكًا تَكُونُ فِي خُرُوجِكَ.
يَجْعَلُ الرَّبُّ أَعْدَاءَكَ الْقَائِمِينَ عَلَيْكَ مُنْهَزِمِينَ أَمَامَكَ. فِي طَرِيقِ وَاحِدَةٍ
يَخْرُجُونَ عَلَيْكَ، وَفِي سَبْعِ طُرُقٍ يَهْرُبُونَ أَمَامَكَ.
يَأْمُرُ لَكَ الرَّبُّ بِالْبَرَكَةِ فِي خَزَائِنِكَ وَفِي كُلِّ مَا تَمْتَدُّ إِلَيْهِ يَدُكَ، وَيُبَارِكُكَ فِي
الْأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلَهَكَ.
يُقِيمُكَ الرَّبُّ لِنَفْسِهِ شَعْبًا مُقَدَّسًا كَمَا حَلَفَ لَكَ، إِذَا حَفِظْتَ وَصَايَا الرَّبِّ
إِلَهَكَ وَسَلَكْتَ فِي طُرُقِهِ.

فَإِذَا رَأَى جَمِيعُ شُعُوبِ الْأَرْضِ أَنَّ اسْمَ الرَّبِّ قَدْ سُمِّيَ عَلَيْكَ وَيَخَافُونَ مِنْكَ.
وَيَزِيدُكَ الرَّبُّ خَيْرًا فِي ثَمَرَةِ بَطْنِكَ وَثَمَرَةِ بَهَائِمِكَ وَثَمَرَةِ أَرْضِكَ عَلَى
الْأَرْضِ الَّتِي حَلَفَ الرَّبُّ لِأَبَائِكَ أَنْ يُعْطِيكَ.

يَفْتَحُ لَكَ الرَّبُّ كَنْزَهُ الصَّالِحِ، السَّمَاءَ، لِيُعْطِيَكَ مَطَرَ أَرْضِكَ فِي حِينِهِ،
وَلِيُبَارِكَ كُلَّ عَمَلٍ يَدُكَ، فَتَقْرَضُ أُمَمًا كَثِيرَةً وَأَنْتَ لَا تَقْتَرِضُ.

وَيَجْعَلَكَ الرَّبُّ رَأْسًا لَا ذَنْبًا، وَتَكُونُ فِي الِارْتِفَاعِ فَقَطْ وَلَا تَكُونُ فِي

الْأَنْحِطَاطِ، إِذَا سَمِعْتَ لَوْصَايَا الرَّبِّ إِلَهَكَ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ، لِتَحْفَظَ وَتَعْمَلَ.

وَلَا تَزِيعَ عَنْ جَمِيعِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ يَمِينًا أَوْ شِمَالًا، لِكَيْ تَذْهَبَ وَرَاءَ إِلَهَةٍ أُخْرَى لِتَعْبُدَهَا.

«وَلَكِنْ إِنْ لَمْ تَسْمَعْ لَصَوْتِ الرَّبِّ إِلَهَكَ لِتَحْرِصَ أَنْ تَعْمَلَ بِجَمِيعِ وَصَايَاهُ وَفَرَائِضِهِ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ، تَأْتِي عَلَيْكَ جَمِيعُ هَذِهِ اللَّعْنَاتِ وَتُدْرِكُكَ:

مَلْعُونًا تَكُونُ فِي الْمَدِينَةِ وَمَلْعُونًا تَكُونُ فِي الْحَقْلِ

مَلْعُونَةً تَكُونُ سَلَّتِكَ وَمَعْجَنُكَ

مَلْعُونَةً تَكُونُ ثَمَرَةُ بَطْنِكَ وَثَمَرَةُ أَرْضِكَ، نِتَاجُ بَقْرِكَ وَإِنَاثُ غَنَمِكَ

مَلْعُونًا تَكُونُ فِي دُخُولِكَ، وَمَلْعُونًا تَكُونُ فِي خُرُوجِكَ

يُرْسِلُ الرَّبُّ عَلَيْكَ اللَّعْنَ وَالْاضْطِرَابَ وَالزَّجَرَ فِي كُلِّ مَا تَمْتَدُّ إِلَيْهِ يَدُكَ لِتَعْمَلَهُ، حَتَّى تَهْلِكَ وَتَفْنَى سَرِيعًا مِنْ أَجْلِ سُوءِ أَفْعَالِكَ إِذْ تَرَكْتَنِي.

يُلْصِقُ بِكَ الرَّبُّ الْوَبَاءَ حَتَّى يُبِيدَكَ عَنِ الْأَرْضِ الَّتِي أَنْتَ دَاخِلٌ إِلَيْهَا لِكَيْ تَمْتَلِكَهَا.

يَضْرِبُكَ الرَّبُّ بِالسَّلِّ وَالْحُمَى وَالْبُرْدَاءِ وَالْإِلْتِهَابِ وَالْجَفَافِ وَاللَّفْحِ وَالذُّبُولِ، فَتَتَّبِعُكَ حَتَّى تُفْنِيكَ.

وَتَكُونُ سَمَاؤُكَ الَّتِي فَوْقَ رَأْسِكَ نُحَاسًا، وَالْأَرْضُ الَّتِي تَحْتِكَ حَدِيدًا.

وَيَجْعَلُ الرَّبُّ مَطَرَ أَرْضِكَ غُبَارًا، وَثَرَابًا يُنْزِلُ عَلَيْكَ مِنَ السَّمَاءِ حَتَّى تَهْلِكَ.

يَجْعَلُكَ الرَّبُّ مُنْهَزِمًا أَمَامَ أَعْدَائِكَ. فِي طَرِيقٍ وَاحِدَةٍ تَخْرُجُ عَلَيْهِمْ، وَفِي سَبْعِ طُرُقٍ تَهْرُبُ أَمَامَهُمْ، وَتَكُونُ قَلَقًا فِي جَمِيعِ مَمَالِكِ الْأَرْضِ^(١).

(١) (الإصحاح الثامن والعشرون) الآية رقم ١ إلى (٢٥).

الإيمان بالملائكة

قال تعالى:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى وَتِلْكَ وَرَبِّعٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١).

الذوات التي ينزل الله أحكامه بطريقها للخلق يقال لهم الملائكة في القرآن. وهذا جمع ملك أصله ملاك يستعمل في مفهوم الرسول. والآية من سورة الفاطر التي ذكرت هنا يشير إلى أن القرآن اصطلاح عليهم هذا الاسم نظرًا إلى مفهومه الرسالي. فُعلم من القرآن نفسه أن عالم اللاهوت يرتبط بهذه الوساطة بعالم الناسوت، ويدير الله تعالى كافة أعمال الناسوت بطرائقهم. ويتم ذلك أن يلقي الله إليهم قضاءه وهم في نوبتهم يقومون بإجراء وتنفيذ ذاك القضاء المبرم في الخلق، كمحكوم محض وآلية تحته لا خيار لها ولا إرادة ذاتية. وإنهم الطاعة كلها يشتغلون كل وقت في حمد الرب تعالى وثنائه، ولا ينحرفون من حكمه أي انحراف. كما قال جل وعلا: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ* يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٢).

والوجوه التي من أجلها يُطلب من الخلق الإيمان بالملائكة قد أوضحها الأستاذ الإمام أمين أحسن في تفسيره كالتالي:

«إن الإيمان بالملائكة جزء لا ينفك بالإيمان بالكتب والإيمان بالرسول. فبغير الإيمان بالملائكة تكون الوساطة بين الله تعالى وبين أنبيائه غير واضحة وغير متعينة. وهي إذا كانت غير واضحة تنتج وليس فقط في فقدان رابط هام جدًا في سلسلة العلم والهداية، بل في انفتاح طرائق كثيرة للضلال للعقل الإنساني في باب الهدى الرباني السماوي. فإن الدنيا لا زالت تؤمن بوجود الله تعالى، وأنه إذا كان موجودًا فلا بد من إعلام العباد بمرضيته. ولكن بما أنه لا يأتي إليهم مقابلًا

(١) سورة فاطر، الآية: ١.

(٢) سورة النحل، الآيتان: ٤٩ و ٥٠.

لهم بلا نقاب ولا حجاب. إذن يثور سؤال ما هو الوساطة والذريعة التي بها ينزل أحكامه وشرائعه لعباده؟ وجواب هذا السؤال أن ذريعة العلم بين الله وبين أنبيائه ورسله هو الوحي والإلهام. والذي يرسله إليهم بطريق ملائكة وبالأخص بواسطة ملك مقرب اسمه جبرئيل عليه السلام. وهذه الملائكة هم أطهر وأزكى وأفضل مخلوقاته. عندهم صلاحية لأخذ الوحي مباشرة من الله تعالى. فبسبب هذه العلاقة الوطيدة بين الملائكة وبين الوحي والرسالة لزم الإيمان بهم بالتأكيد، كجزء لازم للإيمان بالأنبياء والكتب. فإنهم يقومون بفريضة الرسالة بين الله وبين أنبيائه ورسله. فلا يد من وجودهم كمخلوق مربوط معًا بعالمين: عالم اللاهوت وعالم الناسوت. ويستطيعون بسبب نورانيتهم تحمّل الأنوار الإلهية والتجليات الربانية، كما يستطيعون الترابط والاتصال بالناس لكونهم مخلوقًا كذلك. ولا خلق سواهم بحيازة هذا الاتصال بالرب تعالى فلزم الإيمان برُسل الله يودون رسالات الله إلى أنبيائه ورسله مع الإيمان بالأنبياء والرسل»^(١).

ومسؤوليات وتبعات الملائكة التي جاءت في القرآن هي كما يأتي:

١ - إجراء حكم الله وقضائه في المخلوقات. قال تعالى: ﴿نَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾^(٢).

٢ - وكما ينزل الملائكة بكل أمر يعرجون كذلك إلى ربهم لتقديم الأمور في حضرته. قال جل وعلا:

﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾^(٣).

٣ - إنزال الوحي إلى الأنبياء والرسل. قال تعالى:

﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾^(٤).

(١) تدبر القرآن: ١/٤٢٣.

(٢) سورة القدر، الآية: ٤.

(٣) سورة المعارج، الآية: ٤.

(٤) سورة النحل، الآية: ٢.

وعلم من القرآن الكريم أن هذا الوحي يأتي به جبرئيل عليه السلام في عامة الأحوال. إنه أفضل الملائكة وأقربهم. له توصل مباشر إلى الله سبحانه لا يحول بينه وبين صاحب العرش أحد. وقد قيل في حقه في القرآن أنه ذو قوة ومطاع أمين ويعني ذلك أنه يحمل كافة الصلاحيات والطاقات التي لا بد منها في تحمل مسؤوليته وأداء واجبه. إذن فلا إمكان أن تؤثر عليه طاقة أو روح خبيثة ترعبه أو تبعثه على الخيانة لدرجة ما، أو يصيبه الخلط أو الخطأ في ذاك الوحي. فإن الله قد عصمه من كل نقاط ضعف كهذه فقال جل وعلا:

﴿عَلَّمَهُ سَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾⁽¹⁾.

٤ - الإشراف لعلم الإنسان وعمله والحفظ بتسجيلات الأعمال البشرية. قال تعالى:

﴿وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ * كِرَامًا كُنِينٍ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾⁽²⁾.

٥ - يجيئون بالبشارة أو العذاب. كما قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِئِدٍ * فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ﴾⁽³⁾.

وهذه الآية من سورة هود تتضمن أيضًا إمكانية اختيار وجه البشر مع بقائهم منزهيين مع ذلك عن حاجات الأكل والشرب وما إليه.

٦ - الانهماك في تسبيح الرب تعالى وتهليله وتكبيره والاستغفار لمن في الأرض. قال:

(1) سورة النحل، الآية: ٢.

(2) سورة الإنطار، الآيات: ١٠ - ١٢.

(3) سورة هود، الآيتان: ٦٩ و ٧٠.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَسْبَحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(١).

٧ - قبض أرواح الناس. قال تعالى:

﴿قُلْ يَتُوفَّئُكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾^(٢).

٨ - إنهم رفقاء لأهل الإيمان في الدنيا والآخرة ويبشرونهم بالجنة وقت الموت كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾^(٣).

٩ - يكونون شهوداً للحضرة الإلهية في القيامة ويحملون عرشه العظيم:

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾^(٤). ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾^(٥).

١٠ - وإدارة ونسق جهنم أيضاً سوف يفوض إليهم كما جاء:

﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٦).

ويُستنبط من إشارات القرآن أن الصورة مثلها تكون في الجنة أيضاً. ثم إن القرآن قد رد على تصورات خاطئة متواجدة عند الناس عن الملائكة رداً بليغاً وأكثر من مرة. مثلاً قال في موضع إن الملائكة ليسوا ببنات الله كما يدعون هؤلاء الحمقاء بل إنهم عباد الله مقربون له، ولكن هذا الإكرام والتقرب ما حصل لهم

(١) سورة الشورى، الآية: ٥.

(٢) سورة السجدة، الآية: ١١.

(٣) سورة فصلت، الآيتان: ٣٠ و٣١.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٧٥.

(٥) سورة الحاقة، الآية: ١٧.

(٦) سورة التحريم، الآية: ٦.

لأنهم يحملون عليه من تأثير وفعل أو تدلل وميلان فيستطيعون أن يتصرفوا أو يتدخلوا في أمر من أموره تعالى. حاشاه وكلا، بل إنهم حصلوا ذاك التقرب فقط لأنهم نجحوا في معياريات العبودية لله والحب والوفاء له خالصاً. وفضلاً عن التدخل في أمر من أموره إنهم لا يسبقونه بالقول. بل يتجرأون على مقولة عندما إذن لهم في ذلك. ويجيبون عما يُسألون واقفين عند حدود الأدب لله جل وعلا، ولا يقولون إلا الحق ولا يشفعون إلى لمن ارتضى، ولا يقدمون أي إقدام من عند أنفسهم، بل ينتظرون كل وقت ما سيصدر عن الحضرة الإلهية وهم من خشيته مشفقون. كما قال تعالى في ذلك: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكُنَّ نَجْرِي جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾⁽¹⁾.

وقف عند ذلك الأستاذ الإمام فقال:

«ما زال العقل الإنساني - ولا يزال - يتجسس عن الأرواح المتعلقة بعالم غير عالمه أي عالم اللاهوت لدرجة من الحرارة والغليان، أنه إذا لم يحصل في بحثه عن ذلك على شيء صحيح معقول، اندفع إلى أتفه شيء وأخطئه تعثر عليه في بحثه هذا. فإنه كان كاهنوا العرب وساحروها يعتقدون الجن والشياطين وهاتف الغيب ذريعة إلى علاقة بعالم اللاهوت. وكان كهنة الهندوس وبراهمتها والمنجمون عندها يبحثون عن الأسرار الغيبية في حركات الأفلاك. وكان رهبان الصين وعباد منادرها يتوسلون إلى عالم الغيب بواسطة أرواح آبائهم وأجدادهم. وقد نفى القرآن كل ذلك ورده ردًّا مفحماً وأغلظ القول في هذه الوسائل والوساطات والعلوم الحاصلة منها بأنها كلها إفك وزور وبهتان عند الله، وقد أوضح أيضاً الحقيقة أن هناك فقط ذريعة واحدة لأخذ العلم الإلهي منه،

(1) سورة الأنبياء، الآيات: ٢٦ - ٢٩.

وهم الملائكة الذين ينزلون على الأنبياء ويوصلون إليهم كل ما قد أخذوه عن الله تعالى سبحانه⁽¹⁾.

الإيمان بالأنبياء.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا * رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَكِيمًا﴾⁽²⁾.

العباد المصطفون الذين انتخبهم الله لهداية بني آدم يقال لهم الأنبياء. وكانوا أناسًا ولكن نخبهم الله على أساس علمه وحكمته لهذا المنصب الجليل، ولذا نبوتهم هي الموهبة الربانية أصالة، لعلقة لها بمناهج التعليم والتربية وطرائق الأخذ والاكتمال كما تدل عليه الآية من سورة الأنعام (رقم ١٢٤) وقد قص القرآن قصة نيل موسى النبوة. فكان يرجع من مدين بأهله فلما بلغ الوادي الأيمن من سيناء ليلاً. وكان لا يستطيع تقدير الوقت ومعرفة الطريق ويبدو أن القر أيضًا كان شديدًا حتى تفجأه شعلة من النور من التجلية الربانية، ولعله لم يشاهدها غيره فقال لأهله: أنكم تبقون هنا لقد رأيت لهما. سأذهب إلى هناك، وأحصل على بعض النار للتدفئة بها، أو إذا كان هناك بعض الأشخاص هناك فسأجد طريقة أمامهم. بعد أن قال لهم هذا توجه نحو ذاك، وعندما وصل إلى هذا المكان، إذ جاءه صوت، «يا موسى، إني أنا ربك فاخلع نعليك أنت بالوادي المقدس طوى. وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى» ويقول القرآن إنه بعد ذلك تم تعليمه الذي قد أعطيه كل الأنبياء.

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ

(1) تدبر القرآن: ١/ ٤٢٤.

(2) سورة النساء، الآيات: ١٦٣ - ١٦٥.

ءَانِيَةً أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١﴾.

ومما شرف به موسى ﷺ أن الله تعالى قد كلمه مباشرةً. وجاء ذكر الوحي الأول إلى رسول الله ﷺ في سورة النجم للقرآن الكريم وعُلم منه أنه قد أوحى إليه عن طريق ملك مقرب هو جبرئيل الأمين، فقال القرآن أنه قد ظهر في الأفق الأعلى في صورته الأصلية على حينه، ورآه النبي ﷺ بأَم عينيه ثم دنا إليه وعطف عليه عطفةً أستاذ شفيق على طالبه الحبيب، واقترب منه اقتراباً بيناً حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى رسول الله ما أوحى إليه بإذن الله. فقال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ (٢).

وقد تم بعث هؤلاء الأنبياء إلى كل قوم قد وعد الله آدم ﷺ أنه سوف ينزل هداه من لدنه لترشد ذريته. فهذا الهدى قد أوتيههم من قبل الأنبياء ﷺ. الذين يتلقون وحي السماء ويهدون الناس إلى الحق، ويبشرون المؤمنين وينذرون العاصين سوء مغبة عصيانهم. ولذا قال الله في القرآن مخاطباً نبيه في مقام بما يأتي: إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً، وإن منه أمة إلا خلا فيها نذير. الحقائق التي جاءت في القرآن الكريم عن هؤلاء الأنبياء والتي يجب أن تكون نصب عين للكل، نذكرها في السطور الآتية.

حقيقة النبوة

وما هي النبوة؟ إنها انتخاب شخص للخطاب الإلهي. وذلك يعني أنه إذا ما تم انتخاب شخص ما من بين عباده لتشرفه بهذا المنصب الجليل يكلمه الله. وأخبر القرآن أن الإنسان قد تشرف به دائماً بأي طريقتين:

(1) سورة طه، الآيات: ١٤ - ١٦.

(2) سورة النجم، الآيات: ٥ - ١٠.

عبر المخاطبة العامة التي تتم خلف الستار يسمع فيها العبد صوتًا متكلمًا بدون رؤيته كما قد وقع لموسى عليه السلام إذ دخل الوادي الأيمن من طور فوجئ بصوت بدون رؤيته للمتكلم^(١).

وثانيًا عبر الوحي - والوحي يستعمل للإلقاء قول أو كلام في القلب - وهذا الإيحاء يتم بدوره بصورتين أولاً أن يلقي الله مباشرةً كلامه في قلب نبيه، وثانيًا بإرسال ملك رسول إليه وهو يُوحى إليه، وذلك يتم في المنام وفي اليقظة كليهما. وقد تمثل الوحي في بعض الأوقات في الرؤية. وجاءت أشكال وصور الوحي في روايات كيفية نزول الوحي إليه. يُعلم منها أن أشد صورتها هي كدقة الجرس حتى كان النبي صلى الله عليه وآله يتعرق في البرد الشديد^(٢) وماهي ماهيته وكنهه بعد هذا، إن فهمه خارج من الحدود العلمية للإنسان، كما قد قال تعالى بنفسه: ﴿وَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٣).

وبما أن هذا الوحي يأتي إلى الأنبياء من غير أي تمنى ورغبة منهم، وينبعث من الجانب الالوحي للنفس، ولذا فإنهم لا يلحقهم أي تردد في صحة الوحي. ولكن لأجل اطمئنان قلوبهم إن الله عز وجل يقوم بإراءتهم مشاهد خاصة. فما جاء من تذكرة إسرائه عليه السلام من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى^(٤) هو مثل كبير لذلك. وربما تقع المشاهد كهذه من رؤية عين مفتوحة كما جاء ذلك في القرآن: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾^(٥).

ولقد جاء ذكر الخطاب الإلهي للأنبياء عليه السلام وصوره المختلفة جماعياً في

(١) القصص: ٢٩ - ٣٠.

(٢) كما جاء في البخاري رقم ٢ وفي مسلم رقم ٦٠٥٩.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٤) (بني إسرائيل: ١).

(٥) سورة النجم، الآيات: ١٣ - ١٨.

موضع واحد فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ (1).

فالآية واضحة صريحة في أن هذا الإلقاء في قلب نبي لا يتم في إلقاء فكرة وإيحاء خيال فقط، بل يكون في صورة إلقاء كلام يسمعه ويعيه ويحفظه. وفي عامة الأحوال ينتخب له العبارات والأساليب المتواجدة في خزانة علم النبي من قبل، حتى لا يكون له شيئاً أجنبياً عسيراً للفهم، ونتيجة لرعاية ملابسات الأنبياء وأحوالهم ووقائهم ولرعاية استعدادهم وصلاحتهم كذلك، فقد يقع فرق كبير وبون بعيد في وحيهم لفظاً ومعنى.

ضرورة نبي

إن الإنسان قد أعطي صلاحية الاستنباط بطريق التمثيل والاستقراء، يستخرج الكليات من الجزئيات ثم يحكم عليها. ويتوصل من البديهيات إلى النظريات ويقيس الغير المحسوس على المحسوس. فكذاك أعطي أيضاً صلاحية تمييز الخير من الشر والصلاح من الفساد، وأكبر من ذلك فإنه ليس خالياً من شعور بالخالق جل مجده ومعرفة الرب وعدله. كما قد سُقنا هذه الحقائق عن الإنسان من قبل. إذن فلا حاجة إلى نبي ورسول حتى يوقف الإنسان على هذه الأشياء، لأنها وديعة في فطرة الإنسان من أول يوم من خلقته كجزء لا ينفك منها. ويتوضح من آية القرآن التي ذكرناها أن ضرورة النبوة تكون بوجهين: أحدهما لإتمام الهداية أي لتذكير الإنسان بما يستوعبه منذ الأزل وبما أودع في فطرته من جديد، وتعيين التفصيلات اللازمة لها للإنسان كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾ (2).

وثانياً لإتمام الحجة. ويعني إيقاظ الإنسان من الغفلة وتقديم شهادة أخرى

(1) سورة الشورى، الآية: ٥١.

(2) سورة الأنبياء، الآية: ٧٣.

من الأنبياء وبالأخص من الرسل بعد شهادة العلم والعقل. توضح الحق لدرجة لا يبقى معها عذر لأحد. كما قال تعالى: ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُذَرِّوْنَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ * ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَفْلُونَ﴾⁽¹⁾.

معرفة النبي

وشخصية النبي تكون مظهرًا أتم للإنسانية ودعوته تقوم على فطرة الإنسان. الحيوان كلها تتبع من شيتين: ذكر الله ومؤانسة الفقراء والمساكين. والنبي بنفسه يقوم بهذين ويدعو الآخرين إلى القيام بهما. وماذا يقول للناس يقوله قائمًا على درجة نهائية للعقل والبصيرة، ويقوله في أشياء أصبح الإنسان غافلاً عنها أو قد نسيها عمومًا. ثم إن نبوة النبي والرسول لا تكون لها خلفية من الأخذ والاكْتِسَاب فلا يعرض للإنسان سليم العقل أي أشكالية في معرفته. فإن كان الإنسان متيقظًا يكون لها وجه النبي وصورته كممثل معجزة. وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾⁽²⁾.

ولكن مع ذلك يعطي الله النبي آيات بينات لم تُبق للمعاندين الخصوم إلا أن يصدقوها وإن لم يقرّوها باللسان. وانطلاقًا من هذا فقد قال تعالى في مقام عن أهل الكتاب في الزمن الرسالي: ﴿وَإِنَّ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾⁽³⁾. وهذه الآيات الباهرات البينات يعطاها كل نبي ورسول متلائمة لزمانه وحالاته. ونذكر بعضها فيما يأتي.

١ - يأتي نبي في عامة الأحوال مطابقًا لتنبؤات نبي قبله ومصادقية لها. فلا يكون

(1) سورة الأنعام، الآيتان: ١٣٠ و ١٣١.

(2) سورة يونس، الآية: ١٦.

(3) سورة النساء، الآية: ١٥٩.

شخصاً أجنبياً غريباً. الناس يتعارفونه وينتظرونه أيضاً. كما قد صرح عن المسيح ﷺ أنه كان قد نادى له سيدنا يحيى ﷺ في البيت المقدس قبل بعثته (آل عمران: ٣٩) وقد جاءت بشارات عن النبي ﷺ في التوراة والإنجيل كليهما (الأعراف: ١٥٧) وقد جاء أن من مقاصد بعثته المسيح ﷺ الهامة البارزة هو التبشير بمبعث النبي ﷺ (الصف: ٦) وقد قدم القرآن كبرهان قاطع على صداقته أن علماء بني إسرائيل يعرفونه كما يعرف الأب المهجور ابنه الموعود المنتظر. (الأنعام: ٢٠) ومعنى ذلك أنهم كانوا يعرفون الرسول ﷺ معرفة تامة كما قال: ﴿وَلَنُفِئَنَّ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * نَبِّئِ النَّاسَ بِأَنبَاءِهِمْ لَعَلَّ هُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الأنعام: ١٠٩) ﴿وَلَنُفِئَنَّ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * نَبِّئِ النَّاسَ بِأَنبَاءِهِمْ لَعَلَّ هُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١).

٢ - ولا تضاد ولا تخالف فيما يقدمه النبي ﷺ من الله من حيث الكلام الإلهي. ولا يأتي بهذا الدعوى الكبير عبقرى من العباقرة إلى درجة نهائية أيّا كان، من أمثال سقراط وفلاطون أو كانت أو آئن ستاين أو غالب أو إقبال أو الرازي والزمخشري في إبداع من إبداعاته. ولكن القرآن قال هذا القول في نفسه، وقاله بكل تأكيد إنه لا يوجد فيه تناقض تافه للفكر والخيال. فهل يكون هناك إنسان في الدنيا كان يتكلم ويخطب لسنوات عديدة على مواضع مختلفة متنوعة، في حالات متباينة وعلى مواقع مختلفة، ثم إذا ما تم تدوين وترتيب تلك الخطب انصاغت في مجموعة كلام متوافق تمام التوافق منسجم تمام الانسجام. لا ترى فيه صداماً للأفكار والأخيلة ولا لمحة من الكيفيات الحادثة في ذهن المتكلم، ولا أثراً من آثار تبديل الرأي وتغيير وجهة النظر؟ هذه خصيصة القرآن وحده. فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٢).

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٩٣ — ١٩٧.

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٢.

يقول الأستاذ الإمام:

«وكل مقولة للقرآن مستحكمة ومترابطة في أصولها وفروعها إلى درجة لم تكن صيغ الرياضة وقوانين الأقليدس مستحكمة كاستحكامها. فإن العقائد التي جاء بها هي متناسقة ومترابطة بعضها من بعض، أن نفرق واحدة منها فتتشر السلسلة الكاملة لها. والعبادات والطاعات التي يأمر بها هي تنبثق من تلك العقائد كما تتفرع الأغصان من الجذع. والأعمال والأخلاق التي يلقيها القرآن تظهر من أصولها كما يظهر اللوازم الطبيعية الفطرية من الشيء. ونظام الحياة الذي يحدث من تعليمه الجماعي يبرز في صورة بنية مرصوص. كل لبنة من لبناتها ترتبط وتلتصق بعضها من بعض، أن لا يمكن تجزئتها من الأخرى إلا بإحداث خلل في البنية كله»⁽¹⁾.

٣ - ويعطي الله تعالى النبي معجزات وخوارق. والمعجزات والخوارق التي مُنحت لسيدنا المسيح ﷺ قد صرح القرآن نفسه فيها أنها أعطيت للدلالة على أشياء، ومنها كانت رسالة هؤلاء الأنبياء. فقد قال بعد ذكر العصا واليد البيضاء لموسى ﷺ: ﴿فَلْيَاذِكْ بُرْهَانٍ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾⁽²⁾.

ولا يمكن لشخص أن يرد هذه المعجزات القاهرة بأنها نوع من السحر والساحرية، أو نقطة كمال للفن والعلم. لأنه لا يعرف كنه وماهية العلوم والفنون كهذه أكثر من البارعين فيها، والذين هم بدورهم اعترفوا عجزهم أمام المعجزات الربانية. وما ذكرنا أنفاً من معجزات موسى ﷺ فقد أراد فرعون إزالة تأثيرها من الجماهير فقد أرسل إلى سحرة مملكته وقدم بهم أمام موسى لميقات يوم معلوم يوم عيدهم، وكان قد توقع الفتح ولكن إذا ما رأى السحرة أن عصى موسى قد

(1) تدبر القرآن: ٢/ ٣٤٧.

(2) سورة القصص، الآية: ٣٢.

التقم بما جاؤوا من سحر عظيم فألقي السحرة ساجدين وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون.

وبما أن إيمانهم قد انبعث بعد رؤية الحقيقة عياناً فكان راسخاً لدرجة أن لما تهددهم فرعون بقوله: ﴿فَلَا قُطْعَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا ضَلْبَنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾^(١)، فهو لاء السحرة الذين كانوا قبل ثوان عديدة يلتسمون فرعون الأجر بالاحاح ولجاج (الأعراف: ١١٣) فاجؤوا فرعون بقولهم: لا نبالي بما تفعل بنا بعد رؤية هذه الآية لربنا: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾^(٢).

والمعجزة التي أعطاها محمد ﷺ من هذه الحيشة هو القرآن الكريم. فإذا قرأه الواقفون على أساليب بلاغة العربية والعالمون لرواية العلم والأدب لهذه اللغة، الحاملون للذوق الأدبي السليم أحسوا إحساساً قوياً بأنه ليس من كلام البشر. فإنه في آونة وأخرى قد تحدى مخاطبيه ومعانديه أن يأتوا بسورة مثله إن كانوا صادقين في زعمهم أن محمداً يخلقه. فإن كان بإمكان فرد من قومهم أن يأتي بهذا العمل دون خلفية علمية وأدبية سابقة كما يزعمون، إذن لا يتحرجون في القيام بعمل كهذا. وكان دعوى القرآن هذا دعوى محيراً جداً فكان يعني أنه لا يمكن لذهن إنساني أن يبدع كلاماً مثله. فكان تحدياً من حيث فداة القرآن فصاحةً وبلاغةً ومن حيث براعة بيانه. وكان تحدياً أن يأتوا بكلام يتكلم فيه الإله مثل القرآن، ويوضح حقائق للبشرية إيضاحها، من أمس الحاجة لها والتي لم يفسرها كلام آخر ويرشد في معاملات وأمور لا توجد لها ذريعة أخرى برأسها للترشيد فيها، كلام يشهد له الوجدان وتصدقه مسلمات العلم والعقل. الذي يروي ويسقي القلوب الميتة رواء المطر الأرض الميتة. والذي له شأن وتأثير بالغ يشعر به قارئه إذا كان مطلعاً على لغته في كل لفظ من ألفاظه. ويشهد التاريخ أنه

(١) سورة طه، الآية: ٧١.

(٢) سورة طه، الآيتان: ٧٢ و٧٣.

لم يجترئ أحد من مخاطبي القرآن أن يقبل ذاك التحدي كما قال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (١).

وكتاب الله هذا متواجد عندنا في يومنا هذا، مر عليه أربعة عشر قرناً على أقل حد. والدنيا في أثناء هذه البرهة الطويلة قد تغيرت رأساً على عقب، ووضع بنو آدم أصناماً كثيرة للفكر والخيال ثم كسروها بأنفسهم، وجاءت تغيرات كبيرة في نظريات الإنسان للأنفس والآفاق، ومر الإنسان بمراحل كثيرة للترك والاختيار. فبأي الطريق مر وأخيراً إلى أين وصل. ولكن هذا الكتاب بين كتب العالم لم يزل وما يزال كتاباً محكماً ثابتاً كما كان قبل أربعة عشر قرناً من اليوم. الذي يبحث عن أكثر مما كان موضوعاً خاصاً للبحث والتحقيق أثناء قرنين ماضيين. وكما كان العلم والعقل مضطرين إلى اعتراف العجز أمامه حينها يعترفان اليوم عجزهما كذلك. فكل بيانه بيان مبرح بكل شأنه ولم تسطع الدنيا مع كل اكتشافاتها العلمية أن تدخل فيه أي تعديل وتغيير. كما قال: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٢).

٤ - ومنها أن الله تعالى يطالع نبيه على بعض الأمور الغيبية التي لا يمكن أن يعلمها إنسان عادي. ومثال ذلك التنبؤات التي صدرت من الوحي الإلهي وصدقت كلها على طريقة محيرة وجاءت بعضها في القرآن وذكرت بعضها في الأحاديث والآثار، فمثلاً كل طالب للقرآن يقف على تنبؤات من غلبة رسول الله ﷺ في أرض العرب، وفتح مكة ودخول الناس أفواجا في دين الله. وكان تنبؤ غلبة الروم على الفرس ثانياً من بعد غلبهم كان تنبؤاً عجبياً وعظيماً. فقال: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٢٣ و ٢٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٠٥.

بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿١﴾.

ولما جاء هذا التنبؤ ففي لفظ غبن كاتب «انحطاط رومة» لم يكن تنبؤًا بعيد الوقوع مثل هذا التنبؤ لأن الاثني عشر عامًا السابقة له رقل كانت تعلن وتنبئ عن القضاء المحتوم لسلطنة رومة^(٢) ولكن قد صدق صدقًا تامًا، ورجع إمبراطور الروم إلى عاصمة قسطنطينية في مارس ٦٢٨ للميلاد بشأن فخم تجر عربته الملكية أربعة أفيال والكثير من الناس في خارج العاصمة ينتظرون قدومه حاملين السُّرج وأغصان شجرة الزيت تهنئةً وترحيبًا ببطلهم.

٥ - ومن الأنبياء من يفوز بدرجة الرسالة فيأتون كمحكمة الإلهية وودعوا الدنيا وقد قضى على قومهم. ويتم ذلك أن يأتي الرسول فإن كان قومه يقوم على ميثاق ربهم يُجزون جزاءه في هذه الدنيا وإن انحرفوا عنه عوقبوا عليه فيها، فيصير وجودهم آية إلهية كأن الناس ينظرون الله معهم يمشي على الأرض، يحكم ويقضي فيها. ويوفر ذلك أساسًا للقضاء الإلهي في الدنيا والآخرة، فيعطي الله الغلبة لرسله عليهم، وينزل العذاب على المنكرين لدعوتهم كما قال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٣﴾.

بشرية النبي

يكون النبي بشرًا. فهو يعيش كإنسان عادي ويمشي في الأرض يهب وينام، يتزوج ويلد ويودع الأرض بسبب الموت كما يطرأ كل على الناس أجمعين. ولم يكن أحد من الأنبياء إلهًا أو رمزًا للإله أو شبه إله أو ملكًا. فصرح القرآن في كثير

(١) سورة الروم، الآيات: ٢-٦.

(٢) انظر انحطاط روما لإيدورد غبن ٧٨٨/٢.

(٣) سورة يونس، الآية: ٤٧.

من المواضع بأنه لا فرق بينهم وبين الأناس العاديين. وقد نقل القرآن مطالبات عديدة لمخاطبي رسول الله ﷺ أنه إن كنت نبياً ففجر لنا من الأرض ينبوعاً. أو يكون لك بيت من زخرف وذهب أو تفجر الأنهار، أو تجيء بقوافل الربيع في صحارى لنا قاحلة أو تنبت لنا جنات من أعناب ونخيل وغيرها. أو تسقط علينا السماء كسفاً، أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً، أو ترقى في السماء وتنزل علينا كتاباً نقرؤه. وما كان شيء من ذلك محالاً على الله تعالى.

فإن شاء الله لفعل ذلك كله لرسوله. ولكنه صرح أن قل لهم إنك بشر رسول ولست فوق بشر فهذه المطالبات كلها جاءت في غير موضعها. قال: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا * وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا * قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمُشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ (1).

ولكن لا يعني ذلك أنهم يكونون كعامة البشر من حيث العلم والأخلاق والعمل والذهن وباعتبار روحانيتهم. كلا، لا إن دراسة أحوالهم وسوانحهم تدل على أنهم يكونون أبرعهم خلقاً وأروعهم خلقاً وخيرهم ثمرة وأكملهم إنساناً. وقد قال القرآن إنهم إذا شاء ربهم أوتوا العلم والحكم من لدنه كما جاء في سيدنا يحيى: ﴿يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِّنَ لَّدُنَّا وَزَكَاةً * وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ (2).

كما قال تعالى في موسى ﷺ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (3).

ثم لم يتوقف الأمر على ذلك بل إنهم يكونون على درجة أتم وأكمل للبصيرة البشرية المفطور عليها الإنسان. فهم يُبْقون حداثتها ويحمونها من كل

(1) سورة الإسراء، الآيات: ٩٣ - ٩٥.

(2) سورة مريم، الآيات: ١٢ - ١٤.

(3) سورة القصص، الآية: ١٤.

طوفان يثيره النفس البشري. وكانوا قبل التشرف بالوحي على أزكى قلب وأسلم فطرة والحق يبرهن عليهم إلى حد أكبر، وهذه الصفة الخاصة اتسمت في القرآن بوصف «بينة» وتشهد وقائع وأحداث الأنبياء أنهم كانوا يشهدون الوحي الإلهي كشاهد على ضيائهم الباطني هذا وبصيرتهم الفذة، فقد جاء في نوح عليه السلام أنه قال: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعَمِيتَ عَلَيْكُمْ أَنْزِلْكُمْ مَّوْجًا وَانْتُمْ لَهَا كَاذِبُونَ﴾ (1).

وجاء في سيدنا صالح: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَنِي رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ، فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ (2).

وفي شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ الْفَكْمَ إِلَىٰ مَا أَنهَكُم عَنْهُ﴾ (3).

فطرة النبي

والنبي مفطور على الفطرة الكاملة لإنسان كامل. وتُشعر الإشارات التي جاءت في الصحف السماوية الملهمة المتصلة بسيرة الأنبياء عليهم السلام وسوانح ووقائعهم أنه تكون بحيازتهم الرحمة والغضب، كما أنهم يحسون إحساسات القلق والألم والاضطراب والتحسر والتأسف والحزن والندم أيضًا إذا صدرت منهم خطأ. فتارة يتوبون ويستغفرون كالعباد الخاضعين الخاشعين ومرة يختارون طريقة الإلحاح والمجادلة لربهم. وهذا يكون لكي يتم التوافق معهم ومع مخاطبيهم الذين تمت إليهم بعثتهم لإتمام الحجة عليهم وأن يتأثر بهم قومهم. فإن كانوا خالين من كل العواطف والمشاعر كهذه لا يفعل كلامهم أي تأثير في قومهم.

ثم إنهم يكونون فردًا كاملاً لقومهم مع كونهم مظهرًا أتم وأكبر للإنسانية.

(1) سورة هود، الآية: ٢٨.

(2) سورة هود، الآية: ٦٣.

(3) سورة هود، الآية: ٨٨.

ومعرفة حالات الأنبياء ودراسة سيرتهم تطلعنا على أن كل نبي كان عطراً لقومه وخلاصته، وأميناً لتقاليد الحضارية وجامعاً لمحاسن الأخلاق التي بقيت فيه. ولا شك أنه يكون مطهراً من كل مساوئهم ولكنه يماثلهم في العادات والتقاليد تماثلاً يترأى القوم ونبيه في تلك المرأة ولذا قال القرآن لو أرسل الله ملكاً رسولاً لجعله أيضاً بشراً حتى تتم العلاقة المؤثرة للإبلاغ بينه وبين مخاطبيه. فقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلِيسُونَ﴾ (1).

نعم قد اختلف الأمر بعض الاختلاف في الرسل الذين جاؤوا فقط لغرض إتمام الحجة من أمثال سيدنا يحيى عليه السلام وسيدنا السح (عليه السلام). فإنهم أقرب من الملائكة بطبيعتهم ولذا قلت إفادتهم للناس.

عصمة النبي

لقد يتم انتخاب أشخاص من حيث الأنبياء من يتقون أنفسهم من ترغيبات النفس والشیطان، ويتجنبون الذنوب والمعاصي، ويكونون من الخيار الصالحين في قومهم من كل اعتبار. فقد عدّد الكثير من الأنبياء في الأنعام الآية (٨٥) وقال: كل من الصالحين. كما جاء في موضع آخر: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ * وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ (2).

فبسبب هذه التقوى والحذر يصونهم الله تعالى، فماذا حدث ليوסף عليه السلام من امرأة العزيز في مصر يتوضح منه وضوحاً تاماً أنه إذا حدثت طارئة مثل ذلك قبل النبوة لم يعد سهلاً عصمة نفسه، فيرشده الله تعالى في مثل هذه الحالات ببرهان خاص له. وهذا البرهان يجيء من النور الإلهي الذي قد أعطيه الكل عموماً. ولكن من سنة الله أن من يقبله ويقدره حق قدره ويستخدمه في حياته يقوي فيه لدرجة أن يتبرق في باطنهم في الحالات الحرجة العصبية ويخرق ستور

(1) سورة الأنعام، الآية: ٩.

(2) سورة ص، الآيات: ٤٥ — ٤٨.

الظلمات من الأبصار و يقيمه عل جادة الهداية والرشد، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَّبَّا بُرْهَنَ رَبِّيَّ ۖ كَذٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (١).

ولا بد أن لا يقع شخص في الخطأ مما ذكره القرآن من خطأ آدم عليه السلام. فلا شك أن القرآن قد استخدم «عصيان» للتفسير عن خطئه. ولكن القرآن نفسه قد صرح أن ذلك العصيان إنما نشأ من النسيان لا من جانب النفس ولم يرتكبه بالإرادة. ويخبرنا القرآن أن الشيطان لما وسوس إليه وأقسم له مراراً وتكراراً أنه من ناصحيه وأن هناك شجرة الخلود ولا يحصل لهما الخلود والملك الذي لا يبلى إلا بطريق الأكل من الشجرة الممنوعة. غلبته العواطف البشرية وعصى ربه ولكنه لم يتماد به ولم يلح عليه بل تاب إلى ربه وندم منه ندماً شديداً واستغفر لذنبه، فتاب الله عليه وهدى ومنحه منصب النبوة. فقال: ﴿وَلَقَدْ عٰهَدْنٰا اِلٰى اٰدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسٰى وَلَمْ يُجِدْ لَهٗ عَزْمًا ۖ وَاِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوْا لِاٰدَمَ فَسَجَدُوْا اِلَّاۤ اِبْلِيسَ اَبٰى ۖ فَكُنَّا يَتَّكِدُ مِنْ هٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِرَجُلِكَ ۚ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقٰى ۖ اِنَّ لَكَ اَلَّاۤ اٰلًا يَجُوْعُ فِيْهَا وَلَا تَعْرِىٰ ۖ وَاَنْتَ لَا تَظْمُؤُا فِيْهَا وَلَا تَضْحٰى ۖ فَوَسَّوْاۤ اِلَيْهِ الشَّيْطٰنُ ۚ قَالَ يَتَّكِدُ مِنْ هٰذَا اَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلٰى ۖ فَاَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءٌ تُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفٰنِ عَلٰٓيْهِمَا مِنْ وَّرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصٰۤىۤ اٰدَمُ رَبَّهٗ فَغَوٰى ۖ ثُمَّ اٰجْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدٰى﴾ (٢).

ولم يختلف ما وقع لموسى عليه السلام من قتل قبطي ظالم من ذلك. فإنه لم يقتله عمداً بل كان صدفةً، إنه أعان مظلوماً من قومه والقبطي الظالم تصادم معه بسبب رعونته فوكزه موسى ومن سوء الحظ أن القبطي قضى عليه من فوره: قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِيْنَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ اَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيْهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلٰنِ هٰذَا مِنْ شِيعَةِ هٰذَا وَهٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنٰهُ الَّذِي مِّنْ شِيعَتِهٖ عَلَى الَّذِي مِّنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسٰى فَقَضٰى عَلَيْهِ ۚ قَالَ

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٤.

(٢) سورة ص، الآيات: ٤٥ — ٤٨.

هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ* قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّكَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾.

يقول الأستاذ الإمام:

«إن سيدنا موسى لم يكن يريد أن يقتل القبطي ولم يكن يتوقع مصادفة هذا الحدث. فإذا وقع ذلك صدفةً ندم عليه ندمًا شديدًا واستغفر لخطئه. ربي إنني ظلمت نفسي فاغفر لي. وبما أن الخطأ قد وقع بلا إرادة ثم لم يتأخر عن الاستغفار ولذا غفر له ربه من فوره وبشر بالغفران فإن الله هو الغفور الرحيم⁽²⁾»:

والحدثان قد وقعا قبل النبوة. ويفيد القرآن أن الأنبياء بعد التشرف بالنبوة يكونون في رصد وإشراف من الملائكة يحرسونهم، ويحصون كل شيء يتعرض له الأنبياء ويرصدون أن قد أبلغوا رسالات ربهم أم لا؟.

فلم يكن بعد كل هذا هناك إمكان أن يقعوا في خطأ وزلة، مهما كانت قليلة وضئيلة. قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَرْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَلِنِئْهِ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا* لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾⁽³⁾.

رياضة النبي

وبما أن مسؤولية الأنبياء مسؤولية كبرى فإنهم يُتقاضى منهم اهتمام كبير متناسب مع هذا المسؤولية للعبادة والرياضة. قصدًا إلى طمأنينة الصدر وتطهير القلب والنظر، بذريعة التبتل إلى الله وإيتائهم الاستقامة في العلم والعمل. كما يفيد القرآن بأن موسى قيل له أن يعتكف في جبل الطور أربعين يومًا هدفًا إلى إعدادات ذهنية وقلبية لتحمل ألواح التوراة (الأعراف: ١٤٢ - ١٤٥) وكان السيد يحيى والسيد المسيح ﷺ زاهدين متجردين إلى حد الرهبانية لأنهما كانا يُشغلان

(1) سورة القصص، الآيتان: ١٥ و ١٦.

(2) تدبر القرآن: ٥/ ٦٦٣.

(3) سورة الجن، الآيتان: ٢٧ و ٢٨.

كل لمحة من حياتهما مستغلاً في إتمام حجة على قوم سوف يُقضى عليه. ورمياً إلى ذلك كان النبي ﷺ يعتكف كل سنة وكان يصوم بين الآونة والأخرى، ولما أمر القيام بالإنذار العام فرض عليه صلاة التهجد مع صلوات المفروضة الخمسة، وأن يقرأ القرآن ثلثاً من الليل أو زائداً عليه فيها قراءة ترتيل كما جاء في سورة بني إسرائيل: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾⁽¹⁾. وجاء في المزمّل أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمُلُ * قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نَضْفَهُ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَمِعْنَا عَلِيكَ قَوْلًا فَعِيلاً * إِنَّا نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا * وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾⁽²⁾.

فضيلة النبي

ويكون النبي أفضل البشر عامةً كما قال بعد ذكر بعض الأنبياء ﷺ: ﴿وَكُنَّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾⁽³⁾ ومع ذلك فقد حصلت هناك فضيلة لهم خاصة بعضهم على بعض، وبخاصة للرسل منهم، ويكونون ممتازين على الآخرين من بعض الجوانب كما جاء: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْكِتَابَ وَآيَدْنَاهُ رُوحَ الْقُدُسِ﴾⁽⁴⁾.

ووضح من ذلك أن موسى ﷺ قد كلمه الله تكليماً هذا جانب خاص لفضيلة كما أعطى المسيح ﷺ معجزات بينة وأيده بروح القدس وهذا من امتيازاته المخصوصة. وقس على ذلك درجات الرسل الآخرين ومراتبهم. وقد قال النبي ﷺ عن نفسه: «فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ،

(1) سورة الإسراء، الآية: ٧٩.

(2) سورة المزمّل، الآيات: ١ — ٨.

(3) سورة الأنعام، الآية: ٨٦.

(4) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

ونصرت بالرُّعب، وأحلت لي المغانم، وجعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون»⁽¹⁾.

وعني بقوله: «جعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا» أن الصلاة في شريعتي ليست بخاصة للمساجد والمعابد بل تتم في كل مكان على وجه الأرض، وإذا لم يوجد الماء تُقضى حاجتا الغسل والوضوء بالتميم بالأرض. وينبغي أن تنظر فضيلة الأنبياء والرسل من هذا المنظار، حتى أن النبي ﷺ قد نبه الناس على ذلك على مواقع عديدة فمثلاً خاطبه صحابي مرة بقوله: «يا خير البرية» فقال: كان إبراهيم خير البرية⁽²⁾. وسأله بعض الناس: من هو أفضل الناس فقال: يوسف ابن نبي ابن نبي ابن إبراهيم خليل الله أو كما قال ﷺ⁽³⁾. ووقع ذات يوم أن ذكر مسلم النبي ﷺ في قسمه مما فضل الله به على العالمين فقال يهودي ردًا عليه: وبالله الذي فضل موسى على العالمين: ولما سمعه المسلم غضب ولطم اليهودي لطمه فشكا اليهودي إلى النبي ﷺ فقال: لا تفضلوني على موسى فإني إذا استيقظت يوم القيامة رأيته ممسكًا بالعرش الإلهي ولعله لم يُغش عليه أو يهب من قبلي⁽⁴⁾.

ومع وضوح هذا التعليم وضوحًا تامًا ولكن أمم الأنبياء ﷺ لم تقبله عمومًا بل اختاروا مسلكًا خاطئًا تمامًا في هذا المجال وقامت تعصبات كثيرة فيما بينهم فوقعوا في الاقتتالات والمحاربات في ذلك.

يقول الأستاذ الإمام:

«أما ما سلكته كل أمة في نبيها أن خصته بسائر الكمالات والفضائل ونفت كل فضيلة عن نبي آخر باعتبار منافٍ للإيمان، فكانت النتيجة لهذا التعصب والتحجر أن انزوت كل أمة من الأمم السابقة إلى زاويتها وانكمشت في قوقعتها.

(1) مسلم رقم: ١١٦٧.

(2) رواه مسلم رقم الحديث: ٦١٣٨.

(3) رواه البخاري رقم ٣٣٥٣ ورواه مسلم رقم ٦١٦١.

(4) مفهوم ما رواه البخاري رقم: ٢٤١٢.

وصارت طرائق الاستفادة من بركات الأنبياء والمرسلين الآخرين عليها مسدودة عليها، فلو انتهجت منهجاً صحيحاً لكان كل رسول رسولهم وكل دعوة دعوتهم، ولحظيت أيضاً من دعوة القرآن الكريم التي جاءت اليوم كهداية أخيرة في الدنيا، وقد أشار إلى هذه الحقيقة حين قال في بني إسرائيل: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ (1) و (2).

إطاعة النبي

الإيمان بالنبي يقتضي باللزوم أن يطاع النبي ﷺ بإذن الله. فقد أوضح ذلك الله تعالى في كتابه على مواقع كثيرة أن النبي ليس فقط مرجعية للعقيدة بل يجب أن يكون مركزاً للطاعة أيضاً. ولم يأت النبي أن يؤمن به الناس وبس وفرغوا من كل شيء. فإنه ليس بمثابة واعظ ناصح بل بدرجة هادٍ واجب إطاعته. ولم يبعث إلا ليطاع في كل أمور الحياة وكافة المجالات بدون أي تردد ولا تخرج فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (3).

فإن الله تعالى لا يعامل مع العباد معاملة مباشرة بل يعطي هديه وإرشاده بوساطة الأنبياء والرسل. نعم المقصود الأصلي هو طاعة الله تعالى ولكن لا تحصل ذلك إلا بطاعة رسله وأنبيائه. كما جاء: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (4). وجاءت تلك الحقيقة في الآيات الأخرى التي تبحث عن المضمون. وقد أوضح أيضاً أنه يجب التسليم إلى ما قضى به النبي ﷺ في ما يشتجر بينهم من الخصومات والنزاعات والقضايا، بطمأنينة قلب كاملة وبلا أي تخرج منه، فقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (5).

(1) سورة الإسراء، الآية: ٥٥.

(2) تدبر القرآن ١/ ٥٨٣.

(3) سورة النساء، الآية: ٦٤.

(4) سورة النساء، الآية: ٨٠.

(5) سورة النساء، الآية: ٦٥.

يقول الأستاذ الإمام:

«إن الله قد أقسم بنفسه قائلًا إنهم لا يكونون مؤمنين حتى يحكموك فيما اشتجر بينهم ثم ما لم يتغير تغيرًا ذهنيًا وفكريًا أن يسلموا ما تقضى به بطمأنينة قلب وانسراح صدر وبدون تردد، وأن يسلموا أنفسهم إليك من غير استثناء وتحفظ. فتعني إطاعة الرسول طاعة الله عز وجل بنفسه. فلا يؤدي حقه من الإطاعة الظاهرة فقط، بل يجب أن تصحبها طاعة القلب أيضًا»⁽¹⁾.

ولذا فطاعة الرسول ليست شيئًا رسميًا فقط فإن القرآن يطلب أن تكون بإخلاص كامل وحب صادق واعتقاد بالغ وبكل احترام وتقدير، فإنه لم يحصل لإنسان محبة الله تعالى إلا بهذا الاتباع الصادق للرسول كما جاء: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾⁽²⁾.

وقد أوضح ذلك النبي ﷺ ذلك بنفسه بطرائق مختلفة فمثلاً روي البخاري أنه ﷺ قال: لا يكون أحدكم مؤمنًا حتى أكون إليه أحب من والده وولده والناس أجمعين⁽³⁾.

وفي سورة الحجرات قد ألقى الخطاب خاصةً إلى ناس متمين إلى القبائل البدوية المتجاورة للمدينة، لإرشادهم إلى آداب يلحظونها في الحضرة المحمدية، والتي تلقي ضوءًا كاملاً على مرتبة النبي ومنزلته الرفيعة. فقد قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾⁽⁴⁾.

(1) تدبر القرآن ٢/ ٣٢٩.

(2) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

(3) رواه البخاري رقم ١٥ ورواه مسلم برقم ١٦٨ - ١٦٩.

(4) سورة الحجرات، الآيات: ١ - ٣.

يقول الأستاذ الإمام:

فهذا تعليم للأدب الصحيح الذي يجب أن يراعيه كل مؤمن في ذات الرسول ﷺ. فقال إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله هم الذين قد اصطفاهم الله تعالى ليزكو تقواهم. ولفظ امتحن في الآية المباركة هنا يتضمن معنى اصطفى وما شابهه من التعابير. ومن هنا نعلم أن كل قلب لا يكون خليقاً لتزكية التقوى وإنباته فيه. بل ينتخب الله لذلك قلوباً ينظر في انتخابها هل هناك شعور صادق للانقياد والطاعة لله ولرسوله وعاطفة قوية للخضوع الكامل لهما أم لا. وكلما زاد هذا الشيء في داخل شخص يتنعم بالتقوى بقدر ذلك، وبقدر ما يتعري الإنسان من هذا الشعور يبعد من التقوى بقدر ذلك. وقد ذكر هنا رفع الصوت كما أشرنا إليه كمؤشر على الباطن لأن الذي يرفع صوته على صوت أحد ينبي عمله هذا عن أنه يترفع منه، وهذا ما يسد عليه الباب من كسب الفيض منه سداً. فإن كان هذا تعامل طالب مع أستاذه يحرم من فيضه، وإن تعامل أحد ذلك مع رسول الله فلا يحرم من فيضه فقط بل من توفيق الله أيضاً. لأن الرسول هو ممثل لله سبحانه وتعالى⁽¹⁾.

شفاعة النبي

إن فريضة النبي الأصلية هي الإنذار والتبشير. ولكنه مع ذلك يشفع للعباد في حضرة الله تعالى. ولكن ما هي الشفاعة؟ إذا استغفر عبد وتاب فهو طلب من الله الاستغفار له ودعاء النبي من الله أيضاً هو شفاعة له. وهو مفهوم حقيقي للشفاعة فلا تتصور شفاعة بدون استغفار وتوبة من العبد نفسه. والشافع يكون كفرد ثانٍ وكلسان للمستغفر ويكون عوناً له في الدعاء والمناجاة والخضوع والتذلل. كما قال تعالى:

(1) تدبر القرآن ٧/ ٤٨٩.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأْ رُءُوسُهُمْ وَرَأَتْهُمْ يُصْذُونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾^(١).

وأول موقعة للشفاعة تأتي إذا جاء عبد في حيز الإيمان ويستغفر له النبي. وثانيًا إذا ذنب عبد واستغفر وتاب إلى الله فقد نصح الله عز وجل لمنافقي عهد الرسالة في موضع أنهم إذا شاؤوا أن يغفر لهم يجب عليهم أن يستغفروا بأنفسهم ويأتوا الرسول يلتمسون منه الاستغفار لهم، فرجوعهم هذا يكون سببًا لأن يتوجه إليهم رحمة الله تعالى فقال:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾^(٢).

وقد دعا الله سبحانه عباده المذنبين الخاطئين إلى التوبة والاستغفار في أكثر من موضع في القرآن الكريم فمرة قال: ﴿قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(٣). (الزمر: ٥٣ وأيضًا يوسف: ٨٧) ثم أوضح أيضًا سنته في باب التوبة والاستغفار وهي أن يتوب العبد على أسرع وقت ممكن بعد أن أذنب لأنه: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يُتَوُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ أَكُنْ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(٤). وهناك قد سكت الله عز وجل عن الذين لم يسعدوا بالتوبة من قريب ولكن لم يتأخروا أيضًا أن يأتيهم الموت. فهم الذين تتوقع فيهم الشفاعة فقد أثبتها القرآن، ولكنه رد أيضًا ردًّا صريحًا على تصورات

(١) سورة المنافقون، الآية: ٥.

(٢) سورة النساء، الآية: ٦٤.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

(٤) سورة النساء، الآيتان: ١٧ و ١٨.

خاطئة للشفاعة اختلقها الناس من عند أنفسهم، وتنفي عدل الله ووجوب الجزاء والعقاب أيضًا.

أولاً الشفاعة هي لله عز وجل فقط فلا يشفع أحد بغير إذنه حتى وملائكته المقربون أيضًا، فلا بد إذن من إرضاء الرب تعالى حتى يأذن للشفاعة ويتقبلها كما جاء: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ، مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿⁽¹⁾﴾. ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ، بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ * لَا يَسْبِقُونَهُ، بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿⁽²⁾﴾.

وثانيًا تؤذن للشفاعة من الله تعالى بغير إذنه لا يمكن لشخص أن يتكلم في شخص فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ ﴿⁽³⁾﴾. ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ، قَوْلًا﴾ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ، عِلْمًا ﴿⁽⁴⁾﴾.

وثالثًا التكلم يتم فقط فيمن أذن له الله وأن يكون صوابًا صحيحًا فقال: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ ﴿⁽⁵⁾﴾.

فهذه هي وجهة نظر القرآن في باب الشفاعة. يجب أن تحكم في ضوئها على روايات وآثار جاءت في باب الشفاعة فإذا تجاوز شيء فيها عن ذلك يجب أن ترد اعتبارًا بها من قبيل تصرفات الرواة فيما يروونه.

ختم النبوة

فكان الأنبياء قد جاؤوا إلى كل قوم وإلى قرون كثيرة. وكان بعثهم يهدف

(1) سورة الزمر، الآيتان: ٤٣ و ٤٤.

(2) سورة الأنبياء، الآيتان: ٢٦ و ٢٧.

(3) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

(4) سورة الأنبياء، الآيتان: ٢٦ و ٢٧.

(5) سورة طه، الآيتان: ١٠٩ و ١١٠.

إلى هداية الناس وترشيدهم وإتمام الحجة عليهم فلما تكمل هذا الهدف بطريق حفظ القرآن وبظهور دينونة إلهية على الصعيد العالمي انتهت سلسلة النبوة وأكمل قصر النبوة وخُتم عليها. وكانت قد ابتدأت من آدم ﷺ وظل الأنبياء يأتون حتى جاء محمد الرسول ﷺ في فرع لذرية إبراهيم، بنني إسماعيل وأعلن القرآن بأنه ختم الرسل ولا نبي بعده. وهذا كان واضحاً صريحاً في تنبؤات الأنبياء ﷺ في بعثته ولكن جاء ذكر ذلك صريحاً صارماً حين أمره الله تعالى أن يتزوج طليقة زيد   وجاء ذاك الحكم في إصلاح تقاليد جاهلية في الأبناء الأديعاء لكونه ختم الرسل كان ضرورياً أن يتم ذلك الإصلاح بطريقة. فإذا كان هناك نبي يأتي بعده لتأخر ذلك الأمر ولكن بما أنه لا نبي بعده فكانت التبعة والمسؤولية على عاتقه فقال: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (1).

قد استعمل في هذه الآية لفظة «خاتم النبيين» وليس بخاتم بكسر التاء بل خاتم بفتح التاء. ويستخدم في اللغة العربية للخاتم والمهر ويعني بختام شيء إغلاقه للأبد وهنا أيضاً استعمل لإعطاء معنى أن سلسلة النبوة الآن قد ختم عليها، وأغلق بابها للأبد فلا نبي ولا رسول بعده. وهذا هو المفهوم الذي تؤديه في الإنجليزية بـ seal of the prophet.

ولا شبهة أن المهر والخاتم قد يستعمل لتصديق شيء. ولكن هذا المفهوم لا يصح في هذه الآية بأي طريق. نعم إذا أصر عليه أحد ونسلم له على سبيل التنزل فلا يتغير المفهوم في هذه الصورة أيضاً. ويكون المعنى إذن أنه لا نسلم بنبوة أحد بغير تصديق منه. ولا شك أننا نسلم ونؤمن بنبوة الأنبياء الآخرين بتصديق منه، ولكن الحقيقة التي لا تجحد أنه ﷺ لم يبشر بنبي قادم بعده ولم يصدقه، بل أعلن مراراً وتكراراً وفي ألفاظ صريحة صارمة أنه آخر الأنبياء ولا نبي بعده. ثم لم يتوقف الأمر على ذلك بل قد أوضح أنه ليس فقط انتهى منصب النبوة بل حقيقة النبوة أيضاً قد انقضت فليس لأحد إمكان للوحي والإلهام ولا

(1) سورة الأحزاب، الآية: ٤٠.

للمخاطبة الإلهية والمكاشفة الربانية. فكل هذه الأشياء قد ختم عليها للأبد. كما يتوضح من أحاديثه التالية:

١ - كان بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي. وإنه لا نبي بعدي. وسيكون خلفاء^(١).

٢ - إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فتجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين^(٢).

٣ - لم يبق من النبوة إلا المبشرات، قالوا: وما المبشرات؟ قال الرؤيا الصالحة^(٣).

الإيمان بالكتب

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَالْيَوْمِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾^(٤). أرسل الله رسله وأنبياءه لترشيد الإنسان فكذلك أنزل الله عليهم كتبه. وإنزال الكتب يرمي إلى أن يتواجد في الناس هدى الله المكتوب وفي الملفوظ الرباني حتى يكون ميزاناً للحق والباطل ولكي يحكم الناس به فيما اختلفوا فيه وأن يقوموا على القسط والعدل في دين الله. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ءَالْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا اُخْتَلَفُوا فِيهِ﴾^(٥) ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ءَالْكِتَابَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾^(٦).

(١) رواه البخاري رقم: ٣٤٥٥.

(٢) رواه البخاري رقم ٣٥٣٥.

(٣) رواه البخاري رقم الحديث. ٦٩٩.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٣٦.

(٥) سورة البقرة، الآية ٢١٣.

(٦) سورة الحديد، الآية: ٢٥.

وتفيد مجموعة صحائف تسمى بالأناجيل بأن هذه الكتب قد تم إيتاؤها في صورة من الصور لكل الأنبياء فالقرآن يذكر صحف إبراهيم كما يذكر التوراة والإنجيل. ويؤيده في الجملة الآيات المذكورة آنفاً من البقرة والحديد. فكل هذه الكتب هي كتب إلهية. والقرآن يتطلب الإيمان بها بدون تفريق. على أن الأربعة منها تحمل مكانة هامة وهي: التوراة والإنجيل والزبور والقرآن. وإليك التعريف بهذه الأربعة فيما يلي:

التوراة

التوراة أنزلت على موسى ﷺ وهي تشتمل على صحائف خمسة، والتي أدرجت في بداية الكتاب المقدس (الأناجيل) والتي يصطلح عليها الخمسة الموسوية (Pentateuch) أي كتابات: الخلق، الخروج، الأبحار، العدد، التثنية. وإذا درست هذه الصحف دراسة تدبر علمت أن التوراة في صحفها الأربعة الأولى قد تم نقلها بترتيب نزولها قبل صحف التثنية. ثم تم تدوينها في كتاب التثنية على حدة من البيانات التاريخية والإرشادات المؤقتة مثل ترتيب القرآن. والتوراة في صورتها المتواجدة قد تم تدوينها في القرن الخامس قبل الميلاد على الأغلب في وقت غير محدد. ويمكن أن يقال أنه قد حصل لها تصويب من سيدنا المسيح ﷺ إلى درجة ما، بناءً على ذكره لها في أسلوب خاص. ويوجد متنها العبرية طبعاً ومخطوطاً يقال له المتن الماسوري (Massoretic Text) على أن هناك روايات عتيقة أخرى غير هذا المتن. وهناك اختلافات كثيرة في بعض المقامات كما تفيد بها الرواية التوراتية السامرية وبالأخص السبعين اليونانية (Septuagint) وهي أقدم رواياتها وهي أيضاً تذكر بعض الخلافات الهامة.

وهداية الله التي توصلت إلى بني آدم بواسطة الأنبياء ﷺ لها جزآن. القانون والحكمة. والتوراة هي عبارة عن القانون الإلهي في غالبيتها ومراعاة لذلك قد سميت بالتوراة. ووصفها القرآن بهدى لبني إسرائيل. (بني إسرائيل: ٢) وتفصيلاً لكل شيء (الأنعام: ١٥٤) وأنه فيها حكم الله (المائدة: ٤٣) وفيها هدي ونور

(المائدة: ٤٤) وهي رحمة للناس (الأعراف: ١٥٤) نعم يذكر القرآن أن اليهود قد حرفوها بتحريفات كثيرة (المائدة: ١٣) ولكن مع كل ذلك فإن القرآن يصدق في الجملة رواية التوراة. (version) التي كانت متواجدة عند يهود عهد الرسالة ونصاراه.

الزبور

هذا اسم لكتاب نزل على داود ﷺ. وباعتبار مضمونه هو مجموعة للنغمات الإلهية أي المزامير. وفي الكتاب يشتمل الآن في مجموعة صحائف الإنجيل باسم الزبور فيه خمسة دواوين و ١٥٠ مزمورًا. وقد اختلط فيه مزامير الناس الآخرين ولكن المزامير التي تصرح بأنها لداود ﷺ كل من له ذوق سليم يشعر المسحة الألوهية الإلهامية فيها. وهو صحيفة الحكمة مثل الإنجيل، والقرآن يصدق من حيث كتاب نزل به الله تبارك وتعالى.

الإنجيل

نزل هذا على المسيح ﷺ. وكان من مقاصد بعثة المسيح الكبرى التبشير بالنبوة الآخرة والخاتمة. ومعنى الإنجيل هو البشارة فسمي الإنجيل لهذه المناسبة. والإنجيل أيضًا كان ينزل نجمًا نجمًا وفي الأوقات المختلفة مراعاة لضرورات الدعوة والإنذار على نحو عام للكتب الإلهامية. وقد رفع المسيح ﷺ من الدنيا من جراء تمرد قومه وطغيانه قبل أن يُدون ولذا ليس الإنجيل كتابًا مربوطًا مرتبًا. وإنما كانت خطبات منتشرة وصلت إلى الناس عبر الروايات اللسانية والمذكرات التحريرية. ولما أخذ الناس يكتبون رسائل في سيرة المسيح ﷺ. أُدخلت فيها تلك الخطب أيضًا حسب الموقع والضرورة. وهذه الرسائل تسمى اليوم الأناجيل. وكانت متواجدة في عدد كثير في بداية المسيحية. إلا أنه في زمن البابا دماسيس (Damasis) إن أساقف الكنيسة قد نخبوا في مجلس لهم تم عقده في ٣٨٢ للميلاد الأربعة منها وتركوا البقية وقرروها غير

موثقة (Apocryphal) وممنوعة. وهذه الأناجيل هي صحائف لمتى، مرقس، ولوقا ويوحنا. يحتوي عليها الكتاب المقدس اليوم. وهذه الصحائف قد كتبت منذ البداية في اللغة اليونانية، على أن لغة المسيح ﷺ كانت آرامية (Aramaic) وقد ألقى مواعظه وخطبه في تلك اللسان. وكتبوا هذه الصحف أيضًا قد دخلوا في ديانة المسيح بعد رفعه، ولذا لم تتم كتابة أي صحيفة من الأناجيل من قبل ٧٠ عامًا للميلاد. بل إنجيل يوحنا قد تم تدوينه في مدينة أفسيس لآسيا الصغرى في وقت لم يحدد، بعد أن مضى على المسيح قرن من الزمن. ومع ذلك فإن الشأن الملهم قد برز في خطبات وإرشادات وأمثال المسيح ﷺ لدرجة في هذه الصحائف أن لا يستطيع إنكارها شخص مطلع على أساليب وطرائق الكتب الملهمة. ولذا بوسعنا أن نقول إن القرآن يطلب الإيمان على الإنجيل الذي قد احتفظ معظم أجزائه في هذه الكتابات لسيرة المسيح ﷺ.

القرآن

قد نزل القرآن على خاتم النبيين ﷺ. وقد جعله الله ميزانًا وفرقانًا (الشورى: ١٧ والفرقان: ١) وهو المهيمن للكتب المنزل من قبله، وهو اسم صفة لهيمنَ على كذا، يعطي معنى الرقابة والإشراف. والمفهوم أن القرآن هو الآن النسخة الأصلية المعتمدة للكتب الإلهية ولذا الإبرام الحتمي هو فقط له في كل أمر للدين ويكون هو الفصل في الأخذ والرد لكل شيء. كما قال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ (١).

له أربع عشرة مئة سورة أكثرها توأمة برعاية مضمونها. وقد رتب في أبواب سبعة حسب ترتيب مراحل الدعوة المحمدية. لسانه عربي مبين نزله جبرئيل الأمين على قلب محمد ﷺ الذي قدمه أولاً على قومه ثم انتقل إلينا بإجماع المسلمين وتواترهم القولي والتحريري. فهو الآن كتاب واحد بين جميع

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

الكتب الإلهامية للعالم، الذي يمكن أن يقال بثقة كاملة إنه موجود فينا في نفس اللغة ونفس الأسلوب ونفس الترتيب الذي نزل فيه بدون أدنى تغير ولا تبدل. وتواتره هذا معجزة في مكانه فإنه كتاب واحد في العالم الذي يمكن للملايين من المسلمين أن يسمعون من «الحمد» حتى «والناس» من حفظهم محضًا. والتاريخ يشهد أن هذا التسلسل لرواية هذا الكتاب وصيانتته هو من جانب رب العالمين بنفسه كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾⁽¹⁾ في موضع آخر ﴿وَإِنَّهُ لَكَنْتُبٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾⁽²⁾.

وجوانب صيانة القرآن التي قد أشارت الآية إليها قد ذكرها الأستاذ أمين أحسن الإصلاح في العبارة التالية:

أولاً: أن الله تعالى قد اهتم اهتمامًا خاصًا لكي لا تتدخل الشياطين في الوحي القرآني. وإن كان هذا اهتمامًا عامًا في الكون أن لا تستمع الشياطين ما يذكر بالملأ الأعلى ولا تختلط ولكن كان هناك اهتمام خاص لكي لا تخطف الشياطين خطفة في الوحي القرآني، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وثانيًا: الملك الذي تم انتخابه لهذا العمل الخطير وصفه القرآن «بذي قوة مطاع ثم أمين قوي عند ذي العرش مكين». فهو قوي لدرجة أن لا تغلبه الأرواح الخبيثة وهو أمير الملائكة لا ينسى شيئًا فماذا يُسلم إلقاء إليه يلقيه بأمانة كبيرة، ولا يسعه أن يكون هناك فرق كبير أو صغير فيها. وهو ملك مقرب عند الله تعالى وقربه تدل على أنه خير الملائكة وأفضلهم في صلاحياته. وظاهر أن هذا أيضًا حتى لا يكون هناك إمكان ما لتدخل الباطل فيه من جانب منبعه.

وثالثًا: البشر الذي تم انتخابه لتحمل هذه الأمانة الكريمة هو خير الخلائق

(1) سورة الحجر، الآية: ٩.

(2) سورة فصلت، الآيتان: ٤١ و ٤٢.

كلهم من كل الاعتبارات. ولم يحمله أن يحفظه ويصونه ويرتبه واحداً بنفسه بل فرض الله ذلك على نفسه ولذا قال له في سورة القيامة: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۖ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۖ فَإِذَا قَرَأَهُ فَانْفَعْ قُرْآنَهُ ۖ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾⁽¹⁾ فتقول الروايات أن النبي ﷺ وصحابته الأبرار كانوا يحفظون القرآن وكان النبي ﷺ يذاكره كل عام في شهر رمضان كي لا يكون هناك سهو ونسيان. وتكون المذاكرة بترتيب رضي ربه الله أن يدون عليه القرآن. وكما تقول الروايات أن النبي ﷺ قد قام بهذه المذاكرة القرآنية مع جبرئيل الأمين مرتين في رمضان في حياته الأخيرة ثم ضبط وكتابة وتدوين القرآن كله مطابقاً لقراءة العرصة الأخيرة هذه، وقام الخلفاء الراشدون ببعث نقوله إلى مدن وبلدان المملكة الإسلامية في طولها وعرضها. ولم يحظ أي صحيفة من الصحف العتيقة بهذا الاهتمام الخاص حتى وأن صحف التوراة لا أحد يلم عليها بالمام بأي زمن رتبت صحفها المختلفة وفي أي زمان وبواسطة من.

ورابعاً: أن القرآن كلام معجز بسبب فصاحة ألفاظه وبلاغة معانيه، فلا يُرَقَّع؟ بكلام الغير حتى أن كلام النبي ﷺ وهو الذي نزل عليه وهو أفصح العرب والعجم، لا يدانيه ولا يقابله، فلا إمكان أن يختلط به كلام الغير. فإن التاريخ قد احتفظ في كتب التاريخ والأدب نماذج من مزخرفات مدعي النبوة الكاذبين الذين تجاسروا على القول بكلام مصطنع بجواب القرآن. فبقارن بينه وبينها وجدت فرقاً كغرق الجوهر الخالص والزخرفة.

وخامساً: أن الله قد وعد بحفظ اللغة القرآنية مع صيانة القرآن إلى يوم القيامة. فإنه قد دخلت التحريفات الكثيرة التي لا تحصي في الصحف السماوية الأخرى بسبب اندراس لغاتها الأصلية بطريق الترجمات. ولا يمكن التطرق إليها اليوم، ولكن لغة القرآن الأصلية محفوظة مصونة وتظل مصونة إلى يوم القيامة فلا يتطرق إليه أي باطل بطريق الترجمات والتفاسير.

(1) سورة القيامة، الآيات: ١٦ - ١٩.

وإذا كانت هناك محاولة خبيثة لإدخال أي باطل فيه فبوسع أهل العلم أن يفرقوا ويميزوا بين الحق والباطل على المعيار الأصيل⁽¹⁾.

الإيمان بيوم الجزاء

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا *
يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * إِنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا
أَعْمَلَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ
شَرًّا يَرَهُ﴾⁽²⁾.

إن الحقائق التي يطلب الدين التسليم لها يوم البعث والجزاء منها يحمل مكانة مرموقة وله أهمية أساسية في كافة دعوات الأنبياء ﷺ. وهذه العقيدة هي أساس كل شريعة وكل خير وصلاح. وهي بنوية لكل نبوة ورسالة. فالنبي نبي لأنه يتنبأ بهذا النبأ العظيم والرسول رسول لأنه يأتي برسالة هذا اليوم. وقد قام كل من يوحنا والمسيح وإبراهيم وموسى بنداء له. وله إشارات في التوراة وتصريحات في الزبور، والسيد المسيح قد نبه الناس في الإنجيل أن في ذلك اليوم لا يدخل في ملك الله إلا الذين يطيعون أبي السماوي في هذه الدنيا. والقرآن كأنه صحيفة إنذار وبشارة لهذا اليوم الآخر فإنه يخبر الناس أنه كما أنتم تهبون من منامكم (الزمر: ٤٠ - ٣٩) وكما ينزل المطر على الأرض الميتة فتحيا به بعد مماتها (الأعراف: ٥٧، فاطر: ٩) وكما أنتم لستم شيئاً وتكونون إنساناً يحيى من مني يمى (القيامة: ٣٦ - ٤٠) فكذلك تُبعثون يوماً من قبوركم وتُحشرون، وربكم لن يجد صعوبة في هذا، ومخاطبوه يستبعدونه ويقولون من يحيي العظام وهي رميم فيقول: قل يحييها الذي خلقها أول مرة وهو بكل خلق عليم (ياسين:

(1) تدبر قرآن ٧/ ١١٢.

(2) سورة الزلزلة، الآيات: ١ - ٨.

٣٦ = ٧٨) أي ذلك سهل ميسور له كما هو السهل النطق بكلمة لكم، فقال: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْتَ كُمْ نَطْفُونَ﴾ (١).

والقرآن يقول إن يوم الجزاء هو مقتضى فطرتكم، ومقتضى شعور الخير والشر المفطور فيكم ومقتضى العدل والإنصاف الذي تطلبونه، وهو مقتضى عدل الله إن أنتم تؤمنون بالله، ومقتضى ربوبيته ومقتضى صفاته الحسنة من الرحمة والقدرة والحكمة، ومقتضى سننه وقوانينه كلها. فالدين بغير الإيمان ليوم البعث ليس إلا اشتهاؤ نفس. وليست تصورات الصلاح والتقوى والعدل والقسط والجزاء والعقاب بدونه إلا ألفاظ بلا معنى. وإذا لم يكن هذا اليوم فالكون كله يكون عبث العابثين وميدان اللعب. وشواهد وعلائم هذا اليوم وأحواله ومقاماته كلها مذكورة في القرآن والحديث كليهما. وهنا فصلها ببعض التفصيل:

الشواهد

الشاهد الأول هو شعور الخير والشر الكامن في الإنسان. ومن ثمرات هذا الشعور بأن هناك مشرفاً رقيباً وبنه الإنسان دائماً في ضميره وكل وقت على مساوئه. فهي بمثابة محكمة صغيرة قائمة في داخل الإنسان تصدر قضاءها على كل حين بدون تردد ولا حياد. والإنسان يستمع إلى قضائها سلمه أو لم يسلمه بعد كل خطأ صدر منه في عالم الفكر والخيال، أو في مجال العلم والعمل حتى يزداد شقاؤه النفسي لدرجة أن أحاط قلبه سواد أعماله إحاطة، وجعله صمًا بكمًا بالكلية. فهذه هي شهادة باطن الإنسان على نفسه والذي عُبر بالنفس اللوامة. وقد قدمه القرآن أيضاً قائلاً للإنسان إنك لست جملاً غير مخطوم أن لا تُسأل عما تفعل. وعليك أن تعلم أنه كما قامت قيامة صغرى في داخلك فستقوم يوماً قيامة للكون كله، وتحشر فيها إلى ربك حشراً، وتسأل عما كنت تفعله في الدنيا. ويكون هناك جزاء أو عقاب حسب أعمالك. فإذا أنت تنكر ذاك اليوم تكذب نفسك وتسيء إلى ضميرك. قال تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ

(١) سورة الذاريات، الآية: ٢٣.

اللَّوَامَةُ * أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَدَرِينَ عَلَى أَنْ تُسَوَّى بَنَانُهُ * بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ * يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ * فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَنْ الْمَفَرُّ * كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ * يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ * بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴿١﴾

وجاء الأستاذ أمين أحسن الإصلاح في تفسيره بتوضيح لهذا الاستدلال القرآني فقال:

«يكون هناك سؤال أنه إذا كان الإنسان يحوز برقيب مشرف في ضميره هو، ينبهه على ما يصدر منه من أخطاء وذنوب. فكيف يُعقل أنه جمل غير مختوم حر طليق يعيش حياته كيف يشاء؟ ويخالف رقيه كيفما شاء. فليس هناك من يسأله عن أعماله؟ فإذا كان الإنسان جملاً غير مختوم فمن أين جاءت هذه النفس اللوامة؟ فإذا كان الرب تعالى لا يتعلق لا بالخير ولا بالشر الصادرين من الإنسان فلماذا أدخل في داخل الإنسان لائمة تبعثه على إشادة الحسنة وتنديد الشر؟ ومن هنا يكون سؤال آخر أنه إذا كان الله قد أقام محكمة صغرى في داخل كل إنسان فلماذا لا يقيم محكمة كبرى لكل العالم تحتسب كل أعمال الخير والشر التي تتم في العالم وتجزى كل شخص حسب أعماله وتعاقبه؟ فمن يتفكر في هذا السؤال حرّاً طليقاً يجيب أن الإنسان بلا شك ولو كصاحب شعور لما هو الخير وما هو الشر. إنه ليس حرّاً طليقاً بل سوف يأتي يوم يحاسب فيه الإنسان، فيجزى خيراً على خيراته وشرّاً على مساوئه. ولتذكر ذاك اليوم قد أودع الخالق الباري تعالى نموذجاً صغيراً لذاك اليوم في نفس الإنسان نفسه. لكي لا يكون غافلاً عنه ويطلع على نفسه ويراه إذا صدرت منه غفلة. وهذه الحقيقة قد عبر بها العرفاء والحكماء. بأن هناك عالماً صغيراً في نفس الإنسان ينعكس فيه ذلك العالم الكبير، فإذا عرض الإنسان نفسه حق معرفته عرف ربه وعرف الآخرة فمن عرف نفسه فقد عرف ربه» (2).

(1) سورة القيامة، الآيات: ١ - ١٥.

(2) تدبر قرآن ٩ / ٨٠.

والشيء الثاني هو فطرة الإنسان أنه يحب العدل ويتنفر من الظلم. ولا شك أنه مع ذلك يظلم ولكن ليس سببه أنه قد تقاصر عن التمييز بين العدل والظلم، أو أخذ يحب الظلم. كلا، لا بل إنه غلبه النفس فيفقد اتزانه. وكل منا يعلم أن الإنسان الذي ينقب في بيت الغير وينهب ويسلب ولكنه لا يحب لنفسه أن يُنتهب هو أيضًا ويُسلب، ويقتل الآخر ولا يحب أبدًا أن يقتله أحد ولا واحدًا من أقربائه ويخسر الميزان للآخرين ولا يرتضى بأن يطفف له أيضًا. سل السارقين القاتلين والمطففين يعترف كل منهم أن كل ذلك من هذه الأعمال ظلم وتعسف ولازم أن يقضى عليه. فإن الإنسان في حالة الوعي والشعور لن يستعد أبدًا أن يساوي بين الصالح والطالح وأن يعامل معهما معاملة واحدة. فالقرآن يقدم هذه الحقائق ويسأل منكري البعث والنشور: ﴿فَجَعَلُ الْمُشْرِكِينَ كَالْجَرِيمِ﴾ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١﴾.

والثالث هو نقص الإنسان والكون كله. تراها من أي ناحية يتضح لك أنه كل جزء من الكون يدل في جانب على عظيم قدرة الخالق الباري وكبير حكمته. ففي كل شيء هناك معنى لا نهاية له ونظم وترتيب لا مثيل لهما، ورياضة لا نظير لها، واهتمام كبير خطير والإبداع البارِع الذي يحير العلم والعقل. وفي جانب آخر تحاول فهمها من حيث المجموع يتراءى لك نقص يبعث على القنوط واليأس لدرجة نهائية واللامقصدية المبكية. فالإنسان يرى أن كل شيء ينادى له من وجوه أنه خلق للإنسان ولكنه هو خلق لمن؟ لا يخبره أحد.

ثم إنه ليس هناك إدارة تفحص عمن قام من أبناء نوع الإنسان بإتمام مقصد خلقه إذا كان هناك مقصد، وعمن لم يقم به وغفل عنه.

والإنسان مجبول على الشعور بالمسؤولية مع كل نعمة، ولكنه فعلاً ترك حرًا طليقًا غير مسؤول. فإنه يدع الدنيا بطمأنينة بدون حساب على ما أنعم الله عليه من آلاء ونعم، وحظي بها في حياته ولا يسأله أحد. وإقامة الناس على الحق

(1) سورة القلم، الآيتان: ٣٥ و٣٦.

والصدق حاجة ماسة للإنسانية ولكن الإنسان لا يجد باعثاً حقيقياً لذلك في نفسه وفيما حوله من الدنيا. وماذا يريد ضميره تكذبه الأحوال الواقعية للدنيا. فإنه يحس إحساساً فطرياً طبيعياً أن يكون هناك تمييز بين الخير والشر، وفارق بين الظلم والعدل. ولكن هذا الإحساس يقمعه الكل في دنياه هو. فالكثير من الناس قد ودعوا الدنيا ولم يجدوا ثواباً على إحسانهم. وكم من معاند متكبر تركوا الدنيا ولم ينالوا عقاباً على تمردهم وفسادهم، وعلى عكس من المخلوقات الأخرى أن الإنسان عنده شعور بالمستقبل وليس أحد من النبات والجماد والحيوان من يتمتع بهذا الشعور ولكن هذا المستقبل يبعد عنه دائماً.

وهناك إرادات واشتهاات كامنة في داخل وجوده عميقة فيه قلما يفني بها حتى إن أمنية الإنسان الشديدة لرؤيته ظهور ألوهية الرب تعالى الذي يؤمن به بأمر عينيه لم تتم بها أبداً.

ومهما يصل وجوده إلى مدى بعيد يكون أدنى من حيث يصل فكره. إنه يريد أن ينزل إلى أعماق وجوده وأن يسبح في آفاق السماء وأطراف الأرض. وللوفاء بهذه الأمنية قد حاول حثيثاً أن يحتضن الشمس وأن يخترق قلب الذرات، ولكن جهده هذا قد كشف له أنه لا يستطيع الوفاء بكل أمنية وإتمام كل إرادة. وما زال الإنسان في بحث عن دنيا يعيش فيها حرّاً طليقاً من آفات وأزمات ومصائب هذه الدنيا ومحدوديتها حياة مرضية راغبة فرحة. وما زال يطلب هذا الطلب منذ أزمان عتيقة وقرون سالفة ولكنه لا يجد أبداً هذه الطلبة بل يأتيه الموت، ويقضي على كل تمنياته الممتعة الخلافة.

وكل لفظ يتلفظ به الإنسان وكل عمل صادر من أعضائه وجوارحه ينقش كل ذلك على شاشة الكون بحيث يمكن إعادته بصحة كاملة في أي وقت. فماذا يفكر وماذا يخطر في قلبه من خيال حسن أو سيئ يثبت في صفحة الكون، بحيث لا ينمحي أبداً ولا يؤثر عليه شيء من سرعة الوقت وتغير الحالات. ولكن لماذا كل هذا الاهتمام؟ لا يوضحه شيء في الدنيا.

الشخصية الإنسانية لها وجود مستقل في ذاتها منفصل عن جسمه. فإن

الخلايا التي تكون منها جسمه والتي لا تحصى ولا تزال تنكسر باستمرار، والجسم يتجدد بعد البلى ولكن تبقى شخصيته الأصلية دائماً. وكل شيء من علمه وحفظه وتمنياته وعاداته وخيالاته تبقى على حالتها الأولى ولا تتغير، فمن أين تجيء هذه الشخصية وأين تذهب؟ لا إجابة على هذا السؤال.

والأرض التي يسكنها الإنسان تسبح في السماء ملايين من الأراضى الكبرى بملايين المرات منها ولكن ليس فيها علائم للحياة فلماذا أقام وجودها لا يعلم ذلك الإنسان.

فهذه حقائق لا تجحد فبقي الآن صورتان فقط. إما أن تقرر أن هذا العالم هو العبث الذي يعبث به لاعب، وهو مسرح نيرو وأسطورة راما فقط. وإما أن تفهم الكون كجزء حقير من ملكوت الله الأبدية واليوم الأخير الذي نادى به الأنبياء ﷺ. وما هو قضاء العلم والعقل؟ يعلمه كل شخص. وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾⁽¹⁾. ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ آلَاءَ تَتَّخِذُهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ﴾⁽²⁾.

ويقول الأستاذ الإمام:

وهذا دليل على أنه إن كان هذه الدنيا لا يعقبها يوم للجزاء والعقاب وهي لا تزال تسير منذ الأزل هكذا وسوف تدوم على هذا الوضع. لأن خالقها لا يعنيه خيرها وشرها، ولا يهتم إن صلح الناس أم فسدوا عدلوا أو ظلموا. فمعنى ذلك أنه خلقهما لآعباً وعابثاً. فحتى ما يشاء يلعب بها وإذا اكتأب منها طوى بساطها. وسوف يوجد له لعبة أخرى لقضاء وقته وفرحة قلبه. ولكنه نفى ذلك وقال إننا لم نخلق ما بين السماء والأرض لاعبين. إن مصنع الكون هذا يدل بوجوده على أنه خلق من العادل الحكيم والرحمن الرحيم، وليس لعبة لاعب ولا معتركا

(1) سورة المؤمنون، الآيتان: ١١٥ و ١١٦.

(2) سورة الأنبياء، الآيتان: ١٦ و ١٧.

للآلهة ولا ملعب إله بل هذا المصنع هو مفعم وملء بالحكمة، ويشهد كل شيء له على أن خالقه خلقه مع مقصد عظيم وغاية عليا، وأن من مقتضيات عدله وحكمته البديهة أن يأتي يوم يظهر فيه مقصديته للكل»⁽¹⁾.

وهذا هو قضاء العلم والعقل. فإذا ما انكشف له أن هناك آخرة أيضًا مع هذه الدنيا علم أن كل الخلاء قد ملأ الآن. ونال الإجابة المسكة على كل سؤال، وحصل له توجيه لكل الشواهد المعلومة. ووضع كل شيء في موضعه. والدنيا التي كانت تظهر من قبل في صورة عدم الإيمان بالآخرة ناقصة، ظهرت الآن كاملة. وانكشف عليه الآن كل روعة للكون وكل جمال له. فإن الإنسان الآن سيعيش في هذا العالم وهو مؤمن أن طلبته التي لم تحصل له قبل الموت سوف ينالها باللزوم بعد الموت. وكما أن هناك يقينًا وسكونًا في بقية الكون كله سيحصل ذلك له أيضًا يومًا ما. حيث يكون جنة أبدية خالدة ملائمة باللذات والنعم والنفاسة والمعنوية في جانب. وتكون هناك جهنم أيضًا يُعاقب فيها الظالمون على ظلمهم وفسادهم في جانب آخر.

وهكذا تقوم علاقة بين الدنيا والآخرة. مثل علاقة الزوجين أحدهما مع الآخر. فإن كانت العلل قد زوجت مع معلولاتها والقوى مع آلاتها والطبائع مع إرادتها والأجسام مع أرواحها وتقوم بإظهار معنويتها لذلك، فإن الآخرة أيضًا بمثابة زوج للدنيا. ولذا حصل لكل واحد منهما معنى بليغ فقال: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾⁽²⁾.

وهناك كل إنسان ذي إحساس يقشعر من تصورات الجزاء والعقاب وكأنه يشهد القيامة ماثلة أمامه. ويشعر أن الساعة تصير مثقلة مثل الحامل التي لا تعلم في أي وقت وضعه. قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضُ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةً﴾⁽³⁾.

(1) تدبر قرآن ١٣٢/٥.

(2) سورة الذاريات، الآية: ٤٩.

(3) سورة الأعراف، الآية: ١٨٧.

إنه يقول ربنا لم تخلق هذه الدنيا عبثاً. ربنا ما خلقت هذا باطلاً. فإنه ليس من شأنك أن تجعل شيئاً عبثاً. فأنا أعرف أن الدنيا ليست إلا لعبة لآعب. فأعوذ بك من عاقبة هؤلاء: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (1).

الرابع الصفات الإلهية التي آثارها وعلائمها بارزة في كل ذرة للكون. ومن أهمها صفتا الرحمة والربوبية. فإن الرب تعالى قد اهتم اهتماماً كبيراً لربوبية الإنسان فكيف يتصور عاقل أن خالقه يتركه غير مسؤول في ذلك، وكيف يتوقع من الرب الرحمن الرحيم أنه لا يعاقب الذين غيروا هذه الدنيا من دار آمن إلى دار ظلم وعدوان، وتعسف واضطهاد؟ ولذا يلح القرآن مراراً وتكراراً أن القيامة هي عين مقتضى صفاته من الرحمة والربوبية والقدرة والحكمة. فمن آمن بالله لا يسعه إنكارها. قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ (2) وجاء في سورة النبأ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاهُ أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا * إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ (3).

وقال في ق: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْفَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ (4).

(1) سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٠ و ١٩١.

(2) سورة الأنعام، الآية: ١٢.

(3) سورة الأنعام، الآيات: ٦ - ١٧.

(4) سورة ق، الآيات: ٦ - ١١.

يقول الأستاذ الإمام: في هذه الآية إن الله تعالى قد نبّه مكذبي القيامة على علامات بديهية لقدرة الله وربوبيته وحكمته تراها في العلو والسفل، وفي كل مكان وتكفي أن يتذكر بها كل شخص ويبصر من كان بحيازته قلب سليم منته. فأشار قبل كل شيء إلى عظيم قدرته وبالعكس حكمته: أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها ورفعناها وزيناها ومن إعجاز قدرتنا أنه لا يرون في السماء المسقف اللانهائي فرجة. فإذا كان كذلك فوقهم فكيف يكون صعباً ومشكلاً لتقدير مطلق أن يولدهم من جديد؟

ثم وجههم إلى اهتمام ربوبيته مع القدرة والحكمة فقال: والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي للإبقاء على التوازن وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج يتغذون ويستهجون منه أيضاً وذلك يعني أن الخالق الذي هذا شأنه كيف يصعب عليه أن يحييهم بعد مماتهم من جديد؟ والرب تعالى الذي قد قام لهم بتوفير كل أسباب العيش الرغيد وباهتمام كبير هل يتركهم سدى أن يعيشوا في طرب ويأكلوا ويشربوا ولا يسألون أبداً في هذا الباب⁽¹⁾.

والخامس هو ظهور دينونة الله في الدنيا. والذي كان عن طريق الرسل من الأنبياء. فقد أعطوا معجزات قاهرة باهرة وأيدهم بروح القدس ثم أقام قيامة صغرى في هذه الدنيا قبل قيام القيامة الكبرى. وكان القصد به أن يكون هناك إثبات وتوثيق للآخرة على معيار تثبت به التجارب العلمية في المعمل العلمي (laboratory) حتى لا يكون بعده كما هو ظاهر عذر لهم يأتون به عند الله تعالى. وقد كان ذلك من خلال دعوة الرسل لقومهم الذين أعلنوا أنهم قد جاؤوا كمحاكمة إلهية لقومهم وأنهم سيلقون ما دعوا إليه وأخبروا به من قضية الجزاء والعقاب بناءً على الإيمان والعمل. وأنه كما أن القوانين الطبيعية محتومة وتعطي نتائجها على كل حال، سوف يكون القانون الإلهي الأخلاقي أيضاً مثل ذلك منتجاً بعد إتمام الحجة عليهم، فمن يقبل دعوتهم من قومهم نجوا في الدنيا

(1) تدبر القرآن: ٧ / ٥٣٨.

والآخرة ونُصروا على منكريهم ومعانديهم ومن لم يقبلوها ذلوا وأتى عليهم عذاب الله.

وهذا التنبؤ قد جاء في قوم وفي وقت لم يكن هناك شيء غير محتمل وغير مصدق أكثر منه، ولكن التاريخ يشهد أنه قد تم في كل مرة وتم بطريقة أن الناس رأوا الله يفصل ويحسم القضية وغمر جلاله تعالى السماء والأرض وقد بين القرآن هذه الحقيقة في الآية: ﴿لَئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾⁽¹⁾ ثم جاء بقاعدة كلية:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾⁽²⁾.

ويخبرنا القرآن أن ذلك وقع لأول مرة مع قوم نوح. فقد قال لهم نوح عليه السلام أنه سوف يأتي عليهم عذاب يبدهم من صفحة الأرض، إذا لم يتوبوا من الإشراك بالله ولم يعبدوا الله خالصاً له الدين. فأجابه ملاً القوم بمثل هذا الهراء: إنا لنراك في ضلال وسفه مبين أنك قد حقرت آباءنا وآلهتنا وجئنا الآن بتهديد العذاب وما اتبعوك إلا الأرزلون الحمقاء. فقال لهم نوح إنه من سوء حظكم أن تروني في ضلال مبين، إن أنا إلا نذير مبين وما أبلغكم إلا رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين، فلم يعنني على أن أبلغكم رسالة ربي مع كل التمادي وكل العناد والسخط وكل التفجيع الذي ألقى منكم إلا أنني أخشى وأحزن عليكم أن تأخذكم الله أخذ عزيز مقتدر. وأخبر القرآن أن نوحاً عليه السلام قد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يلح عليهم هذا الإلحاح والنصح والخير لهم ولكن قومه مع هذا الجهد الطويل من قبله كذبوه ولم يرضوا بإصلاح أحوالهم فأمر الله نوحاً بصناعة سفينة كأنه كان إنذاراً أخيراً أنه باكتمال السفينة سوف يجيء أمر الله وعذابه، فلما اكتملت السفينة وركبها من آمن من قومه فجاءهم طوفان عظيم، وفار التنور وقيل للأرض أن أخرجي كل مائك وأمر السماء أن أمطري كل مائك، ثم استوى

(1) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

(2) سورة يونس، الآية: ٤٧.

الماء على علامة مقررة، وغرق القوم كله وقيل بعدًا للقوم الظالمين حتى إن ابن نوح عليه السلام أيضًا كان من المغرقين لعناده وتمرده.

وكان ذلك منظرًا يبعث على العبرة. كانت العواصف تتمرّد وكانت الأمطار تمطر مطرًا غزيرًا وكانت الأمواج تكون كالجبال، وسفينة نوح عليه السلام كانت تسير وتصادم هجماتّها إذ نظر نوح إلى ابنه وهو قائم حيران متفكرًا. وبرؤية الابن استيقظت في نوح العطفوة الأبوية فناده يابني هلم وتعال اركب معنا، ولكنه لم يزعه هذا المنظر المرهب المدهش فقال: سأوي إلى جبل يعصمني من الماء فقال له نوح ليس هذا ماء محضًا إنما هو قهر إلهي لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم. وكانت المحادثة بين الأب والابن جارية إذ جاء موج وابتلعه، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين. وكافة منكري قومه قد غرقوا في الطوفان حسبما كان قضاء إلهيًا صارمًا حياديًا ونجا منه فقط من آمن بنوح عليه السلام^(١).

وهذه كانت قيامة صغرى أولى قامت لبرهنة تصور الآخرة إلى درجة إتمام الحجة. ثم كانت هذه المعاملة مع كل قوم جاحد في الدنيا من مثل عاد وثمود وقوم لوط وقوم شعيب وقوم يونس وما إليها من أمم سابقة، فماذا حدث مع هذه الأقوام والذي ذكره القرآن هو مثال على ما قلنا من قبل كما قال تعالى: ﴿يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخَّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَنْتُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ

(١) للاستزادة، انظر في القرآن الكريم الآيات التالية: الأعراف: ٥٩ - ٦٤، يونس ٧١ - ٧٣، هود: ٢٥ - ٤٩، المؤمنون ٣٠ - ٣٣، الشعراء ١٠٥ - ١٢٢، العنكبوت ١٤ - ١٥، الصافات ٧٥ - ٨٢، القمر ٩ - ١٦.

اللَّهُ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصِرِرَكَ عَلَى مَا أَدَّيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَتُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعَبَدَ ﴿١﴾.

وكانت قصة موسى ﷺ أيضًا حكاية لهذه الدينونة. فإنه لما عرض دعوته على فرعون وملئه وأكابر قومه وأنكروه وأعرضوا عن دعوته، طلب منهم أن يتركوا بني إسرائيل يهاجرون من هذه الأرض معه، فجدد فرعون أن يستجيب لطلبه هذا كما قد كفر بدعوته، فأنزل الله عليهم آياته من الجراد والقمل والضفادع والدم تنبيهًا لهم مرة تلو المرة. فاستعد فرعون أن يؤذن لهم لعدة أيام فقط، فخرج موسى مع قومه، وبعد خروجه تغيرت نية فرعون فتعاقب موسى مع جنوده المجندة. وكان يخال أن يرجع بني إسرائيل إجبارًا ولكن الآن قد حان وقت القضاء المبرم من القاهر الجبار، فكان الله تعالى قد احتضن بني إسرائيل وعبر بهم اليم وأغرق فرعون وجنوده في ذلك أليم^(٢).

وقد ظهرت الآية الكبرى الثانية داخل الآية الكبرى لغرق فرعون أن لم يقبل البحر جثته، وألقى به إلى الساحل لكي يصير انتباهًا حيًا لفراعين كل عصر ومصر بلسان حالها. وقال تعالى: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * ءَأَكْفَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدْنِكَ لِنُكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ﴾^(٣).

وبعد بعثة إبراهيم ﷺ قد زاد على ذلك أنه قد صير الله سبحانه ذرية

(١) سورة إبراهيم، الآيات: ٩ — ١٤.

(٢) انظر لتفاصيل قصة غرق فرعون وجنوده في: الأعراف: ١٠٣ يونس: ٧٥ — ٩٢ بني إسرائيل: ١٠١ — ١٠٣ طه: ٤٠ — ٧٩

(٣) سورة يونس، الآيتان: ٩٠ و ٩١.

إبراهيم معه مثلاً إلى يوم القيامة لتلك الدينونة التي مر ذكرها. فتم الإعلان أن ذرية إبراهيم تغلب على أمم العالم إن قامت على الحق وتقوم بتبليغ رسالات الله إلى أقوام العالم بدون أي تبديل ولا تحريف، وإن انحرفت سلط عليها الذل والمحكومية على أيدي تلك الأقوام.

والتين والزيتون وطور سنين والبلد الأمين مكة كلها مقامات ظهور لتلك الدينونة. فالزيتون هو الجبل الذي عليه قضى بالعذاب على منكري وجاحدي المسيح ﷺ بعد أن رفعه الله كما جاء: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾⁽¹⁾ وقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُكُوبُكَ يَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾⁽²⁾ والتين هو قرية على جبل الزيتون وتفيدنا كتاب لوقا أن المسيح ﷺ حينما جاء إلى يروشلّم فقبل دخوله البلد قد أقام بهذا المكان⁽³⁾.

وجبل طور يعلمه الكل أن نهضة بني إسرائيل كأمة مختارة كانت بدأت من هذا الجبل، وأما أم القرى مكة فقد بدأ منه فرع آخر لذرية إبراهيم وهو بنو إسماعيل نهضته، فقد أعطوا تولية أول بيت وضع للناس لعبادة الله وحده وهو الكعبة المشرفة بيت الله الحرام. فقد قدم القرآن هذه المقامات كشاهد على ما لقيت ذرية إبراهيم من جزاء أو عقاب، وأثار سؤالاً أن ما هو الذي يبعث على إنكار جزاء الله وعقابه يوم القيامة بعد هذه المشاهد فقال: ﴿وَالَّذِينَ وَالزَّيْتُونَ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالذِّينِ * أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾⁽⁴⁾.

ثم قامت هذه الدينونة لآخر مرة في القرن السابع الميلادي. وهذا الحدث الضخم للتاريخ الإنساني له خصيصة كبيرة، لأنه قد وقع في ضوء التاريخ

(1) سورة آل عمران، الآية: ٥٢.

(2) سورة الأعراف، الآية: ١٦٧.

(3) (٢٩-١٩).

(4) سورة التين، الآيات: ١-٨.

الكامل. فالتاريخ قد احتفظ بكل جزئياته وفروعه ومراحلها، كأنها في مرأى منا ومسمع يراها كل شخص إذا شاء بتصفح التاريخ وبقلب أوراقه.

وتم لهذا انتخاب نبي ورسول اسمه محمد ﷺ أفضل البشر كلهم سيرة وخيرهم لدرجة نهائية لم ير مثله السماء. تشرف بمنصب الرسالة وعمره الشريف أربعون سنة. فكانت حياته طيبة قبل المبعث وممتازة أخلاقياً لدرجة أن لقبه قومه بصادق وأمين. وكل شخص كان مستعداً يشهد له أن أمانته فوق كل شبهة وأنه لن يكذب أبداً وقومه شهد له بذلك على كل فرصة متاحة بعد مبعثه أيضاً، وقد كانوا له عدواً لدوداً في ذلك الزمان.

فلما مر لأول مرة بتجربة الوحي الإلهي قد أعرب عن قلقه واضطرابه إلى زوجته السيدة خديجة فقالت له مسلية: «كلا والله لا يخزيك الله أبداً لأنك تصل الرحم وتصدق القول وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتنصر المظلوم⁽¹⁾. ولم ينتقم لذاته حتى أنه قال لأعدائه الألداء بعد الانتصار عليهم، اذهبوا وأنتم الطلقاء لا تثريب عليكم اليوم⁽²⁾ وكانت حياته مثلاً فذاً للإخلاص فقد عرضت عليه القریش كل شيء من المال والثروة والجاه والملك فلم ير إلى أي شيء من ذلك بل قال ما مفهومه لو وضع هؤلاء الشمس في يدي والقمر في اليد الأخرى لما تأخرت عن موافقي هذا⁽³⁾.

وخلاصة القول أن رسول الله ﷺ كان إنساناً لم ير مثله قط في كل دور من مراحل حياته وفي كل معاملة. فقد قامت في المدينة دولته ولكنه بقي على وضعه السابق الساذج، ولم يقع أي تغيير في أساليب حياته وطرز معيشته ومع التغيير الكبير في حالاته. فلا يستطيع أحد أن يقدم اسماً عرض على الدنيا مكارم الأخلاق التي ظهرت في حياته هو ظهوراً كاملاً لدرجة أن كاتباً كبيراً للعهد

(1) رواه البخاري رقم الحديث: ٤٩٥٣ ومسلم رقم ٤٠٣.

(2) السيرة النبوية لابن هشام: ٤٣/٤.

(3) السيرة النبوية لابن إسحاق: ١١٧، السيرة النبوية لابن كثير: ١/٤٧٤.

الحاضر وصفه: «وقد كانت إنسانيته عالية لدرجة أنه إذا لم يلد لكتب التاريخ أن إنساناً هذه إنسانيته لم يلد ولن يولد أبداً»⁽¹⁾.

ففي مثل هذه العظمة الشخصية والسيرة المثلى قد عرض دعوته على قومه لكنهم أنكروها وجحدوا بها. فنبههم على أنه نبي ورسول وقد جاءهم بمثابة محكمة إلهية في حقهم، ولذا القيامة الصغرى التي قامت على قوم نوح وقوم لوط وقوم شعيب وعلى عاد وثمود ستقوم على قومه أيضاً بعد إتمام الحجة عليهم.

وهذا كان إعلاناً ضخماً. يعني أن العذاب سيأتي على منكبيه وأعدائه وأن المؤمنين به سيغلبون بالتأكيد في هذه الأرض. وقد أعلن ذلك حينما لم يؤمن به إلا النفر القليل من أقربائه. وجاءت مراحل خطيرة في جهاده بالدعوى بعد ذلك.

واضطر المؤمنون على الهجرة إلى الحبشة فراراً بدينهم وبحياتهم، ثم أجبروا على مغادرة مكة بعد للأبد. ولم يطمئن بعد الهجرة إلى المدينة ومن آمن معه أن اجتمع العرب كله ضده، وبذلت كل ما في وسعها من القوة الحربية والمال الكثير وبث الأكاذيب والمؤامرات الداخلية. وبسبب هذه الفعاليات المعاندة كل لمحة تشعر بأن أعداء المهاجرين من كل الأطراف عساهم يسلبونه. ففي تلك الحالات كان ما لا يُقاس قطعاً أنه سيغلبهم. ولكن القرآن قال في تلك المناسبة الحرجة بكل اعتماد وبكل ثقة إنه رسول الله وأنه ليظهره على رغم تلك المخالفات الكثيرة على الدين كله. وتلمس هذا الإعلان في الآيات التالية: الأنعام: ٤ - ٥، ٦٦، ٦٧، ١٥٧ يونس: ١٣ - ١٠٢ - ١٠٣ هود: ٨ الرعد: ٤٠ - ٤١ بني إسرائيل: ٧٧ الكهف: ٥٨ - ٥٩ النمل: ٧١ - ٧٢ الصافات: ١٧١ - ١٧٣ المؤمن: ٥١ - ٧٧ - ٧٨ الزخرف: ٤١ - ٤٢ الأحقاف: ٣٥ الفتح: ٢٢ - ٢٥ - ٢٨ القمر: ٤٣ - ٤٥ الليل: ٢١ الضحى: ٥ ألم نشرح: ٥ - ٦.

وقال تعالى أيضاً: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ

(1) انظر: الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان: ١٤٣.

الْكُفْرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿١﴾
 وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ * كَتَبَ اللَّهُ
 لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٢).

وكان بيت الله الكعبة علامة لسيادة أهل مكة الذين قد بعث فيهم فكانوا متولين له. ولأجل ذلك كان لهم تأثير راسخ كبير في أم القرى مكة وما جاورها من البلدان والقرى، فكان لا يتصور أحد بناء على ذلك أنه ﷺ سوف يعزلهم من تولية الكعبة يومًا ما وتهلك قيادات قريش كلهم ولكن حينما كانوا يتعرضون له لإخراجه من مكة فقد أعلن القرآن: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ (٣).

ثم فصل هذا الإجمال وسمى عدوه اللدود أبا لهب وهدده بأسلوب مربع فقال: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَلٍ﴾ (٤).

ثم ماذا سيكون؟ فقد صرح القرآن عن كل مراحل من هذا السفر الدعوي الناجح أن سيأتيه نصر الله وتفتح مكة وسترى من عينيك أن الناس يدخلون في دين الله أفواجا: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (٥).

وفي مناسبة أخرى قد جاء بصراحة أكثر وأوضح فقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن

(١) سورة الصف، الآيتان: ٨ و ٩.

(٢) سورة المجادلة، الآيتان: ٢٠ و ٢١.

(٣) سورة الكوثر، الآيات: ١ - ٣.

(٤) سورة المسد، الآيات: ١ - ٥.

(٥) سورة النصر، الآيات: ١ - ٣.

قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١﴾.

لم تكن هذه كلمات لأي إنسان أن تذوب في الهواء بحسرات أبدية. وإنما كانت هذه كلمات الله التي صدرت بلسان نبيه، فأصبحت في وقت قصير تاريخاً، تاريخاً لا يمكن تقديم مثال له من تاريخ العالم. لذلك جاء عون الله ونصرته، وأقيم حكم النبي ﷺ وسلطته في المدينة المنورة، ووقعت معركة بدر وقتل فيها جميع المعاندين لدعوته بقيادة قريش^(٢). وحاول أبو لهب الهروب من هذه العقوبة ولم ينضم إلى الحرب ولكن بعد سبعة أيام فقط من هزيمة بدر تحققت نبوءة القرآن وأصيب رئيس بني هاشم هذا بمرض العدسة، بحيث لم يأت إليه أحد لمدة ثلاثة أيام بعد وفاته، حتى تعفن جسده وبدأت الرائحة الكريهة تنتشر. وأخيراً تم وضع جسده مع الحائط وكان جسده مغطى بالحجارة^(٣). ثم فتحت مكة، وتم نقل تولية بيت الله إلى المسلمين، وتم تطهير بيت الله هذا من الأصنام، وأصبحت الصلاة والتضحية خاصة لله، وأصبحت الجزيرة العربية كلها مسلمة. ورأى الجميع بأعينهم أنه وفقاً لتعبير القرآن، أخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجا. لذلك اكتسب الدين القوة، ودخل قانون الله وشرعه في حيز التنفيذ، ولم يبق أي دين آخر في أرض الجزيرة العربية في مركز السلطة. وتم الإعلان عن أولئك الذين أصرروا على الإنكار والكفر بمناسبة الحج الأكبر في عام ٩ هـ أنهم بعد مضي الأشهر الحرم سيكونون عرصة لعذاب الله وسيتم عليهم حكم القرآن: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا دِينَ أَبِي بَكْرٍ الَّذِي هُوَ عَلَى الْغَيْبِ مُبْتَلًى لَا يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ سُلْطَانًا شَيْئًا﴾. (٤). «وَأَنْ يَأْخُذُوا الْجِزْيَةَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ»^(٥).

(١) سورة النور، الآية: ٥٥.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٩٧.

(٣) السيرة النبوية لابن كثير ٢/ ٤٧٩.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٥.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٢٩.

حتى أن متبعي رسالته وخلفاءه قد قاموا بعد أن غادر النبي ﷺ العالم بإطاحة عروش جميع الممالك التي كان قد كتب إلى حكامها رسالة قبل وفاته، يدعوهم فيها إلى الإسلام، في غضون سنوات قليلة. والذين كان قد أخبرهم بوضوح أنهم إذا أرادوا السلام، فعليهم قبول دعوته لا محالة، لأنهم يجب أن يظلوا محكومين صاغرين بعد إتمام الحجة من رسول الله، وأن لم تعد إمبراطوريتهم قادرة على البقاء. كان من بينها إمبراطوريتي الرومة وإيران العظيمتين، والتي كان قد تنبأ القرآن في وقت صراعهما أنه على الرغم من أن الفرس قد طغوا في هذا الوقت وغلبوا على الروم، إلا أن الروم سيسيطرون قريباً على الإيرانيين، وكانت هذه النبوءة المستغربة للقرآن قد تمت وصدقت صدقاً تاماً مثل جميع تنبؤاته الأخرى له أيضاً. (الروم: ١-٦).

علامات القيامة :

ومتى يأتي هذا اليوم؟ فقد أوضح القرآن أنه: لا يعلمه إلا الله ﴿عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ﴾^(١).

نعم قد جاء ذكر بعض آثارها وعلاماتها في القرآن والحديث وفي الصحف العتيقة. بعضها عامة وبعضها من نوع الأحداث والوقائع المتعينة. ولم يأت شيء من النوع الأول في القرآن وإنما جاء ذكرها في الأحاديث والروايات. وأما النوع الثاني فهناك شيء واحد ذكره القرآن وهو خروج يأجوج ومأجوج فهو إذن علامة يقينية. وعلاوة على ذلك هناك علامات وردت في الروايات والأحاديث الصحيحة على معيار المحدثين. وبعضها قد ظهر والبقية سوف تظهر بالتأكيد إذا كانت نسبتها إلى النبي ﷺ صحيحة.

والعلامات من النوع الأول قد تذكر الانحطاط الأخلاقي والتراجع الذي يحدث في العالم كله قبل القيامة. من رفع العلم وازدياد الجهل وتعمم الزنا

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٧. وطه: ١٥ وحم السجدة: ٤٧.

وشرب الخمر وفشو القتل والغارة حتى أن يقتل الناس بغير أي جريمة لهم.
وقل الرجال وكثرت النساء بكثرة كثرة أن يملك رجل واحد خمسين من النساء.
وبقي الأشرار في العالم وتخلو الدنيا ممن يذكر الله⁽¹⁾.

ومن أهم العلامات من النوع الثاني هو خروج يأجوج ومأجوج فقال
القرآن: ﴿حَقَّ إِذَا فَتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ*
وَأَقْرَبَ الْوَعْدِ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَوَلَّوْنَآ فَدَكَّنَا فِي
غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾⁽²⁾.

ويأجوج ومأجوج هما من أولاد يافث بن نوح ﷺ الذين سكنوا في شمال
آسيا. وبعض القبائل التي لها انتماء إليهم قد وصلت إلى أوروبا أولاً ولأميركا
ولأستراليا ثانياً. وتعرف بهم صحيفة حزقي إيل بتسمية ملك الروس وتوبالسك
فيقول:

وَكَانَ إِلَيَّ كَلَامُ الرَّبِّ قَائِلًا:

«يَا ابْنَ آدَمَ، اجْعَلْ وَجْهَكَ عَلَى جُوجٍ، أَرْضِ مَأْجُوجِ رَيْسِ رُوشِ مَاشِكِ
وَتُوبَالِ، وَنَبَأٌ عَلَيْهِ

وَقُلْ: هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هَآنَذَا عَلَيْكَ يَا جُوجُ رَيْسُ رُوشِ مَاشِكِ
وَتُوبَالِ⁽³⁾.

ويعلم من مكاشفة يوحنا العارف أن بداية خروج الياجوج والمأجوج
ستكون بعد ألف سنة من بعثة النبي ﷺ. وفي ذلك الوقت سوف يحيطون
بالأرض من أطرافها الأربعة. فإذا بلغ شرهم ذروته نزلت نار من السماء وزلزلت
زلزلة القيامة. يقول العارف في رؤياه:

(1) جاءت نصوص تذكر كل ذلك في كل من البخاري رقم: ٨٠ — ٨١ ومسلم رقم: ٣٧٥ — ٦٧٨٥ — ٧٢٤.

(2) سورة الأنبياء، الآيتان: ٩٦ — ٩٧.

(3) سفر حزقي إيل باب ٣٨: ٢ — ٣.

«ومتى تمت الألف سنة، يطلق الشيطان من السجن، ويخرج ليضل الأمم الذين في الأرض بأطرافها الأربعة، أي يأجوج ومأجوج، فيضلهم ويجمعهم ويخرج للحرب. فيكون عددهم كرمل البحر، فينتشرون على كل الأرض ويحيطون بجند القديسين وبالمدينة الحبيبة⁽¹⁾، فتنزل نار من السماء وتأكلهم⁽²⁾».

وقد تعين هذا الزمان نفسه من علامات وردت في حديث جبرئيل أتاه في صورة إنسان يعلمهم دينهم فقد قال النبي ﷺ إجابة على تساؤله:

«أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان⁽³⁾».

والعلامة الثانية منها واضحة كل الوضوح ويراها بأم عينيه كل شخص، ظهرت على أرض العرب. نعم قد أشكل على الناس تعيين مصداقية العلامة الأولى. وعندنا تصدق لهذه العلامة القضاء على العبودية كإدارة مستقلة، وقد وقعت الوقعتان في زماننا هذا في وقت متقارب جدًا ولذا هذا التنبؤ أيضًا يعين زمان قرب يوم القيامة.

والعلامات التي سوف تظهر بعد ذلك قد بينهما النبي ﷺ جميعًا في موضع واحد بشمول خروج الياجوج والمأجوج فقال:

«إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب، وخسف في جزيرة العرب والدخان والدجال ودابة الأرض ويأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها. ونار يخرج من قعر العدن ترحل الناس. وريح تلقى الناس في البحر⁽⁴⁾».

(1) «جيش الأولياء» يشير إلى المدينة المنورة، و«عزيز شهر» يشير إلى البلد الأمين مكة المكرمة. هذه التفسيرات واضحة جدًا لدرجة أن الشخص المطلع على أسلوب الكتب المقدسة الموحى بها وتاريخ هذه المدن لا يجد صعوبة في فهمها.

(2) الرؤيا ٢٠: ٧-٩.

(3) رواه مسلم رقم ٩٣.

(4) مسلم رقم الحديث: ٧٢٨٦.

ومدلول الحديث أن هناك عشر آيات للقيامة لم تقم القيامة مالم تظهر كل هذه الأشراف وهي كالتالي:

- ١ - خسف الأرض في الشرق.
- ٢ - خسف الأرض في المغرب.
- ٣ - وخسف الأرض في جزيرة العرب.
- ٤ - الدخان ويمكن أن يراد به انفجار ذري كبير.
- ٥ - الدجال وهو اسم صفة من الدجل وهو الدلس والمكر. ذكر أيضًا باسم المسيح الدجال. ويعنى أنه يجيء ماكر كبير عند قرب يوم القيامة بدعوى كونه المسيح. واستخدامًا لتصورات رائجة للقدوم الجديد للمسيح عند أهل الإسلام واليهود والنصارى يلبس الكذاب الماكر على الناس من خلال بعض أفاعيله الساحرة الخلافة. وقد جاء في بعض الروايات أنه يكون أعمى العين اليمنى ويتوضح كفره ودجله لأهل الإيمان لدرجة كأنه يرونه قد كتب على جبينه «الكافر»^(١).
- ٦ - ودابة الأرض والتي تتولد من الأرض مباشرة كما تولدت سائر المخلوقات في بداية الكون.
- ٧ - خروج يأجوج ومأجوج وهذا قد بدأ فعلاً ويتقدم تدريجاً إلى نقطة عروجه.
- ٨ - وطلوع الشمس من المغرب.
- ٩ - نار تخرج من قعر عدن وتعود الناس.
- ١٠ - وريح تلقي الناس في البحر.

وعلاوة على ذلك ظهور المهدي ونزول المسيح عليه السلام من السماء من بين أشراط الساعة. ولم نذكرها. ووجه ذلك أن روايات ظهور المهدي لم تثبت

(١) كما رواه البخاري رقم ١٨٨٢، ٣٤٣٩ و ٧١٣١.

على معيار النقد الحديثي فبعضها ضعيف وبعضها موضوع. ولا شك أنه قد أخبر بمجيء خليفة جواد راشد في بعض الروايات التي إسنادها مقبول⁽¹⁾ ولكن إذا تأملتها بدقة نظر يتضح منها بوضوح كامل أن مصداقيها قد ثبت في حق معاوية رضي الله عنه الذي كان خليفة راشداً في آخر خير القرون ثبوتاً تاماً، فلا حاجة إذن لإنتظار مهدي موعود. أما نزول المسيح عليه السلام فإن روايات نزوله والتي قبلها المحدثون في عامة الأحوال ولكنها كلها تصير محل نظر إذا رأيتها ودرستها بنظرة قرآنية.

أولاً لأن القرآن الكريم قد تحدث عن شخصية المسيح عليه السلام من جوانب مختلفة وعلق على شخصيته ودعوته في أماكن متعددة، وزلزلة يوم القيامة أيضاً موضوع خاص للقرآن. ورفع رسول جليل القدر كعيسى حياً إلى السماء ثم نزوله إلى الأرض هو حدث ضخم ولكن مع تواجد مناسبة بيان تلك الواقعة لم يشر إليها القرآن في مكان ما، كيف يطمئن العلم والعقل على سكوت القرآن عن ذلك؟ وليس سهلاً والله الإيمان به.

وثانياً لأن القرآن في سورة المائدة قد فعل محادثة لعيسى عليه السلام مع الله تعالى. ففي تلك المقابلة سوف يسأله الله عن منطلق ضلال المسيحيين: يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله فيجيبه: سبحانه ما قلت لهم إلا بما أمرتني به، وكنت عليها شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم. فإن كان المسيح قد ينزل مرة ثانية في هذه الدنيا فهذه الجملة الأخيرة من الآية الكريمة غير مطابقة للحال تماماً. فإنه كان عليه أن يقول نعم وأنا أعلم جيداً ما أحدثوا من ضلال كبير وقد أذرتهم آنفاً منذ فترة وجيزة. وقال تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عَبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾⁽²⁾.

(1) رواه مسلم رقم ٧٣١٨.

(2) سورة المائدة، الآية: ١١٧.

وثالثاً جاءت تلك المناسبة مرة أخرى في سورة آل عمران حيث يتحدث الله سبحانه عن مشروعه وخطته في المسيح ﷺ ودعوته ومتبعيه إلى يوم القيامة، إذن كانت المناسبة ملائمة لأن يصرح الله له إني مرسله مرة أخرى إلى الدنيا. ولكن الله لم يصرح ذلك ولم يشر إلى ذلك. فإذا كان المسيح آتياً من جديد فلماذا هذا السكوت؟ لا وجه له والله وإليكم الآية بكاملها: وإذ قال الله ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ ذَاكِرُونَ﴾⁽¹⁾.

أحوال القيامة

وكيف تقوم القيامة؟ قد فصلها القرآن في أماكن عديدة. فهناك صور كثيرة جاءت في مقامات كثيرة في القرآن لما يحدث للأرض والسماء، ولما يقع للشمس والقمر والنجوم والكواكب من حالة، ولما يواجه مخلوقات الأرض من أوضاع وكيف يجتمع الناس في حضرة ربهم بعد البعث من مراقدهم. ودراسة الأدب الجاهلي تفيد أن العرب كانوا يميلون إلى التصوير أكثر منه إلى التشبيه. والقرآن قد صور للقاري مراعاةً لذوقهم صورة لزلزلة القيامة كأنه يشهد بأم عينه هذه الواقعة الكبيرة. وأحداث القيامة تتبع بترتيب آتي:

١ - يكون الناس مشغولين بأعمالهم وتجاراتهم، بعضهم في الطريق وبعضهم في السوق، وبعضهم في المجلس وبعضهم في البيوت. لا يدور بخلدهم أن نظام العالم متزلزل على عجل إذ فاجأهم النفخ في الصور وزلزلت الأرض زلزالها. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾⁽²⁾.

وما هو هذا الصور؟ يقال له في لغتنا «نرسنغا» أو البوق. ولا يمكن التوصل إلى كنهه لأحد لأنه عندنا مما يتعلق بالأمور المتشابهة ولكن اللفظ الذي

(1) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

(2) سورة النمل، الآية: ٨٧.

اختير له يقام له قليل من التصور منه. لأن الله سبحانه لتفهيم نظام كونه يستخدم ألفاظاً واصطلاحات يتداولها الجنس البشري لنظام متشابه له. والمقصود تقريب تصوراتنا للشيء الأصلي لا أن نفهم ذلك الشيء بعينه، كما نفهمه ونشاهده في الدنيا. وفي الماضي القديم كان ينفخ في البوق أو في نرسنغا في مناسبات الموكب الملكي أو عند إعلان الحرب علي الأعداء، فيفيد القرآن أنه سوف ينفخ في شيء كهذا لإقامة القيامة. فيذهل سائر المخلوقات ويطراً عليهم الهول والقلق والهلع كأنهم قد صاروا سكران وفي غفلة وذهول عن أحب الأشياء إليهم، والوحوش تحشر وتتجمع حتى تصعق المخلوقات كلها من جراء صوتها الهائل والمرعب. كما قال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ (1).

وماذا يمر به عمران الأرض نتيجة ذلك قد صور القرآن ذلك في مقامات متعددة. وتعلم بها أن الأرض تصير كسفينة متزعزعة بضرب الأمواج اللاطمة إذا ما هزتها زلزلة بعد أخرى فتتشعر من هذه الحالة القلوب، وتذعر بها الأبصار ويكون الناس سكارى لدرجة كأن هول العذاب قد جعلهم منبهرين. فقال: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (2).

وهذا الوقت هو الذي فيه يبتدئ انهدام نظام العالم، وتهز الكون كله زلزلة عظيمة تتكسر منها الجبال، وتتفجر الأنهار وسائر الأجرام الفلكية والمجرات تدع مكانها وتحل محل بعضها البعض، ويسود في كل الأطراف اختلال يتقاصر من بيانه الخيال ويتقاصر من تخيله الخيال. وتدوم هذه السلسلة إلى مدة لا يعلمها إلا الله تعالى. قال: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعُشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا

(1) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(2) سورة الحج، الآيتان: ١ و٢.

النُّفُوسُ رُوجَتْ * وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سِيلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ
كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١﴾. قال: ﴿إِذَا
السَّمَاءُ أُنشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا
وَحُقَّتْ﴾ (٢).

وبعد ذلك تبدأ مرحلة عبر بها القرآن بإعادة الخلق فبهذا الاختلال نفسه
يتواجد تدريجياً نظام طبيعي جديد. كما قال: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ
لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (٣).

وكيف تكون ذلك؟ فقد أخبر الله سبحانه أن الأجرام الفلكية كلها الأرض،
السما، الشمس والقمر والنجوم. والمجرات المتكونة من البلايين من الكواكب
والنجوم سوف تبدل في أرض جديدة وسما جديد، مع القوانين الجديدة
والنواميس الأخرى. كما جاء في إبراهيم: ٤٨ من قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ
الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ وقد بين القرآن أن تكون ثمة نفخة أخرى وإذا الناس قيام،
ويخرجون من أحداثهم ويحشرون إلى ربهم قال تعالى: ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا
هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ (٤).

مشاهد القيامة

والقرآن قد فصل المراحل التي يمر بها الإنسان في طريق شهود ذلك
اليوم مع بيان تلك المقامات التي ينزل بها بعد شهود ذلك اليوم. وإنه يسير إليه
مسحوباً. فالمرحلة الأولى لهذا السفر هو الموت. فبعد الأيام القليلة للحياة
الدنيا يتعرض كل إنسان لمرحلة الموت. لا مفر له منها كما قال تعالى: ﴿كُلُّ

(١) سورة التكوين، الآية: ٦ - ١٤.

(٢) سورة الانشقاق، الآية: ١ - ٥.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.

(٤) سورة يس، الآية: ٥١.

نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴿١﴾ فيأتي صباحًا أو مساءً ويمكن أن يطراً على الإنسان قبل أن يولد وبعد أن يولد وفي صباه، وفي شبابه وفي شيخوخته في أي وقت شاء، وكل شخص مضطر إلى التسليم له طوعاً أو كرهاً. وقد بين القرآن أن الموت عبارة عن فصل شخصية الإنسان والتي هي وجود مستقل عن حياته الحيوانية، عن جسم الإنسان. وقد كان أوتي الإنسان هذه الشخصية أول مرة بعد مرور وجوده الحيواني بمراحل متعددة للتسوية. ثم اكتمالها ويؤتاها اليوم أيضاً في حينها بعد أن يمر على استقرار الحمل ١٢٠ يوماً كما يفيد بذلك القرآن والحديث^(٢)، والموت عبارة عن فصل تلك الشخصية عن الجسم ويقوم بهذه العملية ملك خاص تعمل تحته فرقة بأسرها (النساء: ٩٧، الأنعام: ٩٣، النحل: ٢٨) فهو يأتيه ويتوفاه كما يتوفى الأمين الرسمي شيئاً في قبضته. قال تعالى: ﴿قُلْ يَتُوفَنُكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾^(٣).

ويذكر القرآن عند هذه النقطة ما سيحدث مع الإنسان. فتقبض الملائكة أرواح المنكرين للأنبياء بعد إقامة الحجة عليهم منهم بضربهم وإخبارهم متوعدين إياهم بعذاب ذلة رهيب ينتظرهم عند الموت بسبب أعمالهم. قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنْتَ اللَّهُ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعِيدِ﴾^(٤).

وأما من آمن بالأنبياء وبرئ من شوائب الكفر والشرك والظلم والعدوان في جانب آخر فإن الملائكة ستقبله بالبشاشة والترحيب وتبشره بالجنة: قال: ﴿الَّذِينَ تُؤْتِيهِمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٥).

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

(٢) السجدة: ٦-٩، المؤمنون: ١٢-١٤، البخاري: رقم ٧٤٥٤ ومسلم رقم: ٦٧٢٣.

(٣) سورة السجدة، الآية: ١١.

(٤) سورة الأنفال، الآيتان: ٥٠ و٥١.

(٥) سورة النحل، الآية: ٣٢.

وأما المقامات التي بعدها فتسمى على التوالى بالبرزخ والحشر والجحيم والجنة نذكرها فيما يلي بهذا الترتيب:

البرزخ

وهو معرب للفظه «برده» الفارسية. وأطلقت كلمة البرزخ على حد فاصل حيث سيظل الميت باقياً إلى يوم القيامة كأن ذلك حد يمنعهم من الرجوع ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾^(١). ومصطلح عالم البرزخ وجد من ذلك. وقد أطلقت كلمة «القبر» مجازياً في الأحاديث والآثار لذلك العالم الذي سيبقى الإنسان فيه حياً، ولكن تلك الحياة تكون بلا جسم ويكون فيه كيفية إدراك الروح وإحساسها وتجاربها ومشاهداتها مماثلة تقريباً للصورة العلمية، ولذا قال أن تلك المنام تنكسر مفاجأة والمجرمون يجدون أنفسهم أحياء بأرواحهم وأجسادهم حاشدين إلى ميدان الحشر فيقولون: من بعثنا من مرقدنا (ياسين: ٥٢) تحديداً حاسماً سواء كانوا صالحين أو فوا بحقوق الوفاء لدرجة الكمال أو منكبين جحدوا الحق بدافع الخيال والغرور فتبتدى نوعية عذابهم وثوبهم من هذا العالم لأن أمر هؤلاء واضح محسوم ولا حاجة إلى إخضاعهم للحساب والمساءلة.

ومثال الصورة الأولى صحابة النبي ﷺ الأبرار الذين حاربوا مع الرسول وقاموا بأرواء غليل الحق من دماءهم الزكية، فقد قال القرآن فيهم إنهم أحياء ويرزقون عند ربهم فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

ومثال الصورة الثانية هو فرعون وأتباعه. الذين لم يؤمنوا بموسى بعد قيام الحجة عليهم من قبله. ومن جراء ذلك بأنهم أهلكوا من عذاب الله في هذه الدنيا

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٠.

(٢) سورة آل عمران، الآيات: ١٦٩ - ١٧١.

ويعرض عليهم العذاب صباح مساء في الحياة البرزخية أيضًا كما قال: ﴿وَحَاقَ بِئَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (1)

فهذا هو العذاب والثواب الذي جاء ذكرها في الأحاديث والروايات (2).

وأضاف إليه النبي ﷺ أن الابتداء لمن بعث إليهم سيكون من سؤال «ما تقول في هذا الرجل» (3).

ووجهه ظاهر لأن الرسول بعد بعثته هو الذي يكون وسيلة واحدة لقومه للتمييز بين الحق والباطل ولذا لا حاجة إلى سؤال مزيد بعد التساؤل عن الإيمان به.

المحشر

ويليه مقام الحشر والنشر. والحشر يطلق في لسان القرآن على إحياء جديد لكافة الجنس البشري منذ خلق آدم إلى قيامة الساعة بعد النفخة الثانية للصور، وقد بينا من قبل أنه سيوجد كيان الأرض الأخرى بعد زلزلة القيامة. فيقام الحشر على تلك الأرض. وماذا ستحدث من المعاملات والأمر فيها نذكرها فيما يلي:

١ - يبعث الناس أجمعون أحياء من قبورهم. وحياتهم تلك تكون مع الروح والجسد وقد أطلق عليه في القرآن الحياة الثانية. (المؤمن: ١١) ويبدل فيه جسم الإنسان الدنيوي في جسد متناسب ومتلائم للحياة في الملك الأبدي لله سبحانه نعمة ونعمة في كل حالة، ولكن مع شخصية يحياها الآن في الدنيا ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ (4). ﴿وَقَالُوا

(1) سورة غافر، الآيتان: ٤٥ و ٤٦.

(2) البخاري رقم: ١٣٧٩ ومسلم رقم ٧٢١١.

(3) رواه البخاري رقم: ١٣٧٤ ومسلم رقم: ٧٢١٦.

(4) سورة يس، الآية: ٥١.

أَءَذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتًا أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿١﴾ قل: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ (٢).

٢ - وصلاحيات الإنسان وطاقاته تصير متقدمة جدًا نتيجة إعادة الخلق هذه بحيث يتمكن من رؤية من يشاء أن يراه جالسًا في مكانه ويتمكن من التحدث إليه مهما كان بعيدًا عنه. فقد روي أن شخصًا من أصحاب الجنة إذا ما ذكر قرينة في العالم اطلع عليه بدون مشقة ورآه في سواء الجحيم قال: هل أنتم مطلعون؟ فاطلع فرآه في سواء الجحيم، قال: تالله إن كدت لتردين. ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ (٣).

٣ - ويكون هنالك عالم جديد تمامًا تضيء أرضه بنور الله وتغشاه تجليته وجلاله تعالى ويكون الملائكة حافين من حول عرش الرب. وكل شيء يحمد ربه تعالى حتى أن المجرمين أيضًا يصلون هناك حامدين ربهم ومشنين عليه:

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ (٤).
﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ لِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٥).

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦). وتكون الأرض والسموات يومئذ مطوية

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩٦.

(٢) سورة الإسراء، الآيتان: ٥٠ و٥١.

(٣) سورة الصافات، الآية: ٥٧.

(٤) سورة الزمر، الآيتان: ٦٨ و٦٩.

(٥) سورة الإسراء، الآية: ٥٢.

(٦) سورة الزمر، الآية: ٧٥.

بيمين الله تعالى ويكون ذلك اليوم بحق منكري القيامة والجاحدين لها بحيث تجعل شدته الولدان شيبًا.

﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١) ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا * السَّمَاءُ مَنْفُطِرٌ بِهِ كَان وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾^(٢).

وأعمال الناس تتوضح من وجوههم، ويقول الكل نفسي نفسي فلا يستحيب الأخ لأخيه ولا الابن لأبويه ويفر المرء من صاحبه وبنيه. ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِي * وَأُمِّهِ * وَأَبِيهِ * وَصَدِيقِهِ * وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ * وَجُوهُ تُؤَمِّدُ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهُ تُرْهَقُ * قَرَّةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾^(٣).

ويؤخذ المجرمون يومئذ ينواصيهم ويسحبون على جباههم للحضور في حضرة القاهر الجبار ويقودهم قادتهم في الدنيا ويعرفون بسيماء وجوههم ويحشرون من قبورهم، يسوقهم ملك ويصحبهم ملك آخر لإدلاء الشهادة عليهم ويفضحون مزيدًا بأن يدعون إلى السجود لربهم فلا يستطيعون. ﴿يَعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ بِسِيمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ * فَيَأْيَأُ الْآءُ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ﴾^(٤).

وقال: ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾^(٥). ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾^(٦). ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٧.

(٢) سورة المزمل، الآيتان: ١٧ و ١٨.

(٣) سورة عبس، الآيات: ٣٣ — ٤٢.

(٤) سورة الرحمن، الآيتان: ٤١ و ٤٢.

(٥) سورة هود، الآيتان: ٩٧ و ٩٨.

(٦) سورة ق، الآيتان: ٢٠ و ٢١.

وَيَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ ﴿١﴾.

ويقسم الجنس البشري كله إلى ثلاث طوائف. الأولى السابقون إلى الحق الثانية الصالحون العامة. هم الذين يعطون كتاب أعمالهم في اليمين الثالثة هم أصحاب المشئمة الذين تُربط أيديهم من خلفهم ويعطون كتاب أعمالهم في الأيدي المربوطة الشمالية. قال تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْيَمِينَةِ مِمَّا أَصْحَابُ الْيَمِينَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مِمَّا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (٢) وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ كُتُبُهُ، وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾ (٣).

٦ - وتكشف حقيقة خلافات الناس وإذا عرضوا للاحتساب فيأتي كل شيء بكل عدل وقسط ونصفه ومع وزنه الحقيقي الكامل، لا بيع ولا شراء ولا صداقة حميمة ولا تعويض ولا شفاعاة ولا ظلم وتعسف بأحد عند هذه النقطة، بل يتوضح كل شيء بدرجة نهائية. ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٤). ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (٥). ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٦).

٧ - وتعرض الشهود لإتمام الحجة. وجيء بالنيبين أيضًا للشهادة وتشهد على الناس ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم وآذانهم وأسماعهم وأبصارهم وجلودهم وحتى مسامات الأجسام تشهد ثم يقضى عليهم. ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورٍ

(١) سورة القلم، الآيتان: ٤٢ و ٤٣.

(٢) سورة الواقعة، الآيات: ٧ - ١١.

(٣) سورة الإنشقاق، الآيات: ١٠ - ١٢.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٤٨.

رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَ بِالنَّبِيِّنَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١﴾ ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢). ﴿حَقَّ إِذَا مَا جَاءَ وَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِمَ لُجُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٣).

٨ - وعند هذه النقطة يكذب المشركين شركاءهم الذين كانوا يعبدونهم من دون الله، ويقطعون بهم الأسباب. فالعدو لله وللإنسان الشيطان يتبرأ منهم براءة كاملة ويلومهم باتباعهم إياه. ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٤). ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (٥). ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٦).

الجهنم

هذا مكان العذاب ودار التطهير والتزكية للمجرمين، وله أسماء متعددة جاءت في القرآن ففي مكان أطلق عليه اسم جهنم وفي مكان آخر السقر والنار الكبرى وما إلى ذلك من الألفاظ والتعابير. فإنها ساءت مصيراً كما جاء في

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٩.

(٢) سورة النور، الآية: ٢٤.

(٣) سورة فصلت، الآيتان: ٢٠ و ٢١.

(٤) سورة النحل، الآية: ٨٦.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٦٦.

(٦) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

الآيات البقرة: ١٢٦ - ٢٠٦، آل عمران: ١٥١، إبراهيم: ٢٩) وله سبعة أبواب حسب قوله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾^(١). فإن أسباب التهكلة التي عددها القرآن بتدرج تحت سبعة عناوين (بنو إسرائيل: ٢٢ - ٣٩).

والشيطان يغوي الناس ويلقيهم إلى طريق النار بابتلائهم في أي منها أو في مجموعتها. وهذا التصنيف والتبويب يكون في الأغلب برعاية تلك المهلكات السبعة. كما عبر به أيضًا لإعلام الناس بسبعة جهنم، أنها تكون وسيدة عريضة لدرجة أن لها سبعة أبواب. يدخل فيها طوائف من قضي عليهم بدخول جهنم منفصلة متفرقة بحساب جريمة خاصة لها. وقد قال أيضًا أي عليها تسعة عشر من الملائكة المشرفين عليها والمراقبين لأعمالها. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ* لَا بُتَّى وَلَا نَذْرُ* لَوَاحَةٌ لِلْبَسَرِ* عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾^(٢)

وقد ذكر القرآن في أمكنة كثيرة أن المشركين والكافرين بشعور وبصيرة منهم، لهم العذاب الخالد الدائم. وهكذا قد بين هذا العذاب أيضًا لمن يقتل أحدًا متعمدًا كما جاء الوعيد نفسه في حق من يخالف قانون الوراثة، وكذلك جاء الوعيد نفسه لمرتكبي بعض الكبائر الأخرى. ولا شك أنه يدخل النار من يخرج منها بعد التعذيب والتطهير. ولكن تصريحات القرآن هذه صريحة بظاها في خلود وبقاء النار في حق المجرمين كهؤلاء أبدًا. ومع ذلك يتوقع أن يطوى بساطها يومًا. ووجه ذلك أن عذابهم وعيد لا وعد لله سبحانه ويحق لله تعالى أن يخفف في عذاب هؤلاء المجرمين برحمته أو أن يدفنهم للأبد رمادًا في أرض جهنم نفسها. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ* خَلَدَتْ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

وتكون في جهنم عقوبات روحية وجسدية، وقد بينها القرآن فقال:

(١) سورة الحجر، الآية: ٤٤.

(٢) سورة المدثر، الآيات: ٢٧ - ٣٠.

﴿وَنَذِيقُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾⁽¹⁾. ونار جهنم هي ﴿لَوَاةٌ لِلْبَشَرِ﴾⁽²⁾. و﴿تَلْفَحُ
وُجُوهُهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾⁽³⁾. وتكون ﴿نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى﴾⁽⁴⁾. و﴿تَطْلُعُ عَلَى
الْأَفْئِدَةِ﴾⁽⁵⁾. ﴿إِنَّهَا تَرْمِي... كَالْقَصْرِ﴾⁽⁶⁾. و﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾⁽⁷⁾. و﴿وَسُقُوا
مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ﴾⁽⁸⁾. و﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾⁽⁹⁾. و﴿لَا طَعَامَ
إِلَّا مِنْ غَسِيلَيْنِ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾⁽¹⁰⁾. و﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ عَيْنَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا
مِنْ ضَرِيرٍ * لَا يُسَمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾⁽¹¹⁾. و﴿قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾⁽¹²⁾. إذ
الْأَعْلَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾⁽¹³⁾. و﴿أَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾⁽¹⁴⁾
﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾⁽¹⁵⁾. و﴿لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾⁽¹⁶⁾. ﴿إِنَّ
جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَنَابًا * لِيُثَبِّتَ فِيهَا أَحْقَابًا * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا
شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقًا * جَزَاءً وَفَاقًا * إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا كَذَابًا * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا * فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾⁽¹⁷⁾.

-
- (1) سورة الحج، الآية: ٩.
 - (2) سورة المدثر، الآية: ٢٩.
 - (3) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٤.
 - (4) سورة المعارج، الآية: ١٦.
 - (5) سورة الهمزة، الآية: ٧.
 - (6) سورة المرسلات، الآية: ٣٢.
 - (7) سورة الأعلى: ١٢ — ١٣ والفاطر: ٣٦.
 - (8) سورة محمد، الآية: ١٥.
 - (9) سورة الحج، الآية: ١٩.
 - (10) سورة الحاقة، الآيتان: ٣٦ و٣٧. (النبأ: ٢٤ — ٢٥).
 - (11) سورة الغاشية، الآيات: ٥ — ٧. (الدخان، الآية: ٤٣ — ٤٤) ز
 - (12) سورة الحج، الآية: ١٩.
 - (13) سورة غافر، الآية: ٧١.
 - (14) سورة مريم، الآية: ٣٩.
 - (15) سورة المطففين، الآية: ١٥.
 - (16) سورة آل عمران، الآية: ٧٧.
 - (17) سورة النبأ، الآيات: ٢١ — ٣٠.

الجنة

وهذه هي مأوى الصالحين ودار إقامتهم عبر به سيدنا المسيح (عليه السلام) بملك السماء^(١) واستعمل القرآن لها ألفاظاً وتعبيرات مختلفة نحو روضة وفردوس وجنة النعيم وجنة الخلد وجنات عدن وما إليها من الأسماء الأخرى - وسعتها سعة السماء والأرض (آل عمران: ١٣٣، الحديد: ٢١) وهي مكان دوام العيش. وعلى عكس من الحياة الدنيوية ليس هناك أي تصور للموت مع الحياة، وللألم مع اللذة، والغم مع الفرح، كما لا يشوب طمأنيتها اضطراب ولا راحتها مشقة ونعمتها نقمة. راحتها دائمة، لذتها بلا نهاية، وأيامها خالدة، وسلامتها أبدية ومسررتها غير فانية، وجمالها غير زائل وكمالها لا نهائي. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾^(٢).

ويدخلها المؤمنون بشأن أن يتلقاهم الملائكة من يمينهم وشمالهم ومن خلفهم وقدامهم، فيدخلونهم في الجنة حيث يستقبلهم. ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾^(٣).

لكي يتصور الإنسان إلى حد ما نفعها وآلاءها قد استعار القرآن الكريم أسباب الملك ولوازمها ولذا ذكر حدائق ناضرة، وأنهار سائلة وروضات باسمه، وقصوراً شاهقة وآنية من فضة وأكواب. وولدان مخلصون وأرائك ذهبية وثياب سندس خضر وإستبرق، وكؤوسها دهاقاً وكواعب أتراباً ومجالس عيش وطرب، فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ أَزْرَابًا * وَكَأْسًا دِهَاقًا * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا * جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا﴾^(٤).

(١) صحيفة متى الباب ٥ الآيات: ١٩ - ٢٠ - ٧٠، والباب ٧ الآية: ٢١.

(٢) سورة هود، الآية: ١٠٨.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٧٣.

(٤) سورة النبأ، الآيات: ٣١ - ٣٦.

﴿فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّعَهُمْ نَصْرَهُ وَسُرُورًا﴾ * وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةَ وَحَرِيرًا *
 مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيرًا *
 وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِبَنَاتٍ مِّنْ فَضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا * قَوَارِيرًا مِّنْ فُضَّةٍ قَدَرُوهَا نَقِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا
 كَانَ مِرْجَاهَا زَبْجِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا
 مَّنثورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمًّا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا * عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُوسٌ خُضَرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوعٌ أَسَاوِرٌ
 مِّنْ فُضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُم جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿١﴾.

كما قال في الذين دخلوا الجنة أنهم يجدون ما يشتهون (حم السجدة:
 ٣١) (الزخرف: ٧١، ق: ٣٥). قلوبهم مطهرة من البغض والحسد والشقاء فهم
 على الأرائك متكئون متحابين (الأعراف: ٤٣). (الحجر: ٤٨) (الكهف: ١٠٨).
 (فاطر: ٣٤ - ٣٥).. ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى
 مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ
 وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢). ﴿لَا يَسْمَعُونَ
 فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ (٣) ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٤)، وفوق كل ذلك
 ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (٥). وفي جواب الرضوان الإلهي يكون هناك
 تسبيح وتهليل من العباد. ﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّاتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَعَاخِرُ
 دَعْوَتِهِمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦).

وقد أوضح النبي ﷺ ذلك إيضاحًا مزيدًا فقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه
 قال: قال رسول الله ﷺ: إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة القدر
 ثم الذين يلونهم على أشد كوكب في السماء إضاءة لا يبولون ولا يتغوطون ولا
 يتفلون ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجامرهم الألوة

(١) سورة الإنسان، الآيات: ١١ - ٢٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥.

(٣) سورة الواقعة، الآية: ٢٢.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٦٢، ١١٢، ٢٦٢، ٢٤٤، ٢٧٧.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٧٢.

(٦) سورة يونس، الآية: ١٠. (مريم: ٦٢)... (الحج: ٢٤).. (الزمر: ٧٣).

الأنجوج عود الطيب وأزواجهم الحور العين على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء⁽¹⁾.

فهذه كلها صور متقاربة لأفهامنا وإلا ما هي كنه تلك النعم فقد عبر به النبي ﷺ بنفسه في حديث آخر⁽²⁾ من لفظ أن الله تعالى وضع في الجنة لعباده ما لا عين رأت ولا سمعت به الآذان ولا خطر على قلب بشر. وقد بينه الله في نفس الأسلوب في القرآن فقال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾⁽³⁾.

(1) رواه البخاري رقم: ٣٣٢٧ ومسلم رقم ٧١٤٩—٧١٥٦—٧١٥٧.

(2) رواه البخاري (رقم ٣٢٤٤—٤٧٧٩ ومسلم رقم ٧١٣٢).

(3) سورة السجدة، الآية: ١٧.

الباب الثاني:

الأخلاقيات

ومن أهم المطالبات الدينية بعد الإيمان هو تزكية الأخلاق. ويعني أن يقوم الإنسان بتزكية أعماله ما يمت بصلة إلى الخلق وإلى الخالق جل وعلا كليهما. وهو الذي يعبر عنه بالعمل الصالح، والشرعية كلها فرع له. نعم قد جاء التغير في الشرائع مع تغير المدنية والحضارة ولكن الإيمان والعمل الصالح بصفتهما أصليين للدين لم يحدث هناك أي تغير وتبدل فيهما أبداً. والقرآن صريح في من جاء بكليهما في حضرة الله سبحانه فله الجنة يخلد فيها فقال: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ (1).

وهذا العمل الصالح الذي يعبر به بفضائل الأخلاق أو مكارم الأخلاق ويقابلها رذائل الأعمال والأخلاق وقال النبي ﷺ: بعثت لأتمم صالح الأخلاق (2) وقال: أحاسنكم أحاسنكم أخلاقاً (3) وهؤلاء أحب الناس إلي (4)

(1) سورة طه، الآيتان: ٧٥ و٧٦.

(2) رواه أحمد: ٨٧٢٩.

(3) رواه البخاري رقم ٣٥٥٩ ومسلم رقم ٦٠٣٣.

(4) رواه البخاري رقم ٣٧٥٩.

وأثقل شيء في ميزان الإنسان الخلق الحسن⁽¹⁾ والرجل المؤمن يحصل بأحسن خلق درجة يحصلها الآخر بصوم اليوم وصلاة الليل⁽²⁾.

المباحث النبوية

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾⁽³⁾.

بأي طريق يعرف ما هو الخير وما هو الشر؟ هذا سؤال بنيوي لفلسفة الأخلاق. والقرآن قد أوضح إيضاحاً تاماً في الآيات المذكورة أعلاه أن الله تعالى كما أنه قد منح الإنسان الأبصار للبصر، والأسماع والأذان للسمع فقد أعطاه أيضاً حساً أخلاقياً يميز به بين الخير والشر. أنه ليس فقط وجوداً حيوانياً وعقلياً بل إنه وجود أخلاقي أيضاً. وذلك يعني أن امتياز الخير من الشر، وكون الخير خيراً والشر شراً قد ألهم في نفسه وقلبه مع أول خلقه، وقد وضحت هذه الحقيقة في عبارات: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾⁽⁴⁾. ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾⁽⁵⁾.

وهذه الميزة هي حقيقة كونية وإحساس عام شامل. ولذا إذا أذنب أفسد الناس وأشرسهم حاول إخفاءه في المرحلة الأولى. فإذا ما قتل أحد

ابني آدم قابيل أخاه هابيل سعى ليواري سوء أخيه فالظاهر أن الباعث على ذلك كان هو إحساس الذنب لا غير.

والخير كذلك فإن الإنسان يحبه ويكرمه وإذا ما يقوم بإقامة نظام اجتماعي

(1) أبو داود رقم ٤٧٩٩ والترمذي رقم ٢٠٠٢.

(2) أو كما قال ﷺ روى مفهومه أبو داود رقم ٤٧٩٨ والترمذي رقم ٢٠٠٣.

(3) سورة الشمس، الآيات: ٧ - ١٠.

(4) سورة الإنسان، الآية: ٣.

(5) سورة البلد، الآية: ١٠.

له فإنه يسعى سعيًا لازمًا أن يقيم هناك نظامًا للحق والعدل أيضًا فيه. وذاك ثبوت قاطع في كون امتياز الخير والشر عاطفة فطرية طبيعية.

ولا شك أن الإنسان يخلق أعذارًا ومبررات في حق الشر ولكنه يعرف تمامًا حين يختلقها أن تلك المبررات تخالف طبيعته وتعارض فطرته، لأنه إذا أصابه ذاك السوء نفسه من قبل الآخر لاحتج عليه واعترض له بدون أي تردد. وقد قال النبي ﷺ: الخير هو حسن الخلق والشر ما يريبك ولا ترض أن يعرفه الآخرون⁽¹⁾. وهذا الجانب للنفس الإنساني هو الذي عبر به القرآن ﴿بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾⁽²⁾ وصرح. ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِرَهُ﴾⁽³⁾.

ولكن قد تكون ثمة خلافات كثيرة في التعبير بهذا الإلهام وفق الأشخاص والحالات والظروف. ومن عناية الله الكبرى أنه لم يترك للخلاف مكانًا فقد أوضح الخير من الشر إيضاحًا تامًا من خلال الأنبياء والرسل، حيث كان مظنة الخلاف الكبير. وهدى الأنبياء ذلك قد احتفظ به القرآن الكريم إلى يوم القيامة. فما يجده الإنسان في داخله يصدق الهدي الإلهي، كما يصفه ويشهد له كل من الوجدان البشري وعقله، وقوانين الحياة ونواميس الفطرة وعلمه المستنبط من أحوال الوجود والعقل البشري، فتعين فضائل الأخلاق ورذائله بنتيجة ذلك بقطعية كاملة.

وقد جاء ذلك في الأحاديث كمثّل فقد قال النبي ﷺ: إن الله ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً على كنفى الصراط زوران لهما أبواب مفتحة، على الأبواب ستور، وداع يدعوا على رأس الصراط وداع يدعو فوقه إلى دار السلام ويهدي والله من يشاء إلى صراط مستقيم، والأبواب التي على كنفى الصراط حدود الله فلا يقع أحد في حدود الله، حتى يكشف الستر والذي يدعو من فوقه واعظ ربه

(1) روي معناه مسلم رقم ٦٥١٦.

(2) سورة القيامة، الآية: ٢.

(3) سورة القيامة، الآيتان: ١٤ و ١٥.

وداعي على رأس الصراط هو القرآن^(١). ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾^(٢).

السؤال الثاني ما هو الباعث الأصلي للإنسان والحافز على تزكية خلقه؟ فقد أجاب القرآن على هذا التساؤل في الآية المذكورة أن ذلك الباعث والحافز هو إحساس الإنسان بناءً على كونه ملهمًا بالخير والشر، إن نتائج الخير والشر لن تكون متساوية في حقه. فهو يشعر أن خيرية الخير وشرية الشر تتقاضى لنفس وجودها أن تأتي ثمارها اعتبارًا بها، وتوضح له تلك الحقيقة بذلك أنه ليس حرًا طليقًا وأنه سوف يُجزى جزاءه بالتأكيد حسب أعماله، فذلك الذي عبر به القرآن بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا * ويبدو منه أنه يتولد في الإنسان شعور من هنا بخوف وطمع. ويبقته على أن يزكي أخلاقه على الرغم من أهوائه وميوله الطبيعية. ثم إذا هو آمن بالله تعلق ذاك الشعور بالله ويتطلب منه القرآن أن يكون الآن حبه لله وابتغاء مرضاته وتقواه من الله عالم الغيب والشهادة المطلع على سره وعلنه، والعالم بما في الصدور من تحرك أيما تحرك وأية نبضة للقلب، هو الباعث الحقيقي على التخلق بأخلاقه وعلى الاجتناب من رذائل الأخلاق. وجاء ذلك في القرآن أكثر من مرة فقد قال عند نقطة التأكيد على أداء الحقوق: ﴿فَاتَّبِعْ دَا الْقُرْآنِ حَقَّهُ، وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٣). والمثل الأعلى لمكارم الأخلاق هم الأنبياء فقد قال القرآن عن النبي ﷺ: ﴿فَاتَّبِعْ دَا الْقُرْآنِ حَقَّهُ، وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٤) ومن المسلمات أن الإرادة الحسنى هي بناء العمل الصالح وقد قال ذلك النبي ﷺ في أسلوبه البليغ حين قال: إنما الأعمال بالنيات^(٥).

(١) رواه الترمذي رقم الحديث ٢٨٥٩ وأحمد رقم ١٧١٨٢.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩.

(٣) سورة الروم، الآية: ٣٨.

(٤) سورة الروم، الآية: ٣٨ (الليل ١٨ - ٢٠).

(٥) رواه البخاري رقم الحديث: (١)

فباعث النية يضع عمل الإنسان صالحًا زكيًا لدرجة نهائية. فبعد النية الصحيحة الخالصة لن يأتي بعمل فخرًا ورياء وسمعة وإن كان في درجة ما فإنه يسعى جاهدًا لتطهيره من تلك الشوائب عاجلاً وأجلاً.

ويشرح بيان القرآن هذا ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن أول الناس يقضى يوم القيامة رجل الشهيد فأُتي به فعرفه نعمة فعرفها قال فما عملك فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت قال كذبت. ولكنك قاتلت لأن يقال جريئي فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل تعلم القرآن وعلمه وقرأ القرآن فأُتي به فعرفه نعمة فعرفها قال فما عملك فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقل عالم وقرأت القرآن ليقل هو قارئ فقد قيل، وأمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ورجل وسع الله عليه وأعطاه المال من أصناف المال كله. فأُتي به فعرفه نعمة فعرفها، قال فما عملك فيها؟ قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيما إلا أنفقت فيها لك. قال كذبت ولكنك فعلت ليقل هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار»⁽¹⁾.

والسؤال الثالث لفلسفة الأخلاق أن ما هو الهدف الذي يرمي إليه هذا السعي والعمل وما هي غايته المقصودة؟ وطبقاً هناك تتوفر إجابات مختلفة فقالت طائفة هو الفرحة والسرور، وقالت ثانية هو الكمال وقالت أخرى هو أداء الفرض للفرض فقط. والآيات من سورة الشمس توضح ذلك أيضاً، فإن المقصود الذي يرمي إليه القرآن هو التزكية والتي تنتج منها حصول المُلْك الخالد للإنسان من الله سبحانه. وهي تشتمل تلقائياً كافة الإجابات التي جاء بها علماء الأخلاق إذا تدبرتها بنظرة ثاقبة. فإن تزكية العلم والعمل هو التي توصل الإنسان إلى الكمال والبلوغ وبما يحصل له الفرحة الواقعية وبها يتم أداء الفرض فقط، إن صح هذا التعبير، ويحصل للإنسان ثمرته إذا تاب ورجع إلى ربه ويبشر به أي يكون راضياً مرضياً. ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * أَرْجَىٰ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً *

(1) رواه مسلم رقم الحديث: ٤٢٢٣.

فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿١﴾. الأستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاح في تفسير ذلك:

«إنها كلمة تحسين وتبريك وتهنئة من الله تعالى. فإنه سوف يخاطبهم قائلاً ومهنتاً لهم. مبارك لكم إنكم نجحتم في الامتحان الذي ابتلاكم فيه ربكم فارجعوا إلى ربكم ناجحين راضين بربكم في كافة الحالات من السراء والضراء ومطمئنين وسعدتم بكونكم مرضيين عند الله، فكما أنتم لم تشكُّوا بربكم في أية مرحلة كذلك لم يجدكم ربكم أيضاً أقل من معياره فأنتم راضون به وهو راض بكم»^(٢).

أصل الأصول

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٣). فهذا هو أصل الأصول لهذا الباب من الهدى القرآني. فقد تم فيه إيضاح أساسيات مكارم الأخلاق التي تتطلب الفطرة البشرية التخلق بها مع تفسير رذائل الأخلاق التي تقضي الفطرة التجنب منها. فقواعد الخير والشر هذه فطرية تماماً، ولذا ما زالت معروفة مسلمة في دين الله. والأحكام العشرة للتوراة أيضاً مبنية عليها وقد فصلها القرآن أيضاً في كل أوامره الأخلاقية. وإليكم تفسيرها فيما يأتي:

فأول شيء تأمر به الآية هو العدل. ويعني أن نؤدي الحق الواجب علينا لأي شخص كما هو حقه بدون أي زيادة ونقصان ومماثلة. سواء كان صاحب الحق قوياً أو ضعيفاً وسواء نرضى له أم لم نرض. فقال: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَلَلَهُ أَوْلَىٰ بِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ

(١) سورة الفجر، الآيات: ٢٧ - ٣٠.

(٢) تدبر القرآن ٩/ ٣٦٢.

(٣) سورة النحل، الآية: ٩٠.

يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرًا ﴿١﴾ ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٢).

والثاني هو الإحسان وهو شيء زائد على العدل وجمال الأخلاق وكمالها بأسرها. ولا يراد به فقط تأدية الحق بل أن نسلك مع الآخرين علاوة على أداء الحق الواجب مسلك الجود والبحر. نعطيهما أكثر من الواجب ونكتفي على الأقل في حقنا نحن، الشيء الذي يقوم بإنماء قيم الإيثار والإخلاص والشكر ورحابة الصدر والناصح في المجتمع ويورث الحياة فرحاً وحلاوة.

والشيء الثالث هو الإنفاق على الأقرباء وهو فرع هام للإحسان يبين له صورة خاصة. ويعني أن يعتقد الإنسان في أقربائه أنهم ليسوا جديرين فقط بمعاملات العدل والإحسان بل جديرون أن يعترف الناس بأن لهم حقاً معلوماً في أموالهم ولا يتركونهم بائسين محتاجين، بل يحاولون لتلبية حاجاتهم مع أولادهم هم، كما أمكن بكل سخاء وإيثار. ويقابل الإحسان أشياء ثلاثة تنهى عنها الآية وهي كالتالي:

الفحشاء ويراد بها الزنا واللواط ومتعلقاتهما. والثاني المنكر وهو ضد المعروف ويعني المفسد والمساوي التي ينكرها عامة الناس منذ الأبد وفسادها ظاهر باهر لدرجة لا تحتاج إلى استدلال وتعليل. فكل التقاليد الصالحة من المدنية والحضارة والديانة والملة تراها سيئة. واستخدم القرآن في مقام آخر لفظة الإثم مكان المنكر، وذلك ينبئ عن أنه يراد به هنا العمليات التي تتسبب في إتلاف حقوق الآخرين. والثالث البغي ويعني التمرد والتعدي، أي يتعدى الإنسان ويتجاوز حدوده ويتعدى على حقوق الخالق أو المخلوق ويستغل قوته

(1) سورة النساء، الآية: ١٣٥.

(2) سورة المائدة، الآية: ٨.

وطاقته بشكل غير عادل. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (1).

الفضائل والردائل

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخَذُولًا﴾ * وَفَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَابْلُغِ الدِّينَ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا * رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا * وَءَاتَ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا * وَإِمَّا تَعْرِضْ عَنْهُمْ ذَرَاهُ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا * وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا * وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَقِيَنَّ تَرْزُقَهُمْ وَإِنَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا * وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّهُ كَانَ فَجِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا * وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَسْئُولًا * وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا * وَلَا تَقِفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا * وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا * كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا * ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَذْهُورًا﴾ (2).

والمبدأ النبوي الذي جاء ذكره قبل ذلك فهذه الآيات التي سردناها آنفاً

(1) سورة الأعراف، الآية: ٣٣.

(2) سورة الإسراء، الآيات: ٢٢ - ٣٩.

تشرح ذاك الإجمال، ففيها قد تم توضيح وتفسير فضائل الأخلاق من رذائلها على طريقة متعينة. وإذا تدبرت رأيت أن سلسلة البيان قد شرعت من ممانعة الشرك وقد انتهت على توكيده أيضًا. ويختار القرآن هذا الأسلوب لإبانة وإبراز أهمية كبيرة لشيء ما. والمقصود هنا هو تذكير القارئ أن عقيدة التوحيد هي كأنها سور للأشياء التي ذكرت بين التوحيد والشرك. والمدينة تقوم بوجود التوحيد وإذا تخلله خلل تعرضت المدينة بأسرها للخطر، ولا شبهة أن التوحيد يحمل هذه المكانة لحكمة الله التي جاءت في هذه الآيات برمتها. والتوحيد هو من أكبر المقتضيات التي يتقاضاه العدل الذي أمر به القرآن. ولذا قد اصطلح القرآن للشرك بظلم عظيم (لقمان: ١٣) وقد صرح أيضًا ما يتجه الشرك أن الله لن يغفر الشرك ومن يشرك بالله يلقى في جهنم ملومًا مدحورًا. فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾^(١).

فما هو هذا الشرك؟ هو أن يجعل مع الله إلهًا آخر ويعني الاعتقاد بأن فلانًا له صلة قرابة بالله، وأن الله هو مرتبط به، أو يجعل لأحد حصة في الخلق مع الله، أو في تدبير الأمور ويجعل هكذا ندًا لله بدرجة ما. ومثال الصورة الأولى عقيدة المسيحيين ومشركي العرب في سيدنا المسيح ﷺ وفي سيدتنا مريم ؑ وعقيدتهم في الملائكة ويدخل فيه عقيدة وحدة الوجود الذي تمثله الأديان والمذاهب الصوفية. ومثال الصورة الثانية تصورات عن برهما ووشنو وشيفا عند الهندوس وتصورات غوث وأقطاب وأبدال وداتا (معطي) ومعطي الفقير (غريب نواز) وما إليها من العقائد الباطلة المحرفة عند المسلمين. وينبغي أن يفهم من هذا القبيل الاعتقاد في الأرواح الخبيثة وتصرفات الشياطين وتصرفات النجوم والكواكب. قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾^(٢). ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٢) سورة الإخلاص، الآيات: ١ - ٤.

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُعْشَى الْيَلَّ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُهَا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾.

فالذين يعتقدون بهذه العقائد يعتقدون أيضًا أن هذه الشخصيات قد أعطاهم الله مقامًا، بحيث تطلع على الغيب إذا شاءت وتمكن من تحويل وتغيير ما أبرمه الله من قضاء في الدنيا والآخرة بشفاعتهم. وقد رد القرآن ردًا عنيفًا هذين كليهما فقال متمثلاً للأول: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢).

وقال عن العقيدة الأخرى:

﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٣). وهؤلاء يقومون بصياغة أوهامهم إلى تصاوير وتمائيل، وقرر القرآن أنها نجاسة يجب التجنب منها. فقال: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (٤) ومن هنا قال النبي ﷺ: إن الذين يصنعون هذه الصور يُعذبون يوم القيامة. يقال لهم: أحيوا ما خلقتم وهذه التصاوير هي التي حظرها النبي ﷺ وهذا الحظر لا يمت بصلة إلى صور عامة (٥).

وهذه النجاسة كامنة في التعاويذ والتولات المبينة على الاستمداد من تلك الشخصيات فقال: إن الرُّقى والتمايم والتولة شرك. رواه أحمد وأبو داود.

ولم يكتف بهذا بل وضع الحلف بغير الله أيضًا تحت هذا الممنوع

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

(٢) سورة النحل، الآية: ٧٧.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٤٤.

(٤) سورة الحج، الآية: ٣٠.

(٥) رواه البخاري: رقم ٥٩٥١.

المخطور، لأن من حلف بغير الله إنه يشهده على واقعة فكأنه هكذا يشركه بالله بكونه عالم الغيب ولذا قال: من حلف بغير الله فقد أشرك^(١).

وفي هذا المضممار بعض التوجيهات الأخرى للمشركون تجدر بالذكر:

فقد ضرب الله مثلاً لأمريء جعل له جنتين من أعناب، وحففهما بنخل وجعل له بينهما زرعاً وفجر خلalهما نهراً، فقال لصاحبه أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً. ودخل جنته وقال ما أظن أن تبید هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة. ولئن قامت بفرض المحال لأجدن عند ربي خيراً من كل ذلك. فأتت آفة من السماء على ما كان له من حدائق وأثمار وأنهار فخرّت على عروشها، فرجع إلى نفسه يلومه يا ويلی لِمَ أشركت بربي أحداً. وقال الله مصوراً تلك الواقعة: ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ. فَاصْبَحْ يَقْلُبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّيَ أَحَدًا﴾^(٢).

والرياء أيضاً من هذا القبيل فإن الأمور المختصة بالله سبحانه أن تكون للآخرين فذلك يعني أنهم حلوا محل الله تعالى، وهذا هو الشرك وقد قال النبي فيما يرويه عن ربه تعالى. إن الله يقول: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه^(٣). فهذه هي حقيقة توهمات الإنسان، ولذا منع النبي ﷺ الناس عنها، كما أنه قد نهى عن أشياء ليست في حد ذاتها شركاً، ولكنها توصل إلى الشرك، سداً للذريعة فقد روى ابن عباس أنه سقط نوء ذات ليلة فسألهم النبي ﷺ ماذا كنتم تقولون فيه في الجاهلية فقالوا إذا مات رجل كبير أو ولد سقط نوء فقال: لا تسقط أنواء بولادة أو موت أحد^(٤).

فعن زيد بن خالد الجهني قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت فقال: تعرفون ماذا قال ربكم قالوا الله ورسوله

(١) رواه أبو داود رقم ٣٢٥١.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٢.

(٣) رواه مسلم رقم: ٧٤٧٥.

(٤) رواه مسلم: ٥٨١٩.

أعلم قال: قال الله أصبح من عبادي مؤمن وكافر بي فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب وأما من قال بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب⁽¹⁾.

ويقول ابن عمر: قال رسول الله ﷺ: من أتى عرافاً أو كاهناً وصدقه لم تُقبل له صلاة أربعين يوماً⁽²⁾.

قالت عائشة رضي الله عنها: سأل أناس النبي ﷺ عن الكهانة فقال: تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرقها في أذن وليه كقرقرة الدجاجة فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة⁽³⁾.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر⁽⁴⁾ وروي عن جابر رضي الله عنه أنه زاد ولا غول⁽⁵⁾.

وقال عمر رضي الله عنه سمعت النبي ﷺ يقول: لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ﷺ إنما أنا عبد الله ورسوله فقولوا عبد الله ورسوله⁽⁶⁾. وروي ابن عباس أن رجلاً قال في كلامه مع النبي ﷺ: وما شاء الله وما شئت فرد عليه أن جعلتني ندًا لله؟ لا، بل قل وما شاء الله وحده⁽⁷⁾.

والأحكام التي جاءت في الآيات المذكورة أعلاه علاوة على الشرك وما يتصل به من التقاليد نفصلها في ما يلي:

-
- (1) رواه البخاري رقم الحديث: ٨٤٦ ومسلم رقم ٢٣١.
 - (2) رواه مسلم رقم ٥٨٢١ وأحمد رقم ١٦٢٠٢. (والعرفان من يدعي الاطلاع على السارق).
 - (3) رواه البخاري رقم الحديث ٧٥٦١ ومسلم رقم: ٥٨١٧.
 - (4) رواه البخاري رقم الحديث ٥٧٥٧ ومسلم ٥٧٨٨ وهذا من أوهام الجاهلية التي كان الناس يعتقدونها.
 - (5) رواه مسلم رقم الحديث: ٥٧٩٥.
 - (6) رواه البخاري: ٣٤٤٥.
 - (7) رواه أحمد رقم: ١٩٦٥.

عبادة الله تعالى

والحكم الأول أن العبادة تكون لله وحده بما أنه لا إله إلا الله وحده. وقد بينا من قبل في هذا الكتاب نفسه عن العبادة تحت عنوان «الدين الحق» أن حقيقتها هي الخضوع والتذلل يظهر أولاً في مراسم التعبد وتشمله الطاعة ثانياً مراعاةً لوجود الإنسان الفعلي. ومظاهر الصورة الأولى هي التسبيح والتحميد والدعاء والمناجاة والركوع والسجود والنذر والقربان والاعتكاف. ويشتمل في الصورة الثانية أن الإنسان يؤمن لأحد بالسلطات الألوهية ويمثل له في كل أمره ونهيه من حيث إنه حاكم مستقل بالذات وشارع مطلق له.

وقد قضى الله سبحانه أنه لا يكون شيء منهما لأحد غيره فقد قال وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه. فإن كان هناك شخص يأتي بتسبيح وتحميد لأحد غير الله أو يدعو ويناجيه أو يركع ويسجد له أو يقرب له القربان أو ينذر له أو يعتكف عليه أو يطيع أحداً مسلماً له جميع السلطات الألوهية، فذلك يعني أنه يجحد أن يطيع الله وحده، وكان في مخاطبي القرآن من كانوا يجنون هذه الجناية الكبرى فقال مبيناً لهم جريمتهم بصراحة تامة: فقال للساجدي الشمس والقمر: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (1).

وقال الذين يدعون أكابر السلف: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوتُ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (2).

وقال للذين يطيعون لرجال الدين مسلمين لهم السلطات الألوهية: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ

(1) سورة فصلت، الآية: ٣٧.

(2) سورة النحل، الآيتان: ٢٠ و ٢١.

مَرِيكَمْ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾.

كما أنه نبه الذين يخصمون الحرث والأنعام لتقدم النذر والقربان لشركائهم من دون الله. فقال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى الْوَلَدِ شُرَكَائِهِمْ^(٢) سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾^(٣). وقد أبطل الله التحليل والتحريم كهذا كما أبطل أيضًا مما حرمه أهل العرب من الأنعام ما يسمونه حامًا والبحيرة والسائبة والوصيلة، وقال بصراحة إنها لا شيء. والبحيرة ناقة ذات أطفال خمسة ويكون خامسها ذكر تخترق آذانها وتترك حرة، والسائبة يقال لناقة تكون حرة بعد الوفاء بنذر.

أما الوصيلة فبعضهم ينذر أنه إذا ولدت شاة ذكرًا تذبح للآلهة، وإذا ولدت أنثى تبقى عندهم فإذا ولدت ذكرًا أو أنثى معًا يقولون لها وصيلة ولا يُنذر الذكر كهذا للآلهة. وحام هو الجمل الحفيد الذي يكون له أولاد وأولاد الأولاد. يكون أيضًا حرًا طليقًا. فقال الله تعالى في ذلك:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٤).

وهذه الحساسية الزائدة التي تعبها «ألا تعبدوا إلا إياه» في عبادة الله وحده، هي التي بعث النبي ﷺ على أن يقول: لا تجعلوا القبور مساجد لعن الله اليهود والنصارى لأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد^(٥).

(١) سورة التوبة، الآية: ٣١.

(٢) وهذا تذكير بحماقة وجهالة جهلاء أنه إذا ماتت عترة مندورة باسم الأصنام تُعوض من نصيب الله أما إذا أصابت آفة النصيب الذي أخرج باسم الله فلا يعوض من نصيب الأصنام.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٣٦.

(٤) سورة المائدة، الآية: ١٠٣.

(٥) رواه البخاري رقم ٤٣٦ ومسلم رقم ١١٨٤ و٢٢٥١.

وهذا كان من آخر ما أوصاه لأمته قبل اللحق بالرفيق الأعلى ويمكن تقدير أهمية التوحيد من خلال هذه الوصية النبوية.

البر بالوالدين

والأمر الثاني هو معاملة الوالدين بالحسنى والبر بهما وهذا التوجيه نجده موجوداً في كافة الصحف السماوية. والقرآن الكريم قد أعطى توجيهات كثيرة في صدد ذلك تراها في لقمان (١٤ - ١٥) والعنكبوت (٨) والأحقاف (١٥) ولا شك في أن الإنسان يجب عليه تقديم واجبه والتزامه نحو أبيه على أي التزام آخر ويجب أن يوفى به بعد عبادة الله. لأن الأم والأب هما سبب مقدمه إلى الدنيا وهما اللذان قاما برعايته وتنشئته. والأم يجب تقديم حقها كما جاء في سورة لقمان حين قال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَلَدِكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾^(١).

نعم. لا تقل مشقة الأب أيضاً في تنشئة وتربية الأولاد، ولكن المشقة التي تحملها الأم في مختلف مراحل الحمل والولادة والرضاعة ليس لها شريك ولا ساهم، وبناءً على ذلك قد جعل رسول الله ﷺ حق الأم زائداً لدرجات ثلاث مقارناً بالأب^(٢). على أنه بغض النظر عن هذا الفارق قد نصح الله سبحانه لكليهما أنه يجب على الإنسان أن يشكر لهما فوق كل شيء بعد الله تعالى. والشكر لا يؤدي فقط لساناً بل يتم أولاً من خلال بعض المقتضيات اللازمة، التي بينها الله في الآيات من بني إسرائيل وهي كما يأتي: أولاً يجب أن يقدم المرء لوالديه آيات الاحترام في المظهر والمخبر وأن لا يحمل في قلبه لهما أية شبهة بغض وكرهية، وأن لا يتأفف في وجههما بل يعاملهما بحب وحنان، وإكرام ولين وسعادة وطاعة، وأن يوفر لهما أسباب الراحة في حالات الضعف والشيخوخة وأن يكون لهما موضع تسلية وطمأنينة وتلطف.

(١) سورة لقمان، الآية: ١٤.

(٢) رواه البخاري رقم الحديث ٥٩٧١ ومسلم رقم: ٦٥٠١.

ويقول الأستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاح في تفسير هدف أشارت إليه الآيات بطريق ذكر الشيخوخة والهرم:

«فهذا هو الزمان الذي أخذ الناس يضعون الوالدين موضع الثقل وينسون قرايبتهم وتضحياتهم التي كانا قد قاما بها في زمن طفولتهم وأيام صباهم. والولد السعيد يتذكر أنه كما كان قد ألقى في حضانه أبيه كمثّل مضغة لحم، فقد تسلم إلى اليوم في صورة هيكل من عظام، فيجب علي أن أحسن إليهما مثل إحسانهما إليه. ولكن لا يذكر ذلك كل شخص فهذا تذكير لذلك. وإلا فالوالدان يحق لهما بذل كل محبة وكل إكرام وتبجيل وإحسان في كل دور من أدوار الحياة⁽¹⁾.

والأمر الثاني الذي جاءت به الآيات أن على المرء أن يمثل لوالديه ويطيعهما طاعة نابعة من عواطف المحبة والشفقة عليهما والتي قد استخدم القرآن لها تعبيرًا واخفّض لهما جناح الذل من الرحمة «تلميحًا» على أنه كما يبسط الطائر جناحيه ليضم فراخه، فكان الوالدان أيضًا يحميان أطفالهما من صروف الزمان فعلى الأولاد أيضًا أن يحموهما مثل ذلك، لأنه يمكن أداء حق الوالدين وجواب شفقتهم به إن أمكن. فبدون ذلك لا يكون قادرًا على أداء حق والديه أداءً كاملاً.

وثلث الله تعالى بإيجاب الدعاء المتواصل للوالدين إقرارًا منه بفضلهما حين كان يتلقى منهما صنوف الحب والعطف والرعاية فعليه الآن أن يدعو الله ويبتهل إليه، لكي يغمرهما بلطائف بركاته التي تعينهما على ضعف الهرم والشيخوخة وهشاشة الكبر. فهذا الدعاء هو حق الآباء على الأبناء. وتذكير لهما بتأدية ذلك الحق. كما هو محرض على مشاعر الحب والحنان التي طلبها الله تعالى في صدد التعامل الحسن مع الوالدين. وقد حدد الله سبحانه حدود ذلك التعامل الحسن في سورة لقمان. ولكن ذلك موضوع للتشريعات ولذا سوف ننبه عليه فيما يأتي من الأبواب تحت عنوان «قانون العشرة».

(1) تدبر القرآن: ٤/٤٩٦.

وأحاديث الرسول ﷺ في هذا الباب كالآتي:

فقد روى ابن مسعود قال: سألت رسول الله ﷺ: أي الأعمال أحب إلى الله تعالى فقال: الصلاة لوقتها فقلت ثم ماذا؟ فقال: السلوك الحسن مع الوالدين⁽¹⁾.

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: رغم أنف ثم رغم أنف ثم رغم أنف قيل. من؟ يا رسول الله؟ قال من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة⁽²⁾.

عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه يقول: جاء رجل إلى النبي ﷺ فاستأذنه في الجهاد، فقال أحيي والداك؟ قال: نعم قال: ففيهما فجاهد⁽³⁾.

عن أبي سعيد الخدري، أن رجلاً هاجر إلى رسول الله ﷺ من اليمن فقال: هل لك أحد باليمن؟ قال أبوي قال: أذن لك؟ قال لا، قال: ارجع إليهما فاستأذنهما فإن أذن لك فجاهد وإلا فبرهما⁽⁴⁾.

وعن معاوية عن أبيه جاهمة أنه أتى النبي ﷺ وقال يا رسول الله أردت أن أغزو وقد جئت أستشيرك فقال هل لك من أم؟ قال: فالزمها فإن الجنة تحت رجلها⁽⁵⁾.

وعن عبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: أن مرضاة الرب في رضا الوالد وسخطه في سخط الوالد⁽⁶⁾.

(1) رواه البخاري رقم ٥٢٧ ومسلم رقم: ٢٥٢.

(2) رواه مسلم رقم الحديث: ٦٥١٠.

(3) رواه البخاري رقم الحديث: ٣٠٠٤.

(4) رواه أبو داود رقم الحديث: ٢٥٣٠.

(5) رواه النسائي: ٣١٠٦.

(6) رواه الترمذي رقم الحديث: ١٨٩٩.

ويقول أبو الدرداء: سمعت النبي ﷺ يقول: إن الأب أوسط أبواب الجنة فإن شئت فأضع ذلك الباب أو احفظه^(١).

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن لي مالاً وولداً وأبي يريد أن يحتاج مالي فقال: أنت ومالك لوالدك. إن أولادكم من أطيب كسبكم فكلوا من كسب أولادكم^(٢).

أما علاقة المرء بالناس الآخرين فيجب أن يتخذ منهم موقفاً مشابهاً متناسباً بدرجة لدرجة فقد صرح القرآن ذلك في موضع آخر بصراحة كاملة فقال: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾^(٣).

الأعزاء والأقرباء

ويتضح من الآية الكريمة أن حق الأعزاء والأقرباء في هذه العلاقات القريبة يلي حق الوالدين. ويطلق على الإحسان إليهم صلة الرحم. وقد يكون وجه العلاقات بين الناس أحدًا من أسباب المعاصرة، الزمالة في الدرس، الجوار والصحابة بالجانب والاشتراك في المهنة والمزاج أو المواطنة. والإخاء فوق كل لأن علاقة الإخاء تأتي باشتراك رحم الأم. فهذه العقدة قد ربطتها الطبيعة نفسها ولا يليق ببشر أن يكسرها. فالمحافظة على حقوق الأرحام تتقدم على الكل وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٤).

وتتضح أهمية الرحم من أقوال الرسول ﷺ أيضًا. فما رواه أبو هريرة أنه قال ﷺ: الرحم من الرحمن فقد قال الله له: من وصلك وصلته معي ومن قطعك

(١) رواه الترمذي رقم الحديث: ١٨٩٩.

(٢) رواه أبو داود رقم الحديث: ٣٥٣٠.

(٣) سورة النساء، الآية: ٣٦.

(٤) سورة النساء، الآية: ١.

قطعته مني^(١). وفي مقام آخر قد اختار الله سبحانه تعبيرًا أدق والطف لبيان مكانة الرحم فقد روي عن أبي هريرة نفسه عن النبي ﷺ قال: إن الله خلق الخلق، حتى إذا فرغ من خلقه قالت الرحم: هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال: نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت بلى يارب. قال فهو لك^(٢).

وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة، فقال القوم ماله ماله؟ فقال رسول الله ﷺ أرب ماله؟ فقال النبي ﷺ: تعبد الله لا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم^(٣).

وقال جبير بن مطعم إن رسول الله ﷺ قال لا يدخل الجنة قاطع رحم^(٤).

وعن أنس قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: من سره أن يوسع في رزقه ويبارك في عمره فليصل الرحم^(٥).

اليتامى والمساكين

وأدخل اليتامى والمساكين بعد الأعمام في زمرة من يجب صلة الرحم بهم، كأنهم وضعوا موضع الأقرباء. ويجب أن ينظر كل مسلم إليهم بهذه النظرة ويخدمهم ويراعهم بهذه العاطفة السخية. والخطوة الأولى للوصول إلى نصب العين والخيرة والرشد والصلاح عند القرآن هو فك الرقبة وتلبية حاجات البائسين واليتامى والمساكين كما قال: ﴿فَلَا أَقْنَحُمُ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾^(٦).

والأسلوب الذي اختارته سورة الفجر في بيان هذا الحكم ينبئ عن أنه

(١) رواه البخاري رقم الحديث: ٥٩٨٨.

(٢) رواه البخاري: رقم ٥٩٨٧ ومسلم: رقم ٦٥١٨.

(٣) رواه البخاري رقم الحديث: ٥٩٨٣ ومسلم رقم: ١٠٤.

(٤) رواه البخاري رقم: ٥٩٨٤ ومسلم ٦٥٢٠ و٦٥٢١.

(٥) رواه البخاري رقم الحديث: ٥٩٩١.

(٦) سورة البلد، الآيات: ١١ - ١٦.

ليس الهدف هو مد يد العون والمساعدة إلى اليتامى والمساكين بدرجة ما، بل الهدف الأصلي الذي يرمي إليه القرآن هو إكرام اليتامى وتشريفهم في المجتمع فقال: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ﴾⁽¹⁾.

وقد أشار النبي ﷺ إلى قرب منزلة كافل اليتيم يوم القيامة فقال:

«أنا وكافل اليتيم يكونان كهاتين في الجنة وشبك بين أصابعه»⁽²⁾.

حقوق الجار والمسافر والعبد

ثم ذكر حقوق الجار والمسافر والعبد وقد أمر لهم بحسن التعامل والسلوك الحسن معهم. أما العبودية فقد انتهت اليوم بسبب تغيير الحضارة والتمدن، ولكن بقي حكم المسافر لأنه ربما يحتاج مع ما حصل من رقي التمدن وتقدم الحضارة في أية صورة إلى مساعدة وعون. وقد بينا في الكتاب نفسه في باب «قانون المعاشرة» الخطوات التي اختارها الإسلام لإنهاء العبودية تدريجياً. ولكن القرآن جاء بتصوير جديد للجار والجوار في تاريخ الدين والأخلاق، فالجار عند العامة هو الذي من يسكن بجانب دارك وما جاوره ولكن القرآن قد توسع في تعريف الجار فعنده له ثلاثة أقسام:

١ - الجار ذو القربى الذي له علاقة قرابة بك وهو جارك أيضاً فهو أحق بحسن السلوك من الآخرين.

٢ - الجار الجنب: وهو الجار الذي غريب أجنبي لك وهذه الغربة ربما تكون من جهة الديانة ومن جهة القرابة. ودرجته بعد الجار ذي القربى.

٣ - الجار الصاحب بالجنب. الذي صاحبك في السفر والرحلة فالقرآن قد أرشدنا إلى حسن التعامل والسلوك الحسن معه أيضاً مثل الجيران الآخرين.

(1) سورة الفجر، الآيتان: ١٧ و ١٨.

(2) رواه البخاري رقم: ٦٠٠٥ ومسلم رقم الحديث: ٧٧٦٩.

وقد جاء الكثير من الأحاديث في حقوق الجار وهي كما يأتي:

عن أبي شريح قال: قال رسول الله ﷺ: بالله لا يكون مؤمناً بالله لا يكون مؤمناً فقالوا: من يا رسول الله؟ فقال: من لا يسلم جاره بوائقة⁽¹⁾.

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: من يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره⁽²⁾.

وعن عائشة قال: قال رسول الله ﷺ ما زال جبرئيل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه ليورثه⁽³⁾.

عن أبي ذر الغفاري قال قال لي رسول الله ﷺ يا أبا ذر إذا طبخت مرقه فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك⁽⁴⁾.

وعن أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ يقول: يا نساء المسلمين لا تحقرن جارة تحفةً لجارتها ولو قرش شاة⁽⁵⁾.

الإنفاق في سبيل الله

والثالث أن ينفق في سبيل الله وذلك يعني أنه إذا أنفق الإنسان على نفسه مما أنعم عليه الله به فينبغي له أن ينفق على أبناء نوعه أيضًا بعد تلبية حاجاته الضرورية الشخصية والتي تتصل بعمله. ويُعلم من القرآن أن من أراد أن يكون عبدًا صالحًا في هذه الدنيا فلا بد له من التزام بشيئين: هما بناء علاقة قائمة على أسس صحيحة مع الله أولاً ومع الناس ثانيًا. ويحصل الأمر الأول بالصلاة التي هي عبارة أسمى عن حب الله ويحصل الثاني بطريق الإنفاق في سبيله، وهو عبارة عن حب المرء لعبادة الله ومخلوقاته. وينال المرء عوضًا عن الإنفاق محبة الله له. لأن ما ينفق الإنسان على الأرض في الحقيقة يجمعه ويدخره في السماء، ونتيجة

(1) رواه البخاري رقم: ٦٠٠٥ ومسلم ٧٤٦٩.

(2) رواه البخاري رقم ٦٠١٩.

(3) رواه مسلم: ٦٦٨٥ والبخاري رقم الحديث ٦٠١٤.

(4) رواه مسلم رقم الحديث: ٦٦٨٣.

(5) رواه البخاري رقم ٦٠١٧.

لذلك «فإن قلبه أيضًا يكون عالقًا في السماء» كما قال المسيح (عليه السلام) ⁽¹⁾ والقرآن يرغب في ذلك في أمكنة كثيرة وفي أساليب بالغة الأثر فمثلاً قال في موضع آخر: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ⁽²⁾.

وهذا الإنفاق هو حق للأقرباء والأيتام والمساكين واجب أدائه. وهذا التعبير قد أختير له في الآيات التي أشرنا إليها من قبل. وهي توضح أن أي تراخ في أدائه يمكن أن يجعل الإنسان مجرمًا آثمًا في نظر الله سبحانه. فقد أوضح القرآن في موضع آخر أنه إذا أخذ المرء يكسب المال والثروة غير مبال لحقوق الآخرين فيه، فذلك من الكنز، وجزاءه جهنم التي يجب أن يعوذ كل مؤمن بالله منه: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوهُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ ⁽³⁾.

ونظرًا إلى هذه الأهمية للإنفاق فقد وجه القرآن أن من يعود عليهم حق الإنفاق ولكن أصبحوا في حالات حرجة بسبب من الأسباب، أن لم يمكن لهم الإنفاق من فورهم، ولكنهم يتوقعون أن تصلح الأحوال مستقبلًا فقد أرشدهم القرآن أن يقولوا لهم قولاً ميسورًا. وأن يوعدهم بوعدهم صالح مستقبلًا فقال: ﴿وَأِمَّا تَرَضْنَ عَنْهُمْ أَتَبْتَغَاءُ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾.

وهذا الإنفاق يتم سرًا أو علانية يعلمه الله كل ذرة منه، وذلك يعني أنه يجزل لهم المثوبة حسب وعده تعالى. ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ

(1) متى: ١٩ - ٢١.

(2) سورة المنافقون، الآية: ١٠.

(3) سورة التوبة، الآيتان: ٣٤ و٣٥.

فَنِعَمًا هِيَ وَإِنْ تُخَفُّوْهَا وَتُؤْتُوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِّنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١﴾.

إنه يبارك في هذا الإنفاق ويجعل الذرة جبلاً بيمينه وبركته فقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢).

يقول الأستاذ الإمام:

«هذا تمثيل للازدياد الذي سيكون في أجر ومثوبة المال الذي تم بذله في سبيل الله. فقال كما أنه يكون هناك سبع سنابل وفي كل سنبل منها مئة حبة، فكذلك يُعطى العبد الصالح مثوبة حسنة على أضعاف مئة حبة، تكون من عشرة أضعاف على سبع مئة ضعف (أو كما قال ﷺ) والظاهر أن هذا الفرق يكون مبنياً على فوارق نوعية العمل وزمان العمل والأحوال الظاهرة والباطنة للعامل. وذلك يعني أن حسنة قام بها المرء في الحالات الحرجة والوسائل الضيقة يضاعف أجرها. وحسنة جاءت في الحالات السارة والوسائل المتوسعة يخفف أجرها. كما أن عواطف ومشاعر العامل لها أيضاً أثر بالغ. فإن كانت هناك حسنة جيئي بها بكل وفور شوق وحماسة زائدة، ويقابلها حسنة جيئي بفتور شوق وعدم حرارة قلبية، فالظاهر أن هذا الفارق العاطفي سوف يؤثر على قدر أجرهما أيضاً. والآية تنال مقدار المثوبة الأعلى ولذا قال: «والله يضاعف لمن يشاء» إشارةً إلى ضابط الأجر الذي أشرنا إليه آنفاً. وأية مشيئة لله لا تعارض العدل والحكمة، ولذا إنه يريد ويشاء هذه الإضافة والزيادة لمن يستحقها وفق ضوابطه وأصوله».

ويمكن أن يزداد وضوحاً أن الإنفاق إذا كان رضا لله وتربيةً لنفسه فمثله كمثل شخص له جنة بربوة أرض مسطحة عالية غير صلدة، إذا أصابها مطر وابل آتٍ أكلها ضعفين وإذا لم يصبها وابل يكفيها طل. فقال: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٢٧٠ و٢٧١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦١.

يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيَةً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَثَاءَتْ أَكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١﴾.

ولكن هذا الأجر يكون لإنفاق قام الإنسان من ماله الطيب الزكي، الذي لا يكون معه من ولا أذى. فما لا يرضاه المرء لنفسه تقديمه في سبيل الله مما ينبئ عن دناءة الطبع. فما عندنا من مال أو متاع هو من عطاء الله وورقه، فإذا تختار الدنيئة في إعطائه في سبيل الله يحصل هناك خطر أن نزيد في البعد عن الله والمهجورية منه فضلاً عن حصول رضائه وتربية النفس. وهكذا إذا أعطاه مالاً ويمن به عليه ويؤذيه فذلك يعني أنه شخص أعطي مالاً ولكنه حُرِمَ من الشهامة والسماحة.

فإن هذه المعاملة لا تجيء إلا من رجل وإن وفق للحسنة والبذل في سبيل الله، ولكنه رجل لئيم دنيء الطبع وخسيس الفطرة، يعتقد غالباً أنه إذا أنفق شيئاً على رجل آخر، يجب عليه الآن أن يمتن له طيلة حياته، وإذالم يكتمل له أمانة هذه حاول إذلاله بكل مكان بهدف طعناته اللسانية. قال الله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَنِ حِمِيدٍ﴾ (٢). وقال أيضاً في موضع آخر: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ * قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ * يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣﴾.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٧.

(٣) سورة البقرة، الآيات: ٢٦٢ — ٢٦٤.

﴿أَيُّودُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾⁽¹⁾.

وفي تفسير الآية يقول الأستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاحي:

«هذا التمثيل لرجل زرع جنة من نخيل وأعنان يجري من تحتها النهر الذي يضمن لها النضارة والخصب. وكان هناك أثماراً أخرى متباينة وكانت تحصل منها أجناس مختلفة للأكل، وقد شاخ مالکها وله أولاد صغار فأصابها إعصار ذات يوم فيه نار من سموم، فاحترقت كلها. وهذا سيكون حال المنفقين الذين لا يحمون إنفاقهم من الآفات المهلكة. فالإعصار المدمر يكمن في أنفسهم. يظهر عليهم حين لا مناص لهم منه ولا مكان لهم أن يجدوه بعد الفقدان»⁽²⁾.

وقد بين القرآن في آيات بني إسرائيل المذكور أعلاه أنه يوفق لذلك الإنفاق من كان يعتدل ويقصد في نفقاتهم، ويعتقدون أرزاقهم مما أنعم الله عليهم، وليست نتيجة لتدابير وحكمة اتخذوها فقد أرشد إلى أمرين آخرين:

أولهما: لا يجوز الإسراف والتبذير في المال فإنه مما أنعم الله، والموقف الصحيح إزاءه أن ينفق الإنسان ماله على احتياجاته الأساسية باقتصاد، وما يدخره يعتبره أمانة لأصحاب الحق، ويؤدي تلك الأمانة اليهم بمتنهي الأمانة والدقة. فإن الشخص الذي لا يسلك مثل هذا المسك المتوازن في تبديد ماله لن يجد الفرصة في حياته التي ينغمس فيها بتلبية أشواقه للوفاء بهذه الواجبات نحو الآخرين. ولذا قال إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً» فلا هم له إلا إغراء الناس وإغوائهم بإنفاق المال في سبيل يرجعون بغضب ربهم بدلاً من مرضاته. وفي صدد ذلك

(1) سورة البقرة، الآية: ٢٦٦.

(2) تدبر القرآن: ١/٦١٩.

يشرح القرآن موقفًا متوازنًا أن لا يكون قد جعل يده مغلولة وأن لا يبسطها كل البسط فيقعد عند الحاجة ملومًا محسورًا، بل عليه على العكس من ذلك أن يدخر دائمًا مما يتمكن له من أداء حقوق ومساعدة الآخرين عند الحاجة. ومن هنا قال: ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملومًا محسورًا.

والثاني: إن حكمة الله ومشيئته هما تحكمان الظروف المعيشية لرجل. وتنحصر مسؤولية الإنسان وواجبه فقط في العمل الدؤوب لحصول الرزق. ومن فاته هذه الحقيقة ربما يتحجر قلبه إلى الحد الذي يندفع معه إلى قتل أطفاله خوفًا من الفقر. والآية القرآنية التي تتناول هذا المبحث تلمح في موضع إلى عادة بعض عرب الجاهلية عن وأد البنات وهن على قيد الحياة، لأنهم كانوا يتذرعون بأن المرأة عضو غير منتج فتكون عالة على الأسرة وعبئًا ثقيلاً على أهلها. فقد حرم الله في كتابه تلك العادة المشينة، وأكد أن الله هو وحده مصدر الرزق وأنه عليه وهو بصير بعباده ليس بغافل منهم. فقد قال في موضع آخر: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (1).

العفة والحشمة

الأمر الرابع هو أن لا يقترب رجل الزنا. ووجه ذلك أن الزنا فاحشة صريحة وممارسة فظيعة تعد من المنكرات الفاحشة التي لا تحتاج إلى دليل على بشاعتها وفجورها. وكانت الطبيعة البشرية لم تزل وما تزال تعتبره دائمًا إثماً كبيراً وجريمة فظيعة ولا ترضيها إلا أن تمسح مسخاً قاطعاً. والحقيقة التي لا تجد أن مؤسسة الزواج هي حاجة ماسة للإنسان مثل احتياجه إلى الماء والهواء. ولا

(1) سورة البقرة، الآيتان: ٢٦٨ و ٢٦٩.

تثبت ولا ترسخ هذه الإدارة مع المشاعر الصحيحة الطبيعية إلا أن تدوم العلاقة الزوجية بين الزوجين علاقة دائمة مستمرة. فإذا زال هذا الجانب المهم تولد منه قطع حيوانات سائبة خال من العواطف الطبيعية والروحية ولا يتواجد مجتمع صالح وحضارة طيبة منها.

ويقول في ذلك أبو الأعلى المودودي صاحب «تفهيم القرآن»

«إن كون الزنا سيئاً أخلاقياً أو كونه إثماً ديانةً أو كونه ممارسة فضيحة مما أجمع عليه المجتمعات البشرية كلها حتى اليوم. ولم يختلف منه إلا القلة القليلة الذين أصيبوا بتعبيد النفس أو الذين يعتقدون خطأهم فلسفة. ووجه هذا الإجماع الدولي أن الطبيعة البشرية بنفسها تتقاضي حرمة الزنا. فإن بقاء الجنس البشري وقيام التمدن الإنساني يتوقفان على أن لا يكون المرء حرّاً والمرأة حرة في اللقاء الجنسي ثم التفرق. بل يجب أن تكون العلاقة الجنسية بين كل زوجين قائمة على العهد المستمر المستقل بينهما الذي يستلزم الوفاء به ويكون معروفاً مشهوداً في المجتمع، ويضمن المجتمع لبقائه. فإنه لا يدوم النسل البشري بدونه ليوم واحد.

لأن طفل الإنسان لحياته ولنشوئه ونمائه البشري يحتاج إلى ربوبية مشفقة وتربية طويلة إلى مدة أعوام. والمرأة الوحيدة لا تستطيع بمفردها أن تتحمل هذا العبء إلى أن يصاحبها المرء الذي كان سبباً لتوليد ذاك الطفل. وهكذا لا يوجد تمدن ولا حضارة بدون معاهدة كهذه، لأن التمدن الإنساني إنما يجيء في حيز الوجود بهذه الاتفاقية التي بموجبها يجتمع امرؤ مع امرأة، ويشكلان معاً بيتاً ينتج علاقات ودية، ورابطات أخوية حميمة فيما بين الأسر. فإذا كان المرء والمرأة يباشران فقط للاستلذاذ مع الحرية الكاملة بصرف النظر عن خلق بيت وأسرّة لأفضى ذلك إلى أن يتفرق الناس كلهم وتتمزق الحياة الاجتماعية، ولا يبقى أساس تبنى عليه هذه البناية الشامخة للحضارة والتمدن. فبسبب هذه الوجوه فإن علاقة المرء بالمرأة الحرة التي لا تبنى على عهد وفاء معلوم ومعروف، تعارض

الفطرة البشرية. ومن هنا فلم يزل الإنسان يعتقد أنها عيباً كبيراً وسبة مشينة ودعارة وإثماً كبيراً في المصطلح الديني⁽¹⁾.

ولأجل هذه الشناعة لهذه العملية لم يقل الله فقط أن «لا تزنا» بل قال: «لا تقربوا الزنا» وذلك يعني إيجاب التجنب من كل ما يبعث على الزنا ويرغب فيه ويوصل إليه. وآداب اختلاط المرء والمرأة التي جاءت في سورة النور تهدف إلى تجنب الإنسان من أشياء كهذه. وهي تتمخض في وجوب غض المرء والمرأة كليهما مما يتقاضاه الجسد والنفس غصاً زائداً، وستر عوراتها وستر مظان الربية لهما سترًا وافيًا، وأن لا يأتيها بأمر باعث على الاهتزاز الجنسي والإغراء الجسدي لهما. لأن الشيطان إذا أراد أن تعم الفاحشة في مجتمع ابتداءً هجومه عليه بهذه الأشياء عامة، فقد حمل على آدم وحواء خلال هذا الطريق نفسه: فقال تعالى: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْنَيْنَكَمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَعْمَالِهِمْ إِنَّهُ يَرْتِكِبُكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾⁽²⁾.

وكيف تكون هذه الحملة الشيطانية؟ يوضحه الأستاذ الإمام ذلك فيما يأتي:

«إنه أولاً يحرم الناس من خلال وسوسة من لباس التقوى الذي أنزله من حيث التكريم والتشريف الباطني له مع اللباس الظاهري. فإذا ما يختلج من هذا اللباس الباطني، عندئذ ينتهي الحياء الذي هو الباعث والحافز الأصلي على اللباس الظاهري. ثم أخذ يثقل هذا اللباس الظاهري وتندفع الدعارة في الأعضاء الجنسية إلى التعري مع أن الفطرة تقتضي سترها. ثم يأتي دور الموضة. فتقوم بتوليد أساليب وأنماط جديدة من اختراعات متفنة في نحت طراز الثوب أن أبناء آدم وبنات حواء تلبس الأثواب، ولكنهم من حيث الغرض الرئيسي من الملابس

(1) تفهيم القرآن: ٣/٣١٩.

(2) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.

أي السترة، فانهم يظنون كما لو كانوا عرياناً. ويلاحظون فقط جانب الزينة والبذخ في ملابسهم. ويغلب على الزينة أيضاً المجون الذي يستهدف أن يبرز ويتميز من الزاوية الأكثر جاذبية. ثم يخدر العقل تدريجاً بحيث يحصل العري على اسم الحضارة واللباس الساتر اسم الوحشية والتخلف. ثم يثور شياطين مثقفون ثقافة عليا ويقومون بإحداث وإيجاد فلسفة في ضوء التاريخ وتقول إن العري هو الأصل المفطور عليه الإنسان، وإنما اختار الملبس تحت ضغوط اجتماعية وتقاليده سائدة. وهذه هي المرحلة التي إذا جاءت يموت ماء العين وتصبح الحضارة كلها مسمومة بسموم الشهوانية الجارفة»⁽¹⁾.

وانطلاقاً منه فقد جعل الله سبحانه وتعالى نشر الزنا وترغيباتها جريمة كبيرة. فإنه إذا حاول المنافقون والأشرار للإرجاف وإشاعة الفاحشة في المدينة فقال الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾⁽²⁾.

ولهذا الغرض نفسه قد نهى النبي ﷺ عن الخروج معطرات عطراً كثيفاً وعن اختلاط الرجال وحدها والسفر معهم منفردة، وسأله عن الحمى فقال: الحمى الموت، ولهذا الغرض نفسه قد نهى النساء عن الخروج إلى أسفار طويلة بدون ذي محرم. ولهذا قد أمر تحويل النظرة الثانية بعد الأولى. ونبه وحذر عن بعض أشكال الغناء وصور الموسيقى بصفتها محرصة على الزنا: فقد قال أبوهريرة عن النبي ﷺ: إن الله كتب على ابن آدم حفظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظرة وزنا اللسان المنطق والنفس تتمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك كله ويكذبه⁽³⁾.

فهذه تعليمات قد أعطيت سداً للذريعة وجاءت لمنع الزنا من مظانه.

(1) تدبر القرآن: ٢٤٦/٣.

(2) سورة النور، الآية: ١٩.

(3) رواه البخاري رقم الحديث: ٦٢٤٣ ومسلم رقم: ٦٧٥٤.

قدسية النفس البشرية واحترامها

الأمر الخامس هو ألا يقتل أحد أحدًا. وهذا هو بيان لقدسية الحياة الإنسانية وحرمة النفس التي قد جاءت بتأكيد النوااميس الأخلاقية والمدنية. وقد ذكر القرآن أن الله قد كتب على بني إسرائيل أن قتل نفس واحد تعادل قتل الناس جميعًا. وهذا الحكم الإلهي بعينه يوجد حتى اليوم في التلمود⁽¹⁾.

وقد فصله في سورة المائدة فقال:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾⁽²⁾.

ويتضح من هذا الحكم أنه يجوز إزهاق نفس إنساني فقط في صورتين لا ثالث لهما: أولاً أن تقتل نفس نفساً وثانيتها أن يقوم بفساد في الأرض الذي عبر عنه أن يبغى ويخرج على الحكم الاجتماعي، ويتعرض لأغراض وأموال وأرواح الآخرين. وكل قتل علاوة على ذلك قتل بغير حق وجزاؤه جهنم خالداً فيها (الفرقان: ٦٨ - ٦٩). فالذين يرتكبون هذه الجريمة من المسلمين ضد إخوانهم المسلمين قد نبههم القرآن بقوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾⁽³⁾.

كما أوضح القرآن أيضاً أن مرتكبي هذه الجريمة لا تعود معاملتهم فقط إلى الله بل إنهم سوف يواجهون أولياء المقتول أيضاً. وقد منحهم الله سلطة القصاص الكاملة. ولا يحق لأي محكمة للعالم أن تعطي للقتلة أية مراعاة بدون موافقة الأولياء. وتنحصر مسؤوليتها فقط في تنفيذ القصاص العادل إذا أصروا عليه وتزعن لشروطهم ومطالبهم كاملة.

(1) شرح التلمود البابلي ١٨٣/٢٣.

(2) سورة المائدة، الآية: ٣٢.

(3) سورة النساء، الآية: ٩٣.

ولكن لا يعني ذلك أنه إذا لم تقم دولة إسلامية مستقلة منتظمة ويرجع أمر القصاص إلى أولياء القتيل أن يتجاوزوا حدودهم بصفتهم كأولياء، ويحاولوا مثلاً حماساً للثأر قتل من يتصل بالقاتل من الأقرباء علاوة عليه، ويطالبوا في زعمهم للنجاة وعلو النسب أن يقتلوا حرّاً بعددهم وامراً بامرأتهم أو أن يعذبوا القاتل أو يمثّلوا جثته بعد قتله، أو يختاروا أساليب القتل مما منعها الله فعبارة «فلا يسرف في القتل» تصدق على كل ذلك. ويُستنبط من ذلك أن يحصل هذا الخيار والسلطة للقتيل يوم القيامة ولا يعطي القاتل هناك مراعاة ولا امتياز بدون إذن القاتل.

الخيانة في مال اليتيم

والحكم السادس يتصل بوجوب صيانة مال اليتيم. وأسلوب هذا الحكم يذكر بنظيره المتصل بالزنا. إذ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ فمعنى الآية إذن أن ذلك المال يجب أن لا يستخدم إلا لمنفعة اليتيم، وحمايته واستثماره الذي يتولاها الوصي عليه إلى أن يبلغ سن الرشد وسن النضج القانونية، ليتحمل مسؤولية ماله بنفسه. وقد أعطى الله سبحانه خاصة لذلك تعليمات وإرشادات في سورة النساء: ولكن بما أنها تتصل بمباحث الشريعة ولذا سوف نذكرها في هذا الكتاب تحت موضوع شريعة الاجتماع والمعايشة. وليتضح هنا أن الخيانة في مال اليتيم التي تبحث عنه الآية (١٠٤) من سورة النساء هي جريمة كبرى عند القرآن لا يستهان بها فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾^(١).

الوفاء بالعهد

الأمر السابع هو الوفاء بالعهد مهما كلف الثمن ويرى القرآن أن المرء

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٤.

مسؤول عن عهوده. وقد جاء ذلك في سورة البقرة في أسلوب ينبئ عن الاهتمام والاختصاص والتأكيد والنسبة. ﴿وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾^(١). وهذا العهد يشمل كل العهود والمواثيق كما هو ظاهر.

ويقول الأستاذ الإمام: «وإلغاء العهد يشمل كل العهود والمواثيق والفرائض مهما كبرت أو صغرت وسواء تتعلق بالخلق أو بالخالق. وسواء جاءت في حيز الوجود بسبب معاهدة مكتوبة أو وجدت بسبب من أسباب النسبة، العلاقة والقرابة وسواء كانت معلنة مظهرة في المجتمع أو تكون مما يعتقد ويُسلم دون قول وإظهار في كل اجتماع صالح. فنحن معقودون تحت أية معاهدة ظاهرة أو خفية بكل من الله ورسوله ومن الأيوين ومن الزوجة والأولاد والأقرباء والعائلة والأسرة والجيران والأستاذ والتلميذ والسيد والموظف والوطن والملة ومع الكل. والبر والتقوى يستلزمان أن نكون موافين لهذه العهود والمواثيق كلها، كأن الروح الحقيقية لإيفاء العهود هو الإيفاء بالحقوق. والإيفاء بالحقوق شامل لكل فرائض الإنسان وواجباته مهما كبرت أو صغرت»^(٢).

وقد جاء هذا الحكم بوفاء العهد في مواضع متعددة من القرآن بالتأكيد نفسه^(٣). كما أنه من أهم الإرشادات التي جاءت في غضون الجهاد هو العهد المتعلق بالجهاد والحرب. وسورة التوبة هي سورة العذاب على منكري الحق وجاحدي الرسالة، وأمر فيها رسول الله ﷺ وأصحابه أن يقوم ضد مشركي العرب بإقدام نهائي بإنهاء جميع الاتفاقيات معهم. لكن وضح فيها أنه إذا كانت المعاهدات قصيرة الأمد ومحددة الأجل يجب الانتظار حتى ينتهي أجلها المحدد. (التوبة: ٤)

كما أمروا أمراً جازماً في سورة الأنفال أنه لا يمكن للمسلمين أن ينكثوا

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

(٢) تدبر القرآن: ١/ ٤٢٩.

(٣) انظر المعارج: ٣٢ والمؤمنون: ٨.

عهودهم مع أي أمة تضطهد المسلمين أن يمدوا إليهم يد العون والمساعدة:
فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (1).

الإيفاء بالكيل والميزان

والأمر الثامن يتعلق فيها يتصل بالكيل والميزان أن الأشياء يجب وزنها وقياسها بالدقة والأمانة فإن الله تعالى قد أقام الأرض والسماء على ميزان. فكان من اللازم أن يظل الإنسان عادلاً في دائرة اختياره وسلطته وأن يقيس أبداً بالميزان الصحيح ويكيل بالكيل العادل فقد قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (2).

وعُلم من ذلك أن هذا أمر عظيم وهو اعتباراً بحقيقته فرع لميزان العدل الذي عليه تقوم هذه الدنيا، فإذا حاد شخص عن ذلك الميزان العادل حاد معه من الإله الذي خلقه ووقع الاختلال في نظام العدل والقسط، ولم تبق عقيدة كون الإله قائماً بالقسط. والظاهر أنه ينتج منه اضطراب الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع وتدهورت مكونات وأسس الاجتماع برمتها، وكان قوم سيدنا شعيب عليه السلام مبتلى بهذا المرض. فقد نقلت نصيحته ودعوته لقومه في أكثر من مقام في القرآن: فقال في الشعراء: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطِاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (3).

وهذا يطلق أيضاً على التلاعب بمواصفات البضاعة فإن من يقوم مثلاً

(1) سورة الأنفال، الآية: ٧٢.

(2) سورة الرحمن، الآيات: ٧ - ٩.

(3) سورة الشعراء، الآيات: ١٨١ - ١٨٣.

بإضافة الماء إلى الحليب والرمل إلى السكر والشعير إلى القمح فإنه أيضًا يرتكب جريمة التطفيف وإن كان يزن بدقة فإن لا يعطي المشتري بالكامل ما يشتريه منه. وهذا هو في الحقيقة سلب حق الآخر الذي يترتب عليه عواقب وخيمة في الدنيا والآخرة. ولذا قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (1).

اتباع الظنون والأوهام

الأمر التاسع هو أن لا يتبع أحد الظن ولا يقف ما ليس له به علم. وقد حذرنا القرآن أن لا نستهن بهذا التوجيه. لأن البصر والفؤاد والعقل والسمع ستكون مسؤولة أمام الله يومًا. وذلك يعني أن لا يتسلم مسلم للظن والتخمين ولا يلفق مزاعم وافتراءات وبث الأكاذيب ضد أحد بدون تحقيق وتحري عن ماهية الأمر. كما يقتضي هذا الأمر أن لا يتبين وجهة نظر وبينه على القتل والقتال والإشاعات والظنون والأوهام، والقياسات عن صفات الله سبحانه وتعليماته. فقد جاء بعض هذه الأشياء بصراحة تامة في سورة الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (2) وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ (3).

الإقدام دون تحقيق

فقد ذكر في الآية المذكورة أعلاه أولاً إذا جاءكم فاسق نبأ هام فلا ينبغي الإقدام الفعلي بناءً على خبره بغير تحقيق وتحري لنفس الواقع. لئلا تُتخذ خطوة في نوبة حماس ثم تندم عليها لاحقاً. ويُستنبط منه أنه إذا كان الذي جاء

(1) سورة الإسراء، الآية: ٣٥.

(2) سورة الحجرات، الآية: ٦.

(3) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

بخبر مجهولاً، لا يُعرف نفسه ولا ثقافته يجب تحقيقه بالتأكد، وانطلاقاً منه قام محدثونا بتحقيق أحوال الرواة عن النبي ﷺ علماً وعملاً. وإذا لم يجدوا نجاحاً في الفحص عن راو جعلوه مجهولاً وردوا روايته.

سوء الظن

وقد ذكر ثانياً النهي عن إكثار الظن فان بعض الظن إثم وأوضح ذلك الأستاذ الإمام بقوله:

«يضطر الإنسان إلى الاتصال بالكثير من الناس في حياته وبديهي أن يتولد عنده عنهم ظن خير أو سوء الظن. فهذا الظن يصل المرء أو يقطعه عنه فهذا إذن أساس الوصل والفصل في المجتمع الإنساني. فهذه الأهمية للظن تتقاضى أن لا يكون المرء غير مبالٍ في قبول الظن أو رده، بل أن يكون حذراً متيقظاً. فقد أرشد الإسلام أهل الإيمان في ذلك أن يكون المسلم ظاناً بالخير تجاه المسلم الآخر حتى يثبت أنه لا يصلح لذلك. وحسن الظن هذا مما يتقاضاه الأخوة الإيمانية بالتأكد والتي بنى الإسلام اجتماعه عليه، وقد بيناه من قبل، وعلى عكس من ذلك إذا كان هناك شخص يتعود على الإكثار من الظن خيراً أو شراً ثم يجمعه جمعاً فصاحب هذه الظنون رطباً أو يابساً مثله كمثل صائد أعماه شوقه اصطيد ثعبان مع السمكة. وظاهر أن صائداً كهذا سيضيع حياته يوماً ما. فالقرآن حذر المسلمين من هذا الخطر أن لا يقفوا كثيراً من الظن لأن بعض الظن إثم ويوصل الإنسان إلى المهلكة. فاستنبط من ذلك تعليم أن لا يتعرض المؤمن لسوء الظن الكثير بل يظن بإخوانه المؤمنين ظناً خيراً. وإذا صدر من أحد شيء مما يبعث على الظن السوء ينبغي له أن يوجهه توجيهاً حسناً ما أمكن ذلك. وإذا لم يمكن ذلك يجوز ظن السوء. وأن يخطئ أحد في ظن الخير في حق أحد لهو أهون من أن يسيء الظن ممن يستحق الظن الخير»⁽¹⁾.

(1) تدبر القرآن ٧/ ٥٠٩.

التجسس

وثَلَّثَ القرآن أن لا تجسسوا. يقول الأستاذ الإمام في تفسير ذلك:

«الحظر هنا على الجاسوسية التي تكون لغرض الشر. أي يتجسس المرء لكي يطلع على خفايا الحياة الشخصية لشخص آخر، وأسرار بيته وما يصدر من أخطاء وزلات. يبعثه على ذلك إما حسد لكي يشفي بغلة صدره بنيل منقصة في حياة الخصم. وإما بغض وعناد يحرضانه للاطلاع على جانب الضعف فيه كي يشوه صورته عندما يحتاج إليه. والتشهير قد أصبح حرفة مستقلة في العالم المعاصر والذي ينميها كل يوم وسائل الإعلام المعاصرة الراقية. فلم يزل بعض الصحفيين يمسي ويصبح في البحث عن أية فضيحة لآخر، ويُعد منهم أكثر نجاحًا ودهاء صحفي فاز بوسمة عار ذاتية لشخصية بارزة فيكب القارؤون والدارسون على صحيفته أو جريدته إكبابًا زائدًا.

والظاهر أن التجسس كهذا ينافي الأخوة ويعارض المواساة التي يتأسس عليها المجتمع الإسلامي. ولذا حظر ذلك على المؤمنين. أما التجسس الذي ينبئ عن اطلاع أحوال الأخ المسلم كي يساعد أخاه المسلم الآخر في أحواله الحرجة ومشكلاته، أو الذي تقوم به حكومة إسلامية حتى تكون على بصيرة تامة ووقوف كامل على أحوال رعاياها فهذا ما لا تتعرض له الآية هنا، وليس هو بممنوع. بل هو من عمل الخير لكل جار كريم أن يقف على حالات ومشاكل جيرانه كي يساعدهم في حالاتهم الحرجة. وللحكومة ليس هذا عمل خير بل واجب عليها أن تهتم بالاطلاع على أحوال الرعية السارة والضارة كليهما لكي تفي بمسؤولياتها على درجة مطلوبة»⁽¹⁾.

الاستكبار والغرور

العاشر هو أن لا يمشي أحد على وجه الأرض مرحًا مختالًا. لأن ذلك

(1) تدبر القرآن ٧/ ٥١٠.

مشية المستكبرين والمغرورين. ولذا قال إنه مهما ضربتم الأرض بقدميكم فلن تخرقوها ومهما شمختم برأسكم فلن تبلغوا قمم الجبال:

ويقول الأستاذ الإمام:

«ويعني ذلك أنكم ترون شؤون الرب تعالى هذه أنه قد فرش الأرض الطويلة العريضة مهذاً لكم ولستم إلا نملة أو قنبة عليها، والذي قد أرسى أمامكم هذه الجبال الرواسي ولستم أمامها إلا سنجابة صغيرة. فما معنى الاختلال والمرح في أرضه؟ تعرفون مكانتكم واسجد والعظمة الرب تعالى ولجلاله⁽¹⁾.

وهذه المشية المرحية تشيء بما هو كامن في الباطن من المشاعر والعواطف التي تتكون تحت تأثير الثروة والسلطة والحسن والعلم والمعرفة والقوة وما إلى ذلك، مما يحدث في المرء الغرور والمرح. والاختيال الناشئ من أي هذه الأنواع يبرز في نوع خاص من المشية، ويشهد على إزاحة المشاعر المتصلة بعبادة الله وعظمته من قبله. فإن القلب الشاعر بعبودية الله تعالى وعظمته لا يتقلب إلا في صدور طارئة عليها حالة التواضع والاستكانة لله تعالى، فإنهم يخففون وطء الأرض ولا يمرحون ولا يختالون.

ولذا فإن مشية المرح خصلة رذيلة جداً فصارت عقوبته أشد كما قال رسول الله ﷺ: لا يدخل الجنة من كان في قلبه غرور كحبة خردل⁽²⁾. وقال: العز إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبتة⁽³⁾.

ومما يجب ملاحظته هنا أن هذا الخيلاء والغرور لا ينعكسان فقط في هيئة المشية، بل ينعكس في أسلوب حديثه ونوع ملابسه ومظهره الجسدي وزيه وقيامه وقعوده وفي كل شيء. ولذا قال: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ

(1) تدبر القرآن ٤/ ٥٠٢.

(2) رواه مسلم رقم: ٦٦٨٠.

(3) رواه مسلم رقم: ٦٦٨٠.

مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ * وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١﴾.

ومن هنا نهى رسول الله ﷺ من استخدام كل ما يتوخى منه المرء استظهار إمارته وغناه، أو يتخذها بابًا من أبواب الأبهة والمنفعة وترغيب الآخرين أو ترهيبهم على طريقة الماجنين الخلعاء، ولذا قد نهى عن لبس الخز وصنع الغلاف من الجلود الثمينة والأكل في أوعية الذهب والفضة^(٢). حتى إنه منع من مظهر الغرور المبني على اللحية الصغيرة والشوارب الكبيرة ونصحهم بإعفاء اللحية وقطع الشوارب على كل حال^(٣). وهذا هو محمل الأمر بإعفاء اللحية وقطع الشوارب، ولكن الناس أخطؤوا فهم هذا الحديث وجعلوه أمرا بإعفاء اللحية مطلقًا، وأدخلوا في دين الله ما ليس منه. فقد قال النبي ﷺ: من لبس ثوب شهرة في الدنيا ألبسه الله ثوب مذلة يوم القيامة ثم ألهب فيه نارًا^(٤) وقال أيضًا: إن الله لا ينظر يوم القيامة إلى امرئ يجزر إزاره خيلاء^(٥).

ولا يقف الإنسان عند هذا الحد بل هذه الكيفية النفسية له يسبب له اقتراف الذنوب الكبيرة مدفوعًا بغروره وتجبره. وتفضي به إلى جحود الحق مع معرفته كما يفضي به إلى الاستعلاء على الآخرين حسبًا ونسبًا ولونًا وطبقةً وإلى الحط من مكانة الآخرين همزًا ولمزًا والاستهزاء بهم وشتمهم والتنمر عليهم ومناداتهم بألقابهم التي يكرهونها، فقد حرم الله كل هذه تحريمًا جازمًا.

الإعراض عن الحق

وقد نبه الله تعالى المعرضين عن الحق والمستكبرين الجاحدين له أن

(١) سورة لقمان، الآيتان: ١٨ و ١٩.

(٢) البخاري رقم ٥٦٣٣ - ٥٦٣٥، ٥٦٣٧ ومسلم رقم ٥٣٨٧ - ٥٣٨٨.

(٣) البخاري ٥٨٩٢ ومسلم ٦٠٢.

(٤) رواه ابن ماجه رقم الحديث ٣٦٠٧.

(٥) رواه البخاري رقم ٥٧٨٣ ومسلم رقم الحديث ٥٤٥٥.

لا يصغروا جريمتهم فجزاؤهم جهنم خالدين فيها وسُدت عليهم أبواب الجنة فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ * لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾⁽¹⁾.

التفاخر بالأنساب

ونبه أيضًا المتفاخرين بالأنساب أن كلكم لآدم (وحواء) وآدم من تراب. لا فضل لأبيض على أسود ولا لأسود على أبيض ولا لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي. وأساس العز والشرف عند الله تعالى هو على التقوى فقط، لا على الانتماء إلى أسرة وقبيلة أو لون أو عرق. فإنما يعتز عنده من كان متمسكًا بالتقوى ومتقيًا بحدود الله ولو نشأ في عرق حقير وأسرّة مجهولة. ومن سلك مسلك الاستكبار والتمرد على الله ذل بالتأكيد ولو كان قريشياً هاشمياً. وتقسيم الأسرة هذا للتعارف فقط. فكما قد ميز الله بين الناس وجوهاً ولوناً وقامةً ليتعارفوا فيما بينهم فقد فرق بين العائلات والأسر للغرض نفسه، ولا أهمية لكل ذلك أكثر من ذلك قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾⁽²⁾.

التمسخر

ولقن المستهزئين بالآخرين أن أكرمكم عند الله أتقاكم وأرزلكم عنده من لا إيمان له ولا عمل والوزن الحق سوف يخبر به ميزان العدل لله تعالى. لا يقال إن الأشراف والأكارم هنا ما سوف يكون مقامهم عند الله يوم القيامة. ومن يُعتقد أذلاء هنا سوف يكونون أعلى مقامًا وأرفع درجة في ملكوت الله. ولذا لينتبه كل

(1) سورة الأعراف، الآيتان: ٤٠ و ٤١.

(2) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

مسلم أنه له علاقة الإيمان بإخوانه المسلمين تحت حكم «إنما المؤمنون إخوة» فلا يليق به أن يحتقرهم ويسخر بهم ويهدفهم مستمرًا وتعريضًا وهمزًا ولمزًا فقد قال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا فَسَاءَ مِّنْ فِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُمْ﴾^(١).

الطعن والتشنيع

ونبه من يطعن في إخوانه ويشنع بهم أن اجتنبوا منه. والتعبير «لا تلمزوا أنفسكم» الذي جاء في سورة الحجرات ينبئ عن أنه إذا طعن مسلم أخاه فكأنه يطعن نفسه هو. ثم في استخدام «اللمز» إشارة إلى أنه شامل لكافة المفاهيم من التعيب والسخرية والهمز واللمز وتوجيه التهمة واستهداف الآخر علانية أو بالإشارة والكناية بالاعتراضات. فكل ذلك ينبعث من عواطف أكبار النفس وإذلال وتحقير الآخرين. والتنازع بالألقاب أيضًا جريمة من هذا النوع. وهو كان عامًّا في جاهلية العرب فإنهم كانوا يضعونه موضع كمال الفن. وكان أشعر القبيلة وأخطبهم يُعد من يبرز في الإشادة بمفاخر قبيلة وتوجيه الهجو والتحقير للقبائل المخاصمة. فمنع الله التنازع وقال إن كل هذه العادات من التمسخر والطعن والتشنيع والتنازع بالألقاب من أعمال الفسق و«بئس لإسم الفسوق بعد الإيمان» فلا يجوز لمسلم أن يأتي بأي شيء من هذه الرذائل. وقال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٢).

الغيبة والنميمة

وقد حذر الله تعالى من يرتكب النميمة عملية شنيعة جد شنيعة. ومثلها كمثل رجل يأكل لحم أخيه ميتًا. أكل اللحم الميت مما يقبح ويتنفر منه الطبع

(١) سورة الحجرات، الآية: ١١.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١١.

السليم ثم إن كان من لحم أخيه الميت فكيف يأكله شخص؟ وفي تصويره ميتاً قد أبرز جانبه الضعيف أنه لا يستطيع الذود عن نفسه. فقد سأل القرآن مخاطبيه أنه إذا لم ترغبوا في أكل لحم أخيكم فكيف تمشون بالنميمة وهي كريهة أيما كريهة ونافرة أيما نافرة؟

ويوضح النميمة الأستاذ الإمام:

«والنميمة تعني أن يسيء إلى أحد وتنسب إليه عيباً في غيابه. ويتضمن غيابه أن مرتكب الغيبة لا يريد أن يعلمه من استهدفه بغيبته وبناءً على ذلك فإنه يأتي بفعل الغيبة في غيابه وأمام الذين يساهمون في سره وخياله وغرضه، أو على أقل حد ليس له خطر منهم أن يفشوا سره لمن يغتابه هو»⁽¹⁾.

وإذا قمت بتحليل ودراسة هذا الفعل رأيت في خلفيته استكباراً يبعث صاحبه إلى تحقير وإذلال الآخرين ولذا حرمه الله تعالى وقال ليتق الله كل أحد في هذا الأمر: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾⁽²⁾.

فهذه هي وصايا العشر للقرآن مثل أحكام العشرة والأخلاق هي نتيجة طبيعية لها وفروع منها. فما سماه الله تعالى من الكبائر وأعمال الفجور التي عبره بـ ﴿كَبِيرَ الْأَثَمِ وَالْفَوَاحِشِ﴾⁽³⁾.

تتولد من مخالفة وعصيان هذه الوصايا العشر. والقرآن واضح جداً في هذا الأمر أن الناس سيتعرضون لعقوبة هذا الانتهاك، ولذلك يجب على كل مسلم أن يظل حذراً في هذا الأمر. وينبغي أن تظل ثلاثة أمور تالية في خاطره واعتباره:

أولاً: لا يحاسب الله الإنسان على المعصية الواقعة من غير قصد وتعمد.

(1) تدبر القرآن ٧ / ٥١٠.

(2) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

(3) سورة الشورى، الآية: ٣٧ وسورة النجم، الآية: ٣٢.

والأصل الشرعي في ذلك أنه إذا جاء المرء بمعصية ثم إنه صدرت منه عن غفلة أو سهو دون تعمد فإن الله سيعفيه من العقاب. فقال مبيناً تشريعاً عن الأدعياء: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(١).

وثانياً: أن الإنسان إذا جنبه عن عصيان تلك الأحكام فإن الله سيغفر له ذنوبه الصغيرة وإن لا، فإن ذنوبه الكبيرة والصغيرة ستسجل معاً في كتاب أعماله وسوف يحاسب عليهما جميعاً: قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا﴾^(٢).

وثالثاً: إذا خلف الإنسان مغلوباً بعواطفه أيّاً من هذه الأحكام والوصايا فعليه أن يتوب إلى الله أسرع ما يمكن له. فإن الله قد ذكر أنه سيغفر لمن أذنب في غمرة عواطفه إذا تاب بعد الذنب من فوره. ولا يغفر الذنوب لمن يرتكب الذنوب طوال حياته وحين يشعر بدنو أجله تاب. كما أنه لمن يغفر أيضاً لمنكري الحق وجاحديه إذا ظلوا على إنكارهم حتى اللحظة الأخيرة من حياتهم. فقال:

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتْتُ الْأَنْثَىٰ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(٣).

وقد حسم القرآن في الحالتين قبول التوبة وعدم قبولها وتبقى حالة وحيدة غير محسومة. وهي أنه إن لم يكن المرء قادراً على التوبة مباشرة بعد الذنب لكنه لم يؤخر توبة إلى أن حان الموت. فالقرآن سكت عن هذه الحالة، وسكوته في

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣١.

(٣) سورة النساء، الآيتان: ١٧ و١٨.

تعبير الأستاذ الإمام يولد الخوف والرجاء معاً وكأن القرآن يريد بقاء هذه المعاملة بين الخوف والأمل. فإنه يقول: أحياناً يخطر بالبال بأن أمثال هؤلاء من الأمة الرجاء أن ينالوا النجاة من شفاعة النبي ﷺ. لأنه لا وجه هناك لكون الشفاعة محظورة في حقهم.

الجمال والكمال

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّالِحِينَ وَالصَّالِحَاتِ وَالْحَفِظِينَ وَالْحَفِظَاتِ وَالذَّكِرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾⁽¹⁾.

إذا تم جمال التواجد الخلقي للإنسان وبلغ إلى درجة الكمال بالنسبة للخلق والخالق كليهما، تتولد من ذلك أوصاف أو يجب أن تتولد، وفقاً للقرآن هي التي مرت فيما مضى من الآيات ولذا قال: أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيماً.

ولا شك أن هناك مذاهب صوفية تعرض على الإنسان أن يسعى سعيًا جادًا في كونه مظهرًا أتم وأكمل للصفات الإلهية، فإذا كان الله عليماً خبيراً فينبغي للإنسان أن يعيش عالمًا للغيب والشهادة. وإذا كان الله متجرداً فعليه أن يوجد في نفسه التجرد. وإذا كان الله غنيًا صمدًا يجب عليه أن يستغني عن الاحتياجات البشرية والمقتضيات الإنسانية، وإذا كان الله متصرفاً في الآفاق والأنفس فعلى الإنسان أيضًا أن يمشي على الماء ويلعب بالنار ويمسح المرضى ويشفعهم ويحيي الأموات ويتصرف في الأرواح والقلوب كيفما يشاء. ولكن ليس هذا وجهة نظر القرآن من أساسها. فإن الدرجة العليا للكمال عنده هو التخلق بأخلاق الله وأن يعيش متمسماً بصفات جاءت مجتمعة في الآيات المذكورة هنا. فهذه أشياء عشرة لم يزد عليها القرآن شيئاً. فهذا هو الجمال والكمال للدين عند

(1) سورة الأحزاب، الآية: ٣٥.

القرآن. إنه يدعو أتباعه للبلوغ والوصول إليهما. وتليها درجة النبوة التي لا تؤخذ ولا تكتسب وإنما هي موهبة من الله عز وجل، يهبها لمن يشاء. ونشرح هذه الأوصاف فيما يأتي:

الإسلام

الشيء الأول هو الإسلام. وإذا ذكر مع الإيمان بالأسلوب الذي ذكر هنا في الآيات المذكورة يراد به ظاهر الدين أي الكيفية الإسلامية لله تعالى، التي تتمثل من قول الإنسان وفعله وأعضائه وجوارحه. فإذا كان لسان المرء ينطق ويغلق وفق أوامر الله تعالى ورسوله، وإذا كان عينه ينظر أو يغض الطرف بإيمائهما وإذا كان إذن المرء يسمع أو لا يسمع حسب هديهما، وإذا كان يده يرفع ويسقط حسب إرشادهما وإذا كان قدم المرء يمشي ويقف عند حد فرمانهما فهذا هو الإسلام، وتتمثل ظاهرة الإسلام بما يجري على لسان الأنبياء ﷺ ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁽¹⁾. و﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾⁽²⁾. ويخبرنا القرآن أن الأنبياء ﷺ هم الذين يمثلون الإسلام خير تمثيل ولذا جاء حكم الاقتداء بهم واتباعهم للبلوغ إلى مرتبة التسليم والرضا فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾⁽³⁾.

وقد أوضح الإمام أمين إحسان الإصلاح الواعي والعاطفة التي ينبغي اتباعها في ذلك

«الرسول مظهر كامل لمعرفة الله، وكل عمل من أعماله هو علامة من علامات معرفة الله، لذلك أولئك الذين يحبون الله يحبون كل عمل من أعمال الرسول. إنهم يرون في الرسول المعرفة التي تأتي من معرفة الله، ويرون الأعمال التي تنشأ عن معرفة الله، ويرون العادات التي يحبها الله، ويرون الصفات العزيزة

(1) سورة البقرة، الآية: ١٣١.

(2) سورة آل عمران، الآية: ٢٠.

(3) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

على الله تعالى، ويرون الجمال الذي يقوم عليه جمال الله سبحانه. لذلك، يبحثون ويتبعون كل نقش وكل رسم للرسول ولأنهم يفعلون كل هذا في حب الله، فإنهم يحصلون على مكافأة من الله أن يصبحوا أحباء الله تعالى⁽¹⁾.

الإيمان

والشيء الثاني هو الإيمان. إنه باطن جوهري في الدين وهنا يشير إلى الاعتقاد الذي يمكن العثور عليه من خلال معرفته الحقيقية لله ووعدده. لذلك، من يؤمن بالله بطريقة تسلم قلبه وعقله له للمرحلة الأخيرة من القبول، فهو مؤمن في مصطلح القرآن. وهذا الإيمان الذي يعطي النقاء للقلب والنور للعقل والطهارة للنوايا والإرادات. هذا الإيمان هو الذي يؤثر على المعرفة والممارسة معاً ويهيمن على وجود الإنسان كله. ثم ذكر الله وتلاوة آياته وظهور هذه الآيات في الآفاق والأنفس يضيف إليه. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾⁽²⁾.

وقال عنه النبي ﷺ ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً الله وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً⁽³⁾ ويشبهها القرآن بشجرة ذات جذور نزلت إلى الأرض وفروع منتشرة عبر مساحات السماء، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾⁽⁴⁾.

وقد فسر الآية الأستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاح بما يلي:

«أريد بالكلمة التي جاءت في الآيات كلمة الإيمان. وقد مثل الله لها بشجرة مثمرة طيبة، أصولها متعمقة في الأرض وفروعها ممتدة امتداداً واسعاً

(1) تزكية النفس ١١٧.

(2) سورة الأنفال، الآية: ٢.

(3) رواه مسلم رقم: ١٥١.

(4) سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٤ و٢٥.

في الفضاء، وتظل مثمرة في كل موسم وفصل بفضل الله ونعمته. وأريد بتعمق الأصول رسوخها واستحكامها في الفطرة البشرية، فإنها ليست كشجرة ثابتة على سباطة وقمامة لا أصل لها تجتثها عاصفة من الهواء كما قال عن كلمة الكفر أنها ﴿أَجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾^(١). بل إنها كلمة ثابتة ثبات الشجرة الوارفة العميقة التي يمر عليها طوفان ولا يززعها زعزعة. ثم أشار إلى أنها ليست كشجرة مستأصلة لا تظل ولا تثمر، بل إنها وفيرة مثمرة تجد القوافل الراحة في ظلالها الوارفة وتتغذى بثمارها وتشبع في كل موسم وفصل. والظاهر أنه إشارة إلى الفيوض والبركات التي تفيض بها وينشرها حياة المؤمن وإيمانه على حياة الذين تشرفوا بقربه وعلى نفسه هو - وهذه الفيوض والبركات تكون بالتأكيد على القسمين العلمي والعملية. وهي تشهد له بإيمانه وترفع به عند الله سبحانه فوزاً ورفعة^(٢).

وهذا الإيمان الذي يطلب القرآن من صاحبه أن لا يكون شيء من الدنيا أحب إليه من الله ورسوله:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ أُقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِمَّنْ أَلَّفَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(٣).

وقد أوضح ذلك رسول الله ﷺ بأساليب متنوعة فقال:

لا يكون أحدكم مؤمناً حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين^(٤). وقال ذاق طعم الإيمان من أحب الله ورسوله^(٥).

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٦.

(٢) تزكية النفس: ٣٢٥.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٢٤.

(٤) رواه البخاري رقم الحديث ١٥ ومسلم رقم: ١٦٩.

(٥) رواه البخاري رقم ١٦ - ٢١ ومسلم رقم ١٦٥.

ولكن ما هو هذا الحب؟ يجب علينا أن نفهمه جيداً الآن الناس إما مفرطون فيه وإما متورطون من جراء سوء فهم لهذا الحب. فيقول الأستاذ الإمام: «ولم يقصد به ذلك الحب الذي يكون للمرء طبيعياً لامرأته وولده وأقربائه الآخرين. بل قصد به الحب الذي يبعث عليه حب للمبدأ والتفاني فيه، ولأجل ذلك فإنه يقدم مذهبه وأصوله على كل شيء آخر في حياته كلها ويضحى في سبيله كل شيء وكل مبدأ وكل مذهب وكل أمنية وكل أمر آخر غيره ولا يعكس، إنه يخفض كل الأشياء لرفع مبدئه ويناضل الآخرين في سبيله إن عارضوه فيه، حتى أنه يضحى بزوجه وأولاده وأقاربه وأسرته وقومه في سبيل مذهبه إذا صادمه أحد من ذلك في أية مرحلة من مراحل الحياة فيذهب مع فكرته وأصوله تاركاً لهم بلا تردد»⁽¹⁾.

وقد تمثلت الحقيقة الإيمانية هذه في دعاء مأثور عن النبي ﷺ حين قال: «اللهم أسلمت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبةً ورهبةً إليك لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك. اللهم. آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنيك الذي أرسلت»⁽²⁾.

القنوت

الثالث القنوت: وهذه هي الكيفية القلبية التي تقيم الإنسان وتديمه على إطاعة ربه تعالى مخلصاً له الدين. والقنوت ظاهرة بارزة أكثر من كل شيء لعلاقة العبد بمعبوده في كامن وجود المؤمن بالله. فالقانتون هم الذين استقاموا على عبوديتهم، ولا يعصون الرب تعالى في أية حالة من حالات الحرج والمرض واللذة والألم والجشآن والهيجان وغيرها. فإن قوة الشهوات وهجوم العواطف وحشد الرغبات لا ينبغي أن تجعلهم فظين غليظي القلب أمام الله سبحانه.

(1) تركية النفس: ١١٩.

(2) رواه البخاري رقم الحديث: ٢٤٤.

وقلوبهم تكون عرشاً إلهياً يعتقدون شرعه أمراً مأموراً من حضرته تعالى. ولا يمكن لأي شخص يقف في حضرة الإله أن يتخيل القصور والعصيان عنه. فهذه إذا تدبرت علمت، أنها تلك الكيفية التي يعبر عنها هذا العالم كله وجميع مخلوقاته هذا الكون كله بلسان حاله في كل لحظة. قال تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفِيوْا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُسْتَكْبَرُونَ * يُخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(١).

الصدق

الرابع الصدق - وهو يصدق على استقامة ومطابقة الفعل والقول والإرادة. يراد أن لا يخرج من لسان المرء حرف مخالف للواقع ولا يوجد تضاد في قوله وفعله، وإنه يأتي بما يقوله فهذا هو صدق المقال والفعال ولا بد أن يشمل صدق النية وإخلاص الإرادة. وقد عبر به القرآن بالإخلاص وعبر بضده بالنفاق. ثم أوضح في أكثر من مكان أن العمل المقبول عند الله هو الذي يصنعه القلب فتحصل إذن درجة الكمال للصدق من تلك المطابقة للقول والفعل والنية. وهو ما عبر به القرآن: ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾^(٢) وقال تعالى في موضع آخر: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾^(٣).

الخامس الصبر. وهو يأتي لمنع النفس عن القلق والاضطراب. وقد استعمل في آية الحجرات «ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم» في مفهومه هذا البدائي. ثم غلبه معاني الاستقامة والثبات على الموقف والاستقلال على رغم المشكلات والموانع. فالصبر الذي جاء في آية الأحزاب التي نبحت عنها هو

(١) سورة النحل، الآيات: ٤٨ - ٥٠.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٥.

ليس شيئاً من نوع العجز والتذلل الذي يجبر عليه المرء في حالات الحرج والذلة والاستكانة، بل هو مما ينبع منه العزيمة والهمة والبسالة. وهو جمال للسيرة الإنسانية العليا وروعته. فبه يحصل للإنسان همة أن يستقبل ويرضى على ما يجري له من تجارب الحياة المريرة، ولا يشتكي ولا يستغيث عليها. فاعتباراً بهذا المفهوم الصابر هو الشخص الذي يثابر على موقفه مقابل كل خوف وكل طمع، وأن يطمئن ويرتضى بقضاء الرب تعالى. وقد بين القرآن ثلاثة مواقع للصبر وهي: الفقر والمرض والحرب، وإذا تدبرت علمت أن هذه الثلاث هي المنابع لكافة الشدائد وجميع الآفات والمصائب: فقال تعالى:

﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾^(١).

وقد أبرز القرآن الصبر في هذه الآية على طريقة منصوب على المدح النحوية، وماله من أهمية ومكانة خاصة في سيرة رجل. وقد أوضح القرآن الصبر من مواقع استعمال كلمة الصبر وموارد حكمه أيضاً.

قام النبي ﷺ بدعوته وأمر أن يستمر في أعمال الدعوة صارفاً نظره عن كل ما يجابهه الناس من معاداة وعناد واضطهاد حتى يجيء أمر الله. وعليه أن ينتظر أمر الله على كل حال فليس له أن يقدم على شيء قبله. وقد استخدم الصبر لتأدية هذا المفهوم فقال:

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾^(٢).

إنه أصاب أيوب عليه السلام ما أصابه من مصائب وشدائد قاسية لكنه استسلم بما قضى به الرب تعالى ورضي فمدحه الله تعالى واستخدم لذلك تعبير «الصبر» فقال:

إنا وجدناه صابراً، نعم العبد إنه أواب^(٣).

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٠٩.

(٣) ص: ٤٤.

وحكى القرآن من وصايا لقمان لابنه أن يسير في طريق الدعوة صابراً
فقال:

﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزَمِ
الْأُمُورِ﴾^(١).

ومن أهم الهدايات التي نصحتها القرآن لدعاة الحق أن يعرضوا عن
الجاهلين وإذا ظلموهم وأذوهم صبروا عليها ورفعوا عداوتهم بالتي هي
أحسن. وذلك شيء لا يستهان بقيمته، ويضطر المرء لذلك أن ينشئ في نفسه
صفات العفو والتحمل والأناة. والصبر جامع لهذا كله فاستخدمه القرآن أداءً
لهذا المعنى، فقال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمُ
بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * وَإِنْ
عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۖ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾^(٢).
وقال:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ *
وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ
وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُوحَضٍ عَظِيمٍ﴾^(٣).

وفي ميدان الحرب إذا جابه الموت وواجه الهلاك، تحجرت الأعين
وبلغت القلوب الحناجر ففي مثل هذه الحالة العصبية الرهيبة الذي يناضل
الأعداء بالجرأة والبسالة والعزيمة ولا يزعزعهم شيء فقد جاء الصبر وصفاً
لهم فقال: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا
أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٤).

(١) سورة لقمان، الآية: ١٧.

(٢) سورة النحل، الآيتان: ١٢٥ و ١٢٦.

(٣) سورة فصلت، الآيات: ٣٣ - ٣٥.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٦٦.

والمسؤوليات التي فرضها الله تعالى على الإنسان وهو مسؤول عن أدائها طيلة حياته بكل استقلال وعزيمة وفي تفسير الأستاذ الإمام كما يحرق الفلاح حقله ويزرعه ويسقيه ويواصل رقابته ورعايته فعلى العبد المؤمن كذلك أن يحافظ على مزرعه المبارك، ويجهد فيه جهداً طيباً وقد استخدم القرآن لذلك تعبير الصبر فقال:

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ (1).

ويطراً على كل شخص حالات الحزن والمسرة والراحة والألم. فإذا قام المرء بضبط نفسه فيها ولم يعتز على مواقع الراحة والسراء كما لا يملكه اليأس والحرمان في حالات العسر والحزن فلتعبر عن هذه الكيفية أيضاً قد جاء القرآن بلفظة «الصبر» وقال:

﴿وَلَمَّا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ * وَلَمَّا أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضُرٍّ مَسَّتْهُ لَبِئْسَ الَّذِي يَقُولُ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (2).

واتضح من ذلك أن الصبر ليس هو اسماً للعفو الذي ينشأ عن الاضطرار ولا للصموت الذي يجيء من البؤس واليأس. بل هو اسم لأن يرتضي به المؤمن على قضاء الرب تعالى في كل حال. لا يتألم حين تتأخر النتيجة من أي عمل ولا يقلقه اضطراب. ولا ينشأ عند عاطفة الانتقام ممن أساءوا إليه. وإن لزمه الدفاع عن الحق والذود عن الإيمان يثبت أمام الموت، ويضبط نفسه في كل حالات اللذة والألم. وما يراه واجباً يأتي به طيلة حياته.

وهذا الجانب من سيرة الإنسان يقيم بين العبد وربّه تلك العلاقة التي عبر بها بكلمة التوكل على الله. والذي هو اسم للاعتماد عليه في كل حال. فكلية «إنا لله وإنا إليه راجعون» إذن هي كلمة التفويض والالتجاء إليه. فقد بشر القرآن

(1) سورة مريم، الآية: ٦٥.

(2) سورة هود، الآيات: ٩ - ١١.

الذي ظلوا قائمين على هذه الكلمة وودعوا الدنيا عليها، بأن تبذل عليهم الطاف وعنايات خاصة من الرب تعالى. فقد قال فيهم: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾⁽¹⁾.

الخشوع

الشيء السادس هو الخشوع. فما يتولد في نفس الإنسان من تواضع ومسكنة وعجز بعثه فيه التصور الصحيح لجبروت الرب تعالى وعظمته وجلاله. يعبر به القرآن بالخشوع. وهي كيفية قلبية تخضعه أمام الله كما أنها تولد فيه عواطف الرأفة والرحمة للأناس الآخرين.

وخير إظهار لهذه الكيفية يتم بصورته الأولى في الصلاة وخاصة في صلوات الليل؟ إذا لجأ المؤمن إلى ربه تعالى منقطعاً إليه، ويناגיעه وغمر حينه عزلته ذكراً وشكراً. وهذا الخشوع قد عبر به القرآن في بعض المقامات الأخرى بأساليب واصفة ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾⁽²⁾ وبـ ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾⁽³⁾. وفي آيات الأحزاب المذكورة بطريق وضع الخشوع أولاً في الترتيب متصلاً بذكر الصدقة والصوم قد أشار الله سبحانه إلى ماله من أهمية، وكأنه عبر الصلاة بحقيقتها. وتبرز حقيقة الخشوع في صلاة التهجد في أتم صورتها. وإشارات القرآن وأقوال الرسول ﷺ كل ذلك تدل على أن هذا الوقت هو وقت الحضور ولم يزل ولا يزال وقتاً محبوباً أثيراً عند من يحبون الله ورسوله. يقول الأستاذ الإمام:

«لا آمن ولا أسكن من وقت السحر في الساعات الأربع والعشرين ليوم وليلة، فالسكينة تغمر من الأرض إلى السماء والكل ينامون ولعل الشيطان أيضاً

(1) سورة البقرة، الآيات: ١٥٥ — ١٥٧.

(2) سورة آل عمران، الآية: ١٧.

(3) سورة الفرقان، الآية: ٦٤.

ينام. وإنما يستيقظ فقط الرب تعالى الذي لا ينام أبداً أو يستيقظ من له حظ يقظ، وهب من النوم وقام في ظلال النجوم وأنت تحس أن نوافذ السماء قد فتحت وتأتي نداءات من السماء الدنيا للتوبة والرحمة. وكيفيات تلك الساعة يعرفها الصالح والطالح والزاهد المرتاض ومدمن الخمر كلاهما. النائمون يرونه خير ساعة للنوم والمستيقظون يرونه أفضل وقت للهيب. والكل مصيب في رأيه. فإن الوقت الذي هو أحب وأفضل للنوم هو أيضاً الوقت الذي أحب فيه الاستيقاظ وأفضل. فإن القربان يقبل لما هو أنفس وأحب. ولذا فإن الله قد خص هذا الوقت لصلاة المقربين. الذين تترك جنوبهم راحة الفراش ولذة النوم في ذلك الوقت والله تعالى بذاته ينزل إلى السماء الدنيا للاستماع إلى دعائهم ومناجاتهم ويقول: هل هناك من تائب أتوب عليه؟ ومن طالب رحمتي أن أحتضنه في وسعة رحمتي؟⁽¹⁾.

وهذه الكيفية تؤثر على شخصية المؤمن بأسرها في الصورة الثانية أيضاً، فنجعله شفقة كلها وعطفاً كله لأهله وعياله ورحمة كلها لأصدقائه وجيرانه وأحبابه ومصدراً للهدى والرشد للمجتمع كله. وبسبب هؤلاء الرحماء بينهم والحلماء يوجد مدينة صالحة تكون كجنة الله على الأرض التي يطمح إليه كل إنسان سليم الطبيعة ويتمنى له. وقد ذكر القرآن هذه النفوس القدسية:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾⁽²⁾.

الصدقة

الشيء السابع هو الصدقة. ومن درجات الإنفاق في سبيل الله أن يؤدي

(1) تركية النفس: ٢٤٣.

(2) سورة الفرقان، الآيات: ٦٣ — ٦٦ و٧٢.

الإنسان الزكوة الواجبة من ماله. ودرجة أخرى له أن يعتقد الإنسان ما زاد على احتياجاته الضرورية وضروراته التجارية حقًا لاجتماعه، فإذا جاءت أمامه أية مطالبة بشرية يفي بها بكل رحابة صدر. ودرجة أخرى ثالثة هو الإيثار أن يؤثر الإنسان الآخرين على نفسه ويلبي حاجاتهم برغم أهوائه ورغباته وضروراته. وهذا الذي قد بينه القرآن بتعبير ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾⁽¹⁾ والمتصدق وإن كان شاملاً لهذه الدرجات الثلاث للإنفاق إلا أنه إذا ذكر المتصدق في مضممار بيان الأوصاف فالمتصدق حينه يطلق على من يأتي بدرجة الكمال لها. أي المرء السخي الجواد الذي لا يدع فرصة من الإنفاق في سبيل الله. وهذا أيضًا ظهور للخشوع بالنسبة للجهد الذي ذكر من قبل. ولذا قد ورد ذكر الصلاة والصدقة معًا في القرآن الكريم.

الصوم

الشيء الثامن هو الصوم. وهو عبادة خاصة تضبط النفس وتربي الصبر. وتستهدف وفق القرآن إلى ابتغاء التقوى. فيراد بالصائمين أناس حريصون إلى التقوى حرصًا كاملاً يفضي بهم إلى أن يظلوا صائمين في أكثر الأيام. فعلم منه تلقائيًا أنهم يتقون الفواحش ويجتنبون المنكرات ويتظاهرون بأخلاق عالية في حياتهم.

حفظ الفروج

التاسع هو حفظ الفروج. أراد به الحافظين للفروج، وحفظ الفروج هو ثمرة ضبط النفس والتقوى. وقد جاء هذا التعبير للذين يجتنبون الفواحش والعري والخلاعة في مواضع أخرى للقرآن. ويعني ذلك أنهم يحفظون فروجهم إلى آخر درجات العفة والقداسة. فإنهم لا يعرفون عوراتهم لا في خلواتهم ولا في اجتماعاتهم أمام أحد إلا فيما إجازة الله تعالى ولا يلبسون لباسًا يبرز

(1) سورة الحشر، الآية: ٩.

أعضاءهم التي تجذب إليها جذبًا جنسيًا في أية درجة ما. وهي درجة لاجتناب الفواحش تولد حضارة يسودها الحياة ويضرب المرء والمرأة فيها أن يستروا عوراتهم إلى أقصى حد يمكن لهم بدلًا من تعرية البدن وكشف الستر إلى أكثر حد.

الذكر الكثير

العاشر هو الذكر الكثير. أي أن يذكر الله ذكرًا كثيرًا. لأنه إذا خالط حب الله قلب المؤمن خلطًا تامًا لم يكفه التعبد لله في أوقات مقررة بل يربط لسانه بذكره سبحانه وتعالى كل وقت، فإذا رأى آية من آيات الله وآلائه قال سبحانه الله وإذا بدأ عملًا قال: بسم الله وإذا وجد نعمة مبذولة قال «الحمد لله» وشكر له. ولا يعرب عن إرادته وعزمه إلا بقوله: إن شاء الله وما شاء الله. فيستنصر الله في أمر داهمه ويطلب رحمة الله ويرجوها في كل مشكلة من مشاكله. وإذا نام نام ذاكرًا له ويستيقظ ذاكرًا اسمه. والخلاصة أنه يذكر الله في كل أحواله، ولا يقف الأمر على هذا الحد، بل إنه يصلي فيذكر الله ويصوم فيذكر الله ويتلو القرآن فيذكر الله وينفق في سبيل الله فيذكر الله ويجتنب من المعاصي فيذكر الله، وإذا ارتكب ذنبًا ذكر الله ورجع إليه وتاب.

والتفكير في آلاء الله ونعمه هو أيضًا صورة للذكر، إذا نظرت إلى هذه الدنيا رأيت فيها آلافًا من المخلوقات. وهناك تنوع كثير وتعدد عجيب لها. ثم هناك العقل الإنساني والآؤها وهناك البحار وتلاطم أمواجها، والأنهار وسيلانها، واضطرار الأعشاب والمياه الممطرة من السماء. وتصرف الليل والنهار وتقلبات الهواء والغيوم، وخلق السماء والأرض وتركيبها المعجز ونفعهما وفيضانهما ومقصدتيهما وحكمتهما. ثم هناك آيات متكررة في كل آن وشأن في الأنفس والآفاق. إذا تدبر المؤمن فيها تملأ قلبه وصدره من ذكر الله وقال: «ربنا ما خلقت هذا باطلاً» سبحانه من أن تعبت عبثًا واعلم علم اليقين أن هذا العالم سيفنى كله يومًا، ويقوم يوم الحساب يتعرض فيه للعذاب والخزي الذين يعشون في هذه

الدنيا فسادًا ويعتقدونها عبثًا ولعبًا فأعوذ بك مما سوف يلقون من مصير خائب.
قال تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي
الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(١).

وكذلك هناك كثيرة من الأذكار والأدعية التي نقلت عن النبي ﷺ. وإعادة
هذه الأذكار والأوراد هو خير صورة لذكر الله بعد الصلوة. ومن حسن حظنا نحن
المسلمين أن تلك للأوراد والأذكار تتواجد عندنا في ألفاظه ﷺ على أقل حد.
وهي معجزة في روعة بيانها وجمال معناها ولطافة أسلوبها.

ولعله لا يتوفر لنا شيء لتقديم في حضرة الله سبحانه أحسن وأفضل منها.
فإن كان عند أحد مذاق سليم للذكر والفكر فعليه أن يحافظ على هذه الدعوات.
ونقدم فيما يلي أذكارًا منتخبة عديدة ودعوات نبوية مأثورة:

١ - سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر^(٢).

وقال النبي ﷺ من قال هذا مئة مرة غفر له ذنوبه وإن كانت مثل غشاء
السيل. ويعني بذلك الذنوب التي لا تمت بصلة إلى حقوق العباد والتي لا تحتاج
إلى تلافيتها وكفارتها وتوبتها.

٣ - سبحان الله والحمد لله العظيم^(٣).

وقال ﷺ في هاتان الكلمتين: كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في
الميزان.

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٠ و١٩١.

(٢) رواه مسلم رقم ٦٨٤٧.

(٣) رواه البخاري رقم الحديث ٦٦٨٢ ورواه مسلم رقم الحديث ٦٨٤٦.

٤ - لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير^(١).

وقال: من قال هذا مئة مرة أجره مثل من أعتق عشرة رقاب وكتبت له مئة حسنات وغفرت له مئة من الذنوب ويكون في مأمن من الشيطان إلى المساء. (والمراد بها أيضًا ذنوب وآثام ذكرناها في المذكور أعلاه)

٥ - لا حول ولا قوة إلا بالله^(٢).

قال رسول الله ﷺ عن هذا الورد إن هذه الكلمة خزينة من خزائن الجنة.

٦ - اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت^(٣).

وقال فيه: إذا دعا أحدكم هذا الدعاء نهارًا مستيقنًا له ومات في نهاره ذلك ذلك قبل المساء دخل الجنة وإذا دعا ليلاً ومات قبل الصبح فله الجنة.

٧ - الحمد لله الذي أحيانًا بعد ما أماننا وإليه النشور^(٤).

٨ - أمسينا وأمسى الملك لله والحمد لله، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير - اللهم إني أسألك من خير هذه الليلة وخير ما فيها وأعوذ لك من شرها وشر ما فيها - اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم وسوء الكبر وفتنة الدنيا وعذاب القبر^(٥).

وقد كان رسول الله ﷺ يدعو هذا الدعاء وقت الصباح بتغيير مناسب للألفاظ.

(١) رواه البخاري رقم الحديث: ٣٢٩٣ ورواه مسلم ٦٨٤٢.

(٢) رواه البخاري رقم الحديث: ٤٢٠٢ ورواه مسلم ٦٨٦٢.

(٣) رواه البخاري رقم: ٦٣٠٦.

(٤) رواه البخاري رقم: ٦٣١٢ ورواه مسلم رقم الحديث: ٦٨٨٤.

(٥) رواه مسلم رقم: ٦٩٠٩.

٩ - اللهم إني أسلمت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبةً ورهبةً إليك. لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت^(١).

وقال رسول الله ﷺ فيه من دعا هذا الدعاء عندما ينام ليلاً ثم مات في ليلته تلك مات على الإسلام.

١٠ - اللهم رب السموات والأرض ورب كل شيء. فالق الحب والنوى. منزل التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عني الدين وأغنني من الفقر^(٢).

١١ - سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون. اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، اللهم هون علينا سفرنا هذا واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكأبة المنظر وسوء المنقلب في المال والأهل^(٣).

وكان رسول الله ﷺ يبدأ سفره في عامة الأحوال بهذا الدعاء.

١٢ - اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفه عين وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت^(٤).

١٣ - اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال^(٥).

(١) رواه البخاري رقم: ٢٤٧ ومسلم رقم: ٦٨٨٢.

(٢) رواه أبو داود رقم: ٥٠٥١.

(٣) رواه مسلم في الصحيح رقم الحديث: ٣٢٧٥.

(٤) رواه أبو داود رقم: ٥٠٩٠.

(٥) رواه البخاري رقم: ٦٣٦٩.

١٤ - اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَالْهَرَمِ وَالْمَغْرَمِ وَالْمَأْثَمِ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ النَّارِ وَفِتْنَةِ الْقَبْرِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ وَشَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى وَشَرِّ فِتْنَةِ الْفَقْرِ وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْ خَطَايَايَ بِمَاءِ الثَّلَجِ وَالْبَرْدِ وَنُقِ قَلْبِي مِنَ الْخَطَايَا كَمَا يَنْقَى الثَّوْبَ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ وَبَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ^(١).

١٥ - اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا^(٢).

١٦ - اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي. اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي وَخَطِيئِي وَعَمْدِي وَكُلَّ ذَلِكَ عِنْدِي. اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي. أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(٣).

١٧ - اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى^(٤).

١٨ - اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَاهْدِنِي وَعَافِنِي وَارْزُقْنِي^(٥).

١٩ - اللَّهُمَّ، اتِّبَانِي فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ^(٦).

٢٠ - اللَّهُمَّ، بَعْلِمِكَ الْغَيْبِ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي. اللَّهُمَّ، وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الرِّضَاءِ وَالْغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقُطُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَاءَ بَعْدَ الْقَضَاءِ وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ

(١) رواه البخاري رقم: ٦٣٧٥.

(٢) رواه مسلم رقم: ٦٩٠٦.

(٣) رواه مسلم رقم: ٦٩٠١.

(٤) رواه مسلم رقم: ٦٩٠٤.

(٥) رواه مسلم رقم: ٦٨٥٠.

(٦) رواه البخاري رقم: ٤٥٢٢ ومسلم رقم: ٦٨٤٠.

وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ. اللَّهُمَّ، زَيِّنَا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ
وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ⁽¹⁾.

(1) رواه النسائي رقم ١٣٠٦.

الجزء الثاني

الكتاب

الباب الأول:

قانون العبادات

إن الإسلام يهدف إلى تطهير النفس وتزكيتها. وبلوغ هذا الهدف إلى منتهى الكمال يعتمد على إقامة علاقة العبودية بين العبد وخالقه علاقةً صحيحة. فكلما كانت هذه العلاقة أقوى كان العبد أقدر على تحقيق التزكية في أفكاره وأفعاله معاً. وعواطف الحب والخوف والصدق والوفاء والامتنان إقراراً بصنائه ونعمه غير المحدودة، هي تجليات روحانية لتلك العلاقة التي تظهر في ثلاث صور وأشكال: العبادة والطاعة والحمية والمروءة وهذه الأخيرة هي شاملة لمكارم الأخلاق العليا كالنخوة والأريحية والشهامة وإغاثة الملهوف. وقد تم تقرير العبادات في دين الله لتذكير تلك العلاقة. فالصلاة والزكاة والأضحية والعمرة هي شعائر العبادة. والصوم والاعتكاف إظهار للطاعة. أما الحج فهو تعبير رمزي عن الحمية والحماية لله تعالى. وفي ما يأتي سوف نشرح أحكام وطقوس هذه العبادات كما جاء بها الشرع.

الصلاة

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾⁽¹⁾.

(1) سورة النساء، الآية: ١٠٣.

الصلاة من أهم العبادات في الإسلام. وإذا تفكرت قليلاً أدركت أن الدين في جوهره هو معرفة الخالق تعالى وإظهار الخضوع والتواضع والعبودية له ممتزجةً بالحب والخوف. وأبرز تعبير عن هذا الجوهر هو العبادة الممثلة في التسبيح والتحميد والدعاء والمناجاة والركوع والسجود له، كمظاهر عملية للعبادة. فهذه هي الصلاة وهي بوتقة تشتمل كل تلك المظاهر شمولاً وامتزاجاً بديعاً.

تحتل الصلاة مكانة استثنائية في الدين ولغرض تفهم الصلاة على الوجه الصحيح علينا أن نضع أمامنا ما يلي من الخصائص.

الأول أن للصلاة المكانة في العبادة المماثلة للأهمية التي يحتلها التوحيد في الإيمانيات. ويبين القرآن أن الصلاة هي الثمرة الأبرز من ثمار معرفة الله التي يذكر بها الوحي الإلهي دومًا، كما أنها نتيجة لعواطف الحب والامتنان من الإنسان إلى الخالق جل مجده فقد قال جل شأنه:

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾^(١).

وقد أوضح ذلك إيضاحاً مزيداً في سورة الروم حيث قال:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾^(٢).

نعم قد جاء في القرآن الكريم ذكر «وعملوا الصالحات» بعد الإيمان حيث روعي الإجمال في البيان، ولكن حيثما أراد تفصيل ذلك الإجمال بدأ بالصلاة قبل كل شيء فمثلاً قال:

(١) سورة السجدة، الآيتان: ١٥ و ١٦.

(٢) سورة الروم، الآيتان: ٣٠ و ٣١.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾^(١). ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾.

والتزكية هي المقصود الذي يهدف إليه الدين في القرآن، فقد هدى الله للتوصل إليه لإقام الصلاة قبل كل شيء فقال جل ذكره: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ * وذكرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿^(٢).

ولم يقف عند ذلك بل بدأ بالصلاة في كل مقامات ذكر فيها القرآن الأعمال التي هي لازمة وضرورية للفوز الدائم والفلاح الآخروي، فقال في سورة المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿^(٣).

وقال في سورة المعارج:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلَقَ هَلُوعًا﴾ * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُسْلِمِينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَاتِ اللَّهِ * وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَّمُونَ ﴿^(٤).

(١) سورة البقرة، الآية: ٣.

(٢) سورة الأعلى، الآيتان: ١٤ و ١٥.

(٣) سورة المؤمنين، الآيات: ١ - ٩.

(٤) سورة المعارج، الآيات: ١٩ - ٣٥.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هو أحب الأعمال إلى الله قال: الصلاة لوقتها⁽¹⁾.

وكتب سيدنا عمر بن خطاب رضي الله عنه كتاباً إلى ولاته وعماله وقال:

«إن أهم أعمالكم في الدين عندي الصلاة فمن حفظها حفظ الدين ومن أضاعها فهو لسائر أعمال الدين أضيع⁽²⁾».

والثاني أن الصلاة هي من شرائط كون الرجل مسلماً. فقد صرح القرآن صراحة تامة أنه يحق لهم فقط مطالبة حقوقهم وواجباتهم في دولة إسلامية من حيث المسلمون الذين يصلون الصلاة ويؤتون الزكاة كما جاء في سورة التوبة عندما أعلن الإجراءات ضد مشركي العرب قال:

﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾⁽³⁾.

ويُستنبط منه أن هذا السلوك يجب أن يكون مع العباد في يوم القيامة أيضاً. فقد صرح في سورة القيامة: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى * ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى * أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾⁽⁴⁾.

ويتضمن هذا البيان القرآني أن عدم أداء الصلاة عند الله تعالى هو مسلك الاستكبار في مقابلة الله تعالى. فإن القرآن قد وضع ﴿صَلَّى﴾ مقابل ﴿تَوَلَّى﴾ و﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ وقد أفاد القرآن في موضع آخر أن الجمل يدخل في ﴿سَرِّ الْخِيَاطِ﴾⁽⁵⁾ ولكن لا يدخل المستكبرون الجنة.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة⁽⁶⁾.

(1) رواه البخاري: رقم: ٥٢٧.

(2) الموطأ رقم الحديث: ٦.

(3) سورة التوبة، الآية: ١١.

(4) سورة القيامة، الآيات: ٣١ - ٣٥.

(5) سورة الأعراف، الآية: ٤٠.

(6) رواه مسلم رقم: ٢٤٧.

وقال أيضًا: خمس صلوات افترضهن الله تعالى عز وجل: من أحسن وضوئهن وصلاتهن لوقتهن وأتم ركوعهن وخشوعهن كان له على الله عهد أن يغفر له. ومن لم يفعل فليس له على الله عهد. إن شاء غفر له وإن شاء عذبه⁽¹⁾.

والثالث أن الصلاة هي وسيلة للقيام على الدين والقرآن يقول إن من يغفل عن ذكر الله تعالى ويعرض عن ذكره يسלט عليه شيطان يصير له قرينًا صباح مساءً: فقد جاء في القرآن:

﴿وَمَنْ يَعْصُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾⁽²⁾.

فالصلاة تجنبه من تلك الغفلة والأعراض وتحفظه من حملات الشيطان. وأنت ترى أن الآيات من سورة المعارج والمؤمنين التي نقلت في المذكور أعلاه، تذكر الأمور التي بدأت بالصلاة وانتهت أيضًا بذكر الصلاة. وذلك ينبئ عن أن مواظبة الصلاة هي التي تضمن للإنسان أن يقوم على الدين. نعم قد يحمل عليه الشيطان بعد الصلاة أيضًا، ولكن لا يمكن للشيطان أثناء المواظبة عليها أن يتمكن في قلب الإنسان، فإن الصلاة تدفع عنه وتذب عن حملاته مثل الحصار ما دام الإنسان يواظب على الصلاة ويثابر عليها. ولذلك جاء الحكم الأكيد لقيامها في حالة الخطر أيضًا كما أمكن له راجلاً أم راكباً. فقد قال في سورة البقرة على موقع اختتام بيان القانون والشرعة:

﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَنِينَ * فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾⁽³⁾.

وقد ذكر القرآن في سورة مريم اتباع الشهوات كأنها نتيجة لازمة لإضاعة الصلوات فقال: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾. وجاء

(1) رواه أبو داود رقم: ٤٢٥.

(2) سورة الزخرف، الآية: ٣٦.

(3) سورة البقرة، الآيتان: ٢٣٨ و ٢٣٩.

ذلك في سورة العنكبوت في أتم صورة وأوضحها فقال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ (1) أي أن الصلاة تنبه المرء كواعظ رادع له أنه سوف يواجه الرب تعالى وأنه يُسأل يومئذ عما كان يفعله في الدنيا، فلا يتغافل عن هذه الحقيقة في خضم غلبة العواطف وحملات الشهوة وهجوم الأهواء. ويقول الأستاذ الإمام في شرح الآية:

«فالذين يأتون الصلاة بآدابها وشرائطها كانت صلاة الخلوة أو صلاة العلن، فصلااتهم بظاهرها وباطنها تذكروهم بحقائق، التذكير بها ضروري لازم لإقامة الحياة على الجادة المستقيمة. وخاصة صلوات الخلوة لها تأثير عميق في حياة الإنسان. ومثل الذي لا يصلي كمثّل سائق سيارة يسير بها بسرعة فائقة ولكنه لا يعرف ويغفل تمامًا عن علامات منبهة وإرشادية منصوبة يمينًا ويسارًا. فمن يعرف أن السائق كهذا في أي حفرة يسقط سيارته» (2).

الرابع أن الصلاة تمحو الذنوب والسيئات لأنه إذا قام العبد للصلاة وله شعور صحيح، فإنه يجدد عهده مع الله تعالى أن يجتنب من معصيته. ونتيجة من ذلك أنه يندم بالتأكيد على أخطائه التي ارتكبها من صلاة إلى صلاة أخرى. ثم يرجع إلى اشتغالات الحياة بعزم قوي وإرادة ثابتة أن سيجتنبها الآن. وإذا تفكرت رأيت أن حقيقة التوبة هي هي. ومعلوم أن التوبة تطهر العبد من المآثم والذنوب. ولذا قال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ أَلَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكْرِينَ﴾ (3).

وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسًا ما تقولون في ذلك أيبقى من درنه شيء قالوا: لا

(1) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

(2) تدبر القرآن: ٦: ٥٣.

(3) سورة هود، الآية: ١١٤.

يبقى من درنه شيء قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا^(١).
أي الذنوب التي لا تتعلق بحقوق العباد ولا تحتاج إلى التوبة والكفارة.

الخامس أن الصلاة تخلص من الصعوبات. وإذا دعا القرآن اليهود إلى تجديد عهدهم مع الله فقد أرشدهم أن يستعينوا ﴿بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾^(٢) حتى يتحملوا مسؤوليات ذلك العهد.

وسلك القرآن هذا المسلك بعينه مع بني إسماعيل إذ قال لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٣).

كما لقن النبي ﷺ أيضًا أن يستعين بها للصبر والاستقامة في مقابلة إيذاء المعاندين وتعسف الظالمين الأشرار فقال: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ﴾^(٤).

وذلك يعني أن الصلاة هي أكبر وسيلة لتوجيه رحمة الله إليه، كما علم من سيرة النبي ﷺ أنه إذا داهمه أمر هام قام يصلي^(٥) فإذا التمس منه الناس أن يدعو للمطر فصلّى الصلاة ودعا لذلك. وإذا عرض خطر لبطش الحق عندما كسف الشمس وخسف القمر قام يصلي. وفي معارك بدر وأحزاب لما اصطف المسلمون ضد المعاندين المهاجمين استعان بالصلاة ودعا الله له.

السادس أن الصلاة هي معرفة دعوة الحق. فقد قال القرآن إن المصلحين يمسكون بالكتاب من حيث إنه ميثاق من الله وميزان للحق والباطل وأقاموا الصلاة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾^(٦).

(١) رواه البخاري رقم الحديث ٥٢٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٥٣.

(٤) سورة ق، الآيتان: ٣٩ و ٤٠.

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨٧/١.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٧٠.

ويقول الأستاذ الإمام أمين أحسن في تفسير الآية:

«وبيان القرآن لهذا يعطي معيارًا لاختبار حركات ودعوات ظهرت لتجديد الدين وإصلاح الملة جميعًا. وتعلم من ذلك أن حركة دعوية إصلاحية تكون مستقيمة صحيحة تضع الصلاة موضعها الحقيقي، الذي يعطيها القرآن في عهد الله وجهاد إقامة الدين، في مبدئها ومعادها وبدئها ونهايتها وعقيدتها وعملها وهدفها ولائحة أعمالها. وأما الحركة والدعوة التي لا تعطيها تلك الأهمية والأولوية فإنها عمل غير مبروك وعملية لا طائل تحتها، اعتبارًا بتجديد الدين وإصلاح الملة. لأنها محروم من عظام الصلب التي يقوم عليها قالب التجديد الديني، كما يعوزها الروح الذي يجري الحياة في ذلك القلب»⁽¹⁾.

السابع أن الصلاة يُتذرع بها للاستقامة في سبيل الحق. وسالكو هذا الطريق يعرفون أن المعية الإلهية هي التي تفضي بهم إلى الاستقامة. والصلاة متقاربة جدًا مع الله سبحانه كأنها تقوم مقامه لنا في هذه الدنيا، كما جاء ذلك في آية من سورة العلق ألا وهي ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾⁽²⁾ فالمعية الإلهية في سبيل الله إنما تحصل بكتابه وبصلاة قائمة له. وقيام الليل أي صلاة التهجد له دور كبير في هذا الصدد، ولذا لما أمر رسول الله ﷺ بالإنذار العام أمر بإحياء الليل، إذا أراد أن يتحمل مسؤوليات هذا القول الثقيل وبقراءة القرآن في صلاة الليل. ووجه ذلك أن ذاك الوقت خاص جدًا لخلو القلب والعقل وأنسب لفهم القرآن وفي ألفاظ الأستاذ الإمام «ما يخرج في هذا الوقت من اللسان يؤثر في القلب تأثيرًا بالغًا والمرء يقبل ذلك بنفسه مثل شهادة القلب له ويأخذ بمجامع قلوب المستمعين الآخرين»⁽³⁾. فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ * قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نَصَفَهُ * أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَزُلْ

(1) تدبر القرآن: ٢٠٣/١.

(2) سورة العلق، الآية: ١٩.

(3) تدبر القرآن ٢٥/٩.

أَلْفَرْءَانِ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا * وَذَكَرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿١﴾.

ويفيد بعض الروايات أن هذا الوقت هو وقت نزول الرب تعالى إلى هذه الدنيا فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ إن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا حتى إذا بقي ثلث الليل يقول: من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفره ^(٢).

الثامن أن الصلاة فطرة للكون فإذا كان للإنسان عينان. وينظر بهما فلا يتردد في فهم أن كل ذرة في الأرض وفي السماء تسبح للرب تعالى وتحمده وتسجد له.

والإنسان وإن كان لا يرى ذلك ولا يفهمه ولكن يمكن له أن يرى ويفكر أن كل شيء بظاهره في هذا العالم مسلم لله خاضع لأمره في كل لحظة. فكذلك لا يختلف باطن كل شيء عن ظاهره. وكل دابة ماشية في الأرض وكل شجرة مترعرة في الحدائق، وكل طير متغرد في القضاء، وكل سمك سابح في البحر وكل نجم طالع في السماء، والشمس والقمر وكل ذلك يشهد لذلك بوجوده كما قال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ ^(٣).

والكل منهم واقف على صلاته وتسبيحه ولا يغفل عن ذلك ولو للحظة. فإذا كان الإنسان بصيراً ليبصر أن الطير إذا يسبح في الفضاء ماداً أجنحته فكأنه خاضع لله مع كمال عجزه. وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ^(٤).

(١) سورة المزمل، الآيات: ١ - ٨.

(٢) رواه البخاري رقم الحديث: ١١٤٥ ومسلم ٧٥٨.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

(٤) سورة النور، الآية: ٤١.

ويقول الأستاذ الإمام:

«إن لكل شيء لهذا الكون مزاج إبراهيمي. فإن الشمس والقمر، والنجوم والكواكب والجبال والدواب وكل شيء مسخر للإنسان تحت أمر من الله وحكمه. ولا يمكن لشيء منها أن ينحرف عن قوانين طبيعية مقررة لها من الله تعالى أيما انحراف. والشمس التي قد أكثر الجهلاء من عبادتها من كل شيء آخر، إنها بوجودها تشهد أنها تكون كل يوم وليلة في حالات القيام أو الركوع والسجود. فعند طلوعها ترفع رأسها من السجدة وتكون في حالة القيام حتى وقت الظهيرة ثم تركع بعد الزوال وتظل على هذه الحالة إلى غروبها. فتسجد عند الغروب وتبيت في السجود ليلتها كلها. وتظاهر بهذه الحقيقة القمر بغروبها وتضائلها والكواكب بطلوعها وغروبها. وكذا الحال للجبال والأشجار والدواب. فإن ظلال كل شيء منها تكون كل وقت في حالة القيام والركوع والسجود. وإذا تدبرت فيها رأيت أن فطرة الظل أيضاً فطرة إبراهيمية فإنها تكون دائماً في الجانب المخالف المتعارض للشمس. فإذا كانت الشمس في الجانب الشرقي يكون الظل بالجانب الغربي وعلى عكس منه إذا كانت في الجانب الغربي يمتد الظل إلى الشرق. كان ظلال كل شيء تعلمنا بوجودها أن السجدة لا تجدر بالشمس وإنما تجدر بخالق الشمس»⁽¹⁾.

قال تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعِيوْا ظِلَّهُ، عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾⁽²⁾.

فإنه إذا قام الإنسان يصلي فكأنه يلبي دعوة التسبيح والتحميد والركوع والسجود من قبل العالم كله. إنه ينسق ويوافق أداة طبيعته مع تلك الآلة ويعلن

(1) تدبر القرآن ٥/ ٢٢٩.

(2) سورة النحل، الآيتان: ٤٨ — ٤٩.

عن طريق عمله إنه لا يتخلف عن أحد، ويخضع وليس فقط جسمه بل روحه أيضاً للخالق تعالى، ولا ين عزل عن الكون برمته في طريق ليس له فيه من يرافقه. وإن هناك زملاء في السفر فهم أولئك الذين صدق عليهم القول ولزم العذاب. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ، مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ (١).

التاسع أن الصلاة هي الحياة فإنها دعوة الأنبياء ﷺ. فإن القرآن يعبر بها بنفس التعبير فقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (٢). ووجه ذلك أن الكل يحيون حياتهم ولكن الحياة الحقيقية التي هي نور كله وسكينة كلها وإيمان كله، تحصل فقط بذكر الله. والأنبياء ﷺ يدعون إليها وهم يدعون إلى الصلاة قبل كل شيء. وما هي الصلاة؟ إن المشاعر الجميلة بمعرفة الله تعالى وذكره وفكره وإحساس القربة إذا وصلت إلى منتهى الكمال تكون صلاةً.

وقد قطع به كل العارفين أن حياة القلب هي أصل الحياة وحياة القلب هي حياة المعرفة والذكر والفكر والقربة الإلهية. وتحصل هذه الحياة من الصلاة فقط وتبقى منها فقط، والقرآن قد أشار إلى ذلك حينما وضع الحياة في مقام في مقابلة الصلاة والقربان بإزاء الموت فقال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣).

والإنسان إذا عرف هذه الحقيقة انتظر الصلاة ليل نهار كما ينتظر إلى الشرب والأكل صباح ومساءً. واشتاق إليها كما يتوق العاطش إلى الماء والجائع إلى الخبز، فالصلاة تكون له زرقاً كريماً من الله سبحانه أن يشبع منه ويتقوى به.

(١) سورة الحج، الآية: ١٨.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٦٢.

كما قال سيدنا المسيح ﷺ: لا يحيى الإنسان بالخبز فقط بل يحيى بكل كلمة تخرج من فم الله تعالى⁽¹⁾.

فكما أن الناس يستمتعون ويستلذون من أطعمة لذيذة متنوعة فإن المؤمن يلتذ ويستمتع من المقامات المختلفة للقرآن، ومن تسيّحات متنوعة وأدعية كثيرة. فالصلاة في خضم المصائب والآفات تكون له كنسيم عطرة في طوفان الآثام كهواء نسيم طلق، وفي خريف الحزن واليأس مبشرة للربيع وملجأ مأمون ومأوى صلب في هجوم العداء والعناد. ولا تأخذ هذا كشعر بل إنه تعبير عن كيفيات المقامات التي شرحها النبي ﷺ في أساليب بلاغية رفيعة حين قال: قم يا بلال فأرحنا بالصلاة⁽²⁾. وقال: جعلت قرّة عيني في الصلاة⁽³⁾.

تأريخ الصلاة

والصلاة قديمة قدامة الدين نفسه، وكافة الأديان كان فيهما تصور للصلاة وكانت لها مراسم وأوقات معينة لها. فأغاني الهندوس، وزممة البارسيين وأدعية النصراني ومزامير اليهود كلها ذكريات للصلاة على أقل حد، وأخبرنا القرآن أن تعليم الصلاة كان متواجداً عند كل نبي ورسول. وفي دين رسول الله ﷺ الذي بعث مجدداً للملة الإبراهيمية فإن مكانة الصلاة فيه أيضاً مرموقة رفيعة.

وحينما أسكن سيدنا إبراهيم ﷺ ابنه إسماعيل في واد غير ذي زرع أبان عن هدفه قائلاً: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾⁽⁴⁾ ودعا في هذه المناسبة: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾⁽⁵⁾ ويصف إسماعيل ﷺ: كان ﴿يَأْمُرُ أَهْلَهُ

(1) متى: ٤: ٤.

(2) رواه أبو داود رقم الحديث: ٤٩٨٦.

(3) رواه النسائي: رقم: ٣٣٩٢.

(4) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

(5) سورة إبراهيم، الآية: ٤٠.

بِالصَّلَاةِ ﴿١﴾ وَطَعَنَ شَعِيبًا قَوْمَهُ بِقَوْلِهِمْ: ﴿أَصَلَّوْا تَكُنْ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا﴾ ﴿٢﴾.

وقد ورد في القرآن في رسل كانوا من نسل إسحاق ويعقوب ﷺ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ﴾ ﴿٣﴾. ولما أعطي موسى النبوة أمر بـ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ ﴿٤﴾ وجاء في زكريا ﷺ: ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحَارِبِ﴾ ﴿٥﴾ وقال المسيح في نفسه: ﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ﴾ ﴿٦﴾ وكان لقمان حكيماً للعرب فقد جاء في القرآن وصاياه لابنه وكان مما قال له: ﴿يَبْنُ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ ﴿٧﴾ وقد وعد الله تعالى بني إسرائيل: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ... لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ ﴿٨﴾ وشهد القرآن أن رجالاً صالحين من اليهود والنصارى كانوا يهتمون بإقامة الصلاة فقال: ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ ﴿٩﴾.

وقد قيل هذا عن مشركي العرب لذلك الزمان: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ﴿١٠﴾.

وشاعر من شعراء الجاهلية جران العود يقول:

وأدركن أعجازاً من الليل بعدما أقام الصلاة العابد المتحنف

(1) سورة مريم، الآية: ٥٥.

(2) سورة هود، الآية: ٨٧.

(3) سورة الأنبياء، الآية: ٧٣.

(4) سورة طه، الآية: ١٤.

(5) سورة آل عمران، الآية: ٣٩.

(6) سورة مريم، الآية: ٣١.

(7) سورة مريم، الآية: ٣١.

(8) سورة المائدة، الآية: ١٢.

(9) سورة آل عمران، الآية: ١١٣.

(10) سورة آل عمران، الآية: ١١٣.

ويقول أعشى وائل:

وسبح على حين العشيات والضحي ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا
والقرينة تدل على أن التسييح هنا قد جاء لإعطاء معنى الصلاة. وقد جاء
ذلك في هذا المفهوم في مقامات عديدة للقرآن الكريم.

وقد جاء ذكر صلاة اليهود والنصارى والمتحفين في الأحاديث والآثار
فمثلاً عن عبد الله ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: إذا كان لأحدكم ثوبان فليصل
فيهما فإن لم يكن إلا ثوب واحد فليتزرب به ولا يشتمل اشتمال اليهود⁽¹⁾.

وقال أبو ذر الغفاري رضي الله عنه: كنت أصلي الصلاة قبل أن لقيت النبي ﷺ
بثلاث سنوات. قيل لمن؟ قال لله⁽²⁾.

وقد جاء ذكر صلاة اليهود والنصارى في الكتاب المقدس في مقامات
كثيرة وكما أن القرآن قد عبر بالصلاة من خلال تسمية الله وتسيحه والدعاء له،
والركوع والسجود له جاءت هذه التعبيرات كأركان للصلاة في الأناجيل أيضاً.

نصوص من الكتاب المقدس متعلقة بالصلاة

ثُمَّ نَقَلَ مِنْ هُنَاكَ إِلَى الْجَبَلِ شَرْقِيَّ بَيْتِ إِيلَ وَنَصَبَ خَيْمَتَهُ. وَلَهُ بَيْتٌ إِيلَ
مِنَ الْمَغْرِبِ وَعَايُ مِنَ الْمَشْرِقِ. فَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ وَدَعَا بِاسْمِ الرَّبِّ⁽³⁾.
فَسَقَطَ أَبْرَامُ عَلَى وَجْهِهِ. وَتَكَلَّمَ اللَّهُ مَعَهُ قَائِلًا⁽⁴⁾.

وَانْصَرَفَ الرِّجَالُ مِنْ هُنَاكَ وَذَهَبُوا نَحْوَ سَدُومَ، وَأَمَّا إِبْرَاهِيمُ فَكَانَ لَمْ يَزَلْ
قَائِمًا أَمَامَ الرَّبِّ⁽⁵⁾.

(1) رواه أبو داود رقم الحديث: ٦٣٥.

(2) رواه مسلم رقم الحديث: ٦٣٥٩.

(3) التكوين ١٢: ٨.

(4) التكوين ١٧: ٣.

(5) التكوين ١٨: ٢٢.

فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِغُلَامَيْهِ: «اجْلِسَا أَنتُمَا هَهُنَا مَعَ الْحِمَارِ، وَأَمَّا أَنَا وَالْغُلَامُ
فَنَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ وَنَسْجُدُ، ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَيْكُمَا»⁽¹⁾

فَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحًا وَدَعَا بِاسْمِ الرَّبِّ. وَنَصَبَ هُنَاكَ خِيَمَتَهُ، وَحَفَرَ هُنَاكَ عَيْدُ
إِسْحَاقَ بَنِي⁽²⁾

فَآمَنَ الشَّعْبُ. وَلَمَّا سَمِعُوا أَنَّ الرَّبَّ افْتَقَدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَنَّهُ نَظَرَ مَذَلَّتَهُمْ،
خَرُّوا وَسَجَدُوا⁽³⁾.

يَا رَبُّ، بِالْغَدَاةِ تَسْمَعُ صَوْتِي. بِالْغَدَاةِ أَوْجِهْ صَلَاتِي نَحْوَكَ وَانْتَظِرْ⁽⁴⁾.

. أَمَّا أَنَا فَبِكَثْرَةِ رَحْمَتِكَ أَذْخُلُ بَيْتَكَ. أَسْجُدُ فِي هَيْكَلٍ قُدْسِكَ بِخَوْفِكَ⁽⁵⁾

أَمَّا أَنَا فَإِلَى اللَّهِ أَصْرُخُ، وَالرَّبُّ يُخَلِّصُنِي.

مَسَاءً وَصَبَاحًا وَظَهْرًا أَشْكُو وَأَنُوحُ، فَيَسْمَعُ صَوْتِي⁽⁶⁾

. الَّذِي لَهُ الْبَحْرُ وَهُوَ صَنَعَهُ، وَيَدَاهُ سَبَكَتَا الْيَابِسَةَ.

هَلُمَّ نَسْجُدُ وَنَرْكَعُ وَنَجْثُو أَمَامَ الرَّبِّ خَالِقِنَا⁽⁷⁾،

. أَسْجُدُ فِي هَيْكَلٍ قُدْسِكَ، وَأَحْمَدُ اسْمَكَ عَلَى رَحْمَتِكَ وَحَقِّكَ، لِأَنَّكَ قَدْ

عَظَّمْتَ كَلِمَتَكَ عَلَى كُلِّ اسْمِكَ⁽⁸⁾

إِذَا انْكَسَرَ شَعْبُكَ إِسْرَائِيلُ أَمَامَ الْعَدُوِّ لِأَنَّهُمْ أَخْطَأُوا إِلَيْكَ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْكَ
وَاعْتَرَفُوا بِاسْمِكَ وَصَلُّوا وَتَضَرَّعُوا إِلَيْكَ نَحْوَ هَذَا الْبَيْتِ،

(1) التكوين ٢٢: ٥.

(2) التكوين ٢٦: ٢٥.

(3) سفر الخروج ٤: ٣١.

(4) سفر المزامير ٥: ٣.

(5) سفر المزامير ٥: ٧.

(6) سفر المزامير ١٦: ٥٥ — ١٧.

(7) سفر المزامير ٩٥: ٥ — ٦.

(8) سفر المزامير ١٣٨: ٢.

فَاسْمَعْ أَنْتَ مِنَ السَّمَاءِ وَاغْفِرْ خَطِيئَةَ شَعْبِكَ إِسْرَائِيلَ، وَأَرْجِعْهُمْ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أُعْطَيْتَهَا لِآبَائِهِمْ^(١).

«قِفْ فِي بَابِ بَيْتِ الرَّبِّ وَنَادِ هُنَاكَ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ وَقُلْ: اِسْمَعُوا كَلِمَةَ الرَّبِّ يَا جَمِيعَ يَهُوذَا الدَّاخِلِينَ فِي هَذِهِ الْأَبْوَابِ لِتَسْجُدُوا لِلرَّبِّ^(٢).

فَلَمَّا عَلِمَ دَانِيَالُ بِإِمْضَاءِ الْكِتَابَةِ ذَهَبَ إِلَى بَيْتِهِ، وَكُوَاهُ مَفْتُوحَةً فِي عُلِّيَّتِهِ نَحْوُ أُورُشَلِيمَ، فَجَنَّا عَلَى رُكْبَتَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي الْيَوْمِ، وَصَلَّى وَحَمَدُ قَدَامَ إِلَهِهِ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ قَبْلَ ذَلِكَ^(٣).

فَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَى اللَّهِ السَّيِّدِ طَالِبًا بِالصَّلَاةِ وَالتَّضَرُّعَاتِ، بِالصَّوْمِ وَالْمَسْحِ وَالرَّمَادِ^(٤).

وَبَعْدَمَا صَرَفَ الْجُمُوعَ صَعِدَ (المسيح) إِلَى الْجَبَلِ مُنْفَرِدًا لِيُصَلِّيَ. وَلَمَّا صَارَ الْمَسَاءُ كَانَ هُنَاكَ وَحْدَهُ^(٥).

حِينَئِذٍ جَاءَ مَعَهُمْ يَسُوعُ إِلَى ضَيْعَةٍ يُقَالُ لَهَا جَشْسِيمَانِي، فَقَالَ لِلتَّلَامِيذِ: «اجْلِسُوا هَهُنَا حَتَّى أَمْضِيَ وَأُصَلِّيَ هُنَاكَ^(٦).

ثُمَّ تَقَدَّمَ قَلِيلًا وَخَرَّ عَلَى وَجْهِهِ، وَكَانَ يُصَلِّي قَائِلًا: «يَا أَبَتَاهُ، إِنْ أُمَكَّنَ فَلْتَعْبُرْ عَنِّي هَذِهِ الْكَأْسُ، وَلَكِنْ لَيْسَ كَمَا أُرِيدُ أَنَا بَلْ كَمَا تُرِيدُ أَنْتَ^(٧).

وَفِي الصُّبْحِ بَاكِراً جِدًّا قَامَ وَخَرَجَ وَمَضَى إِلَى مَوْضِعٍ خَلَاءٍ، وَكَانَ يُصَلِّي هُنَاكَ^(٨).

(١) سفر الملوك الأول: ٨: ٣٤ — ٣٣.

(٢) سفر إرميا: ٧: ٢.

(٣) سفر دانيال: ٦: ١٠.

(٤) سفر دانيال: ٩: ٣.

(٥) سفر متي: ١٤: ٢٣.

(٦) سفر متي: ٢٦: ٣٦.

(٧) سفر متي: ٢٦: ٣٩.

(٨) سفر مرقس: ١: ٣٥.

فَقَالَ لَهُمْ: «لِمَاذَا أَنْتُمْ نِيَامُ؟ قُومُوا وَصَلُّوا لِئَلَّا تَدْخُلُوا فِي تَجْرِبَةٍ»⁽¹⁾.

(والمراد به وقت العشية أي وقف صلاة العصر) وَصَعِدَ بُطْرُسُ وَيُوحَنَّا مَعًا إِلَى الْهَيْكَلِ فِي سَاعَةِ الصَّلَاةِ التَّاسِعَةِ⁽²⁾.

ثُمَّ فِي الْغَدِ فِيمَا هُمْ يُسَافِرُونَ وَيَقْتَرِبُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ، صَعِدَ بُطْرُسُ عَلَى السَّطْحِ لِيُصَلِّيَ نَحْوَ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ.

(والمراد به وقت الظهيرة أي وقت صلاة الظهر)⁽³⁾

ثُمَّ جَاءَ وَهُوَ مُتَّبَعٌ إِلَى بَيْتِ مَرْيَمَ أُمِّ يُوحَنَّا الْمُلقَّبِ مَرْفُسَ، حَيْثُ كَانَ كَثِيرُونَ مُجْتَمِعِينَ وَهُمْ يُصَلُّونَ⁽⁴⁾.

وَفِي يَوْمِ السَّبْتِ خَرَجْنَا إِلَى خَارِجِ الْمَدِينَةِ عِنْدَ نَهْرٍ، حَيْثُ جَرَتْ الْعَادَةُ أَنْ تَكُونَ صَلَاةٌ، فَجَلَسْنَا وَكُنَّا نَكَلِّمُ النِّسَاءَ اللَّوَاتِي اجْتَمَعْنَ⁽⁵⁾.

وَنَحْوِ نِصْفِ اللَّيْلِ كَانَ بُولُسُ وَسِيلاً يُصَلِّيَانِ وَيُسَبِّحَانِ اللَّهَ، وَالْمَسْجُوتُونَ يَسْمَعُونَهُمَا⁽⁶⁾.

وَلَمَّا قَالَ هَذَا جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ مَعَ جَمِيعِهِمْ وَصَلَّى⁽⁷⁾.

وينبغي أن يكون هنا واضحاً أيضاً أن الصلاة كانت دائماً تؤدي خمس مرات. وقد جاء في حديث أبي داود أن جبريل الأمين نفسه قد أخبر رسول الله ﷺ بذلك مرة. [٣٢] ولا شك أن اليهود لديهم الآن ثلاث صلوات، كما أن الاقتباسات السابقة تذكر أيضاً ثلاث صلوات فقط في مكان، لكن لويس

(1) إنجيل لوقا، ٤٦: ٢٢.

(2) سفر أعمال الرسل، ٣: ١.

(3) (سفر أعمال الرسل، ١٠: ٩)

(4) سفر أعمال الرسل، ١٢: ١٢.

(5) سفر أعمال الرسل، ١٦: ١٣.

(6) (سفر أعمال الرسل، ١٦: ٢٥)

(7) سفر أعمال الرسل، ٢٠: ٣٦.

جينسبيرغ، في بحثه عن التلمود القدسي يوضح أن عند اليهود أيضًا قد حدثت هذه الممارسة بنفس الطريقة تمامًا التي اتبعتها الشيعة عندنا فحولوا عمليًا الصلوات الخمس إلى ثلاث صلوات، بجمع الظهر والعصر والمغرب والعشاء على طريقة جمع بن الصلاتين. وقال إنه في زمن التلمود، كان اليهود يجتمعون للصلاة خمس مرات في اليوم ثلاث مرات للصلوات التي تقدم في هذا الوقت، ومرتين لقراءة «الشيما». ومع ذلك، في وقت لاحق، بسبب بعض المشاكل العملية، تم الجمع بين صلوات الصباح والمساء صلاتين صلاتين لتشكيل الممارسة السائدة حاليًا. [٣٣]

والآن بعد نزول القرآن قد صارت سورة الفاتحة من ضمن أدعية الصلاة. ويفيد الكتاب المقدس أن هذا النوع من الدعاء للصلاة كان قد نزل في جميع الكتب الموحى بها.

فقد جاء في التوراة هذا الدعاء كما يلي:

فَاجْتَازَ الرَّبُّ قُدَّامَهُ، وَنَادَى الرَّبُّ: «الرَّبُّ إِلَهَ رَحِيمٍ وَرَوْوْفٌ، بَطِيءُ
الْغَضَبِ وَكَثِيرُ الْإِحْسَانِ وَالْوَفَاءِ

حَافِظُ الْإِحْسَانِ إِلَى الْوَفِّ. غَافِرُ الْإِثْمِ وَالْمَعْصِيَةِ وَالْخَطِيئَةِ. وَلَكِنَّهُ لَنْ يُبْرِيَ
إِبْرَاءً. مُفْتَقِدُ إِثْمِ الْأَبَاءِ فِي الْأَبْنَاءِ، وَفِي أَبْنَاءِ الْأَبْنَاءِ، فِي الْجِيلِ الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ^(١).

وجاء هذا الدعاء في ابتهالات المزامير فيما يلي:

«أَمِلْ يَا رَبُّ أُذُنَكَ. اسْتَجِبْ لِي، لِأَنِّي مِسْكِينٌ وَبَائِسٌ أَنَا

أَحْفَظُ نَفْسِي لِأَنِّي تَقِيٌّ. يَا إِلَهِي، خَلِّصْ أَنْتَ عَبْدَكَ الْمُتَّكِلَ عَلَيْكَ

ارْحَمْنِي يَا رَبُّ، لِأَنَّنِي إِلَيْكَ أَصْرُخُ الْيَوْمَ كُلَّهُ

فَرِّحْ نَفْسَ عَبْدِكَ، لِأَنَّنِي إِلَيْكَ يَا رَبُّ أَرْفَعُ نَفْسِي

(١) سفر الخروج، ٣٤: ٦ - ٧.

لَأَنَّكَ أَنْتَ يَا رَبُّ صَالِحٌ وَغَفُورٌ، وَكَثِيرُ الرَّحْمَةِ لِكُلِّ الدَّاعِينَ إِلَيْكَ
 اصْغُرْ يَا رَبُّ إِلَى صَلَاتِي، وَأَنْصِتْ إِلَى صَوْتِ تَضَرُّعَاتِي
 فِي يَوْمِ ضَيْقِي أَدْعُوكَ، لَأَنَّكَ تَسْتَجِيبُ لِي
 لَا مِثْلَ لَكَ بَيْنَ الْإِلَهَةِ يَا رَبُّ، وَلَا مِثْلَ أَعْمَالِكَ
 كُلُّ الْأُمَمِ الَّذِينَ صَنَعْتَهُمْ يَأْتُونَ وَيَسْجُدُونَ أَمَامَكَ يَا رَبُّ، وَيَمَجِّدُونَ
 اسْمَكَ

لَأَنَّكَ عَظِيمٌ أَنْتَ وَصَانِعُ عَجَائِبَ. أَنْتَ اللَّهُ وَحْدَكَ
 عَلَّمَنِي يَا رَبُّ طَرِيقَكَ. أَسْلُكُ فِي حَقِّكَ. وَحَدَّ قَلْبِي لِخَوْفِ اسْمِكَ.
 أَحْمَدُكَ يَا رَبُّ إِلَهِي مِنْ كُلِّ قَلْبِي، وَأُمَجِّدُ اسْمَكَ إِلَى الدَّهْرِ.
 لِأَنَّ رَحْمَتَكَ عَظِيمَةٌ نَحْوِي، وَقَدْ نَجَّيْتَ نَفْسِي مِنَ الْهَاسِيَةِ السُّفْلَى.
 اللَّهُمَّ، الْمُتَكَبِّرُونَ قَدْ قَامُوا عَلَيَّ، وَجَمَاعَةُ الْعِتَاةِ طَلَبُوا نَفْسِي، وَلَمْ
 يَجْعَلُوكَ أَمَامَهُمْ.

أَمَّا أَنْتَ يَا رَبُّ فَالَهُ رَحِيمٌ وَرَوْوْفٌ، طَوِيلُ الرُّوحِ وَكَثِيرُ الرَّحْمَةِ وَالْحَقِّ.
 التَّفَتْ إِلَيَّ وَارْحَمْنِي. أَعْطِ عَبْدَكَ قُوَّتَكَ، وَخَلِّصِ ابْنَ أَمَتِكَ.
 «اصْنَعْ مَعِيَ آيَةً لِلْخَيْرِ، فَيَرَى ذَلِكَ مُبْغِضِيَّ فَيَخْزُوا، لَأَنَّكَ أَنْتَ يَا رَبُّ
 أَعَزَّتَنِي وَعَزَّيْتَنِي»⁽¹⁾

وجاء هذا الدعاء في الإنجيل في ألفاظ آتية:

«فَصَلُّوا أَنْتُمْ هَكَذَا: أَبَانَا الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، لِيَتَقَدَّسَ اسْمُكَ
 لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ. لِيَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ عَلَى الْأَرْضِ
 خُذْزَنَا كَفَافَنَا أَعْطِنَا الْيَوْمَ

(1) سفر المزامير، ٨٦: ١-٧١.

وَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا كَمَا نَعْفِرُ نَحْنُ أَيْضًا لِلْمُذْنِبِينَ إِلَيْنَا وَلَا تَدْخُلْنَا فِي تَجْرِبَةٍ،
لَكِنْ نَجِّنَا مِنَ الشَّرِّيرِ. لِأَنَّ لَكَ الْمُلْكَ، وَالْقُوَّةَ، وَالْمَجْدَ، إِلَى الْأَبَدِ. آمِينَ⁽¹⁾

هذا هو تاريخ الصلاة. وواضح من هذا أن القرآن عندما أمر الناس بالصلاة لم يكن شيئاً غريباً عنهم. وكانوا عالمين بآدابها وأحوالها وأفعالها وأذكارها. ولذلك لم تكن هناك حاجة للقرآن لوصف تفاصيلها. وطريقة أدائها كتقليد للدين الإبراهيمي الذي قد أجراها النبي ﷺ لأتباعه بأمر من القرآن مع بعض التعديلات، ومن جيل إلى جيل كانوا يؤدونها بنفس الطريقة. ولذلك فإن مصدره الآن هو إجماع المسلمين وتواترهم العملي. وسنستمد منه تفاصيلها ونوصفها في المباحث المقبلة.

مقصد الصلاة

فقد أمرنا الله تعالى أن نظل نذكره دائماً. فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾⁽²⁾. والصلاة ذكر في أتم صورته وأكملها. لأن العبد يذكره فيه بكامل وجوده بل يصير تصويراً فعلياً لذلك الذكر. ولذا ففرض الصلاة خمسة أوقات في اليوم والليلة. فقال القرآن عن موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾⁽³⁾.

شروط الصلاة:

والأشياء التي علينا الاهتمام بها هي كالتالي:

أن لا يكون المصلي سكراناً

(1) سفر المتي، ٦: ٩ - ١٣.

(2) سورة الأحزاب، الآيات: ٤١ و ٤٢.

(3) سورة طه، الآيات: ١٢ - ١٤.

وإذا كانت امرأة لا تكون حائضًا ولا نافسًا

أن يكون متوضئًا وأن يكون قد اغتسل بعد الفراغ من حالة الجنابة والحيض والنفاس.

وإن تعذر الوضوء والاعتسال في عدم توفر الماء أو في السفر أو المرض تيمم وأن يقوم يصلي متوجهًا للقبلة.

وكانت هذه الأشياء ضرورية لازمة للصلاة. وبما أن العرب لكونهم محرومين من الوحي الإلهي بعد إسماعيل عليه السلام لقرون عديدة لم يعد واقفين على بعض هذه الشروط اللازمة، فإن القرآن الكريم قد فصل أكثر هذه الأشياء لتذكيرهم إياها. فقال عن الأشياء الثلاث الأولى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾⁽¹⁾. وقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوْهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَئِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾⁽²⁾.

(1) سورة النساء، الآية: ٤٣.

(2) سورة المائدة، الآية: ٦.

وقال في التوجه إلى القبلة:

﴿قَدْ زَرَى ثَقَلُْبُ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُؤَيِّنَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ (١).

فأنت ترى أن الله تعالى في هذه الآيات قد سوى بين السكر والجنابة في إفساد الصلاة فقال لا تقربوا الصلاة ومكان الصلاة مع تواجدهما، فعلم أن الحالتين هما حالتا النجاسة. نعم هناك فرق أن نجاسة السكر هو نجاسة عقلية والجنابة هي نجاسة جسدية. والكل يعلم أنه كما أن الخمر يعطل العقل فكذلك الجنابة تورث الانقباض في النفس الذي يذهب بالانشراح وحضور القلب المطلوبين للصلاة. مع رخصة المرور من المسجد في حالة الجنابة إذا كان للجنب ضرورة ماسة.

والاغتسال لازم في حالة الجنابة فلا صلاة إلا به. فألفاظ وتعبيرات «تغتسلوا وفاضلوا» تتقاضى أن يكون هناك اهتمام خاص للطهارة في هذه الحالة. والأسوة الحسنة التي جاءت في الأحاديث والروايات في هذا المضمار إليك تفصيل ذلك بما يأتي:

أولاً غسل اليدين:

ثم إفراغ الماء على الفرج وغسله بشماله غسلًا جيدًا

ثم يتوضأ الوضوء الكامل ويترك الرجلين لغسلها في الآخر.

ثم إفراغ الماء على الرأس ويدخل الأصابع في أصول الشعر.

ثم إفراغ الماء على الجسد كله

ثم تغسل الرجلان في الأخير

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا اغتسل من الجنابة يبدأ

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٤.

فيغسل يديه بيمينه على شماله. فيغسل فرجه ثم يتوضأ وضوءه للصلاة ثم يأخذ الماء فيدخل أصابعه في أصول الشعر حتى إذا رأى أن قد استبرأ حفن على رأسه ثلاث حففات ثم أفاض على سائر جسده ثم غسل رجليه⁽¹⁾.

وعن ابن عباس قال حدثني خالتي ميمونة قالت: أدنيت لرسول الله ﷺ غسله من الجنابة فغسل كفيه مرة أو ثلاثاً ثم أدخل يده في الإناء. ثم أفرغ به للصلاة ثم أفرغ على رأسه ثلاث حففات ملء كفه ثم غسل سائر جسده ثم تنحى عن مقامه ذلك فغسل رجليه⁽²⁾.

فطريقة الوضوء التي جاءت في الآيات المذكورة ابتدأت بغسل الوجه ثم غسل اليدين إلى المرفقين ثم مسح الرأس كله وغسل القدمين بعد ذلك. ومسح الرأس كله لا بد منه لأنه قد جاء الحكم باستعمال «ب» على مواقع كهذه ينبئ عن الإحاطة والشمول. وكذا حكم الرجلين يبدو بظاهره أنه تحت «وامسحوا». ولكن بما أن «أرجلكم» منصوب وجاء بعد «إلى الكعبين» والذي يقطع بأن أرجلكم معطوف على أيديكم لأنه إن كان العطف على «برؤوسكم» لكان القيد «إلى الكعبين» غير ضروري. ولتنظر في التيمم حيث جاء الحكم بالمسح وختم قيد «إلى المرافق» لهذا السبب فلزم غسل الرجلين. وقد ذكر ذلك مؤخراً في الآية لكي يتوضح على الناس ترتيب الأعضاء في الوضوء.

وكيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟ فإذا جمعت الروايات الواردة في ذلك تظهر منها صورة وضوئه كما جاء ذلك في حديث عثمان بن عفان أن عثمان بن عفان رضي الله عنه، دعا بوضوء فتوضأ فغسل كفيه ثلاث مرات ثم مضمض واستنثر ثم غسل وجهه ثلاث مرات. ثم غسل يده اليمنى إلى المرافق ثلاثاً ثم غسل يده اليسرى مثل ذلك ثم مسح رأسه. ثم غسل رجله اليمنى إلى الكعبين ثلاث

(1) رواه مسلم رقم الحديث: ٣١٦.

(2) رواه مسلم رقم الحديث: ٣١٧.

مرات ثم غسل اليسرى مثل ذلك ثم قال رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا⁽¹⁾.

وقد غسل الأعضاء في الوضوء مرة في بعض المواقع ومرتين على بعضها الآخر⁽²⁾.

وتفيد الروايات أنه بين فضيلة أن يقول المرء بعد الوضوء: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وأن يصلي ركعتين من الصلاة⁽³⁾.

ومن المعروف أيضاً أن النبي ﷺ شجع وأحب الوضوء قبل النوم⁽⁴⁾، وخاصة في حالة النوم والأكل والشرب، والوضوء قبل ممارسة الجنس مرة أخرى⁽⁵⁾.

ونذكر بعض أقواله ﷺ في فضل الوضوء كما يلي:

عن عبد الله قال رسول الله ﷺ: «إذا توضأ العبد المؤمن، فتمضمض، خرجت الخطايا من فيه. وإذا استنثر، خرجت الخطايا من أنفه. ثم إذا غسل وجهه، خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من تحت أشفار عينيه. وعندما يغسل يديه، تخرج الخطايا من يديه حتى تخرج من تحت أظفار يديه. وعندما يمسح رأسه، تخرج الخطايا من رأسه حتى تخرج من أذنيه. وأخيراً، عندما يغسل رجليه، تخرج الخطايا من رجليه حتى تخرج من تحت أظفار رجليه ثم يكون مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة له⁽⁶⁾.

(1) رواه البخاري رقم الحديث: ٢٢٦ ومسلم رقم: ٥٣٨ — ٥٥٥.

(2) رواه البخاري رقم: ١٥٧.

(3) رواه مسلم رقم: ٥٥٣ — ٥٥٤.

(4) البخاري رقم: ٢٤٧ ومسلم رقم: ٦٨٨٢.

(5) البخاري رقم: ٢٨٨ ومسلم رقم: ٦٩٩ — ٧٠٠ — ٧٠٧.

(6) رواه المؤطأ رقم: ٦٧.

والظاهر أنه لا يراد به الذنوب التي لا تتعلق بحقوق العباد ولا تحتاج إلى التوبة والكفارة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (إن أمتي يأتون يوم القيامة غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أثرِ الوضوء، فمَنْ استطاع منكم أن يُطِيلَ غُرَّتَهُ فليفعل⁽¹⁾).

وإذا تم الوضوء مرة واحدة، فسيستمر حتى يعاني الشخص من حالة معاكسة ناقضة. لذلك، فإن تعليمات الوضوء هذه هي للحالة التي لم يبق فيها وضوء، إلا إذا قام الشخص بالوضوء الجديد من أجل نشاط الطبيعة. في هذه الحالة، ليس ذلك مطلبًا من القانون بل مجرد مسألة فضيلة.

وفيما يلي نواقض الوضوء:

١. التبول
 ٢. البراز
 ٣. خروج الريح سواء بالصوت أو بلا صوت
 ٤. خروج المنى أو المذي
- وإذا لم تكن هذه الأشياء بسبب أي مرض، فإنها تنقض الوضوء. النوم وفقدان الوعي ليسا ناقضًا للوضوء في حد ذاتهما، ولكن بما أن الشخص لا يكون حذرًا متنبهًا على وضوئه في مثل هذه الحالات، يجب بحكم الاحتياط من أن يتم الوضوء من جديد بعد ذلك.

وإذا أصبح كل من الوضوء والغسل صعبًا في حالة السفر أو المرض أو بسبب نقص المياه، فقد سمح الله في آيات النساء والمائدة المذكورة أعلاه، أن يتمكن الشخص من التيمم. وطريقة ذلك مذكورة في هذه الآيات أنه بعد العثور على مكان طاهر، يجب مسح الوجه واليدين بترابه. وعن النبي ﷺ أنه ضرب

(1) متفق عليه، واللفظ لمسلم. رقم ٥٧٩.

كلتا يديه على الأرض، ثم نفخ فيهما ومسحهما باليد المعاكسة على اليد اليمنى وباليد اليمنى على اليد اليسرى، ثم ضرب بكلتا يديه ومسح على وجهه⁽¹⁾.

وينص القرآن على أن التيمم يكفي في جميع أنواع النجاسات. إذا حدث أي ناقض من نواقض الوضوء، يمكن القيام به بعد ذلك كما يمكن بعد الجماع أن يتم بدلاً من الغسل. وبنفس الطريقة تمت صراحة أنه في حالة المرض والسفر يمكن للشخص القيام بالتيمم حتى لو كان هناك ماء. ويكتب الأستاذ الإمام:

«هناك احتمال حدوث ضرر من الوضوء أو الاستحمام في المرض، ولهذا السبب تم تقديم هذا التنازل. وبنفس الطريقة قد تكون هناك مواقف مختلفة في الرحلة يتعين على الشخص الاعتماد على التيمم. على سبيل المثال إذا تواجدت المياه ولكنها أقل فهناك خوف من أنه إذا تم استخدامها للاستحمام يقل الماء للشرب وما إلى ذلك، أو هناك خوف من أنه إذا كان يهتم في الاستحمام ربما يفصله عن رفاق القافلة أو هناك رحلة سكة حديدية أو سفينة أو سفر طائرة أن الاستحمام سيسبب صعوبة كبيرة⁽²⁾.

واتبع رسول الله ﷺ قياساً على حكم التيمم هذا نفس الأمر حين مسح على الجوارب والعمامة⁽³⁾ وسمح للناس بمسح الجوارب بدلاً من غسل أقدامهم ثلاثة أيام ولياليها للمسافر وليوم وليلة للمقيم إذا لبسوا الجوارب على الوضوء⁽⁴⁾.

وبالمثل في حالة الغسل فقد ذكر أنه إذا كان شعر المرأة معقوداً، يكفي صب الماء من الأعلى دون فتحه⁽⁵⁾. وإذا كانت الأشياء التي تجب الاغتسال

(1) رواه البخاري رقم ٣٣٨ - ٣٤٧ وأبو داود رقم ٣٢١ - ٣٢٢.

(2) تدبر القرآن ٢/٣٠٣.

(3) رواه البخاري رقم: ١٨٢ - ٢٠٣ - ٢٠٥ ومسلم رقم: ٦٢٢ - ٦٣٢.

(4) رواه مسلم رقم: ٦٣٩ فهناك رعاية ملحوظة لقاعدة اطردت للرخصة والاستثناء وجاءت في القرآن في الفاظ «غير باغ ولا عاد».

(5) رواه مسلم رقم: ٦٣٩.

بسببها تأخذ شكل المرض، فبمجرد الغسل لمرة واحدة، يمكن تقديم بقية الصلوات بدونها⁽¹⁾.

ويبدو أنه لا تحصل طهارة ونقاء من التيمم، ولكن إذا تفكرت فيه وجدت أنه ذو أهمية كبيرة من حيث الحفاظ على ذكرى الطريقة الأصلية للتطهير في الاعتبار. فإنه يوضع في الاعتبار في الشريعة بشكل عام أنه عندما لا يكون من الممكن اتباع حكم في الحالة الأصلية أو يصبح الأمر صعباً للغاية، فيجب الاحتفاظ بذكره في حالة مشابهة للأصل، وذلك يفيد أنه بمجرد عودة الوضع إلى طبيعته تكون الطبيعة جاهزة للعودة إلى النموذج الأصلي للحكم.

وكان لا بد أيضاً من ضبط القبلة للصلاة. من الواضح أنه بدونها لا يمكن إنشاء أي ترتيب للصلاة الجماعية. هذا هو السبب في أنه كان دائماً مأموراً به في الشرائع الإلهية. وجاء في سورة يونس أنه عندما بدأ موسى ﷺ التنظيم الديني لبني إسرائيل في مصر، أمره الله بجعل بعض الأماكن في أجزاء مختلفة من مصر خاصة للصلاة وأن البيوت التي يجب أن يحجزوها للصلاة يجب أن تعلن كقبلة لها ويجب تنظيم صلاة الجماعة فيها. (يونس: ٨٧)

وحتى بناء بيت المقدس كان التابوت المذكور في سورة البقرة يتمتع بنفس المكانة في بني إسرائيل. وعندما بعث النبي ﷺ كان اليهود يصلون إلى بيت المقدس. وقد أمر النبي أن يفعل الشيء نفسه وأخبرت حكمته أنه كان المقصود اختبار بني إسماعيل هل يتبعون النبي أو يتعدون عنه بسبب تحيزاتهم وتعصباتهم (البقرة: ١٤٣). وعندما تحقق هذا الهدف، نزل الحكم بتحويل القبلة وعين بيت الله الحرام قبلة للمسلمين إلى الأبد.

وهذا هو الحكم المذكور في آية سورة البقرة المقتبسة أعلاه. يشير المسجد الحرام في هذه الآية إلى مكان العبادة، والذي يقع بيت الله في منتصفه.

(1) رواه البخاري رقم: ٢٢٨ - ٣٠٦ ومسلم رقم ٧٥٣.

و جاءت عبارة ﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾⁽¹⁾ بالرجوع إليها. يتضح منها أن الغرض هو مواجهة بيت الله، ولم يطلب الله التوجه نحو بيت الله في محاذاة الأنف. ومع ذلك، فقد تم التأكيد في الآية على أنه أينما كان المسلمون داخل أو خارج المسجد الحرام، يجب عليهم أن يتوجهوا إلى القبلة في الصلاة. وكانت الحاجة ماسة إلى هذا التوكيد لأن اليهود والنصارى.

كانوا يجعلون قبلتهم بيت المقدس في داخل حرمه ولكنهم حين يخرجون منه ويجعلون الشرق أو الغرب قبلة لهم، لذلك أمر المسلمون بالصلاة في الرحلة والحضر داخل وخارج بيت الحرام أينما كانوا أن يكونوا متجهين إلى نفس المسجد.

وسيكون في هذا، بالطبع، استثناء عندما يصعب تعيين القبلة أو في ظروف استثنائية يجبر الشخص على الصلاة مشياً أو راكباً. وقد روي عن النبي ﷺ أنه كان يؤدي صلاة النافلة وهو على مركبه وفي اتجاهه، ظناً منه أنه سيصعب لها التوقف للقفالة⁽²⁾.

أعمال الصلاة

الأفعال المقررة في الشريعة للصلاة هي:

يجب أن تبدأ الصلاة برفع اليدين أي بكلتا يديه مرفوعةً إلى الأعلى.

ثم القيام

ثم الركوع

ثم يقوم الرجل مستوياً للقومة

ثم يسجد سجدتين واحدة تلو الأخرى.

(1) سورة البقرة، الآية: ١٤٤.

(2) كما جاء في البخاري رقم: ١٠٠٠ — ١٠٩٨ — ١٠٩٩ ومسلم رقم: ١٦١٨.

وأن يقعد المصلي في كل ركعة ثانية وفي الركعة الأخيرة ويجلس على ركبتيه.

وإذا أراد أن ينتهي صلاته سلم جلوساً في القعدة يميناً وشمالاً.

وتواترت هذه الأعمال من الإجماع والتواتر العلمي. وقد قال رسول الله ﷺ: صلوا كما رأيتموني أصلي⁽¹⁾. ولذا نفصل فيما يأتي هذه الأعمال كلها كما جاءت عن النبي ﷺ.

رفع اليدين

فكان رسول الله ﷺ يرفع يديه تارة مع التكبير وأحياناً قبل التكبير وبعد التكبير مرة أخرى⁽²⁾.

وتكون يده مفتوحتين لا تلتقي أصابع يديه بعضها من بعض ولا تنفرج كاملاً⁽³⁾.

ويرفع يديه أن تحاذيا مرة منكبيه وتارة تحاذيا أذنيه⁽⁴⁾.

وتقول الروايات إن النبي ﷺ كان يرفع يديه قبل الركوع وأحياناً بعد الركوع أيضاً⁽⁵⁾ وأحياناً عند القيام للركعة الثانية⁽⁶⁾ وأحياناً عندما يسجد وعندما يرفع من السجدة⁽⁷⁾.

(1) رواه البخاري رقم الحديث: ٦٣١.

(2) كما رواه البخاري رقم الحديث: ٧٣٥، ٧٣٧ ومسلم رقم: ٨٦٢، ٨٦٤ و ٨٦٥.

(3) كما رواه أبو داود رقم: ٧٥٣، ابن خزيمة ٤٥٩ والسنن الكبرى للبيهقي رقم: ٢٣١٧ والنسائي: ٨٨٤.

(4) (كما رواه البخاري رقم الحديث: ٧٣٦ — ٧٣٨ ومسلم رقم الحديث: ٨٦٥ وأبو داود رقم: ٧٢٦ والنسائي رقم: ٨٨١).

(5) البخاري رقم: ٧٣٧ ومسلم رقم: ٨٦١.

(6) البخاري رقم الحديث ٧٣٩.

(7) النسائي رقم: ١٠٨٦.

القيام

وكان رسول الله ﷺ يقوم مستقيماً وضاماً يديه⁽¹⁾ وكان يضع يده اليمنى على ذراعه اليسرى وكان يضع يديه بطريقة يكون جزء من اليمنى وجزء منها على الكف وجزء منها على الرسغ⁽²⁾ وكان يمنع الناس أن يضعوا اليد اليسرى على اليمنى في القيام⁽³⁾.

الركوع

وكان النبي ﷺ يضع كفيه على ركبتيه كأنه قابض على ركبتيه⁽⁴⁾. وكان يفرج بين أصابعه ويضعها تحت ركبتيه⁽⁵⁾. ولا يخفض رأسه ولا يرفع بل يسويه كالقوس⁽⁶⁾. ويقول من لا يقيم ظهره في الركوع وفي السجدة لا صلاة له⁽⁷⁾.

القومة

وكان رسول الله ﷺ إذا قام من الركوع استوى قائماً حتى يعود كل فقار الصلب في مكانه⁽⁸⁾. وكان قيامه هذا مساوياً للركوع أحياناً يطول كأنه نسي⁽⁹⁾. وكان يقول إن الله لا يلتفت إلى صلاة رجل لا يسوي ظهره قائماً ويسجد من فوره⁽¹⁰⁾.

(1) أبو داود رقم: ٧٣٠ ابن ماجه رقم: ٨٦٢ ومسلم رقم ٨٩٦ وأبو داود رقم: ٧٥٩.

(2) مسلم رقم ٨٩٦ والنسائي ٨٩٠.

(3) مسلم رقم: ٨٩٦.

(4) البخاري رقم: ٨٢٨.

(5) أحمد رقم الحديث: ١٠٤٢.

(6) مسلم رقم: ١١١٠.

(7) أبو داود رقم ٨٥٥، نسائي رقم: ١٠٢٨ ابن ماجه رقم ٨٧٠ — ٨٧١.

(8) البخاري رقم: ٨٢٨.

(9) البخاري رقم: ٨٠٠ ومسلم رقم: ١٠٦٠.

(10) رواه أحمد رقم الحديث: ١٠٤٠٢٠.

السجود

وكان إذا سجد مد كفيه ويجمع بين أصابعه⁽¹⁾ وتتجه أصابعه إلى القبلة⁽²⁾ ويمد يديه تارة إلى المنكبين وأحياناً يحاذي أذنيه ويفسح بينهما بحيث تخرج من تحتها شاة صغيرة⁽³⁾. ويكون مرفقاه منفرجين من جنبه أن ينظر من خلفه بياض إبطيه⁽⁴⁾ ويضع قدميه قائمتين⁽⁵⁾ وجاء في موضع وصل الأعقاب ابن خزيمة⁽⁶⁾ وكان يوجه أصابع القدمين إلى القبلة⁽⁷⁾. وكان يقول: إني أمرت أن أسجد على الجبهة والأنف واليدين والركبتين وعلى أطراف القدمين⁽⁸⁾.

الجلسة

وكان رسول الله ﷺ يجلس مطمئنًا على قدمه المفروش بين السجدين⁽⁹⁾. وعادة يساوي في وقت وقوفه في الجلسة والسجود والقومة⁽¹⁰⁾. إلا أنه كان يجلس في الجلسة أيضًا لوقت طويل يخيل أنه قد نسي⁽¹¹⁾. ثم إنه قد روي أيضًا أنه كان يجلس بعد سجدة ثانية أحيانًا بدلًا من القيام مستويًا ثم يرفع للركعة الثانية⁽¹²⁾.

-
- (1) ابن أبي شيبة رقم ٢٧١٦.
 - (2) ابن أبي شيبة رقم: ٢٧١٢ — ٢٧١٦.
 - (3) مسلم رقم: ١١٠٧.
 - (4) البخاري رقم: ٨٠٧، مسلم رقم ١١٠٦ — ١١٠٨.
 - (5) مسلم رقم: ١٠٩٠.
 - (6) رقم: ٦٥٤ وابن حبان رقم: ١٩٣٣.
 - (7) البخاري رقم: ٨٢٨.
 - (8) البخاري رقم: ٨١٢ ومسلم رقم: ١٠٩٨.
 - (9) ابن أبي شيبة رقم: ٢٧١٢ — ٢٧١٦.
 - (10) البخاري رقم: ٧٩٢ ومسلم رقم: ١٠٧٥.
 - (11) البخاري رقم الحديث: ٨٢١ ومسلم رقم الحديث: ١٠٦٠.
 - (12) البخاري رقم: ٨٢٣، أبو داود رقم: ٨٣٠.

القعدة

وكان يجلس في القعدة جلوسه في الجلسة أن يجلس على قدمه المعكوس المفروش⁽¹⁾. وقدمه اليمين يقوم منتصباً⁽²⁾. وكان يضع يده اليمنى ممدوداً على ركبته اليمنى ويده اليسرى على ركبته اليسرى وكان يشير بالأصبع التي تلي الإبهام⁽³⁾. وتكون صورته أن يجلس ويضم أصابعه الأخرى ويضع الإبهام على الأصبع الوسطى ويحلق بينهما أحياناً⁽⁴⁾. ولماذا كانت تلك الإشارة لم يوضحها النبي ﷺ ولكن لنا أن نقبس أن ذلك في الأغلب إظهار تأشيري للرجوع إلى ذات الباري تعالى مثلما يتمثل في رفع اليدين إليه وقت الدعاء.

وفي الركعة الأخيرة من الصلاة كان رسول الله ﷺ أحياناً يضع خاصرته على الأرض ويخرج الرجل المعكوس إلى جانب الرجل اليمنى⁽⁵⁾، وكان يسلم عادة إلى الجانبين اليمنى واليسرى لإنهاء الصلاة⁽⁶⁾. وكان يقوم بهذه الأعمال كلها للصلاة بغاية من الطمأنينة والاعتدال وكان يلقي الناس بهذه الاعتدال والسكينة⁽⁷⁾.

أذكار الصلاة

وأذكار الصلاة هي كما يأتي:

يبدأ بالصلاة بـ «الله أكبر».

وفي حالة القيام يقرأ بسورة الفاتحة أولاً ثم ما تيسر من القرآن.

(1) البخاري رقم: ٨٢٨ وأبو داود ٧٣١.

(2) البخاري رقم: ٨٢٨ وأبو داود رقم الحديث: ٧٣٠ — ٧٣٤.

(3) مسلم رقم: ١٣٠٧ وأبو داود رقم: ٧٣٤.

(4) مسلم رقم الحديث: ١٣٠٩ — ١٣١١.

(5) البخاري رقم: ٨٢٨ وأبو داود رقم: ٧٣٠.

(6) مسلم رقم: ١٣١٥.

(7) البخاري رقم ٧٩٣ — ٦٦٦٧ ومسلم رقم: ١١١.

ويقول الله أكبر عند الركوع.

ويقول «سمع الله لمن حمده» حين الرفع من الركوع

ويقول الله أكبر عند السجدة ثم الرفع منها

ويقول الله أكبر في حالة القيام من القعدة.

ويقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته لالتهاء من الصلاة.

والإمام يقول «الله أكبر» و«سمع الله لمن حمده» و«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» جهراً أبداً. كما يقرأ في الركعتين الأوليين للمغرب والعشاء وصلوات الفجر والعيدین وصلاة الجمعة جهراً. وتكون القراءة سرّاً في الركعة الثالثة للمغرب وفي الركعتين الآخريتين للعشاء. وتكون القراءة سرّاً في كل الركعات الأربعة لصلوات الظهر والعصر.

فهذه الأذكار المقررة من قبل الشرع للصلاة. وهذه بالعربية وثبتت مثل الأعمال في الصلاة من الإجماع والتواتر العملي. وعلاوة على ذلك يقرأ المصلي في أية لغة شاء من التسبيح والتحميد والدعاء والمناجاة وما إليها من الأذكار. وما قاله النبي ﷺ وما روي عنه من مختارات في الأحاديث والآثار تأتي بها بترتيب.

في القيام

ففي الركعة الأولى كان رسول الله ﷺ يدعو دعاء أو يحمد ويشني على الله تعالى بعد التكبير وقبل القراءة. فعن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يسكت بين التكبير وبين القراءة إسكاته قال أحسبه قال. هنيئة. فقلت: بأبي وأمي يا رسول الله إسكاتك بين التكبير والقراءة ما تقول؟ قال أقول:

«اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب. اللهم

نقني من الخطايا كما ينقي الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسل خطاياي بالماء والثلج والبرد⁽¹⁾.

وقد روي عن علي عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا بدأ الصلاة كبر وقال: وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيئاً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين. اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي بأحسنها إلا أنت. واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك تباركت وتعاليت استغفرك وأتوب إليك⁽²⁾.

وروت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبدأ الصلاة بهذه الكلمات: «سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك»⁽³⁾.

وروت أم المؤمنين أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبدأ صلاته في الليل بهذا الدعاء: اللهم رب جبرئيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون. اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم⁽⁴⁾.

اللهم، لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن ولك الحمد. لك ملك السماوات والأرض ومن فيهن ولك الحمد. أنت نور المساوات والأرض ومن فيهن ولك الحمد. أنت الحق ووعدك الحق. ولقاؤك حق. وقولك حق. والجنة حق والنار حق. والنبئون حق ومحمد صلى الله عليه وسلم حق. والساعة حق. اللهم

(1) البخاري رقم الحديث: ٧٤٤.

(2) رواه مسلم رقم الحديث: ١٨١٢.

(3) رواه مسلم رقم: ١٨١٢.

(4) رواه مسلم رقم الحديث: ١٨١١.

لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت، وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله⁽¹⁾.

وقد نقلت أيضًا بعض أدعية وأذكار الاستفتاح الأخرى في الآثار والأحاديث. كما أنه نقل أيضًا أن بعض الكلمات الافتتاحية نطق بها البعض في بداية الأمر وحسنها النبي ﷺ وقال أنه فتحت لها أبواب السماء ورأيت أربعة عشر من الملائكة يتسابقون بها⁽²⁾.

٢ - ثم يبدأ قراءة الفاتحة بالحمد لله رب العالمين⁽³⁾. وقد قال النبي ﷺ لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب⁽⁴⁾.

وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله سبحانه حمدي عبدي وإذا قال العبد الرحمن الرحيم قال الله جل وعلا أثني علي عبدي إذا وقال العبد: مالك يوم الدين قال الله سبحانه: مجدي عبدي. وإذا قال العبد: إياك نعبد وإياك نستعين يقول الله تعالى هذا بيني وبين عبدي ولعبي ما سألت. وإذا قال العبد: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين يقول الله تعالى هذا لعبدي ولعبي ما سألت⁽⁵⁾.

أما قراءة القرآن بعد الفاتحة فكان يقرأ تارة قراءة طويلة وأحيانًا قراءة موجزة⁽⁶⁾. وكان يقول: إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها، فاسمع بكاء

(1) رواه البخاري رقم: ٦٣١٧-١١٢٠.

(2) رواه مسلم رقم الحديث: ١٣٥٧.

(3) رواه مسلم رقم: ١١١٠.

(4) رواه مسلم رقم: ٨٧٨.

(5) رواه مسلم رقم ٨٧٨.

(6) رواه أحمد رقم ١٣٢٨٩.

الصبي فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه^(١). وكان يقرأ القرآن بترتيل أن يتضح كل حرف منها^(٢). وكان يلقي الناس أن يتلوا القرآن بغناء وصوت جميل^(٣).

وتفيد الروايات أنه كان يستجيب بما تؤمر في قراءة القرآن فكان يسبح على حكم التسبيح ويسجد على آيات السجدة^(٤). كما كان يستعطف على آيات الرحمة^(٥). ويستعيذ بالله حين يمر بآيات العذاب وكان يقول آمين حين يجيء مضمون الدعاء^(٦). وقال: إذا قال الإمام غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين فإنه من وافق قوله الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه^(٧). وأريد بها هنا الذنوب التي لا تتصل بحقوق العباد أو التي لا تحتاج إلى توبة وتلافياً أو إلى كفارة.

فكان رسول الله ﷺ يدعو عمومًا في صلاة التهجد بعد القراءة في آخر الركعة وهي التي يقال لها دعاء القنوت^(٨). وقد علّم سيدنا حسن دعاءً خاصًا لذلك رويت في ألفاظ تالية:

«اللهم اهدني فيمن هديت وعافني فيمن عافيت وتولني فيمن توليت وبارك لي فيما أعطيت وقني شر ما قضيت، إنك تقضي ولا يقضى عليك، وإنه لا يذل من واليت تباركت ربنا وتعاليت^(٩)».

(١) رواه البخاري رقم الحديث: ٧٠٧.

(٢) رواه أحمد رقم الحديث: ٢٥٩٣١.

(٣) رواه البخاري رقم الحديث: ٧٤٨٢ والنسائي رقم: ١٠١٥.

(٤) رواه البخاري رقم: ١٠٦٧ — ١٠٧٤.

(٥) مسلم: ١٨١٤ — أبو داود: ٨٧١.

(٦) أبو داود رقم: ٩٣٦.

(٧) رواه البخاري رقم الحديث: ٧٨٢ ومسلم رقم الحديث: ٩١٥.

(٨) أبو داود رقم الحديث: ١٤٢٧.

(٩) رواه أبو داود رقم الحديث: ١٤٢٥.

في الركوع

وقد منع النبي ﷺ عن القراءة في حالة الركوع⁽¹⁾ وأرشدتهم أن يعظموا ربهم تعالى بدلاً من القراءة⁽²⁾. فكان نبي الله ﷺ بنفسه يسبح الرب يقوله: سبحان ربي العظيم⁽³⁾. وأحياناً يذكر الرب بذكر من الأذكار التالية. سبح قدوس رب الملائكة والروح⁽⁴⁾. سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي⁽⁵⁾.

اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت وعليك توكلت. وأنت ربي خشع سمعي وبصري ودمي ولحمي وعظمي وعصبي لله رب العالمين⁽⁶⁾.
سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة⁽⁷⁾.

في القومة

فإذا قام من الركوع يقول: سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد وتارة «ربنا ولك الحمد»، وأحياناً كان يقول «اللهم ربنا ولك الحمد»⁽⁸⁾. وقد جاء في بعض الروايات بعد ربنا لك الحمد زيادة هذه الألفاظ: ملء السماوات وملء الأرض وملء ما كنت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد⁽⁹⁾. وقد روي في ذلك أيضاً بعض الزيادة والنقصان⁽¹⁰⁾. كما أنه روي أيضاً

(1) مسلم رقم الحديث: ١٠٧٦.

(2) مسلم رقم: ١٠٧٤.

(3) مسلم رقم: ١٨١٤.

(4) مسلم رقم: ١٠١٩.

(5) البخاري رقم: ٧٩٤.

(6) رواه النسائي رقم: ١٠٥٢.

(7) رواه أبو داود رقم: ٨٧٣.

(8) البخاري رقم: ٧٨٩-٧٩٥.

(9) رواه مسلم رقم: ١٠٧١.

(10) أبو داود رقم: ٧٤.

أنه ﷺ دعا على قوم آخرين. وكان يدعو رافعاً يديه بصوت جهوري والناس خلفه يقولون آمين آمين⁽¹⁾.

وقد قال: إذا قال الإمام سمع الله لمن حمده فقولوا في جوابه «اللهم ربنا لك الحمد» فمن وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه⁽²⁾. أي الذنوب التي لا تتعلق بحقوق العباد أو التي لا تحتاج إلى توبة وتلافٍ أو كفارة. وقد قال رجل من الصحابة بعد ذلك: حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه فقال: والذي نفسي بيده لقد ابتدرها بضعة وثلاثون ملكاً أيهم يصعدونها⁽³⁾.

في السجدة

ونهى رسول الله ﷺ عن تلاوة القرآن في السجدة كالركوع⁽⁴⁾. وقال: إن أقرب ما يكون العيد من ربه في السجدة فأكثرُوا فيه الدعاء⁽⁵⁾. فنقل عنه قول: سبحان ربي الأعلى في السجدة⁽⁶⁾. وقد رويت بعض الأذكار الأخرى والأدعية أيضاً. وبعض منها كما يلي:

سبوح قدوس رب الملائكة والروح⁽⁷⁾.

سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي⁽⁸⁾.

اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين⁽⁹⁾.

(1) البخاري رقم: ٤٠٨٨، ١٠٢ وأبو داود رقم: ١٤٤٤٣ وأحمد رقم: ١١٩٩٤.

(2) البخاري رقم الحديث: ٧٩٦.

(3) رواه البخاري رقم الحديث ٧٩٩.

(4) مسلم رقم: ١٠٧٦.

(5) مسلم رقم: ١٠٧٨.

(6) رواه مسلم رقم: ١٨١٤ وأبو داود رقم: ٨٧١.

(7) مسلم رقم: ١٠٩١.

(8) البخاري رقم الحديث: ٧٩٤.

(9) مسلم رقم ١٨١٢.

وقد روي عنه عليه السلام هذه الأدعية في صلاة الليل:

سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت⁽¹⁾. اللهم اغفر لي ما أسررت وما أعلنت⁽²⁾.

اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، ومعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أمضي ثناء عليك. أنت كما أثنيت على نفسك⁽³⁾.

اللهم اجعل في قلبي نورًا وفي سمعي نورًا، وفي بصري نورًا، وعن يميني نورًا وعن شمالي نورًا وأمامي نورًا وخلفي نورًا، وفوقي نورًا وتحتي نورًا واجعلني نورًا⁽⁴⁾.

في الجلسة

ونقلت بعض الآثار والدعوات في الجلسة أيضًا فقل أنه كان يعيد ويكرر «رب اغفر لي» في حالة الجلسة⁽⁵⁾.

في القعدة

واختصت قعدة الصلاة للدعاء، فللمصلي أن يدعو فيها ما شاء من الأدعية وما روي في ذلك من عمل النبي عليه السلام فنصله فيما يلي:

وقال عبد الله ابن مسعود كنا مع النبي عليه السلام في الصلاة نقول: السلام على الله من عباد الله وعلى فلان وفلان فلما سمعه النبي عليه السلام قال: لا تقولوا هذا لأن الله هو السلام بل قولوا: التحيات لله والصلاة والطيبات السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين». إنك إذا قلتهم أصاب

(1) مسلم رقم الحديث: ١٠٨٩.

(2) النسائي رقم الحديث: ١١٢٥.

(3) مسلم رقم الحديث: ١٠٩٠.

(4) مسلم رقم ١٧٩٤.

(5) ابن ماجه رقم: ٨٩٧.

كل عبد في السماء أو أيما كان بين السماء والأرض وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ثم يخير من الدعاء ما شاء⁽¹⁾.

قال الترمذي: وفي الباب عن ابن عمر وجابر وأبي موسى وعائشة. وقد روي عن ابن عمرو عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عباس أيضاً⁽²⁾. وتقول الروايات إن النبي ﷺ كان يعلم هذا الدعاء صحابته باهتمام خاص⁽³⁾.

عن الحكم قال سمعت ابن أبي ليلى قال لقيني كعب بن عجرة فقال: ألا أهدي لك هدية. خرج علينا رسول الله ﷺ فقلنا: قد عرفنا كيف نسلم عليك فكيف نصلي عليك قال: قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد⁽⁴⁾.

ولهذا الدعاء أيضاً هناك اختلافات لفظية ولكن مضمونه في الجملة هو هذا الذي ذكر، والذي جاء من طريق عديدة. ثم جاء في رواية أن النبي ﷺ قال عن الصلاة عليه: من صلى علي مرة واحدة صلى الله عليه عشر مرات⁽⁵⁾.

وقد جاء ذلك الحكم صريحاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾⁽⁶⁾.

٣ - وقد لقن النبي ﷺ بعض الأدعية أو دعاها بنفسه. ومنها:

(1) رواه البخاري رقم الحديث: ٦٣٢٨.

(2) الموطأ: ٢٤٦، ٢٤٩ - البخاري رقم الحديث: ٨٣١ ومسلم رقم الحديث: ٨٩٧ وأبو داود رقم رقم ٩٧١ وابن أبي شيبة رقم الحديث: ٢٩٨٢.

(3) مسلم رقم الحديث: ٩٠٣.

(4) رواه مسلم رقم الحديث: ٩٠٨.

(5) رواه النسائي رقم الحديث: ١٢٩٧.

(6) سورة الأحزاب، الآية: ٥٦.

اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات ومن شر فتنة المسيح الدجال^(١).

اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم^(٢).

اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت ومن شر ما لم أعمل^(٣).

اللَّهُمَّ، بِعِلْمِكَ الْغَيْبِ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي. اللَّهُمَّ، وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الرِّضَاءِ وَالْغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقُطُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَاءَ بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَا بِرَبِّنَا الْإِيمَانَ وَاجْعَلْنَا هُدًى مُهْتَدِينَ^(٤).

اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ، عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ. وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ، عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ. وَأَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ. وَأَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَسْتَعِيذُكَ مِمَّا اسْتَعَاذَكَ مِنْهُ عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ مُحَمَّدٌ ﷺ. وَأَسْأَلُكَ مَا قَضَيْتَ لِي مِنْ أَمْرٍ أَنْ تَجْعَلَ عَاقِبَتَهُ رَشَدًا^(٥).

وروي عن علي ؓ أنه كان آخر ما دعاه النبي ﷺ في القعدة عموماً:

(١) رواه البخاري رقم الحديث: ١٦٧٧.

(٢) رواه البخاري رقم الحديث: ٨٣٤، ومسلم رقم الحديث ٦٨٦٩.

(٣) رواه مسلم رقم الحديث: ٦٩٩٥.

(٤) رواه النسائي رقم: ١٣٠٦.

(٥) رواه أحمد رقم: ٢٤٦١٣.

اَللّٰهُمَّ، اغْفِرْ لِيْ مَا قَدَّمْتُ وَمَا اَخَّرْتُ، وَمَا اَسْرَرْتُ وَمَا اَعْلَنْتُ، وَمَا اَسْرَفْتُ
وَمَا اَنْتَ اَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَاَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لَا اِلَهَ اِلَّا اَنْتَ (1).

وقال وائل رضي الله عنه انه كان يضيف أحياناً إذا سلم إلى اليمين بعد السلام
عليكم ورحمة الله وبركاته (2)

الأذكار بعد الصلاة

وحتى بعد الصلاة عادة كان النبي صلى الله عليه وسلم يشارك في الذكر والدعاء.

وهذا يشير إلى الذكر والدعاء كفرد وليس كإمام أن يقول له المقتدي
«آمين».

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه أنه قال كنت أعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد انتهى من
صلاته حين يقول «الله أكبر» (3).

وتروي عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجلس جلوساً يقول فيه هذا الذكر:

اَللّٰهُمَّ، اَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْاِكْرَامِ (4).

ويقول ثوبان رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم كان يستغفر ثلاثاً قبل هذا الذكر (5).

وروي عن مغيرة بن شعبة أنه صلى الله عليه وسلم كان يدعو هذا الدعاء:

لَا اِلَهَ اِلَّا اللّٰهُ وَحْدَهُ، لَا شَرِيْكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ

(1) رواه مسلم رقم: ١٨١٢.

(2) كما رواه أبو داود رقم: ٩٩٧ وأبو يعلى رقم: ٥٧٥٦ والطبراني في معجمه الأوسط رقم: ٥٧٦٨.

(3) رواه البخاري، رقم ٨٤٢. ومسلم، رقم ١٣١٦.

(4) رواه مسلم، رقم ١٣٣٥.

(5) رواه مسلم، رقم ١٣٣٤. والترمذي، رقم ٣٠٠.

شَيْءٍ قَدِيرٌ. اللَّهُمَّ، لَا مَانِعَ لِمَا أُعْطِيَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ⁽¹⁾.

ويقول عبد الله بن الزبير أن رسول الله حين يسلم من الصلاة كان يقول:

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ. لَهُ النِّعْمَةُ وَلَهُ الْفَضْلُ، وَلَهُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ⁽²⁾.

ويروى عن سعد رضي الله عنه أنه كان يعلم الصبيان هذه الكلمات ويقول إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستعيز بها الله دبر كل صلاة:

اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمَرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْقَبْرِ⁽³⁾.

يروي أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم علم فقراء المهاجرين أن يقولوا «سبحان الله» ٣٣ مرة، والحمد لله ٣٣ مرة، و«الله أكبر» ٣٣ مرة بعد كل صلاة⁽⁴⁾.

يقول أبو هريرة إنه إذا تم أكمال ٩٩ هذا إلى ١٠٠ بالكلمات التالية، فإن خطايا الإنسان تغفر، حتى ولو كانت مساوية لزبد البحر.

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ⁽⁵⁾.

(1) رواه البخاري، رقم ٦٣٣٠.

(2) رواه مسلم، رقم ١٣٤٣. والنسائي، رقم ١٣٣٩.

(3) رواه البخاري، رقم ٢٨٢٢، ٦٣٩٠.

(4) رواه البخاري، رقم ٨٤٣. ومسلم، رقم ١٣٤٧.

(5) رواه مسلم، رقم ١٣٥٢.

وفي إحدى روايات ابن عجرة جاء ذكر «سبحان الله» ٣٣ مرة و«الحمد لله» ٣٣ مرة والله أكبر ٣٤ مرة^(١).

ويروي زيد بن ثابت أن أنصاريًا قال للنبي ﷺ إنه لقنه رجل في المنام أن يقول «سبحان الله» ٢٥ مرة بدلًا من ٣٣ مرة، و«الحمد لله» ٢٥ مرة و«الله أكبر» ٢٥ مرة، و«لا إله إلا الله» ٢٥ مرة معه. قال: «فافعل هذا»^(٢).

أوقات الصلاة

الصلاة واجبة على كل مسلم خمس مرات في اليوم. وهذه الأوقات هي كما يلي:

الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء.

إذا تبين الخيط الأبيض للصباح من الخيط الأسود، فهذا يعني الفجر.

الظهر هو الوقت لزوال الشمس من نصف النهار.

وإذا جاءت الشمس أسفل من مرأى العين، فهو عصر.

ووقت غروب الشمس هو المغرب.

إذا انتهت حمرة الشفق، فهو العشاء.

ووقت صلاة الفجر حتى شروق الشمس، وصلاة الظهر إلى العصر وصلاة العصر إلى المغرب ووقت صلاة المغرب إلى العشاء ووقت العشاء حتى منتصف الليل. وبما أن الشمس كانت تعبد عند شروق الشمس وغروبها، فإن كلاً من هذين الوقتين محظوران للصلاة. وقد تم إثبات أوقات الصلاة هذه أيضًا بالإجماع والممارسة المستمرة. وقد ذكرنا أعلاه أن هذا كان دائمًا وقت الصلاة في دين الأنبياء ﷺ. وأشار إلى ذلك القرآن في مناسبات مختلفة فمثلاً قال:

(١) رواه مسلم، رقم ١٣٤٩.

(٢) أحمد، رقم ٢١٠٩٠، ٢١١٥٠.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ
السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾^(١).

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ
كَانَ مَشْهُودًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا
مَّحْمُودًا﴾^(٢).

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ
وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾^(٣).

﴿فَسَبِّحْنَا اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾^(٤).

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ
وَأَدْبَرَ الشُّجُودِ﴾^(٥).

وفيما يلي تفاصيل الهداية المكتسبة من علم النبي ﷺ وممارسته في هذا

الباب:

١ عن عائشة رضي الله عنها قالت:

لقد كان رسول الله ﷺ يُصَلِّي الفجر، فيشهد معه نساء من المؤمنات،
مُتَلَفَّعَاتٍ بِمُرُوطِهِنَّ، ثم يرجعن إلى بيوتهن ما يعرفهن أحد من الغلس^(٦).

(١) سورة هود، الآية: ١١٤.

(٢) سورة الإسراء، الآيتان: ٧٨ و٧٩.

(٣) سورة طه، الآية: ١٣٠.

(٤) سورة الروم، الآيتان: ١٧ و١٨.

(٥) سورة ق، الآيتان: ٣٩ و٤٠.

(٦) البخاري، رقم ٥٧٨. مسلم، رقم ١٤٥٨.

٢ وقد نهى عن صلاة في الظهيرة فعن أبي هريرة، قال: قال نبي الله ﷺ: «أبردوا بالصلاة، فإن حر الظهيرة من فيح جهنم»^(١).

٣ وكان رسول الله ﷺ يصلي العصر والشمس مرتفعة حية، فيذهب الذهاب إلى العوالي، فيأتيهم والشمس مرتفعة^(٢).

٤ وكان يعجل في المغرب ويحب التأخير في العشاء وكان لا يحب النوم قبل العشاء والسمر بعده^(٣).

٥ وإذا أدرك الركوع قبل انقضاء وقت الصلاة فعليه إتمامه فقال «من أدرك الركوع فقد أدرك الركعة» كما قال أيضًا من أدرك ركعة من الفجر قبل طلوع الشمس وأدرك ركعة من العصر قبل غروبها فقد أدرك صلاته^(٤).

وفي صحيح مسلم من حديث أبي قتادة رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - ليس في النوم تفريط، إنما التفريط على من يترك الصلاة حتى يدخل وقت التي تليها. فمن نسي أحدكم الصلاة أو نام عنها فعليه أن يصليها إذا استيقظ^(٥).

٦ وقد نهى عن الصلاة في الأوقات الممنوعة نهياً كبيراً فقال: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«لَا صَلَاةَ بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ، وَلَا صَلَاةَ بَعْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ»^(٦).

٧ وإذا أخرج حاكم مسلم في الصلاة فقد أمر النبي ﷺ أن يصلي الناس بأنفسهم ثم يجتمعوا معه في الجماعة^(٧).

(١) البخاري، رقم ٥٣٣. مسلم، رقم ١٣٩٧.

(٢) البخاري، رقم ٥٥٠. مسلم، رقم ١٤٠٨.

(٣) أبو داود، رقم ٤١٧، ٤١٨، ٤٢٢. الترمذي، رقم ١٦٧. البخاري، رقم ٧٧١.

(٤) البخاري، رقم ٥٧٩. مسلم، رقم ١٣٧٤.

(٥) البخاري، رقم ٥٩٧. مسلم، رقم ١٥٦٢، ١٥٦٦. النسائي، رقم ٦١٦.

(٦) البخاري، رقم ٥٨٦. مسلم، رقم ١٩٢١.

(٧) مسلم، رقم ١٤٦٥.

وأوقات الصلاة هذه، إذا نظرت إليها، مناسبةٌ جدًا للعبادة على حد تعبير الأستاذ الإمام، مواتية لقبول الصلاة، مريحة لعقل المؤمن، متوافقة لأوقات عناصر الكون للتسييح والتهليل، كما أنها متوافقة مع أوقات الشمس والقمر والشجر والحجر في ركوعها وسجودها. وهو يكتب:

«الفجر هو وقت خاص لراحة البال وسكينة القلب. عندما يستيقظ الرجل بعد الراحة في الليل يكون قلبه راضيًا تمامًا. وتبدأ حركة جديدة للعبادة، وتتطلب الحياة تصميمًا جديدًا، وهذا التصميم الجديد يتطلب مساعدة جديدة وإرشادًا جديدًا من الله، ووقت الظهر يعلن حقيقة أخرى. إذا كان الرجل ذا بصر، فعندئذ تُرى له حقيقة أخرى وتدعو الرجل أيضًا إلى الركوع والسجود. وهذا هو أن الشمس في ذلك الوقت، والتي قد أعطاهما الجهلاء مكانة إله يعبد، تركع بنفسها لخالقها وتعلن هكذا بعملها أنها ليست خالقًا بل مخلوق وليست معبودًا بل عابد.

ويبشر وقت العصر بواقع جديد أن هناك الانحطاط لكل نهضة، والشيخوخة لكل شباب، والجزر لكل مد. ولا شيء في الكون مستثنى من هذا القانون، هناك ذات واحدة فقط تدوم إلى الأبد، لا يوجد بقاء لأحد سواه. فكما أشرق النهار وحن ظهره والآن يقف النهار على حافة غروب الشمس، فكذلك ولد هذا العالم أيضًا ووصل إلى الشباب، وفي يوم من الأيام سيقرب من النهاية. ففي وقت العصر هذا التذكير الصامت يستفز العبد ليتذكر الآخرة وأن يسجد لربه للتوبة والاستغفار.

وأما في المغرب فتدخل الحياة بابًا جديدًا حينه. هذه البوابة تشبه باب الموت بعد الحياة والبرزخ بعد الحياة. فيقوم مصرف الكون بإظهار آية الليل بعد آية النهار، وبضوء القمر بعد سطوع الشمس. وتصبح فوضى النهار وهله باردًا وتزين حفلة النجوم في السماء، وتقل الحرارة والحر ومرارة ضجيج النهار ويشعر رجل النهار المتعب بحالة جديدة سارة في الترانيم الباردة في الليل. قد

لا يشعر الأشخاص غير الحساسين والأغبياء بمثل هذا الانعكاس الكبير للكون. ولكن الذي عنده حس وشعور كيف يمر بهذا كله وهو لا يهتز به؟

ثم كيف يمكن لرجل أن يشهد مثل هذه القوة والحكمة العظيمة، وأن يظل غير مهتم تمامًا ويبقى غير مباليٍ للتقدير والحكيم اللذي أظهر هذه القوة والحكمة؟ إذا كان هناك أي شعور بالحياة في قلبه، فسوف يتنبه ويتواضع في هذه المناسبة ويخضع رأسه أمام خالقه وسيده، الذي تبلغ قوته لدرجة أنه أخفى العالم كله في دياجير الليل في آن واحد.

ووقت العشاء هو وقت المساءلة والاحتساب. كما أن ظلام الليل يزيل آخر علامات الحركة والعمل. ويتطلب الرجل السلام والراحة من خلال الابتعاد عن كل شيء حتى يتمكن من الانتعاش للرحلة إلى الوجهة القادمة ثانيًا. فهذه الساعة مناسبة جدًا للإنسان للمثول أمام ربه مرة واحدة قبل الذهاب إلى الفراش. فربما تكون هذه هي الفرصة الأخيرة وبعد نوم اليوم لن يتمكن من اليقظة⁽¹⁾.

ركعات الصلاة

والركعات المقررة في الشريعة للصلاة هي:

الفجر: ركعتان

الظهر: أربع ركعات

العصر: أربع ركعات

المغرب: ثلاث ركعات

العشاء: أربع ركعات

هذه هي ركعات الصلاة المفروضة، والتي ستؤدي إلى الاتهام في يوم القيامة بسبب تركها. لذلك إلا في الحالات التي يسمح فيها القصر، يجب أن

(1) تركية النفس ص ٢٤٢ .

تصلى هذه الركعات. وعلاوةً عليها فإن جميع الصلوات الأخرى هي نافلة يُثاب من صلاحها، لكن لا توجد إمكانية لأي اتهام من الله تعالى على تركها.

الرخصة في الصلاة

إذا دخل وقت الصلاة في حالة خطر فقد سمح الله أن تقدم الصلاة قدر الإمكان راجلاً أو راكباً. وفي هذا بالطبع لا تكون هناك جماعة، ولا يتم الحفاظ على تقييد القبلة، وفي بعض الحالات لا يتم أداء الصلاة بالطريقة المنصوص عليها لذلك. قال تعالى:

﴿إِنْ خِفْتُمْ فِرَاجًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾⁽¹⁾.

وإذا حدث مثل هذا الموقف في رحلة، فينص القرآن أيضاً على أنه يمكن للناس أيضاً قصر الصلاة. وفي المصطلح، يشار إليه باسم «قصر». وقد وضع النبي ﷺ سنة له أن تصلى صلاة ذات أربع ركعات ركعتين فقط. ولا يكون هناك قصر في صلاة ذات ركعتين أو ثلاث ركعات. لذلك، سيتم أيضاً تأدية صلاة الفجر والمغرب في مثل هذه المواقع. والسبب في ذلك هو أن الفجر هو بالفعل ركعتان والمغرب هو وتر اليوم، فلا يمكن تغيير وضعهما.

وقد ذكر الله في سورة النساء ذلك بهذه الكلمات:

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا أَعْدَاؤُكُمْ مُبِينًا﴾⁽²⁾.

وهذه الرخصة في قصر الصلاة أو في أداء الصلاة راكباً أو ماشياً قد جاءت هنا بلفظ «إن خفتهم» ويعلم من الأحاديث والآثار أن النبي ﷺ قد قاس عليه

(1) سورة البقرة، الآية: ٢٣٩.

(2) سورة النساء، الآية: ١٠١.

الفرع والهلح وفوضى الأسفار عامة لزمانه فقصر في كل ذلك. كما أنه قد صلى الصلاة النافلة وهو يركب ناقته كي لا تتجشم القافلة من وقف السفر⁽¹⁾.

وَعَنْ يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ قَالَ قُلْتُ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَقَدْ أَمِنَ النَّاسُ! فَقَالَ عَجِبْتُ مِمَّا عَجِبْتَ مِنْهُ، فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْهُ، فَقَالَ: ذَلِكَ صَدَقَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ، فَأَقْبِلُوا صَدَقَتَهُ⁽²⁾.

وجوابه يفيد أن الله قد صوب استنباطه ذلك. وأستنبط من قصر الصلاة تخفيف في أوقات الصلاة أيضًا فجمع في أسفاره عمومًا بين الصلاتين بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء كما جاء عن معاذ بن جبل عن غزوة تبوك:

فعن معاذ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فكان يصلي الظهر والعصر جميعًا، والمغرب والعشاء جميعًا⁽³⁾.

وينطبق الشيء نفسه على الحج. ففيه بما أن الحرب ضد الشيطان تمثل بلغة الرموز، لذلك من خلال متطلبات التمثيل، فقد أقام السنة أنه سواء أقام الناس أو سافروا، فسوف يجمعون في منى ويجمعون ويقصرون في المزدلفة والعرفات.

وهناك تلميح لهذا الاستنباط في القرآن نفسه. ففي الآية التي ينتهي بها هذا الحكم في سورة النساء، تتطلب الكلمات «إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا»، وفقًا للغة العربية أن تحذف هناك قبل هذه الكلمات جملة من مثل «واتبع الوقت» أو ما شابهها. ويتضح من ذلك تبعًا أنه بعد إذن القصر من الممكن أيضًا أن يخفف الناس في وقت الصلاة مع الركعات. لذلك تم التوجيه

(1) رواه البخاري رقم ١١٠٤ ومسلم رقم ١٦١٩.

(2) رواه مسلم رقم ١٥٧٣ — ١٥٧٤.

(3) رواه مسلم رقم ١٦٣١ — وأبو داود رقم ١٢٢٠.

أنه عندما تكونون في حالة اطمئنان وراحة فصلوا الصلاة بأكملها ولوقتها لأن الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا.

كانت إحدى الصعوبات في حياة النبي ﷺ أنه إذا أقيمت صلاة في ساحة المعركة وفي قيادة النبي الكريم. كانت رغبة كل جندي أن يصلي خلفه. كانت هذه الرغبة رغبة طبيعية، ولكن كان من الضروري أيضًا تنظيم الدفاع. ومن الحلول لهذه المشكلة أن النبي ﷺ يصلي بنفسه أربع ركعات، ويقسم أهل الجيش إلى صفين ويجتمعون معه في ركعتين ركعتين وقد اتخذ النبي ﷺ هذه الطريقة على بعض المواقف⁽¹⁾.

ومع ذلك، نظرًا للصعوبة التي قد تسببها للنبي ﷺ، اقترح القرآن أن يصلي كل من الإمام والمقتدي صلاة القصر، وأن ينضم إليه صفان من الجيش واحدًا تلو الآخر في نصف الصلاة ويؤديان نصف الصلاة بمفردهما. لذلك يجب على صف واحد، بعد سجود الركعة الأولى أن يتراجع ويهتم بالحماية والإشراف، والجزء الآخر الذي لم يصل بعد يجب أن يتبعه وينضم إلى الركعة الثانية. قال:

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾⁽²⁾.

وتفديد الروايات والآثار أنه وفقًا لهذا الأمر تم اعتماد طرق مختلفة وفقًا

(1) مسلم رقم ١٩٥٠.

(2) سورة النساء، الآيتان: ١٠٢ و ١٠٣.

للظروف في الركعة التي كان على الجيش القيام بها بمفرده. فحدث أن توقف النبي ﷺ وانسحب الناس بعد الانتهاء من الصلاة⁽¹⁾، ووقع كذلك أن الناس قد أكملوا صلاتهم بعد ذلك⁽²⁾.

ولم تعد هناك حاجة لتفصيل ذلك. وذلك لأن علاقة هذا التكتيك كما يتضح من فقرة «وإذا كنت فيهم» في الآية، هي علاقة خاصة بتواجد النبي ﷺ بين أظهرهم.

وبعده، لا يمكن أن تكون الرغبة في إمام واحد شديدة كتلك ولا هي مهمة جداً. فإذا كانت هناك فرصة لإقامة جماعة، يمكن للناس الآن الصلاة بسهولة كبيرة في اقتداء أئمة مختلفين.

جماعة الصلاة

على الرغم من أنه يمكن تقديم الصلاة بمفردها، إلا أنه كانت دائماً سنة في دين الأنبياء ﷺ أنه يجب تقديمها مع المصلين وإذا أمكن، في معبد لغرض الجماعة. ولما بلغ النبي ﷺ يثرب فبنى المسجد لهذا الغرض قبل كل شيء، وأنشئ معه تقليد بناء المساجد في كل مدينة مسلمة وكل حي. فيمكن الآن رؤية هذه المساجد في كل مكان في العالم. ولا يوجد شكل محدد منصوص عليه في الدين لبنائها. ومع ذلك قد أبقى المسلمون وضع تعمير المساجد متعيناً على أقل حد مع بعض الاختلافات البنائية الجزئية.

وفي حياة النبي ﷺ عندما كان الأذان للصلاة يقال لكي يصلي المسلمون في إمامته، كان ضرورياً لجميع أولئك الذين يمكن أن يبلغوا في المسجد أن يبلغوه. ثم عندما اتخذت خطوات مختلفة لفصل المنافقين عن المسلمين بمناسبة تطهيرهم منهم وفقاً لشرعة الله في إتمام الحجة، وقع أن طلب شخص

(1) البخاري رقم ٤١٢٩ ومسلم رقم ١٩٤٧.

(2) البخاري رقم ٩٤٢ ومسلم رقم ١٩٤٢.

أعمى إجازة لعدم حضور المسجد. أجاب بالإيجاب أولاً ثم سأله هل يبغلك الأذان قال: نعم فقال «فعليك أن تأتي المسجد».

فروي أنه أتى النبي ﷺ رَجُلٌ أَعْمَى فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْسَ لِي قَائِدٌ يَقُودُنِي إِلَى الْمَسْجِدِ، فَسَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُرَخِّصَ لَهُ فَيُصَلِّيَ فِي بَيْتِهِ، فَرَخَّصَ لَهُ، فَلَمَّا وَلَّى دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ:

فَأَجِبْ.. قَالَ: نَعَمْ، قَالَ هَلْ تَسْمَعُ النِّدَاءَ بِالصَّلَاةِ⁽¹⁾؟

وقال النبي ﷺ مهدياً بهذه المناسبة: أولئك الذين لا يأتون للصلاة، أريد أن أحرق منازلهم وألقيها عليهم⁽²⁾. ذكر ابن مسعود رضي الله عنه أنه حتى المرضى كانوا يحضرون الجماعة بمساعدة رجلين في ذلك الوقت⁽³⁾. وبعد النبي ﷺ، لم يكن هذا الشكل من الأمر باقياً بالطبع ولكن الحضور إلى المسجد وصلاة الجماعة لا يزال من الفضائل العظيمة. لذلك لا ينبغي أن يحرم مسلم منه دون أي عذر.

ننقل هنا بعض ما جاء عن النبي ﷺ في هذا الباب:

عن ابن عمر رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةِ الْفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً⁽⁴⁾.

فقد أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا، ولو يعلمون ما في التهجير، لاستبقوا إليه، ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوا»⁽⁵⁾.

عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قَالَ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صلى

(1) رواه مسلم. رقم ١٤٨٤.

(2) البخاري رقم ٦٤٤ ومسلم رقم ١٤٨١.

(3) مسلم رقم ١٤٨٨.

(4) البخاري رقم ٦٤٥ ومسلم رقم ١٤٧٧.

(5) البخاري رقم ٦٥٣ — ٦٥٤ ومسلم رقم ٩٨١.

العشاء في جماعة، فكأنما قام نصف الليل ومن صلى الصبح في جماعة، فكأنما صلى الليل كله»⁽¹⁾

ومع ذلك فإن النساء معفيات من هذا الحكم. ففي أمرهن السنة هي أنه يمكنهن القدوم إلى المسجد للصلاة ولكن إن لم يأتين فلا حرج في ذلك. قال النبي ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله من مساجد الله، ولكن ليخرجن وهن ثفلات»⁽²⁾.

بيوتهن هي أنسب لهذا الغرض. وفهم منه البعض أن إقامة الجماعة الطريقة الشرعية المقررة لإقامة الجماعة هي كما يلي:

١ - سيتم التأذين بالأذان قبل الصلاة حتى يتمكن الناس من الاستماع إليها والانضمام إلى المصلين. والكلمات التي عينها النبي ﷺ للأذان هي كما يلي:

اللَّهُ أَكْبَرُ؛ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؛ حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ؛ حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ؛ اللَّهُ أَكْبَرُ؛ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

٢ - إذا كان هناك مقتدٍ واحد فقط، فيقف مع الإمام عن يمينه، وإذا كان هناك أكثر، فيكون الإمام في الوسط، ويقفون خلفه على التوالي.

٣ - تقال كلمات الإقامة للوقوف للصلاة. وفي هذا تتكرر كلمات الأذان. بفرق أن الشخص الذي يقول الإقامة يقول أيضًا «قد قامت الصلاة» بعد حيّ على الفلاح.

ويتم تكرار كلام الأذان أكثر من مرة لهذا الغرض.

ويمكن أيضًا تكرار كلمات الإقامة بنفس الطريقة إذا لزم الأمر.

وقد تم إثبات هذه الطريقة في إقامة الجماعة بالإجماع والتواتر العملي. ونأتي هنا بتفاصيلها التي وردت في الأحاديث والروايات بترتيب:

(1) رواه مسلم رقم ١٤٩١.

(2) البخاري رقم ٨٦٥ - ٨٧٣ ومسلم رقم ٩٩٠ وابن خزيمة رقم ١٦٨٣.

الأذان

ففي رؤيا الصحابة عن بداية الأذان الذي بمقتضاه قد أمر النبي ﷺ الناس بالتأذين والإقامة، تتكرر فيها كلمات الأذان بهذه الطريقة:

اَللّٰهُ اَكْبَرُ، اَللّٰهُ اَكْبَرُ، اَللّٰهُ اَكْبَرُ؛ اَشْهَدُ اَنْ لَا اِلهَ اِلَّا اللّٰهُ، اَشْهَدُ اَنْ لَا اِلهَ اِلَّا اللّٰهُ؛ اَشْهَدُ اَنَّ مُحَمَّدًا رَّسُوْلُ اللّٰهِ، اَشْهَدُ اَنَّ مُحَمَّدًا رَّسُوْلُ اللّٰهِ؛ حَيَّ عَلَى الصَّلٰوةِ، حَيَّ عَلَى الصَّلٰوةِ؛ حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ؛ اَللّٰهُ اَكْبَرُ، اَللّٰهُ اَكْبَرُ؛ لَا اِلهَ اِلَّا اللّٰهُ⁽¹⁾.

ولذا روي أن كلمات الأذان كانت تكرر مرتين مرتين في العصر الرسالي في عامة الأحوال⁽²⁾.

ويقول أبو محذورة إن رسول الله علمه كلمات الأذان فقال: تقول:

اَللّٰهُ اَكْبَرُ، اَللّٰهُ اَكْبَرُ، اَللّٰهُ اَكْبَرُ؛ اَشْهَدُ اَنْ لَا اِلهَ اِلَّا اللّٰهُ، اَشْهَدُ اَنْ لَا اِلهَ اِلَّا اللّٰهُ؛ اَشْهَدُ اَنَّ مُحَمَّدًا رَّسُوْلُ اللّٰهِ، اَشْهَدُ اَنَّ مُحَمَّدًا رَّسُوْلُ اللّٰهِ، اَشْهَدُ اَنَّ مُحَمَّدًا رَّسُوْلُ اللّٰهِ. ثم تعيدها، اَشْهَدُ اَنْ لَا اِلهَ اِلَّا اللّٰهُ؛ اَشْهَدُ اَنْ لَا اِلهَ اِلَّا اللّٰهُ؛ اَشْهَدُ اَنَّ مُحَمَّدًا رَّسُوْلُ اللّٰهِ، اَشْهَدُ اَنَّ مُحَمَّدًا رَّسُوْلُ اللّٰهِ» وتقول بعد ذلك: «حَيَّ عَلَى الصَّلٰوةِ، حَيَّ عَلَى الصَّلٰوةِ؛ حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ؛ اَللّٰهُ اَكْبَرُ، اَللّٰهُ اَكْبَرُ؛ لَا اِلهَ اِلَّا اللّٰهُ⁽³⁾.
وعنه أن النبي ﷺ علمني أن أقول: اَشْهَدُ اَنْ لَا اِلهَ اِلَّا اللّٰهُ؛ اَشْهَدُ اَنَّ مُحَمَّدًا رَّسُوْلُ اللّٰهِ مرتين منخفضاً صوتي، وأن اكرره مرتين بصوت رفيع وأمرني أيضاً أن أقول بعد

حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ؛ الصلاة خير من النوم مرتين⁽⁴⁾.

(1) أبو داود رقم: ٤٩٩.

(2) البخاري رقم ٦٠٥ ومسلم رقم ٨٣٨.

(3) أبو داود رقم ٥٠٣.

(4) أبو داود رقم ٥٠٠ وابن ماجه رقم ٧١٦ والنسائي رقم ٦٣٣.

ووفقاً للأحاديث، إذا أمطرت أو كان البرد شديداً كان النبي ﷺ يقول لمؤذنه أن يعلن لصلاة الليل: «ألا صلوا في الرحال»⁽¹⁾.

كما روي أن بلالاً ؓ كان يضع أصابعه في أذنيه أثناء الأذان ويدير وجهه يميناً ويساراً لرفع الصوت ونشره في كل مكان⁽²⁾.

قال عثمان بن أبي العاص: سألت النبي ﷺ الإذن بإمامة الصلاة، فقال: «تعين مؤذناً من لا يتقاضى أجراً على الأذان»⁽³⁾.

واستجابة للأذان قد حث النبي ﷺ على ترديد كلام المؤذن والصلاة والسلام عليه، فروى البخاري عن جابر بن عبد الله ؓ، أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ التَّامَّةُ، وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ آتٍ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتُهُ، (وأرجو أن أكون صاحب المقام المحمود) حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»⁽⁴⁾.

وفي رواية لعمر أن النبي ﷺ أمر بأن يقول المستمع للنداء بعد حيٍّ على الصلاة؛ وحيٍّ على الفلاح، لا حول ولا قوة إلا بالله» وقال من أجاب النداء وصدق له قلبه بشر له الجنة»⁽⁵⁾.

ورويت عنه كلمات مختلفة للدعاء بعد الأذان ومنها:

١ - اللَّهُمَّ، رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ التَّامَّةُ وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ، آتٍ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتُهُ⁽⁶⁾.

(1) البخاري رقم ٦٣٢ ومسلم رقم ١٦٠٠.

(2) البخاري ٦٤٣ والترمذي رقم ١٩٧.

(3) أبو داود رقم ٥٣١.

(4) البخاري رقم ٦١٤.

(5) مسلم رقم ١٩٦.

(6) البخاري رقم ٦١٤.

٢ - أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ،
رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا^(١).

وعن الدعاء الأول، قال: إن من اهتم به يستحق شفاعتي، [١٩٩] وعن
الكلمة الثانية قال: إن ذنوبه تغفر له^(٢).

الإقامة

وكانت كلمات الإقامة تقال عمومًا مرة واحدة^(٣)، رويت لها كلماتها كما
يلي:

اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؛ حَيَّ
عَلَى الصَّلَاةِ؛ حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ؛ قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة، اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ
أَكْبَرُ؛ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ^(٤).

ويقول أبو محذورة أن رسول الله قد علمه الإقامة بسبع عشرة كلمة:

اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ؛ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا
إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ،

حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ؛ حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ؛
قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة، اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ؛ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ^(٥).

(١) مسلم رقم ٨٥١.

(٢) مسلم رقم ٨٥١ أي الذنوب التي لا تمت بصلة إلى حقوق العباد ولا تحتاج إلى توبة أو
كفارة.

(٣) البخاري رقم ٦٠٥ ومسلم رقم ٨٣٨.

(٤) أبو داود رقم ٤٩٩.

(٥) أبو داود رقم ٥٠٢.

الإمام

والصلاة تقام خلف كل مسلم بر وفاجر، ولكن يجب أن يتم انتخاب الإمام في ضوء ترشيد النبي ﷺ:

فعن أبي سعيد الخدري مرفوعاً «إذا كانوا ثلاثة فليؤمهم أحدهم، وأحقهم بالإمامة أقرؤهم» والمراد بالأقرأ الأكثر حفظاً للقرآن، لما جاء في حديث عمرو بن سلمة «ليؤمكم أكثركم قرآنًا» وفي رواية أخرى لمسلم وغيره عن ابن مسعود مرفوعاً «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سنًا، ولا يؤمّن الرجل الرجل في سلطانه، ولا يقعد في بيته على تكرمته إلا بإذنه» وفي رواية «لا يؤمّن الرجل الرجل في أهله ولا سلطانه»⁽¹⁾.

والسنة في حق الإمام أن يخفف في الصلاة اعتمادًا على حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إذا أمّ أحدكم الناس فليخفف، فإن فيهم الصغير والكبير والضعيف والمريض فإذا صلى وحده فليصل كيف شاء) رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن⁽²⁾. وعن أنس بن مالك أنه قال:

ما صليت وراء إمام قط أخف صلاة ولا أتم من صلاة النبي ﷺ، وإن كان ليسمع بكاء الصبي، فيخفف؛ مخافة أن تُفتن أمّه»⁽³⁾.

وعلى الإمام الاهتمام بتسوية الصفوف اهتمامًا خاصًا فيقول النعمان بن بشير: إن النبي ﷺ كان يسوي صفوفنا كأنه يسويها بقوس»⁽⁴⁾.

(1) مسلم رقم: ١٥٣٢.

(2) البخاري رقم ٧٠٣ ومسلم رقم ١٠٤٦.

(3) البخاري رقم ٧٠٩ ومسلم رقم ١٠٥٦.

(4) مسلم رقم ٩٧٩.

وقد أمر النبي ﷺ أولئك الذين يقفون وراء الإمام ألا يحاولوا تجاوز إمامهم بل أن يقولوا التكبير وراء تكبيره وأن يقولوا بعد قوله «سمع الله لمن حمده» «ربنا ولك الحمد» وأن يتبعوه في كل خفضه ورفعته في الصلاة⁽¹⁾.

وعن أنس قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، فلما قضى الصلاة أقبل علينا بوجهه، فقال: «أيها الناس، إني إمامكم، فلا تسبقوني بالركوع ولا بالسجود، ولا بالقيام ولا بالانصراف»⁽²⁾.

وكذلك تم التأكيد على أن صفوف الصلاة يجب أن تبقى مسوأة مستقيمة⁽³⁾. ويجب أن تكون الأكتاف متساوية، ويجب ألا يكون هناك اضطراب وخلل في الوسط، ويجب أن يقف الناس متراسين مع بعضهم البعض⁽⁴⁾. يتقدم البالغون أولاً ثم الأصغر فالأصغر⁽⁵⁾.

كما يجب إكمال الصف الأول أولاً يليه الثاني ثم الثالث⁽⁶⁾. والحفاظ على تسوية الصفوف ما تتقاضاه إقامة الصلاة⁽⁷⁾.

وقال النبي ﷺ ما معناه: أيها الناس، كونوا رحماء بينكم ولا تتركوا أماكن للشيطان في الصفوف، واذكروا أن من وصل وصله الله ومن قطع قطعه الله⁽⁸⁾.

(1) البخاري رقم ٧٣٣ ومسلم رقم ٩٢١.

(2) مسلم رقم ٩٦١.

(3) البخاري رقم ٧١٧ ومسلم رقم ٩٧٨.

(4) أبو داود رقم ٦٦٦.

(5) مسلم رقم ٩٧٢.

(6) أحمد رقم ١٣٠٢٧.

(7) البخاري رقم ٧٢٣ ومسلم رقم ٩٧٥.

(8) أبو داود رقم ٦٦٦.

وقال: اصطفوا كما تصطف الملائكة إنهم يقومون أمام الرب مجتمعين ويكملون الصف الأول فالأول⁽¹⁾.

نعم الصف الأول أفضل؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا يعني: لاقتنعوا، فله فضل عظيم⁽²⁾.

ومع ذلك، إذا تأخر أحد في أي وقت، فيجب على الشخص أن يأتي بسكينة ووقار وكرامة ويصلي بقدر ما أدرك من الصلاة ويكمل الباقي بنفسه⁽³⁾. ويجب أن تتم المحاذاة وتسوية الصفوف عند وصول الإمام⁽⁴⁾. وإذا كانت هناك امرأة واحدة فقط في صف النساء، فيمكنها أيضًا الوقوف بمفردها. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «صلى النبي ﷺ في بيت أم سليم، فقمت ویتيم خلفه وأم سليم خلفنا»⁽⁵⁾.

المساجد

بيت الحرم هو أقدم مسجد في العالم. بناه إبراهيم عليه السلام. وأسس مسجد القدس (المسجد الأقصى) سيدنا داود وأكملاه سليمان عليه السلام ولذا يقال له المعبد السليمانى أيضًا. وبنى مسجد يثرب آخر نبي الله محمد ﷺ. فهذه المساجد الثلاثة لها مكانة خاصة كبيرة. قال النبي ﷺ: «هذه المساجد الثلاثة التي يمكن شد الرحال إليها للزيارة والصلاة»⁽⁶⁾. وللصلاة فيها فضيلة عظيمة.

فعن النبي ﷺ قال: (صلاة في مسجدِي هذا أفضل من ألف صلاةٍ فيما

(1) مسلم رقم ٩٦٨.

(2) البخاري رقم ٦١٥ ومسلم رقم ٩٨١.

(3) البخاري رقم ٦٣٦ ومسلم رقم ١٣٥٩.

(4) البخاري رقم ٦٣٧ ومسلم رقم ١٣٦٥.

(5) رواه البخاري، كتاب الأذان باب صلاة النساء خلف الرجال رقم الحديث: ٨٧١ ومسلم رقم ١٤٩٩.

(6) البخاري رقم ١١٩٧ ومسلم رقم ٣٣٨٢.

سِوَاهُ مِنَ الْمَسَاجِدِ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَصَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةٍ فِي مَسْجِدِي هَذَا بِمِائَةِ صَلَاةٍ^(١).

وما عداها من المساجد التي تم بناؤها في العالم أو سيتم بناؤها في المستقبل، فإن مكانتها متساوية تمامًا. ولا يتم بناء المساجد لغرض البيع والشراء والمعارض والترفيه ولكن لعبادة الله وحده. وهي من أحب المباني لله على وجه الأرض^(٢). والجلوس فيها وانتظار الصلاة هو أيضًا صلاة^(٣). وكلما جاء الناس للعبادة فيها من بعد زادت مكافأتهم بقدر ذلك^(٤).

تحية المسجد

ومن أدب دخول المساجد أنه يجب على المرء أن يصلي ركعتين بعد المجيء في المسجد إذا لم يكن هناك عذر ثم يجلس فيه. وقد جاء ذلك بتوكيد كبير في الأحاديث والآثار^(٥). وقد جاء أيضًا أنه ﷺ كان إذا دخل المسجد تعوذ بالله بالفاظ تالية:

أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ^(٦).

كما روي أيضًا أنه قال: إذا دخل أحدكم المسجد فليقل: اَللّٰهُمَّ، افْتَحْ لِيْ اَبْوَابَ رَحْمَتِكَ. وإذا خرج فليقل: اَللّٰهُمَّ، اِنِّيْ اَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ^(٧).

(١) البخاري رقم ١١٩٠ ومسلم رقم ٣٣٧٤ وابن ماجه رقم ١٤٠٦.

(٢) مسلم رقم ١٥٢٨.

(٣) البخاري رقم ٦٤٧.

(٤) البخاري رقم ٦٥١ ومسلم رقم ١٥١٣—١٥١٨.

(٥) البخاري رقم ٤٤٤ ومسلم رقم ١٦٥٤.

(٦) أبو داود رقم ٤٦٦.

(٧) مسلم رقم: ١٦٥٢.

السهو في الصلاة

إذا كان هناك خطأ في الأعمال المنصوص عليها في الشريعة للصلاة، أو إذا كان هناك شك في صدور خطأ، فقد ثبت هذه السنة أنه إذا كان من الممكن التعويض عن الخطأ فبعد التعويض وإذا لم يكن ممكناً فغيره، يجب القيام بسجدين في نهاية الصلاة.

وتفاصيل الأحداث للسهو التي وقعت في عهد النبي ﷺ وكيفية أدائه لهذه السجودات هي كما يلي:

عن عبد الرحمن الأعرج عن عبد الله بن بحنة رضي الله عنه أنه قال إن رسول الله ﷺ قام من اثنتين من الظهر لم يجلس بينهما فلما قضى صلاته سجد سجدين ثم سلم بعد ذلك⁽¹⁾.

وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ صلى الظهر خمسا، فقل له: أزيد في الصلاة؟ فقال: «وما ذاك؟» قالوا: صليت خمسا، فسجد سجدين بعدما سلم. وفي رواية: فثنى رجله واستقبل القبلة فسجد سجدين ثم سلم. رواه الجماعة⁽²⁾.

وفي روايه ثم التفت إلى الناس وقال: لو كان هناك حكم جديد في الصلاة لأخبرتكم ولكني أنا مثلكم أنسى كما تنسون، لذلك إذا نسيت ذكروني إياه. ألا أنه إذا شك أحدكم في الصلاة، فعليه أن يبنّي على اليقين، ثم يكمل الصلاة وفقاً لذلك، ثم يسلم ثم يسجد مرتين⁽³⁾.

وعن أبي هريرة: يقول: صلى بنا رسول الله ﷺ إحدى صلاتي العشيِّ إمّا الظهر وإما العصر، فسلم في ركعتين، ثم أتى جذعا في قبلة المسجد، فاستند إليها مغضبا، وفي القوم أبو بكر وعمر، فهابا أن يتكلما، وخرج سرعان الناس:

(1) (البخاري رقم ١٢٢٤ - ١٢٢٥ ومسلم رقم ١٢٦٩).

(2) (البخاري رقم ٤٠١ - ٤٠٤ ومسلم رقم ١٢٧٤ - ١٢٨١).

(3) أو كما قال عليه السلام، البخاري رقم ٤٠١ - ٤٠٤ ومسلم رقم ١٢٧٤ - ١٢٨١.

قَصُرَتِ الصَّلَاةُ، فقام ذو اليمين فقال: يا رسول الله، أَقْصُرَتِ الصَّلَاةُ أَمْ نَسِيتَ؟ فنظرَ النبي ﷺ يمينًا وشمالًا، فقال: ما يقولُ ذو اليمين؟ قالوا: صدق، لم تصلَّ إلا ركعتين، فصلَّى ركعتين وسلَّم، ثم كَبَّرَ ثم سَجَدَ، ثم كَبَّرَ فَرَفَعَ، ثم كَبَّرَ وَسَجَدَ، ثم كَبَّرَ وَرَفَعَ. قال: وأُخْبِرْتُ عنِ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ أَنَّهُ قَالَ: وسلَّم. وفي رواية: صلى بنا رسولُ الله ﷺ إحدى صلاتي العشي (1).

وعن عمران بن حصين؛ إن رسول الله ﷺ صلى العصر فسلم في ثلاث ركعات ثم دخل منزله فقام إليه رجل يقال له الخرباق وكان في يديه طول فقال: يا رسول الله! فذكر له صنيعه وخرج غضبان يجر رداءه حتى انتهى إلى الناس فقال «أصدق هذا؟» قالوا: نعم فصلَّى ركعة ثم سلم ثم سجد سجدة ثم سلم (2).

وعن أبي سعيد (3): إِذَا شَكَ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ، فَلَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى ثَلَاثًا أَمْ أَرْبَعًا فَلْيَطْرَحِ الشَّكَّ وَلْيَبْنِ عَلَى مَا اسْتَيْقَنَ ثُمَّ يَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ فَإِنْ كَانَ صَلَّى خَمْسًا شَفَعْنَ لَهُ صَلَاتِهِ، وَإِنْ كَانَ صَلَّى تِمَامًا أَوْ إِمَامًا لِأَرْبَعٍ كَانَتْ تَرْغِيمًا لِلشَّيْطَانِ (4).

وإذا أخطأ الإمام ولم ينتبه له بنفسه، فيمكن للمقتدي أن ينبّهه. والسنة بالنسبة لذلك هي أنه سيقول «سبحان الله». إذا كانت النساء لا يرغبن في رفع صوتهن، فإن النبي ﷺ قال إنه يجب أن يصفقن بأيديهن على أيديهن (5). وكذلك قال: إنه إذا كان هناك خطأ في قراءة القرآن، فإن المستمعين سيذكرون الإمام (6).

(1) البخاري رقم ١٢٢٩ ومسلم رقم ١٢٨٨.

(2) أخرجه مسلم رقم ١٢٩٣.

(3) مسلم في الصحيح.

(4) رواه مسلم رقم ١٢٧٢.

(5) البخاري رقم ٦٨٤ — ١٢٠٤ ومسلم رقم ٩٤٩ — ٩٥٩.

(6) أبو داود رقم ٩٠٧.

آداب الصلاة

الصلاة هي عبادة الله والدعاء والمناجاة في حضرته. ولذا حيث يأمر القرآن بالحفاظ عليها فإنه يأمر أيضًا: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾⁽¹⁾.

وتعليمات النبي ﷺ في بيان هذا الحكم هي كما يأتي:

١ - لا كلام مع أي شخص في الصلاة. قال: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هِيَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»⁽²⁾.

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: «كُنَّا نَتَكَلَّمُ فِي الصَّلَاةِ، يُكَلِّمُ الرَّجُلُ صَاحِبَهُ، وَهُوَ إِلَى جَنْبِهِ فِي الصَّلَاةِ، حَتَّى نَزَلَتْ ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ فَأَمَرْنَا بِالسَّكُوتِ وَنُهِينَا عَنِ الْكَلَامِ»⁽³⁾.

وعن ابن مسعود قال: كنا نسلم على رسول الله ﷺ وهو في الصلاة، فيرد علينا، فلما رجعنا من عند النجاشي سلمنا عليه، فلم يرد علينا، فقلنا: يا رسول الله، كنا نسلم عليك في الصلاة فترد علينا، فقال: «إِنْ فِي الصَّلَاةِ شُغْلًا»⁽⁴⁾.

٢ - لا ينظر حوله في الصلاة. قالت عائشة: سألت رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «هَذَا خُطْفُ الشَّيْطَانِ مِنْ صَلَاةِ الْعَبْدِ»⁽⁵⁾. وبالمثل قد حذر النبي ﷺ تحذيرًا صارمًا عندما نظر المصلي إلى السماء. قال: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْفَعُونَ أَعْيُنَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فِي الصَّلَاةِ؟» يجب أن يكفوا عن ذلك، وإلا فهناك خوف من أن تؤخذ أعينهم»⁽⁶⁾ أو كما قال.

(1) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.

(2) مسلم رقم ١١٩٩.

(3) البخاري رقم ١٢٠٠ ومسلم رقم ١٢٠٣ - ١٢٠٤.

(4) البخاري رقم ٣٨٧٥ ومسلم رقم ١٢٠١.

(5) البخاري رقم ٧٥١.

(6) البخاري رقم ٧٥٠ ومسلم رقم ٩٦٧.

٣ - يجب أداء الصلوات بسكون ووقار. قال ﷺ: «ما بالكم ترفعون أيديكم كما ترفع ذيول الخيول المتمردة؟» كونوا هادئين في الصلاة^(١).

٤ - يجب عدم كف الشعر والملابس أثناء الصلاة. قال ﷺ: «لقد أمرت بالسجود على سبعة أعظم وأن لا أكف شعري وملابسي أثناء الصلاة^(٢).

٥ - ولا ينبغي أن يكون هناك أي شيء أمام المصلي من شأنه أن يحدث فرقاً في شوق القلب. فعن أنس رضي الله عنه أن أم المؤمنين عائشة علقت ستارة في منزلها. فلما رآه النبي ﷺ قال: «انزعي هذا الستر لأن صورته ستأتي أمامي^(٣) في الصلاة.»

٦ - وإذا وضع الطعام أمامه فيجب الانتهاء من الأكل ثم يصلي الصلاة بارتياح حتى لا يكون هناك تفكير للأكل في الصلاة، ولكن يجب أن يكون الشخص في خيال الصلاة أثناء الوجبة. وينطبق الشيء نفسه إذا كان من الضروري الذهاب للبول أو البراز. قال ﷺ: لا يصلي بحضرة الطعام ولا وهو يدافعه الأخبثان^(٤).

٧ - إذا كان عليه القيام بأي عمل آخر أثناء الصلاة، فلا ينبغي أن يكون هناك إفراط فيه. وقد روي أنه قال ﷺ عن الشخص الذي يسوي التربة بدلاً من السجود، قائلاً: «إذا أنت فاعله فافعل مرة واحدة»^(٥).

٨ - في حالة القيام يجب على الشخص ألا يضع يده على جنبه ولا يجلس متكئاً على يديه دون أي حاجة. وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك^(٦).

(١) أو كما قال رواه مسلم رقم ٩٦٨.

(٢) البخاري رقم ٨١٢ ومسلم رقم ١٠٩٦.

(٣) البخاري رقم ٣٧٤.

(٤) مسلم رقم ١٢٤٦.

(٥) البخاري رقم ١٢٠٧ ومسلم رقم ١٢١٩.

(٦) البخاري رقم ١٢١٩ ومسلم رقم ١٢١٨ وأبو داود رقم ٩٤٧ - ٩٩٢.

٩ - لا تتأؤب في الصلاة. يقول ﷺ: «إذا كان أحدكم في صلاته فلا يتشاءب ويحاول أن يوقفها قدر الإمكان، وإلا يضع يده على فمه^(١)».

١٠ - ويصلي بارتداء الملابس المناسبة والمهذبة. يقول النبي الكريم لا يصلي أحدكم في الثوب الواحد ليس على عاتقه شيء. وبالمثل قال ﷺ: لا صلاة لحائض إلا بخمار^(٢)

هذا هو ظاهر الصلاة. ووفقاً لنفس الأمر ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ هناك بعض الآداب الداخلية للصلاة التي يجب على كل مسلم أن يضعها في اعتباره في صلاته. وهذه الآداب هي كما يلي:

١ لا يكون هناك تكاسل ولا تكاهل في الصلاة. وهذا مرض شائع في الصلاة، وإذا كان الشخص يعاني منه فلا يوجد التزام بالمواعيد معه، ولا يبقى عنده اهتمام بالجماعة، ولا يقف ذلك الشخص في الصلاة أمام ربه بحضور القلب. وربما يمكن أن يكون السبب في ذلك هو النوم في الظاهر والمشاركة والاشتغال بالعالم وشؤونه، ولكن إذا أمعنا في الداخل، يتضح لنا أن السبب الحقيقي لذلك هو داخل القلب، فيجب على كل مسلم أن يحاول إزالته قبل كل شيء. والتدابير والتكتيكات التي يمكن اتخاذها في سبيل ذلك فهي في لفظ الأستاذ الإمام كالتالي:

«إن أول شيء هو أن يرسخ المرء في قلبه ما للصلاة من أهمية في الدين. الصلاة هي أول مظهر للإيمان. وأول شيء يخرج من الإيمان هو الصلاة ثم يولد الدين كله فقط من الصلاة. هذه هي الركيزة الأولى بعد الإيمان من الأركان التي يقوم عليها الدين. لذلك إذا هدم أي رجل هذا العمود فقد هدم الدين كله في الواقع. وكان الصحابة يعتقدون أن الصلاة هي الفارق بين الكفر والإيمان. فقد أمر عمر رضي الله عنه ولاته وعماله أن مسؤوليتهم الكبرى هي إقامة الصلاة. فمن أضع

(١) أو كما قال: مسلم رقم ٧٤٩١ - ٧٤٩٣.

(٢) أبو داود رقم ٦٤١ وابن حبان رقم ١٧١١.

الصلاة، فسوف يضيع بقية الدين. وبما أن الصلاة هي مصدر الدين ومنبعه، فإن لها أكبر دخل في حماية الدين. هذا ما يحمي دين المرء بأكمله. إذا أبطأ أو أضاعها فإنه يهدم كل حدود الدين ويضع زمام أموره في يد الشهوات. وقد قال في القرآن عن أهل الكتاب أنهم أضاعوا صلاتهم واتبعوا الشهوات.

ومما يلاحظ ويُراعى أن هناك مقامًا لكل شيء في الدين وهو مقام قد وضعه الله بنفسه. فما هو ركن في الدين هو ركن له على كل حال، ما لم تتم إقامته لا يقيم الدين. وإذا لا يقيم شخص الصلاة وهو في زعمه يظل يخدم الدين ليلَ نهارَ فإن جهوده تذهب سُدىً لأنه يبني بناية بدون أساس، وكما لا يتبدل شيء من أساس بنائه فكذلك لا يقوم شيء ما مقام صلاة، ويدل على هذه الحقيقة حديث جاء فيه: إن الله لا يقبل صلاة نافلة لامرئ ما الفرائض لم يأت.

والشيء الثاني الذي لا بد منه لكبت ذلك الكسل هو أن يعود المرء نفسه على السعي إلى ذكر الله، وذلك يعني أن الرجل إذا سمع النداء والأذان ترك كل ما كان خائضًا فيه ويشغل في الاهتمام بالصلاة والإعدادات للذهاب إلى المسجد، ولا يدخل ذلك الإعداد الكسل بل التيقظ سمته، فكما يستعد العبد المطيع أن يأتي من فوره بما يأمره سيده ويستأذن له تاركًا كل ما يفعله على أمره، فكذلك يجب على المرء أن يلبي النداء ويستجيب للأذان فورًا. ولاحظ دائمًا أن الصلاة لوقتها هي أقدم وأهم الفرائض عند الله، فلا يقدمها شيء آخر وإن كان عملاً دينيًا بنفسه إلا في حالات الاضطرار.

فإذا تعود المرء نفسه أن يهرع إلى الصلاة تاركًا كل العمل له، فينجو من عادة الكسل والغفلة في باب الصلاة. فلا عجب أن يحبب الله له هذا العمل.

والكسل الناتج من النوم قد بين له النبي ﷺ علاجًا شافيًا. إن النوم لا ثقل شيء ما دام المرء مستلقيًا على فراشه لا يهب، ولكن حينما ترك فراشه بالمرة وذكر الله ثم يتوضأ ويصلي فإنه يخرج من مقام الكسل والهوان وحالة الكآبة إلى مرحلة الفرح والنشاط التي لا يتحسر فيها على النوم بل يتحسر على أنه كيف حُرِمَ من هذه اللذة والراحة التابعة لليقظة، وليتوضح جيدًا أن المرء لا يندم أبدًا

على تضحية نومه للصلاة بل بعد المran القليل للاستيقاظ فإن لذته تغلب على الطبع بقدر كبير يوقظه من نومه العميق للصلاة»⁽¹⁾.

٢ وليجنب المرء صلاته من هجوم الوسوس وليس هذا سهلاً فكلما أحب الله الصلاة كرهها الشيطان كرهاً، ولذا إذا بدأ المرء صلاته حمل عليه الشيطان بجيشه ورَجَله على قلبه وعقله، وكيف يستطيع المرء الدفاع عن ذلك يوضح الأستاذ الإمام بقوله:

«وفي عامة الأحوال إذا أحس المرء أن الشيطان قد داهمه استعاذ بالله فوراً واستعد للحفاظ على صلاته واستكمالها من عدوه كمثل الذي قد اطلع على اعتداء العدو الذي قد عزم على استكمال صلاته على رغم عدوه ولا يبالي لوساوسه. ولطالما فإن استعداد المرء هذا هو يكفي لإبطال كل طلسم شيطاني. وثانياً لا يخافت بكلمات الصلاة في نفسه فقط بل يقرأها بحيث يسمع لها بنفسه ويتدبر في معانيها، نعم بحيلة أن لا يخلل في صلاة رجل آخر قائم إلى جنبه، فهذا الشيء ينصره كثيراً في إبعاد وساوس الشيطان لأنه إذا استغرق الإنسان في المعاني احتفظ إلى حد كبير من المتاهة في وادي الوسوس».

الثالث وهو الأكثر نفعاً وإفادةً أن يحاول المرء لتطهير إحساساته وتركيز مشاعره أكثر فأكثر، يفكر دائماً في أشياء تنفعه في الدين والدنيا وتنفع الآخرين أيضاً وترقيهم. ويجب أن نلاحظ دائماً أن رحي ذهن الإنسان وتفكيره يدور دائماً مستمراً فإن كان الإنسان يلقي فيه غلات طاهرة وذاك الرحي يطحنها ويخرج منها دقيقاً زكياً طيباً. وعلى العكس من ذلك تفعل وساوس شيطانية، فإنه يتربص الإنسان وإذا انتهز الفرصة رمى في ذلك الدقيق حفنة من حصى وساوسه، وبدوره يأخذ الرحي يطحنه ويخلطه فذلك الخلط يضر بنظام وإدارة الرحي ضرراً كبيراً وإن تكرر ذلك فقد يؤدي به إلى الدمار والخراب مما يفسد صلاحية

(1) تركية النفس ص ٢٥٠.

الرحى لطحن الدقيق الطيب، ترمي فيه قمحًا ممتازًا يخرج منه طحينة مقرمشة، فالذي خبث لا يخرج إلا نكدًا.

والمرء الذي متعود على إنماء وتربية الأحاسيس والمشاعر الطيبة في ذهنه لا تلحقه الوسوس في صلاته إلا قليلًا، لأن مشاعره الطيبة المأنوسة تجد غذاءً روحياً في الصلاة، فما تعترضه في صلاته من الخيالات لا تسقط إلى درجة غير متلائمة كلياً بمقصد الصلاة الأسمى. وروي عن عمر رضي الله عنه وهو من هو في عظمته وجلالته أن يتخلل صلاته الأحوال الخارجية فكان في عين الصلاة يرتب صفوف المجاهدين وجبهات عساكر المسلمين الذين كانوا يحاربون العدو في إيران وفارس والشام. ويمكن للمرء أن يقول إن هذا أيضًا نوع من الغيبوبة، نعم هذه هي غيبوبة بلا شك، ولكن هناك فرق كبير وبون شائع بين غيبوبة حصلت في شارع شخص آخر مختلف وفي غيبوبة طرأ في شارع المحبوب الذي يبحث عنه⁽¹⁾.

٣ وما يُقرأ في الصلاة يُقرأ مع الفهم والالتفات الكامل له، وما ذكرناه من قبل من أذكار الصلاة وأورادها إذا نظرت فيها وجدت أن هناك حمدًا لله وثناءً عليه وتكبيرًا له واعترافًا تامًا بتنزيهه من كل عيب ومن كل نقص ودعاء ومناجاة له. وقراءة الجزء من القرآن بعد قراءة الفاتحة فوق كل ذلك. ففيها علاقة الدعاء وجوابه، والترتيب الذي يقرأ به ينبئ عن تذكير المرء أن أكبر ما يجب عليه أن يسأل المولى الكريم هو سؤال الهداية منه، والهداية تحصل من القرآن فقط إلى القيامة، يقول في ذلك الأستاذ الإمام:

«وهذا (الفاتحة) دعاء ليس فوقه دعاء تحت أديم السماء، وهذا دعاء قد علمه رب العالمين بنفسه، فبطريق يسأل فيه العبد من ربه لا يتصور طريق آخر خير منه غيره، وما يسأله لا يتصور شيء خير مما يسأله هو.

وعلمنا الله بنفسه كيف نسأله وأيضا ماذا يجب أن نسأله في الواقع. فإذا

(1) تزكية النفس ص ٢٥٣.

كان تمهيد السؤال مناسباً والشيء الذي يُسأل عنه أخرى أن يُسأل به ويجب أن يطلب من الذات الذي يُطلب منه، والذي يُطلب منه الدعاء هو أكرم الكرماء فكيف يُشك في قبوله⁽¹⁾؟

وكتب عن تلاوة القرآن ما يلي:

«ويُقرأ جزء من القرآن وهذا من إعجاز القرآن أنه يحمل كل جزء منه في طيه مغزى دعوته وتعليمه وهدايه، فأنت تجد التعرف الصحيح بالله وبصفاته الحميدة ومنهاج الحياة الصحيح وبيان الآخرة وذكر العقاب والجزاء في كل جزء من أجزائه، في نمط وأسلوب مختلفين.

فجاءت هنا مقولة قرآنية بصورة تشريعية وهناك في موعظة ومرة في قصة وحكاية وفي أسلوب تمثيلي آخر. وتارة في تهديد وإنذار وتارة في حب وتأنيس ولكن لا يمكن أن تقرأ وتسمع جزءاً من القرآن ولو كان بقدر ثلاث آيات. ولا يذكر كذا ذكرًا مؤثرًا بالغًا بحقيقة لا بد منها لإقامة حياته على مسار صحيح»⁽²⁾.

فلا بد من الاهتمام بقراءة القرآن قراءة تدبر وفهم فقد قال النبي ﷺ: إن المصلي يناجي ربه فليُنظر بما يناجيه به»⁽³⁾ ويقول الأستاذ الإمام:

«ولا ينبغي لأحد أن يعتقد أنه إذا ما تتلى نفس الأدعية والصور في كل صلاة وهي معلومة فما الحاجة إلى التأمل فيها في كل مرة وكل وقت ويكفي أن تفهمها مرة واحدة. فالذين يقولونه أو يعتقدونه هم لا يعرفون حقيقة الصلاة، فإن الصلاة لا تؤدي لتضييف إلى معلوماتك شيئاً بل تصلى لتجديد العهد بالله ولطلب الهداية والاستغاثة منه توبةً واستغفاراً. فكيف يحصل المرء على هذا الغرض بإعادة وتكرير الألفاظ الجامدة وذهنه منتشر وطبعه غائب»⁽⁴⁾.

(1) تزكية النفس ص ٢٤٦.

(2) تزكية النفس ص ٢٤٨.

(3) رواه أحمد في مسنده رقم: ٤٩٠٩.

(4) تزكية النفس ص: ٢٥٦.

٤ حفظ وتجنب الصلاة من الرياء ومن الحقيقة أن آفة كبيرة عامة للصلاة الرياء، وهي أكبر ضررًا من كل شيء، وفي ألفاظ الأستاذ الإمام عام لأن له أقسامًا مخفية وأنواعًا كثيرة حتى أن شديدي الحذر لا يستطيعون أن يحفظوا منه فضلًا عن عامة الناس، وأكثر ضررًا لأن الإخلاص هو شرط لقبولية الصلاة والرياء منافٍ له. ولعلاجه هناك شيان ضروريان له فإنه يقول:

«أولاً أن يطلع المرء على أشكال مختلفة متنوعة للرياء اطلاعًا جيدًا، ودراسة إحياء العلوم للغزالي وأيضًا بعض الكتابات الأخرى تفيدك كثيرًا للوقوف على أقسام الرياء. والوقوف الجيد على شيء يفضي بالإنسان إلى أن يأخذ بمطانه ويصلحه إذا شاء، وهذا الوقوف على الرياء ضروري لازم للعوام وهو أشد ضرورةً للخواص منه للعوام، لأن الرياء قلما يأتي في لباس الدنيا وإنما يأتي في لباس الزهد والتقوى أكثر ويأتي في أشكال رائعة وصور خلابة تربك العلماء الكبار وتخدع المشائخ العظام وربما يخسرون كل متاع زهدهم ورياضتهم بسبب الرياء.

وثاني ما ينفعه هو صلاة التهجد. يتم أداء هذه الصلاة في عزلة الليل وهي صارمة للغاية بالنسبة للذات ويتم التأكيد أيضًا على إخفائها، لذلك أولئك الذين يصلون فقط من أجل الرياء، لا يمكنهم أن يجرؤوا على القيام بذلك. ولا يمكن أن يجرؤ عليها إلا أولئك الذين هم إما غير مرأين أو على دراية بإغراءات الرياء فيختبئون في زاوية خلوة التهجد لإنقاذ أنفسهم منها. وهذه الصلاة هي العلاج الأكثر نفعًا للرياء، بشرط أن يتمكن المرء من الحفاظ على خصوصيته وسريته. فأن البعض ربما ابتلوا أيضًا بالرياء في هذا الصدد. فهم إما أن يعلنون عن إحياء ليلتهم وإقامة تهجدهم في ستائر مختلفة أو يؤدي تلاميذهم ومسترشدوهم هذه

الخدمة. في مثل هذه الحالة لا تظل هذه الصلاة مفيدة لهذا الغرض فحسب، بل تصبح أيضًا أكثر فعالية للرياء إلى حد ما⁽¹⁾؟

فإذا تمت الصلاة بمراعاة هذه الآداب فتكون في تعبير الأستاذ الإمام:

«إذا قام العبد للصلاة قام وهو يصور العجز والاعتراف والعبودية، الأيدي معقودة، البصر غضيض، العنق منحني، الأقدام مستوية وهو منقطع من اليمين والشمال والخلف والقدام انقطاعًا كاملاً، صورة للسكوت والصموت والمثانة، وتمثال للأدب والوقار. مرةً يضع رأسه أمام الرب تعالى ومرةً يضع أنفه وجبهته على الأرض يدعوه مادًا يديه تارةً في الالتجاء والتضرع. وملخص القول أن العبد يختار سائر أشكال العجز والاستكانة والتذلل مع الأدب والوقار. ويتمثل المصلي بهذه الصورة في مثال يشهد له أنه يرى الرب تعالى وإن كان لا يراه فإنه يستيقن أن الرب تعالى يراه لزومًا. فهذه هي الصلاة التي يقال إنها صلاة الإحسان. وهذه الصلاة تجوز بمزاج مغاير تمامًا بصلاة فقهية، وهذه الصلاة هي صلاة معتبرة من وجهة نظر تركية النفس، وهذه الصلاة هي تعكس باطن المصلي وتعكس خضوع الفؤاد وخشوع القلب للمصلي. وهذه الصلاة لا يركع فيها فقط ظهر العبد بل يركع قلبه أيضًا، ولا تغبر جبهته فقط بل يسجد روحه أيضًا للمولى تعالى⁽²⁾.

صلاة الجمعة

ولزم على المسلمين أن يهتموا بصلاة اجتماعية خاصة في يوم الجمعة بدلاً من الظهر، والطريقة التي وضعتها الشريعة لها هي أن تصلى:

تُرْكَعُ فِيهَا رَكْعَتَانِ

والقراءة في ركعتيها تكون جهورية على عكس من الظهر

(1) تركية النفس ٢٥٨.

(2) تركية النفس ص ٢٤٤.

ويُكبر التكبير للصلاة

وقبل الصلاة يقوم الإمام بإلقاء خطبتين نصحًا وتذكيرًا للمصلين، ويقوم بإلقائهما قائمًا ويجلس الإمام لثوان عديدة بعد الخطبة الأولى وقبل الثانية.

ويؤذن حينما يخرج الإمام ويصل إلى المنبر وعلى المسلمين جميعًا أن يلبوا نداء المؤذن ويحضرُوا الصلاة تاركين أعمالهم ونشاطاتهم إن كان ليس لهم عذر شرعي.

ويخطب لصلاة الجمعة ويؤمها أرباب الحل والعقد للمسلمين وتؤدى في مقامات معينة من قبلهم لهذه الصلاة، وحيث يتواجد الأئمة المسلمون/ الحكام أو من ينوب عنهم للإمامة.

وقد جاء ذكر صلاة الجمعة في القرآن كما يأتي:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾⁽¹⁾.

وقد نصح النبي ﷺ من يقوم بإمامة الجمعة أن يطيل الصلاة ويقصر الخطبة وقال: «إن طول الصلاة وقصر خطبته مئة من فقهه»⁽²⁾.

وتفيد الروايات أن هذا اليوم هو الذي تم تعيينه لتذكير الناس ونصحهم وللعبادة الجماعية في دين الأنبياء ﷺ⁽³⁾ وقال المؤرخون إن كعب بن لؤي أو قصي بن كلاب كان يعقد اجتماع قريش في هذا اليوم⁽⁴⁾.

وتم انتخاب يوم الجمعة لهذه الصلاة فهو أفضل الأيام بدليل قوله ﷺ:

(1) سورة الجمعة، الآيتان: ٩ و ١٠.

(2) (رواه مسلم رقم ٢٠٩).

(3) (كما جاء في البخاري رقم ٨٧٦ ومسلم رقم ١٩٨٠).

(4) انظر لسان العرب ٣٥٩/٢.

خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه خرج منها ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة⁽¹⁾.

وقال النبي ﷺ: إن في الجمعة لساعة لا يوافقها مسلم قائم يصلي يسأل الله خيراً إلا أعطاه إياه⁽²⁾. وقد نبههم وحذرهم على أنهم إن لم يأتوا الجمعة خُتم على قلوبهم وصاروا غافلين⁽³⁾. وقال:

«من اغتسل يوم الجمعة واستاك ومس من طيب إن كان عنده، ولبس من أحسن ثيابه ثم خرج حتى يأتي المسجد فلم يتخط رقاب الناس حتى ركع ما شاء أن يركع ثم أنصت إذا خرج الإمام فلم يتكلم حتى يفرغ من صلاته كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة التي قبلها»⁽⁴⁾. وأريد بالذنوب هنا الذنوب التي لا تمت بصلة إلى حقوق العباد أو التي لا تحتاج إلى توبة ولا كفارة.

وقال النبي ﷺ: من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرةً ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجةً ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضةً فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر⁽⁵⁾.

صلاة العيدين

ووجب على المسلمين أن يهتموا بصلاة جماعية مثل الجمعة في يومي الفطر والأضحى. وطريقتها كما يأتي:

تُصلى ركعتان في هذه الصلاة.

(1) رواه مسلم رقم ١٩٧٧.

(2) رواه البخاري رقم ٩٣٥ ومسلم رقم ١٩٩٦.

(3) كما جاء مفهومه في مسلم رقم ٢٠٠٢.

(4) رواه البخاري رقم ٨٨٣.

(5) رواه البخاري رقم ٨٨١ ومسلم رقم ١٩٦٤.

القراءة تكون جهورية في كلتا الركعتين
ويكبر المصلون في حالة القيام بتكبيرات زائدة

لا أذان لهذه الصلاة ولا إقامة

ويقوم الإمام بإلقاء خطبتين بعد الصلاة تذكيرًا للحاضرين ونصحًا لهم
قائمًا ويجلس للمحاث بين الخطبتين.

ويخطب بخطبة العيدين وكذا يؤمها أرباب الحل والعقد للمسلمين
وتؤدى في مقامات معينة من قبلهم لهذه الصلاة، وحيث يتواجد الأئمة
المسلمون/ الحكام أو من ينوب عنهم للإمامة.

فهذه هي سنة لهذه الصلاة. ولكن ليتوضح في باب التكبيرات لها أن
الشريعة لم تقرر بعدد معين لها، فللمسلمين أن يكبروا من التكبيرات ما شاؤوا
بسهولة قبل القراءة أو بعدها، ولهم أن يرفعوا الأيدي معها، فتفيد الروايات
والآثار أن النبي ﷺ قد كبر بتكبيرات سبعة في الركعة الأولى وخمسة في الثانية،
على بعض المواقع⁽¹⁾.

وتشارك النساء في الصلاة في العيدين مثل الرجال باهتمام كامل وقالت
أم عطية أن رسول الله ﷺ قال عن الحُيَّص إنهن لا يصلين الصلاة ولكن يشاركن
في جماعة المسلمين ودعائهم⁽²⁾.

صلاة الجنازة

وصلاة الجنازة على الميت أيضًا لازمة ضرورية في دين الأنبياء ﷺ وذلك
في الحالات العامة، ولكن إذا عرضت هناك حالة طارئة من الطوارئ وربما
يصعب أداء الصلاة على الميت فيمكن تدفينه بغير صلاة أيضًا. وأفادت الأخبار

(1) رواه أبو داود رقم ١١٤٩ - ١١٥١ - ١١٥٢.

(2) كما رواه البخاري رقم ٣٥١ ومسلم رقم ٢٠٥٦.

والروايات أن النبي ﷺ قد دفن شهداء أحد بناءً على ذلك، دون غسل وبغير صلاة الجنازة عليهم، ثم صلى عليهم بعد سنوات عديدة حين زار مقابرهم⁽¹⁾.

وتؤدى صلاة الجنازة على الميت بعد غسله وتكفينه وتجهيزه على طريقة آتية:

يقوم المقتدون بالاصطفاف خلف الإمام والجنازة أمامه قبْل الكعبة.

تبدئ الصلاة بالتكبير مع رفع اليدين

ويكبر فيها أيضًا بتكبيرات زوائد كصلاة العيدين، وحكمها أيضًا كما مر في بيان تكبيرات صلاة العيدين.

وتنتهي الصلاة بعد التكبيرات والأدعية بتسليمتين في حالة القيام.

وهذه الطريقة لصلاة الجنازة قد ثبتت بإجماع المسلمين وتواترهم العملي. والروايات والآثار من عمل النبي ﷺ وتطبيقه في ذلك نقلها في ما يلي بترتيب متلائم:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: من تبع جنازة رجل مسلم احتسابًا فصلى عليها ودفنها فله قيراطان ومن صلى عليها ثم رجع قبل أن تدفن فإنه يرجع بقيراط من الأجر وكل قيراط منهما مثل أحد⁽²⁾.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال إن النبي ﷺ نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه وخرج بهم إلى المصلى فصَف بهم وكبر عليه أربع تكبيرات⁽³⁾.

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: كان زيد بن أرقم رضي الله عنه يكبر على

(1) كما رواه البخاري رقم ١٣٤٣-١٣٤٤.

(2) رواه البخاري رقم ٤٧ ومسلم رقم ٢١٨٩-٢١٩٦.

(3) رواه البخاري رقم ١٢٤٥ ومسلم رقم ٢٢٠٤.

جنازتنا أربعاً وإنه كبر على جنازة خمساً فسأله فقال: كان رسول الله ﷺ يكبرها خمساً أحياناً⁽¹⁾.

وعن طلحة بن عبد الله بن عوف قال صليت مع ابن عباس على جنازة فقراً بفاتحة الكتاب فقال إنها من السنة⁽²⁾. وعن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا⁽³⁾.

ومن الأدعية المأثورة عن النبي ﷺ لصلاة الجنازة هي كما يأتي:

١ - اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ، وَاعْفُ عَنْهُ وَعَافِهِ، وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ وَوَسِّعْ مُدْخَلَهُ، وَاعْسِلْهُ بِمَاءٍ وَتَلْجِ وَبَرْدٍ، وَنَقِّهِ مِنَ الْخَطَايَا كَمَا يُنْقَى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، وَأَبْدِلْهُ دَارًا خَيْرًا مِنْ دَارِهِ وَأَهْلًا خَيْرًا مِنْ أَهْلِهِ وَزَوْجًا خَيْرًا مِنْ زَوْجِهِ، وَفِي فِتْنَةِ الْقَبْرِ وَعَذَابِ النَّارِ⁽⁴⁾.

٢ - اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِحَيِّنَا وَمَيِّتِنَا، وَشَاهِدِنَا وَغَائِبِنَا، وَصَغِيرِنَا وَكَبِيرِنَا، وَذَكَرِنَا وَأُنْثَانَا. اللَّهُمَّ، مَنْ أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأَحْيِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ مِنَّا فَتَوَفَّهُ عَلَى الْإِيمَانِ. اللَّهُمَّ، لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُ وَلَا تُضِلَّنَا بَعْدَهُ⁽⁵⁾.

٣ - اللَّهُمَّ، إِنَّ فُلَانًا بَنَ فُلَانٍ فِي ذِمَّتِكَ وَحَبْلٍ جَوَارِكَ، فَقِهِ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ وَعَذَابِ النَّارِ، وَأَنْتَ أَهْلُ الْوَفَاءِ وَالْحَقِّ. اللَّهُمَّ، فَاعْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ⁽⁶⁾.

(1) رواه مسلم رقم ٢٢١٦.

(2) رواه البخاري رقم ١٣٣٥.

(3) رواه البخاري رقم ١٣٩٣.

(4) مسلم رقم: ٢٢٣٢.

(5) رواه ابن ماجه: ١٤٩٨.

(6) رواه أبو داود رقم: ٣٢٠٢.

الصلوات النافلة

فهذا أقل عبادة فرضت على المسلمين وكلفوا بإتيانها ولكن قال القرآن
أيضاً:

﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾⁽¹⁾. وكما قال:
﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾⁽²⁾.

وعليه فما زال المسلمون يهتمون بأداء صلوات النوافل ما عدا الصلوات
المفروضة، والنوافل التي قد صلى بها النبي ﷺ أو رغب المسلمين إلى أدائها
هي كما يأتي:

قبل الصلاة المكتوبة

وكان رسول الله ﷺ يخرج إلى المسجد عموماً بعد أن صلى ركعتين
خفيفتين قبل الفجر⁽³⁾ وقالت حفصة ؓ إنه كان يصلي هاتين الركعتين على
دخول وقت الفجر فوراً⁽⁴⁾.

وقالت عائشة ؓ: لم يكن النبي ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهداً
منه على ركعتي الفجر⁽⁵⁾ وعن عائشة ؓ أيضاً عن النبي ﷺ قال: ركعتا الفجر
خير من الدنيا وما فيها⁽⁶⁾ وكان رسول الله ﷺ يركع ركعتين تارةً وأربع ركعات
أخرى قبل الظهر⁽⁷⁾ ولم يصل قبل المغرب صلاة في أغلب الظن ولكنه قد رغب

(1) سورة البقرة، الآية: ١٥٨.

(2) سورة البقرة، الآية: ٤٥.

(3) كما رواه البخاري رقم ٦١٨ ومسلم رقم ١٦٧٦.

(4) رواه مسلم رقم ١٦٩٠.

(5) رواه البخاري رقم ١١٦٣.

(6) رواه مسلم رقم ١٦٨٨.

(7) كما رواه البخاري رقم ١١٨٠ — ١١٨٢ ومسلم رقم ١٦٩٨ — ١٦٩٩.

الناس إلى أن يركعوا ركعتين إذا وفقهم الله⁽¹⁾ فقد جاءت في الأحاديث أن الناس على عهد الرسالة كانوا يهتمون بهذه الصلاة عامة⁽²⁾.

وبعد الصلاة المكتوبة

وكان من عادته الشريفة أنه بعد الانصراف من الصلاة إذا دخل البيت صلى ركعتين بعد صلوات الظهر والمغرب والعشاء⁽³⁾ وكان هذا عادته بعد الجمعة أيضًا كما ثبت مما رواه البخاري⁽⁴⁾ وجاء في حديث رواه أبو هريرة رضي الله عنه أنه رغب الناس إلى أن يركعوا أربعًا بعد الجمعة⁽⁵⁾ كما جاء فضل أربع ركعات بعد صلاة الظهر المكتوبة في الأحاديث والآثار⁽⁶⁾ وقد قال النبي ﷺ فيمن اهتم بهذه الركعات الأربع عشر قبل الصلاة وبعدها ركعتي الفجر وست ركعات الظهر وركعتين بعد المغرب وبعد العشاء يبني الله له بيتًا في الجنة كما جاء ذلك⁽⁷⁾.

صلاة الضحى

فقد رغب النبي ﷺ الناس أن يصلوا ركعتين عند الضحى⁽⁸⁾، وجاء في فضل صلاة الضحى ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال: يصبح على كل سلامي من أحدكم صدقة فكل تسبيحة صدقة وكل تكبيرة صدقة وكل تحميدة صدقة وكل تهليل صدقة وكل تهليل صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن المنكر صدقة ويجزئ عن ذلك ركعتان يركعهما من الضحى⁽⁹⁾. ولكن

(1) رواه البخاري رقم ١١٨٣ وأبو داود رقم ١٢٨١.

(2) (كما رواه البخاري رقم ١١٨٤ ومسلم رقم ١٩٣٨-١٩٣٩).

(3) كما رواه البخاري رقم ١١٨٠ ومسلم رقم ١٦٩٩.

(4) رواه البخاري رقم ٩٣٧-١١٦٩ ومسلم رقم ٢٠٣٩.

(5) أخرجه مسلم رقم ٢٠٣٦.

(6) كما روى ذلك ابن ماجه رقم ١١٦٠.

(7) رواه مسلم رقم ١٦٩٤-١٦٩٥.

(8) كما رواه البخاري رقم ١١٧٨ ومسلم رقم ١٧٧٢.

(9) مسلم رقم ١٦٧١.

فيما يتعلق عن أن صلى النبي ﷺ بنفسه هذه الصلاة أم لا فالروايات متضاربة في ذلك فلسنا في موقف أن نقول قولاً حتماً في ذلك.

صلاة الكسوف

ولما كسفت الشمس في حياة النبي ﷺ فبهذه المناسبة قد صلى بالناس ركعتين. وقد جاء أنه ﷺ صلى هذه الصلاة ركعتين وجهر بالقراءة فيهما وأطال الركوع والسجود كما أطال الحمد والثناء والتسبيح والتهليل والدعاء والمناجاة في القيام أيضاً. وحتى أكثر من الركوع والقيام في الركعتين في انتظار انكشاف الكسوف وقال بعد الانصراف من الصلاة: إن الشمس والقمر لا تنكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكن الله يكسفهما يخوف بهما عباده فإذا رأيتم ذلك فصلوا وادعوا حتى ينكشفان، وفي رواية: إذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله وإلى دعائه واستغفاره⁽¹⁾.

صلاة الاستسقاء

وقد جاء في الآثار والروايات أن النبي ﷺ قد صلى ركعتين دعاءً لإنزال المطر ويقال لها صلاة الاستسقاء. وجاء فيها أنه صلى هذه الصلاة بقراءة جهرية وأنه دعا طويلاً رافعاً أيديه ومتجهاً إلى القبلة⁽²⁾، وقد جاء في بعض الروايات أنه حوّل رداءه في هذه المناسبة وجعلوه عموماً جزءاً من العبادة، وهذا عندنا فيه نظر. لأنه لا يجوز لنا جعل شيء ديناً وعبادة ما لم تثبت لنا صراحة ذلك عن النبي ﷺ. ومن الأدعية المأثورة لصلاة الاستسقاء قد ورد في ألفاظ تالية:

اللَّهُمَّ اسْقِنَا غَيْثًا مُغِيثًا، مَرِيئًا مَرِيعًا، نَافِعًا غَيْرَ ضَارٍّ، عَاجِلًا غَيْرَ آجِلٍ⁽³⁾.

(1) رواه البخاري رقم ١٠٤٤ ومسلم ٢٠٩٦.

(2) كما رواه البخاري رقم ١٠٢٣ - ١٠٢٥ ومسلم رقم ٢٠٢٧.

(3) رواه أبو داود رقم ١١٦٩.

قيام الليل

وكان قد فرضت على النبي ﷺ صلاة أخرى ماعدا الصلوات الخمسة يومًا وليلة، يقال لها عمومًا صلاة الليل أو التهجد، وقد صرحها الله سبحانه في سورة بني إسرائيل بقوله: ﴿نَافِلَةٌ لَّكَ﴾⁽¹⁾ ولما أمر بالإنذار العام فقد أمر بأداء الصلاة بخاصة كما جاء في المزمّل:

﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمِلُ * فِرَّ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نَصَفَهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَبِّهِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا * وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾⁽²⁾.

وهي صلاة نافلة لعامة المسلمين، ومن يوفقه الله أن يهتم بها اقتداءً بالنبي ﷺ فهو سعيد جدًا بهذا، وقد جاء عنه أنه عليه السلام كان يصلي فيها في الأكثر إحدى عشرة ركعة وكان يطيل فيها القيام والركوع والسجود، نعم ربما صلى ثلاث عشرة ركعة أيضًا كما جاء في بعض الروايات، والأصح عندنا في ذلك أنه كان يصلي إحدى عشرة ركعة وبما أنها كانت فريضة عليه ولذا كان يضيف إليها ركعتين ربما قبل الصلاة وأحيانًا بعدها بمثل ما نحن نضيف ركعتين نافلتين قبل الفجر أو بعد المغرب، وأخطأ البعض حينما عدوهما أيضًا من أصل الصلاة⁽³⁾.

وعندنا الأصل في الباب ما رواه البخاري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن:

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه أخبره أنه سأل عائشة رضي الله عنها: كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ في رمضان؟ فقالت: ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة⁽⁴⁾.

(1) سورة الإسراء، الآية: ٧٩.

(2) سورة المزمّل، الآيات: ١-٨.

(3) كما جاء ذلك في البخاري رقم ١١٣٨ - ١١٤٠ ومسلم رقم ١٧٨٨.

(4) رواه البخاري، رقم ١١٤٧.

أما الطرائق التي كان رسول الله ﷺ يصلي بها هذه الصلاة عامة أو كان يأمر بها فهي كما يأتي:

١. أن يسلم المرء بعد اكتمال ركعتين ثم يُوتر بواحدة^(١).
 ٢. أن يسلم بعد الركعتين ثم يركع خمس ركعات بحيث يقعد في آخر ركعة منها فقط^(٢)،
 ٣. أن يصلي أربع ركعات يتلوها أربع ركعات وسلم بعد كل أربع ركعات، ثم يصلي ثلاث ركعات بغير قعدة بعد الركعتين بل يقعد في آخر ركعة ويسلم بعدها^(٣).
 ٤. أو يصلي ركعتين أو أربعاً أو ثمانين ركعات بغير قعدة فيها ويقعد في ركعة أخيرة ولا يسلم بل يقوم ويركع ركعة ويسلم بغير قعدة^(٤).
- وتفيد الروايات أن القراءة كانت أولاً سرّاً وجهرّاً بكلا الطريقتين في هذه الصلاة ثم جاء باختيار الأمر بين ذلك فقال:
- ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾^(٥).

فقد أمر النبي ﷺ صحابته بامتثال هذا الأمر فقد روي عن أبي قتادة عن النبي ﷺ أنه خرج ليلة فإذا هو بباب أبي بكر رضي الله عنه يصلي يخفض من صوته قال: ومr بعمر بن الخطاب وهو يصلي رافعاً صوته قال: فلما اجتمعا عند النبي ﷺ قال: يا أبا بكر مررت بك وأنت تصلي تخفض صوتك قال: قد أسمعت من ناجيت يارسول الله قال: وقال لعمر: مررت بك وأنت تصلي رافعاً صوتك

(١) كما جاء في البخاري رقم ١١٣٧ — ٩٩٢ ومسلم رقم ١٧١٧ — ١٧٤٨.

(٢) رواه مسلم رقم ١٧٢٠ وأبو داود رقم ١٣٣٨ — ١٣٥٨ — ١٣٥٩.

(٣) رواه البخاري رقم ١١٤٧ ومسلم ١٧٢٣.

(٤) مسلم رقم ١٧٣٩.

(٥) سورة الإسراء، الآية: ١١٠.

قال: يا رسول الله أوقظ الوسنان واطرد الشيطان زاد الحسن في حديثه: فقال النبي ﷺ: يا أبا بكر ارفع من صوتك شيئاً وقال لعمر: اخفض من صوتك شيئاً⁽¹⁾.

ووقت التهجد كما يدل عليه القرآن هو الوقت الذي يهب المرء من النوم ولأجل هذا السبب يقال له التهجد (بني إسرائيل: ٧٩) وقال القرآن إن هذا الوقت هو وقت التبتل إلى الله (المزمل: ٨) وقال النبي ﷺ: ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له⁽²⁾.

ولكن إذا لم يسعد شخص بأداء هذه الصلاة في وقتها الأصلي لوجه من الوجوه فله أن يؤديها قبل الذهاب إلى النوم، وهذا يستخرج من آية التخفيف التي جاءت في سورة المزمل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَافِقَهُ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يَقْدِرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عِلْمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقِنُّونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾⁽³⁾.

وبناءً عليه قال النبي ﷺ:

أيكم خاف أن لا يقوم من آخر الليل فليؤثر ثم ليرقد، ومن وثق بقيام من الليل فليؤثر من آخره، فإن قراءة آخر الليل محضورة، وذلك أفضل⁽⁴⁾.

وكان النبي ﷺ يصلي هذه الصلاة منفرداً دائماً ولكن وقع مرة أن استيقظ من النوم في رمضان المبارك لأن يصلي هذه الصلاة وخرج من حجرته التي كان يضعها خاصة في رمضان من حش في المسجد وصلى خارجاً منها فأخذ الناس يجتمعون خلفه شوقاً باقتدائه ﷺ، ومضى على ذلك بضعة أيام ثم قطع ذلك

(1) رواه أبو داود رقم ١٣٢٩ والترمذي رقم ٤٤٧.

(2) رواه البخاري رقم ١١٤٥ ومسلم رقم ١٧٧٢.

(3) سورة المزمل، الآية: ٢٠.

(4) مسلم، رقم ١٧٦٧.

خشية أن تفرض على المسلمين أيضًا كما فرضت عليه، فقد روي عن عروة ابن الزبير:

أن عائشة رضي الله عنها أخبرته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ليلة من جوف الليل فصلى في المسجد وصلى رجال بصلوته، فأصبح الناس فتحدثوا فاجتمع أكثر منهم فصلوا معه، فأصبح الناس فتحدثوا فكثر أهل المسجد من الليلة الثالثة، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلوا بصلوته. فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله حتى خرج لصلاة الصبح، فلما قضى الفجر أقبل على الناس فتشهد، ثم قال: «أما بعد، فإنه لم يخف علي مكانكم، ولكنني خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها»⁽¹⁾.

فكان المسلمون إلى زمن عمر رضي الله عنه يصلون هذه الصلاة فرادى في بيوتهم وفي مساجدهم حتى وفي رمضان المبارك أيضًا، ومضى على ذلك زمن حتى أنه دخل ليلة المسجد فرأى الناس يصلون هذه الصلاة، هذا بوحده وذلك بإمام يقتديه ويتلون القرآن في الصلاة فكانت الحالة فوضوية في المسجد، استكرهها عمر رضي الله عنه من ناحية آداب القرآن الكريم، فقرر أبي بن كعب إمامًا لهذه الصلاة وأمر الناس بالاعتداء به، ومرّ عليهم ليلة أخرى ورآهم يصلون فقال: نعمت البدعة هذه والتي ينامون عنها أفضل من التي يقومون⁽²⁾. وواضح من هذا الحديث أن عمر رضي الله عنه لم يشتمل مع المصلين في هذه الصلاة بل صرح أن القيام بها في آخر الليل منفردًا هو أفضل من الجماعة.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم كما سبق لم يزد في هذه الصلاة على إحدى عشرة ركعة ولكن بما أنه لا يتعين لها عدد معين فلما تقرر الإمام لها أخذ الناس يصلون ثلاثًا وعشرين ركعة بل أكثر منها باسم صلاة التراويح. وتداول الناس عليه من لدن

(1) رواه البخاري، رقم ٢٠١٢.

(2) رواه البخاري رقم ٣١٠.

ذلك الوقت فلا يزالون يصلونها هكذا. ومعظمهم ليسوا مطلعين اليوم أن هذه هي صلاة التهجد في الواقع التي يجمعونها مع صلاة العشاء.

وعلاوة على هذه النوافل قد روي عنه أيضًا فضل ركعتين بعد الوضوء⁽¹⁾.

كما قد ورد في الروايات والآثار أنه ﷺ كان يصلي ركعتين بعد مرجعه من السفر⁽²⁾. وكذلك قد أمر النبي ﷺ أن يركع المراء ركعتين للاستغفار من الذنوب وللاستخارة⁽³⁾.

صلاة التوبة والاستخارة

ونقل عنه الدعاء الآتي كدعاء للاستخارة:

«اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. اللَّهُمَّ، إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي فَاقْدِرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ. وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ وَاقْدِرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ أَرْضِنِي»⁽⁴⁾.

الزكاة

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاقْرَأُوا اللَّهَ قَرَضًا حَسَنًا وَمَا نَفَعِمُوا لِنَفْسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾⁽⁵⁾.

ففي هذه الآية وفي المقامات العديدة الأخرى غيرها قد أمر المسلمون أن يؤديوا زكاة أموالهم، فهذه من أهم العبادات بعد الصلاة. فمن الآداب والرسوم

(1) البخاري رقم ١٤٩١ ومسلم رقم ٦٣٢٤.

(2) البخاري رقم ٣٠٨٧ ومسلم رقم ١٦٥٩.

(3) رواه أبو داود رقم ١٥٢١ والبخاري رقم ١١٦٢.

(4) رواه البخاري رقم الحديث: ١١٦٢.

(5) سورة المزل، الآية: ٢٠.

التي اتخذها الإنسان عامة تعبدًا للمعبود كان تقديم جزء من أمواله ومواشيه وإنتاجاته نذرًا له، وهو الصدقة أو النذر والتضحية. والزكاة في الأصل هي بمثابة الصدقة والنذر لله ولذلك يتعبد بها. واستخدم القرآن لفظة الصدقة لها وأكد على تأديته بخضوع القلب وعجزه، فقال:

﴿الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾⁽¹⁾ وقال:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءَاتُوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاكِعُونَ﴾⁽²⁾.

فهذا حق المال اختص لله تعالى: فقال تعالى موضحًا ذلك:

﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾⁽³⁾. فكان تقليدًا سائدًا أن ذلك المال بعد النذر إلى المعبد كان يُقدم لخدام المعبد لكي يخدموا منه الزائرين والعابدين، ولم تبق هذه الطريقة في شريعتنا وقد أمرنا بدلًا من ذلك أن هذا المال لا بد من إعطائه وتسليمه إلى أرباب الحل والعقد لاحتياجات المجتمع، ولكن لم تتغير حقيقته فإنه مخصص لله ويُقبل ويرد من الله سبحانه حين يؤدونه عباده فقال:

﴿الْمُرِّيْعَلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾⁽⁴⁾.

ولهذه العبادة مكانة كبيرة في الدين لدرجة أن الله تعالى قد عدها من مستلزمات الإيمان للمرء وشرائطه كالصلاة فقال:

﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ فإنها ثمرة ثانية للإيمان بعد الصلاة عند القرآن، كما يتبين ذلك من خلال الآيات من المؤمنين والمعارج التي قد ذكرناها سالفًا في بيان أهمية الصلاة أن الزكاة تأتي ثانيًا في فهرس الأعمال الصالحة. ومن حيث ذلك فقد ذكرها القرآن في مقام وأصفاً للمشركين أنهم لا يؤدون الزكاة وهم المنكرون ليوم الحساب، فقال:

(1) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

(2) سورة المؤمنون، الآية: ٢٣.

(3) سورة الأنعام، الآية: ١٤١.

(4) سورة التوبة، الآية: ١٠٤.

﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَفِرُونَ﴾^(١).

وقد أوضح النبي ﷺ مكانة الزكاة هذه في أحاديثه فقال فيما رواه عنه أبو

هريرة رضي الله عنه:

«من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له ماله شجاعا أقرع له زبيبتان يطرقه يوم القيامة، يأخذ بلهزمتيه - يعني شذقيه - ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك»^(٢) وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال: قال النبي ﷺ: إن الذين لا يؤدون الزكاة يوم القيامة يعذبون، تحمى عليهم تلك الأموال من الذهب والفضة وما يقوم مقامها فيُعذبون بها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين الناس ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار، وصاحب الإبل والبقر والغنم يبطح لها بقاع قرقر تمر عليه تطؤه بخفافها وأظلافها، الإبل بخفافها والبقر والغنم بأظلافها، وتنطحه البقر والغنم بقرونها وتعظه الإبل بأفواهها كلما مرت عليه أخرها عادت عليه أولها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة»^(٣).

وقد بين القرآن أن هذا يتعلق أيضًا بكافة الحقوق والمطالبات ومصارف الخير علاوة على الزكاة والتي قد أمر الله الناس للإنفاق فيها فقال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِنَفْسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾^(٤).

تاريخ الزكاة

أما تاريخ الزكاة فهو نفس تاريخ الصلاة، لأن القرآن يفيد أن حكم الزكاة

(١) سورة فصلت، الآيتان: ٦ و ٧.

(٢) رواه البخاري رقم: ١٤٠٣.

(٣) رواه البخاري رقم ١٤٦٠ ومسلم رقم ٢٣٠٠.

(٤) سورة التوبة، الآيتان: ٣٤ و ٣٥.

كان أيضًا مثل الصلاة في شريعة الأنبياء منذ الأزل. فلما جاء حكمها للمسلمين فما كان لهم شيئًا جديدًا بديعًا لأن أتباع الدين الإبراهيمي كلهم واقفون عليها ومطلعون على أحكامها وقوفًا تامًا. ولذلك قال لها القرآن إنها حق معلوم.

ولذا فكانت الزكاة سنة معلومة من قبل، أجراها النبي ﷺ في المسلمين بعد إدخال إصلاحات وتعديلات ضرورية، وقد وصف القرآن أن إسماعيل عليه السلام:

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾⁽¹⁾. وجاء في بني إسرائيل أن الله قد عهد لهم ووعدهم:

﴿إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾⁽²⁾. كما قد وصى لآباء بني إسرائيل الكرام: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾⁽³⁾.

وقد قال المسيح عليه السلام في نفسه:

﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾⁽⁴⁾. وقال القرآن الكريم في الزكاة:

﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ * وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾⁽⁵⁾.

وقد جاء ذكر الزكاة في الكتاب المقدس بمثل هذا الوصف:

آيات من الكتاب المقدس عن الزكاة

«وكل عشر محصول الأرض، سواء كان من بذور الأرض أو من ثمر الشجر، فهو لله وهو مقدس لله. ومن أراد أن يفك من عشره فليزيد عليه خمسة

(1) سورة مريم، الآية: ٥٥.

(2) سورة المائدة، الآية: ١٢.

(3) سورة الأنبياء، الآية: ٧٣.

(4) سورة الأنبياء، الآية: ٧٣.

(5) سورة البينة، الآية: ٤ و ٥.

وفيكه، والبقرة أو البقر أو الغنم أو المعز أو أية بهيمة تمر تحت عصا الراعي فعشرها، أي عشرة وراء كل دابة ههنا هي حرم لله»⁽¹⁾.

وجاء في كتاب العدد:

: «وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا

«وَاللَّاوِيُّونَ تَكَلَّمَهُمْ وَتَقُولُ لَهُمْ: مَتَى أَخَذْتُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْعُشْرَ الَّذِي أَعْطَيْتُكُمْ إِيَّاهُ مِنْ عِنْدِهِمْ نَصِيبًا لَكُمْ، تَرْفَعُونَ مِنْهُ رَفِيعَةَ الرَّبِّ: عُشْرًا مِنَ الْعُشْرِ⁽²⁾.
«تَعْشِيرًا تُعْشِّرُ كُلَّ مَحْصُولِ زَرْعِكَ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الْحَقْلِ سَنَةً بِسَنَةٍ⁽³⁾.

فِي آخِرِ ثَلَاثِ سِنِينَ تُخْرِجُ كُلَّ عُشْرٍ مَحْصُولِكَ فِي تِلْكَ السَّنَةِ وَتَضَعُهُ فِي أَبْوَابِكَ فَيَأْتِي اللَّاوِيُّ، لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ قِسْمٌ وَلَا نَصِيبٌ مَعَكَ، وَالْغَرِيبُ وَالْيَتِيمُ وَالْأَرْمَلَةُ الَّذِينَ فِي أَبْوَابِكَ، وَيَأْكُلُونَ وَيَشْبَعُونَ، لِكَيْ يُبَارِكَكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ فِي كُلِّ عَمَلٍ يَدُكَ تَعْمَلُ⁽⁴⁾.

«مَتَى فَرَعْتَ مِنْ تَعْشِيرِ كُلِّ عُشُورِ مَحْصُولِكَ، فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ، سَنَةِ الْعُشُورِ، وَأَعْطَيْتَ اللَّاوِيَّ وَالْغَرِيبَ وَالْيَتِيمَ وَالْأَرْمَلَةَ فَأَكَلُوا فِي أَبْوَابِكَ وَشَبِعُوا⁽⁵⁾.

وَيُلْ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِيسِيُّونَ الْمُرَاوُونَ! لَأَتَّكُمْ تُعْشَرُونَ النَّعْنَعَ وَالشَّبِثَ وَالْكُمُونَ، وَتَرَكْتُمْ أَثْقَلَ النَّامُوسِ: الْحَقَّ وَالرَّحْمَةَ وَالْإِيمَانَ. كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَعْمَلُوا هَذِهِ وَلَا تَتْرَكُوا تِلْكَ.

أَيُّهَا الْقَادَةُ الْعُمَيَّانُ! الَّذِينَ يُصَفُّونَ عَنِ الْبُعُوضَةِ وَيَبْلَعُونَ الْجَمَلَ⁽⁶⁾.

(1) سفر الأحبار ٢٧: ٣٠، ٣١.

(2) سفر العدد ١٨: ٢٥ — ٢٦.

(3) سفر التثنية ١٤: ٢٢.

(4) سفر التثنية ١٤: ٢٨ — ٢٩.

(5) سفر التثنية ٢٦: ١٢.

(6) سفر متى ٢٣: ٢٤ — ٢٣.

مقاصد وأهداف الزكاة

ويتعين مقصد الزكاة وهدفها من اسمها، فإن أصلها ينبئ عن النمو والطهارة والزكو، فأريد منها مال يعطي لحصول الزكو والطهارة. وواضح عن ذلك أن الزكاة أيضًا تقصد ما يهدف إليه الدين بأسره. فهي تزكي النفس من الأنجاس التي يمكن أن تغلبها بحب المال وأنها تورث المال البركة وتبعث النفس على الطهارة والازدياد فيها، وهو مطلب شرعي على أقل حد للإنفاق في سبيل الله والمرء المسلم مسؤول عن إتمامه على كل حال، ولذا فلم يحصل منها كل ما يمكن حصوله من الإنفاق العام والذي قد بيناه من قبل في فصل «الأخلاقيات» تحت موضوع الإنفاق في سبيل الله ومع ذلك فإن الإنسان ينقطع إلى الله من الزكاة أيضًا إلى حد كبير وتبعد عنه الغفلة التي طرأت عليه بسبب الانغماس في الدنيا وأسبابها وزخرفتها. وعلى حد قول المسيح عليه السلام إن قلب الإنسان موضوع حيث يكون ماله⁽¹⁾ وهذا أمر لا يحتاج إلى ثبوت. وللمرء أن يجربه من إنفاق ماله في سبيل الله. وقد أوضح القرآن نفسه مقصد الزكاة هذا بنفسه فقال:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾⁽²⁾ وقال:

﴿وَمَا أَكْتُمُ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾⁽³⁾.

قانون الزكاة

وتشريع الزكاة قد بلغنا بإجماع المسلمين وتواترهم العملي وإذا نظرنا إلى أصله في الشرع وبغض النظر عن اختلافات الفقهاء في فهم الشريعة فلنا أن نبيّنه كما يأتي:

(1) متى ٢١: ٦ — ولوقا ١٢: ٣٤.

(2) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

(3) سورة الروم، الآية: ٣٩.

١ - لا يستثنى شيء من الزكاة إلا وسائل الإنتاج والتجارة والعمل والأشياء للاستخدام الذاتي والمال الذي لم يبلغ حد النصاب. فتجب الزكاة في كل قسم من الإنتاج والمال والماشية ويُحصّل كل عام من كل فرد مسلم وذلك بشرح آت:

يؤخذ ٢ / ٢١ أثنان ونصف في المئة في المال في المائة سنوياً.

أما في الإنتاج فإذا حصل من العمل والجد أصالة أو من رأس المال أصلاً ففي لك حصاد يؤخذ عشر المال وإذا حصل الإنتاج من تعامل الكسب والمال كليهما فنصف العشر، وإذا حصل فقط بالعطية الإلهية بغير الكد والمال كليهما فعشرون في المئة.

وفي المواشي:

(أ) الإبل: من خمسة إلى ٢٤ شاة واحدة في كل خمسة ذود

من ٢٤ إلى ٣٥ بنت مخاض وإذا لم تتوفر فجمل يبلغ من العمر عامين

من ٣٦ إلى ٤٥، بنت لبون أي ناقة تبلغ من العمر ستان

من ٤٦ إلى ٦٠، حقة أي ناقة تبلغ من العمر ثلاث سنوات،

من ٦١ إلى ٧٥، جزعة أي جمل يبلغ من العمر أربع سنوات،

ناقتان تبلغان من العمر عامين من ٧٦ إلى ٩٠ رأساً،

من ٩١ إلى ١٢٠، ناقتان تبلغان من العمر ثلاث سنوات،

بنت لبون أي ناقة تبلغ من العمر عامين لكل ٤٠ عامًا وحقة ناقة تبلغ من

العمر ثلاث سنوات لكل ٥٠ رأساً على أكثر من ١٢٠

(ب) البقرة: ومقدار زكاة الأبقار يكون بحسب أعدادها على النحو التالي:

تبيع عمره عام واحد لكل ٣٠ وعجل عمره ستان لكل ٤٠ بقرة.

(ج) الغنم:

من ٤٠ إلى ١٢٠ رأس عنزة،

من ١٢١ إلى ٢٠٠، اثنين من الماعز،

من ٢٠١ إلى ٣٠٠، ثلاثة ماعز،

وعنزة واحدة على كل ١٠٠ من أصل أكثر من ٣٠٠ رأس.

٣- وما كان هناك أي إبهام أو التباس عن مصارف الزكاة، فإنها لم تزل تصرف في تلبية حاجات الفقراء والمساكين والنظام الجماعي ولكن إذا اعترض المنافقون بعض الاعتراضات عل ذلك في زمن الرسالة فالقرآن جاء ببيان واضح شامل في حدود المصارف أيضًا فقال:

﴿إِنَّمَا أَصَدَقْتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(١).

فالمصارف التي بيئتها الآية الكريمة نفصلها فيما يأتي:

أولاً: الفقراء

وثانياً: المساكين

وثالثاً: للعاملين عليها: المراد بها تعويض خدمات معظم المسؤولين والعاملين للدولة لأن كل مسؤولي النظم الجماعي إنما يكونون في الأصل عاملين على أخذ الضرائب وردها إلى المصارف وتعبير «العاملين عليها» تعبير بليغ جداً واستخدمه القرآن لأداء المفهوم الذي أشرنا إليه، ولا شك أن الناس قد تقاصروا في فهم ذلك عامة ولكن هذا المفهوم واضح جلي إذا أخذ في الاعتبار التأليف لهذه الفقرة التي قد بيّناه آنفاً.

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٠.

ورابعًا: للمؤلفة قلوبهم. وهذا شامل لجميع المصروفات السياسية في صالح الإسلام والمسلمين.

وخامسًا: في الرقاب أي لفك كل العاني والرقاب.

وسادسًا: للغارمين أي لمساعدة أناس غارمين في نقصان أو دين أو غرامة وقرض.

وسابعًا: في سبيل الله أي في سبيل الخدمات الدينية.

وثامنًا: لابن السبيل أي لمساعدة المسافرين وفي جهات عمارة الشوارع والطرق والجسور والنزل.

٤ - صدقة الفطر: وهي أيضًا نوع من الزكاة. وذلك عبارة عن طعام يوم لشخص صباحًا ومساءً. يجب أدائه على كل فرد من العائلة صغيرًا كان أو كبيرًا ويؤدي قبل صلاة العيد وعلى اختتام رمضان المبارك، وروي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: فرض رسول الله زكاة الفطر طهرةً للصائم من اللغو والرفث وطعمةً للمساكين من أداها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات^(١). وصدقة الفطر كانت تؤدي في عهد الرسالة عامةً في صورة الحبوب، فقد قدر رسول الله مقداره صاعًا أي ما يساوي اثنين ونصف في المئة كيلو غرامًا من شعير ونحوه، فقد روى البخاري أنه:

فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر صاعًا من تمر أو صاعًا من شعير، على العبد والحر، والذكر والأنثى، والصغير والكبير من المسلمين، وأمر بها أن تؤدي قبل خروج الناس إلى الصلاة^(٢). والنظم الجماعي إذا حَصِّل الزكاة فقد يكون هناك معطون ومحصلون عليها، ونصح رسول الله ﷺ كليهما أن من يعطي الزكاة

(١) رواه أبو داود رقم ١٦٠٩ وابن ماجه رقم ١٨٢٧.

(٢) البخاري، رقم ١٥٠٣.

ينبغي أن يحاولوا طمأنة وإرضاء المحصلين وإن اعتدوا عليهم اعتداءً⁽¹⁾ وأن لا يخون المحصلون⁽²⁾ فقال: إياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب⁽³⁾.

وهذا هو قانون عام للزكاة ولكن هناك بعض الإيضاحات الضرورية بسبب الأخطاء الفاحشة في ذلك.

أولاً: ليس هناك مأخذ لشرط تمليك الزكاة الذي وضعه فقهاؤنا ولذا فلا مانع لإعطاء للجهات المعنية بالخير، ورفاهية الناس كما يجوز إعطاؤها لفرد خاص. وللاستزادة في ذلك يُنظر في «بحث قضية التمليك» كتبه الأستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاح في كتابه «التوضيحات».

وثانياً: لما نهى النبي ﷺ بني هاشم عن أخذ شيء من مال الزكاة، فكان وجه ذلك عندنا أنه كان قد اختص جزء من مال الفيء لرسول الله ﷺ ولأقربائه⁽⁴⁾، وظل ذلك باقياً فيما بعد إلى مدة. وبما أنه لا يمكن أن يبقى ذلك للأبد ولا حاجة إليه ولذا فلا مشاحة اليوم أن يصرف مال الزكاة في تلبية حاجات فقراء ومساكين بني هاشم أيضاً في زماننا الراهن.

وثالثاً: إذا أراد النظم الجماعي رعاية للظروف والملايسات أن تستثني شيئاً من الزكاة فلها أن تفعل ذلك كما أنها يمكن لها أن تضع نصاباً متوافقاً للتقليد السائد للأشياء التي تحصل عليها الزكاة، ولأجل هذا الغرض قد وضع النبي ﷺ نصاباً للزكاة في المال والماشية والإنتاجات الزراعية. وهذا النصاب كان كما يأتي:

في المال والثروة خمسة أوقية أي ٦٤٢ جراماً من الفضة.

(1) ما كما جاء في مسلم رقم ٢٢٩٨ وأبو داود رقم ١٥٨٩.

(2) رواه مسلم رقم ٤٧٤٣.

(3) رواه البخاري رقم ١٤٩٦ ومسلم رقم ١٢١.

(4) كما جاء في البخاري رقم ١٤٨٥ ومسلم رقم ٢٤٧٣.

وفي الإنتاج خمسة وسق أي ما يعادل ٦٥٣ كجم تمرور.

وفي الماشية خمسة جمال و٣٠ بقرة و٤٠ ماعزًا.

فقال ﷺ:

ليس فيما دون خمسة أو سق من التمر صدقة، وليس فيما دون خمس أواق من الورق صدقة، وليس فيما دون خمس ذود من الإبل صدقة^(١).

ورابعًا: إن ما يحصل من الصناعات في الزمن المعاصر أو ما يحدثه أهل الفن بفنونهم وما يحصل بصورة الخدمات العامة، من اكتراء ورسوم مختلفة وتعويضات الخدمات كل ذلك يدخل في حكم الإنتاج تمشيًا مع رعاية مناهج الحكم. ولذا فليُلحق بالمزروعات لا بالأموال التجارية، وينبغي أن نختار فيها ضابطاً وضعه الشرع في حاصل الزرع.

وخامسًا: وفقًا لهذه القاعدة، إذا تم استئجار المنازل والممتلكات وغيرها من الأشياء، يجب فرض زكاة المزروعات عليها، وإذا لم تستخدم على الاستئجار فيجب أن تفرض عليها زكاة المال.

الصوم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ * أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ. وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا

(١) الموطأ، رقم ٦٨٣.

يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْنَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١﴾.

ومن أهم العبادات بعد الصلاة والزكاة الصوم. وتأتي لفظة «صوم» في اللغة العربية لذلك. ويطلق الصوم على الإحجام عن الشيء والامتناع عنه. وإذا يُجَاع الخيل ويمنع من شرب الماء يقال له خيل صائم، ويطلق الصوم في الشرع على الامتناع عن الأكل والشرب تحت قيود وشروط خاصة وعن العلاقات الزوجية، ويقال في الأردية «روزة» لذلك.

وبما أن الإنسان يحوز في هذه الدنيا بوجود فعلي له فإذا تعلق شعوره بالعبادة بوجوده الفعلي يشمل فيه الطاعة بالعبادة. والصوم إعراب رمزي عن الإطاعة، والصوم يتمثل في العبد المطيع أن يمتنع عن بعض المباحات ابتغاءً لرضا الرب تعالى وطلباً له على حكم من الله عز وجل. فكأنه يعلن عن لسان حاله أنه ليس عنده شيء أكبر من الله سبحانه وأمره ونهيه. فإذا يحرم الله تعالى في حقه بعض المباحات له وفق قانون الفطرة فإنه يليق بشأنه كعبد أن ينقاد لأمر الله ويدعن له إذعائاً تاماً.

وهذا الاعتراف لعظمة الله وجلالته وكبريائه هو اعتراف حقيقي وشكر العبد له. فالصوم عند القرآن هو تكبير الرب تعالى وشكره، وخص الله سبحانه لهذا الغرض شهراً خاصاً أنزل فيه القرآن هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان، فقال:

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْنَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٢).

ولذلك قال: إن الصوم لي وأنا أجزي به «ومعنى ذلك أن العبد إذا امتنع عن بعض الأشياء المباحة أيضاً فقط لامتنال أمر الله فالآن يؤتيه أجره من عند نفسه بدون حساب ولا كيل كرامة له وتشريفاً، فقد جاء في ما رواه أبو هريرة (رضي الله عنه):

(١) سورة البقرة، الآيات: ١٨٣ — ١٨٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

قال قال النبي ﷺ كل عمل ابن آدم يُضاعف، الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعة مئة ضعف، قال الله تعالى، إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به يدع شهوته وطعامه من أجلي، وللصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه، ولخُلوْف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك⁽¹⁾. وهذا ينبئ عن ما للصوم من أهمية كبرى عند الله سبحانه، ولذا قال:

لخُلوْف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك⁽²⁾. وأيضاً قال:

إن في الجنة باباً، يقال له الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحد غيرهم، يقال: أين الصائمون؟ فيقومون لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد⁽³⁾.

ومنتهى الكمال لهذه العبادة عند الشرع هو أن يفرض المرء على نفسه بعض القيود مزيداً أثناء الصوم وأن يعزل نفسه من الناس في زاوية لمسجد ويكثر من عبادة الله تعالى ويقال لهذا في الشرع الاعتكاف. وهو أيضاً عبادة قديمة لا تزال موجودة في دين الأنبياء ﷺ. والاعتكاف ليس واجباً وجوب صوم رمضان ولكن له مكانة كبيرة من وجهة نظر تزكية النفس. فبسبب الكيفية الحاصلة من امتزاج الصوم والصلاة والتلاوة كمثال كيف الحاصل من «امتزاج ماء الورد بالخمير المصفى» وحالة التجرد والانقطاع والتبتل إلى الله يحصل منه المقصود الأصلي من الصوم. ولأجل ذلك فقد كان النبي ﷺ يعتكف كل عام في مسجده، وكان يقف ليلاليه ونهاره للدعاء والتضرع والمناجاة والركوع والسجود وتلاوة القرآن. فقد روت عائشة أم المؤمنين وقالت:

«كان النبي ﷺ إذا دخل العشر، شدّ مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله»⁽⁴⁾.

(1) رواه البخاري رقم: ١٩٠٤ ومسلم رقم ٢٧٦٧.

(2) بخاري، رقم ١٨٩٤.

(3) رواه البخاري، رقم ١٨٩٦.

(4) رواه البخاري، رقم ٢٠٢٤.

وفرضت هذه العبادة - عبادة الصوم - على المسلمين في شهر رمضان المبارك، ولا شك أن ميل النفس وأهواءها لا تنتهي وتبقى ترغيبات النفس دائماً وتفعل فعلها ولكن قد تكرم الله تعالى خاصة في شهر رمضان المبارك أن يسد جميع أبواب التضليل والإغواء على شياطين الجن فقال: إذا دخل رمضان فتحت أبواب السماء وأغلقت أبواب جهنم وقيدت الشياطين بالأغلال⁽¹⁾.

ويتيسر لكل امرئ أن يجاهد في سبيل حصول الخير والفلاح له إذا شاء بدون عوارض وموانع خارجية في هذا الشهر وجاءت صلته في الروايات أن تغفر له ذنوبه. فهذا هو قانون عام للقرآن عن التوبة والإصلاح ولكن قد بشر رسول الله ﷺ الناس خصوصاً عن رمضان المبارك فقال:

«من صام رمضان إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدم من ذنبه⁽²⁾». وقال:

«من قام رمضان إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدم من ذنبه⁽³⁾».

وقد جاء ذلك في قيام ليلة القدر أيضاً⁽⁴⁾ فهذه ليلة نزول القرآن وقد قال الله تعالى: تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام. وتحصل في هذه الليلة الواحدة من إمكانات القرب الإلهي ومضان الرحمة والبركة ما لا تحصل في ألف ليلة ولذلك قال: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾⁽⁵⁾.

وقال النبي ﷺ: تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان⁽⁶⁾.

وماذا يحمل هذا التعيين للأيام والأوقات للعبادة من أهمية كبرى؟ قد فسر ذلك الأستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاحي في تفسيره تدبر القرآن فقال:

(1) رواه البخاري رقم ٢٠٢٥ ومسلم رقم ٢٧٨٢.

(2) البخاري، رقم ٢٠٠٩.

(3) البخاري، رقم ٣٧.

(4) كما رواه البخاري رقم ١٩٠١ ومسلم رقم ١٧٨١.

(5) سورة القدر، الآية: ٣.

(6) رواه البخاري رقم ٢٠١٦ - ٢٠١٧ ومسلم رقم ٦٣ - ٢٧ - ٦٤ - ٦٩.

«كما أن هناك اعتبارًا خاصًا للفصول والمواسم في هذه الحياة الدنيوية فكذلك يؤخذ ذلك بالاعتبار في العالم الروحي أيضًا، فكما أن هناك مواسم معينة وشهورًا خاصة لزراعة أشياء خاصة. تذرّها فيها فتثمر وتنبت فيها وإذا أعرضت عن تلك المواسم والفصول الخاصة لا تستبدل بأطول مدة من الشهور الأخرى. فكذلك تعين هناك مواسم وفصول خاصة وأوقات وأيام خاصة لأعمال خاصة في العالم الروحي. فإذا جئت بتلك الأعمال في تلك الأيام والمواقيت تعطي مطالب وثمرات مطلوبة ونتائج مرادة، وإذا أغمضت النظر عن تلك الأيام والأوقات لا تقوم مقامها مقادير كبيرة من الأيام والأوقات الأخرى. خذ مثلاً أن هناك يومًا خاصًا للجمعة وشهرًا خاصًا للصوم وشهرًا خاصًا للحج وأيامًا خاصة له ويومًا معينًا لوقوف عرفة. وقد خص الله سبحانه عبادات كبيرة لهذه الأيام والمواقيت لا حد لها ولا نهاية لأجرها وثوابها. ولكن سائر بركاتها تظهر في صورتها الأصلية إذا تمت بضبط وتقييد بتلك الأيام والمواقيت الخاصة وإن لم يكن ذلك تفوت البركة برمتها التي تحتويها وتشملها تلك الأيام والأوقات»⁽¹⁾.

تاريخ الصوم

إن الصوم له أيضًا تاريخ قديم جدًا كالصلاة وشهد لذلك القرآن حين قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾⁽²⁾ فهذه حقيقة أن تصور الصوم كان يتواجد عند جميع الأديان والمذاهب من حيث عبادة هامة لتربية النفس وكبح جماحها.

وحضارة بابل والنينوى تاريخها متوغل في القدم ففي زمان كان الآشوريون مستوطنين هناك وكان يونس عليه السلام قد بعث إليهم، إنهم كذبوه في أول مرحلة ولكنهم آمنوا به في المرحلة الثانية وقد جاء ذكر توبتهم ورجوعهم في صحيفة يونا كما يأتي:

(1) تدبر القرآن ٩/ ٤٦٨.

(2) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

فَأَمَّنَ أَهْلَ نَيْنَوَى بِاللَّهِ وَنَادَوْا بِصَوْمٍ وَلَبِسُوا مُسُوحًا مِنْ كِبِيرِهِمْ إِلَى صَغِيرِهِمْ.

وَبَلَغَ الْأَمْرُ مَلِكَ نَيْنَوَى، فَقَامَ عَنْ كُرْسِيِّهِ وَخَلَعَ رِدَاءَهُ عَنْهُ، وَتَغَطَّى بِمِسْحٍ وَجَلَسَ عَلَى الرَّمَادِ.

وَنُودِيَ وَقِيلَ فِي نَيْنَوَى عَنْ أَمْرِ الْمَلِكِ وَعُظْمَائِهِ قَائِلًا: «لَا تَذُقِ النَّاسُ وَلَا الْبَهَائِمُ وَلَا الْبَقَرُ وَلَا الْغَنَمُ شَيْئًا. لَا تَرْعَ وَلَا تَشْرَبْ مَاءً.

وَلْيَتَغَطَّ بِمُسُوحِ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ، وَيَصْرُخُوا إِلَى اللَّهِ بِشِدَّةٍ، وَيَرْجِعُوا كُلُّ وَاحِدٍ عَنْ طَرِيقِهِ الرَّدِيئَةِ وَعَنِ الظُّلْمِ الَّذِي فِي أَيْدِيهِمْ⁽¹⁾،

وكان الصوم ليس شيئاً غريباً أجنبياً عند العرب الجاهليين، فأن وجود لفظ «الصوم» في لغتهم دليل كافٍ على أنهم كانوا مطلعين على هذه العبادة.

وقال الأستاذ جواد علي:

«ويذكر أهل الأخبار أن قريشا كانت تصوم يوم عاشوراء، وفي هذا اليوم كانوا يحفلون، ويعبدون، ويكسون الكعبة، وعللوا ذلك بأن قريشاً أذنت ذنباً في الجاهلية، فعظم في صدورهم، وأرادوا التكفير عن ذنبهم

فقرروا صيام يوم عاشوراء، فصاموه شكراً لله على رفعه الذنب عنهم. وذكر أن رسول الله كان يصوم عاشوراء في الجاهلية، ولما قدم المدينة واطب عليه وأمر الناس بصيامه حتى نزل

الأمر بصيام رمضان..... وعللوا سبب صيام (قريش) هذا اليوم أنه كان أصابهم قحط ثم رفع عنهم فصاموا شكراً⁽²⁾.

وكان الصوم أيضاً عبادة مشتركة في الشريعتين اليهودية والمسيحية. وقد ورد ذكر صيامهم في الكتاب المقدس في مواضع عديدة، وبالإضافة إلى هذه

(1) سفر يونا: ٣: ٥ — ٨.

(2) الجزء السادس من التاريخ المفصل للعرب قبل الإسلام / ٣٣٩ — ٣٤٠.

الكلمة الخاصة، (الصوم) تم أيضًا اعتماد تفسيرات «إعطاء الحياة» و«التضحية بالنفس» للصوم في بعض المواضع. فجاء في سفر الخروج ما يلي:

وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «اكَتُبْ لِنَفْسِكَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، لِأَنِّي بِحَسَبِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ قَطَعْتُ عَهْدًا مَعَكَ وَمَعَ إِسْرَائِيلَ

وَكَانَ هُنَاكَ عِنْدَ الرَّبِّ أَرْبَعِينَ نَهَارًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، لَمْ يَأْكُلْ خُبْزًا وَلَمْ يَشْرَبْ مَاءً. فَكَتَبَ عَلَى اللَّوْحَيْنِ كَلِمَاتِ الْعَهْدِ، الْكَلِمَاتِ الْعَشْرِ⁽¹⁾.

وَيَكُونُ لَكُمْ فَرِيضَةٌ دَهْرِيَّةً، أَنْكُمْ فِي الشَّهْرِ السَّابِعِ فِي عَاشِرِ الشَّهْرِ تُذَلِّلُونَ نُفُوسَكُمْ، وَكُلَّ عَمَلٍ لَا تَعْمَلُونَ: الْوَطْنِيُّ وَالْغَرِيبُ النَّازِلُ فِي وَسْطِكُمْ لِأَنَّهُ فِي هَذَا الْيَوْمِ يُكْفَّرُ عَنْكُمْ لِتَطْهِيرِكُمْ. مِنْ جَمِيعِ خَطَايَاكُمْ أَمَامَ الرَّبِّ تَطْهُرُونَ.

سَبَبْتُ عُطْلَةً هُوَ لَكُمْ، وَتُذَلِّلُونَ نُفُوسَكُمْ فَرِيضَةً دَهْرِيَّةً⁽²⁾

فصعد جميع بني إسرائيل وكل الشعب وجاؤوا إلى بيت ايل وبكوا وجلسوا هناك أمام الرب وصاموا ذلك اليوم إلى المساء واصعدوا محرقات وذبائح سلامة أمام الرب⁽³⁾.

وَنَدَبُوا وَبَكَوْا وَصَامُوا إِلَى الْمَسَاءِ عَلَى شَاوُلَ وَعَلَى يُونَاثَانَ ابْنِهِ، وَعَلَى شَعْبِ الرَّبِّ وَعَلَى بَيْتِ إِسْرَائِيلَ لِأَنَّهُمْ سَقَطُوا بِالسَّيْفِ⁽⁴⁾.

فَسَأَلَ دَاوُدُ اللَّهَ مِنْ أَجْلِ الصَّبِيِّ، وَصَامَ دَاوُدُ صَوْمًا، وَدَخَلَ وَبَاتَ مُضْطَجِعًا عَلَى الْأَرْضِ⁽⁵⁾.

وَفِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ هَذَا الشَّهْرِ اجْتَمَعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِالصَّوْمِ، وَعَلَيْهِمْ مُسُوْحٌ وَتُرَابٌ. وَانْفَصَلَ نَسْلُ إِسْرَائِيلَ مِنْ جَمِيعِ بَنِي الْغُرَبَاءِ، وَوَقَفُوا

(1) سفر الخروج، ٣٤: ٢٧ — ٢٨.

(2) سفر الأحبار، ١٦: ٢٩ — ٣١.

(3) سفر القضاة، ٢٠: ٢٦.

(4) سفر صموئيل ثاني، ١: ١٢.

(5) سفر صموئيل ثاني، ١٢: ١٦.

وَاعْتَرَفُوا بِخَطَايَاهُمْ وَذُنُوبِ آبَائِهِمْ^(١). أَمَّا أَنَا فَفِي مَرَضِهِمْ كَانَ لِبَاسِي مِسْحًا. أَذَلْتُ بِالصَّوْمِ نَفْسِي، وَصَلَاتِي إِلَى حُضْنِي تَرْجِعُ^(٢) فَادْخُلِ أَنْتَ وَاقْرَأْ فِي الدَّرَجِ الَّذِي كَتَبْتَ عَنِّي كُلَّ كَلَامِ الرَّبِّ فِي آذَانِ الشَّعْبِ، فِي بَيْتِ الرَّبِّ فِي يَوْمِ الصَّوْمِ، وَاقْرَأْهُ أَيْضًا فِي آذَانِ كُلِّ يَهُودٍ الْقَادِمِينَ مِنْ مَدِينِهِمْ^(٣).

وَالرَّبُّ يُعْطِي صَوْتَهُ أَمَامَ جَيْشِهِ. إِنَّ عَسْكَرَهُ كَثِيرٌ جِدًّا. فَإِنَّ صَانِعَ قَوْلِهِ قَوِيٌّ، لِأَنَّهُ يَوْمَ الرَّبِّ عَظِيمٌ وَمَخُوفٌ جِدًّا، فَمَنْ يُطِيقُهُ؟

«وَلَكِنَّ الْآنَ، يَقُولُ الرَّبُّ، ارْجِعُوا إِلَيَّ بِكُلِّ قُلُوبِكُمْ، وَبِالصَّوْمِ وَبِالْبُكَاءِ وَالنَّوْحِ^(٤).

وَكَانَ إِلَيَّ كَلَامُ رَبِّ الْجُنُودِ فَائِلًا:

«هَكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ: إِنَّ صَوْمَ الشَّهْرِ الرَّابِعِ وَصَوْمَ الْخَامِسِ وَصَوْمَ السَّابِعِ وَصَوْمَ الْعَاشِرِ يَكُونُ لِبَيْتِ يَهُوذَا ابْتِهَاجًا وَفَرَحًا وَأَعْيَادًا طَيِّبَةً. فَأَحْبِبُوا الْحَقَّ وَالسَّلَامَ^(٥)

«وَمَتَى صُمْتُمْ فَلَا تَكُونُوا عَابِسِينَ كَالْمُرَائِينَ، فَإِنَّهُمْ يَغَيِّرُونَ وُجُوهَهُمْ لِكَيْ يَظْهَرُوا لِلنَّاسِ صَائِمِينَ. الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُمْ قَدْ اسْتَوْفَوْا أَجْرَهُمْ وَأَمَّا أَنْتَ فَمَتَى صُمْتَ فَادْهِنْ رَأْسَكَ وَاغْسِلْ وَجْهَكَ،

لِكَيْ لَا تَظْهَرَ لِلنَّاسِ صَائِمًا، بَلْ لِأَيْكَ الَّذِي فِي الْخَفَاءِ. فَأَبُوكَ الَّذِي يَرَى فِي الْخَفَاءِ يُجَازِيكَ عَلَانِيَةً^(٦)

(١) نحميا، ١: ٩ — ٢.

(٢) سفر المزامير، ٣٥: ١٣.

(٣) سفر إرميا، ٣٦: ٦.

(٤) سفر يوشع، ١١: ١٢.

(٥) سفر زكريا، ٨: ١٨ — ١٩.

(٦) سفر متى، ٦: ١٦ — ١٨.

وَبَيْنَمَا هُمْ يَخْدُمُونَ الرَّبَّ وَيَصُومُونَ، قَالَ الرُّوحُ الْقُدُسُ: «أَفْرِزُوا لِي بَرْنَابَا
وَسَاوُلَ لِلْعَمَلِ الَّذِي دَعَوْتُهُمَا إِلَيْهِ.

فَصَامُوا حِينَئِذٍ وَصَلُّوا وَوَضَعُوا عَلَيْهِمَا الْيَدَيَّ، ثُمَّ أَطْلَقُوهُمَا⁽¹⁾.

فهذا هو تاريخ الصوم، وواضح منه أن الصوم أيضًا ما كان أجنبيًا غريبًا
مثل الصلاة والزكاة على مخاطبي القرآن، إنهم كانوا واقفين على حيثيته الدينية
ومطلعين على حدوده وشرائطه. ولذا فإن القرآن لما جاء بأمر الصوم فإنه لم يبين
أي شيء من حدوده وشرائطه بل هداهم أن يهتموا بالصوم من حيث أنه حكم
إلهي قديم ومن حيث أنه سنة قديمة يعرفونها فيأتون به كعبادة محتومة لازمة.
وامتثالاً لهذا الأمر الإلهي فقد صام النبي ﷺ وقد صام صحابته الأبرار قبل ذلك
صيامَ رمضان وفقاً لذلك وتواتر عليه المسلمون جيلاً بعد جيل. فنظراً إلى ذلك
فإن مصدر ومأخذ الصوم هو أيضاً إجماع المسلمين وتواترهم العملي. وما زاد
القرآن على أن فرضه عليهم وبيّن قانون الرخصة من الصوم للمريض والمسافر،
وجاء ببعض التفسيرات فيما بعد فيما يخص من سؤالات متصلة بذلك.

مقصد الصوم

وقد أوضح القرآن المقصد من الصوم أن يتقي الناس ربهم ﴿لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ﴾ أي يتواجد التقوى فيكم والتقوى في المصطلح القرآني يطلق على أن
يعيش الإنسان حياته متقيداً بحدود وقيود معينة من الله تعالى ويتقي الله في أعماق
قلبه أنه إذا تجاوز عن تلك الحدود فلا عاصم له من عقوبته إلا الله.

وكيف يحصل هذا التقوى من الصوم؟ لأجل التفهم في ذلك علينا أن
نضع أمامنا أموراً ثلاثة:

أولاً إن الصوم يحدث في الإنسان شعوراً قوياً بأنه عبد الله، وهذا الشعور
بالعبودية يأخذ في الحدوث إذا حُرِم الإنسان من مطالبات النفس الإنساني

(1) سفر أعمال الرسل، ١٣: ٢-٣.

الأساسية من أكل وشرب وغيرها، ثم ينمو تدريجيًا حتى أنه يغمر كل وجوده في حين إفطاره. فإنه لا يتناول لقمة طعام وشربة ماء من الفجر حتى المغرب، وإن الصائم لا يستجيب إلى رغبة نفس إلى هذه الأشياء لمحض أمثال لأمر الله سبحانه وإذا تكرر عمل الصائم هذا فتنزل هذه الحقيقة إلى أعماق وجوده

بل تسري في جبلته أنه عبد للرب تعالى، وأنه يليق له أن يستسلم للرب تعالى في كافة أمور الحياة أيضًا وأن يتناول عن حرите واختياره في الخيال والعمل كليهما. فيكون إيمان المرء بالله تعالى إيمانًا حيًا متمثلًا في كل لحظاته. ومعنى ذلك أنه لا يؤمن بآله محض بل يؤمن بذات الله السميع البصير العليم الحكيم والقائم بالقسط المطلع على كل خفائه وعلمه والذي لا مناص له من إطاعته على كل حال، فهذا هو المقدم في إحداث التقوى في نفس الأمر.

وثانيًا إن الصوم يعمّق في الإنسان هذا الشعور أن المرء ذاهب إلى ربه تعالى في يوم، أما الإيمان به فذاك حاصل لكل مسلم مؤمن. ولكن في حالة الصوم إذا اضطره العطش ويضيقه الجوع والشهوات الجنسية تتقاضى منه وبكل قوة تسكينها، فالكل يعلم أن هذا الشعور وحده هو الذي يصدّه عن قضاء هذه الداعيات للبطن والفرج، ففي كل يوم لشهر رمضان المبارك إنه يقضي يومه حارسًا لنفسه مانعًا له من قضاء هذه الاقتضاءات البنيوية النفسانية بسبب شعوره محضًا أنه ذاهب إلى ربه يومًا ويقف أمامه فيه. لدرجة أنه في حر النهار الشديدة يلدغ حلقه من العطش ويكون أمامه ثلج يستطيع أن يشرب منه بسهولة ولكنه لا يشرب كما أنه يكاد يموت من الجوع والطعام متوفر ولكنه لا يأكل، الزوجان شابان وهما منفردتان ويمكن لهما قضاء الحاجة الجنسية إذا شاءا ولكنهما لا يفعلانها، فهذه رياضة كبيرة جدًا، وشعور المسؤولية عند الله تعالى ترسخ منها رسوخًا تامًا فهذا هو الثاني البالغ التأثير لإيجاد التقوى في المرء.

وثالثًا الصبر لازم ضروري لحصول التقوى والصيام يربى الإنسان على

الصبر وليس فقط ذلك بل ليس هناك طريقة أكثر تأثيرًا منه لإنماء وتربية الصبر. إن الامتحان الذي ابتلينا به في هذه الحياة الدنيا لا حقيقة له إلا أن هناك رغبات جامحة لوجودنا الحيواني في جانب ومن جانب آخر يطلب الله منا أن نعيش في حدوده ولا نتعدها. الأمر الذي يطلب منا الصبر في كل خطوة، ولا يحصل التقوى إلا بأن نتخلق بصفات الصدق والأمانة والتحمل والحلم والوفاء بالعهد والعدل والإنصاف والعفو والصفح الجميل والتجنب من المنكرات والفواحش والاستقامة على الحق. ولا توجد هذه الأخلاق الفاضلة إلا بالصبر.

وإنما الصوم يهدف إلى حصول هذا التقوى وقرر الله سبحانه لذلك الغرض شهر رمضان المبارك وكما أوضحنا ذلك فيما مر أن وجه ذلك أن هذا الشهر هو شهر نزل فيه القرآن. وقد كتب الأستاذ أمين أحسن الإصلاحات موضحة ذلك:

«لا يمكن للمتأمل أن يختلط عليه الأمر في فهم حقيقة أن أعظم نعمة من جميع نعم الله هي العقل، وأعظم نعمة من العقل هي القرآن، لأن العقل يتلقى أيضًا الهداية الحقيقية من القرآن.. فبدون القرآن يتخبط الإنسان وعقله لا يزال يهيم في الظلام حتى بعد تركيب جميع التلسكوبات ومجاهر العلم، ولذلك كان الشهر الذي نال فيه العالم هذه النعمة، جديرًا وقمينًا بأن يُخصص له شهر خاص بتكبير الله وشكره وتسبيحه حتى يدوم الاعتراف الجميل بمنح هذه النعمة الكبرى للعالم. ولهذا الشكر والامتنان قد شرع الله تعالى عبادة الصيام، وهي عبادة خاصة للتربية على التقوى، التي يتوقف عليها قيام الدين والشرعية كلها وبقاؤها، والذي نزل القرآن في الأصل هاديًا ومرشدًا لحامله.

ويعني أن هذه الحكمة القرآنية قد جاءت بترتيب بحيث تكون النعمة الحقيقية للقرآن الكريم فقط لأولئك الذين لديهم روح التقوى في داخلهم، والوسيلة الخاصة لتدريب هذه التقوى هي عبادة الصيام، وجعل هذا الشهر خاصًا بالصيام الذي أنزل فيه القرآن، بمعنى آخر، إن هذا القرآن ربيع لهذا

العالم، وشهر رمضان هو موسم الربيع، وما يؤتي هذا الربيع وهذا الموسم من المحصول هو محصول التقوى»⁽¹⁾.

وهذا المقصود من الصوم يحصل باللزوم ولكن لا بد لذلك من أن يجتنب الصائمون من مساوئ إذا لحقت بالصوم تذهب بسائر بركاته. وهذه الأخطاء والمساوئ وإن كانت كثيرة ولكن بعضها مما لا بد من تجنبها لكل صائم. منها أن الناس يكونون من رمضان شهر اللذات والاستمتاع، إنهم يعتقدون خطأ أنه لا حساب عند الله مما يستهلكونه في رمضان،

لذلك، إذا كان هؤلاء الناس من الأثرياء والأغنياء، فهذا هو شهر الاستمتاع والعودة إلى ربيع اللذات لهم، فبدلاً من تربية الذات يجعلونه شهراً لتنمية النفس والاستعداد للإفطار كل صباح ومساءً. وطالما أنهم صائمون، فيفكرون في أن المساحة التي خلقت في بطونهم بسبب الجوع والعطش طوال اليوم، بأية نعمة سوف يملؤونها الآن. والنتيجة أنهم في البداية لا يحصلون على شيء من الصيام، وإذا حصلوا على شيء فقدوه هناك.

وطريقة تجنب هذا الاضطراب والفساد هي أن يأكل الإنسان ويشرب ليحتفظ بقوة العمل في نفسه، ولكن لا ينبغي أن يجعل الأكل هدفاً للحياة. فما وجد بغير ترتيب على المائدة وأياً كان ما تضعه العائلة على الطاولة يأكله شاكراً لله. حتى لو لم يملأ قلبه، فلا ينزعج منه. وإذا رزقه الله مالاً فعليه بدلاً من إطعام نفسه وإشباع بطنه أن ينفقه على مساعدة الفقراء والمساكين وإطعامهم. وهذا بالتأكيد سيزيد من بركات صومه. وكان هذا أسوة النبي ﷺ في شهر رمضان خاصة، كما قال ابن عباس: كان الرسول ﷺ أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان»⁽²⁾.

(1) تدبر القرآن ١ / ٤٥١.

(2) رواه البخاري رقم ٦ ومسلم رقم ٦٠٠٩.

والفساد الثاني أنه بما أن الصوم يحدث في النفس شيئاً من الاشتغال
والشدة بسبب الجوع والعطش

ولهذا السبب يتخذ البعض من الصوم ذريعةً لتأجيله، بدلاً من جعله
وسيلةً للإصلاح والتربية. إنهم يتقنون من زوجاتهم وأبنائهم ومن يعملون
تحتهم لأدنى شيء، ويقولون كل ما يخطر على بالهم، بل يغلظون لهم القول
إذا تصاعد الأمر ويلجأون إلى الألفاظ البذيئة، بل وفي بعض الأحيان يضربون
مرؤوسيهـم من غير تردد. وبعد ذلك يرضون أنفسهم بالقول أن مثل هذا يحدث
أثناء الصيام.

وعلاج ذلك أن رسول الله ﷺ قال: ينبغي للإنسان أن يتخذ الصيام في
مثل هذه المناسبات درعاً وجنة له، بدلاً من أن يتخذ ذريعةً للغضب. فعلى المرء
إذا صادفه أمر كهذا أن يتذكر أنه صائم، فقد قال النبي ﷺ «الصيام جنة وإذا كان
يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني امرؤ
صائم»⁽¹⁾.

فمن الحقيقة أن الصائم إذا اتبع طريقة التذكر هذه في كل مناسبة غضب
واستفزاز، فإنه سيجد تدريجياً أنه قد تغلب على شيطان نفسه وأجمه لدرجة
أنه أصبح أقل قدرة على الإطاحة به الآن. وهذا الشعور بالانتصار على الشيطان
سيخلق شعوراً بالرضا والعلو في قلبه، ويصبح هذا التذكر بالصوم وسيلة
لإصلاح. عندها سوف يغضب في محله حيث يجب الغضب. ولن يكون من
الممكن لأحد أن يستفزه بين الحين والآخر.

وثالثاً أن الكثيرين إذا تركوا انغماسهم في ملذات الطعام وغيره، أخذوا
يبحثون عن اشتغالات أخرى، غير مضرّة عندهم للصوم، فهم يتسلون بالألعاب
النرد وقراءة الروايات والقصص والاستماع إلى الأغاني والغزلات ورؤية
الأفلام، أو يمضون أوقاتهم في مجالسة الإخوان يغتابون الآخرين ويهجونهم،

(1) رواه البخاري رقم ١٨٩٤ ومسلم رقم ٢٧٠٣.

لأن المرء في حالة الجوع في الصوم يلتذ في أكل لحم أخيه، وتكون النتيجة أنهم أحياناً يدخلون هذه الهواية صباحاً ولا ينصرفون عنها إلا بأذان المؤذن.

ومن علاجه الناجع أولاً أن يختار المرء السكوت أدباً للصوم،

ويحاول أن يبقى قفلاً على لسانه على الأقل في مسألة الكلام الفارغ وقول الحقائق الكاذبة ويلجمه عن نشر الشائعات. فقد قال النبي ﷺ: من لم يترك الكذب والعمل به فليس لله حاجة أن يدع المرء له طعامه وشرابه⁽¹⁾.

والعلاج الثاني لذلك هو أنه في الوقت الذي يبقى عنده بعد المهام الأساسية، يجب على المرء دراسة القرآن والحديث وفهم الدين. عليه أن ينتهز الفرصة ويذكر القرآن وجزءاً من صلوات وأدعية النبي ﷺ فيه. وبهذه الطريقة سوف يتجنب من هذه الهوايات المذكورة في الصيام وبعد ذلك ستكون هذه الذخيرة مفيدة له للحفاظ على ذكر الله في قلبه والمداومة عليه.

والفساد الرابع أن المرء لا يصوم لله في بعض الأحيان بل يصوم إما رياءً وسمعةً وإما لأن يتجنب من ملامة أهله وذويه وإخوانه وأحياناً يجهد نفسه بالصوم حفاظاً على وهم دينه بين الناس، فهذا أيضاً لا يبقى الصوم صوماً.

وعلاج ذلك أن المرء يُذكر دائماً بما للصوم من مكانة دينية كبيرة، وأن يلقتها وينصحها أنها إن ترك الطعام والشراب وسائر المتع فلماذا لا تتركها لله تعالى خالقها، وعلاوةً على ذلك أن يهتم بصوم نافلة أحياناً علاوةً على رمضان وأن يخفيها على أكثر ما يكون. فيرجى أن تصبح صيامه المفروضة هذه خالصةً لوجه الله في وقت ما.

والصيام النافلة التي كان رسول الله ﷺ يتطوع بها وكان يرغب الناس فيها أيضاً هي كالتالي:

(1) رواه البخاري رقم: ١٩٠٣.

صوم يوم عاشور

فقد وردت فضيلته في الأحاديث والآثار⁽¹⁾ وكان رسول الله يصومه عامة⁽²⁾ وإذا دخل قبل صوم رمضان فكان يصومه لازماً وكان يأمر الناس بصومه ويحثهم ويراقبهم على ذلك⁽³⁾. وقد جاء أن قريشاً كانوا يصومونه⁽⁴⁾ وجاء أن اليهود كانوا يصومونه فسألهم ما سبب الصيام؟ قالوا يوم أنجى الله فيه موسى ومن معه، وأغرق فرعون ومن معه فصامه شكراً لله فنحن نصومه فقال لهم النبي ﷺ: نحن أحق بموسى منكم فصامه وأمر الناس بصيامه⁽⁵⁾.

صيام يوم عرفة

وفضله معلوم لكل مسلم وقد قال رسول الله ﷺ: أحسب أن صومه يكفر سنة قبله وسنة بعده⁽⁶⁾. وأريد بكفارة الذنوب هنا الذنوب التي لا تتصل بحقوق العباد أو التي لا تحتاج إلى توبة وتلافي ما فات من كفارة وغيرها. ولكنه لم يصمه في موسم الحج⁽⁷⁾ ووجه ذلك على الأغلب أنه لم يرض بأن يجمع بين الصوم وبين مشاق الحج.

صوم شوال

وقد جاء أيضاً فضله في الأحاديث وقال رسول الله ﷺ: من صام رمضان وأتبعه ستاً من شوال فكأنه صام طيلة عمره⁽⁸⁾.

(1) انظر البخاري رقم ٢٠٠٤ ومسلم رقم ٢٧٤٦.

(2) البخاري رقم ٢٠٠٦ ومسلم ٢٦٣٧.

(3) البخاري رقم ٢٠٠٢ — ٤٦٨٠ ومسلم رقم ٢٦٥٢.

(4) البخاري رقم ٢٠٠٢ ومسلم رقم ٢٦٣٧.

(5) رواه البخاري رقم ٢٠٠٤ ومسلم رقم ٢٦٥٨.

(6) رواه مسلم رقم ٢٧٤٦.

(7) كما رواه البخاري رقم ١٦٥٨ و١٩٨٨ ومسلم ٢٦٣٢.

(8) رواه مسلم رقم ٢٧٥٨ وأبو داود رقم ٢٤٣٣.

صيام ثلاثة أيام في كل شهر

وقد رغب رسول الله ﷺ في صوم ثلاثة أيام من كل شهر وقال فيه قولاً ذكر فيما مر في صوم الست من شوال⁽¹⁾ وقد روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان بنفسه يصوم هذه الصيام ولكن لم يعين لها يوماً بل صام متى شاء في الشهر كله⁽²⁾. نعم قد أرشد بعض الصحابة إلى أن يصوموا الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر قمري⁽³⁾.

صيام يوم الاثنين ويوم الخميس

وقد صام النبي ﷺ في يوم الاثنين ويوم الخميس، وإذا سأله الناس عن ذلك قال: تُعرض الأعمال في يوم الاثنين والخميس⁽⁴⁾ وأيضاً قال: يوم الاثنين ولدت فيه ونزل عليّ القرآن في هذا اليوم⁽⁵⁾.

صيام شعبان

وهو شهر كان يصوم فيه في أكثر أيامه فيما عدا رمضان المبارك كما روت عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت النبي ﷺ في شهر أكثر صياماً منه في شعبان⁽⁶⁾. وعلاوة على ذلك فللناس خيار أن يصوموا متى شاؤوا صياماً نافلاً، ولكن النبي ﷺ قد أوصى الذين يريدون من إكثار الصوم أن يتبعوا داود عليه السلام في أمر الصوم فقال: إن أفضل الصيام صيام داود كان يصوم يوماً ويفطر يوماً⁽⁷⁾.

(1) كما رواه البخاري رقم ١٩٧٦ – ١٩٧٩ ومسلم رقم ٢٧٤٦.

(2) كما رواه مسلم رقم ٢٤٤٤

(3) كما جاء ذلك في النسائي رقم ٢٤٢٢.

(4) رواه النسائي رقم ٢٣٦٠ وأحمد رقم ٢١٢٤٦.

(5) رواه مسلم رقم ٢٧٤٧.

(6) رواه البخاري رقم ١٩٦٩ – ١٩٧٠ ومسلم رقم ٢٧٢١ – ٢٧٢٢.

(7) رواه البخاري رقم ١٩٧٩ ومسلم رقم ٢٧٢٧.

غير أن رسول الله ﷺ لم يرتض بتخصيص يوم الجمعة بالصوم⁽¹⁾. أو بصوم العام كله⁽²⁾ أو بصوم أيام العيد⁽³⁾ ووجه ذلك أنه لم يلبث الأول إلا أن يكون بدعةً والثاني يفسد التوازن في الحياة العامة والثالث يكون في غير محله والذي لا يسعه هذا الدين.

قانون الصوم

وقد أمر الله سبحانه المؤمنين أن يصوموا وفق التشريع الذي كان سائداً في دين الأنبياء ﷺ، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾⁽⁴⁾. وجاء ذلك تأليفاً للقلب وكأنما أراد بذلك أن ثلاثين يوماً أو تسعاً وعشرين يوماً من كل أيام السنة ليست مدة طويلة نظراً إلى بركات الصيام بل هي أيام معدودة، فلا ينبغي أن يضطرب بها المؤمنون بل يجب أن يستفيدوا بهذه المدة استفادة تامة. وبعد هذا التمهيد جاءت الرخصة فقال: فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر أو فدية طعام مسكين بدلاً من صوم يوم. وحكم الرخصة قد انتهى بهذه الألفاظ:

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُۥ. وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾⁽⁵⁾.

وأريد به أن هذه الفدية من أقل ما يطلب به والذي يجب أن يأتي به من يستطيع على ذلك. ولكن إذا تطوع شخص وأطعم أكثر من مسكين أو عمل لهم خيراً آخر فهو خير له وأن يصوم المرء بدلاً من الفدية في أيام أخرى قضاءً لما فاته فهذا هو خير عند الله تعالى.

(1) البخاري رقم ١٩٧٩ ومسلم رقم ٦٢٨١ - ٦٢٨٣.

(2) البخاري رقم ١٩٧٦ ومسلم رقم ٤٧٤٧.

(3) البخاري رقم ١٩٩٠ - ١٩٩١ ومسلم رقم ٢٦٧١ - ٢٦٧٢.

(4) سورة البقرة، الآيات: ١٨٣ و ١٨٤.

(5) سورة البقرة، الآية: ١٨٤.

نعم جاءت الآية التي بدأت بلفظة ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ قد اختتمت فيها تلك الرخصة. فأعيد الحكم وحذفت منه الألفاظ من ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾⁽¹⁾ إلى ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

والصوم في الأيام العادية يكون صعباً ثقیلاً على الطباع فلم يفرض بالمرة، حتى إذا استعدت الطباع ألزمت وانتهت رخصة الفدية وقيل لهم أن أتموا مدة الصيام كلها كي لا تحرموا من خيراتها المكنونة وبركاتهما المضمونة في الصوم. فهذا هو حكم الصوم الأصلي ثم بعد ذلك ربما قد جاءت في الأذهان بعض الإشكاليات ومنها هل المقاربة الجنسية في ليالي رمضان حلاله جائزة أم لا؟ والأغلب أنه بما أن اليهود لا يجوز عندهم العلاقة الجنسية في ليالي رمضان وكان الصوم يبتدئ عندهم بعد الإفطار معاً فظن المسلمون أيضاً أن هذا أيضاً حكم لهم، ولكن البعض منهم قد أتوا النساء مع أنهم كانوا يظنون الفعل غير جائز، وفعلهم هذا ما كان أمراً مستحسنًا. لأن المرء إذا اعتقد بشيء في ظنه أو في اجتهاده أنه مما يقتضيه الشرع فلا يجوز له خلافه بغض النظر عن أنه مما أمر به الشرع في واقع الأمر أم لا. وهذا الذي مما عبر به بخيانة النفس فقال:

﴿أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَشِّرُوهُمْ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَطِيطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَطِيطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾⁽²⁾.
فبحكم هذه الآيات يتمخض التشريع في الصوم والاعتكاف فيما يأتي:

الصوم في اصطلاح الشرع هو الاجتناب عن الأكل والشرب وعن العلاقة الجنسية بنية الصوم واحتساباً لله، وهذا القيد يكون منذ الفجر إلى بداية الليل

(1) سورة البقرة، الآيات: ١٨٤ — ١٨٥.

(2) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

ولذا فيجوز الأكل والشرب إتيان الزوجة في ليالي رمضان جوازًا قاطعًا. وبما أن شهر رمضان اختص بالصيام فمن وجده وحضر هذا الشهر يفرض عليه صوم رمضان، وإذا لم يمكن لمراء بسبب مرض أو سفر فعليه قضاء ما فاته من الصوم وإتمام العدة بصوم أيام أخرى. ويمنع الصوم في حالتي الحيض والنفاس لكن لا بد من إتمام الصيام الفائتة في الحيض والنفاس أيضًا. والاعتكاف هو منتهى كمال الصوم فإذا وفق الله شخصًا للاعتكاف فعليه أن يعتزل الناس مهما أمكن له من أيام في شهر رمضان ويعتكف في مسجد ولا يخرج منه إلا لحاجة بشرية ماسة لازمة. ويجوز للمعتكف الأكل والشرب في ليالي الصوم ولكن لا يجوز له مقاربة الزوجة لأنه مما حرمه الله على المعتكف. وقد ثبت تشريع الصوم هذا بإجماع المسلمين وتواترهم كما فصله القرآن أيضًا. ولكن نبين هنا بترتيب ما شرحه النبي ﷺ من علم وتطبيق.

١ يتدئ شهر رمضان باستهلال الهلال فقد قال النبي ﷺ: الشهر قد يكون تسعًا وعشرين فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فأكملوا ثلاثين» (من شعبان)^(١)

ومراد الحديث أن المطلب هو علم ببداية الشهر أو ختامه من أي طريق حصل، فصوموا وفق ذلك وأفطروا، ف رؤية الصوم ليست هي الأصل.

٢ ولا ينبغي أن يصوم قبل بداية شهر رمضان بيوم أو يومين لأنه لم يستحسنه النبي ﷺ إلا لمن تعود على صوم ذلك اليوم.^(٢)

٣ ويستحب للصائم السحور فقال النبي ﷺ: تسحروا فإن في السحور لبركة»^(٣)

٤ ويجوز إظهار الود للزوجة بكل طريق كان سوى المجامعة، فعن عائشة ؓ

(١) رواه مسلم رقم ٢٥٠٣ - ٢٥١٤.

(٢) رواه البخاري رقم ١٩١٤ ومسلم رقم ٢٥١٨.

(٣) رواه البخاري رقم ١٩٢٣ ومسلم رقم ٢٥٤٩.

قالت: كان رسول الله ﷺ يقبل وهو صائم ويأشُر وهو صائم ولكنه أملككم لإربه^(١).

٥ - ويجوز أن يصوم في حالة الجنابة فقد روي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ ربما يصوم وهو جنب ولا يغتسل إلا بعد الفجر^(٢).

٦ - وإذا أكل الصائم ناسياً فصومه صحيح يكمله ولا شيء عليه لأنه ﷺ قال: من نسي وهو صائم وأكل أو شرب فليتم صومه فإنما أطعمه الله وسقاه^(٣).

٧ - وليعتكف الصائم في العشرة الثانية أو الثالثة وأن يكون الاعتكاف لعشرة أيام كاملة إلا أن يكون الشهر تسعاً وعشرين وتفيد الروايات أن النبي ﷺ كان يعمل عليه في عامة الأحوال^(٤).

٨ - وإفطار الصوم عامداً إثم كبير وإذا جاء رجل بشيء من ذلك فخير له أن يكفره وقد أشار النبي ﷺ لشخص أن يكفر له كفارة الظهار ولكن الرواية أيضاً تقول إنه لما قدم الرجل بعذر شرعي قبله ولم يصبر على الكفارة^(٥)...

الحج والعمرة

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَةٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾^(٦).

(١) رواه البخاري رقم ١٩٢٧ ومسلم رقم ١١٠٦.

(٢) رواه البخاري رقم ١٩٣١ ومسلم رقم ٢٥٨٩.

(٣) رواه البخاري رقم ١٩٣٣ ومسلم رقم ٢٧١٦.

(٤) رواه البخاري رقم ٢٠٢٥ - ٢٠٢٧ ومسلم ٢٧٧٢ - ٢٧٨٠.

(٥) كما جاء في البخاري رقم ١٩٣٦ ومسلم رقم ٢٥٩٥. ووجه ذلك لأن الكفارة إنما تجب حين تأتي ضرورة مماثلة بما جاء في «يعودون لما قالوا».

(٦) سورة الحج، الآيات: ٢٧ - ٢٩.

هذا هو الصوت الذي ارتفع منذ قرون مضت، وإجابةً له نقول «لييك
لييك» ونحن في أم القرى نحج إلى المسجد الذي بناه سيدنا إبراهيم عليه السلام في
مكة، والذي يسمى بيت الله. وهذا هو نفس البيت العتيق، على حد تعبير الإمام
الفراهي، كان أول بيت من بيوت الله في وادي بطحاء، والذي قد قضي في حقه
منذ الأزل أن يتخلص من الذين انحرفوا عن التوحيد. لذلك، عندما اعتنق
سكانها عبادة الأوثان وتفرقوا من جواره أخذوا معهم أيضًا حجارة هذا المعبد
بغرض العبادة. ولما وصل سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى هنا بعد هجرته من بابل بحثًا
عنه، لم يبق إلا حجر ناصع من بنائه القديم.

وبعد توضحية إسماعيل أمرهما الله بإعادة بناء هذا المعبد. فبدأ الأب
والابن معًا بحفر الأرض تحت هذا الحجر التذكاري. وخرجت الأساسات
القديمة بعد فترة من الزمن، فرفعوها وقاموا بتثبيت هذا الحجر في زاوية المبنى.
وبما أن إسماعيل كان قد نذر لهذا البيت، فعين خادمًا له، وبأمر الله أذن للناس
بالحج أن يأتوا هنا وليوفوا بنذرورهم ويجددوا عهد الإيمان بالتوحيد الذي
عليهم تحديثًا للنعمة.

وفي الاصطلاح تسمى هذه العملية «الحج والعمرة». وهاتان العبادتان
هما غاية كمال العبادة في الدين الإبراهيمي. وهذا هو آخر مستوى للعبادة لله
سبحانه، وهو أن يأتي العبد عند دعوته ليقدم نفسه وماله في حضرته. والحج
والعمرة تمثيل لهذه الحقيقة. وكلاهما يمثل نفس الواقع. والفرق الوحيد هو أن
العمرة إجمال والحج يفصله بمعنى أن الغرض الذي من أجله يُطلب التوضحية
بالأرواح والمال، يبرز فيه بكامل درجته.

لقد أخبر الله تعالى أنه منذ خلق آدم فأن إبليس قد أعلن الحرب على
مخططة سبحانه الذي كان قائمًا في العالم منذ اليوم الأول: ‘

﴿قَالَ فِيمَا آغَاوَيْتَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَا تَجِدَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾^(١).

ويذكر القرآن أن تحدي إبليس قد تم قبوله، وعباد الله تعالى الآن يقاتلون عدوهم الأبدي وذريته إلى يوم القيامة.. (الأعراف: ١٣-١٤) هذا هو اختبار هذا العالم الذي يعتمد فيه مستقبلنا الأبدي على النجاح والفشل. فنحن نقدم حياتنا وثرواتنا لله من أجل هذه الحرب. وقد أثار الأنبياء الهتاف بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾^(٢) مرارًا وتكرارًا في التاريخ لهذا المقصد. وقد جاءت هذه الحرب ضد إبليس ممثلة في الحج: وهو كما يلي:

إن عباد الله بدعوة ربهم، ينصرفون عن أموال الدنيا وملذاتها وشواغلها. ثم يصلون إلى أرض المعركة وهم يقولون «لييك لبيك» ويعسكرون في واد مثل المجاهدين تمامًا.

وفي اليوم التالي، بالغين إلى ميدان مفتوح، يطلبون المغفرة لذنوبهم، ويدعون من أجل النجاح في هذه الحرب ويستمعون إلى خطبة إمامهم.

وبحسب مقتضيات التمثيل، فإنهم يصلون الصلوات بطريقة القصر والجمع ويصلون إلى خيامهم مرة أخرى بينما يتوقفون لفترة قصيرة في الطريق.

ثم برمي شيطان بالحجارة وبذبح حيواناتهم وبذعر نفوسهم للرب تعالى يحلقون رؤوسهم ويحضر المعبد الأصلي والمذبح لأشواط النذر والطواف.

ثم يعودون من هناك ويستمررون خلال اليومين أو الثلاثة في الأيام التالية في رمي الشيطان بالحجارة.

وبهذا المعنى فإن الإحرام بالحج والعمرة علامة على أن المؤمن قد تخلص من ملذات الدنيا وشواغلها وملذاتها، وتغطية جسده بثوبين غير مخيطين،

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٦ و١٧.

(٢) سورة الصف، الآية: ١٤.

يصبح حاسر الرأس وإلى حد ما حافي القدمين كالراهب. وخرج من البيت ليصل إلى حضرة ربه.

وأما التلبية فهي جواب لنداء نادى به سيدنا إبراهيم عليه السلام بالوقوف على حجر بأمر الله عند ما كان يرفع بناء البيت الحرام⁽¹⁾. والآن قد بلغ هذا النداء إلى كل أقطار العالم، ويأتون عباد الله استجابةً لهذا النشيد المفرح ملينين بلبك اللهم لبك اعترافاً بنعمته، واعترافاً بتوحيده.

والطواف هو أشواط للنذر. وفي الديانة الإبراهيمية، كان هذا التقليد مستمرًا منذ القدم، وهو أن الشخص الذي سيتم التضحية به أو تقديمه لخدمة المعبد، يجب أن يحمل أمام المعبد أو المذبح ويطاف به. ولذلك قد ترجم مفسرو التوراة هذا في أمكنة كثيرة بتعبيرات مختلفة مثل «أضحية التردد للرب والطواف بها أمام الرب» كما جاء على سبيل المثال في كتاب العدد:

«وَتَقْدَمُ اللاَّوِيِّينَ أَمَامَ الرَّبِّ، فَيَضَعُ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَيْدِيَهُمْ عَلَى اللاَّوِيِّينَ .
وَيُرَدِّدُ هَارُونَ اللاَّوِيِّينَ تَرْدِيدًا أَمَامَ الرَّبِّ مِنْ عِنْدِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَيَكُونُونَ لِيَخْدُمُوا خِدْمَةَ الرَّبِّ

ثُمَّ يَضَعُ اللاَّوِيُّونَ أَيْدِيَهُمْ عَلَى رَأْسِي الثَّوَرَيْنِ، فَتَقْرُبُ الْوَاحِدَ ذَبِيحَةً خَطِيئَةً، وَالْآخَرَ مُحَرَّقَةً لِلرَّبِّ، لِلتَّكْفِيرِ عَنِ اللاَّوِيِّينَ.

فَتَوْقِفُ اللاَّوِيِّينَ أَمَامَ هَارُونَ وَبَنِيهِ وَتُرَدِّدُهُمْ تَرْدِيدًا لِلرَّبِّ

وَتُقَرِّزُ اللاَّوِيِّينَ مِنْ بَيْنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَيَكُونُ اللاَّوِيُّونَ لِي

وَبَعْدَ ذَلِكَ يَأْتِي اللاَّوِيُّونَ لِيَخْدُمُوا خِيَمَةَ الْاجْتِمَاعِ فَطَهَّرَهُمْ وَتُرَدِّدُهُمْ تَرْدِيدًا،

(1) قاله ابن كثير، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢١٦/٣.

لَا تَتَّبِعُهُمْ مَّوْهُوبُونَ لِي هِبَةً مِنْ بَيْنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. بَدَلْ كُلِّ فَاتِحِ رَحِمٍ، بِكْرِ كُلِّ
مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ اتَّخَذْتَهُمْ لِي (1).

واستلام الحجر الأسود أيضًا علامة لتجديد العهد، ففيه يضع العبد الحاج
يده في يد الحجر الأسود الذي يمثل يد الله تعالى، ويستلم الحجر فكأنه يجدد
التقليد القديم للوفاء بالعهد فيتعهد هكذا أنه قد سلم لله سبحانه نفسه وماله
وكله بأن له الجنة. والسعي في الحقيقة طواف لمكان ذبح إسماعيل عليه السلام، فأن
إبراهيم عليه السلام كان قد قام على جبل الصفا ولأنه رأى من هناك مقام الذبح ثم أسرع
إلى المروة لكي يمثل بأمر الله وجاء ذلك في الكتاب المقدس في العبارة الآتية:

«وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ رَفَعَ إِبْرَاهِيمُ عَيْنَيْهِ وَأَبْصَرَ الْمَوْضِعَ مِنْ بَعِيدٍ،

فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِغُلَامَيْهِ: «اجْلِسَا أَنتُمَا هَهُنَا مَعَ الْحِمَارِ، وَأَمَّا أَنَا وَالْغُلَامُ
فَنَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ وَنَسْجُدُ، ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَيْكُمَا» (2).

وهكذا فأن طواف الصفا والمروة أيضًا أشواط للنذر والتي تتم أولاً أمام
البيت ثم في مكان الذبح وتفيد التوراة أن هذه الأشواط كانت تكون قبل التضحية
ثم تقام بعد التضحية أيضًا بأخذ جزء من الأضحية في اليد كما جاء في كتاب
الخروج:

«ثُمَّ تَأْخُذُ الْقَصَّ مِنْ كَبْشِ الْمِلْءِ الَّذِي لَهُارُونَ، وَتُرَدِّدُهُ تَرْدِيدًا أَمَامَ الرَّبِّ،
فَيَكُونُ لَكَ نَصِيبًا

لَأَيَّامِ نَذْرِهِ لَا يَأْكُلُ مِنْ كُلِّ مَا يُعْمَلُ مِنْ جَفْنَةِ الْخَمْرِ مِنَ الْعَجَمِ حَتَّى
الْقَشْرِ (3).

والعرفات تقوم مقام البيت حيث يجتمع المجاهدون في حرب ضد
الشیطان يستغفرون لذنوبهم ويدعون ويناجون أن يكلل الرب تعالى حربهم هذه

(1) سفر العدد، ١٠: ٨-١٦

(2) سفر التكوين، ٢٢: ٤-٥

(3) سفر الخروج: ٢٦٢٩.

بالنجاح. والمزدلفة مقر في الطريق حيث يبيتون الليلة ويهبون صباحاً ويدعون ويناجون الرب تعالى مرة أخرى قبل الذهاب إلى الميدان.

ورمي الجمرات هو مؤشر على اللعنة على إبليس وعلى الحرب ضده ويقوم العبد المؤمن بهذه العملية بأنه لا يقبل إلا أن يتقهقر الإبلis اللعين من ميدان النضال. فأن هذا العدو إذا وسوس فلا يسكت بل يواصل وسوسته ولكن إذا قوبل بالمقاومة والمناهضة ضعفت حملاته تدريجياً والرمي للثلاثة أيام بدءاً من الشيطان الأكبر ثم الشيطان الأصغر ينبئ عن هذا الأمر. والتضحية فداء للنفس وحلق الرأس مؤشر على أنه قد تم تقديم النذر والآن للعبد أن يرجع إلى بيته مع هذه العلامة لطاعة الرب تعالى والعبودية الدائمة له، وحلق الرأس أيضاً تقليد قديم متبع في الديانة الإبراهيمية فقد جاء في التوراة هذا التشريع أن من ينذر لله تعالى لا يحلق رأسه ما لم تتم أيام النذر وقد جاء في كتاب العدد:

«كُلَّ أَيَّامِ نَذْرِ افْتِرَازِهِ لَا يَمُرُّ مُوسَى عَلَى رَأْسِهِ. إِلَى كَمَالِ الْأَيَّامِ الَّتِي انْتَذَرَ فِيهَا لِلرَّبِّ يَكُونُ مُقَدَّسًا، وَيُرَبِّي خُصَلَ شَعْرِ رَأْسِهِ⁽¹⁾.

. كُلَّ أَيَّامِ انْتِذَارِهِ لِلرَّبِّ لَا يَأْتِي إِلَى جَسَدٍ مَيِّتٍ

«وَهَذِهِ شَرِيعَةُ النَّذِيرِ: يَوْمَ تَكْمُلُ أَيَّامُ انْتِذَارِهِ يُؤْتَى بِهِ إِلَى بَابِ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ،

وَيَخْلُقُ النَّذِيرُ لَدَى بَابِ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ رَأْسَ انْتِذَارِهِ، وَيَأْخُذُ شَعْرَ رَأْسِ انْتِذَارِهِ وَيَجْعَلُهُ عَلَى النَّارِ الَّتِي تَحْتَ ذَبِيحَةِ السَّلَامَةِ⁽²⁾.

ويمكن أن نستنتج من ذلك أن الحج والعمرة عبادة غير عادية، وقد فرضت مرة واحدة على الأقل في حياة كل مسلم قادر. حتى أن النبي ﷺ ذات مرة فضل الحج بعد الإيمان والجهاد⁽³⁾. وقال أيضاً: من حج فلم يرفث ولم

(1) سفر العدد، ٦: ٥.

(2) سفر العدد، ٦: ١٣-١٨.

(3) كما جاء في البخاري رقم ٢٦ ومسلم رقم ٢٤٨.

يفسق رجوع كما ولدته أمه»⁽¹⁾ وكذلك قال: العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما (من الذنوب)، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة⁽²⁾.

والمراد بالذنوب هنا تلك التي لا تمت بصلة إلى حقوق العباد أو التي ليس لها توبة ولا قضاء ولا كفارة.

تاريخ الحج والعمرة

يبدأ تاريخ الحج والعمرة بدعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام التي ذكرناها أعلاه عدة مرات. بعد ذلك لم تنقطع هذه السلسلة أبداً. ولذلك، حتى قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم كان أهل الجزيرة العربية يأتون جماعات من كل مكان للحج والعمرة، وحتى بعد البعثة استمرت هذه العملية بنفس الطريقة. وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة في مكان فقال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾⁽³⁾.

ولا شك أن هؤلاء القوم قد أحدثوا بعض البدع في شعائر الحج وعاداتها وآدابها، لكن المعلوم من الروايات أن بعضهم كان على علم تام بهذه البدع وكان يؤدي حجه على الطريقة الإبراهيمية، فروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جبير بن مطعم رآه في العرفة قبل بعثته، فتفاجأ بأن أهل قريش لا يتجاوزون المزدلفة، وهذا ابن من بني هاشم حاضراً واقفاً في عرفة. فهو بنفسه يبين:

«أضللت بغيراً لي، فذهبت أطلبه يوم عرفة، فرأيت النبي واقفاً بعرفته، فقلت: هذا، والله، من الحمس، فما شأنه هاهنا⁽⁴⁾؟ وهذا قد حدث قبل البعثة وقد ذكره جبير بن مطعم بعد إسلامه.

فوضح من هذا أن القرآن عندما أمر بالحج فلم يكن شيئاً جديداً لمخاطبيه. وكانوا يدركون تماماً أهميتها في الدين وعاداته وآدابه، وكانوا يحضرون ويؤدون

(1) رواه البخاري رقم ١٨١٩ ومسلم رقم ٣٢٩١.

(2) رواه البخاري رقم ١٦٥٠ ومسلم رقم ٢٤٠٣.

(3) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.

(4) رواه البخاري، رقم: ١٦٦٤.

مناسكها كل عام. ولذلك لم يفعل القرآن شيئاً أكثر من القضاء على بدعهم وانحرافاتهم، ومن إعادة الحج والعمرة إلى أصولهما الإبراهيمية. وهذا هو الفصل الأخير من تاريخ هذه العبادة العظيمة، والذي كتب على يد النبي ﷺ. وبعد ذلك انتقل جميع شعائرها من جيل إلى جيل بإجماع المسلمين وعملهم المتواتر، دون أي نوع من التعديل أو التغيير أو الإضافة.

لكن الإصلاحات التي أجراها القرآن كانت في ذلك الوقت، وهي الآن محفوظة إلى الأبد في آيات القرآن، نحن نصفها هنا.

١. بصفة كونهم أوصياء البيت الحرام، فقد اعتبرت قريش أن من حقهم أن يسمحوا لمن أرادوا أن يأتي الحرم للحج والعمرة، وأن يمنعوا من شاؤوا. وقد رفض القرآن الاعتراف بهذا الامتياز لهم وأوضح أنه ليس حكراً على الأسرة. ومن زار هذا البيت لعبادة الله والحج والعمرة، سواء كان قرشياً أو غير قرشي، عربياً أو أجنبياً، شرقياً أو غربياً، فلا يحق لأحد أن يفرض عليه أي قيود.

والمقيمون والأجانب لهم حقوق متساوية فيها. إن مكانة قريش ليست مكانة حكامها ومحتكريها، بل مكانة أوليائها وخدمها. ومن واجبهم أن يجعلوه دار عبادة للعالم أجمع مثل إسماعيل عليه السلام وأن يدعوا جميع البشر للحضور في هذا المسكن الإلهي ليغمرهم بركاته:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَكِيفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاكِ يُطْلَمِ نَذْقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾^(١).

٢. وقد تم إدخال رجس الشرك إلى هذا المركز الأكبر والأقدم للتوحيد. وقد حذر القرآن من أنه عندما تم تكليف إبراهيم وإسماعيل بالصداقة على هذا البيت وطلب منهما أن يستقرا ههنا، فإن أول أمر أمرهما به الله هو أن هذا البيت يجب أن يبقى نظيفاً تماماً من مثل هذه الشوائب والنجاسات. وكان

(١) سورة الحج، الآية: ٢٥.

هذا إشارة إلى أن قريش ينبغي أن تقوم بالشيء نفسه، وإلا سُحبت منهم هذه الأمانة العظيمة وسلمت إلى أصحاب الوصاية الحقيقيين:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾⁽¹⁾.

٣. ولقد كان شهر رجب محرماً للعمرة، وأشهر ذو القعدة وذو الحجة والمحرم للحج. وكان مشركو العرب يحلون أياً من هذه الأشهر ويحرمون غيرها متى شاءوا، من أجل القتال والنهب والانتقام والثأر للدماء. وكذلك لجعل السنة القمرية على السنة الشمسية كانوا يضيفون فيها شهراً كبيراً ليأتي الحج في نفس الموسم. في المصطلح يطلق عليه «النسيء». وقد سمى القرآن هذا زيادة أخرى في الكفر، وأعلن أن هذه الطريقة باطلة تماماً، ويجب أن ينتهي الآن:

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنٌ لَهُمْ سُوءٌ أَعْمَلِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾⁽²⁾.

٤. وقد حرمت قريش بعض الحيوانات بالنسبة لأصنامها⁽³⁾ فما كانوا يذبحونها. وكذلك كانوا قد غيروا عادات وتقاليد سيدنا إبراهيم عليه السلام المقدسة المتعلقة بهذا البيت إلى حد كبير من أجل مصالحهم الدنيوية. فحذرهم الله تعالى من ذلك وأخبرهم أن الحيوانات هي المحرمات الوحيدة التي تم شرحها في القرآن، لذا يجب عليهم التجنب من هذا «الافتراء على الله» واحترام جميع حرمانات الله. فهو خير لهم. وأفضل.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتُ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يَتَلْنِ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا

(1) سورة الحج، الآية: ٢٦.

(2) سورة التوبة، الآية: ٣٧.

(3) الأنعام: ١٣٨، ١٥٠.

قَوْلِكَ الزُّورِ * حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ * ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿١﴾.

٥. كان تحقيق أي ربح من الأضاحي يعتبر محرماً بشكل عام. ولذلك بعد أن جعلوها خاصة بهذا الغرض، لم يستخدم الناس ألبانها، ولم يأخذوا منها عملاً. [٣٧٠] وأوضح القرآن أن هذا ليس ضرورياً لمراعاة هذه الشعائر. فيمكن الاستفادة من هذه الحيوانات حتى يأتي وقت الأضحية.

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحْلُهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ ﴿٢﴾.

٦. وكان هناك أيضاً يهود في الجزيرة العربية، وبسبب رواية ضعيفة، فقد اعتبروا الجمل حراماً^(٣). قال الله تعالى إن هذا مجرد وهم، فيذبح البعير دون تردد. بل بما أن هذا الحيوان عزيز على العرب، فإنهم إذا ضحوا به في سبيل ربهم، كان بالتأكيد قربة عظيمة لهم إلى الله:

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعِيرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٤﴾.

٧. وأما الأضحية فكان يُعتقد أن الله يرضى ويحتظ بلحمها ودمها. وينبه القرآن من أن هذا الاعتقاد مجرد حماقة وسفاهة، فلا يرضى الله بهذه الأشياء، بل بالتقوى الذي يحدث في قلوب أصحاب الأضحية بهذه الأضاحي. فقال:

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٥﴾.

(١) سورة الحج، الآيات: ٣٠ - ٣٢.

(٢) سورة الحج، الآية: ٣٣.

(٣) كما رواه البخاري رقم ١٦٩٨ ومسلم رقم ٣٢٠٨ وجامع البيان للطبري ١٨٥/٧ وتفسير

القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٢٢٠.

(٤) سورة الحج، الآية: ٣٦.

(٥) سورة الحج، الآية: ٣٧.

٨. والمروة هي مذبح السيد إسماعيل (عليه السلام). ولما لم يكن اليهود مستعدين لقبول ذلك، فقد ظلوا يثيرون شبهات مختلفة حول الطواف بالصفاء والمروة. ولقد حذرهم القرآن من هذا الكتمان للحق وإخفائه، وبَيَّن أن هذين الجبلين من شعائر الله، وأن الطواف بهما عمل صالح. فلا ينبغي أن يتردد فيه مسلم.

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ (١).

٩. وفيما يتعلق بالحج، حدثت بدعة أخرى أيضًا، وهي أنه عند العودة من الحج والعمرة، كان الناس يدخلون بيوتهم ليس من أبوابها، بل من خلفها (٢).

ولعل الدافع وراء هذا الفعل الغريب هو الوهم بأنه ضد التقوى أن يدخل البيوت بعد تطهير المرء من الذنوب من الأبواب التي خرج منها مثقلًا بالذنوب. وقد أوقف القرآن هذا الفعل الأحمق وقال إنه ليس عملاً صالحًا على الإطلاق، فلا ينبغي أن يتكرر الآن:

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٣).

١٠. وفي عصر الجاهلية، أصبح الحج مهرجانًا شبه ديني أكثر منه عبادة. لذلك اعتاد الناس على اتخاذ جميع أنواع الاهتمامات له لكنهم لا يعطون أهمية كبيرة لحقيقة أن الزاد الحقيقي في هذه الرحلة هو زاد التقوى، وقد انطلقوا للحج فيجب ألا يتحدثوا بعد الآن عن أي شهوة أو عصيان أو مشاجرة عادية. فهذا يتعارض مع روح هذه العبادة العظيمة. ولفت الله إلى ذلك

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١٥٨ و ١٥٩.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي ٦/ ٣٧١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

أنظارهم وأرشدتهم إلى أنه يجب أن يتزود المرء من خير الزاد في هذه الرحلة وهو طريق التقوى، فقال:

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ ۖ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾^(١).

١١. نتيجة لهذا الإهمال فيما يتعلق بالحج عندما وصل الناس إلى مزدلفة، اندفعوا ومالوا إلى البيع والشراء والتجارة وغيرها من الأنشطة المماثلة بدلاً من التسييح والتهليل والذكر والعبادة. وأخبر القرآن أنه لا ضرر في قيام الشخص بأي عمل من طبيعة البيع والشراء مع الحج، لكن أماكن الحج ليست مكاناً هذه الأشياء، فأماكن العلم والمعرفة هذه يجب أن تكون خاصة فقط لذكر الله. فقال تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾^(٢).

١٢. وقالوا إنهم كهنة. وكانت قريش قد أقامت الفرق لنفسها بأنها لا تتجاوز المزدلفة. وجيران بيت الله فلا ينبغي لهم أن يخرجوا من حدود الحرم، فلم يقبل الله هذا التفسير وأمرهم أن يكونوا حاضرين في عرفات كسائر الناس. وقال:

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣).

١٣. كما كانوا يمضون أيام منى في الغالب في اجتماعات إلقاء القصيدة وبيان

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٩.

الأساطير والتباهي والمفاخرات^(١). وليس هذا فحسب، بل ينظر بعضهم أيضاً إلى العبادة العظيمة مثل الحج من المنظور المادي ومن حيث اهتماماتهم الدنيوية، فحتى في هذه المناسبة إذا طلبوا شيئاً من الله، فإنهم يطلبونه لهذه الدنيا. فحذر القرآن وقال إن مثل هؤلاء الناس لن يكون لهم نصيب في الآخرة:

﴿فَإِذَا قُضِيَتْكُمْ مَنَاسِكُكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمَنِ الْكَاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَيْنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَيْنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(٢).

١٤. وكان أسوأ شيء من هذه السلسلة هو ابتكار بدعة الطواف العاري. وكان هناك لوح خشبي في بيت الله لهذا الغرض، فقد اعتاد الناس خلع ملابسهم ووضعها عليه. ثم فقط جود قريش وسخاؤها كان يغطيهم. فكان رجالهم يقرضون الملابس للرجال والنساء للنساء، لكن المحرومين كانوا يطوفون عراة ويعتبرونها حسنة^(٣). فحرمها القرآن وأمر بأنه على الشخص أن يذهب إلى كل مكان للعبادة ساتراً عورته وفي ملابس كاملة:

﴿يَبْنَىءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾^(٤).

مقاصد الحج والعمرة

والغرض من الحج والعمرة هو نفس حقيقتهما. أي قبول بركات الله والإقرار بتوحيده والتذكير بأننا بقبولنا الإسلام ضحينا بأنفسنا لربنا تعالى. فهذه هي الأشياء التي وصف القرآن معرفتها وتأثيرها في القلب والعقل بأنها

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام للأستاذ جواد علي ٦/ ٣٨٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٩.

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام للأستاذ جواد علي ٦/ ٣٥٩.

(٤) سورة البقرة، الآيات: ٢٠٠ - ٢٠٢.

أرباح ومنافع لمقامات وأماكن الحج. وهكذا، ففي آية سورة الحج المقتبسة في البداية قال فيها إشارةً إلى مناسك الحج: ليشهدوا منافع لهم». ويتضح هذا الغرض جيداً من كلمات الذكر التي تم تحديدها لهذه العبادة. فمن الواضح أنه تم اختيارها لإبقاء هذا الغرض بارزاً ومترسحاً تماماً في الأذهان. لذلك بعد الإحرام، تستمر هذه الكلمات على لسان كل شخص وتكرر:

لَبَّيْكَ، اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ؛ لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، لَبَّيْكَ؛ إِنَّ الْحَمْدَ وَالنَّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ؛ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ.

أيام الحج والعمرة

لا يوجد وقت محدد للعمرة. يمكن للناس القيام بذلك وقتما يريدون على مدار العام. أما بالنسبة للحج فهناك أيام من الثامن من ذي الحجة إلى ١٣ ذي الحجة يمكن القيام به فقط في تلك الأيام. وبما أن الناس يضطرون إلى الوصول إلى مكة المكرمة في الجزيرة العربية من أنحاء الأرض لهذه العبادة، فقد منع الله من القتال والحرب لمدة أربعة أشهر من أجل تأمين رحلتهم. وهذه الأشهر هي رجب وذو القعدة وذو الحجة ومحرم. تم جعل شهر رجب خاصاً للعمرة من بينها، والثلاثة المتبقية للحج. وقد تم إثبات حرمة هذه الأشهر دائماً، ولم يكن هناك أي نزاع في هذا الشأن أبداً. وقد قال الله تعالى:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ (١).

مقامات الحج والعمرة

وقد قرر الله سبحانه وتعالى أماكن الحج والعمرة شعائر له. فقال: ﴿إِنَّ

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

الَصَفَا وَالْمَرَّةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴿١﴾ وهذه جمع لشعيرة وهي ما يعني الرمز. وفي المصطلح يشير إلى تلك الظواهر التي تم تعيينها كعلامة من قبل الله والرسول للحفاظ على الوعي بحقيقة في العقول. يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ شَعِيرَةَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (١).

ونقدم تعريفها فيما يلي:

المواقيت

بالنسبة للقادمين للحج والعمرة، تم تعيين بعض الأماكن على مسافة ما من الحرم، والتي لا يمكنهم تجاوزها بدون الإحرام. ويجب الإحرام بعد الوصول إليهم أو أي مكان قريب منها. وفي المصطلح يطلق عليها الميقاتة.

وهذه الأماكن خمسة: ذو الحليفة للقادمين من المدينة المنورة ويلملم للقادمين من اليمن، والحجفة للقادمين من مصر وسوريا، القرن للقادمين من نجد، وذات عرق للقادمين من الشرق.

بيت الله الحرام

إنه نفس المعبد الذي سمي في القرآن باسم ﴿الْبَيْتِ﴾ و﴿الْبَيْتِ﴾ و﴿الْعَتِيقِ﴾ و﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ (٢). لأنه بني مكعباً، ويطلق عليه أيضاً الكعبة. ويقع في مكة المكرمة، أرض الجزيرة العربية. وقد جاء في القرآن لهذه المدينة أيضاً اسم آخر وهو «بكة»، [٣٧٨] (آل عمران: ٩٦) وهو ما يعني المكان المأهول. يبلغ ارتفاعه حوالي ٢٧٧ متراً فوق مستوى سطح البحر وتحيط به الجبال من جميع الجهات. كانت مكة غير مأهولة قبل بلوغ إبراهيم عليه السلام هناك. وكانت جرهم قبيلة من العرب القدماء تحكم المنطقة وكانت متجاورة لمكة.

(١) سورة الحج، الآية: ٣٢.

(٢) سورة الحج، الآية: ٢٥.

وتزوج إسماعيل عليه السلام بفتاة من هذه القبيلة السيدة بنت مضاض^(١). وبعد وفاة ابنه ثابت، سقطت حكومة هذه المدينة في أيدي هذه القبيلة وحكموها لعدة مئات من السنين. ثم استولى بنو خزاعة وبنو بكر على المدينة. قبل قرن تقريباً من بعثة النبي، ولما توفي زعيم الخزاعة خليل بن الحبشة، استعادها قصي بن كلاب وقام حكم بني إسماعيل مرة أخرى على المدينة^(٢).

وعندما جاء إبراهيم عليه السلام إلى هنا منذ حوالي ٤٠٠٠ عام بأمر من الله، كان بيت الحرم قد سقط بمرور الزمان الطويل ومن جراء الفيضانات ولم يبق له أي أثر. وبإلهام من ربه، اكتشف إبراهيم أسسها القديمة وبمساعدة ابنه إسماعيل، أقام مبنى بلا سقف^(٣). كما أن بناء أيديهم المقدسة لم يكن محمياً من تقلبات الأيام وانهار في النهاية. بعد ذلك، تم بناؤه أولاً من قبل العمالقة ثم من قبل قبيلة جرهم^(٤). وتهدم بناء جرهم أيضاً بسبب بعض الحوادث، فقامت قريش مكة ببنائه من جديد. ولكن بسبب نقص رأس المال لم يمكن إنشاء هذا المبنى على الأساس الإبراهيمي الأصلي. وحدث هذا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بخمس سنوات. لذلك شارك أيضاً في أعمال البناء هذه، بل المؤرخون يقولون إنه قد قضى بذكائه الخاص في قرار إعادة تثبيت الحجر الأسود في مقامه^(٥).

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم أعرب في إحدى المناسبات عن رغبته للسيدة عائشة قالت:

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكَ حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ (أَوْ قَالَ

(١) الروض الأنف للسيهيلي ١/ ٤٧١.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٩٣ — ١٠٤.

(٣) أخبار مكة للأزرقي ١/ ٥٨ — ٦٦.

(٤) شرح المواهب اللدنية الزرقاني ١/ ٢٠٦.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٦٠.

بِكُفْرٍ) لَأَنْفَقْتُ كَنْزَ الْكَعْبَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَجَعَلْتُ بَابَهَا بِالْأَرْضِ، وَلَا دَخَلْتُ فِيهَا مِنْ الْحِجْرِ⁽¹⁾ أي كان ينوي إقامته على أسسه الإبراهيمية الأصلية.

وكان عبد الله بن الزبير قد هدم المبنى الذي بنته قريش وأعاد بناءه خلال خلافته نظرًا إلى إرادة النبي ﷺ تلك، ولكن عندما رماه الحجاج بالحجارة في الكعبة في الحرب ضده، انهار هذا المبنى أيضًا، وبعد استشهاد ابن الزبير قدهمه الحجاج بأمر من عبد الملك بن مروان وبناه مرة أخرى على الأساس الذي أنشأته قريش⁽²⁾.

وظل كذلك منذ ذلك الحين.

والحجر الأسود منصوب في زاوية هذا المبنى. وتقع أبعد منه قليلًا زاويته الشمالية التي تسمى بالركن العراقي، والزاوية الغربية من المبنى تسمى بالركن الشامي والزاوية الجنوبية تسمى بالركن اليماني. وتقع بوابة بيت الحرم على ارتفاع مترين عن سطح الجدار، وبينه وبين الحجر الأسود جدار يسمى بالملتزم وهذا هو كأنه عتبة الله التي يلتصق بها الناس ويدعون. ويوجد غطاء مغلوف من القماش الأسود ملقى على المبنى يتم استبداله كل عام. وقد وضع حجر أبيض في فناء المبنى. ويقال إن إبراهيم عليه السلام وقف عليها حين رفع جدران البيت وقواعده⁽³⁾.

وعلى مسافة قليلة من هذا الحجر يوجد نبع طبيعي يسمى «زمزم». وأولئك الذين يأتون لزيارة بيت الحرم يروون عطشهم منه.

حدودها واسعة لعدة كيلومترات حولها، وهي معروفة وثابتة منذ الأزل. وهذه المنطقة كلها تسمى حرام، حيث يحظر إيذاء أي إنسان أو حيوان وحتى

(1) رواه البخاري رقم ١٥٨٣ - ١٥٨٤ ومسلم رقم ٣٢٤٠ - ٣٢٤٩.

(2) مسلم رقم ٣٢٤٥.

(3) أخبار مكة للأزرقي ١/ ٥٩.

النباتات التي تنبت فيها بنفسها. يصف القرآن ذلك بكلمات ﴿حَرَمَاءَ آمِنًا﴾⁽¹⁾ و﴿مُثَابَةٌ لِلنَّاسِ وَآمِنًا﴾⁽²⁾ قال النبي ﷺ:

إن هذا بلد حرم الله يوم خلق السموات والأرض وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكة ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلي خلاها⁽³⁾.

الصفاء والمروة

هذان جبلان يقعان بالقرب من بيت الله. وقد تمت ذبيحة إسماعيل على أحد من هذه الجبال وهي مروة. وقد برهنها الإمام حميد الدين الفراهي في كتابه «الرأي الصحيح في من هو الذبيح» برهنةً كاملةً. لذلك هذا هو المذبح الواقعي الذي تم تمديده إلى منى من أجل راحة الناس. وتتم الأشواط في الطواف حول هذا المذبح من الصفا إلى المروة ومن المروة إلى الصفا. وفي المصطلح يطلق عليه اسم السعي.

منى

إنه حقل شاسع بين الجبال على بعد حوالي خمسة كيلومترات من مكة المكرمة. يبقى الحجاج هنا ويسيرون بعد مجيئهم من مكة المكرمة في الثامن من ذي الحجة وبعد عودتهم من العرفة في العاشر من ذي الحجة، ويكملون مناسك الحج المتبقية.

(1) سورة القصص، الآية: ٥٧.

(2) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

(3) رواه البخاري، رقم ١٨٣٤.

العرفات

إنه أيضًا حقل شاسع وميدان واسع على بعد حوالي ١٠ كيلومترات من منى، حيث يلقي إمام المسلمين خطبة في التاسع من ذي الحجة، وبعد ذلك يقف فيه الحجاج حتى غروب الشمس.

المزدلفة

وهذا أيضًا ميدان آخر في الطريق إلى منى، حيث يقضي الحجاج الليل بعد عودتهم من العرفة. وهي تقع تقريبًا بين منى والعرفة. وتبدأ حدود الحرم من هنا، لذلك يطلق عليه أيضًا ﴿الْمَشْعَرُ الْحَرَامُ﴾^(١). كما وصفه القرآن بهذا الاسم.

الجمرات

وهي أعمدة ثلاثة في ميدان منى التي وصفت بأنها رموز للشيطان. أحد هذه الأعمدة هو الأكبر، ويسمى جمرة العقبة أو جمرة الأخرى. وسميت الركيزتان الأخريان باسم جمرة الأولى وجمرة الوسطى. ويرمي الحجاج الحجارة على هذه الأعمدة بعد عودتهم من العرفة.

طريقة الحج والعمرة

الطريقة المنصوص عليها في الشريعة للحج والعمرة هي كما يلي:

العمرة

يجب أن يلبس إحرامها بنية هذه العبادة.

ويلبس من يأتي من الخارج هذا الإحرام من ميقاته، ويلبسه المقيمون

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٨.

سواء كانوا مكيين أو يقيمون مؤقتاً في مكة من مكان قريب خارج حدود الحرم، ومن يعيش خارج هذه الحدود ولكن في الميقات، فإن ميقاتهم هي نفس المكان الذي يعيشون فيه، يجب عليهم عقد الإحرام من هناك والبدء في قراءة التلبية.

يجب أن تستمر التلبية حتى تصل إلى بيت الله،

وبعد الوصول إلى هناك، يجب أن يتم طواف بيت الله

ثم يجب السعي بين الصفا والمروة

وإذا كانت هناك هدي معهم، فيجب التضحية بها.

بعد الذبيحة، يجب على الرجال حلق رؤوسهم أو حجامتها ويجب على النساء قص القليل من الشعر من نهاية ضفائرهن وفتح الإحرام.

وهذا الإحرام مصطلح. ويعني أنهم لن يتحدثوا بعد الآن عن الشهوة، ولن يستخدموا أي شيء من الزينة، مثل العطور وما إلى ذلك، ولن يقوموا بقص الأظافر، ولن يزيلوا شعر أي جزء من الجسم، ولن يزيلوا الأوساخ، ولن يقتلوا حتى قمل أجسادهم؛ ولن يصطادوا؛ ولن يرتدوا ملابس مخيطة؛ وسيبقون رؤوسهم ووجوههم وظهور أقدامهم مكشوفة، ويربطون بملزمة كطية ويخمرون بواحدة أخرى.

ولكن سترتدي النساء ملابس مخيطة وسيتمكنن أيضاً من تغطية رؤوسهن وأقدامهن. كل ما عليهن فعله هو إبقاء وجوههن وأيديهن مكشوفة.

والمراد بالتلبية الذكر الجهري بِـ «ليك اللهم ليك، ليك لا شريك لك ليك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك» والذي يتدئ من لبس الإحرام ويجري حتى الوصول إلى بيت الله الحرام. وهو وحده ذكر شرعه الله للحج والعمرة.

يشير الطواف إلى الأشواط السبعة التي تتم حول بيت الله طاهرين من جميع الشوائب والنجاسات، ويكتمل كل شوط من هذه الأشواط بدءاً من

الحجر الأسود ونهايةً إليه، وفي بداية كل شوط، يتم استلام الحجر الأسود. إنه مصطلح لتقبيل الحجر الأسود أو لمسه باليد ثم تقبيل اليد. وفي حالة الحشد والزحام الإشارة باليد أو بعصا اليد أو بأي شيء آخر من هذا القبيل يعتبر أيضًا كافيًا للاستلام.

وتشير كلمة «السعي» إلى طواف الصفا والمروة. وهذه أيضًا سبعة أشواط تبدأ من الصفا. ويُعد شوط واحد من الصفا إلى المروة والثاني من مروة إلى الصفا، وآخر هذه الأشواط ينتهي بمروة.

ومثل الذبيحة، يتم هذا السعي من الصفا والمروة أيضًا تطوعًا وهي ليست جزءًا لا يتجزأ من العمرة. فتكتمل العمرة حتى بدونها. كما قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الْأَصْفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾⁽¹⁾.

وتستخدم كلمة «هدي» للحيوانات التي خصصت للتضحية بها في الحرم. ولتمييزها عن الأخرى يتم تمييز أجسامها بوضع علامات ووضع الأشرطة حول أعناقها. ولهذا تبنى القرآن تعبير ﴿الْقَلْبِدَ﴾⁽²⁾ لذلك.

الحج

وأول ما يجب فعله في الحج مثل العمرة هو الإحرام بالنية.

وأن يلبس هذا الإحرام القادمون من الخارج من ميقاتهم؛ والمقيمون، سواء كانوا من المكيين أو المقيمين مؤقتًا في مكة أو خارج حدود الحرم، ولكنهم يعيشون داخل الميقات، فإن ميقاتهم هو المكان الذي يقيمون فيه، فعليهم أن يحرموا من هناك ويتدنوا بالتلبية.

وفي اليوم الثامن من ذي الحجة، يجب التوجه إلى منى والمبيت فيه.

(1) سورة البقرة، الآية: ١٥٨.

(2) سورة المائدة، الآية: ٢.

وفي صباح اليوم التاسع من ذي الحجة يكون التوجه منه إلى العرفة.

وبعد الوصول إلى هناك يخطب الإمام خطبة الحج قبل صلاة الظهر، ثم يجمع ويقصر بين صلاتي الظهر والعصر.

وبعد الانتهاء من الصلاة، يقوم الحاج بين يدي الله تعالى لأطول فترة ممكنة، ويقوم بالتسبيح والتحميد، والتكبير والتهليل، والدعاء في ميدان العرفة .

وبعد غروب الشمس يكون الانطلاق إلى مزدلفة.

وبعد الوصول إلى هناك يجب جمع صلاتي المغرب والعشاء وأداؤهما في صورة القصر.

ويتم البقاء في هذا الميدان ليلاً.

وبعد صلاة الفجر يستغرق الحاج هنا في التسبيح والتحميد والتكبير والتكبير والدعاء لمدة قصيرة كما فعله في العرفة.

ثم ينطلق إلى منى حتى تصل إلى جمرة العقبة وتتوقف عن التلبية وترمي تلك الجمرة بسبع حصيات.

وإذا كان الهدي معه، أو وجبت عليه أضحية وكفارة، فيجب أن تذبح هذه الأضحية.

ثم يجب على الرجال أن يحلقوا رؤوسهم أو يقصوا شعرهم، وعلى النساء أن يقصن شعراً قليلاً من أطراف ضفائرهن ويخلعن ملابس إحرامهن.

ثم يصل إلى بيت الله فيطوف به.

وكل قيود الإحرام ستنتهي بهذا، وبعد ذلك، إذا أراد الحاج، فعليه أيضاً السعي بين الصفا والمروة طوعاً.

وينبغي بعد العودة إلى منى أن يبقى يومين أو ثلاثة أيام ويرمي سبع

حصيات كل يوم، أولاً في الجمرة الأولى، ثم في الجمرة الوسطى، وبعد ذلك في الجمرة الأخيرة.

وهذه مناسك الحج والعمرة منذ زمن سيدنا إبراهيم عليه السلام. ولم يجئ القرآن الكريم بأي تغيير فيها، بل اكتفى ببيان بعض المسائل الفقهية المتعلقة بها. وهذه القواعد هي كما يلي:

أولاً: إن الحرمات التي أقامها الله تعالى في الحج والعمرة، فإن احترامها من متطلبات الإيمان، ويجب الحفاظ عليها في جميع الأحوال. ومع ذلك، إذا رفض أي طرف آخر مخالف للمسلمين مراعاتها، فيحق للمسلمين أيضاً أن يتخذوا نفس الإجراء في المقابل، لأن هذه الحرمات لا يمكن الحفاظ عليها إلا بشكل متبادل، ولا يمكن لأي طرف إقامتها باعتبارها خاصة به. وقال تعالى:

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنۢ اَعْتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَاَعۡتَدُواْ عَلَيْهِۢ بِمِثۡلِ مَا اَعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ وَاتَّقُواْ اللّٰهَ وَاَعۡلَمُوۡاْ اَنَّ اللّٰهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١).

ويقول الأستاذ الإمام في تفسير الآية:

«يعني أن القتال والحرب في الأشهر الحرم أو في حدود الحرم لهو إثم عظيم في الواقع، ولكن عندما لا يقدس الكفار حرمتها لكم، فإن لكم أيضاً الحق في أن تحرموهم من هذه الحرمة قصاصاً. إن حياة كل إنسان محترمة في الشريعة، ولكن عندما لا يحترم الإنسان حياة شخص آخر ويقتله، فإنه يُقتل أيضاً بحرمانه من حق حرمة الحياة. وكذلك احترام الأشهر الحرم وحدود الحرم هو أيضاً مسلم، بشرط أن يحترمه الكفار أيضاً ولا يجعلوا الآخرين هدفاً للاضطهاد فيهما، لكن عندما تُسل سيوفهم في هذه الأشهر وفي هذا البلد الأمين فإنهم معاقبون لذلك ويجب حرمانهم أيضاً من حقوقهم في السلام والاحترام قصاصاً منهم. ولذا قال: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنۢ اَعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴿١﴾: أي إذا منعوكم حرمة الشيء المحترم فإن من حقكم أن تمنعوهم حرمة ذلك انتقاماً^(١).

الأمر الثاني هو أنه رغم هذا الإذن لا يمكن للمسلمين أن يقوموا بأي تقدم من جانبهم. فهذه حرمة الله، والمبادرة إلى انتهاكها أعظم جريمة. فلا ينبغي أن يتحقق ذلك تحت أي ظرف من الظروف. إن الاعتداء على البيت الحرام هو اعتداء على بيت الله، كما أن التعرض لإيذاء الحيوانات التي قيدت بقلائد التخصيص لله تعالى في رقابها، والتصدي للعباد الذين قد خرجوا ابتغاء رضوان الله وبحثاً عن فضله والطلب لهم هو بمثابة إساءة إلى الله رب العالمين، ولهذا فإن عداوة أي أمة لا ينبغي أن تدفع المسلمين إلى تجاوز الحدود في هذا الأمر. ويجب أن يكون واضحاً لهم أن الرب الذي يتكرم بمنه ويمنح النعمة والعلا للأمة بعهد وميثاقه فإن عقوبته أيضاً أشد بنقض هذا العهد والميثاق.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحْلُوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْفَعُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَكُمْ شَتْنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُم عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالنَّفْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾.

وقال أيضاً:

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ يَكِلُ شَيْءٌ عَلَيْهِ * أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

الحكم الثالث: أن تحريم الصيد في الإحرام خاص بحيوانات البر فقط. وعليه فصيد حيوانات البحر، أو أكل صيد غيرها كلاهما جائز. وتعطى

(١) تدبر القرآن ١ / ٤٧٩.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٢.

(٣) سورة المائدة، الآيتان: ٩٧ و٩٨.

هذه الإجازة بحيث إذا قل الزاد للحاج في الرحلة البرية يمكن الحصول عليه بطريقة أو بأخرى، أما في الرحلة البحرية فلا سبيل آخر إلا الصيد في مثل هذه الحالات. ومع ذلك، فهذا لا يعني أن الناس لهم أن يحاولوا تجاوز هذه الإجازة. فإن الصيد البري محظور بأي حال من الأحوال. ولذلك، إذا ارتكب الإنسان هذه الذنب وهو يعلم، فعليه أن يدفع الكفارة.

وله صور ثلاثة:

يرسل حيوان من نفس القبيلة والنوع الذي تم اصطياده إلى بيت الله للتضحية من الماشية المنزلية.

وإذا لم يكن ذلك ممكنًا، فيجب إطعام الفقراء وفقًا لسعر ذاك الحيوان. وإذا كان ذلك صعبًا أيضًا، فيجب أن يصوم صيامًا بقدر ما يعود عليه من إطعام المساكين.

أما ما هو تبادل الحيوان أو إذا كانت التضحية بالحيوان متعذرة فماذا سيكون سعره أو كم عدد الفقراء الذين سيتم إطعامهم أو عدد الصيام الذي يصوم به في المقابل، سيقضي ذلك اثنان من المسلمين حتى لا تكون هناك إمكانية لمرتكبي الجريمة لتفضيل ومحابة أنفسهم في ذلك. وقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهُ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقُصْ اللَّهَ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ * أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلنَّاسِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾⁽¹⁾.

الحكم الرابع هو أنه إذا أحصر المسافرون للحج والعمرة في مكان، ولم يكن من الممكن لهم المضي قدمًا، يجب عليهم إرسال ما هو متاح من الإبل

(1) سورة المائدة، الآيتان: ٩٥ و٩٦.

أو البقرة أو الماعز للأضحية أو إذا تعذر إرساله، يقومون بالتضحية به في نفس المكان وحلق الرأس وكشف الإحرام، فهذا هو حجهم وعمرتهم. وهذا ما فعله النبي ﷺ على موقعة معاهدة الحديبية. ومع ذلك، في هذه الحالة، يجب أن يكون واضحاً أنه لا يجوز حلق الرأس قبل القيام بالذبيحة في مثل هذا المكان أو في مكة ومنى، إلا إذا كان المحصر مريضاً أو كان في رأسه أذى واضطر إلى حلق الرأس قبل الذبح.

وقد سمح القرآن للناس بحلق رؤوسهم إذا كان هناك إكراه واضطرار من هذا القبيل، ولكن يجب عليهم الفدية من خلال الصيام أو الصدقة أو التضحية، ولهم تحديد عدده وكميته كما يرون مناسباً. وعن النبي ﷺ حين سئل عن ذلك أنه قال: «إذا صمت ثلاثة أيام أو أطعمت ستة مساكين أو ذبحت عنزة، يكفي ذلك». (أو كما قال ﷺ) (1).

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ (2).

الحكم الخامس هو أن القادمين من الخارج يمكنهم أداء الحج والعمرة في نفس الرحلة. وطريقة القيام بذلك هي أنه يجب عليهم أولاً كشف الإحرام بعد أداء العمرة، ثم أداء فريضة الحج عن طريق لبس الإحرام مرة أخرى من مكة المكرمة في الثامن من ذي الحجة. وهذه إجازة ورخصة أعطاها الله للحجاج القادمين من الخارج نظراً لصعوبة السفر مرتين. لذلك يدفعون فديتها. وهناك نوعان لأداء الفدية:

يجب التضحية بأي متاح من الإبل والبقر والماعز.

وإذا لم يكن ذلك ممكناً، فيجب صوم عشرة صيام، ثلاثة في أيام الحج وسبعة بعد العودة من الحج، ويتضح من ذلك أنه الأفضل عند الله السفر بشكل

(1) رواه البخاري رقم: ١٨١٤ ومسلم رقم: ٢٨٧٧.

(2) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

منفصل للحج وبشكل منفصل للعمرة. لذلك، أوضح القرآن أن هذا التنازل ليس لأولئك الذين تقع منازلهم بالقرب من المسجد الحرام. فقال:

﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ مِّنَ تَمَنَعِ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

ويجب أن يكون واضحاً أيضاً بشأن هذا الأمر أنه بالنسبة لأولئك الذين يرغبون في الاستفادة من هذا الامتياز، فإن التسهيل لهم أنه لا ينبغي عليهم إحضار الهدى معهم ولكن لهم شراؤها من هنالك في يوم النحر. والسبب في ذلك هو أن ستم التضحية بها في يوم النهر، وكما ذكرنا، لن يتمكنوا من حلق رؤوسهم قبل الأضحية فلن يتمكنوا من كشف الإحرام كنتيجة ضرورية. وهذا ما حدث للنبي ﷺ على موقعة حجة الوداع. فقال:

لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت، ولولا أن معي الهدى لأحللت⁽¹⁾.

الحكم السادس هو أنه يمكن للمرء أن يعود من منى في ١٢ من ذي الحجة، وإذا كان الحاج يرغب في ذلك، يمكنه البقاء حتى ١٣ من ذي الحجة. فقد قال الله سبحانه وتعالى أنه لا توجد خطيئة في كلتا الحالتين. لأن الأهمية الحقيقية هي ليست لعدد الأيام التي يمكث فيها الناس، ولكن الأهم هو أن يذكروا الله ويتقونه مهما يمكثون من الأيام. كما قال:

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾⁽²⁾.

فهذه هي أحكام الحج والعمرة، ومانقل عنه ﷺ في ذلك من علم وتطبيق نفصله فيما يلي:

(1) رواه البخاري، رقم ١٦٥١.

(2) سورة البقرة، الآية: ٢٠٣.

الإحرام

كان النبي ﷺ يضع العطر في لبس الإحرام. تقول السيدة عائشة: «لقد طبقت عليه عطر المسك قبل الإحرام وحتى بعد خلع ثوب الإحرام في يوم النهر، عندما خرج إلى مكة للطواف. تقول: إنه كان في وهج هذا العطر كأنني أرى لمعانه حتى اليوم في رأسه⁽¹⁾.

وفي حالة الإحرام كان النبي ﷺ قد فصم وزرع شعره وغسل رأسه⁽²⁾.

[٣٩٤] كما سمح للناس إن لم تكن لهم، بعدم ارتداء الأحذية، ففي هذا الاضطراب يمكنهم قطع الجوارب من الكاحلين إلى الأسفل واستخدامها، وإذا لم يكن لديهم قطعة قماش لربطها كسلسلة، فيمكنهم أيضًا ارتداء السروال أو البيجامات⁽³⁾..

ولكنه لم يرض في الزواج أو التزويج أو اتخاذ قرار الزواج في حالة الإحرام⁽⁴⁾.

وإذا مات شخص في حالة الإحرام فقال إنه يدفن ملابس الإحرام ولا يُعطر وقف التكفين ولا يُغطي رأسه وفمه. قال: «الله يحشره يوم القيامة وهو يلبي»⁽⁵⁾. وبنفس الطريقة قد بين أن الصيد محرم في حالة الإحرام بالفعل، لكن إذا صاده شخص بدون إحرام جاز للمحرم أن يأكله، بشرط ألا تتدخل إيماءته أو أي حركة معه في الصيد⁽⁶⁾. وقال أيضًا: إن هذا الأمر بتحريم الصيد ليس له علاقة

(1) روى البخاري نصح رقم ١٥٣ - ١٥٣٩ ومسلم رقم ٢٨٣٢ - ٢٨٤١.

(2) رواه البخاري رقم ١٨٣٥ - ١٨٤٠ ومسلم رقم: ٢٨٨٩ - ٢٨٨٥.

(3) روى البخاري نصح رقم ١٨٤٢ - ١٨٤١ ومسلم رقم ٢٧٩١ - ٢٧٩٤.

(4) رواه مسلم رقم ٣٤٤٦.

(5) روى البخاري نصح رقم ١٢٦٧ ومسلم رقم ٢٨٩١.

(6) رواه البخاري رقم ١٨٢٤ ومسلم رقم ٢٨٥٥.

بالحيوانات الضارية الخطرة. ويمكن قتل مثل هذه الحيوانات دون تردد حتى في حالة الإحرام⁽¹⁾.

التلبية

وأما التلبية فقد قال رسول الله ﷺ: إذا قال المسلم لبيك لبيك فالأشجار والأحجار عن يمينه وعن شماله إلى أقصى الأرض تقول بمثل ذلك⁽²⁾. وقال إن جبريل قد أمرني أن أجهر بذلك⁽³⁾.

وعن ابن عمر أن النبي ﷺ كان إذا خرج حاجاً أو معتمراً صلى ركعتين إذا بلغ ذا الحليفة، ثم يركب ناقه قريباً من المسجد فإذا قامت أخذ يلبي⁽⁴⁾.

الطواف

وطواف الحج هو نفسه الذي يسمى «طواف الإفاضة» في الاصطلاح، لكن قد أمر رسول الله ﷺ العائدين إلى بيوتهم بعد الفراغ من الحج والعمرة أن يلتزموا به. وأن يطوفوا ببيت الله قبل الخروج، وعن ابن عباس قال: يكون هذا آخر عمل أحدكم قبل خروجه إلى بيته⁽⁵⁾. وأما الحائضات فلم يطلب ذلك منهن لاضطرارهن، بل سمح لهن بالخروج من مكة بدونه⁽⁶⁾.

وقبل الطواف قد توضعاً النبي ﷺ⁽⁷⁾.

وعن السيدة عائشة قالت كنت حائضاً فقال: تستطيع أن تؤدي مناسك

(1) رواه البخاري رقم ١٨٢٨ — ١٨٢٩ ومسلم رقم ٢٨٦٨.

(2) رواه ابن ماجه رقم ٢٩٢١ والترمذي رقم: ٨٢٨.

(3) رواه أبو داود رقم ١٨١٤.

(4) رواه مسلم رقم: ١١٨٤.

(5) رواه البخاري رقم ١٧٥٥ ومسلم رقم ٣٢١٩.

(6) رواه البخاري رقم ١٧٦٢ ومسلم رقم ٢٩١٨.

(7) رواه البخاري رقم ١٦٤١ ومسلم رقم ٣٠٠١.

الحج كلها على هذه الحالة، ولكنك لا تستطيع الطواف⁽¹⁾. وروى البخاري ومسلم عن النبي أنه قال لعائشة - وقد حاضت في الحج: «افعلي ما يفعل الحاج غير أن لا تطوفي بالبيت».

وتقول أم سلمة: كنت مريضاً، فلما ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، أمرني بالطواف راكباً⁽²⁾. وقالت عائشة: أن النبي ﷺ أمر أم سلمة ليلة النحر فرمت جمرة العقبة قبل الفجر ثم مضت فأفاضت⁽³⁾.

وعن جابر بن عبد الله أنه لما وصل النبي ﷺ مكة طاف البيت الطواف الأول، فطاف منه ثلاثاً وهو يركض ويهز منكبيه، وأربعاً وهو يمشي مشيته العادية. (وقد وجه ابن عباس هذا العمل⁽⁴⁾) أن مشركي مكة قد طعنوا في المسلمين أنهم صاروا ضعافاً بالمدينة فأمر الرسول رداً عنهم المسلمين أن يطوفوا يهرولون ويركضون وقد طاف بنفسه وهو يركض).

ثم توجه إلى مقام إبراهيم فصلى ركعتين خلفه. وبعد ذلك عاد إلى الحجر الأسود واستلمه وخرج من البوابة باتجاه الصفا⁽⁵⁾.

وعن ابن عباس: كانت كتفه اليمنى في هذا الطواف مكشوفة، فأخرج رداءه من إبطه الأيمن فوضعه على كتفه اليسرى⁽⁶⁾.

وفي الطواف ورد ذكر الركن اليماني أيضاً في بعض الأحاديث⁽⁷⁾.

وكذا ورد في فضل الطواف أن من طاف وصلى معه ركعتين كان كمن أعتق رقبة في سبيل الله⁽⁸⁾.

(1) رواه البخاري رقم ١٦٥٠ ومسلم رقم ٢٩١٨.

(2) رواه البخاري رقم ١٦٢٦ ومسلم رقم ٣٠٧٨.

(3) برواية مسلم رقم ٣٠٥٩.

(4) رواه مسلم رقم: ٢٩٥٠.

(5) رواه ابوداؤد رقم: ١٨٨٤.

(6) رواه البخاري رقم ١٦٠٩ - ١٦٠٦ ومسلم رقم: ٣٠٦٢ - ٣٠٦٣.

(7) رواه ابن ماجه رقم: ٢٩٥٦.

السعي

وقد كان سعي رسول الله ﷺ على هذا النحو، أنه بعد الانتهاء من الطواف توجه نحو الصفا فصعد عليه ثم استقبل القبلة ووحّد الله وكبره. وقال:

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده⁽¹⁾.

فأعاد هذه الكلمات ثلاث مرات ودعا بينها. وبعد ذلك انتقل إلى المروة. وعندما وصل إلى الأسفل بدأ بالركض. ثم بمجرد أن بدأ الصعود مشى مشيته. وحتى بعد وصوله إلى المروة فعل ما فعل عند الصفا، وأكمل أشواطه السبعة بنفس الطريقة⁽²⁾.

وقوف العرفة

ومن منى خرج رسول الله ﷺ إلى العرفات بعد طلوع شمس صباح اليوم التاسع من ذي الحجة. وقد نصبت له خيمة بوادي النمرة. فأقام فيه حتى غربت الشمس. ثم أتى إلى أسفل الوادي فخطب فيه الناس. وبعد ذلك صلى الظهر والعصر معاً بأذان واحد وتكبيرتين. ولم يصل أية نافلة قبله ولا بعده. ثم وقف عند جبل الرحمة متوجّهاً إلى القبلة حتى غروب الشمس وظل يدعو ويناجي ربه⁽³⁾.

وعن أنس رضي الله عنه أن الناس يومئذ ظلوا يلبنون ويكبرون، ولم ينكره أحد⁽⁴⁾.

وروي أنه في يوم عرفة يكون الله أقرب من عباده، يفخر الله ويتباهى بعباده عند الملائكة، ولن يُعَتَّق عباده من النار أكثر منه في يومٍ آخر.

(1) رواه مسلم رقم: ٢٩٥٠.

(2) رواه مسلم رقم: ٢٩٥٠.

(3) رواه مسلم رقم: ٢٩٥٠.

(4) رواه البخاري رقم: ١٦٥٩ ومسلم رقم: ٣٠٩٧.

فَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتَقَ اللَّهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ وَإِنَّهُ لَيَدْنُو ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمُ الْمَلَائِكَةَ فَيَقُولُ مَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ» (1).

القيام بالمزدلفة

وفي المزدلفة قد أدى النبي ﷺ صلاة المغرب والعشاء معًا بأذان وتكبيرين تمامًا مثل صلاته في العرفة. ثم استراح حتى الصباح وخلال هذا الوقت لم يصل أي نافلة وما إلى ذلك. ولكن قد صلى صلاة الفجر في الصباح الباكر قليلًا. وبعد ذلك وقف بالقرب من المشعر الحرم واستمر في الدعاء والمناجاة حتى انتشر بياض الصبح ونوره تمامًا. وقد غادر قبل شروق الشمس بقليل من هنا ووصل إلى منى مرورًا سريعًا عبر وادي المحسر (2).

الرمي

وقد رمى النبي ﷺ يوم الأضحية في وقت الإشراق، وبعد غروب الشمس فيما بعد من الأيام (3). وكان قد وقف لهذا في مواجهة الجمرة، وكان بيت الله على جانبه الأيسر وكان منى عن يمينه. ثم رمى سبع حصيات وكَبَّرَ مع كل حصاة أثناء الرمي. كما قد وقف عند الجمرتين الأوليين، وبعد الرمي اتجه إلى القبلة، واستمر في التسبيح والتهليل والتكبير والدعاء والمناجاة لفترة طويلة. ولكن لم يقف عند الجمرة العقبة البتة. وعن الفضل ابن عباس: إن النبي ﷺ لم يزل يلبي حتى رمى جمرة العقبة (4).

(1) رواه مسلم رقم: ٣٢٨٨.

(2) رواه مسلم رقم: ٢٩٥٠.

(3) رواه مسلم رقم: ٣١٤٢.

(4) رواه البخاري رقم ١٧٥١ - ١٧٥٣ ومسلم رقم ٢٩٥٠ - ٣١٣٢.

وعلى هذا الموقع وحتى قبل ذلك عندما جاء إلى منى من مكة في الثامن من ذي الحجة قصر الصلاة خلال الأيام التي مكث فيها هناك⁽¹⁾.

وعندما طلب بعض رعاة المنطقة الإذن بالذهاب إلى قطعانهم بدلاً من قضاء الليل في المنى أعطى لهم الإذن وأمرهم برمي حصيات اليومين الباقيين في اليوم الواحد بعد الرمي في يوم النحر⁽²⁾.

الأضحية

وقد تمت التضحية بطريقة طبيعية، ولكن ثار سؤال مهم أيضاً حول ما يجب فعله إذا اقتربت حيوانات الهدي من الموت في الطريق؟ فقال ابن عباس سأل عن ذلك رجل عن النبي ﷺ وقد أرسله بإبل الهدي فقال: اذبحها واغمس نعلها في الدم، وضعها بالقرب من أسنانها.

(وذلك حتى يعرف أولئك الذين يأتون فيما بعد أنه ليس لحم الميتة بل لحم الهدي) ثم لا تأكل لحمها لا أنت ولا أصحابك. (أو كما قال ﷺ) (وكان الغرض منه أن لا يعتبر أضحية بل يجب تقديم جميع لحوم مثل هذه الحيوانات صدقةً).

الحلق

وبمناسبة حجة الوداع قد حلق الرسول الكريم نفسه وفضله بعض أصحابه أيضاً⁽³⁾. ويروي ابن عمر ؓ أنه دعا ثلاث مرات للذين حلقوا رؤوسهم ومرة واحدة للذين قصوا شعرهم⁽⁴⁾. فكان هذا مؤشراً على أن يفضل الحلق على القص.

(1) رواه البخاري رقم ١٦٥٥ — ١٦٥٦.

(2) رواه أبو داود رقم: ١٩٧٥ — ١٩٧٦.

(3) رواه البخاري رقم: ١٧٢٩ ومسلم رقم ٣١٤٤.

(4) رواه البخاري رقم ١٧٢٨ ومسلم رقم ٣١٤٨.

وقد جاء في الأحاديث بعض القضايا الأخرى عن الحج نذكرها فيما يلي:
ومنها أنه روي عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ لَقِيَ رَكْبًا بِالرَّوْحَاءِ فَقَالَ مَنِ الْقَوْمُ؟ قَالُوا: الْمُسْلِمُونَ.

فَقَالُوا: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ فَرَفَعَتْ إِلَيْهِ امْرَأَةٌ صَبِيًّا فَقَالَتْ:
أَلْهَذَا حَجٌّ؟ قَالَ: نَعَمْ وَلَكِ أَجْرٌ⁽¹⁾.

وما هو المبدأ الذي تتم الحسنه من طرف الآخرين يُراجع للاستزادة في ذلك إلى مقال «إيصال الثواب» في كتابنا مقامات.
وثانيًا:

روي ابن عباس «أن امرأة من خثعم قالت: يا رسول الله إن أبي أدرسته فريضة الله في الحج شيخاً كبيراً، لا يستطيع أن يستوي على الرحلة، أفأحج عنه؟ قال: «حجي عنه»⁽²⁾
وثالثًا:

روي البخاري عن ابن عباس أن امرأة قالت: يا رسول الله إن أمي نذرت أن تحج، فلم تحج حتى ماتت، أفأحج عنها؟ قال «نعم، حجي عنها، أرايت لو كان على أمك دين، أكنت قاضيته، اقضوا الله، فالله أحق بالوفاء»⁽³⁾.
ورابعًا:

وعنه رضي الله عنه أنه أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول: لبيك عن شبرمة، قال: من شبرمة؟ قال: أخ لي، أو قريب لي، فقال: حججت عن نفسك؟ قال: لا، قال: حج عن نفسك، ثم حج عن شبرمة⁽⁴⁾.

(1) رواه مسلم رقم ٣٢٥٣.

(2) رواه البخاري رقم: ١٨٥٥ ومسلم رقم ٣٢٥١.

(3) البخاري رقم: ١٨٥٢.

(4) رواه أبو داود رقم: ١٨١١ وابن ماجه وصححه ابن حبان، والراجح عند أحمد وقفه.

وخامسًا

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يُسْأَلُ يَوْمَ النَّحْرِ بِمَنَى، فَيَقُولُ: «لَا حَرَجَ» فَسَأَلَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: حَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَدْبَحَ، قَالَ: لَا حَرَجَ»
ارم وَلَا حَرَجَ» وَقَالَ: رَمَيْتُ بَعْدَ مَا أَمْسَيْتُ، فَقَالَ ⁽¹⁾:

وسادسًا قال رسول الله عن المدينة وحرمتها:

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَةَ وَدَعَا لِأَهْلِهَا، وَإِنِّي حَرَمْتُ الْمَدِينَةَ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَةَ، «(أَيُّ بِنَاءٍ عَلَى كَوْنِ مَعْبَدٍ لِلَّهِ فِي بِلَدٍ بَنَاهُ رَسُولُهُ فِيهِ وَيَأْتِيهِ رِجَالُ بَشَدِ الرِّحَالِ لِلْعِبَادَةِ فَلَا بَدَّ مِنْ تَكُونِ لَهُ حَرَمَةٌ) وَإِنِّي دَعَوْتُ فِي صَاعِهَا وَمَدَهَا بِمِثْلِي مَا دَعَا بِهِ إِبْرَاهِيمُ لِأَهْلِ مَكَةَ».

فالمدينة حرم ما بين حرتيها وحماها كله؛ لا يختلي خلاها، ولا ينفر صيدها، ولا تلتقط لقطتها، ولا يقطع منها شجرة إلا أن يعلف بغيره ولا يحمل فيها سلاح لقتال رجل» ⁽²⁾ وقال:

«المدينة حَرَّمُ ما بين عَيْرٍ إِلَى ثَوْرٍ، فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا، أَوْ آوَى مُحْدِثًا؛ فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» ⁽³⁾.

وسابعًا

إِنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، وَمِنْبَرِي عَلَى حَوْضِي ⁽⁴⁾.

(1) رواه البخاري رقم: ١٧٣٦ — ١٧٣٧ ومسلم رقم: ٣١٥٧.

(2) رواه البخاري رقم ١٨٦٧ ومسلم رقم ٣٣١٧.

(3) رواه البخاري رقم ١٨٧٠ ومسلم رقم: ٣٣٢٧.

(4) رواه البخاري رقم ١١٩٦ ومسلم رقم ٣٣٧٠.

الأضحية

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ
الْأَنْعَامِ فَلِلَّهِ الْهَكْمُ وَالْإِلَهُ وَحْدٌ فَلَهُ اسْلُمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾⁽¹⁾.

في جميع الديانات القديمة في العالم، كانت التضحية مصدرًا كبيرًا للقرب
من الله. وحقيقة هذا هو نفس حقيقة الزكاة، لكنها ليست في الواقع مقدمة للثروة
بل نذر للحياة، التي يتم استبدالها مقابل الحيوان الذي نضحي به بدلًا منه. ويبدو
أنه تقديم النفس للموت، لكن إذا وضعت في اعتبارك لأدركت أن هذا الموت
هو باب الحياة الحقيقية. ومن هنا قال الله:

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾⁽²⁾.

وقد أوضح القرآن هذه الحقيقة بوضع الحياة مقابل الصلاة ووضع الموت
بإزاء القربان أنه كما أن الصلاة هي حياتنا مع الله، فإن التضحية هي موتنا في
سبيله. فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁽³⁾.

ولما أمر سيدنا إبراهيم عليه السلام أن يذبح ذبيحة عظيمة بدلًا من ابنه ذكرًا له في
الخلود، قال الله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾⁽⁴⁾. وهذا يعني أن نذر إبراهيم
هذا قد تم قبوله، والآن سيتذكر الناس جيلًا بعد جيل هذا الحدث من خلال
تضحياتهم.

فإذا نظرت إليه بهذا المعنى، فإن الأضحية هي كمال العبادة ومنتهاها.
فنحن نقدم حيواناتنا لربنا من خلال توجيه أنفسنا وحيواناتنا نحو القبلة وبقول

(1) سورة الحج، الآية: ٣٤.

(2) سورة البقرة، الآية: ١٥٤.

(3) سورة الأنعام، الآية: ١٦٢.

(4) سورة الصافات، الآية: ١٠٧.

«بسم الله والله أكبر» على ذبحها⁽¹⁾ في حالة قيام للنحر أو في حالة سجود للذبح باستلقائه في جهة القبلة، مع إدراك أننا في الواقع نقدم أنفسنا للتضحية لله تعالى.

وهذه النذر والتقدمة هي حقيقة الإسلام، لأن معنى الإسلام هو الاستسلام والطاعة والخضوع، وأن يقدم الإنسان أحب متاعه وحتى حياته لله تعالى. والتضحية إذا فكرت فيها، هي تصوير لهذا الواقع. ولما قدم له إبراهيم وابنه الجليل القدر، عرّفه القرآن عملهما بالإسلام: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَقَلَّ لِلْجَيْنِ﴾⁽²⁾. وأنظر كذلك في آية سورة الحج المذكورة أعلاه، كيف أشار القرآن إلى هذه الحقيقة في عبارة ﴿فَلَهُ أَسْلَمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾. أي إذا كانت قلوبكم خاشعة له فله اسلموا أنفسكم فإن الحكم اله واحد. وهذه هي روح الاضحية أيضًا. وقد شرعها الله خالصةً لشكره فلا تشركوا فيه أحدًا.

تاريخ النسك

ويرجع تاريخ النسك والأضحية إلى سيدنا آدم أبي البشر، فقد جاء في القرآن أن الله قد قبل من أحد إبنيه (هابيل وقابيل) عندما نذر كل منهما قربانه إلى الله تعالى ولم يُقبل من الآخر فقال: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقْبَلْ مِنَ الْآخَرِ﴾⁽³⁾ وقد صرح الكتاب المقدس أن هابيل قد قرب قربانًا من أول ولا ند من غنمه فجاء في كتاب العدد:

وَعَرَفَ آدَمُ حَوَاءَ امْرَأَتَهُ فَحَبَلَتْ وَوَلَدَتْ قَايِينَ. وَقَالَتْ: «اقتنيت رجلاً من عند الرب».

ثُمَّ عَادَتْ فَوَلَدَتْ أَخَاهُ هَابِيلَ. وَكَانَ هَابِيلُ رَاعِيًا لِلْغَنَمِ، وَكَانَ قَايِينُ عَامِلًا فِي الْأَرْضِ.

(1) البخاري: ٥٥٦٥ ومسلم رقم: ٥٠٩٠.

(2) سورة الصافات، الآية: ١٠٣.

(3) سورة المائدة، الآية: ٢٧.

وَحَدَّثَ مِنْ بَعْدِ أَيَّامٍ أَنَّ قَايِينَ قَدَّمَ مِنْ أَثْمَارِ الْأَرْضِ قُرْبَانًا لِلرَّبِّ،
وَقَدَّمَ هَابِيلُ أَيْضًا مِنْ أَبْكَارِ غَنَمِهِ وَمِنْ سِمَانِهَا. فَنَظَرَ الرَّبُّ إِلَى هَابِيلَ
وَقُرْبَانِهِ،

. وَلَكِنْ إِلَى قَايِينَ وَقُرْبَانِهِ لَمْ يَنْظُرْ. فَاعْتَاطَ قَايِينُ جِدًّا وَسَقَطَ وَجْهُهُ⁽¹⁾

والظاهر أن هذه الطريقة قد تتابعت وظلت فيما بعد ولذا نجد آثارها في كل الأديان القديمة، ولكن ما نالته هذه العبادة من مكانة كبيرة والسعة والشمولية بعد نسك إبراهيم عليه السلام لم ترها من قبل، وتفصيل ذلك أن إبراهيم لما هاجر من قومه ويثس من إيمانه دعا ربه أن يرزقه ولدًا صالحًا ونال دعاءه القبول وبُشر من عند الله تعالى أن يولد له ولد صالح وكان هو اسماعيل. وقد بين القرآن أن اسماعيل لما بلغ معه السعي رأى في المنام أنه يؤمر بذبح ولده لله تعالى. وهذا الأمر قد جاء في المنام، والمنام يحتاج إلى تعبير وتأويله وتأويل رؤياه كان أن يقف وينذر ولده لخدمة معبد الرب تعالى وليس المقصود أن يذبحه بنفسه، ولكن إبراهيم الصديق لم يعبر رؤياه ولم يؤله بل قبله على ظاهره وقضى أن يمثل بأمر الذبح، فأول في طريق ذلك أن أخبر ابنه برؤياه حتى يمتحن عزمته وأجاب اسماعيل أن يا ابت لا تتردد وافعل ما تؤمر وتجدني إن شاء الله من الصابرين. فاطمئن من إجابته وذهب به إلى قرب جبل مروة وتله للجبين ليذبحه وكاد السكين أن يقطع حلقومه أن نودي من الله سبحانه ﴿أَنْ يَتَابَرَهِيْمُ﴾ * قَدْ صَدَقَتِ الرُّبَيَّا ﴿(2)﴾ وإن هذا كان بلاءً عظيمًا صدقته ولا ضرورة أن تمضي قدمًا فيه، وفداه الله تعالى بذبح عظيم وقد أقيم للأبد تقليد عظيم للذبح والقربان كل عام تذكيرًا للحدث الضخم. فهذه هي الأضحية التي نهتم بها في موسم الحج والعمرة ويوم الأضحى اهتمامًا كبيرًا كعبادة نافلة كل سنة. وجاء في الكتاب العزيز:

(1) الكتاب المقدس، العدد: ٤ / ٥ - ١.

(2) سورة الصافات، الآيتان: ١٠٤ و ١٠٥.

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ *
 وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَّهَدِينَ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا
 بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَتَّىٰ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَتَأَبَّتُ
 أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَدَيْنَاهُ
 أَنْ يَتَّزِهِيْمُ * قَدْ صَدَّقَتِ الرُّبُيَّا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ
 الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١﴾.

غرض النسك

والغرض من النسك هو الشكر لله تعالى، وكأنا نتقدم بأنفسنا لله سبحانه
 متمثلاً في حيوانات الذبح، ومن خلال ذلك نشكر لله تعالى على ذلك الإسلام
 والإخبارات الذين تظاهروا بهما إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه الوحيد، وهذا الغرض يعرب به
 بألفاظ التكبير والتهليل، وقد أوضح القرآن هذا الغرض كما يأتي:

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ النُّقُوى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا
 لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٢﴾.

قانون النسك والأضحية

وتشريع النسك الذي انتقل إلينا بإجماع المسلمين وتواترهم هو كما يأتي:
 يكون النسك من كل أقسام الأنعام ويجب أن يكون ما يُنوى ذبحه من
 الحيوان سالمًا من كل عيب وأن يكون له عمر جيد.

وقد سبق لنا فيما مر بيان وقت الأضحية في الحج والعمرة، أما عيد
 الأضحية فوقته يبتدئ بعد الفراغ من صلاة العيد، وعبر القرآن ذلك بـ ﴿أَيَّامٍ
 مَّعْلُومَاتٍ﴾ ﴿٣﴾ وهي أيام يقيم فيها الحاج بالمنى بعد الرجوع من المزدلفة

(1) سورة الصافات، الآيات: ٩٧ — ١٠٧.

(2) سورة الحج، الآية: ٣٧.

(3) سورة الحج، الآية: ٢٨.

ويصطلح عليها بأيام التشريق. وعلاوة على الأضحية من سنة هذه الأيام رفع التكبيرات بعد كل صلاة.

وهو حكم مطلق بعد الصلوات ولم يجيء الشرع بالفاظ مخصوصة متعينة للتكبير.

وللناس أن يأكلوا لحوم الأضاحي دون تردد وأن يطعموها الآخرين أيضاً كما قال: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعُمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾^(١).

وهذا هو تشريع الأضحية، ولكن قد أضيف فيه ما سنه النبي ﷺ من عدم تقليم الأظفار وأن لا يحلق الشعر قبل إتمام النسك في شهر الأضحية للذي يقوم بالأضحية وذلك نذر جاري كسنة ثابتة في الحج والعمرة^(٢). وقال النبي ﷺ: من لم يتيسر له الأضحية فليقطع ظفره وليأخذ من شعره فهذه هي أضحية عند الله تعالى^(٣).

والثاني يتم الذبح على كل حال بعد صلاة العيد وقال النبي ﷺ: من ذبح قبل الصلاة فإنما يذبح لنفسه ومن ذبح بعد الصلاة والخطبتين فقد أتم نسكه وأصاب السنة^(٤).

والثالث يجب أن تبلغ الأضحية السن المحدد شرعاً فلا يجزئ من الضأن إلا ما تم له ستة أشهر ولا من المعز إلا ما تم له سنة ولا من البقر إلا ما تم له ستان ولا من الإبل إلا ما تم له خمس. نعم الكبش والضأن يجزئ إذا تم له ستة أشهر فقط^(٥).

والرابع أن يصح الاشتراك في الأضحية في الإبل والبقر ويجوز أن يكونوا

(١) سورة الحج، الآية: ٣٦.

(٢) كما جاء في مسلم، رقم: ٥١٢١.

(٣) كما روى مفهومه أحمد، رقم: ٦٥٧٥.

(٤) رواه البخاري، رقم: ٥٥٦٠، ٥٥٦١، ٥٥٦٢، ومسلم، رقم: ٥٠٦٤، ٥٠٦٥، ٥٠٧٩.

(٥) كما جاء في مسلم رقم: ٥٠٨٢، ابوداؤد، رقم: ٢٧٩٩ والنسائي: ٤٣٨٣.

سبعة^(١). ولا حرج أن يزيدوا إلى عشرة شركاء. فعن ابن عباس قال كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فحضر الأضحى فاشتركنا في الجزور عن عشرة والبقرة عن سبعة^(٢).

والخامس أن الأضحية تتم كعبادة نافلة علاوة على عيد الأضحى فقد ضحى النبي ﷺ بنفسه عند مولد الأطفال ورغب الآخرين بذلك^(٣).

(١) مسلم، رقم: ٣١٨٦.

(٢) رواه ابن ماجه والترمذي، رقم: ١٥٠١، والنسائي، رقم: ٤٣٩٧.

(٣) رواه البخاري، رقم: ٥٤٧٢، ابوداؤد، رقم: ٢٨٤١.

الباب الثاني:

التشريع الاجتماعي

إنه قد أعطى الخالق جل وعلى الإنسان طبيعة حيوان اجتماعي، ووجه ذلك أن الإنسان لم يتم خلقه بحيث يخلقه خالقه في مكان ما في السماء شاباً وينزله مباشرة إلى الأرض في عالم الشباب، ثم يعيده إليه دون مروره بمراحل الهرم والشيبة، بل على عكس من ذلك إنه يولد من حيث طفل رضيع ضعيف في ظلمات بعضها فوق بعض، يفتح عينيه في حضن أمه يضحك ويلعب ويأكل ويشرب على أيدي غيره، ويقضي جميع حاجياته كذلك. ففي البداية يزحف على الأرض ثم يمشى على ركبتيه ويستطيع الوقف على قدميه بصعوبة كبيرة وبعد ذلك أيضاً يحتاج إلى الكثير من العمد والمساعدة في كل ميدان من ميادين الحياة، حتى يبلغ شبابه بعد المضي بمراحل عدة من الطفولة والمراهقة وهو ابن الخامس عشر والسادس عشر. ومرحلة الشباب أيضاً لا تطول على عشرين أو ثلاثين سنة ثم أخذ يذهب إلى المشيب، وبعد أن وصل إلى أعلى مراتب العلم والمعرفة إنه يضطر مرة أخرى أن يقضي أيامه تحت رحمة الآخرين كالطفل الرضيع الضعيف.

فطبيعة البشر هذه تتقاضى منه أن يتعايش حياة اجتماعية، وهذه العشرة الاجتماعية تكمن فيه من لدن خلخته البدائية ولا يحتاج الإنسان - رجلاً وامرأة

- أن يخرج من وجوده ويذهب بعيدا للبحث عن تلك العشرة الجماعية، إنه يأتي إلى هذا العالم مع كل متاعه وكل ماله و منزله، وسواء كانت الوديان والتلال أو السهول والصحاري فإنه يزين حفله الجماعي في كل مكان بنفسه.

والتاريخ البشري بأجمعه يشهد أن أبا البشر آدم لما بعث إلى وجه هذا الأرض تحت هذا المخطط الكامن في خلقه من حيث أول إنسان، فإنه لم يُبعث وحيداً شريداً بل خلق الله لرفاقته زوجاً من نفسه ثم بث رجالاً ونساءً في هذا العالم، وكانت الأسرة فالقبيلة فالنظم الجماعي على الصعيد الإقليمي أو الدولي، وتيسر من كل ذلك للإنسان كل ما كان له ضروريا لازما ليدرك امكاناته الخفية ويعمل عليها. وقد اعرّب القرآن عن هذه الحقيقة كما يأتي:

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾⁽¹⁾.

ففي هذه الآية - إذا تدبرت علمت - قد بينت كافة المبادئ والأصول التي بنى عليها خالق الكون الاجتماع البشري. وفي لفظ الأستاذ الإمام هذه الأصول مندرجة فيما يأتي:

أولاً: إن هذا العالم ليس رعية من دون راع لها، بل خلقه الله وهو الخالق الرب ولذا لا يجوز لأحد أن يتعدى حدوده ويتجاسر على امتثال أهواءه بل على الكل أن يتقوا ويحذروا من عذاب الله الخالق المالك.

وثانياً: إن الله تعالى قد خلق كل إنسان من نفس واحدة - آدم عليه السلام - فالكل ولد آدم نسباً الأب الواحد، فلا فضل لأحد على أحد، لا لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأبيض على أسود، الكل متساوون إلا بالتقوى أي بصفات اكتسابية وكل معياريات الشرف دون ذلك باطل.

وثالثاً: لأن التعاون والتناصر في المجتمع البشري يقوم على وحدة الإله

(1) سورة النساء، الآية: ١.

ووحدة آدم واشتراك الرحم النسبي فيجب على أن يعرفوا حقوق هذا الاشتراك ويؤدونها وأن لا تغلبهم نعمة تهدم الاشتراك المفطور ومما يبعث على العواطف الجاهلية، وإذا كان هناك شيء يثور من هذا القبيل في الاجتماع الإنساني فإنه بوقه خطر للاجتماع كله ويتوجب على كل فرد صالح مؤاسي أن يصرف كل ماله من طاقة وامكانية للصد عنه. وجاءت فقرة «واتقوا الله الذي تسألون به والأرحام تنبيهًا وتحذيرًا من ذاك الخطر الشديد، لأن الأرحام هي التي تعتمد عليها بناية الأسرة والاجتماع والدولة في الإسلام، فما دامت هذه الأركان قائمة تدوم البناية أيضًا وإذا داهمها خطر تضعضت البناية وإذا تهدمت انهدمت البناية أيضًا⁽¹⁾.

ونظرًا إلى هذه الأسس قد انتهج الأنبياء ﷺ منهاج الرفاقة المستقلة بين الزوجين في دينهم، فقد أحبر الله سبحانه أن جميع داعيات هذا المقصد الكبير الهادف البناء قد أودعت في فطرته منذ الأزل، حتى يقومان مجتمعين بأداء واجبات هذه الرفاقة المطلوبة، فقال تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكَّرُونَ﴾⁽²⁾.

ومن الواضح إذا كان الإنسان كله يُنظر إليه من الطفولة إلى الشيخوخة، أن هذه الطريقة هي الأوفى والأوفق لكيانه وطبيعته اعتبارًا بضروراته الحياتية والنفسية والاجتماعية. لذلك، في بعض الجوانب الهامة للمجتمع الذي يأتي إلى حيز الوجود منه، فإن الله تبارك وتعالى قد أعطى قانونًا مفصلاً وتشريعًا حكيمًا ترشيدها للعقل البشري فيها لبني آدم ولتزكيته وتطهيره، ففيما يأتي سوف نفصل تلك النصوص القرآنية والحديثية التي جاءت متصلة بها في الشريعة الخالدة الآن.

(1) تركية النفس، ٤٣٨٢.

(2) سورة الروم، الآية: ٢١.

النكاح

﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ * وَلَيْسَتَعَفِيفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (1).

فهذه الآيات تقطع وبصراحة كاملة أن الطريق الواحد المباح عند الله لحصول التسكين الجنسي من النساء هو النكاح فقط، وإذا لم يقدر المرء عليه فلا يبرر ذلك السفاح والزنا له، ومن هنا جاء التلقين أن أنكحوا الأيامي منكم. والنكاح هو العهد للرفقة المتواصلة بين المرء والمرءة مع الإيجاب والقبول العلني، والذي يتعهد أنه أمام شهود وجمع من الناس بكل اهتمام وبكل جدية، وتفيد الصحف الإلهامية أنه قد أجري هذا الطريق في بني آدم منذ أول يوم من مولده، فلما نزل القرآن لم يحتج إلى إصدار حكم جديد في هذا الباب، فأبقى النبي ﷺ ذلك كسنة قديمة متبعة، بل رغب الناس إليه مع بشارة زائدة إنهم إن كانوا فقراء يغنيهم الله من فضله بفضل النكاح وليجتنبوا من المفسدات الأخلاقية من خلال النكاح، ويقول الأستاذ الإمام في تفسير ذلك:

«فما دام المرء بلا زوجة يظل يعيش وكأنه بدوي وتبقى كفاءاته كامنة وصلاحياته مكبوتة، كما أن المرأة المحرومة من الزوج تبقى مثل النبات الذي لا يستطيع النشوء والنمو والانتشار بسبب نقص الدعم، ولكن إذا نالت المرأة الزوج ويحصل المرء على الزوجة الرفيقة تنمو صلاحياتهما وعندما يكافحان معا في ميدان الحياة يبارك الله لهما في نضالهما فتغير أحوالهما كاملة» (2).

المحرمات:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا

(1) سورة النور، الآيتان: ٣٢ و٣٣.

(2) تدبر القرآن، ٤٠٠/٥.

قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا * حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبُكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِّنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ

فهذا هو فهرس النساء التي امتنع النكاح منهن وأوله القرآن بحرمة النكاح من زوجة الأب وختمه بحرمة النكاح بنساء هن بنكاح الغير ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ﴾. والحرمان التي جاءت بين هذين التمهيد والخاتمة هي مبنية على مبادئ ثلاثة للحرمة وهي النسب، الرضاة والمصاهرة. وكان هناك تقليد سائد متبع في بعض طبقات وأوساط العرب الجاهلية أن منكوحات الأب يرثها الإبن وكانوا لا يستقبحون أن يصرن أزواجاً لهم، وقال القرآن إن هذا فاحشة ومقتا وساء سبيلاً. ولذا حرم للأبد تحريماً قاطعاً وما سلف منه سلف ولكن لا ينبغي الآن أن يرتكبه أي مسلم مستقبلاً،

وكذلك المرأة التي هي في حباله عقد الغير لا يحق لشخص أن ينكحها بدون أن تفرق من زوجها، ووجه ذلك لأنه بدون هذا التحريم فإن مؤسسة الأسرة التي من أجلها شرع النكاح لا توجد. فحرمه الله، إلا النساء اللاتي جئن أسيرات للحرب، فقد شرع لهن النكاح إذا شئن مع نكاح سابق لهن، لأن الأسر بنفسه كان يكفي لإنهاء الزواج الأول وفق الزواج والتقليد السائد في ذلك العصر، فأبقاه القرآن أيضاً كما يؤشر عليه فقرة استثنائية «إلا ما ملكت أيمانكم» لكي يصبح جزءاً للمجتمع المسلم من دون عقبة إذا شئن.

خذ بعد ذلك الحرمات المتتبقية ومنها:

النسب

وفي هذا الباب حرم القرآن حرمات نسبية وهي سبع قرابات: الأم، البنت، الأخت، العمّة، الخالة، ابنة الأخت وابنة الأخ، وهذه القرابات تحوز بقدسية لدرجة أن شائبة الرغبة الجنسية فيها تاباها الفطرة الصالحة، ولا شبهة أن هذه القدسية هي التي تنبع منها مشاعر الرأفة والرحمة والحب للأسرة وتتأسس عليها المدنية وروح الحضارة. فقد أراد الله سبحانه أن تطيب نظرات الأم لابنها والأب لابنته والأخ لأختها والعمّة لابن أخيها والخالة لابن أختها، ولابنة الأخت نظرة خالها ولابنة الأخ نظرة العم من كل شوائب الجنس والشهوة. ويشهد العقل أن أية شائبة من هذا النوع في هذه العلاقات تهدم الشرف الإنساني وهي تنافي لذلك الإحساس الطاهر والعاطفة الزكية الذي هو الفارق بين الإنسان والحيوان.

وحكم هذه الحرمات المذكورة أعلاه هو متعين وليتضح ثلاثة أمور في

ذلك:

أولاً الألفاظ التي استخدمت هنا للغة العربية ليس هناك فرق بين الأصلي وغير الأصلي من العلاقات في ذلك إن العلاقات العلاتية والأخياية في الأب والأم والأخ والأخت كلها متساوية في الحكم وكذلك تشترك فيها أبناء وبنات الأخ والأخت وأخوات الأم والأب وبناتهما أيضاً تأتي تحت هذا الحكم، وثانياً لفظة الأم تتناول أم الأب وأم الأم فصاعداً ولفظة الابنة شاملة للحفيدة ولابنة البنت فسافلاً لا فرق بينهما في الحكم. وثالثاً إن أخت الجد للأم وأخت الجدة تعدان عمّة وخالة فتشملان في هذا الحكم.

الرضاعة

وهذه القداسة نفسها للعلاقات الرضاعية أيضاً. يقول الأستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاح في توضيح ذلك:

«إن الناس عندنا لا يعيرون أهمية ومعنى عميقا للرضاعة مثل ما تعيرها العرب من معنى كبير والمكانة الكبيرة، وباعثها هو باعث التقاليد، وإلا فإن العلاقة الرضاعية لها عمق وتأثير كبير مثل عمق وتأثير الأمومة، فإن الطفل الذي يتغذى من لبن امرأة تحتضنه وتعطيه ثديها تصير له نصف أم على الأقل إن لم هو أما حقيقية. فكيف يمكن لطفل أن لا تتأثر مشاعره وعواطفه بالمرأة التي تندفق حليها في عروقه؟ فإذا لم تتأثر فهذا ليس صناعاً طبعياً بل هو تشويه للطبيعة والإسلام كدين للفطرة قد جاء لإصلاح هذا الفساد»⁽¹⁾.

وكيف تقوم هذه العلاقة برضعة الطفل؟ يفسر ذلك الأستاذ أمين أحسن ويقول:

«ولا تقوم هذه العلاقة الرضاعية بحدث صادف، بل القرآن قد بين ذلك في سياق يتضح منه اتصاحاً تاماً أن عملية الرضع لا تتم بحدث صادف بل تتم باهتمام هادف فيعتبر وإلا لا. فقد أول القرآن بقوله: ﴿وَأَمَهْتُمْ أَلَيْتِ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ وثنى باستعمال صيغة الإرضاع ﴿وَأَخَوْتُكُمْ مِّنَ الرِّضْعَةِ﴾ «وأرضعنكم والإرضاع هو من باب الإفعال الذي يفيد مفهوم المبالغة والاهتمام، ولفظة الرضاعة تأتي أن تتم الرضاعة بمحض الصدفة مثلاً إذا كان هناك طفل جائع يبكي وامرأة تضع ثديها على فمه لتسليته فيكون رضعاً»⁽²⁾.

وقد رويت عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن رضعة أو رضعتان لا تحرم⁽³⁾ وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها وعندها رجل فكأنه تغير وجهه كأنه كره ذلك فقالت إنه أخي من الرضاعة فقال: انظرون من اخوانكن فإنما الرضاعة من المجاعة⁽⁴⁾.

ولا ينبغي أن نقع في الخطأ بما وقع لسالم الذي تتبناه أبو حذيفة من الرضاع في كبره، والأمر الذي يعلم منه على الأكثر من ذلك هو أن أسرة وقعت

(1) تدبر القرآن: ٢ / ٢٧٥.

(2) تدبر القرآن: ٢ / ٢٧٥.

(3) رواه مسلم، رقم: ٣٥٩٠.

(4) رواه البخاري، رقم: ٥١٠٢، ومسلم، رقم: ٣٦٠٦.

في ضيق مما جاء في القرآن من حكم الأولاد المتبنين. فأعطى الرسول رخصة لهذه الأسرة مخرجاً من ذلك الضيق ولا يتأسس عليها حكم مستقل: وهو كما يأتي:

«فجاءت سهلة بنت سهيل بن عمرو القرشي ثم العامري، وهي امرأة أبي حذيفة، فقالت: يا رسول الله إنا كنا نرى سالمًا ولدًا وكان يأوي معي ومع أبي حذيفة في بيت واحد ويراني فضلاً، وقد أنزل الله فيهم ما قد علمت، فكيف ترى فيه؟ فقال لها النبي ﷺ «أرضعيه»⁽¹⁾.

فهذا قطعي أنه لا بد لثبوت الرضاعة من اهتمام لها أولاً وثانياً أن تتم الرضاعة في عمرها وكذلك تحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب، هذا ما يتقاضاه القرآن، لكن الأسلوب العربي الذي استخدمه هنا القرآن أن ما توضحه دلالة الألفاظ والقرائن ومقتضيات الحكم العقلية تلقائياً، لا يعرب به بالألفاظ صراحةً⁽²⁾. فقد قال: ﴿وَأَمَهُتُكُمْ أَلَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوْتُكُمْ مِّنَ الرِّضْعَةِ﴾ فذكر الأخوات أيضاً مع الأمهات في حكم التحريم، فإن انتهى الحكم بالحكم على الأمهات فقط ولم يجمع إليها الأخوات لما كان هناك سعة لأية إضافة في الحكم، ولكنه إذا كانت العلاقة الرضاعية تحرم الأخوات مع الأمهات فيقتضي العقل أن تمتد الحرمة إلى العلاقات الأخرى المتصلة بالأم، لأنه إذا كانت المشاركة في اللبن تجعل امرأة اختاً له فلماذا لا تجعل أخت الأم الرضاعة خالة وزوجها أبا واخت الزوج عمة وحفيدتها للأم والأب ابنة الأخ وابنة الأخت؟ فهذه العلاقات كلها حرام، هذا ما أراده القرآن وتدل عليه الفاظ القرآن بحيث لا يخفى ذلك على كل من يتدبر في القرآن، وبناءً على ذلك قال النبي ﷺ:

يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة⁽³⁾.

(1) أبوداؤد: ٢٠٦١.

(2) انظر للاستزادة في ذلك فصل «الأصول والمبادئ» لهذا الكتاب نفسه.

(3) رواه المؤطا، رقم: ١٨٨٧.

المصاهرة:

وبعد النسب والرضاعة جاءت حرمت المصاهرة، وقداسة هذه العلاقات التي تحصل من المصاهرة واضحة جلية لا تحتاج الفطرة الإنسانية إلى استدلال لها، فزوجة الابن حرام على الأب وأم الزوجة على الزوج وكذلك علاقات الإبنة والأخت والخالة والعمة وإبنة الأخ وابنة الأخت كلها حرام. ولكن بما أن هذه العلاقات تحرم بوساطة الزوج والزوجة جاء فيها ضعف من نوع ولذا اشترط لها القرآن ثلاثة شروط وهي:

أولاً: تحرم الريبة من الزوجة التي دخل الزوج بها.

ثانياً: ولا بد لحرمة زوجة الإبن من كون الإبن صليبا.

وثالثاً: إن حرمة أخت الزوجة وعمتها وخالتها وإبنة أخيها وإبنة أختها تختص فيما إذا كان الزواج بين الزوج والزوجة قائما.

أما الريبة فقد جاء عنها في القرآن ما يأتي:

«وربائبكم اللاتي في حجوركم من نساءكم اللاتي دخلتم بهن، فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم» (فوصف القرآن الربائب أنهن نشأن في حجوركم وأن يكن من نساءكم اللاتي دخلتم بهن ولكن النشأة في الحضن ليست في محل الشرط هنا، ويوضح ذلك الأستاذ أمين أحسن الإصلاحي يقول:

«إنه ليس كل صفة لشيء شرط له في اللغة العربية بالتاكيد بأنه اذا فات الشرط فات المشروط، بل ينحصر ذلك على القرينة، فالقرينة تبين أي صفة وقيد موضوع بدرجة الشرط وأي صفة جاءت تصويراً للحالة، وهنا ليس قرينة فقط بل صراحة أن أم الريبة الغير المدخولة لا تحرم، فوضح من ذلك أن الأصل المؤثر في حرمة الريبة هو كونها غير مدخولة، فإن كانت مدخولة لم يجز النكاح من إبتها بصرف النظر عن أنها نشأت في حجره أم لم تنشأ. ويجب أن نلاحظ أن ما يجيئ في روائع البيان العربية وخاصة في القرآن الكريم في أسلوب النفي بعد الإثبات أو على عكسه لا يجيئ فقط ككلام طريف فارغ بل يجيئ لفائدة ويكون

المقصود منه في أكثر الصور هو رفع الإبهام، وعلم من ذلك أن القائلين بجواز النكاح بالرَبِيبَةِ إذا لم تكن مربوبة في حجره هم على خطأ^(١).

والأمر الثاني قد استعمل القرآن تعبير: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ واشترط فيه كون الأبناء من صلب الآباء لأن العرب في الجاهلية كانوا يرون زواج حلائل الأبناء المتبنين أيضا حرامًا وبين لهم هذا الشرط القرآني أن التبنى لا يجعل الولد إبنًا حقيقيا ولا تقوم بها حرمة كما صرح بذلك في الأحزاب:

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ * أَدْعَوْهُمْ لِأُبْأَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾^(٢).

الثالث، قال القرآن: وأن تجمعوا بين الأختين وهذا هو أيضًا نفس الأسلوب الذي استخدمه القرآن لتحريم العلاقات الرضاعية فيما مر آنفاً، ووقف القرآن عند الجمع «بين الأختين» لكن اتضح منه صريحاً أنه إذا كان الجمع بين الأختين في العلاقة الزوجية يجعله فحشاً فكذلك الجمع بين العمة وبين المرأة وبين المرأة وخالتها أيضا كأنه الجمع بين الأم وبين ابنتها، وهذا هو المقصود. ولكنه حذف هذه الألفاظ ولم يجيء بصراحة «أن تجمعوا بين الأختين وبين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها» فإن دلالة المذكور مع ضرورته العقلانية واضحة جلية في هذا الحذف، بحيث لا يستطيع أي طالب مطلع على أسلوب القرآن أن يخطأ في فهمه، وقد كشف هذا المحذوف النبي ﷺ بقوله: لا يجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها^(٣).

(١) تدبر القرآن ٢/ ٢٧٦.

(٢) سورة الأحزاب الآيتان: ٤ و ٥.

(٣) المؤطا، رقم: ١٦٠٠.

الحدود والشرائط:

﴿وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾⁽¹⁾.

الحدود والشرائط التي تناولتها الآية نفصلها فيما يأتي:

أولا اشترط أن ينعقد النكاح بالمال أي مع أداء المهر، وهو شرط لازم للنكاح، فرضه الله ولذا قال إن لم تؤدوا مهر النكاح لإمرأة حتى الآن فآتوهن أجورهن فوراً. نعم إذا كان هناك تراضي بين الطرفين لتقديم أو تأخير أو نقص وإضافة إلى مقدار المهر من بعد أن تفرضوا لهن فريضة فلا حرج فيه وليتضح على الكل أن الذي فرض هذه الفريضة هو عليم حكيم وكل ما جاء من عنده مبتني على علم وحكمة ودون خطأ، فلا يجوز لشخص مخالفة ذاك القانون ولا يتاجسر أحد على تغيير وتعديل فيه.

وما هو هذا المهر؟ إنه علامة مؤشرة على أن المرء هو الذي يتحمل نفقات ومصروفات ما عقده المرء والمرء من عهدة الزواج، وقد استعمل القرآن لذلك ألفاظ الصدقة والأجر أي الثمن الذي تم أدائه لتسديد حاجات المرأة صلةً لزواجها ورفاقتها، وهو أيضاً سنة قديمة مثل النكاح وكانت رائجة في جزيرة العرب قبل مبعث النبي ﷺ، وجاء ذكرها من هذه الحثية في الكتاب المقدس أيضاً⁽²⁾.

ولماذا هذه الأهمية له؟ يقول الأستاذ أمين أحسن الإصلاحية موضحاً

ذلك:

«يجب أن تُعار أهمية كبيرة خاصة لمسئلة اشترط فيما أداء المال كواجب

(1) سورة النساء، الآية: ٢٤.

(2) انظر: سفر الميلاذ الآية ١٢ — والخروج: ١٧.

شرعي وليس كتبرع أو إحسان حتى إنه لو لم يكن مذكورا في اللفظ يُفهم أنه مضمّر فيه بالتأكيد، وذلك يعني أنها مسألة هامة باعتبار الحيثية العرفية للمرأة شرعاً وعرفاً. ففي مثل هذه المعاملة لا يجترئ كل من له وعي وشعور أن يكون فريقاً فيها حتى يتفكر في مسؤوليات وتبعات تلك المشاركة فيها. ويفكر مئة مرة قبل أن يستعد القيام بمستلزمات المشاركة لها، ومن أجل هذه المصالح صار شرط المهر ضرورياً، ومن لم يترو في الأمر ولم يأخذ بالاعتبار هذه المصالح أخطأ الفهم حين اعتقد أن اشتراط أداء المهر قد حط من درجة المرأة إلى درجة الشيء المبيع والمشتري، وهذا من سوء الفهم - إن هذا الشرط هو انتباه وتحذير أن من يدخل في حريم المرأة يقدم عليه بعد تفكير جيد طويل فإن باب النكاح والطلاق باب الجد والعزيمة لا مجال فيه للهزل، إن هزله أيضاً جد.

وقال الشاعر الفارسي ما معناه «انتبه إلى أن هناك سيفا في الطريق فلا تضع قدمك عليه»⁽¹⁾.

ولم يحدد الشرع أي مقدار للمهر وإنما ترك على رأي الناس ودستور المجتمع فلهم ضبط مقدار المهر بقدر ما يريدون نظراً إلى مكانة المرأة الاجتماعية ورعاية لحالات المرء المعيشية.

والشيء الثاني الذي تطرقت إليه الآية أنه لا بد للنكاح من العفاف، فلا يحق للزاني أن يتزوج بعفيفة ولا لزانة أن تزوج برجل عفيف إلا أن لا يبلغ الأمر إلى المحكمة فيتوبا إلى الله ويتطهرا من هذا الذنب بالتوبة والاستغفار - وهذا هو المراد من ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْنِفِينَ﴾ وقال تعالى في موضع آخر:

﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾⁽²⁾.

(1) تدبر القرآن ٢/ ٢٧٨.

(2) سورة النور، الآية: ٣.

وقد جاء ذلك صراحة في بعض الأحاديث أيضًا⁽¹⁾.

وفي هذه الآية أيضًا إشارة واضحة إلى مماثلة الشرك والزنا كما تفيد بذلك الصحف السماوية الأخرى أيضا. وكما لا يجوز لأحد الزوجين أن ينام في فراش الغير لا يجوز للمسلم أن يعبد في بيته مع الله غيره، بل ذلك أبغض إليه من النوم في فراش الغير، وهذه المماثلة بين الشرك والزنا مفهومة على أن القرآن قد صرح بذلك فقال:

﴿نَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ ۚ وَلَآئِمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ
وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۚ مُحْصِنِينَ
غَيْرَ مُسَفِّحِينَ .

وقد جاء حكم إنهاء النكاح من الكفار في الآية العاشرة من الممتحنة (٦٠) ولكنها أمر آخر تماماً^(٢).

أما اليهود والنصارى فإنهم كانوا ملوثين بنجاسة الشرك في العلم والعمل
تلوثاً فاحشاً ولكن مع ذلك، بما أنهم كانوا في الأصل مؤمنين بالتوحيد فقد
رخص الله لهم وتنازل للمسلمين في أنهم جاز لهم النكاح من نساء أهل الكتاب
المحصنات فقال:

﴿وَالْخَصَنَتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِينَ
غَيْرَ مُسَفَحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ (3).

وسياق الآية يخبرنا أن هذه الرخصة كانت قد أعطيت حين لم يبق إيهام في أمر التوحيد وتغلب تغلبًا تامًا على الحضارة المشركة، ولفظة «اليوم» التي جاءت في مستهل الآية دليل على أن حالات ذلك الوقت كان لها دخل في تلك

(1) انظر: أبوداؤد، رقم: ٢٠٥١، ٢٠٥٢. وانظر للاستزادة في ذلك باب الحدود والتعزيرات في الكتاب نفسه.

(2) أنظر في ذلك الحاشية رقم ٦٠ تحت هذه الآية في تفسيرنا «البيان»

(3) سورة المائدة، الآية: ٥.

الرخصة وكان من المتوقع أن المسلمين اذا تزوجوا من نساء أهل الكتاب فإنهن سوف يتأثرن بهم بالتأكيد ويقبلن الإسلام فلا يتصادم التوحيد مع الشرك إذن، ولذلك أثناء الاستفادة من هذا الإذن يجب أن يوضع هذا الشيء في الاعتبار حتى في هذا العصر.

كما يجب أن يتضح أن الهدف الذي يرمى إليه الزواج من إيجاد مؤسسة الأسرة تقتضي حرمة أن يتم النكاح بإذن الوالدين وأولياء الأمور وبرضاهم، ولا شك أن النكاح يُبرم أصلاً من قبل رجل وامرأة ويتم بإيجابهما علانياً، ولكن إذا لم يتم بإذن الولي يجب أن يكون هناك سبب لذلك، وإذا لم يتواجد سبب معقول فيحق للنظم الاجتماعي أن يتدخل في النكاح كهذا، ولكن لا يعني أنه إذا تم هناك نكاح كهذا يُبطل ويُعفى أثره وذلك الذي أريد إثباته بروايات جاءت في لفظ «لا نكاح إلا بولي»⁽¹⁾ وبما أنه يصبح تمرد المرأة في هذه الحالة اضطراراً غير عادي للأسرة فنظراً إلى ذلك قد أوضح النبي ﷺ بقوله وفعله على أولياء الأمور أن لا يقضوا قضاءً في الزواج بغير إذن المرأة ولا يُردّ قضاءهم إذا شاءت، فعن أبي هريرة قال قال النبي ﷺ لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا تنكح البكر حتى تستأذن، فقالوا وكيف تستأذن، فقال إذنها صماتها⁽²⁾. وعن ابن عباس قال قال النبي ﷺ تنكح الأيم بنفسها وتستأذن البكر⁽³⁾. وعن خنساء بنت خدام أن أباه زوجها وهي كارهة وكانت ثيباً فأجاز لها النبي ﷺ أن ترد نكاحها⁽⁴⁾.

الحقوق والفرائض

(1)

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا﴾

(1) رواه ابوداؤد، رقم: ٢٠٨٥.

(2) رواه البخاري، رقم: ٦٩٦٨.

(3) رواه مسلم، رقم: ٣٤٧٦.

(4) أخرجه أحمد في مسنده والبخاري رقم: ٥١٣٨.

مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَلْصَقْلِحَتْ قَنَزَتْ حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّذِي تَخَافُونَ
تُشَوِّهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعَكُمْ فَلَا
تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿١﴾.

وقد مرّ قبل هذه الآية أن مجال التسابق والجد للإنسان هو ليس مجال
الصفات الخلقية فإن الله تعالى قد فضل بعضهم على بعض في باب الصفات
الخلقية عقلانيا وجسمانيا ومعيشيا واجتماعيا وبعضهم ضعاف في هذه
المجالات.

كما هو الأمر في الزوج والزوجة والرجل والمرءة، فإنه خلق أحدهما
فاعلاً والآخر مفعولاً، والفعلية بطبيعة الحال تقتضي الغلبة والشدة والتحكم،
والانفعالية بدورها تقتضي الرخوة والركة والانفعال، وعليه يكون المعنى أن
يتمتع كل منهما بميزة يتفوق بهاعلى الآخر. وهذه صفات خلقية والمنافسة
والمسابقة فيها تعني الحرب على الطبيعة ولذلك سوف يؤدي بهما إلى أن كليهما
يترك للحداد على خسارتهما.

وأخبر الله تعالى أن هناك ميدان آخر للنضال وهو ميدان يُتسابق فيه، ميدان
الصفات الاكتسابية، ميدان الخير والتقوى، والعبادة والرياضة والعلم والأخلاق،
وهو في الحقيقة ميزان المسابقة والتنافس واصطلح عليه القرآن في مقامات
كثيرة بتعبير الإيمان والعمل الصالح. وهو تعبير جامع بلا شبهة - فليس هناك
قيد ولا ضغط على أي شخص أن يتسابق فيه بل التسابق فيه محمود بقدر ما هو
مذموم في باب الصفات الخلقية، فللرجل نصيب مما اكتسب والمرءة نصيب
ما اكتسبت، فهذا الميدان حر مفتوح لكل حر وعبد وأمة ولكل شريف ووضيع،
ولكل جميل وقبيح، وللأعمى والبصير لكل. فليتنافس فيه المتنافسون. إن القيام
بعمل في المجال الخطأ لن يحصل على شيء خالي من الصراعات غير المثمرة

(1) سورة النساء، الآية: ٣٤.

والنزاعات غير المجدية، والمجال الصحيح لإخراج الطموح واختبار الشجاعة هو هذا فمن يريده عليه أن ينزل في هذا الميدان.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾⁽¹⁾.

واعتباراً بهذا المبدأ قد شرع الله تعالى في هذه الآية تشريعه في تنظيم الأسرة، ومؤسسة الأسرة أيضاً دويلة صغيرة فكما أن كل دولة تتقاضى أن يكون لها قائد تقودها إلى الإمام ومدير يدير أمورها فهكذا إن دويلة الأسرة أيضاً تتطلب أيضاً رئيساً وزعيماً لها، ومكانة الرئاسة في هذه الدويلة اما أن يكون للمرء وأما أن يُعطى للمرأة، ويفيد القرآن إنها اتاحت للمرء، فإنه استعمل لذلك لفظة «قوامون على النساء» وفي العربية إذا جاءت «على» صلةً لقام، تعطي معاني الحفاظ والاشراف والتولية والكفالة. والرئاسة تتضمن كل هذه المعاني فهي مستلزمات لها، وجاء القرآن بدليلين في قضاءه هذا.

يقول الأستاذ أمين أحسن الإصلاحي في توضيهما:

«أحدهما أن الله فضل الرجال على النساء، فإن الرجل له تفوق بارز في بعض الصفات تجعله جديراً أن يكون قواماً، إنه يتمتع مثلاً بكفاءات الحفاظ والدفع ومؤهلات الكسب والعزم والاستعداد للإنجازات ما لا تتمتع بها المرأة فإنها تعوزها، وينبغي أن يُلاحظ أن الفضل الكلي لا يُبحث عنه هنا بل الفضيلة الجزئية التي تتعلق باستحقاق القوامة للرجل، نعم هناك بعض الجوانب لفضيلة المرأة أيضاً ولكن لا علاقة لها بالقوامة، فمثلاً ما تتمتع بها المرأة من قابلية تنظيم الأمور المنزلية وتربية الأطفال لا يتمتع بها الرجل بل ينقصها، ولهذا السبب قد أبهم القرآن بيانه هنا مما يتبين منه أن كلا من الرجل والمرأة متفوقان

(1) سورة النساء، الآية: ٣٢.

بطريقة أو بأخرى، وهذا هو السبب في تقديم الأم على الأب فيما يخص بعلاقة الأولاد مع الوالدين، وسوف نلقي الضوء على هذا الجانب بتفصيل في محله.

وثانياً لأن الرجل قد أنفق ماله على المرأة وتكفل بجميع مسؤوليات المصاريف على الزوجة والأولاد، والظاهر أن هذه المسؤولية ليست اتفاقية ولا تبرعية بل إنه تحملها لأنها هي عبئه وتبعته وهو الذي يحمل صلاحيات تحملها ويستحق تأديتها⁽¹⁾.

وبعد تنصيب الرجل في موضع القوامه في إدارة الأسرة جعلت الإمرأة مسئولة عن ما يأتي:

١. اطاعة الأزواج وعدم النشوز.

٢. وأن يحفظن للأزواج سرهم وعصمتهم وناموسهم.

والأول لا يحتاج إلى الإيضاح لأن أي نظام للدولة كان أو لأية مؤسسة، لا يبقى ولا يقوم من دون طاعة وتوافق حتى ليوم واحد، فهذا هو طبيعة النظام إذا لم يكن هناك سمع وطاعة فسيكون اختلال وانتشار لا توجد معه إدارة ولا مؤسسة، وأما الثانية فقد عبر بها القرآن بتعبير «حافظات للغيب» وقد فسر بأن يحفظن لهم في غيبهم وفسرناه بأن يحفظن لهم أسرارهم وهذا هو الصحيح عندنا. أوضحه ذلك الأستاذ أمين أحسن الإصلاح بقوله:

«وجه ذلك لأن الغيب يستخدم في معنى السر عامة، ثم إن تركيب الكلام هنا لم يترك سعة لمعنى في غيبتهم، وثالثاً إن الأمانة في حفظ السر هي القضية المهمة جداً في العلاقات بين الرجل والمرأة، وكل منهما أمين للآخر بطبيعة الحال. وخاصة إن المرأة لها مرتبة أمين سر الزوج تعرف جيداً محاسنه وعيوبه وتعرف ماله في بيته وأمواله وأملاكه وتحفظ شرفه وعزه وإذا شاءت إفشاء سره يتعرى تعرية كاملة. ولهذا السبب قد خص القرآن هذه الصفة بالذكر وإضافة «حفظه الله» قصد منه تشريف وتكريم هذه الصفة لأنها من أخلاق الله فإن الله

(1) تدبر القرآن، ٢/ ٢٩١.

تعالى قد تكرم بعباده يحفظ أسرارهم وأسرارهن، وإلا إن أراد الله فضح الناس فمن الذي يفر منه ومن الذي يمكنه إظهار وجهه في مكان ما»⁽¹⁾.

وأثنى القرآن على الحافظات للغيب بما حفظ الله وذكرهن بلفظ «الصالحات». فخرج منه تلقائياً أن من لم يحفظن أسرار البيت واخترن النشوز والتمرد هن غير صالحات في نظر القرآن. ويثور هنا سؤال هل للزوج تأديب امرأة ناشزة؟ أجاب عليه القرآن بنعم، واستخدمت الآية لفظة «نشوز» ومعناها رفع الرأس والبغي والتمرد الذي يحصل من قبل المرأة تجاه الزوج، ولا يطلق هذا اللفظ على كل غفلة أو تساهل أو التظاهر الطبيعي برأيها وذوقها وشخصيتها من الزوجة، بل يطلق على حالة تتحدى لقوامه زوجها وتفسد نظام الأسرة، وإذا بلغت الحالة إلى ذلك الحد فللرجل حينه ثلاث خيارات بل يجب عليه أن يختارها ليحفظ أسرته من الانتشار والانحار.

أولاً: أن ينصح المرأة ويعظها ويشملها الزجر والتوضيح لحد صغير،
وثانياً: ترك المضاجعة معها والحديث إليها حتى تعلم أن حياة الأسرة في خطر.

وثالثاً: التأديب والضرب القليل مثل ما يضرب الوالدين أولادهما أو يؤدب المعلم تلميذه واستعمل النبي ﷺ لذلك لفظة ضرباً غير مبرح⁽²⁾. أي الضرب الذي لا يترك أثراً وأسلوب الآية يقتضي الترتيب والتدرج أي أولاً النصيحة والوعظ ثم الهجر في المضجع ثم التأديب والضرب إذا لم يجد الأول والثاني وصار التأديب لا بد منه، وهو أيضاً الحد النهائي لسلطات الرجل التأديبية لا يتعداها ولذا قال: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَ سَبِيلاً﴾. والله العلي القدير إذا كان يتجاوز عن سيئات العباد ويعفو عنهن بعد الإصلاح والتوبة فليس لعباده أن يتعدوا حدودهم إذا حصل لهم

(1) تدبر قرآن، ٢/ ٢٩٢.

(2) رواه مسلم، رقم: ٢٩٥٠، وهذا التعيين قد تم برعاية تلك العلاقة التي تكون فيما بين الأب وأولاده أو فيما بين الزوج وزوجته.

سلطات قليلة على الآخرين ونبهم الله إلى هذه الحقيقة يقوله: إن الله كان علياً كبيراً.

(2)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْزُلُوهُنَّ لَتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾⁽¹⁾.

ففي هذه الآية قال الله تعالى أولاً إن النساء ليست مالا ماشية من يرثها ربطها في مخبأه ووكرهه، بل هن حرائر يملكن ما أردن ولهن أن يقضهن في أمورهن تابعة للحدود الالهية، وكانت الحاجة ماسة لهذا الإرشاد لأن هناك كان تقليداً سائداً في بعض طبقات العرب الجاهلية أن زوجات الميت ينتقلن إلى وارثه كالمال والماشية وكالضيعة له، وإن كان الوارث أبناءه أيضاً فإنهم كانوا لا يترددون في إقامة العلاقة الزوجية معهن، فقد أنهى القرآن هذا التقليد الخبيث القبيح أولاً وأتاح لهن الحرية الكاملة في أمورهن ولا يجبرن لشيء بغير رضاهن.

وثنى بأنه لا يجوز إعضال المرأة إن كان يكرهها، كما لا يجوز استرداد ما أعطي لها من مال ولا تضيقها لعبد مؤمن، ويتحمل ذلك فقط في صورة أن تجيء بالفاحشة المبينة. فإن لم يصدر منها شيء كهذا وهي تعيش طاهرة عفيفة فتضيقها بسبب الكره منافي للعدل ومنافي للفتوة والمروءة. إن الفساد الأخلاقي من أقبح الأشياء ولكنها لا تحرم من المعاشرة المعروفة الكريمة بسبب كره الوجه أو لعدم مناسبة ذوقية فقط. وثالث بالأمر بالمعاملة الحسنة والمعاملة العادلة الكريمة التي هي شأن الكرام في المجتمعات البشرية منذ الأزل، وتوافق العقل والفطرة مع النساء. واستعمل لذلك في الآية الفقرة ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ويطلق «المعروف» على عادات الخير والصلاح وتقاليد الكرماء

(1) سورة النساء، الآية: ١٩.

في القرآن الكريم واستعمل هنا أيضا في هذا المفهوم، والمراد به هنا أن الرجل المؤمن مسئول عند ربه ومطالب أن يعامل مع زوجته معاملة الكرام وإن كانت مكروهة له ولا ينحرف أيما انحراف عن تقاليد الشرف والفتوة المستمرة في المجتمعات الإنسانية. فقال: فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا في الدنيا والآخرة. واستخدم للتعبير عن هذا المؤخر ذكره لفظة عسى، وقد أوضحه الأستاذ أمين أحسن هنا:

«قد استعملت هنا لفظة عسى، والتي تجيء في العربية لتعطي معنى الرجاء والتوقع ولكن العارفين بأساليب العربية يعرفون جيدا أنه يضمّر في المواقع كهذا وعد من الله سبحانه، والحقيقة التي تتطلع من هذه الإشارة هي أن الذين يقومون بتضحية ميولهم وأهواءهم في سبيل القيم الأخلاقية العليا فلهم الوعد من الله سبحانه للخير الكثير. فالذين ضحوا أنفسهم ونفيسهم لهذا الوعد يشهدون أنه الوعد الحق مئة في المائة، ومن أصدق من الله حديثاً⁽¹⁾.

فظهر منه أنه إذا كانت المطالبة الإلهية من الزوج تجاه زوجته هذه مع أنه كاره لها فإلى أي حد يكون باعثا على غضب الله التعامل السيئ لها في الحالات العامة، وقد قال رسول الله ﷺ في خطبة للحجة الوداع:

«إن لكم من نساءكم حقا ولنساءكم عليكم حقا، فأما حقكم على نساءكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون ويأذن في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن»⁽²⁾.

تعدد الأزواج

قال الله تعالى:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَمْنِ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ

(1) تدبر القرآن، ٢/ ٢٧٠.

(2) رواه ابن ماجه، رقم: ١٨٥١.

وَرَبِّعْ فَإِنْ خَفْتُمْ أَلَّا نَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا * وَءَاتُوا
النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنَيْئًا مَّرِيًّا ﴿١﴾.

والآية تخاطب أولياء اليتامى، وترشدهم إلى أنهم إن يخافون أن لا يقوموا بتبعاتهم بإشراف أموال اليتامى وأموالهم وحقوقهم كما هو حقها، فعليهم أن يتزوجوا من أمهات اليتامى إن كن ممن يجوز النكاح بها. فإذا ساهمن معهم في تحمل تلك المسؤوليات لكان الأصلح لهم. وذلك لأنه لا يمكن لأي شخص آخر أن يتعامل مع الأيتام بالعلاقة القلبية التي يمكن أن تتمتع به أمهاتهم، وأن يهتم بحقوقهم بالوعي الذي يمكنه القيام به.

وواضح من هذه الآية أنها لم تنزل لتحكم حكمًا فيما يتعلق بتعدد الزوجات. وإنما نزلت ترغيبًا للاستفادة من تقليد سائد لتعدد الزوجات متواجد من قبل في جزيرة العرب، نظرًا إلى مصالح اليتامى. وإشارات القرآن في المقامات الأخرى توضح أن الفطرة التي فطر الله الناس عليها، تقتضي أن تقوم مؤسسة الأسرة على علاقة زواجية بين رجل وامرأة فقط، مع خيراتها وحسناتها الأصلية. فمثلاً ذكر القرآن في آونة وأخري أن البشرية قد استهلكت من آدم ﷺ وقد خلق الله له زوجة واحدة. وفيما بعد من الأزمان لقد احتاج التمدن البشري ومصالح الإنسان النفسية والسياسية والاجتماعية إلى أن راج تعدد الزوجات في كل المدنيات على أقل حد على مر الحضارة الإنسانية، ومراعاة لهذه المصالح فإن الله لم يحرمه في أية شريعة له. وهنا أيضًا قد أباح الله الاستفادة من رواجه لصالح اليتامى ولكن بشرطين:

أولاً: تحديد الزوجات في نكاح أحد إلى أربع على أكثر حد. وإن كان النكاح قد حصل في مراعاة حقوق اليتامى.

وثانياً: شريطة العدل بين الزوجات شرط ضروري لازم بحيث إذا خاف المرء أن لا يعدل بينهن، فلا يجوز له أن ينكح أكثر من واحدة. وما هي

(1) سورة النساء، الآيتان: ٣ و ٤.

حدود هذا العدل؟ فإن كان المراد به ميلان القلب والمساواة الكاملة في التعامل الظاهري فهذا لا يمكن لأي إنسان، لأنه إن كان عند شخص زوجته الحبيبة ولكنه يتزوج بزوجة أخرى لمحض أن يؤدي حقوق ومصالح أولادها اليتامى في صورتها، فلا يمكن أن يساوي في الحب والمعاملة المعاملة بينهما. وقد ثار هذا السؤال في زمن الرسالة نفسها، وأجاب عليه القرآن في الآيات ١٢٧ - ١٣٠ من النساء. فأوضح أولاً أن العدل والمهر هما من حق الزوجة سواء تم النكاح بها مراعاةً لمصالح وحقوق اليتامى أو لمقصد آخر. فيجب أن يعطى لها أجرها نحلة وبطيب خاطر. ثم نصح القرآن المرأة أنها إذا خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً بنتيجة إصرارها على العدل بين الزوجات، فلا حرج أن يعقدا بينهما اتفاقية، فقال:

﴿وَإِنْ أُمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾^(١).

ويقول الأستاذ أمين أحسن الإصلاحي في تفسير ذلك:

«أي تعطي المرأة لزوجها امتيازات في حقوقها من المهر والعدل والنفقة أن ترفع بها الخطر بقطع العلاقات، ولذا قال: والصلح خير، لأن العلاقة الزوجية إذا قامت فالخير كله للجانبين أن تبقى وتستمر وإن طلبت إثارةً كبيراً. ولذا قال: وأحضرت الأنفس الشح. وعلاج هذا المرض الكبير هو إما الإيثار من كلا الفريقين أو الإيثار من الفريق الآخر إن كان مرض الحرص والشح عند الواحد منهما قد أصبح داءً عضالاً. ولذلك، إذا كان على المرأة أن تضحي من أجل الحفاظ على علاقة الزواج، فالأفضل هو الحفاظ عليها. ثم حث المرأة على أن الإيثار والتضحية والإحسان والتقوى هو في الأصل ميدانه هو، ويليق بشأنه فقال: «إن تحسنوا وتتقوا»، فعليه أن يفي بفتوته ومروءته وأن يكون هو المعطي

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٨.

للمرأة لا الآخذ منها، وكان الله بما تعملون خبيراً، وسوف يجزي الجزاء الكامل على كل عمل صالح»⁽¹⁾.

ثم أوضح حدود العدل في الآيات التالية:

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَإِنْ يَنْفَرَقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾⁽²⁾.

فُعلم منه أن العدل بين الزوجات الذي يتقاضاه القرآن لا يعني بالضرورة أن لا يكون هناك فرق بينهما في التعامل الظاهر وميلان القلب من كل وجه. لأنه لا يستطيعه رجل ولو حرص عليه. فإن المرء لا يملك قلبه، ولذا طلب منه القرآن فقط أن لا يميل إلى جانب زوجة كل الميل فيذر الأخرى كالمعلقة كأنه لا زواج لها. وعليه فقد طلب القرآن من الرجل أن يحاول لإقامة التوازن في السلوك وأداء الحقوق، وإذا صدر نقص أو هضم للحق تلافي ما فاته وأصلح سلوكه واتقى الله، ومع كل ذلك إن كان هناك خطأ فإن الله غفور رحيم، ورحمته واسعة محيطة بكل شيء.

وفي آخر الآية قد أوضح أنه ينبغي بالتأكيد أن يحاول المرء إنقاذ البيت فهذا ما يريده الله، ولكن إذا ما أجبرت الحالات ويتم التفريق بين الزوجين فينبغي أن يرجوا من الله رجاءً حسناً لأنه هو الرزاق، وهو الذي يأخذ بأيدي عباده في آلامهم ومشاقهم، إنه يغني الزوجين كليهما بعنايته، يقول الأستاذ الإمام:

«ويعني ذلك أن الجهد والتفاني مطلوب من كل من الزوج والزوجة للحفاظ على هذه العلاقة ولكنه مطلوب مع الغيرة واحترام الذات. فكما لا يجوز لأحد الزوجين أن يكون متصلباً متعنّياً فلا يجوز أيضاً الخضوع أكثر من حد معين. وإن كانت هناك عمومية في الألفاظ ولكن سياق الكلام يدل على

(1) تدبر القرآن، ٢ / ٣٩٩.

(2) سورة النساء، الآيتان: ١٢٩ و ١٣٠.

تشجيع النساء بشكل خاص على أن يحاولن للمصالحة بقدر الإمكان، وأن يقمن بالتضحية من أجل المصالحة، ولكن لتشجيع على أنه إن لم تتم المصالحة على الرغم من محاولتهن فإن الله هو الرزاق المتين، إنه يغنيهن بإعطائهن من خزانه جوده العظيمة⁽¹⁾.

وليتضح هنا أن الله تعالى قد استثنى رسول الله ﷺ بحيث كونه خاتم الرسل من هذين الشرطين لتعدد الزوجات، ليقوم ببعض متطلبات مسؤوليات منصبه. فمثلاً إنه صلى الله عليه كان قد قام بتزويج مولاه ومتبناه زيد بابنة عمته زينب. ولم يكن بينهما تصالح فلاجل إنهاء التصور الجاهلي بحرمة زوجة المتبنى من أساسه، وهدفاً إلى التعاطف مع زينب قد أمره الله تعالى أن يتزوج بنفسه بزينب مع أنه كانت تحته آنذاك أربع زوجات. وفي الوضع الذي كان قد حدث بين زيد وزينب كان رسول الله ﷺ نفسه يفكر أنه سوف يقوم بذلك وكان لا يبدى ذاك الخيال فقد أبداه الله، ونبه أنه ليس له أن يخشى الناس في القيام بمسؤوليات منصبه الرسالي فقد أعلن الله تعالى نكاحه بزينب في القرآن وقال:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾⁽²⁾.

ولما تم هذا الإعلان فقد أعطى الله تعالى معه ضابطاً مفصلاً لرسول الله خاصة للنكاح والطلاق في السورة نفسها، رفع فيه منه شرائط تعدد الزوجات ذكرت آنفاً، ولكن قد أضاف وأعاد عليه بعض التحديدات المختصة به، والتي لم تكن لعامة المسلمين، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ الَّتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ

(1) تدبر القرآن ٢ / ٤٠٠.

(2) سورة الأحزاب، الآية: ٣٧.

يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ
الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا
خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا
مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا *
تُرْجَى مِنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُتَوَى إِلَيْكَ مِنْ تَشَاءُ وَمِنْ أَبْغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ
ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَأَ عَنِهِنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا * لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ
تَبْدَلَ بِهِنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿١﴾.

وهذا الضابط ينبنى على نكاحات تالية:

أولاً: بعد الزواج من زينب كان له أن ينكح نكاحاً مزيداً إن شاء لأهداف
ثلاثة وهي كما يأتي:

- (١) لتكريم الحرائر والمحصنات مما ملكتهن يمينه بنتيجة إقدامه الحربي.
 - (٢) لتكريم وتشريف الحرائر اللاتي يردن الزواج به حصولاً للنسبة إليه ويهبن
أنفسهن له بأنفسهن.
 - (٣) تأليفاً للقلب لبنات العم وبَنَاتِ الْعَمَاتِ وبَنَاتِ الْخَالَ وبَنَاتِ الْخَالَاتِ التي
هاجرن معه، وصحبن معه مغادرات بيوتهن وأقربائهن.
- ثانياً: وبما أن هذه الأنكحة إنما تتم فقط لإيفاء ذمة دينية فقط ولذا فإن
رسول الله غير مسؤول عن العدل بينهن في التعامل.
- ثالثاً: أما بقية النساء سوى هؤلاء فهن حرام عليه بعد ذلك. ومن أجل هذا
التقييد لم يمكن له التزوج بمارية فبقيت عنده على طريقة ملك اليمين، كما
لم يجز له بعد ذلك استبدال زوجة من زوجة أخرى مهما أعجبه حسنهما.

(١) سورة الأحزاب، الآيات: ٥٠ - ٥٢.

فقد تزوج رسول الله ﷺ ليفي بالغرض الأول بجويرية وصفية وتزوج بميمونة للمقصد الثاني ونكح بأم حبيبة نظرًا إلى المقصد الثالث. ثم إنه قد أبان الله تعالى أن زوجات النبي ﷺ هن أمهات للمسلمين فحرم على المسلمين النكاح معهن للأبد، ولا ينبغي أن يخطر ذلك ببال أحد من المسلمين. فقال: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾⁽¹⁾. وقال: ﴿وَلَا أَنْ تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾⁽²⁾. فعلم من ذلك أن ذلك كانت مسؤولية دينية عادت على رسول الله ﷺ بسبب مقتضيات رسالية ونبوية، وقد أتمها في أحسن صورة. وكان ذلك لا يتصل بالرغبات البشرية والنزوات الجنسية أيما اتصال. فكان من الضروري أن يُستثنى من القانون العام.

حدود المباشرة

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْرِضُوا لِلنِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ * نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُّكَلَّفُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾⁽³⁾.

إن العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة هي من جلبة الإنسان وفطرته، ولا يحتاج فيها إلى تعليم وهداية. ولكن هل تجوز هذه العلاقة في أيام الحيض والنفاس أيضًا؟ والدين الذي يقصد من تعاليمه إلى التزكية كيف يقبل ذلك؟ ولذا فإن كل الأديان والمذاهب الإلهامية أجابت على هذا السؤال في النفي وحرمت هذه العلاقة في هذه الأيام. وكانت العرب تبعًا لباقيات الدين الإبراهيمي يرونها ممنوعًا حرامًا كما جاء ذكر ذلك في شعرهم من عدة جوانب فلا اختلاف فيها. ولكن المرأة التي تمر بهذه الأيام فما هو مدى الاجتناب منها كان هناك إفراط

(1) سورة الأحزاب، الآية: ٦.

(2) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.

(3) سورة البقرة، الآيتان: ٢٢٢ و٢٢٣.

وتفريط في ذلك. فلما سئل الناس في ذلك جاء القرآن بأحكام شرعية تفصيلية في الآيات المذكورة من البقرة ويقول الأستاذ الإمام في تفسير الآيات.

«والاعتزال من النساء الذي حكمت به الآية قد حددها ألفاظ الآية الآتية: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾⁽¹⁾ تحديداً مناسباً، فإنها تنبئ عن أن الاعتزال هنا يعني الاعتزال الجنسي فقط، ولا يعني أن تجعل المرأة في حالة الحيض منبوذة محضة كما كانت الحال في المذاهب والأديان الأخرى»⁽²⁾.

وجاء توضيح ذلك في الأحاديث والآثار كما يلي: عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا اعتكف يديني إلى رأسه فأرجله وأنا حائضة⁽³⁾.

وعنها قالت: كانت إحدانا في فورها أول ما تحيض تشد عليها إزاراً إلى أنصاف فخذيها ثم تضطجع مع رسول الله ﷺ⁽⁴⁾. وعنها قالت: كان رسول الله ﷺ يتكئ في حجري، فيقرأ القرآن وأنا حائض⁽⁵⁾. كما قد ثبت في الحديث الذي رواه مسلم عن عائشة قالت: كنت أشرب وأنا حائض، ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع في فيشرب وأتعرق العرق وأنا حائض ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع في⁽⁶⁾.

يقول الأستاذ الإمام:

«وقد استعمل في هذه الآية لفظتان «طهر وتطهر» ومعنى الطهر أن تنتهي حالة الحيض وتركد الدم ومعنى التطهر أن المرأة تغتسل وتكون طاهرة. وتشتطر الآية للاقتراب من النساء أن تطهر المرأة ثم قال: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ فعلم منه أن الاقتراب من المرأة يجوز بعد انقطاع الدم لأن علة الممانعة هي الدم،

(1) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

(2) تدبر القرآن ١/ ٥٢٦.

(3) رواه مالك في الموطأ، رقم: ٦٩٣.

(4) رواه البخاري، رقم: ٣٠٢.

(5) رواه البخاري، رقم: ٢٩٧، ومسلم، رقم: ٦٩٣.

(6) رواه مسلم، رقم: ٦٩٢.

ومع ذلك فإن الطريقة الصحيحة السليمة أن يلاقي المرأة حين تطهر بالاغتسال وتطهر⁽¹⁾.

وقد أوضح القرآن في الآيات نفسها أنه يجب عدم إقامة العلاقات الجنسية بطريق الفم أو الدبر بعد الاغتسال والتطهر، لأن الله (تعالى) قد أمر بأن يحدث الاتصال الجنسي بالطريقة الطبيعية التي وضعها لهذا الغرض، فقال:

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾.

وهذا من مقتضيات الفطرة ومن أوامر الله (سبحانه)، وإن أخلفه أحد فهو يخلف أوضح الأمور، ويستحق عقاب الله الذي أوضح هذا الأمر في إحدى آيات القرآن باستخدام استعارة «الحرث» في قوله «هن حرث لكم». يقول الأستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاحي في تفسيره لتلك الآية:

«إن في استخدام استعارة «الحرث» للنساء جانباً بسيطاً وواضحاً هو أن الطبيعة وضعت للحرث قاعدة أن تبدأ عملية الحرث من البذار في الميقات المناسب له، وفي موسم خاص، وأن البذور تُلقى في الحقول لا خارجها، ولا يخلف فلاح هذه القاعدة. وكذلك قدّر الله هذه القاعدة للمرأة ألا تدخل بها في أيام الحيض، وألا تأتيها من دبرها، لأن فترة الحيض هي فترة برود المرأة، ولا تميل فيها إلى الجماع كما أن قضاء الشهوة من غير محلّها يسبب الأذى لها. ولذا لا يجوز لإنسان سليم الفطرة أن يرتكبه»⁽²⁾.

ثم أضاف قائلاً في تفسير الآية ﴿فَأْتُوا حَرَثَكُمْ أَنْتُمْ شَتُّمُ﴾: «إن فيه إشارة إلى أمرين معاً، الأول إلى حرية التصرف الذي يتمتع به صاحب الحرث في حرثه، والبستاني في بستانه، والثاني إلى المسؤولية والحذر والتحوط الذي يجب أن يراعيه الحارث في حرثه والبستاني في بستانه، ففي لفظة «الحرث» دلالة على

(1) تدبر القرآن ١ / ٥٢٦.

(2) تدبر القرآن، ١ / ٥٢٧.

الأمر الأول، وفي جملة ﴿أَنَّى شِئْتُمْ﴾ إشارة إلى الأمر الثاني. وسلوكية الزوج مع زوجته تتألف من هذه الحرية وتلك المسؤولية.

ويعلم كل شخص أن سعادة الحياة الزوجية الحقيقية هي حرية الإنسان في علاقته الحميمة. ما عدا القليل من القيود العامة. والشعور بهذه الحرية يوفر قدرًا كبيرًا من النشوة فيها.

وعندما يختلي الرجل بزوجته في لحظات خاصّة، تكون الإرادة الإلهية قد اقتضت أن تغمره العواطف إلى الحد الذي يظنّ معه أنه قد دخل حقلاً أو بستاناً، لا أرضاً خلاءً أو غابة. وله أن يدخله بأية هيئة يشاء، وبأية طريقة تحلو له، وعليه ألا ينسى أنه قد دخل بستانه الخاص به، والقرآن لا يعترض على حريته واختياره في الاقتراب من حقله إذا كان يعرف تمام المعرفة أين يتّجه، وهو يدرك لهذه الحقيقة⁽¹⁾.

ولمكانة وأهمية كبيرة لهذه الإرشادات قد أعقبها بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ وقد فسر هذا الجزء من الآية الأستاذ أمين أحسن الإصلاحي بما يلي:

«إذا تدبّرت معاني التوبة وحقيقة التطهر، علمت أن التوبة تُطلق على تطهير النفس الداخلية من الذنوب والآثام، أما حقيقة التطهير فهو تخليص النفس الخارجية من النجاسات والخبائث. فكلاهما متشابه في الجوهر. والخصلتان كِلَاهُمَا محبوبتان عند الله (سبحانه وتعالى). وعلى عكس ذلك فالمحرومون منهما هم المبعوضون عند الله. وسياق الآية هنا يدلّ على أن الذين يضاجعون النساء أثناء فترة الحيض. أو يتجاوزون في قضاء الشهوة حدود الفطرة. فإنهم مبعوضون عند الله»⁽²⁾.

(1) تدبر القرآن ١/ ٥٢٧.

(2) تدبر القرآن ١/ ٥٢٦.

الإيلاء:

﴿لِّلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِن نِّسَابِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةٍ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِن عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾⁽¹⁾.

فهذه الآية من البقرة تبين حكم الإيلاء من النساء. وهو مصطلح للعرب الجاهلي يطلق على قسم الزوج أنه لا يقيم العلاقة الزوجية بزوجته. وبما أن الزوجة تصير معلقة في نتيجة لقسم كهذا وذلك ينافي العدل ويناقض البر والتقوى ولذا فقد عين الله سبحانه وتعالى أجلاً محدداً في أربعة شهور للإيلاء. فبعد تربص أربعة أشهر على الزوج إما أن يقيم العلاقة الزوجية من جديد وإما أن يطلقها ويسرح سبيلها. وفي الصورة الأولى قال: إن الله غفور رحيم أي كان هذا القسم إخلافاً لعهد الوفاء وإتلافاً للحق الذي لا يجوز لأحد أن يفعله، ولكن إذا أصلح فإن الله يغفر ذلك الذنب ويعفو عن الخطأ. ولكن الظاهر أن الزوج يُكلف لأداء كفارة القسم لحثته. وقال في الصورة الثانية إن الله سميع عليم. أي إذا أراد الطلاق فعليه أن يراعي قانون الطلاق وكل حدوده وقبوضه، إذا تعدى حدوده واعتدى على أحد الفريقين لا يخفى ذلك على الله فإنه سميع عليم. فعلم منه أن انقطاع العلاقة الزوجية من الزوجة بدون عذر شرعي معقول لا يجوز، حتى إنه إن أقسم لذلك فعليه أن يحثته. فإنه حق المرأة وإنه يذنب في الدنيا والآخرة إن خانها هذا الحق. وكذلك على الزوجة، فليس لها أن تمتنع من إقامة العلاقة الزوجية مع الزوج من غير عذر شرعي معقول ولذا قال النبي ﷺ:

«إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فبات غضبان عليها، لعنتها الملائكة

حتى تصبح»⁽²⁾.

(1) سورة البقرة، الآيتان: ٢٢٦ و ٢٢٧.

(2) رواه البخاري، رقم الحديث: ٣٢٣٧.

الظهار:

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِمَّا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ * وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكَمْ تَوْعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١).

وهذا هو حكم الظهار، والظهار أيضًا مصطلح جاهلي مثل الإيلاء. وكان يطلق على ما إذا لفظ الزوج بفقرة «أنت علي كظهر أمي» وكان يعد من الطلاق البائن في الجاهلية لأن إطلاق هذا التعبير يعني عندهم أن الزوج يحرم على نفسه زوجته كالأم، وليس فقط يقطع العلاقة الزوجية معها، ولذا كان هناك سعة للرجعة بعد الطلاق ولكن لا إمكان للرجعة بعد الظهار^(٢).

فجاء القرآن في الآيات المذكور أعلاها بحكم الظهار، فأوضح أولاً أنه إذا بذى شخص وشبه زوجته أو عضواً لزوجته بأمه أو بعضو أمه فلا تصير زوجته بذلك أمه، ولا تحرم عليه مثل حرمة الأم عليه، لأن كون الأم أمًا هو واقع لأنها قد ولدتها، وحرمة الأم تتصل بولادتها له. فهذه الحرمة فطرية وأبدية لا تحصل فقط أن يقول شخص عن امرأة أنها أمه. ولذلك لا يفعل التشبيه كهذا فلا ينقطع منه نكاح، ولا تحرم عليه زوجته كأمه. وجاء ذلك في سورة الأحزاب بقوله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾^(٣).

وأوضح ثانيًا أن جملة كهذه إذا لفظه بها شخص فإنه بذى بذاءة وكذب

(١) سورة المجادلة، الآيات: ٢ - ٤.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام للأستاذ جواد علي ٥ / ٥٥.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٤.

كذبة لا يتصور بها كريم فضلاً عن أن يلفظ بها بلسانه، وكان جديراً أن يحاسب عليها حساباً شديداً ولكن الله غفور رحيم ولذا إن اجتراً شخص على القول بلفظ كهذا ثم شعر بخطأ وتاب إلى الله فإنه يستغفره.

وأوضح ثالثاً أنه أن قبول توبة لا يعني أن يترك بغير أي عتاب وأي تنبيه، لأن الكلام كهذا يؤثر على الحياة البشرية الاجتماعية تأثيراً سيئاً بالغاً فلزم تأديبه، حتى يحتاط في المستقبل وليتعض به غيره. فقضى الله سبحانه أن يكفر ذنبه قبل أن يمس أمراته. وهذا الكفارة تكون حسب ما يأتي:

تحرير أمة أو عبد⁽¹⁾

وإذا لم يتيسر ذلك فصيام شهرين متتابعين⁽²⁾.

فمن لم يجد فإطعام ستين مسكيناً.

وقد أرشد الله تعالى أنه إذا امتثلتم بهذا الأمر الإلهي مع روحه الصحيح يحكم إيمانكم بالله، لأن الإنسان إذا تلافى ما فاته من العمل بمسقة يتلافى خطأه من جانب ويترسخ في إيمانه وعقيدته من جانب آخر.

الطلاق

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحْشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا * فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى

(1) وقد جاء في الأصل لفظة رقبة وتطلق على أمة وعبد سواء، فإذا حرر أي منهما ما تسير له تتم به الكفارة، وهذا أيضاً خطوة من خطوات تحرير الرقبة والعبد قام بها الإسلام. فإن تحرير الرقبة مقدمة على الصورتين الآتيتين وبما أن إدارة العبودية قد انتهت، فالصورتان الباقيتان تقدمان عليها بطبيعة الحال.

(2) جاء في الأصل لفظ «متتابعين» فعلم منه أنه إذا جامع الرجل امرأته قبل إتمام شهرين فعليه استئناف الصوم من جديد.

عَدَلَ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ كُمْ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ
إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا * وَالَّتِي بَيِّنَ مِنَ الْمَجِيزِ مِنْ نِسَائِكُمْ
إِنْ أَرَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ
حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا * ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ
يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا * أَشْكُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُوهُنَّ
لِنُضَيْقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ
أُجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا نِيَّتَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَسَرِّضْ لَهُ أُخْرَى * لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعِيَّتِهِ
وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ
عُسْرٍ يُسْرًا (١).

إذا لم تكن العلاقة بين الرجل والمرأة على ما يُرام من المصالحة فهناك
رخصة متاحة للتفرق بينهما في دين الأنبياء يصطليح عليها الطلاق، وكانت
العرب في الجاهلية يقفون على الطلاق وفقًا لتقاليد الدين الإبراهيمي. نعم كانت
قد دخلت فيها بعض الانحرافات والبدعات ولكن تاريخ العرب يفيد أنه كان
هناك قانون الطلاق بمثل ما هو في الإسلام (٢) وقد أجرى الله تعالى نفس القانون
في هذه الآيات من سورة الأحزاب مع بعض الاصطلاحات والتعديلات. وقد
جاء بعض تفصيلاتها في البقرة والأحزاب أيضًا ولكن الأصل في باب الطلاق
هو هذه الآيات من الطلاق ونفصل ذلك فيما يلي:

قبل الطلاق:

ويجب على كل شخص أن يحاول كل المحاولة لإبقاء العلاقة التي قامت
بين الرجل والمرأة وأن لا تنقطع كما أمكن. وبناءً على ذلك قد أباح الله تعالى
للزوج أن يؤدب زوجته ويضربها على نشوزها. ولكن إذا علم بعد اتخاذ جميع

(١) سورة الطلاق، الآيات: ١ - ٧.

(٢) كما جاء في المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ٥/٥٤٨.

التدابير اللازمة للإصلاح أن العلاقة الزوجية بينما لا يمكن أن تدوم، فقد أرشد الله لأهلها وقييلتهما وأعزائهما وأقربائهما أن يتقدموا وأن يصلحوا بينهما صلحاً بإعمال الاختيار وتفعيل السلطة المتاحة، فأمرهم أن يختاروا حكماً من أهله وحكماً من أهلها وأن يصلحوا بينهما صلحاً فالرجاء أن يوفق الله لهما السداد، وأن الفساد يُدراً من خلال تدخل عمائد الأسرة وأكابر العائلة والناصحين فقال:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾⁽¹⁾.

ففي آخر الآية هناك ترغيب بليغ التأثير للزوج والزوجة لأن يستفيدوا من الفرصة ف﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

حق الطلاق

وقد استهلّت السورة بالفاظ ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ ثم إن في كل مكان هنا وفي مقامات أخرى بحثت فيها عن أحكام الطلاق قد تم نسبة فعل الطلاق إلى المرء. إضافة إلى ما استعمل القرآن في آية البقرة رقم ٢٢٩ تعبير ﴿فِيمَا أَفْذَنَتْ بِهِ﴾ (لمرأة تريد الطلاق بإرجاع مال الزوج إليه) فكل ذلك دليل صريح على أن الشريعة قد أعطت حق الطلاق للمرء، ووجه ذلك قوامة الرجل على المرأة فهو محافظ لها ويتكفل كل حاجياتها وهو يصلح لذلك، وبه تقوم قوامته كما قال تعالى: ﴿وَلِلرَّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾⁽²⁾. فنوعية المسؤولية وحفظ المراتب يتقاضان كلاهما أن يفوض حق الطلاق فقط للمرء. وقد قلنا فيما مر إن مؤسسة الأسرة حاجة ملحة لبقاء الإنسانية وكما أن إدارة من إدارات الدنيا الأخرى حيث تتفاوت المسؤوليات وتتساوى خيارات الفصل والوصل لا تقوم، فلا تقوم كذلك إدارة الأسرة أيضاً معه. فإذا كانت المرأة قد سلمت نفسها للرجل عوضاً عن صيانتها وكفالتها وحماية وكفالة أولادها، فلا يُسلم لها خيار إنهاء ذاك العهد من غير

(1) سورة النساء، الآية: ٣٥.

(2) سورة النساء، الآية: ٢٢٨.

الرجوع إلى المرء. فهذا هو قرين الإنصاف. وإذا اختيرت صورة أخرى غير ذلك يؤدي ذلك إلى عدم الإنصاف وإلى أن تتفكك إدارة الأسرة أخيرًا.

فمعنى ذلك صريحًا أن امرأة إذا أرادت الافتراق لا تطلق بل تطلب من زوجها الطلاق. فإذا كان كذلك، يُرجى في عامة الأحوال أن كل رجل صالح كريم النفس يستجيب إلى طلبها إذا لم يجد صورة لمصالحة، ولكن إذا يكن ذلك كذلك فللمرأة أن تراجع إلى المحكمة. فإذا وصل الدور إلى هنا فأسوة الرسول ﷺ للمحكمة أنه إذا تحقق لديها أن الزوجة تملت من زوجها لدرجة لا تصالح لرفاقته فتأمر الزوج أن يطلقها بعد أن استرد مالا أو ضيعة كان قد أعطها، وأراد الآن إرجاعه. فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه: أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله! ثابت بن قيس ما أعيب عليه في خلق ولا دين ولكنني أكره الكفر في الإسلام. فقال رسول الله ﷺ أتردين عليه حديثه؟ فقالت نعم، فقال رسول الله ﷺ اقبل الحديقة وطلقها تطليقة⁽¹⁾.

ومعنى «أن أكره الكفر في الإسلام» أنها كما تقول روايات أخرى كانت تكره وجه ثابت وكان دميماً، فكانت تشعر أنها إن تصحبه مع ذلك فهناك خوف وخطر من أنها لن تتمكن من الالتزام بقواعد وأحكام الشرع التي أمر الله بها الصيانة عفاف المرأة والوفاء بالزوج.

طريقة الطلاق

طلق الزوج بنفسه أو يفرقها استجابة لطلبها لذلك ففي كلتا صورتين طريقة الطلاق التي تفيدها هذه الآيات هي كما يأتي:

١. يتم الطلاق بحساب العدة. ومعنى ذلك أنه لا يجوز الطلاق لتفريقها فوراً بل يُعطى الطلاق بنية أن تفارقها بعد تمام أجل محدود. يطلق على هذه المدة المحدودة مصطلح العدة التي لا تجوز للزوجة أن تنكح فيها زوجاً

(1) رواه البخاري، رقم: ٥٢٧٣ - ٥٢٧٧.

غيره بعد أن يطلقها أو يتوفى عنها. وبما أن هذه المدة قد خصت لاستبراء رحمها، ولذا فوجب أن يطلقها بعد أن تفرغ من حيضتها وبدون إقامة العلاقة الجنسية معها. وكل مسلم مسؤول عن أن يتقي الله في هذا الأمر مع غضبه عليها الغضبة التي تقتضيها طبيعة الملابس التي يتم فيها الطلاق. ولذا لما أخبر رسول الله ﷺ بعبد الله ابن عمر أنه طلق امرأته في أيام الحيض غضب غضباً شديداً وقال: «مره فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض ثم تطهر»⁽¹⁾، ثم إن شاء أمسك بعد وإن شاء طلق قبل أن يمس، فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء»⁽²⁾.

فقد أمر الله أن تحصى العدة بحیطة كاملة. وبما أن الطلاق أمر خطير للغاية يتولد منه الكثير من القضايا القانونية للمرء والمرأة ولأولادهما ولأسرتهم، ولذا أصبح من الضروري إذا طلق أن يذكر وقت الطلاق وتاريخه كما يذكر ما ذا عليها المرأة وقت الطلاق، ومتى ابتدأت العدة وحتى متى تبقى ومتى تنتهي. وظل الأمر محدوداً في البيت أو يُرفع إلى المحكمة لا قدر الله، ففي كلتا الصورتين سيُتعين من ذلك أنه إلى متى يحق له الرجعة وإلى متى يُسكن المرأة في البيت، وإلى متى ينفق عليها ومن أي وقت يُقضى للورثة. ومتى تفترق الزوجة ومتى يجوز لها النكاح الثاني.

٢. وللزوج حق الرجعة حتى انقضاء المدة، وأوضح القرآن ذلك بقوله:

﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ فَامْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾. ثم أوضح ذلك أيضاً مزيداً في سورة البقرة أن الله تعالى قد أعطى حق الرجعة للزوج كما أعطى له حق الطلاق أيضاً، لأن ﴿وَالرِّجَالُ عَلَيْهِمْ دَرَجَةٌ﴾ وذلك لإقامة إدارة الأسرة على أحسن ما يُرام. ولكن لا يعني ذلك أن الحقوق مخصصة بالأزواج فقط وليس للزوجات حق. لا، ولهن أيضاً حقوق مثل الرجال، وليست هي شيئاً

(1) ونهى عن الطلاق إلى أن تطهر بعد الحيضة الثانية لغرض استبراء الرحم، أن تطمئن من الحمل إلى أقصى حد ممكن.

(2) رواه البخاري، رقم: ٥٢٥٠.

أجنبيًا لبني آدم، إنهم واقفون عليها منذ الأزل. ولذا فعلى الأزواج أيضًا احترام لحقوقهن وفقًا للمعروف مع طلب حقوقهم منهن فقال:

﴿وَبُعُولَهُنَّ أَحَقُّ بِرِدْهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾⁽¹⁾.

وبما أن هذه المعاملات ربما تسبب على الخطوات المفتعلة المبنية على الإفراط والتفريط، وربما تفضي بالناس أن يخطئوا أخطاء فاحشة بعد أخطاء، ولذلك أحال الله سبحانه وتعالى في أخير الآية إلى صفتيه - العزيز والحكيم - يقول الأستاذ الإمام أمين الإصلاحي في تفسير ذلك:

«إن الله عزيز فيحق له أن يحكم، وهو حكيم فكل ما أمر به هو يبتني على الحكمة كلها. والعباد مسؤولون عن امتثال أوامره، وإذا عصوا ما أمروا به فكأنهم يتحدثون غيرته وعزته ويدعون به عذابه. وإن تخططوا في دعواهم أنهم يعرفون الحكمة والمصلحة أكثر من الله سبحانه، فكأنهم يفسدون بأيديهم قانونهم ونظامهم»⁽²⁾.

وإذا لم يرجع الزوج تنتهي العلاقة الزوجية بينهما بانتهاء العدة. ولذا قال إنه ينبغي للمرأة أن ينظر أثناء العدة أيمسكها أو يسرحها ففي كلتا صورتين يجب أن يلتزم بالمعروف، فإذا فعلوا ذلك متقين الله فليطمئنوا أن الله سيجعل لهم مخرجًا إذا داهمتهم مشكلة في ذلك.

وقد أوضح في البقرة أنه إن أراد إمساكها فلا يكون هذا الإمساك ضرارًا بها ولذا اشترط «إن أرادوا إصلاحًا» ولذا لا يكون الرجوع بقصد إيذاء بالزوجة بل يكون لأن يتعايشا في سلام ومحبة ومصالحة، وإذا لم يكن ذلك كذلك يكون ظلمًا وهضمًا للحقوق يفضي إلى غضب الله الشديد وسخطه يوم القيامة فقال:

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا أَجَلُهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ

(1) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

(2) تدبر القرآن ١/ ٥٣٣.

وَلَا تُسَيِّئُوا لَهُمْ ضَرَارًا لِنَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ. وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ. وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١﴾.

ويقول الأستاذ الإمام في تفسير ذلك:

«جاء أولاً بالجانب الإيجابي ثم أوضحه مزيداً بطريق الجانب السلبي أيضاً لأنه كان يمكن للظالمين أن يستخدموا الطلاق وحق المراجعة بعد الطلاق المختص بالزوج للإضرار بالزوجة: وإن كان ذلك اعتداءً جارحاً وتعدياً لحدود الله وسخرية بشريعته. فقال إن من يفعل ذلك يقوم بظاهرة باعتداء في حق المرأة، ولكن في الواقع إنه يظلم نفسه لأن التعدي لحدود الله والسخرية بشريعته ظلم كبير جزاؤه عذاب أليم. وقال في الأخير أن اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعلكم أمة وسطاً وأرسل إليكم رسولا وأنزل عليكم كتاباً جامعاً للقانون والحكمة، يهديكم إلى الخير وللتمييز بين الخير والشر والصالح والطالح. فإن أدبتم حق هذه النعم بتعدي حدوده وسخرية شرعه، فاعرفوا مصير المجرمين كهؤلاء، فاتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليكم، إنه يمهّل الناس مع شرهم وفسادهم إمهالاً ولكن إذا أخذ فلا عاصم من أخذه أخذ عزيز مقتدر» (2).

ثم إن أراد الزوج تسريح الزوجة فأمر بتسريح بإحسان كما جاء في البقرة: ﴿فَإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَانٍ﴾ (3). وهناك بعض الترشيحات والتعليمات في باب التسريح أيضاً ومنها:

أولاً: لا يجوز استرداد ما قد منحها كتحفة من مال وضيعة وملابس وحلي وما إلى ذلك، أيًا كان ماليته. والنفقة والسكنى والصدّاق من حقوق المرأة، فلا سؤال للإرجاع والاسترداد فيها والأشياء الأخرى غيرها أيضاً لا تسترد.

(1) سورة البقرة، الآية: ٢٣١.

(2) تدبر القرآن، ١/ ٥٣٩.

(3) سورة البقرة، الآية: ٢٢٩.

إلا ما استثنى من ذلك وهما صورتان، لم يمكن بينهما مصالحة مطابقاً لحدود الله حتى أن أرباب الحل والعقد للمجتمع أيضاً يشعرون بذلك. ولكن الزوج لا يطلقها بخوف أن الأموال التي قد أعطها إياها تذهب معها إذا غادرت. ففي مثل هذه الصورة يجوز للمرأة أن تفتدي ببعض أو كل أموالها وتحرز الطلاق بدلاً من المال. فإذا كان الوضع كذلك فلا يمنع الزوج من أخذ ذاك المال. والصورة الثانية أن تأتي الزوجة بفاحشة مبينة، وبما أن ذلك يهدم أساس الأسرة بأسره، فيجوز للزوج أن يسترد ما قد آتاه إياها. وقال تعالى:

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (1).

وقال أيضاً:

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيجعل الله فيه خيراً كثيراً * وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُبِينًا * وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (2).

فقد شدد القرآن بقوله ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ على أن يتجاسر شخص على اتهام زوجته بحثاً عن جواز لاسترداد ما قد آتاه إياها من مال ويقول في ذلك الأستاذ الإمام:

«فهذا ينافي فتوة المرء كل المنافاة، أن المرأة التي عهد معها عهد الوفاء لطيلة العمر والتي جاءت في حباله عقده تحت ميثاق غليظ والتي أعطت له

(1) سورة البقرة، ال: ٢٢٩.

(2) سورة البقرة، الآيات: ١٩ - ٢١.

نفسها وظاهرها وباطنها وقد ظلا يتعايشان لبرهة طويلة وكأنهما نفس واحدة. والآن إذ حان الفراق يحاول أن يستخرج منها ما ابتلعه حتى يتهمها ويستهدفها لنيل هذا الغرض الخسيس الذليل»⁽¹⁾.

ثانياً: وإن طلقها قبل أن يمسه أو قبل أن يجعل لها صداقاً فلا مسؤولية على الزوج في المهر، وإذا تقرر لها المهر ولكن وقع الطلاق قبل أن يمسه فلها نصف المهر إلا أن تعفو المرأة كل المهر برضاها أو أن يؤدي المرء بنفسه كل المهر فقال تعالى:

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِمِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدْرَهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ * وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوا أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾⁽²⁾.

وقد فسر الآيات الأستاذ أمين أحسن بقوله:

«وإن كان هناك باعث للمرأة لأن تعفو عن مهرها لأن الزوج قد طلقها قبل اللقاء والمس، ولكن القرآن قد حث المرء وحرضه على أن فتوته ومروءته ودرجته العالية تقتضي أن لا يطلب من المرأة أن تعفو هي عن حقها، بل ينبغي أن يتقدم هو ويؤدي كل مهرها، فحرضه على ذلك بقوله: «أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح» والثاني أن الإيثار والتضحية، وهي من أوصاف التقوى العالية يليق بشأن الصنف القوي في مقابلة الصنف الضعيف، والثالث أن الله تعالى قد أعطى المرء درجة الفضيلة على النساء بإيتاء فضيلة القوامه عليها، فليس للمرء أن ينسى

(1) تدبر القرآن ٢ / ٢٧١.

(2) سورة البقرة، الآيتان: ٢٣٦ و ٢٣٧.

هذه الفضيلة في معاملة المرأة، فإن هذه الفضيلة تقتضي بطبيعتها أن يكون المرء معطيًا وليس آخذًا من المرأة^(١).

ثالثًا: يجب أن يكون تسريح المرأة بمتعة الحياة وقد جعلها القرآن حقًا على المحسنين والمتقين فجاء في القرآن فيمن يطلق قبل أن يمسه المرأة أيضًا:

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتْنِعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾^(٢) وقد جاء ذلك في سورة الأحزاب بتعبير ﴿فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾^(٣). وأيضًا أوجبه في البقرة للنساء التي لم يدخل بهن ولم يجعل كذلك صداق لهن أن تتاح لهن المتعة وفقًا للتقليد السائد في المجتمع ورعاية لأحوال الزوج المعيشية فقال: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتْنِعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾^(٤).

فعلم من كل ذلك أن متعة الطلاق حق واجب، وإذا لم يؤدها شخص فيمكن أن لا يؤاخذ القانون في هذا العالم لابتناء القانون على صفتي الإحسان والتقوى، ولكنه سوف يؤاخذ عليه حتمًا عند الله ويؤذن له إيمانه وإحسانه برعاية ذلك.

رابعًا: وإذا رجع الزوج أثناء العدة تظل المرأة زوجة له. ولكن هل الزوج أن يطلقها ثم يرجع مرارًا وتكرارًا في أثناء العدة. فأجاب القرآن على هذا السؤال أن للزوج حق الطلاق والرجعة فقط مرتين، فقال: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكُكُمْ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُكُمْ بِإِحْسَانٍ﴾^(٥) وعليه إن وقع ذلك لأحد لمرّة ثالثة، وطلق المرأة مرة ثالثة بعد الرجعتين فالآن تبين وتفرق منه للأبد إلا أن تتزوج بآخر، ثم هو الآخر يطلقه ففي هذه الصورة لهما أن يجتمعا بنكاح جديد. فقال تعالى:

(١) تدبر القرآن ١ / ٥٤٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤١.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٤٩.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٣٦.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٢٩.

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾⁽¹⁾.

وقد بين القرآن شروطا ثلاثة للنكاح الجديد مع الزوج الأول.

أولاً: أن تتزوج المرأة من شخص آخر.

ثانياً: لم يمكن التعايش معه أيضاً فطلقها هو الآخر.

ثالثاً: فإن ظنا أن يقيما حدود الله بعد النكاح الجديد. فأريد بالنكاح في الشرطين الأولين عقد النكاح، وبالطلاق نفس الطلاق الذي يقوم المرء به إذا لم يمكن التعايش وأبرم الافتراق وطلق، ويقول الأستاذ الإمام:

«والأصل أن النكاح مصطلح معروف للشريعة الإسلامية والذي يطلق على عقد بين رجل وامرأة يتم بنية التعايش لطيلة الحياة، ولأن تحيا حياة زوجية، فإن لم توجد هذه الإرادة في نكاح فليس هو نكاحاً بل مؤامرة تأمره رجل وامرأة معاً، وأما الطلاق فهو ليس جزءاً أصلياً للمشروع الشرعي النكاحي. بل هو تداوٍ محدود لما قد يطرأ عليه من آفة مفاجئة. ولذا فإن طبيعة النكاح تستلزم أن يوجد بإرادة التعايش الدائم. وإذا كان النكاح فقط لفترة محددة خاصة فهو متعة وهو حرام قطعاً في الإسلام. وكذلك إذا نكح بشخص بامرأة بنية إحلالها لزوجها الأول بطلقة يقال لها في الشرع حيلة الحلالة وهي أيضاً حرام كالمتعة في الإسلام. والذي يقوم بهذه العملية الدنيئة الخبيثة لإنجاح مقصد الغير فإنه في الواقع ديوث أو فحل مستعار كما جاء في الحديث ولعن الله المحلل والمحلل له⁽²⁾».

واشترط ثالثاً أن لا يعتقد الناس النكاح والطلاق العوبة. ويعرفون جيداً أن النكاح جد والطلاق جد فتنكح المرأة بإرادة صادقة بحسن العشرة معها وتطلق

(1) سورة البقرة، الآية: ٢٣٠.

(2) رواه ابن ماجه، رقم: ١٩٣٦. تدبر القرآن، ١ / ٥٣٧.

إذا لم يكن بد منها وأن يتقوا الله في كل أمر ولا يجوز بعد مؤمن أن يسلك مسلماً غيره في هذا الباب.

وقد أضاف فقهاؤنا على هذا كله شرطاً مزيداً أن يكون الطلاق من الزوج الثاني بعد أن جامعها بالتأكد، فإنهم لا يحلون المرأة للزوج الأول بدون المباشرة. والدلائل التي يستمسكون بها لتبرير هذا الرأي من أهمها ثلاثة أدلة وهي كالتالي:

أولاً: الآية تستعمل لفظة «تنكح» لذلك وأضافت فعل النكاح إلى المرأة وبما أن النكاح يتم من قبل المرء لا من المرأة ولذا فتنكح هنا تكون في معنى الدخول بها والمباشرة الجنسية بالتأكد.

وثانياً: قد جاءت ألفاظ «زوجاً غيره» بعد «تنكح». وزوجاً بنفسه يشير هنا إلى أن النكاح قد تم، ولذا لا بد من أن يكون «تنكح» هنا بمعنى المباشرة الجنسية.

وثالثاً: قد روي أن النبي ﷺ بنفسه قد منع امرأة من المراجعة إلى الزوج الأول أن لا تحل له بدون الجماع من الزوج الثاني.

والجواب على الدليلين الأولين الواضح الصريح قد جاء به القرآن نفسه، فقد جاء بعد الآية المبحوث عنها فوراً آية كريمة وهي: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعَنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحَنَّ أَزْوَاجَهُنَّ﴾⁽¹⁾.

فانظر فيها إنها أيضاً تنسب النكاح إلى النساء. وجاء هنا أيضاً «أزواجهن» على نفس الطريقة التي جاء بها في «زوجاً غيره» ولكن الواضح الصريح أن يكون «أن ينكحن» هنا في معنى عقد النكاح لا بمعنى المباشرة قطعاً. ثم القول بأن فعل النكاح لا ينسب إلى المرأة لمن العجب العجاب. وعليه هل يمكن لنا التجاسر

(1) سورة البقرة، الآية: ٢٣٢.

على سؤال إلزامي عليه أنه إذا لم ينسب فعل النكاح إلى المرأة فهل ينسب فعل الجماع إليها؟ لأن الجماع أيضًا لا تفعله المرأة وإنما المرء يفعله.

أما الدليل الثالث فممنشؤه فهم وقراءة رواية على غير ما هي عليه. وبالنظر في طريق رواه البخاري قد يتوضح الأمر أن المرأة قد نكحت بنفسها بنية وإرادة أن تحل لزوجها الأول. ولذا نسبت إلى الزوج تهمة أنه قاصر عن أداء وظيفة الزوجية وإقامة العلاقة الجنسية معها ومن أجل ذلك تريد الطلاق منه، فقد عاتبها النبي ﷺ بعد أن وضحت له الحقيقة الواقعة وقال لها: «لا حتى تذوقي عسيلته» فكان قوله مبنياً على أسلوب تعليق بالمحال لا بيان شرط. فإن كانت الرواية تثبت شيئاً فإنها تثبت حرمة الحلالة وليس فيها دليل على ما ذهب إليه الفقهاء.

وإليك الرواية بكاملها:

عن عكرمة أن رفاعة طلق امرأته فتزوجها عبد الرحمن بن الزبير القرظي، قالت عائشة: وعليها خمار أخضر فشكت إليها وأرتها خضرة بجلدها، فلما جاء رسول الله ﷺ، والنساء ينصر بعضهن بعضاً. قالت عائشة: ما رأيت مثل ما يلقي المؤمنات، لجلدها أشد خضرة من ثوبها قال: وسمع أنها قد أتت رسول الله ﷺ فجاء ومعه ابنان له من غيرها. قالت: والله ما لي إليه من ذنب إلا أن ما معه ليس بأغنى عني من هذه، وأخذت هدبة من ثوبها فقال: كذبت والله يا رسول الله، إني لأنفضها نفص الأديم ولكنها ناشز تريد رفاعة، فقال رسول الله ﷺ: «فإن كان كذلك لم تحلي له أو لم تصلحي له حتى يذوق من عسيلتك» قال وأبصر معه ابنين له فقال بنوك هؤلاء؟ قال نعم، قال: هذا الذي تزعمين ما تزعمين فوالله لهم أشبه به من الغراب بالغراب⁽¹⁾.

والزوج يطلق أو يرجع ينبغي له في كلتا الصورتين أن يُشهد على عمله شهيدين مسلمين ثقتين، ويجب عليهما أن يقوموا على شهادتهما. والمقصود من ذلك أن أحداً من الفريقين لا ينكر ذلك فيما بعد وإذا كان هناك نزاع يكون من

(1) رواه البخاري، رقم: ٥٨٢٥.

السهل جدًا التعامل معه. ثم أن لا يكون في ذلك شبهة ولا ريبة ويكون كل شيء للناس واضحًا جليًا. فهذا هو الطريقة الصحيحة للطلاق فإذا طلق رجل امرأته مطابقًا لذلك أو راجعها بعد الطلاق ينفذ قضاءه هذا شرعًا. ولكن إذا خالف الطريق الشرعي بأي جانب وطلق يكون ذلك قضية تنظر فيها المحكمة وتقضي فيها.

وقد رفعت إلى رسول الله ﷺ قضايا عديدة من هذا النوع اثنتان منها مهمتان جدًا وهما كما يأتي:

«طلق عبد الله بن عمر رضي الله عنه امرأته وهي حائض، فذكر ذلك أبوه للنبي ﷺ، فتغيظ غضبًا، حيث طلقها طلاقًا محرماً لم يوافق السنة، ثم أمره بمراجعتها وإمسакها حتى تطهر من تلك الحيضة ثم تحيض أخرى ثم تطهر منها - وبعد ذلك - إن بدا له طلاقها ولم ير في نفسه رغبة في بقائها فليطلقها قبل أن يطأها، فذلك ابتداء العدة التي أمر الله بالطلاق فيها لمن شاء⁽¹⁾.

والحدث الثاني هو ما وقع لركانة بن عبد يزيد، وهناك روايات عديدة في ذلك ومجموعها يفيد أن ركانة طلق امرأته سهيمة البتة، فأخبر النبي ﷺ بذلك فقال رسول الله ﷺ «ما أردت؟ فقال ركانة والله ما أردت إلا واحدة فردها إليه قال إني طلقته ثلاثاً في مجلس واحد، فقال: إنما هي طلقة واحدة ولكن ليس هذا طريقاً صحيحاً فقد قال الله إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن⁽²⁾.

فهذه الروايات تفيد أن قضاء النبي ﷺ كان مبنياً في كلتا القضيتين على أسس تالية:

إذا أخلف شخص قانون الطلاق فإن أمكن التلافي يجب أن يؤمر بتلافي ما فات.

(1) روي هذا الحديث البخاري، رقم: ٥٢٥١، ومسلم رقم: ٣٦٥٧.

(2) رواه أبو داود، رقم: ٢١٩٦، ٢٢٠٦، ابن ماجه: ٢٠٥١ والترمذي، رقم: ١١٧٧، وأحمد رقم: ٢٣٨٣. وهي روايات ضعاف من جهة السند ولكن إذا جمعت الطرق ينجر الضعف.

وللقائل حق أن يوضح ما أراد به بقوله فإن قال: صدر مني ذلك القول من غير قصد مني ولا إرادة ولا اختيار سلبته بأي وجه من الوجوه، يمكن أن يقبل توضيحه ذلك.

وعدد الطلقات الثلاث يطلق لبيان العدد كما أنه يطلق على تأكيد القول وإتمامه وقطعيته. وبما أن الاحتمالين متساويان لغةً وأسلوباً. فما يجيء القائل من تفسير لقوله يمكن أن يقبل في ذلك.

ولكن إذا كانت القرائن تأبى ذلك فللمحكمة حق أن لا تسلم تفسير القائل إن لم تطمئن عليه. ولذا حين رأى عمر رضي الله عنه أن الناس يتجاوزون الحدود في ذلك أنفذ الثلاث كثلاث طلقات وأعلن ذلك⁽¹⁾.

عدة الطلاق

وعدة الطلاق التي أمر القرآن أن يطلق المرء زوجته لعدتها قد أوضح مدتها في مقام آخر أنها ثلاث حيضات، فقال:

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْجِعْنَ إِلَىٰ آبَائِهِنَّ أَوْ إِلَىٰ آبَائِهِنَّ أَوْ إِلَىٰ آبَائِهِنَّ ثَلَاثَ قُرُوءٍ﴾⁽²⁾.

ولفظه القروء التي جاءت في الآية هي جمع لقرء وهي من لغة الأزداد تطلق على الحيضة والطهر كليهما وقد حققها الأستاذ الإمام أمين أحسن في تفسيره «تدبر القرآن» بما يأتي:

«قد تمخض مما تدبرنا في أصل مادة القرء ومشتقاتها إلى القول بأن معناه الأصلي هو الحيض ولكن بما أن كل حيضة متصلة يطهر بالتأكيد ولذا يستعملها الناس في المحاوراة المتداولة بالطهر أيضاً، كما نعبّر بالليل النهار لكونها مولجة بالنهار وبالعكس. وأمثلة ذلك متوفرة في كل لغات العالم⁽³⁾.

(1) رواه مسلم، رقم: ٣٦٧٣.

(2) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

(3) تدبر القرآن ١ / ٥٣٢.

وقد استعملناه هنا في معنى الحيض ووجه ذلك لأن الأصل هنا هو استبراء رحم المرأة والذي يُفصل فيه بالحيضة لا بالطهر. ثم إنه حددت لذلك مدة التوقف وهي أيضًا تتعين بالحيضة فلا يشك في ابتدائها أحد، فهذه هي مدة الحيض في عامة الأحوال. ولكن إذا يئست المرأة من الحيض أو لم تحض بالرغم من كونها بالغة العمر، ففي هذه الحالة تكون العدة ثلاثة أشهر كما جاء في آيات سورة الطلاق. وجاء فيها ﴿وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ﴾، وبما أن «لم» تأتي بالعربية لنفي الجحد فلا يمكن أن يراد بها الصبيات اللاتي لم تحضن بعد، بل يراد بها تلك النسوة اللاتي لم يحضن وإن بلغن عمر الحيضة. وقال أيضًا إن مدة العدة للحامل هي وضع الحمل. وقد اشترط في الآية للآيسات من الحيضة بـ﴿إِنْ أَرْبَبْتُمْ﴾ ويقول الأستاذ الإمام في توضيح ذلك:

«إنه يدور في خلدي أنه إن كانت شريطة ﴿إِنْ أَرْبَبْتُمْ﴾ قد جاءت هنا للتمييز بين الآيسة المدخولة والآيسة غير المدخولة. أي إذا كانت الآيسة مدخولة فمع كونها آيسة، هناك إمكان أن تكون حالة اليأس طارئة وترجو بعدها وفي رحمها شيء. وقد تعرض نفس الحالة لمن لم تحض بعد ولكنها مدخولة. وقد يمكن أن يثور سؤال لأحد إن كان المنوي القول بهذا فلم لم يقل بصراحة أن عدة الآيسة المدخولة هي ثلاثة أشهر؟ وجوابه إن قيل ذلك كذلك لم تتوضح منه علة العدة أصلاً، مع أنها كان لا بد من إيضاها. الآن علة العدة الأصلية ليس كون المرأة مدخولة مجردة بل الاشتباه أن يكون هناك شيء في رحمها»⁽¹⁾.

ويتضح منه كذلك أن المرأة إذا كانت غير مدخولة فلعدم احتمال كونها حاملاً فلا بد من أن لا تكون لها عدة وقد صرح الله تعالى ذلك في سورة الاحزاب فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾⁽²⁾.

(1) تدبر القرآن، ٨ / ٤٤٢.

(2) سورة الاحزاب، الآية: ٤٩.

وأحكام زمن العدة التي تتمحض من آيات سورة الطلاق كما يأتي:

أولاً: لا ينبغي أن تترك الزوجة بيتها ولا يحق الزوج أن تخرجها من البيت فإنه يرجي من التعايش أن تتغير القلوب وينظر كل من الزوج والزوجة في سلوكياتهما فتعمر البيت الخربان من جديد، تشير إلى ذلك فقرة ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثَ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾. ونبه كذلك أن هذه حدود الله فمن يتعدها فقد ظلم نفسه فإن حدود الله هي لمصالح العباد لا لمصلحة الله تبارك وتعالى، فمن يتجاوزها يهدم مصالحه هو. وهناك حالة استثنائية فقط وهي إن كان قد طلقها لفاحشة مبينة. والفاحشة المبينة تستعمل في العربية للزنا ومتعلقاته ومقدماته. ففي هذه الصورة من الظاهر أنه لا ينبغي أن يطالب الزوج، أن يترك زوجته تعيش معه في بيته ولا يحصل منه فائدة مظنونة من هداية ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾.

وثانياً: يطلب من الزوج أن توفر لها السكنى والنفقة وفقاً لحيشته. وبسبب الطلاق يخشى أن يتعامل الزوج معها معاملة السوء والقتل ولذا فقد اكدت الآيات الكريمة على حثه على التعامل الحسن معها وأن يتخذ معها تدابير بأن تضطر إلى مغادرة البيت.

هذه المسؤولية، بالطبع، ستبقى مع الزوج حتى بعد الطلاق الثالث. والسبب في ذلك هو أن العدة مقبولة من قبل المرأة لتحديد وحماية حملها. ففي آية سورة الأحزاب (٣٣) التي اقتبسناها أعلاه، فإن كلمات ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّنَهَا﴾ واضحة جداً أنه إذا كان هناك احتمال للحمل، فإن العدة واجبة على الزوجة نيابة عن الزوج. وليس هناك شك في أنه بعد الطلاق الثالث، لا يحق للزوج العودة وحق الرجعة، ولكن نتيجة لذلك، إذا كان من الممكن إلغاء أي شيء، فهو الحظر عليهما العيش معاً. ولا يمكن إنهاء مسؤولية توفير السكن والنفقة للزوجة تحت أي ظرف من الظروف. لذلك، من المؤكد تماماً أنه سواء كانت العدة ثلاث فترات حيض أو ثلاثة أشهر أو تمتد إلى فترة الحمل، فإن هذه المسؤولية ستفرض على الزوج على كل حال.

وهنا قد يقدم بعض الناس حديثَ فاطمة بنت قيس ضد رأينا هذا. وتروى قصتها أن زوجها أبا عمرو طلقها مرتين من قبل. ثم عندما أرسل إلى اليمن مع سيدنا علي رضي الله عنه، أرسل له الطلاق الثالث أيضًا من هناك. وخلال العدة، عندما طالبت بالنفقة والإقامة، رفضت عائلة زوجها قبول حقها. فعند ذلك جاءت إلى النبي ﷺ بهذا الادعاء، فقرر النبي ﷺ: «لا نفقة لك ولا سكنى»⁽¹⁾.

وقد جاءت هذه الرواية في بعض كتب الحديث، ولكن يعلم من الروايات الأخرى أيضًا أنه عندما عرضت على عمر رضي الله عنه رفض قبولها، قائلًا إنه لا يمكن «أن نترك كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لا نعلم حفظت أم نسيت». [٣٥] وعندما ثارت القضية مرة أخرى في عهد مروان، أثارت السيدة عائشة اعتراضات قوية على هذا الحديث قال قاسم بن محمد: سألت السيدة: ألا تعلم قصة فاطمة؟ فأجابت فقالت: خير ألا نذكر حديث فاطمة⁽²⁾. وقالت في رواية ما لفاطمة؟ ألا تتقي الله⁽³⁾؟

وفي رواية أخرى، روي أن أم المؤمنين أعربت عن استيائها من فاطمة، وقالت: «كانت في بيت فارغ لا يوجد فيه مؤنس، فأمرها النبي ﷺ بتغيير منزلها حفاظًا على سلامتها»⁽⁴⁾.

هذه هي حقيقة هذا الحديث، لذلك لا يناسب أن يعتني به أحد الآن. بالإضافة إلى هذه التعليمات، قد أعطى الله سبحانه وتعالى تعليمات أخرى في سورة البقرة بأن المرأة يجب ألا تحاول إخفاء حملها خلال زمن العدة. وقد ذكرنا في أكثر من مكان أعلاه أنه قد جاء حكم العدة بحيث تقرر ما إذا كانت المرأة حاملًا أم لا. لذلك، هذا مطلب أساسي من متطلبات هذا الأمر، وقد شدد الله عليه بشدة فقال:

(1) رواه مسلم رقم ٣٦٩٧ — ٣٦٩٨ رواه أبو داود رقم ٢٢٩٠.

(2) رواه البخاري رقم: ٥٣٢١ — ٥٣٢٢.

(3) رواه البخاري رقم: ٥٣٢٣ — ٥٣٢٤ ومسلم: ٣٧١٩.

(4) رواه البخاري رقم: ٥٣٢٥ — ٥٣٢٦.

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْجِعْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾⁽¹⁾.

وبعد الطلاق

الرضاعة:

ومما يمكن أن يكون من بواعث النزاع بعد الطلاق منها رضاعة الأولاد فقد أرشد الله سبحانه في آيات الطلاق المذكورة أعلاه أنه إذا رضيت الوالدة لإرضاع الأولاد، يجب على المرء (الوالد) تعويضها على ذلك، وتتم صفقة هذه الخدمة بالتشاور والتراضي وبالمعروف. وإذا لم يتفق الوالدان على قرار كهذا ترضع امرأة أخرى، ومعيار النفقة في ذلك يكون «على الموسع قدره وعلى المقتر قدره»، ولا يجوز للثري أن يتنازل في تعامله من معياره هو ولا يثقل ولا يكلف الفقير أكثر من وسعه ف﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فقال في البقرة:

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةُ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾⁽²⁾.

وتتلخص هذه الأحكام في ألفاظ الأستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاح كما يأتي:

١. يجب على المطلقة إرضاع ولدها حولين كاملين إن أراد المرء المطلق أن تتم المرأة مدة الرضاعة هذه.

(1) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

(2) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

٢. وأثناء هذه المدة على الوالد أن يصرف على المطلقة بتوفير الكسوة لها والرزق بالمعروف، أي يقضي الفريقان باعتبار مكانة الزوج وضرورات المرأة وظروفها ما سوف يؤدي إليها من المصارف كنفقة عليها.
٣. ولا يضار فريق منهما أكثر من وسعه فلا تضار والدته بولدها ولا الوالد بولده.
٤. وإذا فات والد الولد يقوم مقامه وارثه ويجب عليه مثل ذلك من المسؤوليات والواجبات والحقوق.
٥. فإن أراد الوالد والوالدة فصال الولد أثناء الحولين عن تراضٍ منهما وتشاور فلا جناح عليهما فيه.
٦. وإن أراد الوالد أو من ينوب منابه من الورثة استرضاع الولد من امرأة أخرى يمكن لهم ذلك بشريطة أن تؤدي الوالدة المال وفق ما تم بينهما من قرار^(١).

عضل المرأة في النكاح؛

والشئ الثاني الذي يمكن أن يكون باعثاً للنزاع هو عضل الزوج للمرأة أن تنكح زوجاً غيره، ويمكن ذلك أن يتم في حظره الصريح لها أو في صورة مؤامرة وتكالب عليها، فقد حذر الله الرجال من هذا الفعل بشدة ونصحهم أنه إذا تم طلاق امرأة فلا يحق الآن للزوج السابق أن يعضلها في أية معاملة لها، فهي حرة ولها أن تتزوج إذا شاءت وبمن شاءت، فإن كان قضاؤها للنكاح متوافقاً للعرف والعادة فلا اعتراض عليها.

وأنت في الأصل لذلك ألفاظ ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ وتقصدها منها أن المرء والمرأة كلاهما حران الآن، ولهما أن يقضيا في أمورهما كما شاءا، بشرط أن لا يكون هناك شئ مما يناقض تقاليد الكرماء أو مما يضر بسمعة الزوج السابق أو الزوج المستقبلي أو بسمعة أسرة المرأة وعزها وشرفها، فقال تعالى:

(١) تدبر القرآن، ١ / ٥٤٥.

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾⁽¹⁾.

ويقول الأستاذ الإمام مفسراً الجزء الأخير من الآية الكريمة:

«قال: ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر، أي الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر فعليهم أن يمتثلوا بهذا الوعظ والنصح كمقتضى لازمي لإيمانهم، ثم قال ذلك أزكى لكم أي إن تعضلوا المرأة في نكاحها حيث تريد فذلك يفضي بها وبأسرتها ثم بالاجتماع كله إلى انتشار المفسدات والخلاعات الكثيرة، فمن هنا تفتح أبواب العلاقات الخفية ثم الزنا ثم الإغواء والفرار بكثرة كاثرة، وفي يوم يجدع أنف كل الذين يحاولون عضل المرأة ويطعمون الحواجز بإزاء المشاعر الطبيعية ويعرقلون باسم العادات والتقاليد المتبدلة فقط لشموخ أنفسهم، وفي آخر الآية قال والله يعلم وأنتم لا تعلمون أي إنكم على علم ناقص ونظر قاصر، يصعب عليكم أن تفهموا كل صعود وهبوط الحياة ولذا يجب أن تأتوا بما تؤمرون به من عند الله تعالى»⁽²⁾.

حضانة الأطفال:

وقد يمكن أن يثور بين المطلقة وزوجها نزاع وخلاف في أمر حضانة الأطفال وتربيتهم.

وهذه المسألة تطلب مراعاة مصالح الأطفال ورعاية ظروف الوالدين. وهي تختلف باختلاف الملابس والظروف، ولذا لم تجئ الشريعة بضابطة خاصة في ذلك ولكن هناك قضاءات النبي ﷺ موجودة في هذه القضية وهي

(1) سورة البقرة، الآية: ٢٣٢.

(2) تدبر القرآن، ١ / ٥٤٤.

تفيد الكثير لأرباب الحل والعقد إلى وصول ترشيد بهم جداً فيها، فنقل منها هنا
قضاء ان له:

روي عن عبد الله بن عمر أن امرأة أتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن ابني هذا كان بطني له وعاء وحجري له حواء وثدي له سقاء وزعم أبوه أنه ينزعه مني فقال: أنت أحق به ما لم تنكحي⁽¹⁾.

وروى أهل السنن وأبو داود عن أبي هريرة أن امرأة جاءت فقالت: يا رسول الله إن زوجي يريد أن يذهب بابني وقد سقاني من بئر أبي عقبة وقد نفعتي فقال: استهما عليه فقال زوجها من يحاقني في ولدي فقال رسول الله ﷺ (للولد) هذا أبوك وهذه أمك فخذ بيد أيهما شئت فأخذ بيد أمه فانطلقت به⁽²⁾.

وفات الزوج:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ۖ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ۚ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ حَلِيمٌ ۝﴾⁽³⁾.

قد جاء حكم المتوفى عنها زوجها في هذه الآيات من سورة البقرة.

وأول ما جاء فيها هو تحديد مدة العدة في أربعة أشهر، وبما أن علة حكم عدة المطلقة والمتوفى عنها زوجها واحدة، ولذا فإن المستثنيات المذكورة أعلاه في بحث الطلاق يجب رعايتها في عدة المتوفى عنها زوجها أيضاً، فلا

(1) رواه أحمد وأبو داود، رقم: ٢٢٧٦ والحاكم، رقم: ٢٨٣٠.

(2) أبو داود، رقم: ٢٢٧٧.

(3) سورة البقرة، الآيتان: ٢٣٤ و ٢٣٥.

عدة للأرملة غير المدخولة وتنتهي عدة الأرملة الحامل بعد وضع الحمل، فقد أخرج الشيخان أن سمية رضي الله عنها أرملت وكانت حاملاً أتت النبي صلى الله عليه وسلم وسألت عنه ما حكمها فقضى لها النبي صلى الله عليه وسلم هذا القضاء⁽¹⁾.

وتمت هذا الإضافة في مدة العدة بالنسبة للمطلقة العامة لأنها أمرت أن يتم طلاقها في طهر لم يُجامعها زوجها، ولكن لا يمكن صنع وتحديد ضابط كهذا للمتوفى عنها زوجها فكان الاقتضاء أن تزداد الأيام في مدة العدة، ففصل القرآن ذلك وزاد شهراً وعشرة أيام مقارناً بالمطلقة العامة.

وجاء بحكم ثانٍ أن المتوفى عنها زوجها حرة بعد انقضاء مدة العدة لما أن تعمل ما تشاء في أمرها، نعم ينبغي لها أن تتقيد بصرف المجتمع وأن لا تقترب عملية تضر بشرف الأسرتين ووجاهتهما وشهرتهما وعزهما وبعد ذلك لا يلزمها ولا أولياءها شيء. يقول الأستاذ الإمام:

«وذلك يعني أنه لا ينبغي للناس أن يعطوا الطقوس والتقاليد السائدة غير الشرعية مكانة الشريعة وأن يلوم بعضهم البعض في ذلك. فلا يُطعن في ورثة الزوج وأولياء المرأة الأرملة أن هذه المرأة لم تستحد زوجها بعد حق الاستحداد أن ضاقوا منها، ولا تطعن المرأة نفسها أن لم تمض على وفاة زوجها أيام وهذه قامت تطلب لها زوجاً آخر. ويجب فقط التزام بحدود الله وأن يُذكر دائماً أن الله عليم وخبير بكل ما يعمل به عباده»⁽²⁾.

وأرشد ثالثاً أنه إذا أراد شخص أن يتزوج بالأرملة فله أن يعرض لذلك أو يكتفه في نفسه ولكن لا يجوز له أن يواعدوها سرّاً ويخطب عليها صارفاً نظره عن ما تعانيه أسرتهما من المصيبة وتكابد من المعاناة، ويجب أن يتحدد القول على المواقع كهذه في الإعراب عن التعزية والمواساة، فقال إن الله يعلم ما في أنفسكم ولكن لا تخطبوه ولا تواعدوه سرّاً ولا تعاهدوها ولكن قولوا قولاً معروفاً.

(1) انظر البخاري، رقم الحديث: ٥٣١٨ — ٣٧٢٣.

(2) تدبر القرآن، ١/ ٥٤٦.

نعم إذا مضت العدة فلا جناح عليكم أن تعزموا عقدة النكاح من المتوفى عنها زوجها.

ويستنبط منه أنه يجب على المرأة أيضًا أن تعيش في مدة العدة ما يطابق الحالات وهي عيشة الاستحداً وعدم الزينة كما قال النبي ﷺ:

المتوفى عنها زوجها لا تلبس المعصفر من الثياب ولا الممشقة ولا الحلى ولا تختضب ولا تكتحل⁽¹⁾.

وكيف تحل مشكلة النفقة والسكنى لها أثناء العدة؟ فقد أوضح القرآن في السورة نفسها أنه يجب على الزوج المتوفى أن يوصي لزوجتها للسكنى والنفقة لعام كامل إلا أن تخرج بنفسها من بيته أو تقوم بخطوة أخرى من نوعها، وعامة المفسرين يعتقدون أن هذا الحكم قد نسخ من آيات تقسيم الوراثة من النساء، ولكن عندنا المسألة واضحة جداً، فمسؤولية السكنى والنفقة للمرأة على زوجها في الحالات العادية هذا الحكم توسعة فيها. فإن المرأة تقبل تقييدات العدة للزوج فيجب أن يوفر لها وقت مناسب لتقضي فيها لمستقبلها فهذا لا يمت بصلة إلى توزيع الوراثة، وقال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾⁽²⁾.

آداب الاختلاط بين الرجل والمرأة:

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ * فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى

(1) رواه أبو داود، رقم: ٢٣٠٤

(2) سورة البقرة، الآية: ٢٤٠.

يُؤَذِّنْ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ * قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنْ اللَّهُ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَى إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ^(١).

فهذه آداب الاختلاط بين الرجال والنساء التي قد ذكرها الله تعالى في كتابه لصيانة الاجتماع البشري من المفسدات الأخلاقية ولإبقاء طهارة القلوب وصفائها في العلاقات بينهما، وقد جاءت في سورة النور بتبنيه أن هذه الطريقة لدخول بيوت بعضكم بعضاً وللاختلاط بينكم هي أزكى لكم وأطهر، بشرط أن تكونوا راعين لها على معرفة وبصيرة، وحذر أن الرب تعالى هو خير بما تعملون وبصير بذات الصدور. وهذه الآداب كما يأتي:

١. إذا كانت هناك ضرورة لدخول بيوت أحدكم فلا يجوز الدخول معلناً وبدون إذن، بل يجب قبل الدخول الاستئناس أولاً من خلال التسليم على أهل البيت بالباب، وبذلك يستفهمه أهل البيت من هو وما هو قصده وهل يناسب دخوله في البيت أم لا فإذا ردوا السلام وأجازوا دخوله دخل فإن لم يكن هناك في البيت من يجيزه أو يكون موجوداً لكنه لم يقبل لقاءه في ذلك الوقت، رجع دون شعور يخرج في قلبه، وقد أوضحه النبي ﷺ بقوله: إذا استأذن المستأذن ثلاث مرات، فإن أذن له وإلا فليرجع ^(٢).

(١) سورة النور، الآيات: ٢٧ - ٣١.

(٢) رواه البخاري، رقم: ٦٢٤٥، ومسلم، رقم: ٥٦٣٣.

وجاء رجل فوقف على باب النبي ﷺ يستأذن فقام على الباب فقال له النبي ﷺ هكذا عنك هكذا، تنح يميناً أو شمالاً فإنما الاستئذان من النظر⁽¹⁾.

٢. وليس الاستئذان ضرورياً لازماً في مقامات حيث لا يسكنها الناس وقد استعمل القرآن لذلك تعبير "بيوتاً غير مسكونة" أى النزل، والفنادق ودور الضيوف والدكاكين والمكاتب ومجالس الرجال وما إليها، فاذا اقتضت الضرورة يدخلها المرء بدون إذن ولا يستلزمها الاستئذان.

٣. وفي كلا المقامين إذا تتواجد فيها النساء فعلى الرجال أن يغمضوا من أبصارهم وعلى النساء أن يغمضن من أبصارهن. وجاء في الأصل الفاظ «يغمضوا من أبصارهم» فإذا كان هناك حياء في الأنظار وتحرز الرجال والنساء من رؤية وتحديد في جمال بعضهم البعض والتحقق من الخطوط الوجهية من خلال الاستمتاع بحسن وجمال بعضهم البعض يتحقق الهدف من هذا الحكم، فليس المقصود عدم الرؤية أو غرض البصر كل وقت بل هو عدم ملء العين وأن لا تترك العين حرة تماماً للرؤية، وإذا لم يكن هناك حرس شديد على الأبصار فيكون كما قال النبي ﷺ: تزني العين وزناها النظر والأذن تزني وزناها الاستماع والفرج يصدق ذلك أو يكذبه⁽²⁾. فهذا هو النظر الذي قال فيه النبي ﷺ «اصرف بصرك فإنما لك الأولى وليس لك الثانية» كما جاء في حديث جرير بن عبد الله البجلي حين سأله عن نظر الفجأة⁽³⁾.

وعن عبد الله ابن عباس قال: كان الفضل بن عباس رديف رسول الله ﷺ فجاءت امرأة من خثعم، فجعل الفضل ينظر إليها وانظر إليه وجعل النبي ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخرة⁽⁴⁾.

(1) رواه البخاري، رقم: ٦٢٤١، ومسلم، رقم: ٥٦٣٨.

(2) رواه البخاري، رقم: ٦٢٤٣، ومسلم، رقم: ٦٧٥٤.

(3) رواه مسلم، رقم: ٥٦٤٤.

(4) رواه البخاري، رقم: ١٨٥٥، ومسلم رقم: ٣٢٥١.

٤. ويجب أن تحفظ العورات على مواقع الاختلاط بين الجنسين، والغرض منه أن لا يكون عندهن من ميلان الآخرين وأن لا تعرى عوراتهن لهم بل يجب صيانة وحفظ العورات باهتمام كبير على مواقع الاختلاط بين الرجال والنساء. وذلك من خلال ملابس محتشمة ساترة تمامًا للأعضاء الجنسية. ويجب الاحتياط الكبير عند اللقاءات أن تكشف العورات لأي من الجنسين، وهو المقصود القرآني هنا من حفظ الفروج، فهو يطلب أن يحسب له كل الحسبان مع غض البصر في الاجتماعية الإسلامية.

٥. ولا بد للنساء بخاصة أن لا يُكشف من زينتتهن إلا لمن سماهم القرآن من العلاقات القريبة جدًا ولا يبدن زينتتهن إلا ما ظهر منهما وهي الأيدي والأرجل وزينة الوجه والحلي وغيرها، وقد جاء في الآية لذاك ألفاظ «إلا ما ظهر منها» وقد فسرهما الزمخشري بقوله: «إلا ما جرت العادة والجبلّة على ظهوره والأصل فيه الظهور»^(١). وتفسيره صحيح برعاية البلاغة العربية، فهذه الأعضاء مكشوفة أصلاً ولا يخفيها الناس عادة وجبلّة، فعلاوة عليها يجب على النساء أن لا يبدن زينتتهن ولذا فليضربن بخمرهن على جيوبهن وحتى لا يضربن بأرجلهن ليُعلم ما يخفين من زينتتهن في حضرة الرجال ولذا قد منع النبي ﷺ النساء من الخروج في الطيب القوي^(٢).

والأعزاء والأقرباء الذين استثناهم القرآن من هذا الحظر للإظهار الزينة هم كالتالي:

١. الزوج (البعل)

ب. الوالد

ج. الآباء ويشمل الأجداد والأعمام، ولذا للمرأة أن تكشف زينتها لهؤلاء الكبار

(١) الكشف ٣ / ٢٣٦.

(٢) كما رواه أبو داود، رقم الحديث: ٤١٧٣.

من جهة الأب والجد ومن جهة الأم والكبار من العلاقات الجدية ومن جهة الأم لزوجها كما لها ذلك أمام أبيها وأبي زوجها.

د. الأبناء

ه. أبناء الأزواج

و. الإخوان

ز. أبناء الإخوة

ح. أبناء الأخوات

ويدخل في الأبناء الأحفاد وأبناء الأحفاد والأحفاد الأم وأبناؤهم حتى أنه لا فرق في ذلك بين الأشقاء وغير الأشقاء، وهو حكم الإخوان وأولاد الإخوة ولأخوات ويدخل فيها الأشقاء والريبب والإخوان من الرضاعة وأولادهم.

ط. التابعات من الخوادم والصديقات

ويتضح منه أن الأجنبيةات هنَّ أيضًا في حكم الرجال ويجب على المسلمات أن يكن حذرين في إظهار الزينة الخفية عليهن، لأنه ربما تثير المشاعر الجنسية لدى النساء وربما يسبب تأثر هي بجمالهن أن يكون وسيلة بجذب الرجال نحوهن وأن يجذبهن نحو الرجال.

ي. التابعون من الرجال والإماء، وكانوا متواجدين في ذلك الزمان ومن تعبير ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ الذي جاء هنا أراد بعض الفقهاء به الإماء فقط ولكن ليس هناك قرينة لذلك في ألفاظ القرآن، يقول الأستاذ الإمام:

«لو أريدت به الإماء لكان التعبير بـ «إماءهن» أصح وأوضح، ولم يستعمل له لفظة عامة تطلق على الفتيان والفتيات على السواء ثم قد جاء قبل ذلك «نساءهن» والذي كما مر يشمل كل النساء اللاتي لهن انتماء الخدمة والاختلاط» ولم يكن هناك حاجة بعد ذلك إلى ذكر الإماء على حدة⁽¹⁾.

(1) تدبر القرآن ٥ / ٣٩٨.

ك. والتابعون من الرجال غير أولي الإربة أي التابعون للأهل البيت الذي بسبب محكوميتهم أو بسبب آخر لا يرغبون إلى النساء.

ل. والأطفال الذين لم يبلغوا بعد فليسوا واقفين على أسرار ومقتضيات البلوغ.

وقال أولاً إنه ليس الاستئذان لازماً لما ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم في كل الأوقات، بل يكفي لهم أن يستأذنوا ثلاث مرات، من قبل صلاة الفجر وبعد الظهر وقت القيلولة وبعد صلاة العشاء، فهذه الثلاث هي أوقات الستر، فإن فاجأهم في هذه الأوقات أحد فيمكن أن ينظرهم في حالة غير مرضية، وعلاوة على هذه الأوقات الثلاث يمكن للأطفال غير البالغين والتابعين من الرجال أن يدخلوا على رجال البيت ونساء البيت في أماكن خلائهم وفي غرفاتهم بدون إذن منهم، لا قباحة فيه، ولكن إذا أرادوا الدخول عليهم في أماكن خلوتهم في هذه الأوقات فعليهم الاستئذان. ولكن لا تبقى هذه الرخصة للأطفال إذا بلغوا، فليس لهم الاستثناء للأبد بدليل أنهم طوافون في البيوت منذ طفولتهم، لا بل يجب عليهم أيضاً الاستئذان قبل الدخول وفقاً للقانون العام، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوَرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَفَاتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١).

وأرشد ثانياً أن القواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً ليس عليهن وجوب ضرب الخمر على الجيوب بشرط أن لا يتبرجن بزيتهن، فليس عليهم ستر الجيوب والصدور في عمر تموت فيه رغبات النساء الجنسية ولا تحدث

(١) سورة النور، الآيتان: ٥٨ و ٥٩.

رؤيتهن النزوة الجنسية عند الرجال أيضًا. فليس لهن جناح أن يضعن ثيابهن أمام الرجال ولكن الأحسن لهن أن لا يفعلوا ذلك عند الرجال، فقال تعالى:

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَغْفِرْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾⁽¹⁾.

وثانيًا قد أوضح أن الناس أنفسهم أو أعزاءهم المعاقين المحتاجين أو أصدقاءهم الذين يعيشون على بيوتهم فلا حرج عليهم أن يدخلوا بيوتهم ويلقونهم ويخالطونهم ويؤاكلونهم جميعًا أو أشتاتًا، فلا حرج أن يدخلوا بيوتهم، ولا أن يدخلوا بيوت آبائهم وبيوت أمهاتهم، وبيوت إخوانهم وأخواتهم وبيوت أعمامهم وعماتهم، وبيوت أخوالهم وخالاتهم، ولا حرج أن يدخلوا بيوت ما ملكت أيمانهم ولا بيوت أصدقائهم. ولكن إذا دخلوا فعليهم أن يسلموا على أهل بيوتهم تحية من عند الله مباركة طيبة.

فهذه هي آداب الاختلاط والالتقاء بين الناس ولم أريد بها الحظر على حريات الناس الاجتماعية، أو حرمان الناس المتعلقين بما يعتمدون عليه من عماد مادي ومعنوي وأخلاقي في المجتمع، فلهم أن يتعايشوا مع هذه العلاقات برعاية هذه الآداب إذا فقهوا وشعروا. وإن فهموا غير ذلك فقد أخطأوا الفهم فليس المقصود الحظر على شيء مما ذكر من العلاقات. وقال تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا إِذَا دَخَلْتُمْ

(1) سورة النور، الآية: ٦٠.

بُيُوتًا فَاسْلَمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ نَحْيَةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكََةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١﴾.

فهذه هي آداب الاختلاط في الحالات العادية، ولكن الأشرار في المدينة المنورة إذا بدأوا حملة اتهام المؤمنات المحصنات ومضايقتهن، فقد نصح الله تعالى أزواج النبي ﷺ وبناته ونساء المؤمنين أن يُدنين عليهن من جلابيبن حتى يُعرفن من النسوة الأخرى فلا يؤذين من خلال حملة التهم والظنون والشبهات.

وتفيد الروايات أنه إذا خرجت المسلمات المحصنات في ظلمة الليل أو في الصباح المبكر في الظلام السائد لرفع حاجتهن يتعرض لهن أشرار المدينة وأوباشها الخلعاء، فإن أُؤخذوا على ذلك قالوا على فورهم إننا رأيناهن أمةً لفلان وفلان وأردنا معرفة ذاك وذاك منهن (2). ولذا قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا * يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لِّاِزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدَّى أَنْ يُعْرِفَنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * لَّيْنٌ لَّمْ يَنْتِهَ الْمُتَنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا نَفْتِيلًا﴾ (3).

فألفاظ “فلا يؤذين” وسياقها وسباقها كل ذلك مما ينبئ عن أنه ليس حكمًا للستر والحجاب. بل كان تدبيرًا مؤقتًا لتحديد هويات المؤمنات، والذي قد تم اعتماده لحمايتهن من الأوباش والمفترين، كما قد نهى رسول الله ﷺ أيضًا نساء المؤمنين عن الخروج في السفر الطويل وعن زحام الرجال في الطرقات (4). ولذلك، إذا كانت المرأة المسلمة لا تزال تواجه مثل هذه الظروف

(1) سورة النور، الآية: ٦١.

(2) انظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٣/ ٥١٨ والزمخشري الكشاف ٣/ ٥٦٩.

(3) سورة الأحزاب، الآيات: ٥٨ – ٦١.

(4) (كما رواه البخاري، رقم: ١٠٨٦ ومسلم رقم: ٣٢٦٠ وأبو داود رقم: ٥٢٧٢).

في مكان ما فيجب عليها اتخاذ مثل هذه التدابير لتمييزها عن غيرها من النساء وحماية نفسها من خلال ذلك.

وقد جاءت بعض التعليمات بالنسبة لأزواج النبي ﷺ نظرًا إلى مكانته الرفيعة ومنصبه الرسالي العظيم في هذه السورة نفسها (الأحزاب). وتلك التعليمات لا تتصل بصلة إلى نساء المؤمنين ورجال المؤمنين عامة، ولكن بما أن البعض من أهل العلم يعممونها ولذا أصبح من الضروري اللزم أن نوضح هنا نوعيتها الصحيحة.

فإذا تدبرنا مطالب سورة الأحزاب علمنا أن أشرار ومنافقي المدينة المذكورين أعلاه عندما بدأوا يفكرون ليلاً نهارًا أن يخلقوا فضيحة عن أزواج النبي ﷺ حتى يظن عامة المؤمنين في ذلك ظنونًا، ويتم تدمير السمعة الأخلاقية للإسلام والمسلمين بالكامل، فقد قام الله سبحانه وتعالى بسد باب هذه الفتنة أنه قد خير أزواج النبي ﷺ أولًا أنهم إن أردن الحياة الدنيا وزينتها ﴿فَنَعَالَيْنَ أُمَتِّعَنَّ وَأُسَرِّحَنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ وإن أردن الله ورسوله والدار الآخرة فلهن أن يرمن إبرامًا قاطعًا للتعايش مع النبي ﷺ بشعور منهن، وليعلمن أنهم لسن كأحد من النساء، إنهن أمهات المؤمنين فمسؤولياتهن كبيرة إذن، فإن أطعن الله ورسوله فلهن أجر جزيل كما أن لهن عقوبة مضاعفة إن أتين بسوء. ولا شبهة في ذكاء باطنهن ولكن الله يريد أن يذهب عنكم الرجس يطهركم أهل البيت تطهيرًا، فبرعاية مقامهن الكبير يجب عليهن مراعاة بعض الأمور في عيشهن العادي،

أولًا: إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول، نعم ينبغي أن يتواضع المرء في الحالات العامة في الحديث مع الناس، ولكن في الحالات التي تمر بهن إن الأشرار والمنافقين يستغلون الفرصة من الخضوع والامتانة بالقول، ويشجعون فيما ينوون من الوسوسة وإلقاء الشبهات والإرجاف ولذا إذا كان من الضروري الحديث مع الناس كهؤلاء فيجب أن يكون بصراحة ووضوح أنهم إذا جاؤوا بأية بنية شريرة في قلوبهم فليعلموا جيدًا أنه لا توجد لهم فرصة للنجاح هنا. فقال الله تعالى:

﴿يَنْسَاءُ النَّبِيُّ لَسْتَنَ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ
الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (1).

وثانياً: أن يلبس في بيوتهن ولا يبرحن منها لصيانة الوقار والحشمة والمكانة الكبرى التي حصلت لهن، وإن خرجن لحاجة فلا يخرجن متبرجات بزينتهن كعوانس الجاهلية، هذا ما تتقاضاه من المسؤولية الدينية ومكانتهن الاجتماعية، وأن يقمن الصلاة ويؤتين الزكاة ويطعن الله ورسوله في كل أمر، وإذا خرجن لضرورة خرجن متمثلات تمثيلاً حسناً للحضارة الإسلامية بحيث لا يسع لمنافق ومريب أن يثير شبهة ولا موجة اعتراض، فقال:

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ
وَأَتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ
أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (2).

وثالثاً: يجب عليهن إبلاغ آيات الله ورسالاته التي تتلى في بيوتهن إلى من يتصل بهن، فإن هذا هو دعوتهن ومهمتهن التي تم انتخابهن من الله تعالى لذلك، فليكن مقصدهن التذكير والتعزيز لهذه الحكمة والمعرفة لا العيش الرغد في الحياة الدنيا، فقال:

﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (3).

ويعلم أن الأشرار لم ينبهوا بعد ولم ينتهوا من شرهم وبثهم الخبث، ولذا فقد جاء الله تعالى بتعليمات وترشيدات أكيدة في السورة نفسها ومنها:

لا يدخل مؤمن بيوت النبي ﷺ بغير إذن وإذا دعوا إلى مأدبة أكل فيجيئون

(1) سورة الأحزاب، الآية: ٣٢.

(2) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(3) سورة الأحزاب، الآية: ٣٤.

وقت الطعام وينصرفون منها فوراً على الفراغ من الأكل، لا يجلسون هناك يتحدثون فيما بينهم. وتكون الأزواج المطهرات في ستر من الناس وإذا سألهن أحد شيئاً يُسئل من وراء حجاب - وأزواج النبي هن أمهات المؤمنين، فليعلم المنافقون الذين يرغبون في الزواج منهن في قلوبهم أنه لا يجوز لأحد أن ينكح أزواج النبي بعده، فهذه حرمة أبدية وقداسة دينية، فليحترمها كل مؤمن ومسلم كما يحترم أمه، فهذا مما يؤذي النبي وإيذاء النبي ﷺ لم يكن أمراً هيناً بل هو عند الله أمر عظيم.

وهنا في الدنيا من الممكن أن يجد الإنسان عذراً فيما قاله من قول فاحش قادح ولكن لا يخفى ذلك على الله الخبير بذات الصدور، وقال الله تعالى مرشداً إلى كل ما ذكرناه من الأمور الثلاثة بتفصيل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا زُجُجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا * إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خُفُّوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا * لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَ فِي ءَابَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ بَاطِلُ الْكَافِرِينَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾⁽¹⁾.

البر بالوالدين

قال تعالى:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ

(1) سورة الأحزاب، الآيات: ٥٣ - ٥٥.

أَشْكُرُ لِي وَلَوْلَاكَ إِلَى الْمَصِيرِ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعِمَهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١﴾

وقد جاءت تعليمات البر بالوالدين والتعامل الحسن معهم في كل الصحائف الإلهامية والكتب الربانية، كما جاء ذلك في القرآن الكريم في أماكن عديدة مثلاً في سورة بني إسرائيل ٢٣ - ٢٤ وفي العنكبوت (١٨) وفي سورة الأحقاف (١٥) في ألفاظ متماثلة جداً، ويتلخص ذلك فيما يلي:

١ - بما أن الوالدين هما السبب لوجود إنسان والوسيلة لتربية الإنسان وتنشئته، نعم شفقة الأب أيضاً ليست بقليلة في تنميته ولكن ما تقوم به الأم من دور كبير، في حمله وولادته ورضاعه ومشقة كبيرة في هذه المراحل لا يستطيع أحد أن يؤدي حق ذلك، ولذا قد جعل النبي ﷺ حق الأم أكثر من الأب بدرجات ثلاثة^(٢).

ولذا فقد وصى الله تبارك وتعالى أن يشكر الإنسان لوالديه بعد الرب تعالى أكثر من كل شيء. ولا يأتي الشكر فقط من اللسان بل يتقاضاه ذلك أن يعامل معهما مع الاحترام الكبير، لا ينبس لهما بكلمة سوء ولا يدع أي حقد ينشأ في قلبه ضدهما، بل يستخدم أساليب الوداعة والمحبة والنبيل والسعادة معهما ويستمتع إليهما ويسليهما في أمراض وأسقام الشيخوخة، فقال تعالى في بني إسرائيل:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا فَيَعْزِمَا وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَأَخْفِضْ

(١) سورة لقمان، الآيتان: ١٤ و ١٥.

(٢) انظر البخاري رقم ٥٩٧١ ومسلم رقم ٦٥٠٠.

لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا * رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي
نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿١﴾.

٢- ومع أن الوالدين لهما هذه المكانة الكبيرة في الإسلام، فليس لهما حق أن يجبرا أولادهما على الإشراف بالله وليس لهما دليل وبرهان على ذلك. نعم قال رسول الله ﷺ أن عقوق الوالدين هو أكبر الكبائر بعد الشرك بالله^(٢)، ولكن الله تعالى أمر في مثل هذه الحالات أنه يجب على الأولاد أن يابوهما فيما أمرا من معصية الله ويتبعوا ما أمر الله به ورسوله على كل حال. فالأصل في ذلك هو مبدأ «لا طاعة في معصية الخالق إنما الطاعة في المعروف»^(٣).

٣- ومع أن الوالدين يصران على الإثم الكبير كالشرك بالله ولكن يجب تعاملهما بالحسنى حسب العادة والمعروف كما يتقاضاه حكم «وصاحبهما في الديننا معروفا» فيجب تلبية حاجتهما والدعاء لهما أن يوفقا للهداية، فعلاوة على أمور الشريعة والدين لا ينبغي للأولاد أن يتساهلوا في خدمتهما، وقال في آخر الآية: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وهكذا قد نبه الله تعالى الوالدين والأولاد كليهما أن المرجع الأخير للمسؤولية على الأعمال إليه.

يقول الأستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاحي في تفسيره:

«فهذا الخطاب متوجه إلى الوالدين والأولاد كليهما، وفيه تنبيه وتحذير وطمأنة أيضاً. ويعني ذلك أن كلاً منكم سوف يرجع إلي وهنالك سوف أضع أمام كل أحد ما قد عمله في الدنيا. فإذا كان الوالدان قد سعيًا لتحريف أولادهما مني باستغلال الحقوق التي كنت قد أعطيتهما فسوف يريان نتيجة، وإذا كان

(١) سورة الإسراء، الآيات: ٢٣ - ٢٥.

(٢) كما جاء ذلك في البخاري رقم ٥٩٧٦ ومسلم رقم ٢٥٩.

(٣) رواه البخاري رقم ٧١٤٥ ومسلم رقم ٤٧٦٦.

الأولاد قد استقاموا على الحق واعترفوا بحقوقى كما اعترفوا بحقوق الوالدين، فسوف يحصلون على المكافأة الكاملة على عزيمتهم هذه»^(١).

اليتامى

﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ * وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِمَّنْ وَثَلَتْ وَرُبِعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذَقْتُمْ أَلَّا تَعُولُوا * وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَمَا فَكُّهُ هُنَا مَرِيئًا * وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا * وَابْنُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْعَفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا * لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا * وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُ ضَعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾^(٢).

وقد جاءت تعليمات للمعاملة الحسنة مع اليتامى بين الفينة والأخرى في القرآن الكريم. وفي هذه الآيات من سورة النساء هناك أحكام معينة بالنسبة لليتامى وهي تلخص كما يأتي:

١ - يجب على أولياء اليتامى أن يسلموا أموالهم إليهم ولا يأكلوها بأنفسهم، فإن أكل مال اليتيم ظلماً وعدواناً وكأنه ملئ البطن بالنار وكيف يتقون النار

(١) تدبر القرآن ٦ / ١٣٠.

(٢) سورة النساء، الآيات: ٢ - ١٠.

السقر مع حيازة هذه النار في بطونهم. فلا يجوز لشخص أن يستبدل أمواله الرديئة بأموال اليتيم الجيدة، ولا يُحدث له مواقع أكل مال اليتيم بتظاهر ضرورة ذلك باسم التسهيلات الإدارية، وإن كان لا بد منها فلتكن لإصلاح أموال اليتيم وتحسينها لا للإسراف والتبذير فيها.

٢ - أن حفظ أموال اليتامى وصيانة حقوقهم مسؤولية كبيرة جدًّا، وإن أشكل على الناس وصعب اهتمامها وكانوا يعتقدون أنه بانضمام أمهات اليتامى معهم تكون لهم سهولة كبيرة في تحمل هذه المسؤولية. فلهم أن يتزوجوا مع أمهاتهم إذا جاز ذلك مثنى وثلاث ورباع، إن أمكن لهم العدل والمعاملة السوية بين الأزواج. وإن خافوا أن لا يعدلوا بين النساء فلا يتزوجوا إلا واحدة حتى وإن كان الغرض غرضًا طيبًا وهو إصلاح مال اليتيم. ذلك أوفق طريق للقيام بالعدل والقسط. ثم يجب إيتاء مهورهن نحلةً أي بحسب العادة والعرف الطيب. وتثور هناك بعض التساؤلات بالنسبة لهذه الشرائط وقد أجاب القرآن عليها في الآيات ١٢٧-١٣٠ من سورة النساء وقد سبق أن أوضحناه في فصل «تعدد الزوجات» من قبل. ولا يعتذرون أن هذا النكاح بما أنه قد تم لصالح أولادهم فليس علينا مسؤولية أخرى الآن، نعم، لا حرج على الناس إذا تنازلن عن جزء من المهر من تلقاء أنفسهن أو يخفضن شيئًا آخر لهم فيمكن للناس أن يتمتعوا بهذا.

٣ - المال وسيلة لقيام المعيشة وبقاء الناس فلا ينبغي أن يُضاع، فإيتاء المال لليتامى ينبغي أن يتم حين يبلغوا رشدهم وقبل ذلك يجب أن يتربوا في حفظ وإشراف الأولياء، الذين يختبرونهم أنهم بلغوا الرشد وتحمل المسؤوليات والبصر في الأمور أم لا؟ فإن أنسوا منهم الرشد يُؤتون أموالهم، وفي أثناء ذلك يجب تلبية حاجاتهم برحابة صدر ويقال لهم قول معروف ولا يُسرف أموالهم على عجل حذرًا من أن يكبروا.

٤ - وإذا كان الولي غنيًّا فلا ينبغي له أن يأخذ شيئًا من مال اليتيم بتعويض حق

الخدمة وإن كان فقيرًا فله أخذه بالمعروف ويقول الأستاذ الإمام في توضيح ذلك:

«المراد بالمعروف هنا الاستمتاع بالمال في حدود المنفعة المعقولة من حيث طبيعة الالتزامات وحالة الممتلكات، والظروف المحلية ومستوى معيشة الولي المستفيد، لئلا يخطر ببال كل عاقل أنه قد جرت محاولة لهضم مال اليتيم بإسراف واستعجال خوفًا من أن يكبر اليتيم»⁽¹⁾.

٥ - وإذا حان الوقت لتسليم المال لهم فينبغي إسهاد أناس ثقات معتبرين حتى لا يكون هناك احتمال لسوء الظن ولأي خلاف ونزاع فيه، ودائمًا يتذكروا أن الله سيحاسب عليه يومًا. وهو السميع العليم لا يخفى عليه شيء.

٦ - نعم، سهام الوارثين للميت متعينة ولكن إذا حضر أولو القربى واليتامى والمساكين قسمة مال الميراث فبغض النظر عما إذا كان لديهم أي حق قانوني أم لا، يجب إعطاؤهم شيئًا ووداعهم بكلمة طيبة، وليتذكر كل شخص على مواقع كهذه أن يمكن أن يصبح أولاده أيضًا أيتامًا ويمكن أن يودعهم من الدنيا محتاجين إلى اهتمام الآخرين بمثل ذلك.

فصل في الرق

قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَبْنُونَ الْكُتُبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَابِتُهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ﴾⁽²⁾.

وقد ذكرت المكاتب من الأرقاء في هذه الآية من النور، وحين كان القرآن ينزل كان الرق سائدًا في العالم كله، وكان ضروريًا لازمًا للمعيشة والاجتماع مثلما لا يتصور الاقتصاد والمعيشة اليوم إلا مع الربا. ففي الأسواق كان هناك

(1) تدبر القرآن ٢/ ٢٥٥.

(2) سورة النور، الآية: ٣٣.

بيع وشراء للعبيد والأرقاء في كل مكان، وكان هناك إماء وأرقاء من كل عمر في بيوت الأثرياء وأهل الرفاهية، في مثل هذه الملابس إن نزل الحكم بإلغاء الرق من أساسه وتحرير جميع الإماء والأرقاء فوراً لم يبق لهم مجال للعيش إلا بطريق التسول للعبيد وطريق البغاء والدعارة للإماء. فمن أجل هذه المصلحة قد اتخذ القرآن في إلغاء العبودية طريق التدرّج فأول باتخاذ تدابير مرحلية ثم أنزل هذا الحكم المذكور في الآية. وقد استعمل القرآن لذلك لفظة «المكاتبة» وهو اصطلاح خاص ينبئ عن عقد عبد مع سيده أنه سوف يؤديه المبلغ الفلاني في مدة كذا وكذا أو يقوم له بخدمة معينة ثم يتحرر. فقد أمر الله المؤمنين في سورة النور أنه إذا أراد عبد أن يعقد هذا العقد ويتوخى تحريره بصلاح وخير، فليقبل منه ما يبتغيه إن علمتم فيه خيراً، كما أمر المسلمين أيضاً أن يساعدوه في هذا الأمر بالإنفاق عليه من بيت المال الذي سُمي هنا - بمال الله - وتدل ألفاظ الآية أن حق المكاتبة هذا حاصل للإماء كما هو للعبيد والأرقاء، فلهذا كان إعلاناً أن لوح القدر الآن في أيدي العبيد ويمكنهم أن يكتبوا عليه حريتهم متى شاؤوا.

وكان هذا هو الحكم الأخير فيما يتعلق بالرق. وكان هناك إرشادات وتعليمات جاءت من حين لآخر قبل ذلك، مما أمكن أن يُقضى على ذلك التقليد المشؤوم من المجتمع المسلم تدريجياً وهي كالتالي:

١ - قد جعل القرآن في بداية الأمر دعوته لتحرير الرقاب عملية صالحة كبيرة، ورجب الناس إليها بأسلوب مؤثر بليغ، فقد استخدم لذلك مصطلح «فك رقبة» وكل من له ذوق سليم يقدر تأثيره هذا المصطلح بسهولة كبيرة، فحيثما جاءت هذه الألفاظ في القرآن الكريم ينبئ السياق عن أنه خطوة أولى كبيرة في حصول السعادة والحسنة في نظر القرآن^(١)، وقال النبي ﷺ: من فك رقبة فك الله بكل عضو منها عضواً من النار^(٢).

(١) انظر البلد: ١٣.

(٢) رواه البخاري رقم ٢٥١٧ ومسلم رقم ٣٧٩٥.

٢ - ولَقِّنَ الناس أَنهم ما لم يعتقوا رقابهم وعبيدهم فينبغي أَن يسلكوا معهم سلوكًا طيبًا حسنًا. وكان لأرباب وأسياد الأرقاء والعبيد سلطات واختيارات لانهائية على الرق فقد ذهب الإسلام بها وأثبت أَن الرق والعبيد أيضًا إنسان ولهم حقوق إنسانية لا يجوز إخلالها والاعتداء عليها.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: الكسوة والطعام من حق العبيد وأن لا يكلفوا من العمل ما لا يطيقون^(١) وعن أبي ذر الغفاري قال قال النبي ﷺ: هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فأطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم^(٢) وعن ابن عمر قال سمعت رسول الله ﷺ: من ضرب عبده أو لطمه فكفارته أن يعتق رقبته^(٣) وفي صحيح مسلم عن أبي مسعود البصري الأنصاري قال: كنت أضرب غلامًا لي بسوط فسمعت صوتًا من خلفي اعلم أبا مسعود، فلم أفهم الصوت من الغضب قال: فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ يقول: أعلم أبا مسعود اعلم أبا مسعود قال: فألقيت السوط من يدي فقال: اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام، قال فقلت لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا^(٤). وفي رواية قلت يا رسول الله هو حر لله تعالى: فقال النبي ﷺ إن لم تفعله عذبت بالنار» وعن ابن عمر جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وسأله كم مرة نغفو عن الغلام؟ فسكت فسأله ثانيًا فسكت فسأله ثالثًا فقال: سبعين مرة في يوم^(٥).

٣ - كما جعل تحرير الرقبة كفارةً لبعض الذنوب مثلًا قتل الخطأ والظهار وما إلى ذلك كما جعله صدقةً أيضًا^(٦).

(١) روى مفهومه مسلم رقم الحديث: ٢٣١٦.

(٢) رواه البخاري رقم ٦٠٥٠ ومسلم رقم ٤٣١٥، ٤٣١٣.

(٣) رواه مسلم رقم ٤٢٩٨.

(٤) رواه مسلم رقم الحديث: ٤٣٠٨.

(٥) رواه أبو داود رقم ٥١٦٤ والترمذي رقم ١٩٤٩.

(٦) (انظر لذلك: النساء: ٩٢ والمجادلة ٣ والمائدة: ٨٩).

٤ - وقد أوصى بإنكاح وتزويج صالحى الإمام والعبيد حتى يتسنى لهم الفرصة أن يتكافؤوا ويتساووا آخرين أخلاقياً واجتماعياً^(١).

٥ - وفي نكاح الإمام اللاتي يكن في ملك الآخرين، كان هناك خطر للمصادمة والمقابلة في حقوق الملكية والنكاح، ولذا وجب الحذر في ذلك، ولكن أجاز للناس أن ينكحوا مما ملكت أيماهم من الفتيات المؤمنات بإذن المالكين وأن يؤتى لهن مهورهن بالمعروف حتى يتساوين بالحررات المحصنات تدريجياً فقال:

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَمَنِتُّكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفُوحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢).

٦ - وقد تم وضع مد مستقل في مصارف الزكاة لـ «في الرقاب» لكي تتقوى هذه المهمة لتحرير الإمام والعبيد من أموال بيت مال المسلمين^(٣).

٧ - وجعل الزنا جريمة كبيرة، وبنتيجة ذلك فإن كافة مراكز البغاء قد أغلقت تلقائياً. ومن حاول لإبقاء واستمرار هذه العملية الخبيثة في خفاء نُكل به نكالا عظيماً صار عبرة^(٤).

٨ - وقد أرشد الناس أن كلهم عباد الله فلا ينبغي استعمال لفظة «الأمة والعبد»

(١) انظر لذلك النور: ٣٢ - ٣٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٥.

(٣) انظر التوبة: ٦٠.

(٤) أنظر للاستزادة في تفاصيل ذلك باب الحدود من الكتاب نفسه.

للعبيد والإماء، بل يجب أن يخطبوا بلفظ الفتى والفتاة حتى تتغير النفسية فيهم وتبديل النظريات والتصورات التي قد أقيمت فيهم منذ قرون⁽¹⁾.

٩ - وكان المصدر الرئيسي للعبيد في ذلك الزمان هو أسرى الحرب، وعندما سنحت الفرصة للمسلمين للتعبيد بطريق الحرب قد أوضح القرآن أنهم لن يظلوا كعبيد بل كأسرى، وأن يكون للمسلمين بعد ذلك خياران فقط لا ثالث لهما، تحريرهم إما فداءً وإما مناً ولا تجوز للمسلمين صورة سواهما فيهم⁽²⁾.

(1) راجع مسلم رقم الحديث ٥٨٧٥ - ٥٨٧٧.

(2) انظر محمد: ٤ وراجع للاستزاد في ذلك باب قانون الجهاد في هذا الكتاب نفسه.

قانون السياسة في الإسلام

إن الله تعالى قد فطر الإنسان على فطرة يطلب كنتيجة لازمة لها ثقافة ومدنية، ثم يضطرعاجلاً أم آجلاً إلى أن يخلق له نظاماً جماعياً ليحفظ مدنيته وثقافته من تداعيات سوء استعمال إرادته واختياره. فإن السياسة والحكومة في التاريخ الإنساني هي وليدة من هذه الأمنية البشرية والاضطرار الإنساني. والإنسان ما دام إنساناً لا يسعه أن ينجو منه إن شاء وأراد. ولذا يتقاضاه عقله أن يحاول محاولة حثيثة لتزكية نظمه الجماعي أكثر فأكثر، بدلاً من أن يحلم أن يعيش يوماً بدون مدنية وبغير أي اجتماع.

ويعلم علماء الكتب السماوية أن هناك منطقتين في العالم خصهما الله تعالى لنفسه: إحداهما فلسطين، والأخرى جزيرة العرب. وقد تم تخصيصهما لله حتى تقوم الأمم التي اختارها الله لشهادة الدين على مستوى عالمي بإنشاء مراكز التوحيد في هذه المناطق من الأرض. وقد أنشئت هذه المراكز على شكل مسجدين في مكة وبيت المقدس يُطلق عليهما «البيت الحرام» و«الهيكل السليماني». ومن أجل حماية هذه المراكز وإيصال دعوة الدين من خلالها إلى العالم أجمع، فقد تقرر أن أتباع أية ديانة أخرى لن يستقروا بشكل دائم في هذه

المناطق. وكانت النتيجة الحتمية لذلك هي حكومة تلك الأمم والأقوام التي تم اختيارها لهذا الغرض.

لقد ظلت إدارة هذه الحكومة في يد الرب تعالى بنفسه مرات عديدة في التاريخ. وآخر مرة حدثت فيها هذه الحادثة كانت في عهد الرسالة النبوية. لذلك، فهذه هي المناسبة التي نزل فيها قانون السياسة لحكومة الله هذه في القرآن الكريم، وقد شرح خاتم أنبياء الله بعض جوانبه، وهذا قانون إرشادي لتحسين النظام الجماعي. أما بالنسبة للمسلمين فقد أصبحت قواعد الشريعة في هذا الباب مستمدة منه فقط. ونفصلها فيما يأتي:

الأسس البنيوية

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (1).

وقد جاء هذا الأمر لحكومة الله المباشرة التي كان يرأسها رسول الله ﷺ، وكان قادتها وأولو الأمر فيها الموظفين الذين يعينهم رسوله، ولكن من الواضح أن مقام الله تبارك وتعالى ومكانة الرسول ﷺ واللذان وصفتا فيه خالدتان. ولذلك، حتى في الأمور التي أمرا بها إلى الأبد، فإن زعماء المسلمين، سواء كانوا رؤساء دول أو أعضاء في البرلمان، ليس لهم الحق في اتخاذ أي قرار من عند أنفسهم إلى يوم القيامة. ولا يمكن طاعة أوامر أولي الأمر إلا بعد هذه الطاعة وتحتها نيابة عن الله ورسوله، وليس لهم منزلة قبل هذه الطاعة، ولا بعد التحرر منها. ولذلك لا يجوز للمسلمين أن يضعوا في حكومتهم أي قانون يخالف أمر الله والرسول أو يتجاهل فيه عن توجيهات وإرشادات من الله ورسوله.

ولكن تحت هذه الطاعة لله والرسول، هناك بعض أركان ولوازم طاعة أولي الأمر، التي أوضحها رسول الله ﷺ في أحاديثه.

(1) سورة النساء، الآية: ٥٩.

أولاً: يجب على المسلمين الالتزام الكامل بالنظام القائم تحتهم. وقد عبّر النبي ﷺ هذه الآية بـ «الجماعة والسلطان»، وأوجب على كل مسلم ألا يفصل عنها بأي حال من الأحوال، وحتى فإنه جعل الخروج عنه كالخروج عن الإسلام وقال إن مسلماً إذا مات منفصلاً عنه مات ميتة جاهلية. فقد قال:

من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه، فإنه من فارق من الجماعة شبراً فمات إلا مات ميتة جاهلية⁽¹⁾.

وجاء في رواية أخرى بلفظ:

من كره من أميره شيئاً فليصبر، فإنه من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية⁽²⁾.

وحتى في وقت الاضطرابات السياسية وأعمال الشغب، فإن تعليمات الرسول هي أنه لا ينبغي للمسلم أن يشارك في أي عمل ضد النظام الجماعي فحسب، بل يجب أن يظل مخلصاً له. وما رواه عنه الإمام مسلم أمره لحذيفة ؓ بلفظ «الزم جماعة المسلمين وإمامهم»⁽³⁾، يدل على نفس المضمون الديني الذي يتعلق بالدولة.

ثانياً: أن يلتزموا بالقانون بدلاً من تجنب الأمر والهروب منه، فعليهم أن يستمعوا إليه ويطيعوا له بكل الاهتمام. ولا ينبغي أن يؤدي أي خلاف ولا كراهية ولا عصبية ولا أي تردد عقلي إلى الانحراف عن القانون، إلا أن يوضع القانون في معصية الله. فقال النبي ﷺ:

(1) رواه البخاري، رقم ٧٠٥٤.

(2) رواه البخاري، رقم ٧٠٥٣.

(3) البخاري رقم ٣٦٠٦ ومسلم رقم ٤٧٨٤.

عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة علينا⁽¹⁾.

وقال في رواية أخرى: على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة⁽²⁾. وجاء عنه أيضًا: «اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة»⁽³⁾.

ومن الواضح أن هذا الأمر بالطاعة لأولي الأمر هو لحكام المسلمين فقط. وهذا ما يعلم من سياق الآية التي نحن نبحت عنها من سورة النساء. ولذلك فقد أوضح النبي ﷺ أيضًا أن هذا الأمر بالطاعة لا ينطبق عليهم بعد أن عصوا الله ورسوله. فروي عن عبادة بن الصامت قال:

دعانا النبي ﷺ فبايعناه، فقال: فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثره علينا وأن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفرًا بواحد، عندكم من الله فيه برهان»⁽⁴⁾.

وقال أيضًا: إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع، قالوا: يا رسول الله، ألا نقاتلهم؟ قال: «لا، ما صلوا»⁽⁵⁾.

وقال: شرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم، قيل: يا رسول الله، أفلا نناذبهم بالسيف؟ فقال: «لا، ما أقاموا فيكم الصلاة»⁽⁶⁾.

ولكن حتى بعد الوصول إلى هذا الحد، لا يحق للإنسان أن يخرج على

(1) مسلم، رقم ٤٧٥٤.

(2) مسلم، رقم ٤٧٦٣.

(3) رواه البخاري، رقم ٧١٤٢.

(4) رواه البخاري، رقم ٧٠٥٦.

(5) مسلم، رقم ٤٨٠١.

(6) مسلم، رقم ٤٨٠٤.

الحكام حتى تؤيده الأغلبية الواضحة من المسلمين، وذلك لأن هذه الثورة لا تكون ضد الحكومة في تلك الصورة بل سيعتبر خروجاً على المسلمين. وهو الفساد في الأرض في الشريعة الإسلامية وعقوبته الموت في القرآن⁽¹⁾. قال النبي ﷺ:

«من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد، يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه»⁽²⁾.

ومن ثم يجب أن يكون واضحاً أيضاً أنه إذا كانت هذه الثورة ثورة مسلحة، فإنه ستفرض عليه جميع الشروط التي نصت عليها الشريعة الإسلامية للجهاد والقتال. ولذلك فلا يجوز لمسلم أن يقوم بأي عمل من هذا القبيل ضد حكامه دون الوفاء بهذه الشروط كلها.

المسؤولية الأصلية

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾⁽³⁾.

وفي سورة النساء، حيث تم بيان المبدأ الأساسي المتمثل في طاعة الله والرسول وأولي الأمر، والذي شرحناه في المذكور أعلاه، توضح هذه الآية أولاً حقيقة قيام الحكومة على أساس هذا المبدأ. ومسؤوليتها الأساسية هي أن تعهد أمانات الأمة إلى الناس على أساس الجدارة، وأن تسعى جاهداً إلى إقامة العدل والإنصاف في كل مجال من مجالات الحياة وفي شكله النهائي. يقول الأستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاح في تفسير هذه الآية تحت عنوان: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ﴾:

(1) المائدة، ٣٣.

(2) مسلم، رقم ٦٧٩٨.

(3) سورة النساء، الآية: ٥٨.

«إنه أيضًا وصف لأهم جوانب الثقة وأيضًا شرح للمسؤولية المرتبطة بالسلطة. لمن سلط الله عليه في أرضه، ولهذا السبب فإن المسؤولية الكبرى تقع على أولياء الأمور عند الله هي أن يقوموا بتسوية الخلافات بين الناس بالعدل والإنصاف، والعدل يعني أنه لا فرق في نظر القانون بين الغني والفقير، والنبيل والبائس، والأسود والأبيض. العدالة لا تباع ولا تشتري. ولا يتطرق إليه أي تحيز ولا عصبية ولا تهاون، ولا ينبغي أن يحصل فيه أحد على فرصة للتأثير عليه ولا لنفوذ ولا خوف ولا جشع.

فكما أن أجر الحاكم العادل عظيم جدًا، فكذلك عقاب الظالم أيضًا شديد جدًا.

ولهذا السبب تم التحذير من أن هذه نصيحة عظيمة جدًا يقدمها لكم الله تعالى، فلا تهملوها. وأشار في النهاية إلى صفاته من السمع والبصيرة، التي تذكركم أن الله يسمع ويرى كل شيء، ولا يخفى عليه ظلم خفي.

وعندما زحف أصحاب النبي إلى مملكتي الروم وإيران، فكانت هذه هي الحقيقة التي أوضحها أحدهم بكلماته: جئنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»

ولهذا أصر رسول الله ﷺ على ألا يؤلى الولاية من حرص عليها، لأنه لا يتوقع منه القضاء العادل في الأمور. فقال:

إنا، والله، لا نولي على هذا العمل أحدًا سأل ولا أحدًا حرص عليه⁽¹⁾.

كما نصح الصحابة بأن يتقوا الله في هذا الأمر ولا يطلبوا الإمارة. فقال لأحدهم:

لا تسأل الإمارة، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها⁽²⁾.

(1) مسلم، رقم ٦٧١٧.

(2) رواه البخاري، رقم ٦٦٢٢.

ولذلك يشهد التاريخ أنه في سبيل إقامة هذه العدالة، كان الخلفاء الراشدون دائماً يفتحون أبوابهم أمام المستغيثين والمعترضين، وكانوا يعيشون حياة فقيرة، حتى أنهم كانوا يلبسون الملابس المرقعة، ويجلسون على المسوح عرشاً وهم عاشوا في جماهيرهم مثلهم وعلى معاييرهم إلى أن صرخت الأرض والسماء:

إن سلطنة أصحاب القلوب هي الفقر وليست الملك

الواجبات الدينية

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(١).

تصف هذه الآية من سورة الحج الواجبات الدينية المفروضة على أمراء المسلمين بعد وصولهم إلى عرش السلطة في منطقة ما، وهي إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالخير والشر، وقد فرضت هذه الأمور الأربعة على المسلمين في مكانتهم الجماعية في هذه الآية.

ومن أجل إقامة الصلاة على مستوى الحكومة وامتناعاً لهذا الأمر القرآني الذي ثبت بسنة أقامها رسول الله ﷺ، فموجبه يجب أولياء أمور المسلمين:

١. أن يهتموا بإقامة الصلاة بأنفسهم ويجعلون خدمهم من يولون الأمور من العمال أن يقوموا بها.

٢. وسيؤم هؤلاء أرباب الحل والعقد من المسلمين أو المسؤولين المعيّنين عنهم صلاة الجمعة وصلاة العيدين كما يقومون بإلقاء خطب الجمعة والعيدين أيضاً.

وكذلك قررت السنة بشأن الزكاة أنها الضريبة الوحيدة التي يجوز فرضها

(١) سورة الحج، الآية: ٤١.

على المسلمين، ولذلك فإن كل مواطن مسلم في الدولة تفرض عليه الزكاة عليه أن يخرجها من رأس ماله ومواشيه وإنتاجه الحصّة المعينة زكاةً وتسليمه للحكومة، وستحاول الحكومة تلبية احتياجات مواطنيها المحتاجين من خلال الوصول إلى أبوابهم، قبل صرخاتهم الإغاثية، إلى جانب النفقات الأخرى.

من أجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أمر الله تعالى بتعيين بعض الأشخاص بانتظام من قبل الحكومة لهذا العمل. كما جاء في آل عمران:

﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١).

والعقوبات المقررة شرعاً لجرائم معينة هي فرع من حكم الآية نفسها ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٢).

ومن الواضح أن هذه المسؤولية سيتم الوفاء بها في بعض الحالات من خلال الدعاية وفي بعض الحالات من خلال سلطات القانون. وفي الحالة الأولى، هناك منبر الجمعة، وهو مخصص لأهل الحل والعقد لغرض الدعوة والنصح والتلقين، ومن ناحية أخرى، هناك قسم الشرطة الذي تم إنشاؤه للقيام بهذه المسؤولية في ظل الحكومة الإسلامية، وهو ينشط باستمرار في القيام بهذا العمل ضمن الحدود المقررة له.

حقوق المسلمين

١ - ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخِذُوا مِنْهُمْ فِي الدِّينِ﴾^(٣).

٢ - ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾^(٤).

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

(٢) انظر باب قانون الدعوة من الكتاب نفسه.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١١.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٥.

وقد جاءت هاتان الآيتان في نفس السياق في سورة التوبة. فقد قال القرآن أنه ينبغي أن يعلن في مناسبة الحج أن من أوفوا بهذه الشروط الثلاثة من مشركي العرب هم إخوانكم في الدين، وأمر الله لكم أن تخلوا سبيلهم بعد ذلك:

أولاً: أن يتوبوا من الكفر والشرك ويقبلوا الإسلام.

ثانياً: أن يقوموا بنظم الصلاة شهادةً لإيمانهم وإسلامهم.

ثالثاً: أن يدفعوا الزكاة لخزينة الحكومة (بيت المال) لتشغيل النظام الحكومي.

وقد قال رسول الله ﷺ في تفسير هذا الحكم للقرآن:

أمرت أن أقاتل الناس⁽¹⁾ حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلوة ويؤتوا الزكاة. فإذا فعلوه عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها⁽²⁾ وحسابهم على الله⁽³⁾.

وهذا الحكم كان لمشركي العرب، ولكن من الظاهر أن الذين أقيمت عليهم الحجة الكاملة مباشرة برسول الله ﷺ، ولم يُطلب منهم أكثر من ذلك في حكم الله والرسول المباشر، فكيف يطلب ذلك من المتأخرين بالدرجة الأولى. ولذلك فإن المبادئ الأساسية المتعلقة بحقوق المسلمين، والتي تحددها هذه الآيات القرآنية، هي كما يأتي:

أولاً: أولئك الذين يستوفون هذه الشروط الثلاثة، بغض النظر عن مكانتهم في نظر الله، فسيتم اعتبارهم مسلمين من حيث القانون والسياسة،

(1) ولا يجوز لأحد أن يسيء الفهم بذكر «الحرب» في هذا الحديث. وجاء ذلك فقط ببساطة لأن الأمر في ذلك الوقت كان مع مشركي العرب الذين قد بين القرآن أنهم بعد انتهاء الحجة عليهم من قبل رسول الله ﷺ كان عليهم أن يختاروا إما الإسلام وإما السيف فلا بد أنهم فاعلون ذلك.

(2) أي مثلاً يقتلون شخصاً وفي المقابل يُقتلون أو يؤخذ منهم الدية.

(3) مسلم: رقم ١٢٩.

وسيحصلون على جميع الحقوق التي يجب أن يتمتع بها المسلم من حيث المواطن لدولة المسلمين في حكومتهم.

ثانيًا: سواء كانوا مسلمين عاديين أو حكام سلطة، بعد استيفاء هذه الشروط، فإن علاقتهم المتبادلة هي بالضرورة علاقة أخوة، فهم إخوة لبعضهم البعض، وبالتالي متساوون تمامًا من حيث الحقوق القانونية. ولا مجال في الإسلام لأي اختلاف بينهما. وقد استخدم القرآن عبارة «فإخوانكم في الدين» لهذا المطلب.

أي أنهم سيصبحون إخوانكم في الدين. وواضح من كلمة «الدين» أن المراد هنا هو الإسلام، ومن خلال لفظ «فإخوانكم» قد خوطب أصحاب رسول الله ﷺ وأمروا أنه بعد الوفاء بهذه الشروط الثلاثة سوف تكونون أنتم وهؤلاء المهتدون الجدد على وضع متساوٍ ولن يكون هناك فرق بين حقوقهم القانونية وحقوقكم.

ثالثًا: بعد قيام علاقة الأخوة هذه، فإن جميع المسؤوليات التي تقع على عاتق الأخ تجاه أخيه بحكم العقل والطبيعة، تقع تلقائيًا على عاتق جميع المسلمين، سواء كانوا من الشعب أو من النخب الحاكمة له.

رابعًا: مهما كانت مطالب الإسلام من أتباعه من حيث المسؤولية في الآخرة، فإن المطالب التي يمكن أن يطلبها منهم حكام المسلمين ما هي إلا هذه المطالب الثلاثة التي حققها الله تعالى في هذه الآيات. ولا مجال فيها للنقص ولا للإفراط. وقد وضع عليها رب العالمين خاتمه. ولهذا السبب، لا يمكن لأي قانون، ولا لنظام، ولا لحكومة، ولا لمجلس، ولا لبرلمان أن يقوم بأي نوع من الاعتداء على حياة المسلمين وأموالهم وسمعتهم وعقولهم بعد استيفاء هذه الشروط إلى يوم القيامة.

ومن هنا فإن سيدنا أبا بكر الصديق ؓ أول خليفة للمسلمين بعد النبي ﷺ

عندما أمر باتخاذ إجراءات ضد مانعي الزكاة أوضح هذه الحقيقة على النحو التالي:

قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾. والله، لا أسئل فوقهن ولا أقصر دونهن⁽¹⁾.

ويتضح من ذلك أن أولياء أمور المسلمين يمكنهم منعهم من ارتكاب الجريمة ومعاقبتهم، وأما الواجبات ومقتضيات الدين الإيجابية، فإن أي شيء آخر غير الصلاة والزكاة لا يمكن تنفيذه بالقانون. فلا يجوز لهم مثلاً أن يأمرهم بالصيام. وحتى لو علم عن شخص منهم أنه قادر ومستطيع للحج فلا يجوز إجباره على الحج مع ذلك. ولا يمكنهم تطبيق أي قانون للتجنيد الإجباري للجهاد والقتال. وباختصار فإن دائرة إختيارهم وسلطتهم في ما يتعلق بالجرائم واسعة للغاية، ولكن في كل الأمور غير الصلاة والزكاة من أوامر الشريعة، فليس لهم هناك سوى التشجيع والوعظ والوعظ والتعليم الذي يمكنهم من خلاله النضال من أجل إصلاح المسلمين. وفي جميع هذه الأمور ليس في إختيارهم إلا ذلك.

وقد قال رسول الله ﷺ في خطبة حج الوداع على هذا الأساس:

إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا⁽²⁾.

ومن الواضح أن هذه الحرمة والقداسة هي لعامة الناس أيضاً كما هي للحكام. ولذلك، باستثناء الزكاة التي حددها الله تعالى في مختلف الممتلكات بوساطة رُسله، لا يمكنهم أن يفرضوا أي نوع من الضرائب على المسلمين دون رضاهم، وليس لهم أن يأخذوا حتى حفنة من القمح أو فلساً أو حبة واحدة من ممتلكاتهم في أي مد إجبارياً:

(1) أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ٨٢.

(2) رواه البخاري، رقم ٤٧.

نظام الحكومة في الإسلام

﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾⁽¹⁾.

إن نظام الحكم في الدولة الإسلامية الذي سبق ذكره في ما مر من التشريع الإلهي مبني على مبدأ «وأمرهم شورى بينهم» وقد نزل أمره قبل أن قامت الحكومة الإلهية في جزيرة العرب، والمعنى الشامل الذي تتضمنه هذه الآية القصيرة، والإرشاد الذي نحصل عليه منها حول المشروع السياسي الذي يتصوره الإسلام مفصّل فيما يلي:

الكلمة الأولى التي جاءت في الآية السابقة (أمر) تشتمل على معانٍ مختلفة في اللغة العربية، ومن يملك إدراكاً لغوياً يعلم أنّ معنى هذه الكلمات يحدّده السياق الذي استُخدمت فيه، وقد استخدمها القرآن استخداماً يشمل كلّ تلك المعاني، وكان السياق يحدّد معناها الضمني في كل مثال، ويتّضح من سياق آية الشورى وموضعها أنها تعني النظام هنا. وقد كان هذا المعنى جزءاً من المعنى العميق لكلمة (أمر). وعندما أصبحت كلمة (أمر) متعلّقة بالناس، حدّدت مجموعة من القوانين والحدود لنفسها، وتعني في هذه الحالة الأوامر التي تصدرها السلطة السياسية إضافة إلى الشؤون الاجتماعية:

وإذا فكّرنا قليلاً نجد أن كلمة (system) الإنكليزية تُستخدم في المعنى نفسه، وبما أن القرآن لم يحدّدها بأيّ صفة أخرى باستثناء إضافتها إلى ضمير، فإنّ هذه الدلالة تنطبق على جميع الأنظمة الفرعية التي هي جزء من النظام السياسي. والواقع أن كلّ شؤون الدولة المحليّة الإداريّة والوطنية والإقليمية والتوجهات الاجتماعية والسياسية وقواعد التشريع والتفويض، وإلغاء السلطات، وعزل وتعيين الموظفين. وتفسير الدين الإسلامي المتعلق بشؤون الحياة الاجتماعية جميعها تندرج تحت هذا المبدأ الذي تحدّده تلك الآية،

(1) سورة الشورى، الآية: ٣٨.

وبمعنى آخر لا يمكن لأي بقعة جغرافية تحت الحكم الإسلامي أن تنحرف عن السلطة القضائية لذلك المبدأ.

وتأتي كلمة (شورى) بعد ذلك، وهي صيغة مصدرية تعني (الاستشارة). ولأنها جاءت في صيغة خبرية في الآية المذكورة، فإن معناها يختلف عن معنى الآية التي تقول ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾⁽¹⁾: التي يُستشهد بها أحياناً كنظير لها، ويجب أن تكون الألفاظ على غرار الألفاظ التالية: (وفي الأمر هم يشاورون) لتحمل معنى الآية ذاته، وسيكون من الضروري في هذه الحالة التمييز بين الحاكم والمحكوم في المجتمع بأسره، وهنا يقوم الإمام بتعيين الحاكم أو ترشيحه بتفويض إلهي، أو يكون الحاكم قد وصل إلى السلطة بالقوة، ومهما كانت الوسيلة التي وصل بها الحاكم إلى السلطة فسيكون ملزماً أن يشاور شعبه في أمور المصلحة الوطنية قبل أن يكون رأياً خاصاً به لن يكون ملزماً بقبول رأي الأغلبية لأن القبول أو الرفض عائد إليه، وله الحق كله في قبول رأي الأقلية، ورفض رأي الأغلبية. وإن أسلوب الآية: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ يقتضي أن يُعين رئيس الدولة بالتشاور، وما أبرم بالتشاور يُلغى أيضاً بالتشاور، ولكل مواطن رأي في شؤون الدولة والنظام، وعندما لا يقع الإجماع على أمر ما يُؤخذ برأي الأغلبية.

يمكن إدراك الاختلاف في معنى الآيتين، إذا ذكرنا المثال الآتي: (تحدد ملكية هذا المنزل بعد مشاورة الأخوة العشر) الذي يعني أن الأخوة العشر وحدهم هم من يملكون سلطة اتخاذ القرار، ولا يطغى رأي واحد منهم على البقية، وإذا لم يتفقوا جميعاً على هذه المسألة فإن رأي الأغلبية هو الحاسم، ولكن إذا عدلت الجملة السابقة إلى: (ينبغي مشاورة الأخوة العشر في تحديد ملكية المنزل)، فهذا يعني أن الكلام النهائي يعود إلى شخص آخر، ورأيه هو الذي سينفذ في نهاية المطاف، والشيء الذي ينبغي عليه فعله هو استشارة الأخوة

(1) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

العشر قبل أن يكون رأيه الخاص، ولا يمكن إجباره على قبول رأي الأغلبية من الأخوة.

أما أن النظام الجماعي للمسلمين مبني على مبدأ «أمرهم شورى بينهم» في رأينا نحن، فإن انتخاب الحاكم، وانتخاب ممثليهم ينبغي أن يقع بالتشاور، ولا يحقّ لهم بعد تولّي منصب السلطة مخالفة الإجماع أو رأي أغلبية المسلمين في سائر الشؤون الاجتماعية، وقد قال الشيخ أبو الأعلى المودودي في هذه الآية ما يلي:

إن ألفاظ ﴿وَأْمُرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ والأسلوب الذي انتظمت فيه تقتضي بطبيعتها ونطاقها خمسة أشياء هي:

١ - منح الناس الذين ترتبط مصالحهم وحقوقهم بالشؤون الاجتماعية الحرية في التعبير عن رأيهم، ويجب أن يكونوا مدرّكين إدراكاً تاماً للطريقة العملية التي تُدار بها شؤونهم، ولهم حقّ الاعتراض والنقد عند ارتكاب خطأ في إدارة شؤونهم، أو عزل أصحاب السلطة إذا لم تُصحّح هذه الأخطاء، وليس من الصدق والأمانة كم أفواههم بالقوّة، أو إدارة شؤونهم دون منحهم الثقة، لأن هذا لا يتفق مع مضمون الآية ويمكن للجميع أن يلاحظ ذلك.

٢ - ينبغي اختيار الشخص المؤتمن على إدارة شؤون الناس الاجتماعية بقبول حرّ مطلق، لأن القبول الذي يقع بواسطة الإكراه أو التخويف أو الجشع أو إشباع الرغبات أو الخداع أو الاحتيال لا يُعدّ قبولاً بالمطلق، فالحاكم ليس هو مَنْ ينتزع المنصب بغض النظر عن الوسيلة، بل هو من يختاره الناس بحرية ودون أي إكراه.

٣ - ينبغي أن يتمنّع الأفراد الذين اختيروا للشورى بثقة الأغلبية، وبذلك فإن أولئك الجديرين بالشورى لا يمكنهم نيل ثقة الناس إذا حصلوا على هذا المنصب بالقوة، أو الابتزاز، أو الاحتيال، أو تضليل الناس.

٤ - يجب أن يعبر الناس الذين يُستشارون عن رأيهم بما يتفق مع علمهم

وإيمانهم وضميرهم، ولهم الحرية المطلقة في ذلك. فإذا أُجبروا على التعبير عن رأيهم بالقوة. والتطميع، والخوف والانحياز بما يخالف إيمانهم وضميرهم، فإن ذلك خيانه وإنكار لمبدأ الشورى.

٥- يجب التسليم بالقرار الذي اتُخذ بالإجماع، أو برأي أغلبية مجلس الشورى، أو الذي يفوضه الناس، فإذا أصرَّ واحدٌ، أو مجموعة على رأيٍ ما، فإن الشورى تفقد معناها، لأنَّ الله لم يقل: يُستشارون في شؤونهم، بل قال: أمرهم شورى بينهم.

فاستشارة الناس فقط لا تفي بهذا التوجيه، لذلك من الضروري النظر إلى رأي الأغلبية على أنه حاسم في إدارة شؤونهم^(١).

وكان النبي ﷺ قد أعلن قبل وفاته أن خلفاءه هم من قريش حصراً وليس من الأنصار: «إنَّ هذا الأمرَ في قُريش لا يعاديهم أحدٌ إلاَّ كَبَّهَ اللَّهُ في النَّارِ على وجهه ما أقاموا الدِّينَ»^(٢).

ولذلك قال للأنصار^(٣) «قدموا قريشاً ولا تقدّموها». وقد أوضح النبي ﷺ سبب اتخاذ هذا القرار، فقال: «النَّاسُ تبعٌ لقُريشٍ في هذا الشَّانِ، مسلّمهم لمسلّمهم، وكافرهم لكافرهم»^(٤) وبما أن معظم المسلمين العرب قد أظهروا ثقتهم في قريش حسب رؤية النبي ﷺ، فقد كان القرشيون وحدهم مخولين بتولي قيادة جزيرة العرب في ضوء الحكم القرآني: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾، وهم لم يتسلّموا السلطة بعد النبي بسبب تفوّقهم العرقي، بل بسبب جدارتهم بهذا الموقف.

(١) أبو الأعلى المودودي، تفهيم القرآن، الطبعة الثالثة، المجلد ٤، لاهور: إدارة ترجمان القرآن، ١٩٨٤.

(٢) البخاري، الجامع الصحيح، المجلد السادس، ٢٦١١، (رقم ٦٧٢٠).

(٣) ابن حجر العسقلاني، التلخيص الكبير في تخريج أحاديث الراعي الكبير، المجلد الثاني (بيروت: دار الكتب العلميّة ١٩٨٩) ٩٦.

(٤) مسلم الجامع الصحيح، المجلد الثالث، ١٤٥١، (رقم ١٨١٨).

الباب الرابع:

قانون الاقتصاد

إن قانون تزكية الاقتصاد الذي أعطاه الله تعالى للبشرية من خلال وساطة خاتم الأنبياء يقوم على مبدأ أن الله تعالى خلق هذا العالم للاختبار. ولهذا السبب، أسس نظامه بحيث يولد جميع الناس هنا محتاجين إلى بعضهم البعض. في هذا العالم، حتى الشخصيات العليا يحتاجون إلى اللجوء إلى الآخرين لتلبية احتياجاتهم، كما أنه قد يلجأ لذلك إلى الأشخاص من أدنى المستويات لإكمال هذه الاحتياجات. فكل شخص له دور هنا ولا يمكن لأحد أن يعيش دون الحاجة إلى الآخرين.

لقد وضع رب العالم فرقًا كبيرًا في الذكاء والقدرة والذوق والميل والوسائل والموارد لكل شخص هنا. فالمجتمع الذي يأتي إلى حيز الوجود نتيجة هذا الاختلاف، إذا ولد فيه أولئك العلماء والحكماء الذين تنور الدنيا بعلمهم؛ ويولد الكتاب الذين يمنح قلمهم حياة أبدية للعلاقات بين الكلمات والمعاني، ويولد الباحثون الذين يشيد العصر بأبحاثهم المبتكرة، ويولد القادة الذين تخلق استراتيجياتهم وسياساتهم مفاهيم الحياة الجماعية؛ ويولد أولئك المصلحون الذين تكتسب البشرية بجهدهم وعيها، ويولد الحكام الذين يغير تصميمهم واستقلالهم مجرى التاريخ في جانب، فيولد أيضًا من ناحية أخرى،

أولئك الأجراء والعمال والدهاقين والفلاحون والخدام والحراث الذين يصنع عملهم المعجزات، والطين ينتج الذهب، والمواقد تنتج عملاً لطيفاً ممتعاً للبطن، وتتألاً المنازل كالفضة، وتبدو الطرق متشوقة للوقوف على أقدام الماشين، والمباني تحمل أخبار السماء: والقذارات تلف الذيل صباحاً. يقول الله في القرآن الكريم:

﴿نَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتُ رَيْكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (1).

ومن خلال خلق العالم بهذا الاختلاف والتباين في المراتب يرى رب العالمين أن هؤلاء الناس من الطبقات العليا والسفلى، هل يصنعون مجتمعاً صالحاً وحضارة جيدة، بالاحترام المتبادل والتعاون المشترك، أو يعيشون في الأرض فساداً عن طريق الأذى والشر والحقاقت ضد بعضهم البعض. وينشغلون بمحاولة جعل الدنيا فوضى كاملة، فيكونون عاراً على الدنيا ويستحقون عقابه وعذابه في الآخرة أيضاً. فقال تعالى:

﴿وَتَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (2).

وهذا هو امتحان الإنسان الذي هداه الله تعالى من خلال أنبيائه وشرع له قانوناً تطهيرياً في العملية الاقتصادية حتى ينجح في اختباره. وملخص هذا القانون هو كما يلي:

١. إن أكل أموال الناس بالباطل حرام قطعاً. والربا والقمار من الجرائم المرتبطة بالأكل بالباطل. وعلاوة على ذلك ينبغي أن يوضع نفس المبدأ في الاعتبار عند تقرير الجواز أو عدم الجواز في جميع المسائل الاقتصادية الأخرى.

(1) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.

(2) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.

٢. وجميع الممتلكات التي لا يملكها فرد أو لا يمكن له أن تبقى في ملكيته، يجب أن تكون في ملكية الدولة حتى لا تنتقل ثروات الأمة هذه بين الأغنياء فقط، ولكي يستفيد منها من يحتاج إلى مساعدة الآخرين لتلبية احتياجاته وكذلك يمكن أيضًا الوفاء ببعض المسؤوليات الأخرى المتعلقة بالنظام الجماعي باستخدام هذه الثروات.

٣. ولا بد من اهتمام الكتابة والشهادة في المعاملات والقروض والوصايا وغيرها من الأمور المالية. لأن اللامبالاة بهذا تؤدي أحيانًا إلى فساد أخلاقي كبير.

٤. ويجب توزيع مال كل مسلم على ورثته بعد وفاته على النحو التالي:
إذا كان على الميت دين فيجب سداؤه أولاً من إرثه. ثم إذا أوصى يجب تنفيذ وصيته. وبعد ذلك سيتم تقسيم الميراث.

لا يجوز أن تكون الوصية للوارث إلا إذا كانت ظروفه أو أي من خدماته أو احتياجاته تتطلب ذلك في حالة معينة. وكذلك لا يجوز أن يكون الإنسان وارثًا لمتوفى لم يترك معه أصلًا للقرابة بشيء من أقواله وأفعاله.

وبعد نصيب الوالدين والزوجة أو الزوج، فإن ورثة التركة هم أبناء المتوفى. وإذا لم يترك المتوفى ابنًا وكان في أولاده بنتان أو أكثر، فيعطى لهن ثلثا الميراث من التركة المتبقية. وإذا لم يكن لها إلا فتاة واحدة فلها النصف. وإذا لم يكن بين أولاد المتوفى سوى الأبناء، فسيتم توزيع جميع هذه الممتلكات بينهم. وإذا كان له أبناء وبناات، فيكون حظ الذكر مثل حظ الأنثيين، وفي هذه الحالة أيضًا يقسم المال كله بينهم.

وإذا لم يكن للميت أولاد، وكان هناك إخوة وأخوات له فهم ينوبون أولاده. ويرثونه بعد إخراج حصص الوالدين والزوج والزوجة إذا كانوا موجودين، أما بالنسبة للإناث والذكور ونصيبهم وتوزيعهم فيما بينهم، فطريقة الميراث هي نفسها كما هو موضح أعلاه بالنسبة للأبناء.

وإذا كان للميت أولاد أو لم يكن له أولاد، و كان له إخوة وأخوات، فلكل من الأبوين السدس من التركة. وإن لم يكن له إخوة وأخوات وكان الورثة هم الأبوين فقط، فإن ثلث الميراث للأُم والثلثين للأب.

وإذا كان الميت ذكراً وله أولاد، فلزوجته ثمن التركة. (فإن لم يكن لها ولد) فلها ربع التركة. وإذا كانت المتوفاة امرأة وليس لها أولاد، فإن نصف الميراث لزوجها، وإذا كان لها أولاد، فيحصل الزوج على ربع الميراث.

وفي حالة عدم وجود هؤلاء الورثة، يمكن للمتوفى، إذا رغب في ذلك، أن يجعل شخصاً ما وريثاً له في التركة. فإذا كان هذا المورث قريباً وله أخ أو أخت فله السدس، وإذا كان الأخ أو الأخت أكثر من واحد فيعطى لهم الثلث وبعد إعطائهم ذلن يعطى له ٥ / ٦ الباقي أو الثلثين من التركة. وسنشرح هذا القانون هنا.

أكل المال بالباطل

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونُ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾^(١).

وفي هذه الآية النهي عن أكل أموال الناس بما يخالف العدل والإنصاف والمعروف والأمانة والحق. وأساس جميع المحظورات المتعلقة بالمسائل الاقتصادية في الإسلام هو هذا الحكم لله تعالى، ويندرج تحته الرزائل بما فيها الرشوة والسرقة والاعتصاب والتضليل والتعاون على الإثم والاختلاس والخيانة وأخذ ممتلكات الآخرين عن طريق تجنب الدعاية المناسبة لللُقطة وما إليها. ولا داعي للحديث التفصيلي في هذه الأمور، فإن كونها معصية معروفة في كل معروفات الدنيا وفي كل دين وشريعة. أما الأمور التي تسبب ضرراً للغير، أي الخسارة أو الخداع فهي فرع منها أيضاً. والأشكال التي نهى عنها النبي ﷺ في عصره هي:

(١) سورة النساء، الآية: ٢٩.

بيع الأشياء قبل قبضها⁽¹⁾.

شراء الحبوب عن طريق الأكوام، وبيعها قبل قبضتها وإحضارها إلى مسكنه⁽²⁾.

بيع وشراء الحضري للقروي⁽³⁾.

المزايدة هي أن يزايد شخص على شخص لمجرد الغش⁽⁴⁾.

محاولة عقد صفقته الخاصة على صفقة شخص آخر⁽⁵⁾.

المحاولة تعني أن يبيع الإنسان مزرعته في السنابل⁽⁶⁾.

المزابقة: أي بيع ثمر النخلة وهو على النخلة بتمر ساقط من الشجرة⁽⁷⁾.

المعاومة: وهي تعني بيع ثمار الأشجار لعدة سنوات⁽⁸⁾.

الثنيا: وهي أن يكون هناك استثناء مجهول في البيع، كأن يقول بائع الحبوب مثلاً: لقد بعت لك هذه الحبوب، ولكنني سأخذ منها قليلاً⁽⁹⁾.

«الملاسة» أي أن كل واحد يمس ثوب الآخر دون تفكير فيثبت بيعه⁽¹⁰⁾.

والمنازرة هي أن يرمي كل واحد من الطرفين شيئاً مما له تجاه الآخر، وبهذه الطريقة يثبت بيعهما⁽¹¹⁾.

(1) البخاري، الرقم ٢١٣٢. مسلم الرقم ٣٨٣٩.

(2) البخاري، الرقم ٢١٢٤. مسلم الرقم ٣٨٤١.

(3) البخاري، الرقم ٢١٦١. مسلم، الرقم ٣٤٥٩.

(4) البخاري، الرقم ٢١٤٢. مسلم الرقم ٣٨١٨.

(5) البخاري، الرقم ٢١٦١. مسلم، الرقم ٣٤٥٩.

(6) البخاري، الأرقام: ٢١٧٢، ٢١٧٣، ٢١٨٤، ٢١٨٦.

(7) البخاري، الأرقام: ٢١٧٢، ٢١٧٣، ٢١٨٤، ٢١٨٦.

(8) مسلم، الرقم: ٣٩١٣.

(9) مسلم، الرقم: ٣٩١٣.

(10) البخاري، رقم الحديث: ٥٨٤. مسلم الرقم ٣٨٠١.

(11) البخاري، الرقم ٢١٤٤. مسلم الرقم ٣٨٠٦.

وبيع الحبل إلى الحبل، أي يتم بيع الإبل بحيث يكون ما ولدته الإبل ثم إذا حملت تلك الوليدة وولدت يتم بيعه⁽¹⁾.

وبيع الحَصاة أي بيع الحصى، وكان يُمارس فيه عادة على صورتين: إحداهما: أن أهل الجاهلية يفصلون أولاً في صفقة الأرض، ثم يرمونها بالحصى، وبقدر ما يذهب إليه الحصى من مساحة الأرض ويسلمونها للبائع كميع، والثانية: أنهم كانوا يرمون الجمار ويقولون: ما وقع عليه الجمرة فهو المبيع⁽²⁾.

بيع ثمار الأشجار، قبل أن تتضح إمكاناتها⁽³⁾.

بيع السنابل قبل أن تبيض وتأمين من البلاء⁽⁴⁾.

ومن باع لأخيه شيئاً فيه عيب إلا أن يبين له⁽⁵⁾.

حفظ حليب الإبل أو الماعز في ضروعها قبل بيعها. وهي بيع المصرة⁽⁶⁾.

التعرف على التجار ومحاولة شراء بضائعهم قبل وصولها إلى السوق⁽⁷⁾.

بيع شيء بثمان مقدم بحيث يؤخذ الشيء عندما يصبح جاهزاً، إلا إذا تم التعامل بكيل معلوم ووزن معلوم وإلى أجل معلوم⁽⁸⁾.

والمخابرة، أي: اتخاذ تلك الأشكال من الزرع التي يتحدد فيها ربح صاحب الزرع على كل حال⁽⁹⁾.

(1) البخاري، الرقم ٢١٤٣. مسلم الرقم ٣٨١٠.

(2) مسلم الرقم ٣٨٠٨.

(3) البخاري، الرقم ١٤٨٦. مسلم الرقم ٣٨٦٥.

(4) البخاري، الرقم ١٤٨٦. مسلم الرقم ٣٨٦٤.

(5) ابن ماجه، الرقم: ٢٢٤٦.

(6) البخاري، الرقم ٢١٤٨. مسلم الرقم ٣٨١٥.

(7) البخاري، الرقم ٢١٦٥. مسلم الرقم ٣٨١٩.

(8) البخاري، الرقم ٢٢٤٠. مسلم، الرقم: ٤١١٨.

(9) البخاري، الرقم ٢٣٨١. مسلم الرقم ٣٩١١.

إعطاء الأرض للزراعة بطريقة تجعل إنتاج جزء معين من الأرض من حق مالك الأرض⁽¹⁾.

بيع العقارات التي لم يتم تقسيمها بعد، دون إتاحة الفرصة للشركاء في شرائها، إلا إذا ثبتت الحدود وفصلت الطرق⁽²⁾.

فهذه صور البيع والشراء والمزارعة وغيرها مما نهى عنها النبي ﷺ. وينبغي أن يتبين هنا أنه إذا كان سبب النهي الضرر والغرر اللذان تقوم عليهما هذه الصور، إذا زالا في وقت ما بسبب تغير الشرائط والأحوال، فإن تحريمها قد ينتهي، وبفسط الطرقة فإذا ثبت هذا السبب في قضية اقتصادية طارئة لتطور الحضارة، فلن تبقى إباحتها أيضاً.

كما يدخل الربا والمقامرة في نفس أكل الأموال بالباطل. وسنبين وجهة نظر القرآن فيهما بشيء من التفصيل فيما يأتي:

القمار

يعلم الجميع أن المقامرة هي اختبار خالص للحظ. لقد عبّر به القرآن الكريم بـ«رجس من عمل الشيطان» وهذا التفسير بالنسبة له واضح أنه اعتمد على أساس الفساد الأخلاقي الذي يخلق القمار في شخصية الرجل المقامر وتدرجياً يغطي كيانه كله، والسبب في ذلك أنه إذا كانت العملية الاقتصادية تقوم على التجارة والخدمة والمعونة، فكما تقوى داعيات الأخلاق الرفيعة في الإنسان وبواعث الخير فيه، كذلك إذا كانت على أساس الصدفة والحظ دون كل هذه الأشياء فبنتيجة ذلك ينشأ في الإنسان موقف تجنب العمل الجاد والجهد والكد والخدمة والتضحية بالنفس.

وإن ظلال الجبن وقلة الشجاعة وغيرها من الرذائل الأخلاقية تغشى

(1) البخاري، الرقم ٢٣٢٧.

(2) البخاري، الرقم ٢٢٥٧. مسلم، الرقم: ٤١٢٧.

على شجرة الشخصية الإنسانية الطيبة وتدمر تدريجياً كل شعور بالعفة والشرف والعزة والولاء والحياء والوفاء والغيرة والشهامة، حتى أن الإنسان يغفل عن ذكر الله وعن الصلاة، ويخلق في نفسه مشاعر الكراهية والعداوة وبدلاً من الأخوة والمحبة مع الآخرين، فقد قال الله تعالى في سورة المائدة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ ﴿١﴾.

ومن الحقائق المثيرة للاهتمام حول هذه المقامرة أنها كانت في المجتمع العربي قبل الإسلام وسيلة لإظهار الكرم من جانب الأغنياء ووسيلة لمساعدة الفقراء. وكان من التقاليد السائدة بين رؤسائهم الشجعان أنه عندما يأتي فصل الشتاء، تهب رياح باردة من الشمال وتحدث حالة تشبه المجاعة في البلاد، وكانوا يجتمعون في أماكن مختلفة، ويسكبون كؤوس النبيذ والخمر ويستمتعون ويمسكون في عالم الكيف والسرور إبل شخص ما أو ناقته فيذبونها. فيعطون صاحبه ما سأل، ثم يقامرون بلحمها.

وفي مثل هذه المناسبات كان الفقراء والمساكين يجتمعون مقدماً، وكان كل واحد من هؤلاء المقامرير يرمي قدر ما يربح من اللحم إلى الفقراء، ومن كانوا يعتقدون مثل هذه من مجالس اللهو يعتبرون كرماء وأجواد في العرب الجاهلي، وكان الشعراء يسردون قصص كرمهم وجودهم وسخائهم في أشعارهم. وعلى العكس من ذلك، فإن الذين ظلوا بعيدين عن هذه الأحداث كانوا يطلق عليهم اسم «برم» أي البخيل باللغة العربية.

وكانت هذه الفائدة من القمار والخمر هي التي جعلت الناس يترددون عندما حرمت، ولكن القرآن أوضح أنها مهما تكن الفائدة منها فإنها ليست في محلها، بل الفساد الأخلاقي الذي ينشأ عنها في شخصية الإنسان هو أكبر منها

(1) سورة المائدة، الآيتان: ٩٠ و٩١.

بكثير فنظرًا إلى هذا لا يمكن اعتبار هذه الأمور أمورًا مبررة جائزة تحت أي ظرف من الظروف. فقد قال:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا آكَبُرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾⁽¹⁾.

الربا

والربا أيضًا نجاسة أخلاقية يطلب فيها الربح على القرض مع أن القرض هو عمل خير وعملية تبرع لا يُتصور فيها كسب الربح كبيع وشراء. وفي اللغة العربية، تستخدم لها كلمة «الربو». وقد استخدم القرآن لها نفس الكلمة. ومن يعرف اللغة العربية يعرف أنها الزيادة التي يأخذها الدائن من مدينه لمجرد أنه سمح له باستخدام ماله لمدة معينة. لقد حرم القرآن الكريم ذلك منعًا باتًا. ولذلك جاء في سورة البقرة:

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾⁽²⁾. وأضاف الله سبحانه قائلًا في السورة نفسها:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾⁽³⁾.

في هذه الآيات يوضح القرآن سبب قيام المرابين كالمجانين يوم القيامة، حيث يتعجبون من أن الله أحل البيع والشراء وحرم الربا، وليس هناك فرق بينهما.

(1) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

(2) سورة البقرة، الآية: ٢٧٥.

(3) سورة البقرة، الآيتان: ٢٧٨ و ٢٧٩.

عندما يجوز للرجل التاجر من تحقيق ربح في رأسماله، فإذا كان الرأسمالي يطالب بربح من رأسماله، فكيف يمكن اعتباره مجرمًا؟ إن هذا الكلام في القرآن هراء ومن الجنون بحيث إن القائلين به ينبغي أن يُعْثوا يوم القيامة كالمجانين تحت قانون التشابه في العقوبة والعمل.

فيقول الإمام أمين أحسن الإصلاحي، وهو يعلق على هذا التعبير عن استغراب المرابين، في تفسير هذه الآيات:

«ومن هذا الاعتراض تبين بكل وضوح أن جيل المجانين الذين يقاسون البيع بالربا ليس جديدًا في العالم، بل قديم جدًا. ولم يعط القرآن هذا التخمين أي وزن ولا جدارة بالاهتمام. والسبب في ذلك أنه دليل على الكذب والاضطراب النفسي للمنافق.

فإن الرجل التاجر يستثمر رأس ماله في تجارة سلعة يطلبها الناس. ومن خلال الكد والكدح والمخاطرة، فهو يجعل هذه الثروة في متناول أولئك الذين لم يكن من السهل عليهم الحصول عليها بجهودهم الخاصة في البداية، وإذا كان بإمكانهم الحصول عليها بتكلفة أعلى بكثير مما كانوا سيحصلون عليه لولا ذلك التاجر الذي قدم لهم بئس قليل. ثم يعرض الرجل التاجر رأس ماله وبضائعه للمنافسة في السوق المفتوحة ويحدد معدل الربح لها تقلب السوق،

وقد يتعرض للإفلاس التام بسبب هذه التقلبات وقد يحقق بعض الأرباح. وكذلك يدهم مقيدتان في هذا الأمر، فإنه إذا باع سلعة قيمتها روية واحدة بروبيتين أو بفلس أو أربع فلوس، فإنه لا يستطيع أن يربح ولو بفلس واحد من تلك الروبية، إلى وقت حتى لا تدخل الروبية في الميدان بعد أن مرت بكل المخاطر والصعود والهبوط وحتى لا تخلق امتيازات واستحقاقات لنفسها من خلال خدمة المجتمع.

فاذكروا ما هي المقارنة بين رأس المال الغيور والمتحمس والخادم للرجل التاجر ورأس المال القاسي والجبان والمخزي والمعادي للإنسانية

للمرابي الذي ليس مستعداً لتحمل حتى مخاطرة واحدة، بل يطالب لتوزيع الأرباح له⁽¹⁾.

ورغم أن القرآن الكريم قد حرّم تناول الربا فقط، إلا أن النتيجة الضرورية لهذا النهي هي أن من أطعمه بدون عذر يجب إدانته أيضاً على مبدأ التعاون على الإثم فقد روي عن وهب بن عبد الله

«أن النبي ﷺ لعن أكل الربا ومؤكله.

والكلام في لفظ «المؤكل». إنه يصدق لغوياً على مؤدي الربا وعلى عمالة إدارة الربا سواء، الذين يبحثون عن المشتريين المستقرضين ويجرونهم إلى الإدارة. ثم تعمل هذه العمالة على أخذ الربا من المستقرضين على أجل مسمى ثم تؤدي أموال الربا الحاصلة إلى إدارة الربا. ووجود هذه العمالة لازمة إذا صارت أمور الإقراض الربوي إلى شكل عملية تجارية كبيرة مؤسسية فلا تسير مؤسسة الإقراض الربوي بدونهم. فإن كان المراد في الحديث هؤلاء فلا إشكال عليه لأن عملهم هو تعاون صريح على الإثم والعدوان.

وهذا هو حكم العملاء والوكلاء الذين يعدون الموائيق والمستندات الربوية وتشهد لها. كما أن العمالة والموظفين في النظام البنكي الحاضر يقومون بهذه الخدمات، ولكن لا يقال أن مؤدي الربا هم مرتكبون للتعاون على الإثم بأي وجه من الوجوه. فإن هذا التعبير ينبغي للعمل الذي يأتيه مرتكب الإثم والمساهم في ثمرات الإثم. لأن المستقرض بالربا لا يستقرض آكلي الربا لتعاونه على الإثم. إنه يستقرضه من أجل حاجياته التجارية أو لضروراته الشخصية. فإن كان هذا هو التعاون على الإثم فما يزداد إلا أن يكون على نحو ما يقوم به العلماء والصلحاء بادخار مبالغ إداراتهم ومعاهدتهم في البنوك المصرفية. نعم إذا كان الربو ممنوعاً عنه على الصعيد الحكومي ويغلق كل نوع من الأعمال الربوية، إذن يكونون هؤلاء مرتكبين لإخلاف التشريعات الحكومية. فإن أراد الحديث هؤلاء

(1) تدبر القرآن ١ / ٦٣٢.

فيكون حكمه متعلقًا بمناسبة بحيث أصبح كل الأعمال الربوية مغلقة في العهد الرسالي بهذا الطريق نفسه.

وكما أمر النبي ﷺ باجتنب جميع مظان الربا والشبهات بها في حالة الاقتراض في صورة تبادل السلع. فقال:

الذهب بالذهب وزنًا بوزن مثلاً بمثل، والفضة بالفضة وزنًا بوزن مثلاً بمثل، فمن زاد واستزاد فهو ربًا⁽¹⁾. وقال أيضًا:

الورق بالذهب ربًا إلا هاء وهاء⁽²⁾ والبر بالبر ربًا إلا هاء وهاء، والشعير بالشعير ربًا إلا هاء وهاء⁽³⁾ والتمر بالتمر ربًا إلا هاء وهاء⁽⁴⁾.

والمعنى الصحيح لهذه الأحاديث هو ما أوضحناه في ترجمتنا أعلاه. وهذا ما قاله رسول الله ﷺ. ولو كانت الروايات قد بقيت على صيغة واحدة لم يخطئ الناس في فهم مدلولها ذلك، لكن في بعض طرقها الأخرى قد أدى سوء فهم الرواة إلى أن أدخلوا معنى «هاء وهاء» من الرواية الثانية في الرواية الأولى، وإلى إدراج كلمة «الذهب بالذهب» من الرواية الأولى مكان «الورق بالذهب» في الحديث الثاني، وهكذا فقد خلطوا بينهما خلطًا أن أصبح حكمه الآن لغزًا غير قابل للحل بالنسبة للناس.

وفي فقهنها قد نشأت مشكلة «ربا الفضل» من جراء هذا الخلط، وإلا فالواقع كما بينه رسول الله ﷺ في قوله. «إنما الربوا في النسيئة»⁽⁵⁾ و⁽⁶⁾.

(1) رواه مسلم، رقم ٤٠٦٨.

(2) وهذا هو حكم طبيعته طبيعة سد للذريعة، وقد نهى الناس عن ذلك خوفًا بما أنه قرض فلا بد من نقصانه أو زيادته أكيدًا لاختلاف الجنس.

(3) وبما أن هذه الجملة قد عطفت إلى «الورق بالذهب» الذي اختلاف الجنس فيه واضح جدًا، ولهذا السبب فإن معنى «البر» الأول في «البر بالبر» يجب أن يكون الآن نوعًا آخر من القمح حسب قاعدة العربية.

(4) رواه مسلم، رقم ٤٠٥٩.

(5) رواه مسلم رقم الحديث: ٤٠٩١ — ٤٠٨٩.

(6) أي الربا فقط في حالات الاقتراض.

كما ينبغي أن يكون واضحًا هنا أن الربا لا يتعلق إلا بتلك الأشياء التي كان استعمالها بصفتها يؤدي إلى إتلافها، وبالتالي يتحمل المدين مشقة إنتاجها ثانيًا وإعادتها إلى صاحبها. ولا شك أنه إذا طلب عليها أي إضافة فهو ظلم من وجهتي العقل والنقل كليهما، ولكن على عكس من ذلك فإن تلك الأشياء التي يتم الحفاظ على وجودها الأصلي في استخدامها، وبعد استخدامها يتم إعادتها إلى مالكيها في حالتها الأصلية على أي حال كانت هي. ويكون التعويض مقابل استخدامها إيجابًا، ومن الواضح أنه لا يمكن إثارة أي اعتراض على ذلك.

وكذلك ينبغي أن يكون واضحًا أنه سواء تم منح القرض لشخص فقير ومعوز أو لمشروع تجاري أو خيري، فإن ذلك ليس له أي تأثير في تحديد حقيقة الربا. ومن المؤكد قطعًا أن الربا في اللغة العربية يُطلق على مجرد الزيادة في مبلغ القرض، بغض النظر عن غرض المقرض وطبيعة المدين ووضعه. ولذلك فقد أوضح القرآن الكريم نفسه أن هذه القروض الربوية كانت في زمن نزوله تُعطى في الغالب للتجار ورجال الأعمال لتزيد وتربو إذا أُضيفت إلى ثرواتهم فقد قال:

﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبَا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾^(١).

فانظر فيه إن تعبير «ليربوا في أموال الناس» ليس فقط لا يصلح للقروض الممنوحة المصرفية لمرة واحدة للفقراء بأي حال من الأحوال بل ينص بوضوح على أن القروض الربوية في تلك الأيام كانت تُمنح عمومًا لأغراض تجارية، وبالتالي، وفقًا لتعبير القرآن الكريم، كأنها كانت تزدهر في أموال الآخرين. وهذا واضح أيضًا من هذه الآية من سورة البقرة: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٢).

(١) سورة الروم، الآية: ٣٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٠.

يقول الإمام أمين أحسن الإصلاح في تفسيره:

«في هذا الزمان يدعي بعض الأقل علمًا ونظرًا أن الربا الذي كان سائدًا في شبه الجزيرة العربية قبل نزول القرآن كان مجرد صرفي شخصي، فكان الفقراء والمعوزون يضطرون إلى الاقتراض من المحترفين بالربا للحصول على حاجاتهم وضرورات الحياة التي لا غنى عنها، وكان هؤلاء المحترفون بالربا يحصلون ربا غليظًا ثقیلاً من المظلومين، وقد قرر القرآن ذلك ربا وحرمة تحریمًا شديدًا، أما القروض الربوية التجارية التي تسود اليوم فما كانت سائدة في ذلك الزمان ولم يذكر القرآن شيئًا عن حرمتها وكراهتها.

والجواب الواضح جدًا لهؤلاء موجود في هذه الآية نفسها، فإذا كان القرآن يذكر أنه إذا كان المدين ذا عسرة فأمهله حتى ينال الميسرة، فهذه الآية كأنها تنادي وتخبر أنه كان هناك أيضًا أناس أثرياء وأغنياء يأخذون القروض في تلك الأيام. بل على العكس من ذلك، إذا أولينا الاهتمام المناسب للبيان الأسلوبية هنا، يتبين لنا أن معظم معاملات القروض كانت تتم بين الأثرياء في أكثر الأوقات، نعم كان هناك احتمال أيضًا أن يكون البعض من المدينين في وضع صعب عسير لدرجة أن يكون له من المستحيل أن يعيد المبلغ الأصلي إلى الدائن، ولذا صدرت تعليمات للدائن بأن يمهله مهلة حتى يستعيد حالته المالية وإذا عفا عن الأصل فهو أفضل. وتؤشر عليه كلمات الآية فقد قال: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ وفي اللغة العربية لا تستخدم كلمة «إن» للحالات الشائعة والمعتادة، بل تستخدم بشكل عام لوصف الحالات النادرة والشاذة. ففي اللغة العربية، هناك لفظة «إذا» لوصف الوضع العام. فإذا فكرت في الأمر في ضوء ذلك، يتضح من كلمات الآية أن المدينين في تلك الأيام كانوا عادة «ذو ميسرة» (صاحب الحالة الجيدة) ولكن في بعض الأحيان كان هناك أيضًا وضع كان فيه المدين فقيرًا أو أصبح فقيرًا بعد أخذ القرض، فطلب له إعطاء هذه الرخصة والإمهال⁽¹⁾.

(1) تدبر القرآن ١/٦٣٨.

وبعد ذلك تمخض بنتيجة مناقشته بما يلي:

«من الواضح أن الأثرياء لم يكونوا يلجأون إلى الدائنين بالربا للحصول على ضروريات حياتهم التي لا غنى عنها، بل كانوا يقترضون لأغراضهم التجارية حتمًا. فما هو الفرق بين قروضهم والقروض لزماننا هذا التي تؤخذ لأغراض تجارية وعملية⁽¹⁾؟

الممتلكات الوطنية

﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾⁽²⁾.

وإذا نظرت إلى سياق هذه الآية في سورة الحشر، علمت أنه في عهد النبوة عندما طالب الناس بإعطاء الأموال والأراضي والعقارات التي اكتسبوها من العدو دون أي حرب أن يتم تقسيمهم بينهم، رفض القرآن قبول ذلك وقال إنه بدلًا من منحهم ملكيتها الخاصة، يجب أن تكون مكرسة للاحتياجات الجماعية للدين والأمة، ولدعم فقراء ومساكين الأمة وكفالتهم، بحيث لا تكون دولة بين الأغنياء فقط ولا تدور في حلقاتهم مفرغة.

ولما كانت هذه الممتلكات قد تم الحصول عليها بقدرة الله القاهرة فقط ودون أي مساعدة من المسلمين، فقد خصصت جميعها لهذا الغرض خصيصًا، ونظرًا إلى نوعية خاصة لجهاد رسول الله في الجزيرة العربية وبما أن الغنائم العامة في ذلك الوقت كانت أيضًا ملكًا لله والرسول⁽³⁾، ولكن لأن الناس قد ساعدوه في الحصول عليها وكانوا مضطرين إلى استخدام الأسلحة الشخصية والخيول والإبل وما إلى ذلك في الحرب في تلك الأيام، حتى أنه كان عليهم

(1) تدبر القرآن ١ / ٦٣٩.

(2) سورة الحشر، الآية: ٧.

(3) الأنفال ٨: ١.

توفير الزاد لهم لذلك كان من الضروري توزيعها على المجاهدين. ولكن القرآن أمر بإخراج خمسها لهذا الغرض فقال:

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾^(١).

ويحصل منه هذا التوجيه لكل نظام جماعي للمسلمين أن جميع الممتلكات التي لا يملكها أو لا يمكن لأي فرد أن يملكها، مثل الأرض وكنوزها، يجب أن تظل ملكاً للأمة ويجب أيضاً من خلالها تلبية احتياجات الأشخاص الذين يحتاجون إلى مساعدة الآخرين بسبب ضعفهم الجسدي أو افتقارهم إلى الوسائل والموارد مع الوفاء ببعض المسؤوليات الأخرى التي تتعلق بالنظام الجماعي.

وأما إدارة ونسق هذه الممتلكات فقد تركه الشرع للأحوال والمصالح، فيمكن لقادة المسلمين وأولي أمرهم أن يتخذوا لها أي طريقة يرونها مناسبة بمشورة أرباب الحل والعقد. فقد علم أن النبي ﷺ كان قد أعطى أراضي خيبر على المزارعة لهذا الغرض^(٢)، وسمح بتخصيص بعض المناطق لبعض الأفراد ومنحهم حق التصرف فيها^(٣)، وجعل بعضها حمى^(٤) وفي بعض الأشياء تقاسم جميع المسلمين بالتساوي^(٥)، وأقام حكم الأقرب فالأقرب في الانتفاع ببعض العيون والأنهار^(٦) وقد ترك عمر الفاروق رضي الله عنه الأراضي المفتوحة في العراق والسوريا تحت سيطرة أصحابها القدامى أثناء خلافته وضرب عليهم مبلغاً معيناً بحسب إنتاجهم كضريبة خراجية^(٧).

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤١.

(٢) مسلم، رقم ٣٩٧٤.

(٣) أبو داود، رقم ٣٠٥٨.

(٤) البخاري، رقم ٢٣٧٠. أحمد، رقم ١٦٢٢٧.

(٥) ابن ماجة، رقم ٢٤٧٣. أبو داود ٣٦٧٧. ابن أبي شيبة، رقم ٢٣١٩٤.

(٦) البخاري، رقم ٢٣٤١.

(٧) كتاب الخراج، أبو يوسف ٢٩٠٢٤.

الكتابة والشهادة

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَآكْتُمُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْذِبُوا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُمُوهَا ۚ وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَلَّعُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِمْ * ث وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنِ مَقْبُوضَةً ۖ فَإِنْ أَتَيْنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿١﴾

وقد أمرت هذه الآيات المسلمين بالاهتمام بالكتابة والشهادة في معاملات الأخذ والعطاء والقروض وغيرها من الأمور المالية لتجنب النزاعات. وقد بين الاستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاح في خلاصة تلك الأحكام في تفسيره «تدبر القرآن»، ونقلها هنا لفهم الغرض القصور ما لخصه الاستاذ الإمام:

أولاً: عندما تكون معاملة القرض لفترة محددة، يجب كتابة وثقتها.

ثانياً: يجب أن تتم كتابة هذه الوثيقة بشكل عادل من قبل كاتب وبحضور الطرفين. ولا ينبغي لأحد أن يغش ويخدع فيها ومن لديه مهارة الكتابة فلا يرفض هذه الخدمة. فإن مهارة الكتابة نعمة من الله ومن واجب الشكر لله أن لا يرفض إذا مست الحاجة إليه، ونشأت الحاجة إلى هذه النصيحة بسبب

(1) سورة البقرة، الآيتان: ٢٨٢ و ٢٨٣.

قلة المتعلمين والمثقفين في ذلك العصر. ولم يكن التنظيم الرسمي لكتابة المستندات وتسجيلها مطبقاً حتى ذلك الحين، كما لم يكن تنفيذه سهلاً.

ثالثاً: وستكون مسؤولية كتابة الوثيقة على عاتق المقترض، وسيعترف في الوثيقة بأنني مدين بكذا وكذا لفلان بن فلان، وعليه مثل الكاتب مسؤولية مراعاة التقوى في هذا الإقرار وأن لن يحاول أي نوع من النقص في حق صاحب الحق.

رابعاً: فإذا كان هذا الشخص متخلفاً عقلياً أو ضعيفاً أو لا يملك القدرة على كتابة تحرير الوثيقة ونحوه، فعلى من وليه أو محاميه أن ينوب عنه ويكتب الوثيقة بالعدل والحق.

خامساً: وتكتب عليها وتثبت شهادة رجلين، ومن الإرشادات فيهما أنهما «من رجالكم»، فيخرج منها أمران في وقت واحد: أحدهما: أنهما يكونان مسلمين. والثاني: أن يكونا من أهل ارتباطهم وعلاقتهم، حتى يعرفهم الطرفان والإرشاد الثاني: أن يكونوا «مِمَّنْ تَرْضَوْنَ» أي يكونون مفضلين في السلوك والعمل، موثوقين، أمينين، صادقين.

سادساً: وإذا لم يتوفر رجلان من الصفات المذكورة أعلاه فيمكن اختيار رجل وامرأتين لذلك. وشرط المرأتين لأنه إذا ارتكبت إحداهما خطأ يمكن منعه بتذكير الأخرى وتحذيرها. وهذا الاختلاف ليس بسبب احتقار المرأة، ولكن من حيث طباعها وظروفها وهواياتها فإن هذه المسؤولية مسؤولية ثقيلة عليها. ولهذا السبب قد قامت الشريعة أيضاً بدعمها في حمل مسؤوليتها هذه⁽¹⁾.

سابعاً: ولا يجوز لمن انضم إلى شهود وثيقة أن يمتنع عن الشهادة عند الطلب، لأن شهادة الحق هي أيضاً خدمة اجتماعية عظيمة وجزء من واجبات هذه الأمة من حيث كونها شهداء الله.

(1) وهذا الحكم سد الذريعة. ولذلك، إذا لم يكن هناك حاجة إليه بسبب تغير أحوال المرأة، فلا يجب اتباعه أيضاً.

ثامناً: وسواء كان أمر تعاطي الدين صغيراً أو كبيراً، إذا كان لمدة محددة من الزمن، وليس من طبيعة التسليم الفوري فلا ينبغي الشعور بالعبء الثقيل بكتابته، فمن يتعطل فيه بسبب تساهلهم يتورطون أحياناً في نزاعات لها عواقب بعيدة المدى.

تاسعاً: والتعليمات المذكورة أعلاه هي عند الله تعالى هادية إلى الحق والعدل، وتحفظ للشهادة، وتعصمها من الشكوك والخلافات. ولذلك فإن تنظيمها ضروري للصالح والخير الاجتماعي.

عاشراً: لا يوجد وجوب على الكتابة للمعاملات اليدوية

الحادي عشر: نعم، إذا حدث أي بيع أو شراء مهم، فيجب الإشهاد عليه حتى يتم حل أي نزاع إذا حصل.

الثاني عشر: وفي حالة النزاع، لا يجوز لأي طرف أن يحاول الإضرار بال كاتب أو الشاهد. فإنه يؤدي الكتبه والشهود خدمة اجتماعية وثقافية مهمة. لهذا السبب، فإن نتيجة محاولة إيدائهم دون داع ستكون أن الأشخاص الجديرين بالثقة والمحتاطين سيبدأون في تجنب مسؤوليات الشهادة والكتابة وما إلى ذلك، وسيكون من الصعب على الناس العثور على أي شهود معقولين غير الشهود المحترفين. وفي هذا العصر يهرب الموثوقون والعاجدون من مسؤوليات الشهادة ونحوها، والسبب في ذلك أن الأمر عندما يتخذ شكلاً جدياً، يتجشم شهوده الكثير. ويصبح هؤلاء المساكين ضحايا للمضايقات والاختطافات وفقدان الممتلكات وحتى القتل. وقد نهى القرآن عن هذا النوع من الأذى، ليتذكر من يرتكب مثل هذه الأفعال أن هذه ليست معصية صغيرة يسهل مغفرتها، بل هي خطيئة ستلتصق بهم، وسيكون من الصعب النجاة من سيئات عواقبها⁽¹⁾.

وفي نهاية الآيات، بين الله تعالى حكم الرهن، أنه إذا كان الإنسان في سفر

(1) تدبر القرآن ٦٤٠ / ٨.

ولم يجد من يكتب الرهن، فإن مسألة الدين يمكن أن تكون أيضًا على شكل الرهن. ومع ذلك، فقد تم توضيح أن الرهن العقاري مسموح به فقط ما لم تكون صورة يرضي بها المقرض. وأمر الله أنه إذا حدث الوضع كهذا يجب رد الرهن بعد الإشهاد على الدين. يقول الأستاذ الإمام في شرح هذا الأمر:

«إذا كانت ظروف توفرت فيها الأشياء اللازمة للثقة ببعضهم البعض، مثلاً جاؤوا إلى حضر بعد الانتهاء من السفر، وتم العثور على الكتبة والشهود لكتابة الوثيقة، وثبتت معاملة القرض في حضور الأقرباء وشهودهم ولم يبق سبب معقول لعدم قدرة الدائن على الثقة بدون الرهن، فيجب عليه إذن أن يرد الشيء المرهون إليه وينبغي أن يتخذ الشكل الذي وجه إليه أعلاه ويرضي نفسه. وهنا تم تعبير العقار المرهون بأنه أمانة، مما يوضح أن الدائن لديه الرهن باعتباره أمانة يجب حمايتها، ويعتبر أي نوع من حق الانتفاع بها غير شرعي⁽¹⁾.

وإذا لم يكن هناك رجلان فإن حكم شهادة رجل واحد وامرأتين، الذي ورد حكمه في هذه الآيات، وإن كانت مناسبتها ثابتة، لكن بناءً على النحو الذي فهمه فقهاؤنا، لا بد من توضيح أمرين في ذلك أيضًا:

الأول هو أن هذه الضابطة لا علاقة لها بالشهادة الظرفية. وهذا الأمر يتعلق فقط بالشهادة الوثائقية. ويعلم الجميع أننا نختار الشاهد للأدلة المستندية وفي الشهادة الظرفية يكون حضور الشاهد في المكان مسألة صدفة. إذا كتبنا وثيقة أو اعترفنا بمسألة ما، فلدينا الخيار على أن نجعل من نريد أن يشهد عليها. وأما في حالات الزنا والسرقة والقتل والسطو وغيرها من الجرائم فمن كان حاضراً في ذلك الوقت يعتبر شاهداً. ولذلك فإن الفرق بين هذين الشكليين من الاستشهاد واضح لدرجة أنه لا يمكن استغلال أحدهما كمبنى للقياس على الآخر.

والثاني: أنه لا يسع مكان الآية ومكانها وأسلوبها أن يرتبط بالقانون والمحكمة. فلم يتم توجيهه إلى المحكمة، ولم يؤمر أنه إذا تم رفع مثل هذه

(1) (تدبر القرآن ١/ ٦٤٣).

القضية، فاطلبوا من المدعي أن يشهد وفقاً لهذا المنهج والنصاب. والمخاطبون بها هم الذين يتعاملون في القروض، وفيها قد تم إرشادهم إلى أنه إذا قاموا بأية معاملة من هذا القبيل لمدة معينة، فعليهم أن يكتبوا الوثيقة لها، وأن يختاروا الشهود عليها ممن يتمتعون بالأخلاق الحميدة وبالثقة والاعتبار والديانة تجنباً للخلافات والخسائر، وممن يمكنهم القيام بهذه المسؤولية بطريقة أفضل حسب ظروفهم وهواياتهم.

ولهذا السبب جاءت تعليمات بإحضار الشهود من الرجال فقط، وإذا لم يكن هناك رجالان، فيجب أن تشهد امرأتان ورجل واحد، حتى إذا كانت هذه السيدة التي تعيش في المنزل متوترة في بيئة المحكمة تكون الأخرى عمادة وسنداً لها لإنقاذها من الغموض والقلق، يجب أن تكون أخرى سنداً له. ومن الواضح أن هذا لا يعني ولا يمكن أن يعني أنه سيتم إثبات القضية في المحكمة في الوقت فقط عندما يأتي رجلان على الأقل أو رجل وامرأتان للشهادة بشأنها.

وهي تعليم اجتماعي إذا اتبعه الناس أدى إلى سلامتهم من الصراعات. ويجب على الناس أن يهتموا به من أجل مصلحتهم الخاصة، لكنه ليس مدونة شهادة يجب أن تتبعها المحكمة للبت في القضايا. ولذلك فقد قيل عن جميع التعليمات الواردة في هذه السلسلة أن هذه الطريقة تقوم على العدل عند الله، وتجعل الشهادة أكثر دقة، وتقلل من احتمالية الوقوع في الشكوك والشبهات.

(2)

الوصية

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ صَرِيحُونَ فِي الْأَرْضِ فَاصْبِرْتُمْ مُصِيبَةَ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَثِمِينَ * فَإِنْ عُرِيَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا أَحَقَّ مِنْ

شَهِدَتَهُمَا وَمَا اَعْتَدَيْنَا اِنَّا اِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ * ذَلِكَ اَدْنٰى اَنْ يَّاتُوْا بِالشَّهَادَةِ عَلٰى وَجْهِهَا اَوْ يَخَافُوْا اَنْ تُرَدَّ اَيْمٰنُهُمْۙ وَاتَّقُوْا اللّٰهَ وَاَسْمَعُوْا لِلّٰهِ لَا يَهْدِيَ الْقَوْمَ الْفٰسِقِيْنَ ﴿١﴾.

وفي هذه الآيات تم توجيه نفس الترتيب فيما يتعلق بالوصية كما سبق بيانه فيما يتعلق بالمعاملة والديون. وتتلخص على النحو التالي:

١. إذا مات الإنسان وأراد أن يوصي في ماله فليشهد رجلين ثقة من إخوانه المسلمين.

٢. وإذا حصل هذا الموت لشخص في سفر ولم يوجد مسلمان ليشهدا عليه، فإنه يجوز له أيضًا أن يشهد غير المسلمين في حالة الضرورة.

٣. وإذا كان هناك خوف على الرجلين المختارين من المسلمين للشهادة، من أن يغيروا شهادتهم لشخص ما، فإنه يؤخذ هذا التدبير لسد باب ذاك الخطأ المتوقع أن يتم إيقافهم بعد الصلاة في المسجد ويحلفان بالله على ذلك أنهم لن يغيروا الشهادة لمنفعة دنياهم أو لصالح شخص ما وانحيازًا له، حتى لو كان شخصًا قريبًا منهم، وإذا فعلوا ذلك فسيكونون مذنبين.

٤. وينبغي أن يعلم الشهود أن هذه الشهادة هي شهادة الله، فإذا صدرت منهم أية خيانة قليلة، فسيتم اعتبارهم خونة ليس فقط للعباد، بل لله أيضًا.

٥. ومع ذلك، فإذا علم أن هؤلاء الشهود قد انحازوا إلى أحد على خلاف الموصي، أو أبطلوا حق أحد، قام رجلان من الذين سقط حقهم، فيحلفان أننا أصدق من هؤلاء الشاهدان الأوليان بالشهادة نحن لم نتجاوز الحقيقة في هذا الأمر ونقول بكل مسؤولية أننا لو فعلنا ذلك لكننا ظالمين أمام الله.

٦. ويعتقد أن فائدة هذه المساءلة المتزايدة على الشهود تظهر في التوقع منهم الإدلاء بشهادتهم بدقة. وإلا فسيخافون إذا ارتكبوا أي فساد أن تبطل أيمانهم بأيمان غيرهم، وترد شهادتهم مع أنهم أول من شهد.

(1) سورة المائدة، الآيات: ١٠٦ - ١٠٨.

توزيع الوراثة (١)

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ * فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾.

وفي هذه الآيات أمر بالوصية للوالدين والأقربين وفق الدستور والمعروف. وهذا كان عرف العرب. وقد حل محله فيما بعد القانون الذي ورد وصفه في آيات سورة النساء. وقد حدد الله تعالى حصص وأسهم الوالدين والأقربين في هذه الآيات وأعلنها بمشيئته. والسبب في ذلك أن الإنسان لا يدري أي هؤلاء الأقارب أقرب إليه من حيث المنفعة. هذه الحصص محددة بدقة ولا يوجد مجال للتخفيض. فقد قال:

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ ﴿٢﴾.

ولذلك فمن الواضح جدًا أن كل مسلم الآن ملزم بالوصية بموجب هذا القانون، وبحسب الدستور فإن حكم الوصية لم يبق، ولكن عندما أعطي هذا الحكم ماذا كان المقصود منه؟ يقول الاستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاح رداً على هذا السؤال:

«لقد كان ذلك خلال الفترة الانتقالية التي لم يصل فيها المجتمع الإسلامي بعد إلى الاستقرار والإحكام، حيث تم إعطاء الحكم النهائي للميراث الذي جاء في سورة النساء. لقد صدر هذا الأمر المؤقت قبل أن تكون الظروف مواتية لإصدار هذا الأمر، وكان له ميزتان: الأولى، حماية فورية إلى حد ما لحقوق أصحاب الحصص الذين تم تدمير حقوقهم على أيدي العصابات،

(١) سورة البقرة، الآيات: ١٨٠ — ١٨٢. مائدة، الآيات: ١٠٦ — ١٠٨.

(٢) سورة النساء، الآية: ٧.

والأخرى كان الهدف منه تجديد المعروف الذي كان ساريًا في بلاد العرب بين الشرفاء والكرماء منذ القدم، ولكنه دُفن شيئًا فشيئًا تحت غبار الجهل، حتى يتسنى لهذا العرف أن يهيب العقول للتشريع الأخير الذي سوف ينزل في بابه»^(١).

(٢)

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾^(٢).

فهذا هو أمر تقسيم الميراث في سورة النساء الذي به قد تغير حكم الآية المذكورة أعلاه. وصف فيه قبل كل شيء حصص الأولاد.

إن جملة ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ قد جاءت كتمهيد لفقرة ﴿لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ ولفظة الأولاد عامة كما هي ظاهر لكلا الجنسين الرجال والنساء. ومن يجب أن يكون تأليف الكلام: «للذكر منهم مثل حظ الأنثيين. وإن كان قد ختم الحكم بـ ﴿لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ فقط ليكون المراد:

١. إذا كان بين أبناء المتوفى ولد واحد وفتاة واحدة فقط، فإن الولد يحصل على ضعف البنت.

٢. وإذا كان الأولاد البنات أكثر من هذا، فإن ميراث المتوفى يقسم على أن يكون نصيب كل ذكر مثل حظ الأنثيين.

٣. وإذا لم يكن بين الأولاد سوى الأبناء أو البنات، فإن الميراث كله يذهب لمن كان حاضرًا.

وهذا الأمر الثالث واضح أيضًا أن ذلك مطلب أساسي لهذا الأسلوب. فإذا قلنا بلغتنا أن هذا المال للفقراء ونصيب الرجل الفقير سيكون مثل حظ امرأتين فقيرتين، فمعنى ذلك أن المال قد دفع فعلاً للفقراء، فإذا كان الفقراء

(١) تدبر القرآن ١ / ٤٣٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ١١.

رجالاً، فيقسم عليهم المال كله، وإذا كان الفقراء من النساء فيفعل مثل ذلك أيضاً. لكن الأمر لم ينته هنا، بل من خلال استثناء متعلق به قد أوضح القرآن أن غرضه ليس هذا. وجملة ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ هي مستثناة من فقرة ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ أي أنه إذا كان بين أولاد المتوفى بنات، سواء كانوا اثنتين أو أكثر، فإن نصيبهن يكون الثلثين في كل الأحوال. وعطفت عليه فقرة.

﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ أي إذا كان هناك بنت واحدة فقط، فلها النصف.

وقد بيننا فيما مر أن مفهوم «فوق اثنتين» هو أكثر من اثنتين أو أكثر من ذلك، ووجه ذلك أنه قد حذفت عندنا قبل ذلك لفظة اثنتين وفقاً للأسلوب العربي، ففي لغة القرآن إن أردنا تفصيل سهم بنت واحدة أو سهام بنتين أو أكثر على حدة لفارق بين سهامهن، فلنا أن نبينه على طريقتين: فمثلاً على الترتيب الصعودي نبين أولاً سهم بنت واحدة ثم نذكر سهام بنتين ولا حاجة لنا إلى بيان لفظي لسهم أكثر من اثنتين إذا كان متساوياً بالاثنتين، وإذا جاء بيان سهام اثنتين بعد بيان سهم واحد أن يكون أكثر من سهم واحد يعني ذلك حكم سهام الاثنتين هو نفس الحكم الذي لسهم البنتين.

والطريق الثاني إذا سردناه على الترتيب النزولي، وبما أنه لم يصلح لذلك ألفاظ فوق اثنتين أو اثنتين في الأسلوب العربي، فنبينه بيان سهم واحد بعد بيان سهمين أو أكثر. وبداية الكلام في هذا الأسلوب من «فوق اثنتين» بنفسه دليل على أن هناك حذف «اثنتين» قبل ذلك، وإذا تدبرت علمت أن قرينته واضحة جداً. فحسن هذا الترتيب يقتضي أن لا يستعمل لفظة «اثنتين» قبل «فوق اثنتين»، والصحة اللغوية تقتضي أن لم تذكر «اثنتين» فيما بعد إن بُدئ الكلام من «فوق اثنتين». والقرآن قد جاء بيان هذه السهام على الترتيب النزولي فقد راعى أسلوب الحذف هنا، ولكن قد ذكر هذه السهام نفسها في آخر آية النساء على الترتيب الصعودي فحذف هناك «فوق اثنتين» بعد «اثنتين» فقال:

١ - ﴿إِنْ أَمْرُؤَا هَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَاثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ (١).

ثم قال:

٢ - ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتْهُ أَبَوَاهُ فَلِلْمُتَّكِفَيْنِ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْمُتَّكِفَيْنِ الشُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ (٢). وبعد الأولاد تم الآن وصف حصص الوالدين.

﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾، هذه العبارة لم تعطف على ﴿إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾، ولكن على كامل الحكم الذي تم وصفه أعلاه للأولاد. لذلك، في هذه الحالة، لن يكون العطف الآن للجمع، بل يكون للاستدراك، والسبب في ذلك أنه جاء في ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ أن نصيب الولد (الذكر) سيكون مثل حظَّ البنتين، ولكن كم سيكون لم يحدد. هذا هو نفس النمط فمثلاً نقول بلغتنا «هذه الروبيات للأطفال، أعطوا الأولاد ضعفين للبنات، ونصفه لأبيك».

انظروا إلى هذه الفقرات، فإن طلب القائل منها واضح جداً لمن كان على دراية باللغة، فسوف يفهم منها نفس المعنى أن الروبيات في الواقع قد أعطيت للأطفال.

ولذا لو كان الكلام قد انتهى على فقرتين أوليتين لكان قد توزع المبلغ كله بين الأولاد والفتيات على تناسب تم بيانه في هذه الفقرات، ولكن بما أن القائل قد خصص نصفه للوالد فكان لا بد من إخراج سهم الأب أولاً ثم توزيع المتبقي بين الأطفال.

وقد قلنا أعلاه في شرح سهام الأولاد أن فقرة «إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ» استثناء من «لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ» وشرح جانب واحد من نفس الشيء، فإن كان

(١) سورة النساء، الآية: ١٧٦.

(٢) سورة النساء، الآية: ١١.

ما قلنا صحيحًا فلا يكون هذا إذن مستقلًا تامًا في مكانه مثل «ولأبويه» فوجب أن يكون حكمه أيضًا حكم «للذكر مثل حظ الأنثيين». فهو كما نقول مثلًا «هذا المبلغ كله لزيد وعثمان وعلي، لهم فيه حصص متساوية، إلا أنه إن كان هناك عثمان وعلي حاضرين فقط فلعثمان الثلثين وعلي الثلث وأعطوا منه عشرة روية لأختنا» فكر في هذه الجملة مرة أخرى إن كان هناك حكم إعطاء الثلثين لعثمان والثلث لعلي على الترتيب ولكن الاستدراك في ختامها يستلزم إخراج عشرة رويات منها للأخت قبل كل شيء ثم يقسم المتبقي فيما بين عثمان وعلي مطابقًا لحصصهما.

وهذا الأسلوب موجود أيضًا في الآية التي قيد البحث. فإذا أخذنا ذلك في الاعتبار فلا صعوبة في فهم أن حصص الوالدين والأزواج التي عطفت إلى أسهم الأبناء بحرف الواو بعد بقوله ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ تخرج وتُعطى أولًا بالزوم، وما يبقى بعد ذلك يُقسم صرفًا بين الأولاد.

وإذا كان الأولاد عازبين فلهم مثل ذلك، وإذا كان هناك ولدان وبنات معًا، فإن لهم أيضًا نفس الحكم، وكذلك إذا كان بين أولاد المتوفى بنات فقط، فسيتم إعطاء ثلثي التركة المتبقية أو نصفها لهن، ولن يتم دفع حصتهن من التركة بأكملها تحت أي ظرف من الظروف.

هذا هو المدلول الصحيح للآية. ومن قرأ هذه الآية وهو يفهم معنى حرف الواو في ﴿وَلِأَبْوَيْهِ﴾ وحرف الفاء في ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً﴾ يتبين له معنى الكلمة دون أي صعوبة ولا تكلف.

انظر الآن ما بقي من الآية: أن لفظة الولد في ﴿إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ و﴿إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ عام للذكور والإناث كليهما، وهو معروف في اللغة العربية لهذا المعنى. وقد تم استعمالها هنا وفي مقامات أخرى في معنى الأزواج أيضًا. وعندنا لها هذا المفهوم في كل المقامات، فتقول أهل اللغة صراحةً إنه: هو يقع على الواحد و الجمع والذكر والأنثى - وليست هنا قرينة لتخصيصها للأولاد الذكور - وسواء كان هناك ولد واحد أو اثنان وكذا البنت واحدة أو بنتان، وكان

الأبناء أولادًا فقط أو بنات فقط، يطبق هذا الشرط بالإيجاب أو السلب على كل حال. وبعد «فلأمه الثلث» قد حذفت هناك «ولأبيه الثلثان» أو ما شابهها من الألفاظ تحت قواعد العربية، وقرينة هذا الحذف أن القرآن قد اشترط لذلك التقسيم شرطاً لـ «وورثه أبواه» فهذا صار دليلاً بنفسه على الحذف المذكور فإذا قلنا: «إن كان ورثة هذا المال زيد وعلي، فلزيد الثلث» فلا داعي بعد ذلك أن نقول «والثلثان الباقيان لعلي».

كما قد تم حذف لفظة «ولأبيه» أو ما شابهها بعد ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ والأساس المنطقي لها هو أيضًا واضح جدًا. ففي حالة وجود الإخوة والأخوات، يكون نصيب الأم هو نفس ما ذكر أعلاه في حضور الأبناء. وهذا المذكور حجة في حد ذاته على أن يكون نصيب الأب نفسه. ولم تكن هناك حاجة لوصف ذلك بالكلمات. فإذا كان القارئ ذا ذوق في لغة القرآن سيفهم دون أي صعوبة أنه إذا كان سهم الأم قد عاد إلى الأصل، فيعود سهم الأب أيضًا تلقائيًا.

وعليه فيكون تأليف الكلام هنا كما يلي:

«إن كان هناك أولاد فلكل من الأبوين السدس، وإذا لم يكن هناك أولاد وكان الوالدان هما الورثة فللأم ١/٣، وإذا كان هناك إخوة وأخوات أيضًا فللأم ١/٦ نفسه.»

انظروا، الكلمة نفسها تنادي بذلك - «ونفس السهم للأب أي ١/٦».

ويتضح من هذا الحكم أن الله تعالى قد عين إخوة وأخوات في غياب الأولاد أن ينوب منابهم، ورأينا تويده الآية الأخيرة من هذه السورة، ولكننا سنبين ذلك في محلها.

وكلمة «الإخوة» في هذه الآية عندنا تشير ببساطة إلى الوجود فقط. والمقصود منه ببساطة هو الإشارة إلى أنه في حالة وجود أشقاء، واحدًا كانوا أو اثنين أو أكثر، فإن حصة الوالدين ستعود إلى أصلها. وفي مثل هذا الأسلوب

لا يكون الجمع لبيان العدد، بل لبيان الوجود فقط. هناك بيت شعري لشاعر حماسي:

وياك والأمر الذي إن توسعت موارده ضاقت عليك المصادر
وقد استخدم الشاعر هنا كلمتي «موارد» و«مصادر» جمعاً. ومن فسر معناها بأنه طلب في هذا الشعر اجتناب الأمر الذي تكون موارده ومصادره ثلاثة أو أكثر فقد أظلم ظلمًا عظيمًا. نعم هذه القصيدة تثبت قطعاً وجود مورد ومصدر في الأمر، ولكن من الواضح أن الشاعر لم يقصد تحديد العدد برمته. لا يمكن أن تكون هناك سوى طريقة واحدة للانخراط في الأمر والانفصال عنه، وهذه الطرق يمكن أن تكون عشرة أو عشرين. وكذلك يجوز للمتوفى أن يترك أخاً واحداً أو أختاً واحدة، وقد يكون إخوته خمسة أو عشرة. وكلمة «إخوة» تحيط بجميع هذه الحالات. وهذا الأسلوب الجمعي لهذا المعنى شائع وذائع في كل لغة.

إذا قلنا - «إذا كان لديك أطفال، فستعطيههم هذه الحلوى» - فلن يفهمها أحد على أنه إذا كان للمخاطب ولد واحد فقط، فبحيث إن المتحدث استخدم كلمة «أطفال» جمعاً له، فلا يحق له الحصول على الحلويات تحت أي ظرف من الظروف. وهذا المعنى لهذه الجملة لا يمكن أن يأخذه إلا من يفهم اللغة بمبادئ المنطق والرياضيات بدلاً من أساليب البيان والتعبير. ثم قال:

﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ في أخير الآية والهدف منه أنه إذا كان هناك قرض بذمة الميت يجب تأديته قبل كل شيء، ثم إذا كان هناك وصية للميت يُوفي بها ثم يتم توزيع الميراث، وإن كان القرض مؤخر ذكره في الآية ولكن حكمه سيقدم ويعتبر له أولوية،

والسبب في ذلك أن حق الدائن يثبت في حياة المتوفى، ومن أوصي له لا يثبت حقه قبل وفاة المورث. أما تقديم الوصية في الآية فهو فقط من أجل الجمال وحسن التعبير. وقال تعالى:

﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(١).

والغرض الذي جاءت من أجله هذه الآية في وسط سلسلة الآيات هو التوضيح للناس أنه لم يكن من الممكن لإنسان أن يتخذ قرارًا على أساس العدل في مسألة قسمة الميراث. ولا يدري أي الوالدين والأبناء أقرب إليه نفعًا. ولا أساس لهذا في العلم والعقل أيضًا، فلا يمكن أن يصدر هذا القرار إلا من ربه تعالى.

ولذلك فإن الأقارب الذين أعلنهم ورثة لشخص ميت، فإن القانون القائم على العدالة فيهم هو نفسه الذي أوضحه الله تعالى بنفسه. وبعد أن أنزل الله هذا القانون، لا يحق لأي ميت أن يوصي للورثة الذين عينهم الله ورثة له على أساس القرابة. وهذا التقسيم مبني على علم الله وحكمته. وإن في كل أمر من أمره حكمة عميقة، وعلمه يغطي كل شيء. وعلى الرغم من طموحاته، لا يستطيع الإنسان أن يجد مدى معرفته وعلمه سبحانه، ولا يستطيع أن يفهم حكمته بشكل كامل. وإذا كان مؤمنًا فجميل له أن يسمع أمره ويخضع له رأسه خضوعًا تامًا.

ولكن لا يعني ذلك أنه إذا اقتضى باعث من البواعث من حاجة لوارث أو خدمة قام بها أو شيء آخر فلا تصح وصية في حق وارث كهذا في هذه الصورة أيضًا. فإن المنفعة التي تخص الآية معرفتها بالله هي منفعة القرابة، ولا تتعلق بصلة ما إلى منافع وضرورات معلومة متعينة لنا عادة، فيمكن هذه الوصية بمثل هذه الملابسات. ولكن لا يتجاسر مسلم على تقديم وصيته بناءً على القرابة في مقابلة وصية الله سبحانه، وأريد بتعبير متكرر في هذه الآيات أي «من بعد وصية» وصية تكون في صالح آخر غير الوارث أو تكون في حق وارث لضرورة أو صلة لخدمة قام بها، فمراد الآية هي هي، ولكنها تنبئ أيضًا بطريق لطيف عن بناء حق

(١) سورة النساء، الآية: ١١.

الوراثه أنها القرابة النافعة، والفارق بين السهام أيضًا يرجع إلى فائدة المتعلقين للإرث أيهم أكثر إفادة للمتوفى وأيهم أقل نفعًا.

ويعلم كل شخص أن منفعة البنات تنتقل بزواجهن في أكثر الأوقات إلى أزواجهن فكما أن الزوجة تصاحب زوجها فكذلك زوجها مع الرفاقة يتحمل كافة مسؤوليات النفقة والسكنى لها أيضًا، وبهذا السبب قد جعل سهم الأولاد وسهم الزوج ضعفين لسهم البنات والزوجة، وهذه المنفعة متواجدة بطبيعتها في العلاقات الأبوة والبنوة وعلاقة الزوج والزوجة وما إلى ذلك من العلاقات، فهم يجعلون وارثًا بناءً على تلك القرابة في الحالات العامة دون تردد. ولكن إذا صارت علاقة منها باعثًا على إيذاء المورث بدلاً من كونها منفعة فيقتضي بيان العلة من الله تعالى أن تحرم من الإرث، وعليه فقد قال النبي ﷺ في مشركي جزيرة العرب ويهوديها ونصاراها: لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم⁽¹⁾.

أي بعد إتمام الحجة والبرهان عليهم، عندما ظهر هؤلاء المنكرون كأعداء مبينين لله وللمسلمين، ونتيجة لذلك، انقطعت مصلحة القرابة بينهم وبين المسلمين إلى الأبد. لذلك، لا يمكنهم أن يرثوا من بعضهم البعض بعد الآن.

وبنفس الطريقة، فإن هذا التوجيه مستمد أيضًا من هذه الآية أنه إذا ترك جزء من التركة ولم يورثه الميت أحدًا، فإنه يجب أيضًا أن يُعطى إلى «أقرب نفعًا من ذوي القربى». وفي حديث البخاري أن رسول الله ﷺ قال:

أَلْحَقُوا الْفَرَاثُضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا تَرَكَتِ الْفَرَاثُضَ فَلأُولَى رَجُلٌ ذَكَرَ⁽²⁾.

٤ - ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ

(1) رواه البخاري رقم: ٦٧٦٤.

(2) رقم ٦٧٤٦.

لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ
دَيْنٍ ﴿١﴾.

وهذه هي حصص الزوجين وهي واضحة من جميع النواحي. ولا توجد
صعوبة من حيث اللفظ والمعنى فيها. ومن أجل العطف على «ولأبويه» وتنفيذاً
لوصية الميت وبعد سداد ديونه، فإن هذه الحصص تُخرج أيضاً من كامل التركة،
مثل سهام الوالدين.

٥- ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ
مِنْهُمَا الشُّدُسُ إِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ
مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَلِيمٌ﴾.

وبعد الأولاد والآباء والأزواج، يتم توجيهه الآن إلى أقارب آخرين
و﴿كََلَلَةً﴾ هي الكلمة الأكثر أهمية في هذه الآية. ومن حيث أصله فهو
مصدر بمعنى الكلال أي الضعف. ويقول الأعشى:

فأليت لا أرثي لها من كلاله

ويقول متمم بن نويرة

فكأنها بعد الكلاله والسرى عالج تغاليه قذور ملمع

وعند أئمة اللغة المعبرين للكلالة ثلاثة معانٍ على سبيل المجاز:

من لم يبق له أب ولا ولد؛

الثاني: القرابة التي ليست من جهة الولد والوالد؛

ثالثاً: أقارب الشخص الذين ليس لهم صلة قرابة بالبنوة والأبوة.

ويقول الإمام الزمخشري في الكشاف:

(١) سورة النساء، الآية: ١٢.

«يطلق على ثلاثة: على من لم يخلف ولدًا ولا والدًا، وعلى من ليس بولد ولا والد من المخلفين، وعلى القرابة من غير جهة الولد والوالد. ومنه قولهم: ما ورث المجد عن كلاله كما تقول: ما صمت عن عيٍّ، وما كف عن جبن. والكلالة في الأصل مصدر بمعنى الكلال وهو ذهاب القوة من الإعياء. قال الأعشى: فأليت لا أرثي لها من كلاله، فاستعيرت للقرابة من غير جهة الولد والوالد لأنها بالإضافة إلى قرابتهما كآلة ضعيفة، وإذا جعل صفة للموروث أو الوارث فبمعنى ذي كلاله كما تقول: فلان من قرابتي، تريد من ذوي قرابتي، ويجوز أن تكون صفة كالهجاجة والفقاقة للأحمق⁽¹⁾.

المعنى الأول: أي لمن ليس له ولد ولا أب، وإن كان استعماله موافقًا لأصول العربية، إلا أننا لم نجد له نظيرًا في كلام العربية.

والمعنى الثاني، أي للقرابة التي ليست من الولد والأب، ونظائر استعماله شائعة في كلام العربية.

يقول الطرماح:

يهز سلاحاً لم يرثه كلاله يشك به منها غموض المغابن

ويقول عامر الطفيل

وما سودتني عامر عن كلاله

وجاء في لسان العرب:

والعرب تقول: لم يرثه كلاله أي لم يرثه عن عرض، بل عن قرب⁽²⁾ واستحقاق.

والمعنى الثالث، أي بالنسبة لأقارب الشخص الذين لا تربطه بهم أولاد وأب، واستعماله في هذا المعنى ثابت بأدلة قطعية.

(1) ٥١٤/١.

(2) 592/11.

يقول الشاعر الحماسي يزيد بن الحاكم الثقفي وهو يعظ ابنه:
 والمـرء يـبـخل بالـحقـو ق ولـلـكـلـالـة ما يـسـيـم
 كما ينقل الأزهري شعر الشاعر
 فإن أبا المـرء أحمى له ومولى الكلالـة لا يغضب
 وقال أعرابي

مالي كثير ويرثني كلالـة متراخ نسبهم⁽¹⁾.

وروى الإمام مسلم عن جابر لفظه في رواية:

يا رسول الله، إنما يرثني كلالـة⁽²⁾.

وقد جاء هذا المعنى في روايات كثيرة فقد قال الإمام الجصاص في
 أحكام القرآن:

وروي عن أبي بكر الصديق، وعلي، وابن عباس في إحدى الروايتين أن
 الكلالـة ما عدا الوالد والولد، وروى محمد بن سالم عن الشعبي عن ابن مسعود
 أنه قال: الكلالـة ما خلا الوالد والولد، وعن زيد بن ثابت مثله⁽³⁾.

وانظر الآن إلى الآية التي تحت النقاش، أما المعنى الأول، فمع أن الفقهاء
 أخذوا نفس المعنى هنا، لكن هناك حجة ودليل في الآية نفسها على أنه لا يمكن
 أخذ هذا المعنى هنا

فتدبر إن الله تعالى قد أوصى في سلسلة البيان التي تبتدئ من ﴿يُوصِيكُمُ
 اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ بعد بيان سهام الأولاد والوالدين أن يعمل بالوصية وأمر به
 بتعبير ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّهِ يُوْصِي بِهَا أَوْ دَيْنٌ﴾. وقد جاءت في حصص الزوجين
 للغرض نفسه ألفاظ ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّهِ يُوْصِي بِهَا أَوْ دَيْنٌ﴾ و﴿مَنْ بَعْدَ

(1) لسان العرب ١١/٥٩٢.

(2) رقم: ٤١٤٨.

(3) ٨٧/٢.

وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴿ فَإِذَا تَدَبَّرْتَ عِلِمْتَ أَنَّهُ تَمَّ اسْتِعْمَالُ الْفِعْلِ المعروف (المبني للفاعل) ومرجع الضمير في كل من «يُوصِي» و«يُوصِينَ» و«توصون» مذكور صراحة في كل جملة. ولا يصرف النظر طالب للقرآن أن نفس اللفظ قد جاء مبنيًا للمفعول (أي المجهول) فهذا التغير يقول بصراحة أنه لم يذكر فاعل «يُوصِي» أي المؤثر في ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً﴾. ولهذا لا يمكن في هذه الآية وصف ﴿كَلَالَةً﴾ على أنها اسم صفة للميت، وهذا الاختلاف دليل قاطع على أن القرآن الكريم لم يستخدم هذه الكلمة هنا بالمعنى الأول، أي للشخص الذي لم يخلفه الأولاد ولا الأب.

وأما المعنيان الثاني والثالث، فبما أن معنى الآية يبقى كما هو إذا أريد أيهما، فالأولوية تكون فقط من حيث حسن التأليف.

ولذلك فإن «يورث» في الآية عندنا مفعول به مبني للمفعول من باب إفعال. و«الكلالة» يقع مفعولاً منه. و«كان» هنا ناقصة، و«رجل» و«امرأة» اسمان لـ «كان» و«يورث» وقع خبراً لها. ووفقاً لهذا التأليف ستكون ترجمته: «وإن يورث رجل أو امرأة على أساس نسبته الكلالة».

ومن الواضح أن سلطة التوريث ستعود إلى المتوفى، ومعنى «التوريث» في هذا السياق هو أنه يتم توريثه في حالة عدم وجود أولئك الورثة، للتركة التي تم وصف سهامها أعلاه.

﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ إِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾.

أي إذا وُورث رجل أو امرأة من أقارب ذوي القرابة، وكان لذاك الوارث أخ أو أخت، فسُدس المال الذي وُورثه يُعطى لأخيه أو أخته، فإن كان له أكثر من أخ أو أخت يتساهمون جميعاً في الثلث بالتساوي. وبعد ذلك لا يُحتاج أن نقول إنه يعطى ما تبقى من 5/6 أو الثلثين للذكر أو الأنثى التي وُورثته فإذا قلنا: «إن زيِّداً قد ورث ابنك هذا المال، ولكن إذا كان له أخ فله الثلث»، فمن البديهي أن يفهم

الجميع معنى هذه الجملة أنه بعد دفع الحصة للأخ سيتم إعطاء الروبية المتبقية للابن الذي أصبح وريثاً للمال.

إن تعليم القرآن الكريم هذا مبني على حكمة عظيمة. ويمكن للشخص المحتضر أن يجعل أخاه أو أخته أو عمه أو عمة أو عمه من ذويه الكلاله وارثاً له، لكن من الواضح أن الأخ أو الخال الذي يُورث، يمكن أن يكون للمحتضر غيره من الإخوة والأخوال. وهكذا الأمر بالنسبة للعم والعمة والخالة وغيرها، فقد يفضل الإنسان خالاً واحداً أو عمه واحدة بسبب هواه الشخصي، ولكن الله تعالى لم يرض عن حرمان سائر الأقارب من نفس العلاقة تماماً فارشده إلى أنه إذا جعل شخص مثلاً عمه زيدا وارثاً لباقي التركة وله أعمام آخرون أيضاً: عثمان وأحمد، فإن جزء التركة الذي يُورثه زيد، بعد تقسيم ثلثه بين عثمان وأحمد يعطى الباقي لزيد.

﴿غَيْرُ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾

وفي نهاية الآية جاءت هذه الكلمات التحذير من أن هذا التوريث لا ينبغي أن يكون سبباً في ضرر لصاحب الحق. وقد حدد الله تعالى أنصبة الورثة الأصليين منعاً للضرر في الوصية، ولكن بحسب آية الكلاله، بما أن المتوفى يمكنه أن يجعل أحد أقاربه وارثاً بهواه، فبعد أن بين الله هذا الحكم قال إنه لا يجوز إهدار حق أحد باستغلال هذا الحق. وهذه ليست نصيحة العامة بل هي وصاة من رب العالمين.

وإذا حرم عبده صاحب حق عن علم وشعور فليعلم أن الله خبير بكل عمله، وإذا قصر في ذلك بغير قصد، فإن خالقه غفور حلیم، يغفر لذنوب عباده، رفيق لا يكلف نفساً إلا وسعها. وفي وصاياهم عليهم يسر، لا عسر ولا حرج.

٦ - ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنَّ أَمْرًا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أَثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا

الثَّلاثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ^{سُورَةُ النِّسَاءِ ١١} اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ^(١).

وبموجب التأويل لـ «إن كان رجل يُورث كلاله» الذي مر أعلاه فإن الأخ والأخت والعم والخال والعمة وغيرهم كلهم كلاله. وللمؤثر أن يجعل من شاء منهم وارثاً لتركته، وكان من الممكن أن يرجح أحداً من أعمامه، وأخواله أو خالاته وعماته ويعطي له أولوية على إخوته وأخواته، الأمر الذي لا يليق، لأن الإخوة والأخوات هم أقرب قرابة من المؤثر بعد الأولاد، فيتقاضى العقل أن يرثوا أكبر جزء من الإرث. وقد سبق أن قلنا إنه في تواجد الأخ والأخت لكل من الوالدين السدس، وهذه الحصص نفسها لهما إن كان له ولد، فيثور سؤال هنا أنه هل للمتوفى في مثل هذه الحالة أيضاً أن يورث الإخوة والأخوات إن شاء أو أن يحرمهم إن شاء؟ وقد قلنا أعلاه في شرح الآيات إنه يترشح من أسلوب البيان أن الميت يرثه أخوه أو أخته إن كان ليس له ولد، ولكن دلالة الأسلوب هذه - مثل دلالة الألفاظ - لا تخلو من احتمالات أخرى حتى تقضي على كل نقاش عليها، لذا يمكن أن يثور هذا السؤال اليوم في الأخوة والأخوات إن لم يكن له ولد، وقد ثار ذلك في الزمن الرسالي كما روي عن جابر ^(ع):

يقول: جاء رسول الله ^(ص) وسلم يعودني، وأنا مريض لا أعقل فتوضاً وصب عليّ من وضوءه فعقلت، فقلت: يا رسول الله، لمن الميراث، إنما يرثني كلاله؟ فنزلت آية الفرائض ^(٢) و ^(٣).

ويتضح من لفظ هذا الحديث: «إنما يرثني كلاله فنزلت آية الفرائض» أن

(1) سورة النساء، الآية: ١٧٦.

(2) رواه مسلم برقم ٤١٤٨ وذلك يوضح أن آية الميراث هنا هي المقصودة من الآية الأخيرة من سورة النساء التي وصف فيها أنصبه الإخوة والأخوات. وكذلك حديث في البخاري برقم ٦٧٤٣ صريح في أنه لم يكن من ورثة جابر إلا الأخوات.

(3) رواه البخاري، رقم ١٩.

السؤال كان عن ميراث أقارب الكلالة وخاصة الإخوة والأخوات، وهذه الآية الأخيرة من سورة النساء نزلت ردًا على هذا الاستفتاء.

وأسلوب خاص للقرآن هو أنه يروي الأسئلة بإيجاز شديد. ولذلك فإن طبيعة السؤال ومناسبته ومحلّه وجوابه تتضح عمومًا من الجواب الذي يقدمه القرآن بعده. وقد عرضت للناس إشكالات معقدة في فهم تأويل الآية: ﴿قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ بسبب غرض النظر عن هذا الأسلوب، على أنه إذا نُظر إلى السؤال من حيث الإجابة، اتضح قصد المتكلم دون أي غموض، فإن هناك أيضًا نفس الأسلوب الذي جاء في الآية: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ فهناك الوصية كانت للأولاد ورثة المتوفى وهنا الفتوى لأقرباء المتوفى الكلالة.

والألف واللام على الكلالة يدل على أن السؤال يتعلق بأقارب معينين من الورثة الكلالة، والجواب يظهر أن هؤلاء الأقارب هم إخوة وأخوات المتوفى. وقد ورد في آيات الموارث جواز جعل أي أحد من ذوي القربات الكلالة كالأعمام والأخوال والإخوة والأخوات والخالات والعمات وريثًا، وهنا ذكر العموم بعد الخاص، فمعنى الآية أذن يكون: قل الله يفتيكم في الإخوة والأخوات من ذوي القربى الكلالة. ونظير هذا الأسلوب ما في الآية سورة البقرة: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْإِهْلَةِ (١).

﴿إِنْ أَمَرُوا هَلْكَ لِسَ لَهٗ وَلَدٌ﴾

وهذا شرط في ميراث الإخوة والأخوات بنفس الطريقة، كما هو في الآية: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ. والمعنى هناك أنه إذا كان المتوفى ليس له أولاد وكان الوالدان هما الورثة، فإن نصيبهم يكون ذلك، وهنا المعنى أنه إذا لم يكن للمتوفى أولاد وإذا كان له إخوة وأخوات، فإن نصيبهم هكذا... ويتضح من هذا الشرط أن الإخوة والأخوات لا يرثون إلا في حالة عدم وجود الأولاد. وإذا كان هناك أولاد فلا نصيب ثابت لهم في ميراث المتوفى، إلا أن المتوفى يجعل

(١) البقرة: ١٨٩. وانظر: تدبر القرآن، أمين أحسن الإصلاحي ١ / ٤٧١.

أحدهم وارثاً لما تبقى من الميراث وفقاً للقاعدة العامة للكلالة في الآية ١٢ من سورة النساء.

وأنصبة الأخوة والأخوات المذكورة هنا لا تختلف عن سهام الأولاد. **﴿وَلِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾** دليل على أن هذه الأنصبة ستعطى أيضاً من بقية التركة بعد إعطاء نصيب الوالدين وأحد الزوجين. وقد بينا أسباب ذلك مع شرح سهام الأولاد. ولذلك فإن الجزء من الميراث الذي سيتم تقسيمه بين الإخوة والأخوات، إذا كان هناك أخوات للمتوفى فقط، فوفقاً لتوجيهات القرآن يدفع لهن أيضاً ثلثاه ونصفه.

وهذا الأمر، كما ذكرنا أعلاه، كان واضحاً أيضاً من الآيات ١١ - ١٢ أنه في حالة عدم وجود الأبناء، فإن الإخوة والأخوات هم خلفائهم، لكن هذه الآية التفسيرية من سورة النساء قد أوضحت ذلك وصرحت. فهناك كان من الممكن أن يقع الناس في الخطأ لعدم فهمهم لمعنى البيان الأسلوبى. وبعد هذا التوضيح القرآنى لم يبق هذا الاحتمال. فقال: **﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾**.

الباب الخامس:

التشريع الدعوي

ومن مطالب الدين المهمة أن يستمر من يتبنى الحق في الدنيا، بعد تبنيه، في الدعوة والنصح للآخرين على الاستمرار. ويصطلح عليه مصطلح الدعوة والإرشاد والتبليغ عامة، وما زلنا نحن المسلمين واقفين دائماً على أن نور الإيمان والعمل الصالح الذي أعطانا الله إياه، يحق لنا ألا نحرم الآخرين منه، وهذه هي المكانة لعملية الدعوة التي نظرًا إلى أهميتها من جانب كما أعطى الله تعالى شريعته للإنسان في السياسة والاقتصاد والعبادة وغيرها من الأمور فقد بين الله تعالى شريعة مفصلة للدعوة أيضًا أيضًا في جانب آخر.

ومن خلال دراسة هذا القانون يتبين أن مسؤولية الدعوة قد فرضت فيه على المؤمنين في حالات مختلفة تمامًا حسب اختلاف أحوالهم. ولفهم المغزى يمكننا أن نوضح هذا القانون تحت العناوين التالية:

دعوة النبي

دعوة ذرية إبراهيم

دعوة العلماء

دعوة النظام الجماعي

دعوة الفرد استراتيجية الدعوة

دعوة النبي

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ
وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾⁽¹⁾.

وهذا هو منصب ورسالة النبي ﷺ التي فصلها الله في هذه الآيات. ومهما جاء من رسل الله إلى الدنيا، فمعلوم من القرآن أنهم جاؤوا للدعوة إلى الله والتحذير والبشارة. كما أن الآية من البقرة: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾⁽²⁾ و⁽³⁾ أيضًا تتحدث عن ذلك. وكان البعض من بين هؤلاء الأنبياء ممن قضى الله تعالى في منصب الرسول، فيقول القرآن إنهم تم تكليفهم أيضًا بإيصال هذا الإنذار إلى أممهم إلى حد الشهادة وإتمام الحجة. وذلك يعني في اصطلاح القرآن أن يظهر الحق للناس بحيث لا يكون لأحد أن يحيد عنه بعد ذلك فقال: ﴿لَوْلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾⁽⁴⁾ و⁽⁵⁾.

ويتم ذلك من خلال طريق أن الله تعالى سيختار هؤلاء الرسل لإظهار حقه وكلمته، ثم يقيم على المخاطبين قبل يوم القيامة يوم القيامة الأصغر في هذه الدنيا. فيُنصَح لهم أنهم إذا التزموا بعهدهم مع الله فلهم ثوابه، وإذا حادوا عنه سينالون عقابه في الدنيا. والنتيجة أن وجود الرسل يصبح آية إلهية للشعب ويرون الله يمشي معهم على الأرض ويجري العدل.

ومع هذا يؤمرون أن يشيروا بالحق الذي رأوه بأعينهم، وأن يبلغوا الناس

(1) سورة الأحزاب، الآيتان: ٤٥ و ٤٦.

(2) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

(3) هود ١١، ٧٤، ٧٤.

(4) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

(5) الصافات ٣٧: ١٣٩، ١٤٨.

هدى الله تعالى على يقين مطلق، فهذه هي الشهادة. فإذا ثبتت صارت أساساً للحكم الإلهي في الدنيا والآخرة. ولذلك فإن الله تعالى سيسلط على هؤلاء الرسل، وينزل عقوبته على من كذب بدعوتهم. وقد وردت في هذه الآيات من سورة الأحزاب كلمة «شاهد» لوصف مقام رسول الله ﷺ هذا. إن إنذارات الأنبياء ومبشراتهم لا تحتاج إلى أي تفسير، لكن حالة الرسل مختلفة. وبالإنداز والبشارة التي كلفوا بها بواجب الدعوة والشهادة.

وبما أن هناك مراحل معينة لدعوتهم، ونتائج معينة لتلك المراحل خاصة بهم، ولا تتعلق بأي شكل آخر من أشكال الدعوة. وسنصف هذه المراحل من دعوة الرسل بالتفصيل هنا.

الإنداز:

وهذه هي المرحلة الأولى من هذه الدعوة. ومعنى «الإنداز» هو تحذير الناس من سوء عاقبة على أمر. ويُعلم من القرآن أن رسول الله ﷺ كان دائماً يحذر قومه من عذابين: أحدهما يصيب كفارهم يوم القيامة، والآخر يصيب من عصى دعوة الأنبياء في الدنيا وينزل بهم. يخبرون قومهم أنهم أرسلوا لإقامة قيامة صغرى على الأرض. وعندما تتحقق حجة الله عليهم بدعوتهم، سيتعين على قومهم أن يروا نتيجة عصيانهم في الدنيا، وسورة القمر من الباب السادس للقرآن خير مثال على هذا التحذير والإنداز:

وفيه إشارة إلى سنته في الرسل قد خاطب الله تعالى أهل قريش فقال في تهديد شديد:

﴿ أَكْفَرْتُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾⁽¹⁾.

ويقطع نظم القرآن في ست سور في الباب الأخير من القرآن أي من الملك (٦٧) إلى الجن (٧٢) أنها نزلت في نفس المرحلة، فمن خلال دراسة هذه

(1) سورة القمر، الآية: ٤٣.

السور يستطيع كل دارس للقرآن أن يقدر اللهجة والأسلوب والطرز الاستدلالي الذي يعتمد عليه رسل الله في هذه المرحلة، وقد لخص القرآن هذا الأسلوب مبيناً مثل أصحاب الجنة في سورة القلم: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كُنُوا يَعْلَمُونَ﴾⁽¹⁾.

وبما أن هذا التحذير يجب أن يصل إلى نتيجة نهائية في هذا العالم، فهو موجه إلى الأشخاص الذين لهم تأثير في أمتهم بشكل أو بآخر، والذين يتبعهم عامة الناس علماً وعملاً وسيرةً وأخلاقاً، والذين يؤدي مرضهم إلى مرض الآخرين وتبعث صحتهم على صحة الآخرين؛ والذين انفتاح قلوبهم وعقولهم هو وسيلة لقهر وانفتاح الجميع؛ أولئك الذين لديهم الوسائل والموارد المادية التي تمكنهم من زيادة قوة الحق؛ وأولئك الذين لديهم القدرة بتطورهم العقلي على القيام بالدعوة وتغييرها إلى طوفان من القوى الهائلة للمعرفة والعمل.

والقوم الذين لا يمكن لجماهيرهم الخروج من دائرة المعتقدات القديمة، ولا يستطيعون التخلص من شكوكهم، ولا يشعرون بالارتفاع العقلي المؤيد لأي دعوة، مما يشجعهم على الذهاب إلى الأرواح السعيدة مثل مجاهدي «بدر وحنين» ما لم ينظروا بأم أعينهم أن تبعثت أسس حجج زعماء الكفر والشرك، واقتلعت جذور الفكر والفلسفة لهم، واهتزت أسس ناطحات السحاب للأخلاق والسياسة عندهم. حتى يقوموا بتشجيعين بالمجاهدين بكسر طلاس قوة وعظمة هؤلاء، صناديد الظلم والجبر والكفر.

وفي بيان كيفية استقاء هذه الخاصية من إنذار الأنبياء من القرآن الكريم، يقول الأستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاحي في كتابه «دعوة الدين ومنهجها»:

«لقد دعا إبراهيم عليه السلام أولاً عائلته، التي كانت متمكنة على السيادة الدينية للأمة. ثم دعا الملك الذي بيده زمام السلطة السياسية والذي كان يظن أنه صاحب قدرة على حياة الناس وموتهم، فقد أمر الله موسى عليه السلام أن يسأل فرعون

(1) سورة القلم، الآية: ٣٣.

أولاً وكان المسيح ﷺ أول من دعا علماء اليهود، وكذلك دعوات نوح ﷺ وهود ﷺ وشعيب ﷺ كلها مذكورة في القرآن الكريم. كان كل من هؤلاء الأنبياء أول من تحدى الحكام والمستكبرين في عصره وهاجم أفكارهم وضرب نظرياتهم.

وفي النهاية بعث رسول الله ﷺ وأمر بإنذار أقربائه الذين كانوا أرباب حكومة العرب الدينية والبطيركية وكهنة ورؤساء قبائل وكانوا يوجهون كل العرب أخلاقياً وسياسياً من خلال هذه السلطة الدينية. (٤٩).

يقول الله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فِرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفِرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾^(١).

الإنذار العام

هذه المرحلة الثانية. ولا فرق بين هذا وبين مرحلة الإنذار إلا أن الدعوة فيها تكون منفردة أو في بعض المجالس، ولكن في هذه المرحلة يؤمر النبي أن يدعو قومه علناً، ويضع رسالته بكل ما أمكن له من وسائل وطرائق أمامهم، وهذه المرحلة صعبة للغاية في دعوة الأنبياء، وقد ذكر القرآن أنه عندما جاءت هذه المرحلة في دعوة رسول الله ﷺ فقد أمر بالقيام في الليل للاستعداد لها. ونزلت بهذه المناسبة سورة المزمل من القرآن. والتي أمره الله تعالى أن يقوم إلى صلاة الليل ليقراً فيه القرآن ويرتله ترتيلاً ويذكر ربه بقلبه ويرطب لسانه بذكره تسبيحاً وتحميداً ويتبتل إليه تبتيلاً في وحدة الليل وينقطع إليه وقال ذلك لأننا: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾. وألقي عليه ذلك الثقل في السورة التي بعدها

(١) سورة الشورى، الآية: ٧.

فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَتِبَابَكَ فَطَحِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَمُنَّ تَسْتَكْبِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾^(١).

ويبقى تسلسل الدعوة على حاله في هذه المرحلة أيضًا، وشيوخ الأمة وأرباب الحل والعقد فيهم هم الذين يخاطبهم النبي أصالة، لكن شدة التحذير العلني أيضًا تبرز رد الفعل بكل قوة، والذي لم يظهر بعد في مرحلة التحذير ظهوره ذلك، وبما أن أول من آمن بالنبي ﷺ كان معظمهم من الشباب، فإن رد الفعل هذا ظهر أيضًا أولاً من أحبائهم وأصدقائهم وأقاربهم. ونزل زعماء الأمة إلى الميدان عندما رأوا أن دعوة النبي أصبحت فعالة في المجتمع، فماذا فعلوا من القمع والاضطهاد والموقف الذي أمر النبي ﷺ أن يتخذه في تلك المناسبة، تم وصفه في السور لتلك المراحل في أماكن مختلفة. ولك أن تقدر بعض ذلك من مقامين لسورة يونس فقال:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِنَا بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي بِرَبِّي إِنَّهُ أَنْتَ الْغَافِلُونَ﴾^(٢).

وقال أيضًا:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي فَلَا آعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ آعْبُدْ اللَّهَ الَّذِي تَتَوَفَّكُمُ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٣).

هذه هي النقطة التي بعد الوصول إلى هذه المرحلة، يأتي الوقت الذي يُمنع فيه النبي من أن يكون جشعًا جدًا لهداية هؤلاء المتكبرين ويأمر بالتركيز على تربية وإصلاح أصحابه. وجاء ذلك في القرآن:

(١) سورة المدثر، الآيات: ١ - ٧.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٥.

(٣) سورة يونس، الآيتان: ١٠٤ و ١٠٥.

﴿فَقَوْلَ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ * وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَ نَفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) وقال:
 ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يَزَيِّجُ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنْ اسْتَعْجَلَ * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَيِّجُ * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ * فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾^(٢).

إتمام الحجة

وهذه هي المرحلة الثالثة، وفي الوصول إلى ذلك تتضح الحقائق وضحا
 بحيث لا يبقى للمخاطبين عذر يعذرونه، وهو الذي يُطلق عليه في الاصطلاح
 إتمام الحجة، أي يجب أن ينكشف ما يدعو إليه الداعي ويبرهن بحيث لا يقنع
 الإنسان بإنكاره إلا التماذي والعناد والمكابرة. وظاهر أن كل شيء فيه يؤثر من
 شخصية النبي وصفاته وعلمه وأفعاله مع الدينونة الألوهية، حتى يصير الأمر
 مشرقاً كالشمس تشرق في السماء. لذلك، في هذه المناسبة، يوضح النبي مصير
 مخاطبيه إلى حد كبير، ويتخذ لهجة الإنذار الأخير في الدعوة.

وفي سورة الفيل وسورة قريش من القرآن الكريم، اللتين نزلتا في نهاية
 هذه المرحلة من استكمال إثبات دعوة النبي ﷺ، فإن هذين الأمرين بارزان جداً.
 قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ
 عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾^(٣).
 وقال:

(١) سورة الذاريات، الآيات: ٥٤ و ٥٥.

(٢) سورة عبس، الآيات: ١ - ١٦.

(٣) سورة الفيل، الآيات: ١ - ٥.

﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ * إِذْ لَفِيهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (١).

فالسورة الأولى، إذا تأملتها رأيت، أنها تحذر قريشاً من أن الرب القاهر الذي سحق أعداءه أمامكم بهذه الطريقة، فإن قمتم لتعادوه فلن تختلف نهايتكم عنهم. والسورة الثانية تنبههم إلى أن البيت الذي في حوزتهم وتحت أمرهم فإن صاحبه هو الذي رزقهم، ورزقهم السلام، فعليهم على الأقل أن يعترفوا بهذا الحق أن يظلوا عباداً له في الدنيا.

وهذا هو أسلوب النبي في هذه المرحلة من الدعوة.

الهجرة والبراءة

وهذه هي المرحلة الرابعة، عندما يؤدي رسول الله حق الدعوة في آخر مرحلة وتنتهي الأدلة، فتأتي هذه المرحلة، وفيها يعلن لهم لائحة الاتهام ويبلغ إلى زعماء القوم كاملاً ويُخبرون أيضاً أن الحد الأقصى لعمرهم قد وصل، فالآن ستقطع جذورهم من هذه الأرض. إلى جانب هذا، يُبشر النبي أيضاً بأن الوقت قد حان لظهور عون الله ونصره، وسينجو النبي هو وأصحابه الآن، وسيستخلفون في أرض الله حيث كانوا ضعفاء وعاجزين حتى الآن. فقال تعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ (٢).

ويوضح القرآن أن هذا المشهد من مشاهد عون الله ونصرته يمكن أن يقع ويحدث أمام عيني النبي ويمكن أن يتأخر إلى ما بعد مغادرته هذا العالم. ولذلك قال عن رسول الله ﷺ:

(١) سورة قريش، الآيات: ١ - ٤.

(٢) سورة إبراهيم، الآيتان: ١٣ - ١٤.

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ﴾ * أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴿١﴾.

وعلى هذا الموقع يعلن فيها النبي تكفير أمته واشمئزازه من عقيدتها وديانتها. وطريقة حدوث ذلك كله في دعوة النبي ﷺ واضحة من مواضع تالية من القرآن:

﴿قُلْ يَتَّيْبَهَا الْكَافِرُونَ﴾ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٢﴾. وقال في موضع آخر:

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ * سُنَّةٌ مِّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا * أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا * وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِّنْ لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا * وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٣﴾. وقال في موضع:

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْسِرْ * إِنِّي شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٤﴾. وقال:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٥﴾.

وبعد ذلك إذا كان هناك قرار بالهجرة يؤمر النبي له ومعلوم من القرآن أن

(1) سورة الزخرف، الآيتان: ٤١ و ٤٢.

(2) سورة الكافرون، الآيات: ١ - ٦.

(3) سورة الإسراء، الآيات: ٧٦ - ٨١.

(4) سورة الكوثر، الآيات: ١ - ٣.

(5) سورة النصر، الآيات: ١ - ٣.

هذا الأمر يجيء من الله تعالى، ولا يمكن لنبي أن يقضي ذلك باجتهاده. والسبب في ذلك هو أنه لا يمكن للإنسان أن يفصل بعقله وتقديره أن حجته قد تحققت، وأنه لا يمكن توقع رد إيجابي من الأمة على دعوة الحق الآن، فلما جاءت ملائكة الله إلى نبي جليل القدر كإبراهيم بهذا القرار في قوم لوط، فاعتبره قبل الوقت وجادل الله فيه⁽¹⁾ وقد قضى يونس عليه السلام برأيه في ذلك فوبخه الله بشدة⁽²⁾. وثبت من إيمان قومه بعد مرجعه إليهم أن الهداية والتوفيق كله إنما هو في علم الله وبيد الله، وقد ضرب القرآن الكريم مثال قوم يونس ويوضح أنه يجب على رسل الله الثبات على هذا الأمر وأن ينتظر قرار الله وقضائه فيه. ولا يستطيع أن يترك أمته وهو يظن أن واجب الدعوة قد تم الوفاء به إلى حد كاف. بل لا بد له من أن يكون مشغلاً في المسؤولية التي كلف بها، حتى يقضي ربه بأن الحجة قد تمت، وانقضت مهلة الناس، والآن يمكن للنبي أن يتركهم.

العقاب والجزاء

هذه هي الخطوة الأخيرة. وبهذا يقوم حكم السماء على الأرض، وتظهر دينونة الله وتقوم القيامة الصغيرة لقوم النبي. ويبين تاريخ إنذارات الأنبياء الذي جاء في القرآن أنه في هذه المناسبة تحدث حالتان في عامة الأحوال: إحداهما أن أصحاب النبي يكونون قليلاً جداً أيضاً، ولم توفر له دار للهجرة. والثانية: أن يخرج مع عدد لا بأس به من أصحابه، وقبل أن يخرج يوفقه الله تعالى للعيش في أرض مع الحرية والرخاء. وفي كلتا الحالتين لا بد من تحقيق سنة الله في الرسل التي وصفها القرآن بما يلي:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾⁽³⁾.

(1) هود: ٧٤-٧٦.

(2) الصافات: ١٣٩-١٤٨.

(3) سورة يونس، الآية: ٤٧.

ففي الحالة الأولى، بعد خروج النبي من قومه، عادة في صورة وفاته أو في شكل هجرته، يصدر هذا القرار بحيث تنزل جيوش السماء، وتقوم عاصفة الساف والحاصب، وتنزل جيوش السماء. وجنود الهواء والسحب تهاجم الأمة بحيث لا يبقى في الأرض أحد من مخالفين الرسول، ولكن هذا يكون فقط بالنسبة لأولئك الذين يستخدم القرآن في حقهم كلمة «المشركين». وأما الذين ارتبطوا أصلاً بالتوحيد فليسوا يعاملون بهذا، بل القاعدة فيهم أنه بدل استئصالهم يفرض عليهم عقوبة الذل والقهر. فكان ذلك مع بني إسرائيل وعلى عكس منهم قد أبيد قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب وما إلى ذلك من الأقسام والأمم البائدة.

وبالنسبة للحالة الأخرى فإن القانون نفسه يطبق عليها أيضاً، ولكن في هذه الحالة يتم تنفيذ قرار العقوبة هذا من خلال سيوف الرسول وأصحابه، ومن الواضح أن القوم يحصل على بعض المهلة في هذه الفترة كما أن الرسول يستكمل الحجة على مخاطبي دار الهجرة، بعد تربية وتطهير وتزكية المؤمنين به، وينظمهم أيضاً لمعركة الحق والباطل هذه، ويعزز أيضاً سلطته في دار الهجرة إلى درجة أنه يستطيع أن يخوض معركة استئصال الكفار وإعلاء كلمة الحق وأهله، وتكون نتيجة هذه العملية برمتها أن يتميز مخالفوا الرسول ومؤيدوه تماماً ويتقدمون إلى الأمام على هذا النحو أن يمكن الاطلاع على كل مجموعة على حدة بكل خصائصها قبل اتخاذ القرار عنها وفقاً للسنة الإلهية.

ومعلوم من القرآن أنه يكونون بين الفريقين من الناس عموماً ثلاثة أصناف فقط: ففي المخالفين المعارضين يكون هناك المعاندون المتربصون والمغفلون، وفي الموافقين الأنصار، السابقون الأولون، والتابعون الأخيار، والضعفاء المنافقون.

ويشير مصطلح «المعاندون» إلى الأشخاص الذين، بمجرد أن تصبح الدعوة فعالة، يعارضونها علناً وبكل شدة. والدافع وراء هذه المعارضة هو

الجهل والحسد والغلظة والمصلحة الذاتية أيضًا. وهذه الدوافع الثلاثة متشابهة في طبيعة التعارض، ولكنها مختلفة تمامًا من حيث حقيقتها.

الدافع الأول عادة ما يؤدي إلى الصراع مع أولئك الذين يكرسون أنفسهم تمامًا لجاهلية عصرهم والخدم الحقيقيين لنظامها، فيتقدمون إلى مقابلة دعوة الرسول ورسالته معتبرين ذلك تحديًا لهم في خلفية روايات وتقاليد الآباء، حيث إنَّ معارضتهم تكون مبنية على الكبرياء الوطني، فلا يوجد فيها رزالة ودناءة ولذلك، إذا كانوا معارضين، فكانوا بكل حماسة قومية مثل أبي جهل وإذا آمنوا، فأمنوا بكل قلوبهم وأرواحهم مثل عمر وحمزة رضي الله عنهما.

أما الدافع الثاني فهو عادة ما يثير عداوة هؤلاء الأشخاص الذين هم أصحاب الدولة الدينية أو الدنيوية من جيل إلى جيل في النظام الديني أو الدنيوي، وبسبب تعودهم السيادة والرئاسة لا يمكن لهم أن يقبلوا رسولاً قائداً لهم وإماماً ويريدون أيضًا أن الحق يظل لهم متبعًا، وكان هؤلاء على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هم الذين يقولون: وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم⁽¹⁾.

كما عارض اليهود الرسول الكريم بنفس الدافع⁽²⁾. وفي زمن المسيح عليه السلام حُرِّم زعماء بني إسرائيل والفقهاء والفريسيون من نعمة الإيمان بسبب ذلك، وكان قول المسيح صدق عليهم تمامًا. إن مرور الجمل من ثقب الإبرة أسهل للأغنياء من أن يدخلوا في ملكوت الله⁽³⁾. [٩] ففي البداية، الناس كهؤلاء يحتقرون النبي ودعوته، وينظرون إليه نظرًا شزرًا تمامًا، ولكن عندما يرون نفوذه يتزايد بين الناس، يحترقون بنار الحسد وجأؤوا بكل ما يقوم به الحاقدون ضد خصومهم في هذا العالم.

(1) الزخرف: ٣١.

(2) البقرة: ١٠٩.

(3) متى: ٢٤.

أما الدافع الثالث فهو يثير عادة على المعارضة أولئك الذين لا يرغبون أبداً في النظر إلى ما وراء مصالحهم الذاتية. إنهم أسيروا لأنفسهم في كل أمر، ويبحثون عن الامتياز في كل خطوة، وقد اعتادوا على تحديد وفصل الصواب والخطأ في كل شيء فيما يتعلق بأنفسهم. ولذلك فإنهم بسبب وضاعتهم الأخلاقية ودناءتهم لا يستطيعون إلا أن يركزوا على مصالحهم الخاصة، فلا يمكن لهم أن يقبلوا دعوة النبي ويتجاوزوا عقباته. وموقف أبي لهب من دعوة النبي ﷺ مثال على ذلك.

و«المتربصون» يشير إلى أولئك الذين يتوضح عليهم كون دعوة النبي حقاً إلى حد ما، ولكن بدلاً من قبول الحق على أساس مجرد الحق، ينتظرون لمعرفة مستقبل هذه الدعوة، لذلك لا يظهرون الكثير من النشاط في معارضة النبي ومخالفته، ولكنهم مع ذلك دائماً يدعمون المعارضين ويشاركونهم ويبدلون جهودهم ليلاً ونهاراً في خلق نوع من التوفيق بين الحق والباطل، لكي لا يكلفوا أنفسهم عناء اتخاذ أي قرار حسم في هذا الشأن.

وفي أوقات الفتنة والصراع، يمكنهم أن يقولوا كلمة طيبة في حق النبي وصالحه، وأحياناً يمكن أن يظهروا إعجابهم به، ويمكنهم أن يتمنوا نجاحه في قلوبهم، وأحياناً يمكن أن يجترئوا على دعمه مادياً أو معنوياً لكن في الوقت ذاته، لا يمكن لهم قبول الدعوة النبوية والاستعداد لتحمل العبء من أجلها.

ويشير مصطلح «المغفلون» إلى عامة الناس الذين يخضعون عقلياً واقتصادياً لنظام عصرهم ويتبعون في كل الأمور الزعماء الدينيين والقادة السياسيين في عصرهم. لذلك، حتى في حالة دعوة النبي، فإنهم يتبعون إشارات قادتهم وينتظرون أي إجراء منهم. وعادة ما يكون سلوكهم في المرحلة الأولى بإزاء الدعوة النبوية هو نفسه، ولكن بعد ذلك، عندما قام قادتهم على الساق ودخلوا الميدان معارضين للنبي، ظهر الفرق الذي بين قادتهم وبين النبي من حيث العلم والعقل والشخصية والأخلاق يبدأ في الظهور بشكل مثالي.

وفي ذلك الوقت، يشكون في قادتهم وينفصلون عنهم ويتوجهون إلى

النبي، وهذا التغيير في داخلهم يدفع بعض الجسورين وأصحاب السيرة العالية إلى التحرك، ونتيجة لذلك، أخذوا يرتبطون بالنبي واحدًا تلو الآخر.

إن مصطلح «السابقون الأولون» يستخدم في القرآن الكريم لأولئك الذين يتمسكون بمجرد سماع دعوة الحق بها، ويكونون على استعداد للتضحية بكل شيء من أجلها، بغض النظر عن كل العواقب. وهم الذين طبيعتهم صالحة، وعقلهم مستيقظ، وقلوبهم حي، وعينهم ترى وتسمع، وعقلهم مستعد تمامًا لفهم وقبول كل شيء صحيح، فهم يرون الأشياء بنور العقل والطبيعة، وعندما يكونون راضين مطمئنين عن صحتها، يعترفونها متحررين من كل أنواع المشاعر والتعصبات ولا يخافون من كل المخاطر.

فهم يبرزون مثل الزهرة الدائمة الخضرة في أمتهم وكأمثال جبال هملايا وألواند الرواسية في أرضهم من حيث الخلق والشخصية. ليست الدعوة شيئًا غريبًا عنهم، بل هي صوت قلبهم، وصوت ضميرهم، وأغنية روحهم، وهم فقط ينتظرون من يقوم من رائد فيساندونهم ويكونون حاضرين في خدمته بكل القلوب والأرواح، ولذلك فإنهم عندما يرفع النبي صوت دعوته لا يعتذرون، ولا ينظرون إلى نسبه وحسبه، ولا يحللون ماضيه وحاضره.

إنهم لا يتحاملون على شخصيته، ولا يطلبون منه معجزات، ولا يثيرون حجبًا ومباحث لا طائل من ورائها، بل يقولون على الفور: أعلم أن هذه الرسالة وهذه الدعوة في قلبنا أيضًا - فيستجيبون لدعوته ويقفون جنبًا إلى جنب معه بعزم صميم وثبات قلب بأنهم لن يتراجعوا أبدًا:

ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

أما «المتبعون بالإحسان» فهم الذين يتوجهون إلى الحق بعد خطوات وأعمال السابقين الأولين للدعوة. إنهم ليسوا من الدرجة الأولى من حيث العقلانية والأخلاق، لكنهم الأفضل في الصف الثاني بالتأكيد. فإنهم إذا لم يتقدموا بأنفسهم مثل السابقين الأولين فلا يمكن لهم أن يتخلفوا عن دعوة الحق الرشيد بعد أن رأوا شجاعة السابقين لهم وطموحهم، وتفوقهم في سبيل الحق

وثباتهم في عقبات هذا الطريق، وربما لا تؤثر عليهم القوة العقلية والمنطقية لدعوة الحق بالطبع كثيرًا، ولكن شوق وطموح أصحاب العزيمة وشجاعتهم ينتصر عليهم بالتأكيد عاجلاً أم آجلاً.

ومع ذلك، يكون على النبي أن يجاهد في قضيتهم جهادًا. لذلك، إذا زالت الشكوك التي تطرأ في قلوبهم عن الحق، وتلك التي ربما قد نشأت من قبل الآخرين، وظهرت أمامهم بعض نماذج العزم والشجاعة، فإن طبيعتهم ستتغير. وبعد ذلك، إن شاء الله، يصبحون أصحاب النبي ويؤيدونه في كل فنة بكل إخلاص وشجاعة.

«الضعفاء والمنافقون: المشابهة فيهما ظاهرية فقط وإلا فهم أشخاص مختلفون تمامًا من حيث نواياهم وإراداتهم. ولذلك، وبنفس الطريقة ينبغي فهم سماتها وخصائصها بشكل منفصل.

«الضعفاء» هنا تعني أولئك الذين يقبلون دعوة النبي في مرحلة أو أخرى، وأحيانًا في البداية، ويكون في نيتهم تلبية متطلباته في حياتهم، ولكن بسبب ضعف قوة الإرادة يسقطون ويقومون مرارًا وتكرارًا. لكن ميزتهم أنهم في كل مرة يسقطون ويصححون أخطاءهم بالتوبة والاستغفار ويواصلون رحلتهم على الطريق الصحيح على كل حال.

و«المنافقون» على العكس من ذلك هم الأشخاص الذين يأتون مع النبي أحيانًا بسبب انطباع مؤقت وأحيانًا بقصد الإضرار بالنبي ورسالته بكل شعور منهم. ففي الحالة الأولى، يظلون دائمًا على صورة ﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾⁽¹⁾، وفي الحالة الثانية، فإن مكانتهم هي مكانة عميل العدو في صفوف المؤمنين. لذا فإن دورهم هو ما يمكن توقعه من مثل هذا الوكيل⁽²⁾.

(1) سورة النساء، الآية: ١٤٣.

(2) خصائص النبي ﷺ هذه مستقاة من كتاب الأستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاحية دعوة الدين ومنهجها.

وعندما يتم التمييز التام بين هذين الجانبين من المؤيدين والمعارضين من مخاطبي النبي، ويكون النبي أيضًا مستعدًا للحرب برفقة أصحابه، عندها تصدر محكمة الله قرارها. وتفصيل كيفية صدور هذا القرار في دعوة النبي ﷺ كالتالي:

١. قُتل جميع المعاندين من قيادات قريش في يوم بدر، إلا أبو لهب الذي حاول الهروب من هذه العقوبة ولم ينضم إلى المعركة. وقد أعلن عنه القرآن أنه لا بد أن يهلك هو وأعوانه وأنصاره^(١). فبعد سبعة أيام من هزيمة قريش في بدر، تحققت هذه النبوءة حرفًا حرفًا ومات سيد بني هاشم هذا بمرض العدسة، بحيث لم يتمكن أحد من المجيء إليه لمدة ثلاثة أيام حتى بعد وفاته. حتى أن تعفن جسده وبدأت الرائحة الكريهة تنتشر منه. وأخيرًا، وفي آخر الأمر تم وضع جسده مع حائط وتمت تغطيته بالحجارة.

٢. وبعد تطهير وتركية المسلمين في أحد والأحزاب، تم إنذار جميع المتربصين والمغفلين من مشركي العرب بأن لهم الآن مهلة أربعة أشهر فقط. وبعد ذلك سيقع عليهم عقوبة العار والخزي الذي لن يجدوا منه مخرجًا في هذه الدنيا^(٢).

٣. وقد أُعلن في السنة التاسعة للهجرة، بمناسبة الحج الأكبر، أن المسلمين بعد انتهاء الشهر الحرام سيقتلون هؤلاء المشركين حيث وجدوهم، إلا أن يؤمنوا وقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة. ولا يستثنى من ذلك إلا أولئك الذين قد عهد معهم النبي مسبقًا. وفيما يتعلق بهذه الاتفاقيات، فقد صدر توجيه بضرورة الوفاء بها طوال مدتها. والمعنى الواضح لذلك هو أنه بعد انقضاء هذه المدة ستصل هذه المواثيق أيضًا إلى نفس النهاية التي قُدرت للمشركين^(٣).

(١) اللهب ١ - ٣.

(٢) التوبة ١ - ٢.

(٣) التوبة ٣ - ٥.

٤. كما قُتل المعاندين والأعداء من أهل الكتاب بنفس الطريقة. وبعد ذلك جاء الأمر في جميع طوائفهم أن يعيشوا الآن تابعين للمسلمين وصاغرين بإعطائهم الجزية ويكونوا محكومين لهم. وقد أخبروا أنهم إذا لم يقبلوا قرار الله تعالى هذا فسوف تعمل فيهم سيوف النبي وأصحابه وتقتلهم وتدخلهم النار^(١).

٥. وتم تحذير المنافقين أنه سيكون من الأفضل لهم إذا تابوا، وإلا فإنهم أيضًا سيعانون قريبًا من نفس المصير الذي سوف يلحقونه الكفار^(٢).

٦. وقد عفي وغفر للمخطئين من بين المؤمنين بعد أن ذاقوا بعض العقوبة^(٣)، وبشر ضعفاء المسلمين بأنهم إذا استمروا في موقف التوبة والإصلاح، فمن المتوقع أن يغفر الله تعالى لهم أيضًا^(٤).

٧. وقد أوكلت ولاية بلاد العرب وولاية الحرم إلى المسلمين بقيادة السابقين الأولين، وبذلك تحقق وعد الله الذي جاء لهم في سورة النور:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٥).

دعوة سلالة إبراهيم

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ

(١) التوبة، ٢٩.

(٢) التوبة، ٧٤ - ١٠١.

(٣) التوبة، ١١٨.

(٤) التوبة، ١٠٢.

(٥) سورة النور، الآية: ٥٥.

حَرَجَ نَبَلَهُ أَيُّكُمْ إِبْرَاهِيمُ هُوَ سَمَّكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴿١﴾.

وهذه الدعوة هي نفس الشهادة التي سبق ذكرها في دعوة النبي. ويخبرنا القرآن في هذه الآية من سورة الحج أن الله اختار ذرية إبراهيم أيضًا لهذه الشهادة بنفس الطريقة، وأمرهم ببذل الجهود لتحقيق متطلباتها، تمامًا كما يجتبي سبحانه وتعالى بعض الأشخاص الجليلي القدر من أبناء آدم ويختارهم للنبوة والرسالة. فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٢).

وتحت عنوان «الدعوة النبوية»، قد أوضحنا أن هذه الشهادة ليست لمجرد دعوة ووعظ، بل هي أيضًا إظهار دينونة الله القاهر. وخلاصة تاريخها الذي وصفه القرآن الكريم وغيره من الكتب السماوية أن أول ظهور لها كان في دعوة سيدنا نوح (عليه السلام). وبعد ذلك كان الله تعالى يرسل رسله من وقت لآخر إلى جميع أمم العالم لظهور هذه الدينونة.

حتى أنه قد تم بعث سيدنا إبراهيم (عليه السلام) وقرر الله تعالى أن هذا المنصب الرسالي سيعطى الآن لنسله كمجتمع، ومن خلالهم ستقوم سلطة الدين وحجته على العالم كله. وقد جاء في كل من القرآن والكتاب المقدس وصف تاريخ هذه الدينونة العالمية بقدر كبير من التفصيل. وقد ذكر القرآن ذلك حين قسم لكل من التين والزيتون وطور سينين والبلد الأمين أي مكة. والزيتون هو الجبل الذي صدر فيه حكم العذاب على كفار ومنكري السيد المسيح (عليه السلام) بعد رفعه إلى يوم القيامة، وحين ولدت من بين بني إسرائيل أمة جديدة من المؤمنين بالمسيح وهم النصارى. والتين هي قرية تقع على الزيتون (٣).

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٣.

(٣) ورد ذكرها في الإنجيل باسم بيته فاجي.

و الفاجي فيه هو نفس فج الشيء الذي يسمى بالتين في اللغة العربية. وقد جاء في لوقا ١٩: ٢٩ أنه عندما جاء يسوع إلى أورشليم، استقر هناك قليلاً قبل دخول المدينة.

عنها آل إبراهيم أصابهم الله بعقوبة الذل والقهر من خلال تلك الأمم. ويعاني اليوم بنو إسرائيل وبنو إسماعيل كلاهما من نفس العقوبة في الزمن المعاصر.

والذي جاء في سورة الزمر من ذكر دعوة «الشهداء» بمناسبة الحساب والعقاب يوم القيامة، أريد به عندنا ذرية إبراهيم عليه السلام فإنهم بسبب مكانتهم «كشهداء» في الدنيا يُدعون للشهادة في القيامة أيضاً كما يدعى الأنبياء، ويسألون أولاً عن ما كان موقفهم في أمر الحق وهل قاموا فعلاً بالمسؤولية التي أُلقيت على عاتقهم لإيصاله إلى الناس؟ فقال:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءُ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾⁽¹⁾.

دعوة علماء الدين

﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾⁽²⁾.

وهذا الحكم للدعوة خاص بالعلماء. وقد قال الله تعالى أن النفير والخروج للدعوة غير ممكن لجميع المسلمين، ولكن يجب على بعض الناس من كل مجموعة أن يخرجوا بغرض اكتساب المعرفة في الدين ويصبحوا منذرين لأمتهم يقودونها إلى الآخرة للنجاة من العقاب.

وإذا تأملت هذه الآية من سورة التوبة، فيتبين منها أولاً أن حكم الدعوة الذي ورد فيها، لم يجعل الله تعالى فريضة على كل مسلم. فإن الآية تبدأ بجملة تفيد أنه لم يكن من الممكن لجميع المسلمين أن يخرجوا لهذا العمل. من الواضح أن هذه حقيقة بديهية. فلا يولد جميع الناس حاملين نفس القدرة ولا

(1) سورة الزمر، الآيتان: ٦٨ و٦٩.

(2) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.

يحصلون على نفس الفرص في هذا العالم. فهذا لا يمكن أن يتوقع من كل مسلم طبعاً أن يكون عالمًا في الدين وينذر قومه. ولذلك فقد أوضح الله تعالى في هذه الآية أنه لا ينبغي هذا لجميع المسلمين، ولكن يجب على عدد قليل من الناس من كل مجموعة أن يخرجوا لهذا العمل.

الأمر الثاني: هو أن أولئك الذين يجرؤون على الخروج لهذا العمل، لا بد لهم من الحصول على معرفة عميقة بالدين أولاً. ولهذا السبب وردت في الآية كلمة «ليتفقهوا في الدين». أي أن عليهم أن يكونوا بصيرين بالدين، عارفين وفاهمين لحقائقه. ولا يهبوا للناس كدليل أعمى، ولكن ليعرفوا بالدين قبل أن يهبوا داعين له معرفة جيدة كما هو حقه. وهذا الأمر لا يتحقق إلا بإقامة علاقة مباشرة بالكتاب والسنة اليوم بعد رسول الله ﷺ. ولذلك فمن المهم أن يكون القائمون على هذا العمل على بصيرة عميقة في علوم الكتاب والسنة حتى يتمكنوا من شرح الدين وتفسيره للناس بثقة تامة.

الأمر الثالث: أن واجب الدعوة اعتباراً بنوعيته بعد المعرفة بالدين هو «الإنذار» والإنذار فقط. أي إيقاظ الناس حتى يستعدوا للآخرة، فإذا فكرت في الأمر، فهذا هو بالضبط نفس العمل الذي يفعله الأنبياء والرسل في أمتهم. ومن هذا عرف أن مهمة «الإنذار» قد انتقلت من النبي ﷺ إلى علماء هذه الأمة من بعده، وبعد انتهاء النبوة يجب أن يتم إنجاز هذه المسؤولية على أيديهم إلى يوم القيامة.

الأمر الرابع: من المعلوم أن كل داع لهذه الدعوة يجب أن يكون مخاطبه الأصلي هو أمته. فقال: ﴿وَلْيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ وهذا هو الجزء من الآية الذي يحدد نطاق هذه الدعوة، فلا مجال لأصحابها أن يوزعوا هذه الأموال على غيرهم، مع ترك أصحاب الحقوق الأصليين.

والأمر الخامس: أن يكون المقصود من هذه الدعوة تنبيه الناس في أمر الله رب العالمين. وقد ورد في الآية هذا الغرض في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾. وبمعنى آخر ينبغي للناس أن يحذروا من أنه مهما تكن متطلبات

الدين المتعلقة بهم في حياتهم الفردية والجماعية، فلا ينبغي أن يكون إهمالهم لها أو تساهلهم فيها أو تمردهم وتماديهم سببًا لهلاكهم في الدنيا والآخرة. وأما أن تنتقل قيادة العالم إلى الصالحين، وأن تقوم سيادة الدين، وأن تكون كلمة الله هي العليا، في الواقع يمكن ويجب أن تكون هذه رغبة كل داعية، ولكن الغرض الحقيقي من الدعوة وفقًا لهذه الآية هو أن يتجنب الناس من عذاب الآخرة وأن لا يواجهوا أي خزي يوم القيامة.

ومن هذا يتبين أن هذه الآية من سورة التوبة تلزم ذوي البصيرة في الدين أن يُحيوا هذه الدعوة بحكم «وجاهدوا في الله حق جهاده»⁽¹⁾ بحسب قدراتهم واستعداداتهم في كل قرية وكل طائفة وكل قوم من الأمة وبقوا حية دائمًا. وأن يستمروا في تحذير أمتهم وفي إخبار حكامها من واجباتهم ومسؤولياتهم بكل تعاطف وحرقة قلب. ويشرحوا لهم الدين ويفسروه على كل مستوى، ويدعوهم إلى الحق من كل جانب ومن كل اتجاه. ولا يزالون في القيام بفريضة الإنذار والتحذير لهم من عواقب الذنب والإعراض عن الحق ما داموا أحياء، حتى أن ظلم الحكام الطغاة لا يمنعهم من ذلك. وهذا أعظم جهاد يمكن لعلماء الدين القيام به في الدنيا.

وفي تاريخ الأمة إن الأعمال التي استمرت دائمًا، ولا تزال، تحت عنوان الدعوة والعزيمة، مصدرها في الواقع هذه الآية. ومن فضل الله تعالى أنه لم تخل فترة من تاريخنا من هؤلاء الذين يشحذون سراجهم في ظلمات البدع والضلال، ويقفون على رأس الطريق ينيرونه، ويرشدون الناس إلى الطريق الصحيح متحررين من كل ما في الدنيا ولا يهتمون بما يريده الناس وما يطلبونه. كل شغفهم هو الحق فقط فيبذلون كل طاقات قلوبهم وعقولهم لإخبار العالم بمطالبه. ولا يطلبون من الناس شيئًا، ولكن كل ما ينالونه من ربهم يمنحونه لهم

(1) الحج، ٧٨.

بكرم وسخاء عظيمين. ولذلك يطلق عليهم في كل عصر ومصر اسم ضمير الكيان وجوهر الوجود وملح الأرض.

وهذه هي طبيعة هذه الدعوة، والتي ينبغي في ضوئها مراعاة هذه الأمور القليلة:

أولاً: وبادئ ذي بدء، يجب على الذين ينهضون بهذه الدعوة ويدافعون عنها أن يكون لديهم إيمان راسخ بها. فكل ما يقدمونه للناس ينبغي أن ترضى به قلوبهم وعقولهم أيضاً بحيث يشعرون هم أنفسهم أنه نداء قلوبهم وصداء أرواحهم نطقت بها ألسنتهم. فليسلموا شخصيتهم كلها لربهم، وينزلوا في هذه الساحة، وعن الشيء الذي يدعون الناس إليه، ليعلنوا أولاً أنهم آمنوا به من كل قلوبهم ومن كل أرواحهم، قال تعالى:

﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾⁽¹⁾.

ثانياً: أن لا يكون هناك تناقض في أقوالهم وأفعالهم. والشيء الذي حملوا لواءهم فعليهم أولاً أن يتبنوه بأنفسهم، والحق الذي يدعون إليه الناس فلتشهد عليه أعمالهم. والقرآن واضح جداً في هذا الأمر أن الدعوة ليس من عمل الدعاة العاطلين، بل هو من عمل أرباب العزيمة الذين يجعلون أنفسهم أول مخاطب لنصيحتهم قبل غيرهم ويجبرونها على قبول هذا الحق في المستوى النهائي والذي جاءهم من ربهم.

ولذا فإنه عاتب علماء اليهود وقال إنكم علماء دين وشريعة وتعلمون جيداً أن مسؤولية الدعوة بسبب عقلكم وعلمكم تقع عليكم أكثر بكثير من غيركم، ولكن من المؤسف لكم أنتم تحثون الآخرين بشدة على القيام بحقوقهم وواجباتهم، لكنكم تنسون أنفسكم تماماً، فقال:

(1) سورة الأنعام، الآيتان: ١٦٢ و١٦٣.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(١).

ثالثًا: ألا يتداهنوا أبدًا في أمر الحق. حتى أن أصغر حقيقة من حقائق الدين التي تتضح لهم، يقبلونها بقلوبهم، ويشهدون عليها بألستهم ويقدمونها للعالم بدون أي تغيير وأدنى تبديل وبغير الاكتراث للومة اللائمين والمنتقدين. ويجب ألا يكونوا مستعدين لإجراء أي تغييرات أو إضافات عليه تحت أي ظرف من الظروف. وأن يخبروا الناس بالحقيقة الكاملة التي أثبتتها الكتاب والسنة، بما في ذلك جميع توجهاته وجميع الوصايا، ورفض كل ما يخالفه في أي جانب من جوانبه دون أي تردد. ومهما سئلوا عن الدين، فإنه يجب إظهاره وأن لا يخفوه مطلقًا، وقدموه على حقيقته وكما يعتقدون.

لكن هذا لا يعني أنهم يجب أن يقولوا كل شيء في كل الأحيان. لا شك أن الحقيقة يجب أن تظهر دائمًا بالطريقة الصحيحة، وفي الوقت المناسب، وأمام المخاطب الصحيح والمدعو المناسب، ولكن إخفاء ذلك من أجل مصلحة شخصية وبسبب خطر. أو من أجل عصبية أو بعض النفعية والامتناع عن شهادته، هذا أمر لا يمكن قبوله في الدين على الأقل بالنسبة لدعائه وحاملي لوائه.

ولذلك قد شرع الله تعالى لأتباعه الذين بعثوا لهذا العمل، أن الحالات والمراحل التي قسمها الله لهم في سبيل الدعوة ليست لإلقائهم في مشقة وحرَج، ولذا جميل بهم أن يقوموا بهذه المسؤولية دون التفات إلى لوم من يلومهم وعدم الخوف من أحد إلا الله في هذا الأمر فقال:

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ * الَّذِينَ يُلَاقُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾^(٢).

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٤.

(٢) سورة الأحزاب، الآيتان: ٣٨ و٣٩.

وقال في المائدة مخاطباً للرسول بخاصة:

﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(١).

ورابعاً: أن يجعلوا وسيلة الإنذار القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾^(٢) وقال:

﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾^(٣).

والرسول ﷺ نذير للعالمين بناء على ذلك والعلماء هم في الواقع ورثة إنذاره كما قال:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾^(٤) وقال أيضاً:

﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾^(٥).

دعوة النظام الجماعي

﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٦).

وواضح من كلمات الآية أن المسلمين مخاطبون به ليس بصفاتهم الفردية، بل بصفاتهم الجماعية، فيتعلق هذا الأمر بأصحاب السلطة. قال الله تعالى إنه عندما حصل المسلمون على الاستقلال السياسي في هذه الأرض، فمن مسؤوليتهم الآن تعيين بعض الناس من بينهم لهذه المهمة لدعوة الناس إلى الخير، ومنعهم من الشر، والحث على الخير.

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

(٢) سورة ق، الآية: ٤٥.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٥٢.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ١.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

ومن الواضح أن هذه المسؤولية ستتحقق في بعض الأحيان بالوعظ والإرشاد، وفي بعض الأحيان بقوة القانون. ففي الحالة الأولى هناك منبر جمعة، وهو مخصص للقيام بهذا الغرض الدعوي والنصح والترشيد. ومن ناحية أخرى، هناك قسم للشرطة تم إنشاؤه للقيام بهذه المسؤولية في الحكومة الإسلامية، وهو ينشط دائمًا في القيام بهذا العمل ضمن الحدود المقررة له.

ويتضح من هذا الأمر أنه بعد قيام الحكومة الإسلامية بين المسلمين بحسب القرآن، فإن من واجب حكامهم أن يستمروا في دعوة الناس إلى الخير، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر. ومن الضروري الواجب عليهم أنه مع الإتيان بجميع المسؤوليات الطبيعية الأخرى المتعلقة بحالة النظام، أن يقوموا بهذه المسؤولية أيضًا أيضًا في جميع الأحوال. كما قال تعالى:

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(١).

دعوة المفرد

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٢).

وفي هذه الآية جاء لفظ الأمر للحث على الخير. وفي اللغة العربية كما يأتي الأمر للوجوب يأتي أيضًا بمعنى الوعظ والنصح والتلقين والترغيب. وبداية الآية بتعبير ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ دليل على أن المعنى هنا هو نفسه ويعني أن الله تعالى يقول إنه ينبغي تشجيع تلك الأشياء التي تعتبر حسنة وخيرًا في الطبيعة البشرية ويجب منع الناس من تلك الأشياء التي لا

(١) سورة الحج، الآية: ٤١.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧١.

تحبها الطبيعة. وفي سورة العصر جاء نفس المضمون من جانب آخر في كلمتي ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾. فقال:

﴿وَالْعَصْرُ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾⁽¹⁾.

ويتضح من ذلك أنها من المتطلبات الأساسية لإيمان كل إنسان ومن مسؤولياته. سواء كنا علماء أو أشخاصًا عاديين، وسواء كنا نعيش في قرية أو في غابة، سواء كنا نعيش في بلاد غير المسلمين أو نعيش كمواطنين في دولة منظمة للمسلمين، فإننا ملزمون بذلك في كل حالة. فإذا عمل المؤمن عملًا صالحًا وحقق هذا المطلب من الإيمان، فقد ضمن القرآن له أن ينجو من عذاب الله في الدنيا والآخرة، وينال ملكوت الجنة الأبدي.

وبحكم طبيعة هذا العمل الذي تناولتها هذه الآيات، يتبين منها أيضًا أنه في هذا النوع من الدعوة، لا ينفصل الداعي والمدعو، بل يكون كل إنسان دائمًا مدعواً كما هو الداعي. وقد أشار إليه القرآن بألفاظ «والمؤمنون بعضهم أولياء بعض».

وهذا الواجب ينبغي أن يؤديه الأب للابن، والابن للأب، والزوجة للزوج، والزوج للزوجة، والأخ للأخت، والأخت للأخ، والصديق للصديق، والجار للجار. وهذا يعني أن كل شخص مسؤول أن يدفع واجب الدعوة عن كل شخص له علاقة قريبة به.

فإذا رأى أن أحد أقاربه قد سلك طريقًا خاطئًا، فعليه أن ينصحه بحسب علمه وقدرته وصلاحيته على سلوك طريق الصلاح. وربما في الصباح نشجع ونرغب الإنسان إلى فعل الخير وفي المساء يؤدي هو لنا هذه الخدمة. اليوم نبليغ إلى أحد حقًا وغداً ينصحننا به. والغرض من ذلك هو أنه عندما تأتي الفرصة، يجب على كل مسلم أن يستمر في أداء هذه المهمة في مجال عمله الخاص.

(1) سورة العصر، الآيات: ١ - ٣.

ثم إنه في هذا المجال أيضًا من المهم الحفاظ على أولوية الأقارب، ويجب على الرجل أن يحاول إنقاذ عائلته من الجحيم قبل كل شيء. وينبغي أن يكون حذرًا من أنه إذا استمر في طرق أبواب الآخرين واستمرت عائلته هو في توفير وقود الجحيم ليلاً ونهارًا، فربما على الرغم من كل هذا النضال والجهد، فإن هذا القصور في إرادته سيكون له وبألاً وخسارة في الدنيا والآخرة. كما قال الله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(١).

ويجب أن يكون واضحًا هنا أيضًا أن كل شخص له دائرة الاختيار والولاية في هذا المجال العملي. فأن قانون الله في الدنيا هو أن الرجل بعد بلوغه سن الرشد يصبح زوجًا لمرأة، وبالتالي يكون أبًا للأولاد. وهاتان الحالتان لبني آدم تنشآن لهم دائرة اختيار وولاية بطبيعة الدين والفطرة. يتمتع المرء من حيث إنه زوج بالسلطة على الزوجة ومن حيث الأب على الأولاد بنفس الولاية، التي على أساسها يلتزم كل شخص بالمسؤولية عن جميع شؤون من يعيشون في نطاق ولايته. قال النبي ﷺ:

ألا، كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته^(٢).

وهذه هي دائرة ولاية الإنسان واختياره التي قد أمر المسلمون أنه إذا رأوا فيها ظلمًا ومنكرًا يجب عليهم إزالته. فقد قال النبي ﷺ:

من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان^(٣).

ولم يستخدم هنا تعبير «فإن لم يستطع» لقدرة واستطاعة تكلف الإنسان

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٢) رواه البخاري، رقم ٢٥٥٤.

(٣) رواه مسلم، رقم ١٧٧.

لشيء أن يأتي به، إنه تم استعماله هنا في معاني العزم والإرادة والتي تزداد وتتنقص بقدر قوة الإيمان وضعفه.

ولذلك فإن أول مهمة لكل شخص في دائرة ولايته هي إبادة المنكر بالقوة إذا لم تكن هناك مصلحة للدين نفسه مانعة. ودرجة الردع باللسان هي الثانية في هذه الدائرة، وكراهية القلب هي الدرجة الأخيرة التي إذا لم يتمسك بها الإنسان، فإن معنى ذلك أنه لا يبقى في قلبه ذرة من الإيمان.

وإذا نظرنا في الحديث في ضوء القرآن، فإن التفسير الصحيح له يمكن أن يكون هو ما أتينا به. ووفقاً لهذا الحديث فإن الأزواج والآباء والحكام، كل في حدود ولايته، ملزمون بإبادة المنكر بالقوة. وأياً كان الشكل الأقل الذي سيتخذونه، فهو بحق علامة ضعف الإيمان. لكن اتخاذ أية خطوة لمثل هذا العمل خارج هذا المجال ليس جهاداً بل هو أسوأ الفساد الذي لا مجال لإثباته من الدين. والقرآن واضح جداً في هذا، أنه لم يكن يجوز لأي نبي من أنبياء الله أن يتجاوز حدود التذكير والبلاغ المبين من حيث هو داع للدين، فقال:

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾^(١).

استراتيجية الدعوة

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(١٢٥) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾^(٢).

ومع أن المخاطب بهذه الآيات من سورة النحل هو النبي وأصحابه وبهذا المعنى فهي تتصل أصلاً بتحذير النبي وإنذاره، لكن من الواضح أن أمرها عام من جميع النواحي. ولذلك فإن هذه الآيات هي المبدأ الأساسي للمنهج

(1) سورة الغاشية، الآيتان: ٢١ و ٢٢.

(2) سورة النحل، الآيتان: ١٢٥ و ١٢٦.

والاستراتيجية لكل شكل من أشكال الدعوة. وحكم الله تعالى المبين فيها يتلخص في النقاط التالية:

إحداها: أن الدعوة يجب أن تقدم دائماً بأسلوب الحكمة والموعظة، وبأسلوب الجدل الحسن. وفي هذه الآيات الحكمة تعني الدلائل والبراهين، والموعظة تعني التذكير المخلص والنصح والخير. والهدف أنه مهما يقوله الداعي ينبغي أن يقوله في ضوء العقل والدليل والبرهان والعلم والنظر، ولا ينبغي أن يكون أسلوبه أسلوب الاستعجال والتنمر، بل لفت الانتباه بالخير والرحمة والمحبة. وحتى إذا جاء دور النقاش والجدال فيجب أن تعتمد له الأساليب المفضلة، وفي الرد على ذلك إن لجأ الخصم إلى الاستفزاز، فبدلاً من أن يرد عليه حجراً بحجر يجب أن يظل الداعي إلى الحق دائماً مهذباً كريماً.

والثاني: أن مسؤولية الداعي تقتصر على الدعوة وإبلاغ الحق فقط، أي يجب تبليغ الرسالة، وإظهار الحق من كل وجه، وعدم ادخار أي جهد في الإقناع والوعظ. فإن قام بواجبه على الوجه الصحيح، فقد برئ من ذمته ومسؤوليته. وقد أخذ الله تعالى اهتداء الناس وضلالهم في يديه. إنه يعلم يقيناً من ضل عن سبيله كما يعلم الذين هم على وشك أن يهتدوا. ولذلك فإنه سيتعامل مع الجميع كما يستحق.

ولا ينبغي للداعي أن يصبح مفتشاً، ولا أن يصدر أحكاماً بالجنة والنار على مخاطبيه. كل هذه الأمور متعلقة بالله تعالى. ومسؤولية الداعي إلى الحق هي الإبلاغ فقط. ولا ينبغي له أبداً أن يتجاوز مسؤوليته.

وقد بين القرآن الكريم هذه الحقيقة في دعوة النبي ﷺ في مواضع أخرى للقرآن فقال:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾⁽¹⁾.

وقال في موضع:

(1) سورة القصص، الآية: ٥٦.

﴿إِنْ تَحَرَّضَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾^(١).
وقال أيضًا:

﴿أَتَبِعَ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾^(٢). وقال في مقام آخر:

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾^(٣) وقال في سورة الرعد:

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾^(٤).

والثالث: إذا لجأ مخاطبو الدعوة إلى الظلم والاعتداء والتحرش، فمن حق الداعي أن ينتقم في الحدود الأخلاقية بقدر الألم الذي لحق به، ولكن الذي يحبه الله تعالى هو أن يعمل الداعي بالصبر، ومعنى هذا الصبر هو أن يتحمل الداعي إلى الحق كل تعذيب وكل أذى، دون أن يتخذ أي إجراء للانتقام، ثم لا يكون أيضًا مستعدًا لإجراء أي تعديل أو تغيير في موقفه الدعوي بسبب الآلام والمعاناة. فهناك وعد بنعمة عظيمة للصابرين. وستظهر نتيجة ذلك في أحسن صورة لهم في الدنيا، وأيضًا يوم القيامة إن شاء الله يرون أفضل نتائجه.

وفي مكان آخر، أعطى القرآن تعليم الصبر في نضال الدعوة وأن لا يجزي الداعي جزاء سوء لمن يسيء إليه وأن يتخذ موقفًا حسنًا تجاهه على النحو التالي:

﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ

(١) سورة النحل، الآية: ٣٧.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٦ و ١٠٧.

(٣) سورة الغاشية، الآيتان: ٢١ و ٢٢.

(٤) سورة الرعد، الآية: ٤٠.

عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ
* وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١﴾.

ومن الواضح أن هذا لا يمكن أن يتحقق إلا عندما يأتي الداعون إلى الحق إلى الميدان في الخطوة الأولى، من خلال فهم حقيقة أن تأتي هناك مراحل اختبار في هذا الطريق، حيث تهدر الثروات، وتدمر البساتين، وتكسر الأيدي والأذرع وتدهم المصائب وتقطع الرؤوس، والأرواح يجب أن تُسلم إلى باريها؛ وعندما توجهت كل أساليب الإقناع والترهيب نحو حضن الداعي إلى الحق وحده، وخصصت كل أساليب الخوف والطمع لحرفه عن هذا الطريق، عندما يُلقى في السجن، وهطلت عليه اللعنات والطعنات وتم تقطيع أوصاله وتعليقه في بركة موحلة ورجمه بين قدس الأقداس والمذبح، وقطع رأسه وتقديمه للراقصات. فينزلوا إلى ساحة الدعوة وتبليغ الرسالة بثقة أن الرب تعالى الذي أرشدهم وكلفهم بمسؤولية هذه الدعوة، سيساعدهم بالتأكيد في جميع عقبات هذا الطريق:

﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نَنُوكِلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْنُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٢).

وهذه الأمور الثلاثة هي أساس خطة عمل الدعوة الدينية. ولا يحتاج الأمران الأخيران إلى تفصيل أكثر من هذا، ولكن هناك بعض المستلزمات العديدة لتقديم الدعوة بالحكمة والموعظة، ومصدرها هو أسوة النبي ﷺ. وقد شرحها الأستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاح في كتابه «دعوة الدين ومنهجها». وسوف نلخصها هنا.

(١) سورة فصلت، الآيات: ٣٤ - ٣٦.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١٢.

مراعاة القدرة العقلية

أولاً: أن تقدم الدعوة حسب القدرات العقلية للمخاطبين. ولا يمكن أن يعطى للجاهلين بمبادئ الدين أيضًا التعاليم الأصولية التي تنشأ من تلك المبادئ والذين ما زالوا في طريق فهم التعاليم الأصولية، فلا ينبغي تقديم التفاصيل والأساسيات والتفصيلات والفروع لهم بأي طريق. وإذا لم يكن من الممكن عرض مباحث الفلسفة والحكمة في الدين أمام الناس، فإن تفاصيل القانون والشريعة لا يمكن أن تدخل قلوب المثقفين دون التعرض لها. الأستاذ الإمام يكتب:

«إن الذين لا يفهمون هذا النظام الديني وفصائل دعوة الأنبياء بهذه الطريقة، يريدون أن يجعلوا الناس متعودين وليس فقط على الصلاة المفروضة، ولكن أيضًا على التهجد والإشراق، قبل تطوير المعرفة الإلهية» فيهم. ويجولون يقاسون لُحى الناس وشفاههم وسراويلهم قبل إحداث الاعتقاد بحاجة النبي وطاعته واتباعه. إنهم يريدون أن يروا جمال الخوف والخشية والتقوى والتواضع في الناس قبل تنمية الإيمان الحقيقي والراسخ بالآخرة فيهم. وبهذه الجهود العكسية تطول اللُحى إلى حد ما، وتصبح الإزارات في حدودها؛ والفقر المصطنع يصبح ملحوظاً في المشي والجلوس والضحك والتحدث وفي كل شيء، ويظهر الالتزام والاهتمام بحفظ السنة في كل شيء من الأكل والشرب والسعال والعطس ظاهرياً، ولكن بما أن هذه الأشياء كلها تُحدث بطريقة غير عقلانية وغير طبيعية، فمن أجل ذلك لا تحصل حقيقة كل هذه الادعاءات الكثيرة للتقوى إلا أن «تغربل البعوض وتبتلع الإبل»⁽¹⁾.

وينبغي ملاحظة الشيء نفسه في تربية أولئك الذين قد قبلوا الدعوة. ودراسة سيرة النبي ﷺ تبين أن الأشياء التي كان النبي ﷺ يقولها مثلاً لأصحابه الكبار من أمثال الصديق وفاروق وعثمان وعلي ومعاذ بن جبل وسعد بن معاذ

(1) دعوة الدين ومنهجها، ص: ٨٠.

وزيد بن ثابت وجابر بن عبد الله وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم وغيرهم وما كان يلفت انتباه هؤلاء الأشراف من الصحابة وما يحاسبهم عليها، لم يقلها لعامة الصحابة.

وكانت الطريقة التي من خلالها شرح الدين للبدوي مختلفة تمامًا عن الطريقة التي كان يتعامل بها مع هؤلاء الأكابر. ودراسة تعامله عليه السلام مع معاذ بن جبل وأبي ذر الغفاري فقط توضح بشكل واضح ما هي الاستثناءات والرايات التي كان يلاحظ بها في هذا الشأن.

ومن جوانب ذلك أن كل ما يتم تعليمه للناس يجب أن يتم تعليمه تدريجيًا وتسهيلًا حتى يصل إلى قلوبهم وعقولهم ويصبح جزءًا من أعمالهم. وعلى قدر ما يجدون فإن أنضجوه في أنفسهم، ينبغي أن يعطوا أكثر من ذلك، ويُعطوا بحيث لا يكونون عبئًا على الضعفاء، ولا يكون أيضًا سببًا في تبريد رغبة وشوق الطلب عند الأقدر صلاحية. وقال الأستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاح في شرح ذلك:

«ويمكن إعطاء مثال صادق لعمل الداعي من خلال عمل المزارع. كما أن هدفه لا يمكن أن يتحقق بمجرد وضع بعض البذور في الأرض، كذلك لا يمكن أن يتم عمل الشخص الداعي بمجرد أن يُنهض الشعب ثم ينام، بل من الضروري أن يتم ذلك أن يكون لديه نفس الارتباط بالدعوة التي ينشرها مثل المزارع الخبير للبذور التي يزرعها، وكما يرقب الفلاح أن البذر ينبت في الأرض ويحصل له الماء في الوقت المناسب، ويكون محميًا من تقلبات الطقس، وينمو بشكل صحيح، ولا تقاوم الحشائش نموها.

وأن يكون في مأمن من هجمة طيور السماء ووحوش الأرض، وعندما يكون لفترة من الوقت في هذا التفاني يضحى له بطمأنينة النهار وسلام الليل، ويدأب على العمل المتواصل والرعاية المستمرة، ثم يحصل له ثمرة جهده الشاق. وبنفس الطريقة، يكون الداعي محظوظًا حينما يرى دعوته تزدهر عندما يكون لديه القدرة والشجاعة على تحمل سلسلة طويلة من المصاعب جنبًا إلى جنب مع الدعوة. وإلا فكما يقع البذر الذي زرعه فلاح غافل فريسة لتقلبات الأرض والطقس واعتداءات الطيور والبهائم، كذلك تظل دعوة الداعي نداء

بصحراء قاحلة»^(١). وقد قال الله تعالى إن أسلوب التدرج الذي اتبعه في نزول كتابه قد اتخذ لهذا الغرض. فجاء في سورة الإسراء:

﴿وَقَرَأْنَا مَا فَرَّقْنَاهُ لِنُقَرِّاهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾^(٢). وكما جاء في الفرقان:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾^(٣).

وتقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في تفسير ذلك:

إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا ولو نزل لا تزنا لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا^(٤).

رعاية نفسية المخاطب

وثانيًا: ينبغي أيضًا إلى جانب القدرات العقلية، أخذ نفسية المخاطب الجمهور في الاعتبار. فكما أن المطر في غير موسمه يظل غير فعال للأرض، بل أحيانًا يسبب الضرر على العكس من ذلك، بنفس الطريقة إذا تم تقديم أية دعوة دون مراعاة حالات القلب والعقل المختلفة، فإنها أيضًا لا تحدث مكانًا في القلوب والعقول. لذلك في هذا العمل الدعوي، لا ينبغي للمرء أن يثق فقط في أن الحقيقة ستصل إلى القلوب بسبب قوتها الداخلية، بل ينبغي أيضًا أن يرى ما هو استعداد الأشخاص المخاطبين لهذا الحق من وجهة نظر نفسياتهم أن يستمعوا لها ويفهمونها.

(١) دعوة الدين ومنهجها ص: ١٥٢.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٠٦.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٣٢.

(٤) رواه البخاري رقم ٤٩٩٢.

وفي هذا الصدد، فإن جميع الأمور التي يمكن أن تتعرض للداعي لا يمكن بيانها هنا جميعاً، إلا أن الأصول المتعلقة بها التي تعرف من القرآن والحديث نوضحها هنا:

١. وأيما شيء يمت بصلة إلى الدين والذي يُنوى تقديمه للناس، فيجب دائماً تقديمه بطريقة تجعل المخاطب يشعر بالإنسانية والراحة بدلاً من الكراهية والغربة. ونفس الأمر قد يكون سهلاً في بعض النواحي، وصعباً في بعض النواحي الأخرى، فإذا تم تسليط الضوء على جوانبه التي فيها الكثير من المواد التي تثلج الصدر حتى للغرباء الأجانب، فمن المتوقع أن يقبلوا تدريجياً حتى الأشياء التي تبدو غير متوافقة مع طبيعتهم إذا تم تسليط الضوء عليها لاحقاً. وقال النبي ﷺ: (بشروا ولا تنفرو) [١] ولذلك قال كقاعدة: فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين^(١).

٢. وفي إنكار معتقدات محاور المخاطب وانتقاد شخصياته المحبوبة، لا ينبغي للمرء أن يتبنى مثل الأسلوب الذي يؤدي إلى اشتعال الجهل داخله. وفي محادثاته يجب أن يضع الداعي في اعتباره أنه يجب تجنب مناقشة جوانب التفضيل والترجيح بين أكابره وبين أعظم الجمهور قدر الإمكان، والتركيز على توضيح وجهة نظره وتحقيق هدفه. ولا ينبغي للمرء إذا غلبته غير الحق وإنكار الباطل، أن يقول شيئاً يجعل المخاطب أعمى وأصم، وأن لا يلتقط ما وقع في يده من لبنة وحجر ويرميه. فقال في سورة الأنعام:

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾^(٢).

٣. ومن لهم القيادة والسيادة من بين المخاطبين بالدعوة تجدر الإشارة بشكل خاص عنهم إلى أنه بما أن هؤلاء الأشخاص يكونون عاديين أن ينالوا احتراماً وتكريماً من الآخرين، ولذا فإن لهجات ونبرات الداعي لا

(١) رواه البخاري، رقم ٦٢١٨.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٨.

تجرح عزتهم بأسلوبه الخطابي، فيكون هذا الشيء عائقاً عن قبول الحق. ولما أرسل الله تعالى نبيه جليلي القدر: موسى وهارون نصحهما من هذه الناحية فقال:

﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾^(١).

حتى لو أصبح انتقاد تدني أخلاق هؤلاء وتدهور شخصيتهم في مرحلة ما حاجة الدعوة نفسها، فيجب اعتماد أسلوب غير مباشر في ذلك أيضاً. وخير مثال على ذلك في القرآن الكريم ما علقه الله على قيادة قريش في سورة القلم:

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَيْمٍ أَلْدَىٰ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسْطِيرُ الْأُولَىٰ﴾^(٢).

٤. وعندما يكون المخاطبون مائلين إلى الاعتراض والسخرية والتمسخر، فلا يقتصر الأمر على عدم تقديم الدعوة إليهم في هذه الحالة، بل حتى بعد تقديم الدعوة عليه إذا طرأ على المخاطب نوبة الاعتراض والسخرية وقام بمثل هذا الأمر، فينبغي للداعي أن ينهي الحديث ويتعد عن ذلك المكان، ويعرض وجهة نظره أمام الناس في مناسبة أخرى، قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِئَنَّ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٣).

٥. ومن المهم للداعي أن يحمي نفسه من الجفاف في الدعوة، والانغماس في الإطالة، والرغبة في قول الأشياء في غير مناسبة، والتكرار غير الضروري، ورتابة الكلام. كما ينبغي الامتناع عن تقديم الدعوة إلى مخاطبه إذا كان

(١) سورة طه، الآيتان: ٤٣ و ٤٤.

(٢) سورة القلم، الآيات: ١٠ — ١٥.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٦٨.

منهمكًا في عملية وشغف أن يكون ذلك صعبًا عليه للانصراف منه والتوجه إلى الدعوة.

عن أبي وائل، قال: كان عبد الله يذكر الناس في كل خميس. فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، لوددت أنك ذكرتنا كل يوم. قال: أما أنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملككم وإني أتخولكم بالموعة كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها مخافة السامة علينا⁽¹⁾.

وقد أشاد النبي ﷺ بقصر خطبة الرجل بأنه مؤشر على عقله وفقهه: إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئة من فقهه فأطيلوا الصلاة واقصروا الخطبة، وإن من البيان سحراً⁽²⁾.

وكما قال عبد الله بن عباس رضي الله عنه:

حدث الناس كل جمعة مرة، فإن أبيت فمرتين، فإن أكثرت فثلاث مرار، ولا تمل الناس هذا القرآن، ولا ألفينك تأتي القوم وهم في حديث من حديثهم فتقص عليهم فتقطع عليهم حديثهم فتملهم ولكن انصت، فإذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه⁽³⁾.

٦. كما يجب على داعي الحق أن يمتنع عن القول بدون فرصة، بنفس الطريقة يجب عليه دائمًا أن يتطلع إلى الفرص المهيأة، فعندما يشعر أن صدر مخاطبه بسبب موقف خاص رحبة لدعوته، وأن نوافذ الروح عند مدعوه الآن مفتوحة بالكامل لما يأتي الداعي من النسيم البارد العليل، يجب عليه أن يأخذ الفرصة المتاحة من الله في حضنه. وأنظر كيف أخذ يوسف الصديق عليه السلام الفرصة في زنارته وقدم دعوته لزملائه بكل شغف وحب. وصور ذلك القرآن في آيات:

(1) رواه البخاري، رقم ٧٠.

(2) مسلم، رقم ٢٠٠٩.

(3) بخاري، رقم ٦٣٣٧.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُزْفَقَاهُ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ابْرَهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * يَصْحَبِي السَّجْنَ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَصْحَبِي السَّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُضْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ فَضَيَّ الْأَمْرَ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾^(١).

ويقول الأستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاحي في تعليقه على دعوة يوسف الصديق:

«ألقى نظرة على ما وقع وأحضر الصورة الكاملة للحادثة أمام عينيك ومخيلتك. رجلان يدخلان السجن مع يوسف عليه السلام. ويحلم كلاهما، ويحبان معرفة تفسير ما رآها من حلم. وكان يبدو لهما من بين الرجال في السجن، أن يوسف عليه السلام هو الشخص الوحيد الذي يمكنهما اللجوء إليه لهذا الغرض. ولذلك يأتيانه ويقدمان له أحلامهما بروح المحبة والاحترام. ولا يفعل يوسف عليه السلام في هذه المناسبة أن يخبرهما بتفسير الحلم على عجل ويودعهما، أو ليستغل إخلاصهما ويحاول أن ييهربهما برهبة شخصيته وعظمتها ويريد بذلك الحصول على بعض المنفعة الشخصية له. بل على العكس من ذلك فإنه يعتبر التفاتهما غنيمة، ينتهز الفرصة ويقدم لهما قبل تعبير رؤياهما دعوته التي كانت تأخذ ليه وقلبه وتحرق ضميره:

(١) سورة يوسف، الآيات: ٣٦ - ٤١.

كما عبر بذلك شاعر أردني:

يا أمير! إن الأصدقاء مجتمعون، تعال وقل لهم ما يهم ويحرق قلبك
إنهم مستمعون إليك الآن، انتهز الفرصة، فعساهم لا يلتفتون بعد ذلك
ويتبنى أسلوب العرض بحيث يبدو كما لو أن الحديث قد خلق تلقائياً
في سلسلة الكلام، وليس أنه قد أوجد فرصة لقول قوله لهما عن قصد. وقد
برزت حقيقة مهمة من هذا، فكما ينتظر المزارع المطر ليزرع البذور، بنفس
الطريقة يجب على داعي الحق أيضاً أن يراقب محيطه ليرى و ينتظر متى ينشأ
في قلب شخص ما التفاتة له، ما يمكن أن توفر الحصاد والموسم لبذر دعوته،
والأمر الثاني: أنه من المعلوم أن مثل هذه الفرصة متى توفرت بفضل الله لا
يجوز إضاعتها، ولا يجوز استخدامه لأي غرض آخر غير ذلك الغرض الأسمى
والأعلى.

وعندما تأتي مثل هذه الفرص لأناس مغرضين، فبدلاً من استغلالها
لصالح دعوة الحق، يحاولون جعلها وسيلة لتحقيق أهدافهم الشخصية. وفي
هذا العصر يعاني علماءنا ومشائخنا بشكل عام من هذا المرض. فإذا وجدوا
قلباً متوجهاً إليهم فرحوا كثيراً برؤيته، ولكن فرحتهم ليست مثل نوع الفرحة
التي شعر بها يوسف (عليه السلام) عندما توجه صاحبه في السجن إليه، ولكن سعادتهم
هي مثل فرحة العنكبوت الذي ينتظر الذباب بنسج شبكة حول نفسه وعندما يرى
ذباباً تقترب يرقص فرحاً بقدوم فريسة سمينته^(١).

٧. وينبغي دائماً أن تسير الدعوة من الأمور المتفق عليها إلى ما فيه خلاف
وتباين آراء، ومن المسلم إلى ما فيه نزاع، فيبتدئ الداعي حديثه عن
المسلمات التي يعتقدونها المدعو والتي ليست غريبة له، بدءاً من إقراره
واعترافه لها، ثم يتدرج تدريجياً إلى الأمور التي تقتضيها هذه المسلمات،
وينبغي أن يتطور كلامه بحيث ينتقل المدعو من المألوف إلى غير المألوف.

(١) دعوة الدين ومنهجها ص ١٤٥.

على الرغم من كونه غير محسوس تمامًا، وأن يميل المدعو بنفسه نحو الحقائق التي يريد الداعي إقناعه بها. وقد أرشد الله سبحانه نبيه في ذلك فقال:

﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لِمَ تَحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * هَتَأْتُمْ هَتُؤَلَاءَ حُجَجَتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾﴾

٨. فإذا تحدر المدعو والمخاطب بسبب العناد والتعنت إلى التزوير والتحكم بدلًا من الدليل والاستدلال، فبدلًا من أن يتبعه الداعي بذاك الدليل، عليه أن يعرض وجهة نظره من زاوية أخرى بطريقة تجعله حتى لو لم يوافق فعلى الأقل لم يجد سبيلًا للجدل والنقاش في ذلك. وخير مثال على ذلك مناظرة إبراهيم عليه السلام مع الملك النمرود:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢﴾﴾

التعليق (3):

طراز الكلام

وثالثًا هو أن غرض دعوة الحق ليس مجرد توضيح الحقيقة، بل أن تتوضح

(1) سورة آل عمران، الآيات: ٦٤ - ٦٧.

(2) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

(3) رواه البخاري، رقم ٦٩ - ١.

تلك الحقيقة بطريقة لا يتصعب فهمها على أحد من العوام أو الخواص، لذلك يجب على الداعي أن يحاول أن يقدم دعوته وحديثه بطريقة مؤثرة وفعالة ولطيفة وطبيعية بحيث تتجذر بذورها فيمن لديهم أي إمكانيات في تربتهم، ويتوضح عن أولئك الذين يدبرون ظهورهم أنه لا يمكن توقع أي نمو وتطور من هذه الصحاري. وهذه هي ضرورة هذه الدعوة، من أجل ذلك دعا موسى ﷺ عندما بعث لذلك إلى الله وقال:

﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَقْفَهُوا قَوْلِي * وَأَجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَرُونَ أَخِي * أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى * وَاشْرِكُهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَاحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكَرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾⁽¹⁾.

وعلى ضوء ذلك فإن الخصائص التي ينبغي للداعي أن ينميها في أسلوب كلامه هي:

١ - يجب أن يكون خطابه دائماً واضحاً لا لبس فيه. وأروع مثال للدعوة إلى الحق وأعلاها على هذه الأرض هو القرآن الكريم، قال الله تعالى عنه:

﴿وَلَنَزَّلُ لَّنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾⁽²⁾.

وقد كتب الأستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاحي يصف خصائص كلام الأنبياء وغيرهم من دعاة الدين الجليلي القدر:

«إنهم يتحدثون بلهجة عصرهم التي يمكنها نقل المدلول إلى كل قسم من أقسام أمتهم بأقصى قدر من الجودة والنظافة. ليس فيها غموض ولا إجمال، ولا إطالة غير ضرورية، ولا كثرة استعارات وتشبيهات، ولا إفراط في التلميحات الذكية، ولا كثرة كلام ثقيل وغير مألوف، ولا شبهة ابتذال ولا ركافة. لغة مغسولة واستعارات طبيعية صريحة وتشبيهات وتمثيلات تظهر الحقيقة في ستار المجاز.

(1) سورة طه، الآيات: ٢٥ - ٣٥.

(2) سورة الشعراء، الآيات: ١٩٢ - ١٩٥.

بالإضافة إلى ذلك، حرقه بدلاً من الغضب، وحنان بدلاً من القسوة، وبساطة وسذاجة بدلاً من الكلام المرصع المترف، ومن بين أساليب عصرهم المختلفة، فإنهم يتبنون الأسلوب الأكثر ملائمة والأسمى هدفاً والأكثر لياقة بالكرامة والفعالية والوضوح.

ثم، بارتفاع روحهم، ودفء دعوتهم، والاقتناع بعلمهم وإيمانهم، والأهم من ذلك كله، برغبتهم العميقة في الشرح لغرضهم يطورون كلامهم تطويراً كثيراً حتى أصبح لديهم أسلوب جديد من تلقاء أنفسهم يعمل بنفسه كنموذج ومثال. السمة الرئيسية لهذا الأسلوب هي سحره وقدرته على التواصل والإبلاغ، ولكن في الوقت نفسه، بسبب سيولته وبساطته، يتم فيه إنشاء الجودة الأدبية أن كلمات الكتاب العظماء والأدباء الكبار تصبح هامة تماماً أمامه.

فيقتر العصور من كل كلمته، وتتغذى النفس من كل فقرته وعبارته. تأثيره لا يغير حياة الأفراد فحسب، بل يغير مجرى حياة الأمم أيضاً. وهذه قوة في يد داعي للحق، لا تستطيع حتى القوات المسلحة مقاومتها⁽¹⁾.

٢ - ولا ينبغي للداع أن ينتقص من واجبه بأن يقول كلامه بطريقة واحدة وبنفس الأسلوب، بل ينبغي أن يقدم إلى دعوته بأساليب كثيرة ومختلفة وأساليب متنوعة، بحيث سيصرخ جميع مؤيديه ومعارضيه سواءً أنه قد أدى الأمانة وحقق إبلاغ الدعوة كما هو حقه.

﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾⁽²⁾.

٣ - ويجب أن يكون كلام الداعي وليس فقط نموذجاً عالياً للاستدلال والحجة بل يجب أن يكون مملوءاً حماساً وحرارة العاطفة بحيث إذا خاطب الناس رأوه أن قلبه يتكلم على لسانه، والسورالمكية من البابين الأخيرين للقرآن خير مثال على هذا الأسلوب لطراز الكلام.

(1) دعوة الدين ومنهجها ص ١٠٨.

(2) سورة الأنعام، الآية: ١٠٥.

اقرأها، فإذا بها تتشرب النيران في ألفاظ المتكلم، ويفرقع البرق في نداءاته والأنهار تندفق من قمم الجبال إلى الوديان في لهجته. والظاهر أن تتجلى هذه الميزة في كلام المتحدث من إيمانه الراسخ واقتناعه ويقينه المحكم، وتعاطفه ووجعه في أعماق قلبه للمخاطبين، الذي يجعله واعظاً منادياً بيوم القيامة في العالم. وقد جاء في صفة النبي ﷺ:

كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول: صبحكم ومساكم⁽¹⁾.

٤ - على الرغم من هذا الحماسة وحرارة الجدل والمجادلات، ينبغي للداعي والمبلغ أن يتجنب الكلام الجدلي دائماً، حتى لو نزل عليه المخاطب، فعليه أن يسلك طريق الأعراض ولا يعير أي اهتمام أن يعزى ذاك إلى انتصاره أو هزيمته. وينبغي أن يعلم جيداً أن بين الدعوة والجدال تناقضاً لا يمكن أن يجتمعا أبداً. كما قال تعالى:

﴿فَلَا يَنْزِعُ عَنْكَ فِي الْآمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ * وَإِنْ جَادِلُوكَ فَقُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾⁽²⁾.

٥ - وينبغي أن يكون كلام الداعي الحق متصلاً دائماً بهدفه، وملتصقاً بغرضه، ويجب أن يكون وحدة وتناسق وتوافق في كلامه أن حيثما سمعته يُرى وينبئ عن صوت ينبثق من وجوده في كل موضوع وكل مضمون، وأن هناك مكاناً وحيداً يبدو صوته حريصاً على الوصول إليه. والقرآن الكريم من أوله إلى آخره خير مثال على هذا الأسلوب في الكلام. فعلى العاملين في حقل الدعوة أن ينظروا في القرآن من هذا المنطلق.

(1) رواه مسلم، رقم: ٢٠٠٥.

(2) سورة الحج، الآيات: ٦٧ - ٦٩.

أسلوب الاستدلال

ورابعاً: ينبغي لواعظ الحق كما في أسلوب الكلام أن يخلق في أسلوبه عندما يستدل قدر الإمكان، الخصائص التي نراها في كلام الأنبياء. وقد أنزل الله تعالى كتابه القرآن الكريم رائعة من العلم والأدب حاملة لهذه الخصائص. فإذا قرأت هذا الكتاب بعناية وتدبر، ستجدها بارزة جداً في استدلاله من أوله إلى آخره. هذه هي خصائص أسلوب الاستدلال التي سنصفها هنا بترتيب.

السمة الأولى: أن الأنبياء ﷺ لا يتخذون قط تلك الأساليب المصطنعة في الجدل والاستدلال التي تنشأ من كون حقائق العلم المجردة فناً في أمة، والتي لا يرغب فيه إلا بعض المثقفين المولعين بالتلعب بالعلم. وعلى العكس من ذلك، فإن الأنبياء يختارون لحجتهم واستدلالهم مادة بسيطة جداً وطبيعية وخالصة نقية، ويقدمونها من منطلق الواقع المسلّم به للحس السليم كفكر حي وديناميكي، على النحو الذي يوقظ العقل، وتستيقظ الأذهان وتندفع الحياة من خلالها في القلوب الميتة.

ولذلك فإن هذا هو الأسلوب الطبيعي في تفكيرهم، الذي بسببه يضطر كل من لم يصدّق قلبه وعقله إلى أن يقول عندما سمعه:

عرفت أن ذلك كان أيضاً يدور في خلدي

السمة الثانية: أنهم يقيمون تمهيداً لاستدلالهم ويقدمونه إلى مخاطبهم بحيث لا يجد في كلامه الحجة فحسب، بل أيضاً القدرة على الاستدلال في نفسه من خلالها، فبدلاً من إقامة استدلالهم مثل احتجاج أهل المنطق من خلال الصغرى والكبرى، يوجه الأنبياء مخاطبهم إلى مصدر ومأخذ الاستدلال نفسه، ويشرحون بأنفسهم بعض لوازمه وأساسياته، على حين أنهم يكتفون على الإشارة إلى بعضها الآخر، ويوضحون بعضها إيضاحاً تاماً ويتركون نتائجها البديهية على فهم المخاطب، حتى أنه سيخلق تلك النتائج بنفسه بالتفكير

والتدبر، وبعد ذلك سيري في وضوح النهار الحقائق التي يريدون نقلها وإبلاغها إليه.

وبهذه الطريقة يدربونه على الوصول إلى التفصيل من الإجمال، ومن الأصل إلى الفرع، ومن الكلية إلى الجزئية، ومن البديهي إلى النظري، ومن المشهود الواضح إلى اللازم الضروري، حتى لا يقرأ فقط كلماتهم على لوح قلبه، ولكن يحصل أيضًا من خلال التفكير وأسلوب الاستدلال على نور الحكمة والمعرفة، الذي يطلع به كل شيء من الأنفس والآفاق بخرق حجب الظلام ويظهر في منصة ذهنه ويصبح مرئيًا لعقله بطريقة لا تجد على الأقل في قلبه شكًا وريبة في ذلك.

السمة الثالثة: هي أنهم لا يقيمون حجة أبدًا بناءً على أي اعتقاد خاطئ للمخاطب، ولا يبنون حجته الخاصة بناءً على أفكار الآخرين وأوهامهم. وهم يبنون حججهم دائمًا على حجج قوية محكمة لا تتأثر بتغير الزمن والظروف، ولا يضعفها ولا يجرحها تغير الأفكار والآراء. إنهم يبنون حجته على تلك الأشياء التي هم على يقين تام من صحتها وحقيقتها، وبسبب صفتها ذاتها فإنها تصبح وسيلة لإثبات وتأكيد حق.

ولذلك فإن هذه هي خاصية أسلوبهم الاستدلالي، حيث يصل كلامهم إلى القلوب بنفس التأثير ولو بعد آلاف الدورات الزمنية، وينجح في إخضاع العقول.

السمة الرابعة: هي أنهم لا يعتمدون أبدًا أسلوب الاستدلال الإلزامي، أي أنهم لا يخطئون أبدًا في البحث والجدال، حيث إنهم عندما يُعرض عليهم شيء ما، فإنهم يقدمون على الفور أمثلة مماثلة من عقيدة ودين مخاطبهم الخصم. ولما كان هذا الأسلوب في الاستدلال خاطئًا من جميع النواحي، وناهيك عن إثبات الحق من خلاله فإن وجوده يصبح موضع شك، ولهذا السبب كان الأنبياء ﷺ يتجنبونه دائمًا ويستندون في حججهم إلى دلائل مقنعة للمخاطب،

ورغم الآلاف من الاعتراضات من المخاطب، فإنهم يتمسكون بطريقتهم الخاصة هذه.

السمة الخامسة: أن استدلالهم ينطلق دائماً من القيمة المشتركة بينهم وبين مخاطبهم ثم يصل تدريجياً إلى الخلافات، فهم يقنعون مخاطبيهم أولاً على الاعتراف بتلك الأشياء المقبولة في هذا العالم كحقائق الذات والكون، وحقائق التاريخ، ومسلمات العقل والطبيعة، و يقينيات العلم والمعرفة.

والتي لا يجد عنها عاقل فاهم طريقة للاختلاف فيها، وبهذه الطريقة، فإنهم يبدأون كلامهم من تلك الأساسيات ثم يأتون بغرضهم كلازمة لها وهكذا يجعلون حتى الأشياء التي تبدو غريبة تدريجياً مألوفة للمدعو والمخاطب، بحيث يقبلها بطريقة غير محسوسة ثم يقبل مستلزمات ما قد قبله.

طرائق الدعوة

وخامساً ينبغي للداعي أن لا يلح ويصر على طريقة واحدة للدعوة والتبليغ. بل ينبغي له أن يتخذ كافة السبل والطرائق بالحكمة والموعظة الحسنة، التي من خلالها يستطيع إبلاغ رسالته إلى الآخرين إبلاغاً مؤثراً بليغاً في العصر الحاضر. وإذا درست تاريخ الأنبياء والرسل وجدت أنه تمت عندهم دائماً رعاية الحالات والظروف المعاصرة. فلما كان الناس جاهلين بفنون القراءة والكتابة اتخذوا منهج الدعوة الشفهية وتواترت أقوالهم جيلاً بعد جيل شفويًا.

وكانت الدعوة في تلك الأيام تعتمد فقط على الاتصالات الشخصية والتعبير الشفهي وقابلية حفظها في أذهان السامعين، ولكن عندما تم اختراع فنون القراءة والكتابة قدم الأنبياء أيضاً دعوتهم بالقلم والكتاب، فإن التوراة والزبور والإنجيل والقرآن، كل هذه الكتب نزلت في هذه الفترة، ثم الأساليب للاختلاط الاجتماعي وتبادل الأفكار وحسم الأمور الجماعية السائدة في مجتمعهم، إن كانت صحيحة من وجهة الدين والأخلاق، فاستغلوا كل تلك الطرق استغلالاً تاماً. وقد بسط النبي ﷺ دعوته بدعوة كبار أهل بيته إلى الطعام.

وصعد جبل الصفا ورفع نكرة «واصبحاه» على عادة قومه ثم نصحهم إذا اجتمعوا. وذهب بنفسه والتقى بشيوخ أم القرى والطائف أثناء الحج، ونقل رسائل الدعوة إلى زعماء القبائل المختلفة، وأرسل ممثليه إلى بعض الأشخاص المهمين. وكان يقصد الأسواق الموسمية في الجزيرة العربية ويخلق فرصاً للدعوات، كما كان يكتب رسائل لبعض الناس، ولهذا اعتمد كل أساليب إيصال رسالته وإبلاغ دعوته إلى الناس التي كانت شائعة في الجزيرة العربية في ذلك الوقت. ويكتب الأستاذ الإمام:

«والله أعلم من حيث انتشرت هذه الفكرة في بعض الأوساط الدينية بأن الطريقة المعيارية والنبوية للوعظ هي أن يأخذ الرجل عصا في يده وعدد قليل من الحِمْص في حقيبته ويخرج للتبشير والتبليغ. ليس لديه حذاء في القدمين، ولا قبعة على الرأس، ويتنقل من قرية إلى قرية وحيثما وجد شخصاً، سواء كان يستمع أم لا، بدأ في إلقاء وعظه عليه، فإذا مر ببلدة وصادفه عدد من الرجال، وقف هناك للخطاب. وفي القطار، في المحطة، في السوق، على الطريق، أينما وجد حشداً من الناس، بدأ خطبته هناك. يدخل كل لقاء، ويصنع مكانه في كل مؤتمر، ويدهم على كل منصة، يتعب المستمعون، ولكنه لا يمل ولا يكتب من الحكاية.

والناس يختبئون خوفاً من متابعتهم لهم ومن أسئلته وأجوبته كمسيطر إلهي عليهم، وحتى إنهم في بعض الأحيان ينزعجون منه ويسبونونه، لكنه يواصل عمله بنفس الحماس والانهماك. أينما يُطلب منه الوعظ فليخطب، وحيثما يراد منه الميلاد فليقرأ الميلاد⁽¹⁾ وحيثما يصادف بالمخالفين والمعارضين، يشمر عن ساقه الجد ويدخل في ميدان المناظرة، هذه هي الصورة الصحيحة للواعظ الحقيقي الموجود في أذهان الكثير من المتدينين لدينا. وقد لا ينكر هؤلاء أن الأساليب العلمية المتقدمة والراقية الحالية في الوعظ والتعليم هي أيضاً

(1) يشير إلى عادات الجماهير في القارة الهندية من قراءة حكايات مولد الرسول في احتفالات مولده ﷺ هنا.

مفيدة وإن كانت قليلاً، ولكن الطريقة المباركة هي التي يعتقدون أن الأنبياء قد اعتمدها.

وفي نظرنا، فإن اعتبار هذا المنهج منهج الأنبياء هو في جزء منه نتيجة الجهل بطريق الأنبياء، وفي جزء آخر رغبة هؤلاء السادة في اتباع منهجهم المعتمد - والذي يفتقرون إلى القدرة على اتباع أي منهج آخر - يرجون أن تكون طريقتهم هذه طريقة محترمة ومقدسة. وبقدر ما درسنا طريقة تبليغ الأنبياء، توصلنا إلى أن طرق الدعوة التي اعتمدها الأنبياء ﷺ كانت من أحدث الأساليب وأكثرها تطوراً من حيث عصرهم، وقد تغيرت الأساليب عندهم أيضاً مع تغير الأحوال والتطورات الثقافية، وهذا دليل على أن الإصرار على منهج واحد في هذا الأمر ليس صحيحاً.

بل ينبغي لدعاة الحق أن يتخذوا في كل زمان أساليب الوعظ والتعليم التي خلقت في عصرهم، والتي بواسطتها سوف يجعلون جهودهم وقدراتهم أنفع وأثمر⁽¹⁾.

لكن لا بد من الإشارة إلى بعض الأمور في هذا الصدد:

أحدها: أنه لا ينبغي اتباع أسلوب في الدعوة في أي حال يكون فيه قبح للدين والأخلاق. وإذا كان هناك شيء موجود بالفعل مثل هذا في طريقة سائدة، فيجب اعتماده فقط بعد إزالة عنصر القبح منه. ولذلك لما دعا النبي ﷺ قومه من الصفا حسب تقاليد العرب، فمع اتخاذه نفس الطريقة أي طريقة النذير العريان، لكنه لم يهتم ولم يرض على الإطلاق بطريقة النذير الذي كان يخلع ملابسه ويصبح عرياناً تماماً.

والثاني: ألا يتخذ أبداً تلك الأساليب التي تسيء إلى شرف الدعوة، أو تنتقص من كرامة الداعي ووقاره. فلما خيف ذلك في دعوة النبي ﷺ على موقف منه قال الله تعالى له:

(1) دعوة الدين ومنهجها: ٨٥.

﴿أَمَّا مَنْ أَسْتَعْنَىٰ * فَآَنَتْ لَهُ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبَ * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَآَنَتْ عَنْهُ نَفْسُهُ * كَلَّا إِنَّمَا تُذَكِّرُهُ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ * فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾^(١).

والثالث: أن لا يتخذ مطلقاً تلك الأساليب التي تضر بهدف الدعوة، وبدلاً من أن تلين تربة القلوب وتجعلها قابلة للنمو فإنها تجعلها أكثر صخريّة ومن أبرز الأمثلة على ذلك المناظرات التي ما زالت تنظم في حلقاتنا الدينية بنفس الطريقة التي ينظم بها «ميدان المصارعة» للمصارعين، وقد أمرنا الله تعالى بهذا الأمر في كتابه، فقال:

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ^٥ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(٢).

(١) سورة عبس، الآيات: ٥ - ١٦.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

قانون الجهاد

إن السلام والحرية هما من الاحتياجات التي لا غنى عنها للحضارة الإنسانية. وهناك تآدييات وعقوبات لحماية الفرد من تمرده هو، ولكن إذا أصبحت الأمم عنيفة متمادية ومتعنة، يعلم الجميع أنه لا خيار سوى رفع السيف ضدهم. وما دامت النصيحة والموعظة مؤثرة، فلن يبرر أحد حمل السيف عليهم، ولكن عندما يصل تمرد شعب وخطرته إلى الحد الذي لا يمكن معه إمكانية إعادته إلى الطريق الصحيح بالنصيحة والموعظة، فمن حق الإنسان إذن أن يرفع السيف في وجههم ولا يزال يسلمته عليهم حتى يحين الوقت الذي تعود فيه أجواء السلام والحرية إلى العالم. ويبرر القرآن أنه إذا لم يُمنح هذا الإذن بحمل السيف، لكان تمرد الأمم قد وصل إلى هذا الحد أن يصبح حتى المعابد مهجورة وسيطّير الغبار في تلك الأماكن، حيث يُذكر ويُعبد اسم الله رب العالمين الآن ليلاً ونهاراً ناهيك عن تدمير الحضارة. فقال:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صُلُوحٌ وَبِيعَ وَصَلَوْتُ وَمَسَّحِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾⁽¹⁾.

(1) سورة الحج، الآية: ٤٠.

وهذا هو الجهاد والقتال^(١)، لكنه أمر به القرآن في حالتين فقط:

الأول: ضد الظلم والعدوان.

الثاني: على منكري الحق وجاحديه بعد اكتمال الأدلة وإتمام الحجة.

الشكل الأول هو الحكم الأبدي للشرعية وبموجبه يتم الجهاد من أجل نفس الغرض الذي تم وصفه أعلاه. والحالة الثانية لا تتعلق بالشرعية، بل بقانون إتمام الحجة في شرع الله تعالى، الذي يتم تنفيذه دائماً في هذا العالم بأمره المباشر ومن خلال الأشخاص الذين يعينهم في منصب الرسول. وقد حصل في التاريخ البشري هذا المنصب للمرة الأخيرة لمحمد ﷺ. كما جاء في القرآن:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٢).

وبموجب هذا القانون، عندما تقوم شهادة الله على أمة من خلال هؤلاء الرُّسل، فإن منكريهم يُعاقبون في هذه الدنيا. وهذا العذاب يأتي أيضاً من السماء، وفي بعض الأحيان أيضاً يتم هنا بسيوف أهل الحق. ونتيجة لذلك يُهزم المنكرون حتماً ويُغلبون، ويقام حكم الحق وغلبته في أرضهم بكل قوة^(٣). وهذه هي الصورة الثانية التي حدثت بعد اكتمال الأدلة وإتمام الحجة على يد رسول الله ﷺ عليهم. فكما أمر هو وأصحابه بقتال الظلم والعدوان، كذلك أمروا بحمل السيف لهذا الغرض الآخر أيضاً. ولقد كان هذا عمل الله الذي قامت به أيدي البشر. وينبغي أن ينظر إليه على أنه سنة إلهية. ولا علاقة له بالأخلاقيات الإنسانية. والآية «يعذبهم الله بأيديكم»^(٤) تبين هذه الحقيقة.

(١) معنى الجهاد هو بذل كل الطاقات في أي جهد. وقد استخدم هذا التعبير في القرآن للجهاد العام في سبيل الله، كما استخدم للقتال في سبيل الله أيضاً. وهنا نستعمله في هذا المعنى الأخير.

(٢) سورة يونس، الآية: ٤٧.

(٣) إبراهيم ١٤: ١٣ — المجادلة ٥٨: ٢٠، ٢١.

(٤) التوبة ١٤: ٩.

إذن الجهاد

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ بَغْيٍ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ (1).

هذه هي الآيات الأولى من القرآن التي سمح فيها للصحابه المهاجرين باتخاذ إجراءات حربية للرد على العدوان إذا رغبوا في ذلك. لقد ذكر القرآن أن هؤلاء هم الذين كانوا أبرياء تمامًا وأجبروا على ترك منازلهم لارتكاب «جريمة» أن يقولون ربنا الله. إذا فكرت في الأمر علمت أنه قد تم تلخيص لائحة اتهام قريش من الفظائع والاضطهادات بأكملها في هذه الجملة الواحدة. والسبب في ذلك هو أن الإنسان لا يكون مستعدًا لترك بيته ومغادرة أهله حتى لا تضيق عليه أرض الوطن. والفقرة «بأنهم ظلموا» تشير إلى هذه الفظائع والمظالم وقد أعطى القرآن للمسلمين الحق على أساسها في أن يتمكنوا الآن من حمل السيف ضد العدوان.

وقد تم منحهم هذا الحق كمجتمع. وكل من يعرف أسلوب اللغة يعلم أنه مهما وردت آيات القتال في القرآن فإنها لا تخاطب المسلمين بصفاتهم الشخصية، وهم المخاطبون بهذه الآيات كالحدود والتعزيرات، كمجتمع. ولذلك، فإن الحق في اتخاذ أي إجراء في هذا الشأن متاح فقط لمنظومتهم الجماعية. ولا يحق لأي فرد أو مجموعة داخلها أن تقرر أي إجراء من هذا القبيل نيابة عنهم. وكلمة «أذن» في الآيات التي نحن ندرسها من سورة الحج تشير إلى هذه الحقيقة. وهذا يعني أن المسألة الأولى المتعلقة بالقتال هي قضية التبرير وعدم الشرعية.

ورغم قسوة وعدوان قريش إلا أن الله سمح للمسلمين بالقتال فقط بعد

(1) سورة الحج، الآيتان: ٣٩ و٤٠.

تحقق شرط قيام النظام الجماعي في زمن الرسالة⁽¹⁾. وقد قال النبي ﷺ على هذا الأساس:

إنما الإمام جنة، يقاتل من ورائه ويتقى به⁽²⁾.

حكم الجهاد

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ * وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْتَنُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمُ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقْبِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقْتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنْ أَنَّهُوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنَّهُوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ * الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

وبعد إذن القتال في سورة الحج، فإن حكمه قد جاء مبيناً أصلاً في هذه الآيات من القرآن. وما عدا ذلك فكلما ذكر القتال في القرآن كان على سبيل التفصيل والتوكيد ولتوضيح بعض المشاكل التي نشأت كنتيجة للعمل بهذه الآيات⁽³⁾. وموقعها من سورة البقرة أنه بعد إعلان بيت الله هو القبلة، حرص الناس على الحج، فظنوا أن قريشاً تقف في طريق الحج الآن. فإذا قامت قريش بصد عن الحج، قد تكون هناك حرب وتحول في ذلك حرمة الأشهر الحرم.

(1) وفي زمننا المعاصر يريد البعض أن يحتجوا بخلاف ما ذكرناه بدليل نهب أبي بصير على قريش بعد صلح الحديبية. وهذا إنما هو إفلاس العلم والنظر، وقد صرح القرآن الكريم في الآية ٧٢ من الأنفال (٨) بأن من لم يتمكن من الهجرة إلى المدينة بعد الهجرة فليس على رسول الله ﷺ شيء من مسؤولية تجاههم، ولم يفرض الله ذلك على مسلمي دولة المدينة المنورة أيضاً. وليس هذا فحسب، بل قد علق النبي ﷺ نفسه على أحد تصرفات أبي بصير قائلاً: «ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد» (أي ويل أمه لو وجد أصحاباً لأشعل نار الحرب). ومن هذا يمكن تقدير ما هو رأيه ﷺ في هذا الأمر. انظر: البخاري، أرقام: ٢٧٣١ - ٢٧٣٢.

(2) رواه البخاري، رقم ٢٩٥٧.

(3) كما في الآية ٢٤٤ من نفس السورة مثلاً.

ولكن عندما أُلقي السؤال أوضح القرآن أن الحرمة باقية، ولكن إذا كانت المبادرة من قريش فإنه يجب على المسلمين أن يضعوا حدًا لهذه المقاومة بالسيف. هذا هو سياق الآيات، لكن القرآن لم ينه الحديث هنا، بل أوضح مع ذلك مسؤولية الحرب المستقبلية ودوافعها وحدودها الأخلاقية أيضًا، بل، إذا فكرت فيها علمت أنه قد وصف أيضًا الغرض منها. بحيث يظهر فيه شكلان للقتال اللذان ذكرناهما في المقدمة محددان بوضوح.

ونحن نذكر هذه المباحث بتفصيل يسير

طبيعة المسؤولية

وأول ما يتبين من هذه الآيات أنه ليس فقط ما ورد فيها من أن المسلمين يمكنهم حمل السيف لإنهاء مقاومة قريش في طريق حج بيت الله، بل هو أبعد من ذلك فيأمرهم بذلك أن يرفعوا السيف لهذا الغرض ويستمروا في رفعه حتى لا تكون فتنة ويكون الدين في أرض الحرم لله وحده. ومن الواضح أن هذه مسؤولية ثقيلة ولا يمكن تحميلها على أي مجتمع مسلم دون النظر إلى قوته التكتيكية والحربية والأخلاقية والمعنوية. ولذلك فقد أوضح القرآن في سورة الأنفال أن ذلك أخذ في الاعتبار وفي مراحل مختلفة تم تخفيض المسؤولية أو زيادتها تبعًا لذلك.

ففي المرحلة الأولى، عندما كان مجتمع المسلمين يتكون في معظمه من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، ولم يكن فيهم ضعف في الإيمان والأخلاق، تمكنوا من القيام بهذه المسؤولية بقوة واحد مقابل عشرة كما قال:

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾⁽¹⁾.

(1) سورة الأنفال، الآية: ٦٥.

يقول الأستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاحي في شرح هذا الفقه و البصيرة:

«هذه البصيرة هي الجوهر الحقيقي للإنسان. بهذه البصيرة عندما يذهب المؤمن إلى ساحة المعركة، يشعر بقوة جيش في وجوده المنفرد، ويرى عون الله عن يمينه وشماله، ويصبح الموت له أغلى وأحب من الحياة. لأن بصيرته تنير أمامه الوجهة المخصصة لمن استشهد في سبيل الله. وهذه البصيرة هي التي تخلق فيه ذلك الصبر والثبات الذي وحده يجعله أقوى من عشرة رجال محرومين من هذه البصيرة»⁽¹⁾.

وكانت هذه هي المرحلة الأولى، وبعد ذلك دخل أناس جدد في الإسلام، ورغم أن عدد المسلمين زاد كثيرًا في هذه المرحلة، إلا أنهم من حيث البصيرة الدينية لم يكونوا على قدم المساواة مع السابقين الأولين، فخفف الله تعالى عنهم عبء هذه المسؤولية فقال:

﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾⁽²⁾.

وحدث نفس الشيء فيما يتعلق بالحاجة إلى المهمات العسكرية في مواقع بدر وأحد وتبوك وغيرها، فقد تم تحميل كل مسلم هذه المسؤولية، ومن أظهر الضعف في الخروج لهذا الغرض، قد عاقبه الله تعالى بشدة. حتى أنهم في وقت ما وعدوا بأنهم إذا كانوا يحبون أهلهم وأموالهم أكثر من الجهاد في سبيل الله، فعليهم أن ينتظروا حتى يأتي الله بأمره ويكتب لهم مثل العاقبة التي قد قدرت للذين كذبوا الرسول⁽³⁾. وأما الغزوات التي لم يكن من الضروري أن يخرج إليها جميع المسلمين، فقد بين الله عنها أن المشاركة فيها تعطي لهم درجة الفضيلة

(1) تدبر القرآن ٣/ ٥٠٦.

(2) سورة الأنفال، الآية: ٦٦.

(3) التوبة: ٢٤ - ٦.

وهي ليست بشيء أقل درجة ولكن لم يعد الآن الخروج للجهاد مفروضاً على كل المسلمين قاطبة.

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾⁽¹⁾.

إلا أن القرآن قد صرح بذلك بوضوح في مكان آخر، أن إظهار الجبن والفرار من الزحف بعد دخول الميدان بأمر الله لا يمكن أن يكون من سلوكيات أي مسلم. لقد جعله الله تعالى خطيئة كبيرة لدرجة أنه وعد بالنار عليها. فجاء في سورة الأنفال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرُهُ إِلَّا مَنْ تَحَرَّفًا لِقَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَلِئْسَ الْمَصِيرُ﴾⁽²⁾.

يقول الأستاذ الإمام في تفسير هذه الآيات:

«الآن يتم توجيه التعليمات للمسلمين فيما يتعلق بالحروب المستقبلية، وهي أنه عندما تواجهون العدو في شكل عمليات هجوم عسكرية منظمة فلا تولوا ظهوركم. وهذه التعليمات مبنية على تأييد الله تعالى الذي ذكرناه أعلاه أن الذين يقوم الله وملائكته على ظهورهم نصرًا وتأييدًا يحرم عليهم أن يولوا على أدبارهم أمام العدو.

﴿وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرُهُ﴾: أي الذين يولون دبرهم في مثل هذه الصورة يبوؤون بغضب من الله، ومأواهم جهنم، فعلم من ذلك أن الفرار من العدو هو يساوي الكفر والردة في شدته لأن خطورة الجريمة ترجع إلى حقيقة أن الشخص

(1) سورة النساء، الآيتان: ٩٥ و٩٦.

(2) سورة الأنفال، الآيتان: ١٥ و١٦.

الذي يهرب من ساحة المعركة، يشكل بجبنه أحياناً خطراً جسيماً على الجيش بأكمله، بل أيضاً على الأمة بأكملها.

يستثني مما ذكر الأشكال: مثلاً هناك جندي ويتبنى خطة حربية إلا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ أَوْ مَوْقِفٍ مَا قَدْ عَرَضَ لَهُ أَنْ يَنْسَحِبَ مِنْ إِحْدَى جِهَاتِهِ إِلَى جِهَةٍ أُخْرَى تَابِعَةٌ لَهُ، يعني أن الممنوع من الهروب هو ما هو بطبيعته إدبار الظهر. فيستثنى من الانسحاب ما كان من قبيل التخطيط الحربي⁽¹⁾.

ومن هذه التصريحات القرآنية تتحدد هذه الأمور الثلاثة بوضوح:

أولاً: حتى لو وجد الظلم والعدوان، فإن الجهاد لا يفرض حتى تصل قوة المسلمين القتالية إلى مستوى معين مقارنة بالعدو. وقد جعل الله تعالى هذا الحد بعد انضمام الآخرين إلى السابقين الأولين واحداً مقابل اثنين في عهد النبي ﷺ نفسه. ففي العصور اللاحقة لا يمكن تصور أن الحد يمكن أن يكون أكثر من ذلك، لذلك أصبح من الضروري لأن يقوم المسلمون بواجب الجهاد والقتال، أن يكون وليس فقط الحفاظ على وجودهم الأخلاقي قوياً محكمًا، ولكن أيضاً أن يزدوا في قواتهم العسكرية إلى مستوى أعلى لدرجة كان القرآن قد أمر المسلمين في زمن الرسالة من حيث الوضع في ذلك الوقت وقال:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾⁽²⁾.

ثانياً: عدم المشاركة الفعلية في الجهاد لا يعد جريمة إلا إذا كان المسلم يبقى جالساً في بيته رغم النفير العام⁽³⁾. وإذا لم يكن الأمر كذلك، فإن

(1) تدبر القرآن ٣ / ٤٥٠.

(2) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

(3) وهذا يعني أن تنشأ مثل هذه الحالة بحيث يضطر أرباب الحكم إلى أن تدعو كل مسلم إلى

الجهاد فضيلة يجب أن يكون لدى كل إنسان الرغبة في تحقيقها، لكن منزلته ليست إلا درجة من الفضيلة، وليست من تلك الواجبات التي إذا لم يتم الوفاء بها سيتم إدانته كمجرم.

ثالثاً: يحرم إدمار الظهر والفرار بعد دخول الميدان للقتال في سبيل الله جبناً وهروباً، ولن يرتكبه مؤمن أبداً، فإنه من الإثم أن تعطى الأولوية للحياة على الآخرة وجعل الموت والحياة مرهونة بالتدبير الإنساني، خطة لا يمكن قبولها مع الإيمان.

الباعث المحفز

والأمر الثاني الذي يتبين من هذه الآيات أن القتال الذي أمر فيها لا يكون لهوى النفس، ولا من أجل المال والثروة، ولا من أجل فتح البلاد وحكومة الأرض، ولا من أجل من أجل الشهرة والسمعة وليس إشباعاً لأي شعور بالحمية والتأييد أو الكراهية والعصية والعداوة. فهي لله وحده كما يظهر من تقييد «في سبيل الله» بعد «قاتلوا». وقد ذكر القرآن هذا بوضوح في بداية الحكم في ذلك بأن أنانية الإنسان وهوى النفس لا علاقة لها بهذه المعركة. فهذه حرب الله التي يخوضها عباده بأمره تنفيذاً لأوامره ووفق توجيهه وفي سبيله لا غير.

فمكانتهم في هذه الحرب هي مجرد أدوات وأسلحة. ولا يحققون بها هدفاً خاصاً بهم بل يجب عليهم تحقيق مقاصد الله فقط. لذلك لا يمكنهم أن ينحرفوا عن مكانتهم هذه أيما انحراف.

وكما جاء في النساء:

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (١).

الجهاد. يعبر به النفير العام في الاصطلاح.

(١) سورة النساء، الآية: ٧٦.

وقد بين النبي ﷺ هذا المنشأ القرآني بشكل جيد على بعض المواقع.

فعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري - رضي الله عنه - قال: سئل رسول الله ﷺ - عن الرجل يقاتل شجاعةً ويقاتل حميةً، ويقاتل رياءً؛ أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله - من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا؛ فهو في سبيل الله⁽¹⁾.

وعن أبي أمامة الباهلي قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ماله فقال رسول الله ﷺ لا شيء له فأعادها ثلاث مرات يقول له رسول الله ﷺ لا شيء له ثم قال إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغى به وجهه⁽²⁾.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول رجلٌ استشهد، فأُتي به، قال فعرفه نِعَمته، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت قال: كذبت ولكنك قَاتَلْتَ لأن يقال جَرِيءٌ! فقد قيل، ثم أُمِرَ به فُسْحِبَ على وجهه حتى أُلقي في النار. ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن فأقرئه، فأُتي به قال: فعرفه نِعَمه فعرفها قيل له فما عملت فيها؟ قال تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن وأقرأته، قال كذبت ولكنك تعلمت ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أُمِرَ به فُسْحِبَ على وجهه حتى أُلقي في النار.

ورجل وَسَّعَ الله عليه، وأعطاه من أصناف المال، فأُتي به فعرفه نِعَمه، فعرفها فقيل فما عملت فيها؟ قال ما تركت من سبيل تُحِبُّ أن يُنفَقَ فيها إلا أنفقت فيها لك: قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال جواد فقد قيل:

ثم أُمِرَ به فُسْحِبَ على وجهه حتى أُلقي في النار⁽³⁾.

(1) رواه البخاري رقم: ٢٨١٠. ورواه مسلم رقم: ٤٩١٩.

(2) رواه النسائي رقم: ٣١٤٢.

(3) رواه مسلم رقم ٤٩٢٣.

وعن عبادة ابن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ من خرج مقاتلاً في سبيل الله ونوى عقلاً فليس له إلا ذلك العقال⁽¹⁾:

وعن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: الحرب حربان: فمن قاتل خالصة لوجه الله وأطاع أميره ونفق خير ماله فيه، وأحسن إلى رفاقه، وتجنب الفساد فنومته ويقظته كله في سبيل الله، ومن خرج رياء وسمعة وعصى أميره وأفسد في الأرض فلا يخلص سجالاً⁽²⁾.

وقال الله تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾⁽³⁾.

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: مثل الذي يقاتل في سبيل الله - والله أعلم بمن يقاتل في سبيله - كمثل من صام يوماً، حافظ عليه وقام الليل، وقد كفل الله للمجاهدين في سبيله أنه إن ماتوا أدخلهم الجنة، وإلا أعطاهم أجراً وغنيمة وسيعودون إلى منازلهم بسلام⁽⁴⁾.

وروي عنه أيضاً أن رجلاً أتى إلى النبي ﷺ فقال: أخبرني بعمل مثل الجهاد في الأجر، قال: ليس مثله عمل. ثم سأل: هل أنتم فاعلون أن إذا خرج المجاهدون من ديارهم، تذهبوا إلى المسجد وتقوموا للصلاة، ولا تتنفسون، وتصومون ولا تفطرون أبداً؟ قال: ومن يستطيع هذا⁽⁵⁾؟

(1) روى مفهومه النسائي رقم ٣١٤٠.

(2) روى مفهومه النسائي رقم ٤٢٠٠.

(3) سورة آل عمران، الآيات: ١٦٩ - ١٧١.

(4) البخاري، الرقم ٢٧٨٧.

(5) البخاري، الرقم ٢٧٨٥.

وروي أبو هريرة نفسه أن رسول الله ﷺ قال: إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين كل درجتين مثل ما بين الأرض والسماء⁽¹⁾.

وروي عنه أن النبي ﷺ قال: والذي نفسي بيده، من أصيب في سبيل الله - والله أعلم بمن أصيب في سبيله - يأتي يوم القيامة ويكون لونه لون الدم وريحه المسك⁽²⁾.

وعن ابن جبر قال رسول الله ﷺ: لا تمس النار عبدًا أغبرت قدماءه في سبيل الله⁽³⁾.

وعن سهل بن سعد قال: الرباط (أي البقاء على الحدود دفاعًا عن العدو) يومًا واحدًا خير من الدنيا وما فيها⁽⁴⁾.

الحدود الأخلاقية

ثالثًا: يتضح من هذه الآيات أن هذا الجهاد في سبيل الله لا يمكن أن يتم دون مراعاة الحدود الأخلاقية. الأخلاق أولى في كل حال وفوق كل شيء، ولم يسمح الله تعالى لأحد أن يخرج عنها حتى في حالة الحرب والصراع. ولذلك قال: من خرج منهم للقتال فلتقاتلوهم، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم واقتلوهم حيث ثقتموهم فهذا كله جائز لكم بعد ظلمهم وعدوانهم وإتمام الحجة عليهم بالنبي ﷺ، ولكن يجب مراعاة أمرين في ذلك أحدهما: أن لا تكون مبادرة من قبلكم إلى انتهاك أي حرمة، فالقتال بالقرب من المسجد الحرام وفي الأشهر الحرم، إذا كان لا بد منه فلا يكون إلا بمبادرة منهم أولاً، ولا يمكنكم أبدًا بدء هذا الأمر من جانبكم.

(1) البخاري الرقم ٢٧٩٠.

(2) البخاري، الرقم ٢٨٠٣. مسلم الرقم ٤٨٥٩.

(3) البخاري، الرقم ٢٨١١.

(4) البخاري، الرقم ٢٨٩٢.

ثانياً، يمكنكم أن تعطونهم الجواب على أي إساءة، مساوية لتلك الإساءة، ولكن ليس من حقكم أن تقوموا بأي إساءة من جانبكم، حاربوهم ولكن لا تبدأ الحرب من جانبكم ولا تعتدوا فإن الله لا يحب المعتدين ولا تصل نصرته إلا إلى الذين لا يتعدون حدوده بأي حال من الأحوال. وقد بيّن القرآن في الآيات المذكورة هذين الأمرين بأسلوبه الفريد كما يلي:

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(١).

يقول الأستاذ الإمام في تفسير هذه الآية:

«يعني أن القتال في أشهر الحرم أو حدود الحرم ذنب عظيم، ولكن عندما لا يراعي الكفار حرمتها بالنسبة لكم، فمن حقكم أيضاً أن تقوموا بالقصاص، وتحرمونهم من حرمتهم. إن حياة كل إنسان محترمة في الشريعة، لكن عندما لا يحترم الإنسان حياة شخص آخر ويقتله، فإنه يُقتل في قصاصه أيضاً لأنه قد صار بجرمه هذا محروم الحق في الحياة. وكذلك إن احترام أشهر الحرم وحدود الحرم أيضاً مسلم به، بشريطة أن الكفار أيضاً يلاحظوه ولا يعتدوا على الآخرين في أشهر الحرم، ولكن إذا سُلّت سيوفهم في الأشهر الحرم وفي هذا البلد الأمين استحقوا أن يُحرموا من أمن وسلام البلد الحرام قصاصاً.

وقال أيضاً إنه كما أن قصاص الأشهر الحرم هذا ضروري كذلك قصاص سائر الحرمات. بمعنى آخر، إذا حرموكم من حق حرمة الشيء المحترم، فمن حقكم أيضاً أن تحرموهم من حق حرمة قصاصاً، لذا مهما كانت الإجراءات التي يتخذونها ضدكم من خلال تدمير وانتهاك حرمات الحرم والأشهر الحرم، يجب أن تردوا عليهم مثلاً بمثل وسواء بسواء.

ولكن ضعوا في اعتباركم حدود التقوى، ولا تقدموا لكسر أي حد، ولا

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

تتخذوا أي إجراء يتجاوز مما هو ضروري، فإن دعم الله وعونه لأولئك الذين يتقونه في جميع أنواع المواقف والحالات ويظلون خائفين منه»⁽¹⁾.

وبموجب هذا الحكم، فإن أهم التعليمات المذكورة في القرآن هي مراعاة العهد. وقد جعل الله الخيانة ونقض العهد من أعظم الذنوب، وفي الحالتين سواء كان القتال بعد إتمام الحجة على الظلم والعدوان أو على المكذبين بالحق، فقد تم بيان للمسلمين أنهم لا يمكن لهم انتهاك العقد الذي عقده مع قوم وأمة. وسورة التوبة هي سورة عذاب لمن كفر بالحق، وفيها قد أمر رسول الله ﷺ وأصحابه أن يُقدموا على إقدام نهائي ضد مشركي العرب منهيًا كافة المعاهدات معهم، إلا أنه قد أوضح لهم في هذا أيضًا أنه إذا تم اتفاق مع تحديد الوقت فإن أجله سوف يُكمل⁽²⁾. وبالمثل، فقد ورد بوضوح في الأنفال أنه حتى لو كانت إحدى الدول المعاهدة تضطهد المسلمين، فلا يمكن مساعدتهم بانتهاك المعاهدة مع تلك الدولة فقال:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾⁽³⁾.

وقد ذكر النبي ﷺ شناعة نقض العهد على عدة مواقع:

فعن أبي سعيد ما مفهومه: يرفع يوم القيامة لواء لغادر لإعلان خيانتته بقدر خيانتته، إلا أن سيد الناس الغادر والناقض للعهد، ليس هناك أعظم خائنًا منه⁽⁴⁾.

(1) تدبر القرآن ١ / ٤٧٩ .

(2) ٤ : ٩ .

(3) سورة الأنفال، الآية: ٧٢ .

(4) مسلم الرقم ٤٥٣٨ .

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: من قتل معاهدًا لم يجد رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا⁽¹⁾.

أما إذا كان هناك خوف من الخيانة والغدر من الجانب الآخر، فمن حق المسلمين أن يرموا هذا الاتفاق في وجوههم «على سواء» يقول الله تعالى:

﴿وَمَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ فَإِنِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾⁽²⁾.

وقد كتب الأستاذ الإمام في شرحه:

إن معنى «على سواء» هو أنك مرخص لكم أيضًا باتخاذ إجراء مساوٍ لهم. ويترتب على ذلك أن الجواب والرد لا ينبغي أن يكون أشد وأصعب، بل يجب أن يكون متساويًا. ولا أرى أي حجة في هذه الكلمات لما قال بعضهم أنه يجب إعلام وإطلاع الفريق الثاني بنهاية المعاهدة، إلا بأنه يستنبط منه أن مجرد التخوف الوهمي لا يكفي لإبطال عقد، بل إن الإخلال به قد ظهر بالفعل. وذلك أولاً لأن الفعل «تخافن» المستخدم هنا هو فعل تأكيد بنفسه. وثانيًا أن قيد «على سواء» الآخر يجعلها بارزة⁽³⁾.

وقد أوضح النبي ﷺ ذلك بقوله:

«من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عهدًا ولا يشدنه حتى يمضي أمده أو ينبذ إليهم على سواء»⁽⁴⁾.

وعلاوة على ذلك، فإن التعليمات المذكورة في القرآن والحديث المتعلقة بذلك فهي كما يأتي:

١. لا ينبغي للمرء أن يتخذ موقف الغطرسة والكبرياء عند الخروج للحرب،

(1) البخاري، الرقم ٣١٦٦.

(2) سورة الأنفال، الآية: ٥٨.

(3) تدبر القرآن ٣/٤٩٩.

(4) رواه الترمذي برقم ١٥٨٠.

ففي سورة الأنفال، حيثما حث القرآن المسلمين على ذكر الله كثيرًا في مثل هذه المناسبات، نصحهم كذلك ألا يتخذوا موقف الذين يخرجون للحرب يظهرهم الافتخار بكثرة أعدادهم وكثرة ما عندهم من الوسائل والموارد، فقال إن هذه البهاء والتبجح لا يليق بشأن المؤمن، وينبغي أن يكون التواضع والتذلل بارزين في جميع الأحوال السارة أو الضارة له، فحربهم ليست حرب فحسب بل هي عبادة الله، فمن الضروري أن يستمر شأنه هذا في كل مكان:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾^(١).

٢. ولا ينبغي اتخاذ أي إجراء ضد أولئك الذين يريدون لأي سبب من الأسباب، البقاء على الحياد في الحرب. ففي سورة النساء قد أمر عن المسلمين الذين بسبب ضعفهم وقلة شجاعتهم لم يكونوا مستعدين للانضمام إلى قومهم في قتال المسلمين، كما لم يكونوا مستعدين أن يقاتلوا قومهم منضمين إلى الصف الإسلامي، فقال الله تعالى لا ينبغي اتخاذ أي إجراء ضدهم:

﴿أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يَقْتُلُوكُمْ قَوْمُهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقْنَلُوكُمْ فَإِنْ أَعَزَّ لُوكُمْ فَلَمْ يَقْتُلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾^(٢).

٣. ولا يقتل من لا يستطيع أن يشارك في الحرب أو لا يريد لها عقلاً وعرفاً. فقد روى عبد الله بن عمر أنه كان في الحرب حين علم أن امرأة قتلت، فنهى النبي ﷺ الناس بشدة عن قتل النساء والأطفال^(٣).

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٧.

(٢) سورة النساء، الآية: ٩٠.

(٣) البخاري، الرقم ٣٠١٥. مسلم الرقم ٤٥٤٧.

٤. ولا ينبغي أن يُقتل العدو بالحرق بالنار، فعن أبي هريرة أن النبي ﷺ أمرنا أن نغزو، وأمرنا إذا لقينا الرجلين فلانًا وفلانًا. أحرقوهم، فلما انطلقنا دعانا فقال: أمرتكم أن تحرقوا فلانًا وفلانًا بالنار، ولكن الحق أن الله وحده هو الذي يعذب بالنار، فإذا وجدتم هؤلاء فاقتلوهم^(١).
٥. ولا انتهاب ولا إغارة فعن عبد الله بن يزيد أن رسول الله ﷺ نهى أن يؤخذ من عامة الناس شيء في الزحف إلى بلاد العدو^(٢). وروي عن أنصاري أن أهل الجيش في رحلة الجهاد نهبوا ذات يوم في حاجة شديدة بعض الغنم وأرادوا أن يطبخوا لحمها ويأكلوها، فقلب القدور وقال: ليست غنيمة النهب خير من جثة ميتة^(٣).
٦. ولا ينبغي المثلة فعن بريدة أن رسول الله ﷺ كان يأمر إذا بعث الجنود وينهى في التأكيد الشديد عن المثلة وتدنيس الجثث وتقطيع أعضائها^(٤).
٧. ولا ينبغي أن تضيق الطرق. فعن معاذ بن أنس أنه خرج للجهاد مع النبي ﷺ فرأى الناس قد ضاقت عليهم المهبط وهم في طريقهم. ويسرقون المارة، وعندما وصلت إليه شكواه، أعلن على الفور أن من يزعم المارة ويضيق بهم المرور أو يسرق المارة فلا جهاد له^(٥).

غاية خطوة الجهاد

والأمر الرابع هو غرض وغاية خطوة الجهاد. وفي هذه الآيات من سورة البقرة قد نص الله بوضاحة تامة على أن الحرب ستستمر حتى يتحقق هذان الهدفان لها لدرجة نهائية:

-
- (١) البخاري، الرقم ٣٠١٦.
 (٢) البخاري، الرقم ٢٤٧٤.
 (٣) أبو داود، الرقم ٢٧٠٥.
 (٤) مسلم، الرقم ٤٥٢٢.
 (٥) أبو داود، الرقم: ٢٦٢٩. أبو يعلى الرقم ١٤٨٤.

أحدهما: أن لا تبقى الفتنة.

والثاني: أن يكون الدين في أرض العرب لله وحده.

وقد وردت في القرآن للهدف الأول فقرة «حتى لا تكون فتنة». وقد تم وصف هذا الغرض من الحرب بشكل أو بآخر بهذه الكلمات في الآية ٣٩ من سورة الأنفال أيضًا. وهذه «الفتنة» التي وصفها القرآن هنا بأنها «أشد من القتل» تعني محاولة جعل الإنسان يرتد عن دينه بالقسوة والإكراه. وهذا ما يُعرف بكلمة «الاضطهاد» في اللغة الإنجليزية.

وقد وردت هذه الكلمة في القرآن بهذا المعنى في أمكنة أخرى كثيرة، ولا شك أن هذه جريمة أخطر من القتل. لقد خلق الله تعالى هذا العالم للاختبار والابتلاء، وأعطى الإنسان الحق في اعتناق ما يريد من دين ووجهة نظر بقراره الحر، فإذا أجبر شخص أو جماعة آخرين على ترك دينهم بالقوة، فهو بفعله ذلك يعلن في الواقع إعلان حرب ضد مخطط الله تعالى لهذا العالم بأكمله.

ولذلك عندما قامت دولة المسلمين المنظمة في يثرب أمروا برفع السيف لإنهاء حالة الفتن التي أثرت لمن يؤمن بمحمد رسول الله على هذه الأرض، وأن لا يزالون يرفعون السيف طالما بقيت هذه الحالة. وقد وصف القرآن هذا الأمر في سورة النساء بطريقة مؤثرة للغاية على النحو التالي:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا * الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الظَّالِمِينَ فَفَقِّلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾^(١).

وقد ورد هذا الحكم للحرب ضد الفتنة في مواضع أخرى من القرآن أيضًا. وليس هناك شك في أن تقليد تحويل الآخرين قسرًا عن دينهم قد اختفى وانتهى

(١) سورة النساء، الآيتان: ٧٥ و٧٦.

إلى حد كبير من العالم المعاصر، ولكن طالما أن الإنسان إنسان، فلا يمكن القول متى وبأي شكل سوف ينتعش. ولذلك يبقى هذا الحكم القرآني إلى يوم القيامة. فعندما تنشأ مثل هذه الفتنة في أرض الله، وإذا كانت الحكومة الإسلامية قوية بما يكفي لاستئصالها، فمن الضروري أن تهب لمساعدة المظلومين وتعلن الحرب في سبيل الله، وبالنسبة للمسلمين فإن هذا التوجيه القرآني أبدي، ولا يمكن لأي قانون في العالم أن يدمره وينهيه.

نعم، السؤال الذي يطرح هنا أنه إلى جانب الظلم والاعتداء الديني، يمكن أن يكون هناك أشكال أخرى من الظلم والعدوان، أليس هذا هو الحكم فيها؟ والجواب على ذلك أنه ينبغي أن يفهم تحت هذا الأصل جميع أشكال الظلم والاعتداء على أرواح المسلمين وأموالهم وعلى عقولهم وآرائهم. ولذلك أمر القرآن في سورة الحجرات أنه إذا اعتدى فريق من المؤمنين على إخوانهم ولم ينتهوا رغم محاولات الإصلاح فيجب قتالهم:

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفْتَنُوا أَلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١).

ويتلخص الحكم الوارد في هذه الآيات فيما يلي:

١. إذا تقاتلت مجموعتان وطائفتان من المسلمين مع بعضهما البعض، فلا ينبغي للمسلمين الآخرين أن يعتبروا ذلك نزاعاً لغيرهم وأن ينزلوا عنه. وكذلك لا يجوز لهم أن يكونوا مؤيدين لأحد أو معارضين لأحد بروح العصبية العائلية والعشائرية والجماعية دون البحث في أيهما على الصواب وأيهما على الخطأ. بل الموقف الصحيح بالنسبة لهم هو فهم القضية بشكل كامل ومحاولة إصلاح ذات البين والتوفيق بين الطرفين.

(١) سورة الحجرات، الآيتان: ٩ و ١٠.

٢. فإذا لم يتفق أحد الطرفين على الصلح، أو اتخذ موقف الظلم والعدوان بعد الاتفاق، وجب على المسلمين قتاله، إذا كانوا قادرين، في ظل حكومتهم المنظمة، حتى قبلت الطائفة الباغية ذلك القرار. وأُحنت رأسها أمام ما طرحه الوسطاء أمام الفئتين. وقد عبر القرآن هذا القرار بأنه «أمر الله». ومعنى هذا أنه إذا تجنّب حزب فكأنما تجنّب الخضوع لأمر الله تعالى.

٣. وإذا كان الطرفان راغبين في الإصلاح، فقد أمر الله تعالى أن لا يُظلم أحد منهم ولا يُحابى ولا يُخضع أحد من خلال جهاز العدل، بل يجب أن يتم المصالحة بالعدل الصحيح، ويجب الوفاء لمن تضرر وبمقدار ما تضرر به.

من الواضح أن هذا الحكم لا يكون ذا صلة إلا إذا كانت هناك حكومة إسلامية نظامية يمكن خوض الحرب في ظلها على الباغيين. وإذا لم يكن الأمر كذلك، فقد أمر رسول الله ﷺ، في رده لسؤال حذيفة رضي الله عنه أن يبرئ كل مسلم نفسه تمامًا من هذه الفتنة:

قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»^(١).

وللمقصد الثاني قد تم اعتماد تعبير «يكون الدين لله» ويكون الدين كله لله» في البقرة والأنفال كليهما، وقد سبقه حكم الحرب بلفظ «قاتلوهم».

وواضح من سياق الكلام أن مرجع الضمير المنصوب فيه هو العرب المشركون، فمن المؤكد قطعاً أن معنى هذه الكلمات هنا لا يمكن أن يكون إلا أن يكون الدين في أرض العرب كاملاً لله. وكان يمكن تحقيق هذا الهدف بطريقتين لا ثالث لهما: الأولى: قتل أتباع جميع الأديان إلا الدين الحق. والثانية: أن يظلوا تابعين صاغرين من كل وجه. ولذلك، فبعد المرور بمراحل عديدة من السلم والحرب، وهزيمة المنكرين تمامًا، تم اعتماد هذين الأسلوبين أخيراً.

(١) رواه البخاري، رقم ٧٠٨٤.

فإذا لم يؤمن العرب المشركون أمر بإبادتهم، وأعطيت تعليمات بشأن اليهود والنصارى بعدم السماح لهم بالعيش في هذه الأرض إلا بأخذ الجزية منهم وإخضاعهم وقهرهم بالكامل. ولكن كان من بينهم الأعداء المعاندون المتعنتون، فقتلوا أو نُفيوا كلما أمكن ذلك.

وقد كتبنا في المقدمة أن الخطوات التي اتخذها النبي وأصحابه لهذا الغرض والأوامر التي صدرت لهم بالقتال لا تتعلق بالشرع، وإنما هي حصلت تحت قانون إتمام الحجة من الله تعالى. وقد سبق تفصيل هذا القانون في هذا الكتاب في أمكنة كثيرة. وخلاصة ذلك أنه إذا قامت حجة الله على قوم، جاء عذاب الله في الدنيا على من كذب الحق وجحد. ويخبرنا القرآن أن هذا الحكم بالعذاب وللعقوبة يصدر من الرسل بعد المرور بمراحل الإنذار، والإنذار العام وإتمام الحجة واستكمال الأدلة، ثم بعد المرور بمرحلتَي الهجرة والبراءة، ويصدر بحيث يقوم الحكم السماوي على الأرض، وتظهر دينونة الله، وتحدث قيامة صغيرة للأشخاص الذين خاطبهم الرسول مباشرة.

وتاريخها الذي بينه القرآن يدل على حدوث حالتين عمومًا في مثل هذه الملاحظات: إحداهما أن أصحاب النبي ﷺ يكونون أقل عددًا ولا تتوفر له وسيلة للهجرة التي يخرج بها عدد محترم من أصحابه، والصورة الثانية هي أن يخرج الرسول بعدد ملموس لأنصاره وقد يوفر الله تعالى له قبل خروجه أن يعيش في مكان آمن وينعم بالحرية والتمكن. وفي كلتا الحالتين لا بد من تحقق سنة الله في الرسل، والتي وصفها القرآن بما يلي:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١).

أما في الحالة الأولى، فبعد خروج الرسول من الأمة، عادة في صورة وفاته أو على شكل هجرته من ذاك المكان، يصدر القرار الألوهي بحيث تنزل

(١) سورة يونس، الآية: ٤٧.

جيوش السماء، وترتفع عاصفة الساف والحاصب، وتهجم جيوش العواصف والأمطار على الأمة بحيث لا يبقى في الأرض أحد من مخالفى الرسول، ولكن هذا يكون بالنسبة لأولئك الذين يستخدم القرآن في حقهم كلمة «المشركين». وأما الذين كان لهم علاقة أصلاً بالتوحيد فلا يكون هذا حالهم. بل الضابطة فيهم أنه يفرض عليهم عقوبة الذل وعذاب القهر والهوان بدل استئصالهم واجتثاثهم من الأرض.

فمن المعروف أن نفس الشيء حدث مع بني إسرائيل، على حين أن الأقوام والأمم الأخرى من مثل قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب وأمثالهم من الشعوب قد أبيدت من الأرض تمامًا.

ونفس القانون يتم في الصورة أيضًا، ولكن في هذه الحالة يتم تنفيذ الحكم بالعقوبة بواسطة سيوف الرسول وأصحابه. ففي هذه الحالة، تحصل الأمة المخاطبة على مزيد من الراحة. وفي هذه الفترة يقوم الرسول أيضًا بالحجة الأخيرة على المخاطبين بدار الهجرة. وبعد تربية وتطهير المؤمنين به، يُعدهم الرسول أيضًا لمعركة الحق والباطل هذه، فيقوي سلطته أيضًا أثناء ذلك في دار الهجرة لدرجة أنه بمساعدتها يتمكن من تدمير الكفار واستئصال الجاهدين وإعلاء كلمة الحق ورفع أهلها. وأن يفوز في هذه المعركة نهائيًا.

وقد حدثت مع رسول الله ﷺ هذه الصورة الأخيرة. ولذلك، بعد إتمام الحجة، أولاً انهزم اليهود. ولقد كانوا محميين بسبب العهد، فمن خالف العهد منهم وقع عليه عقوبة تكذيب رسول الله ﷺ. وقد نفى النبي ﷺ بني قينقاع إلى خيبر، وبني نظير إلى الشام⁽¹⁾. ثم بمهاجمة خيبر قد تم تحطيم قوتهم هناك أيضًا⁽²⁾. وقبل ذلك قتل أبو رافع وكعب بن الأشرف من قومهما في دارهما⁽³⁾.

(1) السيرة النبوية، لابن هشام ٣/٤٠.٤٢، ١٥١.١٦٠.

(2) السيرة النبوية، لابن هشام ٣/٢٧٧، ٢٥٥.

(3) السيرة النبوية لابن هشام ٣/٤٣.٤٨، ٢١٥.٢١٧ الطبقات الكبرى، لابن سعد ٢/٢٨.

ولما ارتكب بنو قريظة الغدر والخيانة على موقع غزوة الخندق^(١). فحين انسحبت الأحزاب في وقعة الخندق ولم يكن هناك خوف من أي هجوم من الخارج، حاصرهم النبي ﷺ على الفور.

فإذا عجزوا من الحصار اضطروا إلى طلب أنه مهما كان القرار الذي سيتخذه سعد بن معاذ رضي الله عنه في حقنا فإننا سنقبله. وعلى هذا تقرر سعد حكما ووافق سعد على إصدار أمره. وبما أنه لم يذكر لهم حد محدد في القرآن حتى ذلك الحين، فقد قرر سعد رضي الله عنه وفقاً للتوراة^(٢) أن يقتل رجال بني قريظة البالغون، ويؤخذ النساء والأطفال أسارى. وتقسم أموالهم بين المسلمين. فنفذ قرار سعد بن معاذ هذا، وقتل بموجبه جميع رجالهم^(٣). ولم يحدث بعد ذلك حادثة ملحوظة عنهم حتى نزل حكم الله الحتمي النهائي في اليهود في سورة التوبة. فقد قال:

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾^(٤).

وكان هذا الحكم خاصاً باليهود والمسيحيين كليهما. وعلى الرغم من أنهم قد استحقوا عقوبة الإبادة والاستئصال بسبب إتمام الحجة من خاتم أنبياء الله، إلا أن ذلك كان بمثابة تنازل كبير لهم، بسبب تعلقهم بالتوحيد الذي كانوا يتمتعون بها ولكنهم لم يستفيدوا بها فبعد رحيل النبي ﷺ عادوا مرة أخرى للخيانة ونكث العهد^(٥). فقد تم نفي يهود خيبر ونصارى نجران من الجزيرة

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١٨٠، ١٨٢.

(٢) سفر التثنية ١٠: ٢٠، ١٤.

(٣) البخاري، الأرقام ٤١٢١، ٤١٢٢. مسلم، رقم: ٤٥٩٦، ٤٥٩٨.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٢٨.

(٥) البخاري، الرقم ٢٧٣٠. كتاب الخراج، أبو يوسف ٤٢. فتوح البلدان، للبلازري ٧٣. الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢/ ١١٢.

العربية على يد عمر الفاروق ؓ نهائياً إلى الأبد، وبذلك تحققت كلمة الله فيهم التي وردت في القرآن على النحو التالي:

﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُهمْ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾⁽¹⁾.

ولما هُزم مشركو العرب أيضاً بهذه الطريقة، أعلن في سورة التوبة أنه لن يكون معهم صلح في المستقبل، ولهم مهلة أربعة أشهر فقط، ثم يُقام عليهم عذاب الخزي والذل. ولن يتمكنوا من إيجاد مخرج منه في هذا العالم⁽²⁾. ففتحت مكة، وكما قد قُتل البعض من المعاندين من أهل مكة من أسرى بدر وأحد، قُتلوا في على وقعة فتح مكة أيضاً. وقد نزل فيهم قبل ذلك هذا الأمر في سورة التوبة أنه ينبغي الإعلان في مناسبة الحج الأكبر أنه بعد انتهاء الشهر الحرام سيقتل المسلمون هؤلاء المشركين حيثما وجدوهم إلا أن آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة.

وتم إعفاء الأشخاص الذين كان لديهم عقود محددة المدة فقط من هذا. وتم التوجيه فيهم بأنهم إذا لم يرتكبوا أي مخالفة، فسيتم الوفاء بها طوال مدة هذه الاتفاقيات. وكان المعنى الواضح من ذلك أنه بعد انتهاء المدة ستصل هذه الاتفاقيات أيضاً إلى نفس النتيجة والعاقبة التي قُدرت لجميع المشركين في الجزيرة العربية. وكان ذلك الإعلان في حالة عدم الإيمان عن قتلهم ومذبحتهم التي بينها القرآن على النحو التالي:

﴿وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ بُيْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُعْجِزٌ لِلَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

(1) سورة الحشر، الآية: ٣.

(2) ٣٥١، ٢: ٩.

الْمُنَاقِبِينَ * فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ
وَأَحْضَرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ
فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾.

وبهذه التدابير تحقق غرض الحرب في الدرجة الأخيرة التي جاء وصفها في «يكون الدين كل لله»، ولكن في هذه الأثناء امتد رسول الله ﷺ دعوته إلى جميع الأمم المجاورة خارج شبه الجزيرة العربية⁽²⁾ وكتب رسائل دعوية إلى زعمائهم⁽³⁾ وأوضح لهم أن الإسلام الآن هو الذي يمكن فقط أن يكون ضمان الأمن لهم⁽⁴⁾. وهذا يعني أن سلطان الله الذي قد تمت إقامته على مشركي العرب واليهود والنصارى من طريق سيدنا محمد ﷺ سيقام أيضًا على هذه الأمم خارج الجزيرة قبل أن يغادر العالم ويلحق بالرفيق الأعلى. وكانت النتيجة الحتمية لذلك أنه بعد اكتمال الدليل وإتمام الحجة من قبل الرسل، يجب تطبيق قانون العذاب والجزاء في الدنيا على هذه الأمم أيضًا.

فحدث ذلك، فبعد أن فرض الصحابة الأبرار حكمهم في شبه الجزيرة، هاجموا هذه الأمم بإعلان «إما الإسلام وإما الجزية» أي أسلموا أو استعدوا للعيش في التبعية ودفع الجزية. وليس هناك صورة أخرى للحياة والعيش بالنسبة لكم الآن. وبما أنه لم يكن أحد من هذه الأمم حامل لواء الشرك، وإلا لكانوا عاملوهم أيضًا كما عاملوا مع المشركين العرب.

ويتضح من هذا أنها لم تكن مجرد معركة وقتال، بل كان ذلك عذاب

(1) سورة التوبة، الآيات: ٣-٥.

(2) وقع هذا بعد صلح الحديبية، حيث فتح الصلح مع قريش الفرص أمام النبي ﷺ لتوجيه الدعوات وإرسال الرسائل.

(3) أسماء هؤلاء الملوك والرؤساء هي: ١. النجاشي ملك حبش. ٢. المقوقس ملك مصر. ٣. خسرو برويز إمبراطور فارس. ٤. قيصر إمبراطور روما. ٥. منذر بن ساوي حاكم البحرين. ٦. هوزة بن علي صاحب يمامة. ٧. الحارث بن أبي شمر حاكم دمشق. ٨. جيفر ملك عمان.

(4) البخاري، رقم ٢٩٤١. مسلم الرقم ٤٦٠٧.

وعقوبة من الله تعالى بعد اكتمال الأدلة وإتمام الحجة عملاً بالسنة الإلهية وقضاء من الله، قد تم تنفيذه أولاً على المشركين ويهود العرب ثم نزل على بعض الأقوام والأمم من خارج الجزيرة العربية. ولذلك فمن المؤكد قطعاً أن الحرب ضد منكري الحق بعد ذلك، ونتيجة لذلك، حق فرض الجزية على المفتوحين وإبقاؤهم صاغرين مقهورين قد انتهى الآن إلى الأبد. لا يستطيع أحد أن يهاجم أي أمة من أمم العالم لهذا الغرض إلى يوم القيامة، ولا يجروء على إخضاع قوم وقهره وغلبه وفرض الجزية عليه. ولم يبق للمسلمين إلا شكل واحد من أشكال القتال اليوم، وهو قتال الظلم والعدوان. وهذا هو القتال في سبيل الله الآن. ولا يمكن شن الحرب باسم الدين لأي غرض آخر غير هذا.

النصرة الإلهية

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * أَلَكُنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾⁽¹⁾.

وكما تصف هذه الآيات من الأنفال حدود مسؤولية الجهاد، فإنها تحدد أيضاً قواعد نصره الله في الجهاد والقتال. لقد تم التوضيح فيها أن مسألة العون الإلهي في الحرب ليست مسألة عابثة وغير مضبوطة وأن نصر الله وعونه يجب أن يأتي بنفس الطريقة التي يريدها الناس. لا، بل قد وضع الله تعالى قاعدة لنصرة الله وهو يعين عباده وفق تلك الضابطة. وإذا تأملت الآيات، عرفت أن قانون نصره الله هذا يقوم على النقاط الثلاث التالية:

أولاً: إن الأصل في حصول عون الله هو الصبر والثبات. ولا تنال جماعة من

(1) سورة الأنفال، الآيتان: ٦٥ و٦٦.

المسلمين استحقاقها حتى تنمي هذه الصفة في نفسها. فإذا دخل فريق محروم منها ميدان الجهاد فلا ينتظر من الله تعالى عونًا ونصرًا مؤزرًا. وقد بُين نفس الأمر في هذه الآيات من خلال صفات «صابرون» و«صابرة». وقوله «و الله مع الصابرين» في آخر الآيات يدل على هذه الحقيقة أيضًا.

ثانيًا: اكتساب القوة المادية أمر لا غنى عنه لخوض الحرب. لا شك أن كل ما يحدث يحدث بأمر الله، ويجب أن يكون توكل الإنسان أصلًا على الله رب العالمين، ولكن مع هذا أيضًا فإن الله خلق هذا العالم كعالم الأسباب. إن هذا المخطط للعالم يتطلب أنه إذا تم تصور أي مبادرة للخير والصلاح، فيجب توفير الموارد اللازمة لها في جميع الأحوال. وماذا ينبغي أن تكون هذه الوسائل والموارد؟ قد أقام الله لها تناسبًا لقوة العدو في هذه الآيات من الأنفال. وإذا لم يتحقق ذلك، فينبغي للمسلمين أن يحاولوا تحقيقه.

فإن قاموا قبل ذلك بأي عمل في هوى الجهاد أو غلبة العواطف فالمسؤولية عليهم. وليس هناك على الإطلاق وعد بأي مساعدة من الله تعالى لهم في هذه الصورة.

وثالثًا: الشيء الذي يكمل ما ينقصه من قوة مادية هو قوة الإيمان، يُعلم ذلك من فقرة «علم أن فيكم ضعفا» ومن فقرة «بأنهم قوم لا يفقهون» ولا يطلق ضعف بالعربية فقط على النقص الجسماني والخور المادي بل يطلق على ضعف الإيمان وعدم العزيمة وفتور الهمة والبصيرة أيضًا. كما أن «لا يفقهون» أيضًا ينبئ عن معنى حرمان البصيرة الإيمانية هنا.

فقال بما أن جاحدي الحق محرومون من هذه البصيرة، وقد أنعم الله تعالى عليكم بهذه النعمة، فحتى لو كنتم مائة مقابل ألف فسوف تتصرون عليهم بعون الله ونصره.

ويتوضح من نظم السورة أن هذه النسبة تعود إلى زمن بدر. وبعد ذلك دخل في الإسلام أناس جدد كثيرون لم يكونوا على قدم المساواة مع السابقين

الأولين في الالتزام بالعزيمة والبصيرة. ونتيجة لذلك، زاد عدد المسلمين كثيرًا، ولكن قوة الإيمان لم تكن بنفس مستوى المسلمين السابقين الأولين. ولذلك أخبر الله تعالى أن النسبة الآن هي واحد واثنان، فإن صبر مائة من المسلمين غلبوا مائتين، وإذا ثبت ألف غلبوا بأمر الله ألفين.

وقد تم شرح قانون التأييد الإلهي هذا لجماعة الأولياء القديسين الذين خرجوا إلى ميدان الجهاد مع رسول الله ﷺ وبأمر الله مباشرة. ففي العصور اللاحقة يمكن تقدير كم يمكن أن تقل هذه النسبة أو تزيد بالنظر إلى الحالة الإيمانية للمسلمين.

أسرى الحرب

﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوُثَاقَ فِيمَا مَثَا بَعْدُ وَإِمَا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ (1).

وواضح من كلمات الآية أنها نزلت في ذلك الوقت حيثما لم تكن هناك عرضت حرب للمسلمين بعد، ولكن الظروف كانت تشير إلى إمكانية حدوثها في أي وقت. وفي هذه المناسبة قيل للمسلمين إنه إذا كان هنا اصطدام ومقاتلة مع هؤلاء المنكرين للأرض العربية فإن المطلب الحقيقي هو قتلهم وضرب رقابهم. فأنهم لم يستحقوا أي خصم ورخصة لإصرارهم على كفرهم بعد إظهار البيئة وإتمام الحجة عليهم من النبي، فإذا جاؤوا في معارضة ومقابلة يجب الإثخان فيهم وأن يعاقبوا عقابًا كبيرًا، ويجب أن تتم عملية التأسير وإلقاء القبض عليهم عندما يتم الإثخان كما هو حقه. لكنهم إذا سجنوا فإما أن ستطلبون منهم فدية أو تطلقون سراحهم دون تعويض.

وبعد ذلك لا يمكنكم التعامل مع أي شيء آخر غير ذلك. هذا هو الأمر

(1) سورة محمد، الآية: ٤.

لكم حتى تضيع روح الحرب بداخلهم⁽¹⁾. فقال أيضًا بعده «ذلك»: أي هذا ما عليك فعله.

وجاء لذلك ألفاظ «إما منا بعد وإما فداء» ومنا هو مصدر لفعل محذوف ولم يأت في مقابل القتل بل بمقابل الفداء، ويعلم البارعون في اللغة أنه إن كان فداء يعطي معنى التسريح بعد الفداء فإن «منا» أيضًا يعطي معنى التسريح إحسانًا لأنه جاء مع إما وجاء مقابلًا لفداء. ولا يمكن أن يراد به صورة أخرى للإحسان.

ورغم أن هذا الأمر في سورة محمد قد جاء في حق المشركين من جزيرة العرب، إلا أنه عام من كل وجه، والسبب في ذلك أنه حيث لا تعامل مع كفار النبي والجاحدين له بعد أسرهم، إلا المن أو الفدية. فذلك يكون مع الآخرين بالدرجة الأولى، ولذا فإن هذا الحكم القرآني الذي أنهى عادة جعل الأسرى عبيدًا إلى الأبد، وبالتالي قطع أصل العبودية واستأصلها.

ولكن تم استثناء ثلاثة أنواع من السجناء من ذلك:

ومن هؤلاء المخالفين أولًا الذين قضى الله تعالى بقتلهم أينما وجدوا، مثل عقبة بن أبي معيط، ونضر بن الحارث⁽²⁾، وأبي عزة⁽³⁾. وكذلك هؤلاء القلائل من أهل مكة الذين استثنوا من العفو العام على موقعة فتح مكة⁽⁴⁾.

وثانيًا بنو قريظة، فرض عليهم حكمهم الذي ارتضوه بأنفسهم حكم التوراة فيهم، فقتل رجالهم، وبيعت نساؤهم وأطفالهم أسرى⁽⁵⁾.

(1) قيل هذا نظرًا إلى التعامل المستقبلي معهم لأنه بعد انتهاء الحرب لم يعد هناك مكان لأي شكل ثالث سوى الإسلام والسيف.

(2) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢١٥.

(3) السيرة النبوية لابن هشام ٣/٨٣.

(4) السيرة النبوية لابن هشام ٤/٤١.

(5) البخاري، رقم ٤١٢٢. مسلم، رقم ٤٥٩٨. السيرة النبوية لابن هشام ٣/١٨٨، ١٨٩، ١٩٢.

ثالثاً: الأسرى الذين كانوا بالفعل إماء محظيات وعبيداً من قبل وقد تم توزيعهم في بعض المناسبات على الناس بصفاتهم هذه^(١).

ومن الواضح أن هذه الأنواع الثلاثة لم تكن لها علاقة بما جاء في سورة محمد من الحكم المذكور أعلاه. ولذلك، وبغض النظر عنها، فإذا دُرست أحداث زمن الرسالة في هذا الأمر، يمكن القول بكل ارتياح أن رسول الله ﷺ لم يتعامل مع أسرى الحرب العاديين خارجاً من هذا الحكم. ولكن ما قام به قام بالضبط في تبعته.

وإليك التفاصيل:

١. وطالما بقي السجناء في سجن وعهدة الحكومة، تمت معاملتهم بشكل جيد للغاية. ومعلوم عن أسرى بدر أنهم تُوزعوا على بيوت الصحابة، وقد أمر رسول الله ﷺ فيهم بقوله: «اسْتَأْصُوهُمْ بِالْأَسَارَى خَيْرًا»^(٢) و^(٣) وذكر أبو عزيز أحد الأسرى أن الأنصار الذين كنت في بيتهم كانوا يطعمونني الخبز صباحاً ومساءً، ولا يأكلون إلا التمر^(٤). وألقي القبض على زعيم اليمامة ثمامة بن أثال، وطالما بقي في السجن كان يزود بالطعام الطيب واللبن بأمر النبي الكريم^(٥).

٢. تم إطلاق سراح معظم أسرى بدر بفدية. وفرض على القادرين على دفع التعويضات من ألف إلى أربعة آلاف درهم لكل سجين، ومن لم يتمكن من دفع التعويضات أطلق سراحهم بشرط أن يعلموا أطفال الأنصار القراءة والكتابة وكل أسير يعلم عشرة أطفال. وأطلق سراح عمرو بن أبي سفيان

(١) البخاري، رقم ٣١٤٤، مسلم، الأرقام: ٤٢٩٤، ٤٦٢١. السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ١٠٥.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢١٧.

(٣) أي تحسنوا إلى هؤلاء الأسرى.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢١٧.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٢١٥.

مقابل سعد بن النعمان الذي كان قد حبسه أبو سفيان⁽¹⁾. وقد قام أبو السيدة جويرية من بين أسرى غزوة بني المصطلق الحارث بن أبي ضرار بإطلاق سراحها أيضًا عن طريق أداء الفدية بدلها⁽²⁾. وتم إرسال سيدنا أبي بكر الصديق في رحلة استكشافية. وهناك أسروا بينهم امرأة جميلة جدًا. فأرسله النبي ﷺ إلى مكة، وأطلق بدلًا منها أسرى كثيرين من المسلمين⁽³⁾.

كما أطلق سراح رجلين من المسلمين من قبيلة ثقيف بإرسال أسير لبني عقيل إلى الطائف بنفس الطريقة⁽⁴⁾.

٣. وقد تم إطلاق سراح بعض السجناء دون أي تعويض. وأطلق سراح أبي العاص ومطل بن حنطب ووهب بن عمير بن وهب وأبي العزى من أسرى بدر بنفس الطريقة⁽⁵⁾. وعلى موقعة صلح الحديبية، قد أغار ثمانون رجلًا من مكة من التنعيم وألقي القبض على الكل وتم أسرهم جميعًا ثم أعطاهم الرسول الكريم الحرية بنفس الطريقة⁽⁶⁾. كما تم إطلاق سراح ثمانية بن أثال المذكور أعلاه بنفس الطريقة⁽⁷⁾.

٤. وعلى بعض المواقع، تم توزيع السجناء على الناس حتى يتمكنوا من التعامل معهم أو مع أقاربهم بأنفسهم على مبدأ «فإما منا بعد وإما فداء». فقد تم توزيع أسرى غزوة بني المصطلق على الناس بنفس الطريقة، ولكن بعد إطلاق السيدة جويرية تزوجها النبي ﷺ، فأطلق المسلمون أجمعون سراح السجناء في حصصهم دون أي تعويض، قائلين إنهم أصبحوا الآن من

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/٢٢. السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٢١.

(2) السيرة النبوية لابن هشام ٣/٢٣٢.

(3) مسلم الرقم ٤٥٧٣. أبو داود الرقم ٢٦٩٧.

(4) مسلم، الرقم ٤٢٤٥. الترمذي، الرقم: ١٥٦٨. أحمد، الرقم ١٩٣٢٦، ١٩٣٧٨.

(5) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٢٨، ٣/٥٠.

(6) مسلم، الرقم ٤٦٧٩. أبو داود الرقم ٢٦٨٨.

(7) البخاري، الرقم ٤٣٧٢. مسلم، الرقم ٤٥٨٩.

أقرباء الرسول الكريم وذويه، وبهذه الطريقة تم تحرير رجال مائة عائلة^(١). كما أطلق رسول الله ﷺ أسرى سرية هوازن من الناس كذلك^(٢). وحدث الشيء نفسه في غزوة حنين. وعندما جاء وفد قبيلة هوازن للإفراج عن أسراهم، كان الأسرى قد تم توزيعهم بالفعل.

فجمع النبي ﷺ المسلمين جميعاً استجابة لطلبهم وقال ما مفهومه إنه لقد تاب هؤلاء وجاؤونا، وأنا مع الرأي القائل بضرورة إطلاق سراح السجناء. فمن أراد منكم أن يطلق سراح سجينه بلا عوض فليفعل، ومن أراد أن يأخذ تعويضاً فسوف تعوضه الحكومة. ونتيجة لذلك، تم إطلاق سراح ستة آلاف سجين وتم تعويض المطالبين بالتعويض من قبل الحكومة^(٣).

٥. والنساء اللاتي أُعطين للناس على هذا المبدأ، واللاتي قُتل آبائهن وإخوانهن وأزواجهن وغيرهم في الحروب، حررهن الناس عموماً وتزوجوهن. وقد دخلت إحدى أسرى خير صفية في زواج النبي ﷺ بنفس الطريقة^(٤).

غنائم الحرب

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٥).

ومن خلال دراسة السورة التي توجد فيها هذه الآية، يتبين أنه بعد الحرب الأولى مع المشركين العرب، نشأ الخلاف بين المسلمين حول كيفية توزيع الغنائم التي تم الحصول عليها. وقد حذرهم القرآن على هذا الخلاف وأعطى

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢٣١/٣.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ٤٥٣/٣.

(٣) البخاري، الأرقام ٤٣١٨، ٤٣١٩. السيرة النبوية لابن هشام ١٠٤-١٠٦.

(٤) البخاري، الرقم ٤٢٠١. مسلم، الرقم ٣٤٩٧.

(٥) سورة الأنفال، الآية: ١.

قراره بأنه لا حق لأحد في غنيمة هذه الحروب. وهذا كله لله ولرسوله، يتعاملان فيه بما يشاءان. والسبب في ذلك هو ما أوضحناه سابقاً بالتفصيل من أن حروب العصر النبوي هذه كانت في الغالب قد تمت تحت قانون إتمام الحجة لشرع الله تعالى، وكانت مكانة المقاتلين المجاهدين فيها في الأساس كالأدوات والجوارح.

فقد دخلوا ميدان الحرب بأمر الله وانتصروا مباشرة بعون ملائكته ونصرها. ولذلك لم يعترف الله تعالى لهم بشيء من حقوقهم في غنائم هذه الحروب، إلا أنه ذهب في نفس السورة فيما بعد إلى أبعد من ذلك وأوضح أنه مع هذا لن يبقى كل هذه الأموال خاصة لهما، بل خمسها فقط يكون خصيصاً لأغراض جماعية والباقي سيتم توزيعه على المجاهدين. فقال:

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَلِالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾^(١).

ومن الواضح أيضاً أن التقسيم تم فقط لأن الناس خاضوا الحرب على أية حال. كما قاموا أيضاً بإعداد الزاد والعتاد وهياؤوا بأنفسهم الأسلحة والخيول والإبل وما إلى ذلك لتلبية احتياجات الحرب. ولذلك، عندما حصل المسلمون على مثل هذه الأموال التي لم يكن عليهم اتخاذ الترتيبات اللازمة لها، أي مال الفيء، أوضح القرآن أن كل ذلك قد تم تخصيصه للحاجات الجماعية للدين والأمة وللفقراء والمحتاجين للقوم. ولا يقسم نصيب منه بين المجاهدين. فقال:

﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِن خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَلِالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾^(٢).

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤١.

(٢) سورة الحشر، الآيتان: ٦ و٧.

هنا وما فوقه في آية من الأنفال قد فصل الله تعالى الأغراض الجماعية التي من أجلها تم تخصيص هذه الأموال.

وقد تم بيان حق الله أولاً. والظاهر أن الله تعالى غني عن كل شيء. فيعود نصيب لاسمه إلى دينه. ولذلك فإن المصرف الحقيقي سيكون الأعمال التي يقوم بها النظام الإسلامي كمسؤولية دينية جماعية لنصرة الدين وحمايته والدفاع عنه.

والحق الثاني قد أخبر به أنه لرسول الله ﷺ. وفي ذلك الوقت قد اجتمعت أيضاً مسؤولية رئيس حكومة المسلمين في شخصيته ﷺ إلى جانب النبوة والرسالة، وكان يقضي كل لحظة من وقته في أداء واجباته الرسمية المنصبة. ولم يكن من الممكن له أن يقوم بأي عمل من أجل رزقه وكفاهه مع هذه المسؤولية. ففي هذه الحالة صار من الضروري أن يكون له نصيب وحق في هذا المال. ولم يكن لهذا المال والعقار طبيعة الممتلكات الشخصية أن يتم توزيعها على ورثته من بعده. ولذلك، بعد رحيل الرسول الكريم ﷺ من الدنيا، انتقل منه تلقائياً إلى مهام الأمور التي كان لا بد من القيام بها نيابة عنه للنظام الجماعي للمسلمين.

أما الحق الثالث فأخبر أنه لذي القرباة القريبة. ومن الواضح أنه يُراد منه هؤلاء الأقارب الذين كان الرسول ﷺ مسؤولاً عن كفالتهم ودعمهم والذين كان الرسول يعتبر تلبية احتياجاتهم واجباً أخلاقياً عليه. وكان رسول الله يقوم مقام أب المسلمين جميعاً. ولذلك انتقلت بعده هذه المسؤولية إلى النظام الجماعي لهم، وبقي حق ذي القربى هذا أيضاً على هذا النحو ما عاشوا في الدنيا.

أما الحق الرابع فهو للأيتام والفقراء والمسافرين. ولم يكرر في بيان حقهم «اللام» والتي جاءت في المذكور أعلاه مع الثلاث: الله والرسول وذي القربى، بل ذكرهم تحت ذي القربى. والمقصود من ذلك إكرام هذه الطبقة كأنهم من أقارب رسول الله ﷺ. وهذا الحق لا يحتاج إلى تفسير. وأي مجتمع لا يراعي احتياجات هذه الطبقات، والذي يُدفع فيه الأيتام ويُدعون، وينام فيه الفقراء

جائعين، ولا يجد المسافرون فيه راحة لأنفسهم، لا يمكن أن يطلق عليه اسم المجتمع الإسلامي الخالص الزكي.

ويتضح من الحديث عن الغنائم أنها في المقام الأول لأغراض جماعية. ولم يثبت الله تعالى للمجاهدين فيهم أي حق أبدي تلتزم حكومة المسلمين بدفعه في كل الأحوال. ويمكنها أن تتخذ أي نهج تريده في هذا الشأن حسب احتياجاتها الثقافية والمدنية وظروفها السياسية.

الباب السابع:

الحدود والتعزيرات

إن الفرصة المتاحة للإنسان لممارسة إرادته هي نعمة من أعظم النعم التي قد أنعم الله تعالى بها. ومع ذلك، فكما أن هذه الحرية هي مصدر إكرام له، فسوء استعمالها قد يكون مصدر عار عليه؛ لأن سوء الاستخدام لكل شيء ينبثق منه الشر والفوضى. وهذا هو بالضبط ما قد خافته الملائكة عندما أخبرهم تعالى عن نيته في خلق الإنسان:

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾⁽¹⁾ وفي تاريخ البشرية، حدث أول ظهور لهذا الشر من خلال يد قابيل بن آدم. ونتيجة لذلك قد أنشأت هذه الحادثة ضرورة حماية الإنسان من شر الإنسان نفسه. وقد ظهر لذلك قواعد الجريمة والعقوبة من هذه الضرورة، والمقصود الأصلي فيها هو استئصال الشر والفساد ويجب أن يكون هو، ولكن الذين قبلوا هداية الله تعالى وآمنوا برسله لا يُعامل معهم كمجرمين عاديين، فقد علم من القرآن أنهم إذا ارتكبوا جريمة كبرى ضد النفس والمال أو النظم الجماعي فقد قضى الله تعالى فيهم أن يُعذبوا في هذه الحياة الدنيا حتى يكونوا عبرة للآخرين، ويتذكروا عذاب الآخرة بالنظر إلى تلك العقوبة الإلهية تطهير للمجرمين إذ اتابوا أو أصلحوا.

(1) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

وكانت العقوبات التي من خلالها يعطى هذا العذاب دائماً شديدة،

ووجه ذلك أن المقصود ليس استئصال الجرائم فقط بل تعذيب الذين أسلموا أنفسهم للرب تعالى بوعي وشعور كامل منهم وتعهدوا بطاعة الرُّسل وقبلوا الدين الذي جاؤوا به، ومع ذلك قد ارتكبوا جرائم كبيرة إلى أن فضحهم الله ووصلت قضيتهم إلى المحكمة.

وهذه الجرائم الكبرى هي:

١. المحاربة أو الفساد في الأرض

٢. القتل والجراحة

٣. الزنا

٤. القذف (الرمي بالزنا)

٥. السرقة

وينبغي أن يظل في الاعتبار في البداية ما يحتويه التوجيه أن هذه العقوبات موجهة للمسلمين بصفاتهم الجماعية وليس بصفاتهم الفردية. هذه حقيقة واضحة. ولهذا السبب بالذات فإن السور التي ذكرت فيها هذه العقوبات نزلت بالمدينة المنورة حيث أنزلت الشريعة الجزائية، وكانت الدولة الإسلامية قد تأسست بالفعل في ظل حكم النبي ﷺ وبالتالي، فإن قام شخص

واحد أو مجموعة من الأشخاص الذين ليسوا على رأس شؤون الدولة فلا يحق لها تطبيق هذه العقوبات. ففي عرف القرآن، إن كلمات ﴿فَاجْلِدُوا﴾ و﴿فَاقْطِعُوا﴾ وما إليها من الكلمات التي جاءت في هذه الآيات هي موجهة إلى حكام المسلمين؛ لا إلى آحاد المسلمين، فيقول أبو بكر الجصاص في كتابه: أحكام القرآن «ما يأتي:

وقد علم من قرع سمعه هذا الخطاب من أهل العلم أن المخاطبين بذلك

هم الأئمة دون عامة الناس فكان تقديره: فليقطع الأئمة والحكام أيديهما وليجلدهما الأئمة والحكام⁽¹⁾.

هذه هي الجرائم التي فرض الله عقوباتها الشرعية. وتركت العقوبات في الأشكال البسيطة من الجرائم المذكورة أعلاه وغيرها من الجرائم الأخرى كلها على تقدير أصحاب السلطة فلهم التشريع بطريق التشاور ما شاؤوا باستثناء حكم واحد: حكم الإعدام، فإنه لا يعطى بحسب القرآن إلا لشخص قتل أو لشخص مذنّب بنشر الفساد والفوضى في المجتمع. لقد أوضح الله سبحانه وتعالى بجلاء أنه عندما أُعطيت الشريعة لنبى إسرائيل قد كتب وقضى في ذلك الوقت أنه باستثناء هاتين الجريمتين لا يحق لشخص ولا لحكومة أن يتعرض لنفس أحد ويقتله كما قال تعالى في المائدة: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾⁽²⁾.

وفي السطور الآتية سنوضح بعض النصوص القرآنية التي تمت بصلة إلى هذه الجرائم.

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾⁽³⁾ فإذا كان رسول الله موجوداً في العالم وتمرد الناس في حكومته على شيء من أوامره أو قراراته، فهذا قتال مع الله والرسول.

وعلم من القرآن أنه عندما يتمرد شخص أو مجموعة على القانون ويبدأ حرباً على حياة الناس وممتلكاتهم وسمعتهم وعقولهم، يصبح ذلك القتل

(1) ٢٨٣، ٣.

(2) سورة المائدة، الآيتان: ٣٣ و ٣٤.

(3) سورة المائدة، الآيتان: ٣٢.

إرهابًا، والزنا، والزنا بالإكراه، والسرقه لصوصيةً، أو من يحول الزنا إلى مهنة، أو يصبحون خطرًا على شرف وسمعة النبلاء بسبب شرودهم ونذالتهم وعبثهم وفجورهم الجنسي أو الإثارة للتمرد ضد الدولة أو خلق مشكلة القانون والنظام للحكومة عن طريق الاختطاف والتخريب والترهيب وغيرها من الجرائم الخطيرة، فسوف يكونون مذنبين بنفس الجريمة في الأرض. ولقمعها تم وصف هذه العقوبات الأربع في هذه الآية:

التقتيل

التصليب

القطع العشوائي لليدين والقدمين

النفي

وتفاصيل هذه العقوبات هي كما يلي:

التقتيل

وقد جاءت في الآية كلمة «أن يقتلوا» لهذه العقوبة، ومعناها أن هؤلاء المجرمين بحرب الله والرسول أو الفساد في الأرض لا ينبغي أن يُقتلوا فقط، بل يقتلون بالطريق الذي سيكون عبرةً للآخرين. والسبب في ذلك أن «القتل» هنا جاء بصيغة «التفعل» ويعرف علماء اللغة العربية أن هذه المبالغة إنما تكون للشدة والمبالغة في الفعل. ولهذا السبب فإن «التقتيل» هنا بمعنى «القتل الشر». ولذلك فإن مقتضى الأمر أن يتم قتل هؤلاء المجرمين بطريقة تكون عبرةً وعظةً للآخرين، ولذا ففي عهده قد نفذ النبي ﷺ هذه العقوبة على بعض المجرمين الخالعين الداعرين تنفيذًا لمضمون هذه الآية.

التصليب

وقد جاءت هذه العقوبة في صيغة «التفعل» من الصلب، فقيل: «أو يصلبوا» يعني أن هؤلاء لا يصلبون فقط، بل يصلبون صلبًا بطريقة تكون عبرةً،

والصلب آلة تدق فيها المسامير في أيدي المجرم وأرجله. ثم يتم شنقه حتى يتخلى عن حياته معلقاً به. وهذا الشكل من العقوبة أيضاً ليس أقل عبثاً، لكن كلمة «التصليب» في الآية تقتضي اتباع الأساليب الأكثر إيلاً والأكثر عبثاً.

قطع اليدين والقدمين بشكل عشوائي

«أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف» هي كلمات القرآن لهذه العقوبة. ومن الواضح أيضاً أن الأمر بقطع الأعضاء عشوائياً هو من وجهة نظر العظة، ويبدو أن الغرض منه هو أنه حتى لو كان سيتم الحفاظ على حياة مثل هذا المجرم، فيجب أن يتم ذلك بطريقة تعليمه عبثاً، وبجعل كل أسلحة شره عديمة الفائدة تماماً.

النفى

ولهذه العقوبة تم اعتماد تعبير «أو ينفوا من الأرض» وهو ما يعني وجوب نفيهم من المنطقة. وهذا هو أدنى عقوبة يتم منحها لهؤلاء المجرمين. فالعقوبتان الأوليان تقضيان على المجرم. ونتيجة للعقوبة الثالثة يعيش مثلاً للعبث بدون يديه وقدميه، وهذه العقوبة الرابعة والأخيرة تحرمه ببساطة من وطنه وعائلته دون التسبب في أي ضرر لجسده وروحه. وتتطلب كلمات القرآن أنه في الظروف العادية يجب أن تعطى هذه العقوبة بهذه الطريقة، ولكن إذا كان ذلك غير ممكن لسبب ما، فإن غرض الأمر بالتأكيد هو حصر الجاني في منطقة معينة أو تقييده ببيته فيتم به حكم وقصد الشارع.

وفي الآية وصفت هذه العقوبات بحرف «أو» وهذا يعني أن القرآن الكريم قد أعطى الحكومة صلاحية معاقبتهم حسب طبيعة الجريمة وظروف المجرم والآثار القائمة والمتوقعة لها. فيجوز لها أن توقع على هؤلاء المجرمين أي عقوبة تراها مناسبة، وقد وضع فيها عقوبة النفى، إلى جانب العقوبات كالموت والصلب، بحيث تكون العقوبة شديدة للغاية، وإذا اقتضت الظروف ذلك يجب

أن يكون هناك مجال الرخصة للجاني أيضًا. ولذلك فإنه من المعلوم عن رسول الله ﷺ أنه كان في زمانه يحكم على أهل الفاحشة الذين يستحقون قدرًا من الرخصة بحسب أحوالهم وطبيعة الجريمة بالعقوبة. وحكم بعقوبة النفي تحت آية المائدة نفسها، وأولئك المجرمون الذين لم يمكن لهم إعطاء أي امتياز رُجموا تحت هذه الآية.

وكان سؤال النبي ﷺ عن المحصنين وغير المحصنين من بعض مرتكبي الزنا من نفس النوع أيضًا، وهو ما أخطأ الفقهاء في اعتباره أمرًا واجبًا، وعلى أساسه فسّرت آية الجلد من سورة النور على أنها منسوخة في حق الزناة، وكأن طبيعة القضية كانت أنه في معاقبة هؤلاء الجناة من أجل تقرير أي تنازل لهم، ينبغي أن يُنظر إلى أشياء أخرى وإلى أنهم متزوجون أم لا، ولكنهم بهذه الطريقة جعلوا «هذا أيضًا» هذا فقط «وبهذه الطريقة أدخلوا شيئًا غير متماسك في قواعد الإسلام، والذي هو دون أساس ويخلو تمامًا من العقل والنقل.

يقول الأستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاح في تفسيره «تدبر القرآن»:

«في مثل هذه المواقف، لا يقتصر الأمر على حقيقة أن المجموعة التي ارتكبت الجريمة هي التي ألحقت الضرر بالمتلكات، بل أكثر من ذلك، يجب أن ينظر في الزمان والمكان ونوايا المجرمين الذين ارتكبوا الجريمة وينظر في أثارها، على سبيل المثال إذا كان هناك وقت حرب أو اضطرابات فستكون هناك حاجة إلى اتخاذ تدابير صارمة. وبالمثل، إذا كان المكان حدوديًا أو مركزًا لمؤامرات العدو، فحتى في ذلك الوقت سيكون من الضروري اتخاذ إجراءات فعالة. إذا كان زعيم الأذى والشر شخصًا خطيرًا جدًا وكان هناك خوف من أنه إذا أفلت من أيديهم فإن حياة وممتلكات وشرف وسمعة الكثير من الناس ستكون في خطر، ففي ذلك الحين، اعتمادًا على الموقف يجب اتخاذ خطوات فعالة،

ويعني ذلك أن الأهمية الأصلية ليست للأحداث الجزئية، بل للتأثير العام للتمرد ومصالح البلاد والأمة»⁽¹⁾.

ولذلك قال النبي ﷺ عن بعض معتادي الزنا: عن عبادة بن الصامت، قال قال رسول الله ﷺ:

«خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهْنًا سَيِّئًا، الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَنَفْيُ سَنَةٍ، وَالثَّيْبُ بِالثَّيْبِ جَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ»⁽²⁾.

وفي هذا الحديث، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهْنًا إشارة إلى النساء اللاتي جاء أمر مؤقت للتعامل معهن في سورة النساء. فقد قال تعالى:

﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ⁽³⁾ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَقَّهِنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾⁽⁴⁾ وأسلوب ﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَحِشَةُ﴾ دليل على أن هذا ذكر للنساء الزانيات، وفي هذه الحالة بما أن المشكلة الحقيقية هي مع النساء، فلم يذكر الرجال هنا⁽⁵⁾.

وفي الحديث جاءت ألفاظ البكر والمحصنة لبيان هذا الأصل، فإذا ذكر فيه حد الرجم مائة فما هو إلا لمحض بيان الشرع. وقد ثبت من الأحاديث أن النبي ﷺ قد وصفه، لكنه لم يحكم بهذا الرجم على أحد المجرمين قط. والسبب في ذلك هو أن الجمع بين عقوبة الإعدام وأية عقوبة أخرى، مخالف للأخلاق والقانون، فالسجن والجلد والغرامة كل هذه العقوبات تتضمن أمرين: العبرة للمجتمع وثانيًا تأديب المجرم وتحذيره. وفي حالة الموت من الواضح أنه لا داعي للتأديب والتحذير. ولهذا السبب، عندما يقصد معاقبة شخص على جرائم

(1) ٥٠٦/٢.

(2) رواه مسلم رقم ٤٤١٤.

(3) أي شهودًا على أنهم في الواقع نساء فاحشات متعودات على الزنا.

(4) سورة النساء، الآية: ١٥.

(5) الأمر الذي أدى بتفاسيرنا أن الآية ظلت حتى اليوم معضلة لا تحل.

مختلفة ويعاقب على أي منها بالإعدام، فإن جميع هذه العقوبات تذكر في القانون أو القرار أو الأمر، ولكن في الواقع لم يتم تنفيذ أي عقوبة غير الإعدام بشكل عام. وصيغة الجمع في كلمتي «يسعون» و«يحاربون» ونحوهما في الآية تدل على أن الجريمة إذا وقعت من جماعة فإن العقوبة لا تقع على الفرد، بل على الجماعة ككل. فإذا ارتكبت مجموعة من المجرمين جرائم القتل والخطف والزنا والتدمير والترهيب وغيرها من الجرائم على أساس الفساد، فلا داعي للتحقيق فيها لمعرفة من ارتكب الجريمة، وعلى أيدي من ولكن كل عضو في المجموعة سيعتبر شريكاً في هذه المسؤولية وسيعامل معه بالضرورة في هذه الحثية. لقد جاءت عبارة ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ في الآية التحذير من أنه أثناء معاقبة مثل هؤلاء المجرمين، لا ينبغي أن تنشأ مشاعر التعاطف في قلب الإنسان. إن الرب خالقهم هو الذي يقضي بعد هذه الجرائم أن يخزيهم عاراً كاملاً في الدنيا، وهذا هو الهدف من هذا العقاب ويجب أن يوضع في الاعتبار في كل حال، يقول الأستاذ الإمام:

«إن هذا العار الذي لحق بهم في العالم سيكون مصدراً للعبرة والبصيرة للآخرين، وتأثيره سيخلق الخوف واحترام القانون حتى بين أولئك الذين ليس لديهم القدرة على فهم فائدة وعظمة القانون المجرد وأن يحترموا ذلك. ومن بركات الأفكار المواسية والرحيمة التي نشأت باسم الفلسفة في حق الجريمة والمجرمين في العصر الحاضر، أنه كلما تقدم البشر بظواهره أصبح العالم أكثر جحيمًا. والإسلام لا يشجع هذا النوع من الأفكار الخيالية، وقانونه لا يركز على أفكار هوائية، بل يبتني على طبيعة الإنسان»⁽¹⁾.

وفيما يتعلق بهذه العقوبات، في عبارة «إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم» هذا الشرط مذكور أيضًا في الآية أنه إذا تقدم هؤلاء المجرمون وسلموا أنفسهم للقانون قبل أي إجراء من جانب الحكومة، فسوف يتم التعامل معهم

(1) تدبر القرآن ٥٠٧/٢.

كمجرمين عاديين. وفي هذه الحالة لن تتم إدانتهم بالحرب أو الفساد. لقد كتب الأستاذ الإمام في ذلك:

«لا يجوز ممارسة هذه السلطات الخاصة إلا ضد المتمردين الذين استمروا في تمردهم حتى تمكنت الحكومة من السيطرة على الوضع وتغلبت عليهم بالقوة. وأمّا الذين تابوا وأصلحوا سلوكهم قبل الإجراء الحكومي، لن يكون هناك تبرير لمثل هذا الإجراء في حقهم على أساس سلوكهم السابق، ولكن سيتم التعامل معهم بموجب القانون العام. فإذا تم تدمير حقوق المواطنين العاديين على أيديهم، فإنه سيتم تعويضه قدر الإمكان من جانبهم.

وإذا أخذنا في الاعتبار تأكيد وشدة كلمة «فاعلموا» في الآية، يتبين أنه لا يجوز للحكومة القصاص من الذين تابوا وأصلحوا قبل السيطرة. إن الله غفور رحيم، عندما يغفر لمن تاب وأصلح قبل أن يقبض، فلماذا تختلف سلوك عباده عنه»⁽¹⁾.

ولكن هنا يجب أن يكون واضحاً أن حالة الذين حضروا للاعتراف بالإثم ولم يجدوا سبيلاً للهرب تختلف عن هذه الحالة. ومن المؤكد أن الحكومة لها الحق في رفض منحهم هذا الامتياز إذا أرادت ذلك.

القتل والجراحة

وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأْتِبَاغُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّنْ عِنْدِي بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾⁽²⁾.

وبموجب الآيات إذا كان القاتل حرّاً يقتل نفس الحر في قصاصه، وإذا

(1) تدبر القرآن ٢/٥٠٨.

(2) سورة البقرة، الآيتان: ١٧٨ و١٧٩.

كان عبداً فنفس العبد يقتل، وإذا كان امرأة فنفس المرأة تقتل. فمن تنازل من أخيه فلکم أن تقبلوه ولكن إن يقبل فإنه يتبع حسب الشرع، وما سفك من دم فإنه يجازى باستحقاق. وهذا فضل من ربكم وفضله عليكم.

وهذا الحكم من القصاص كان للأمم الأولى أيضاً كما هو لنا. وقد قال القرآن في ذلك إشارة إلى التوراة:

﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾⁽¹⁾.

ويتضح من هذه الآية أن قانون القصاص هذا لا يقتصر على القتل فحسب، بل يشمل أيضاً جرح شخص ما وإتلاف أي عضو من أعضائه. ووفقاً للقرآن، فإن هذه كلها جرائم خطيرة، أما فيما يتعلق بالقتل فقد اعتبر قتلاً للإنسانية جمعاء، فيقول:

﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾⁽²⁾.

وفي هذه الحالة فقد أعلن القرآن الكريم أن مرتكبي هذه الجرائم، وخاصة عندما قد قتلوا مسلماً، يستحقون جهنم يوم القيامة خالدين فيها، فقال بوضوح:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيماً﴾⁽³⁾.

ولذلك فإن الواجبات المتعلقة بهذه الجريمة، والتي فرضت من وجهة نظر القرآن الكريم، على المؤمنين بهذا الكتاب، والمسؤوليات التي يجب عليهم القيام بها، على حد تعبير الاستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاح، هي كما يلي:

(1) سورة المائدة، الآية: ٤٥.

(2) سورة المائدة، الآية: ٣٢.

(3) سورة النساء، الآية: ٩٣.

أولاً: هو أن كل حادثة قتل يجب أن تثير ضجة في الأمة بأكملها. ويجب على كل إنسان أن يشعر بأنه فقد الحماية التي كان يتمتع بها حتى الآن ما لم يتم الاقتصاص منه . إن القانون هو الحامي للجميع، فإذا تم تدمير القانون، لم تقتل الضحية فقط، بل أصبح الجميع في خطر القتل.

ثانياً: أن العثور على القاتل ليس مسؤولية ورثة المتوفى فقط، بل مسؤولية المجتمع بأكمله، فالقاتل لم يقتل الميت فقط بل قتل الجميع.

ثالثاً: إذا رأى الإنسان شخصاً في خطر، فلا يجوز له أن يتجاهل ذلك باعتباره شجاراً قديماً، بل يجب عليه حمايته ودعمه قدر الإمكان، حتى لو كان هو نفسه في خطر يجب عليه أن يتحمل. لأن الشخص الذي يقف لنصرة شخص مظلوم والدفاع عنه، فهو لا يدافع عن المظلوم فحسب، بل يدافع عن البشرية جمعاء، بما فيها نفسه.

رابعاً: إذا أخفى شخص جريمة قتل أو شهد زوراً لقاتل أو كفل قاتلاً أو آوى قاتلاً أو دافع عن القاتل مع علمه أو برّاه من الجريمة على علم، فإنه كأنما يفعل كل ذلك من أجل قاتله هو وقاتل أبيه وأخيه وابنه، لأن قاتل الواحد هو قاتل الجميع.

خامساً: مساعدة ورثة المتوفى أو مساعدة السلطات في الانتقام للمتوفى هي في الحقيقة إحياء للميت. لأنه قد جاء في القرآن أن في القصاص حياة⁽¹⁾.

ويرتكز قانون عقوبة هذه الجريمة، المبين في الآيات القرآنية المذكورة، على الأحكام الأربعة التالية:

أولاً: أن القصاص واجب فرضه الله على النظام الجماعي للمسلمين. هذه هي الحياة بالنسبة للمجتمع الإسلامي، وهذا هو شرع الله الذي لا

(1) تدبر القرآن ٢/٥٠٣.

يخرج عنه إلا الظالمون، وعلى الحكومة أنه إذا قُتل شخص في أراضيها، فإن القتلة سيعاقبون بملاحقتهم والقبض عليهم والاقتصاص منهم وفقاً للقانون.

ثانياً: يجب مراعاة المساواة الكاملة في القصاص، فإذا كان العبد قاتلاً يُقتل ذلك العبد بعينه في المقابل، وإذا كان الحر قاتلاً يقتل الحر القاتل نفسه عوضاً عن المقتول. ولا ينبغي أبداً أن يكون الوضع الاجتماعي الهام للشخص أولوية في هذا الشأن.

ثالثاً: إذا كان أقارب المصاب أو المتوفى لا يطالبون بالحياة بالنفس، والطرف بالطرف والجرح بالجرح، وكانوا على استعداد لإعطاء الرخصة للمجرم، فتتظر المحكمة في طبيعة الجريمة وطبيعة المجرم. ونظراً للظروف، قد يُحكم عليه بعقوبة أخف⁽¹⁾. يقول القرآن أن هذا فضل من الرب عز وجل للناس ومن منته عليهم. ولذلك، إذا قبل ضحايا هذه الجريمة ذلك، فإن عفوهم عند الله تعالى سيكون كفارة لذنوبهم.

رابعاً: أن تودى الدية إلى أولياء المصاب أو المتوفى بالقتل من قبل المجرم في هذه الحالة. وقد قال الله تعالى أنه ينبغي أن يتم ذلك وفقاً للدستور وبجمال كبير. يكتب الأستاذ الإمام:

«إن التأكيد على الدفع بحسن الخلق لأن دفع الدية في جزيرة العرب لم يكن بشكل عام نقداً، بل كان بشكل سلعة ومال، وبالتالي إذا لم تكن نية الدافعين حسنة، فإنه يمكن أن تلعب العديد من الحيل فيه. ومن السهل جداً تلبية الطلب للدية من حيث الكمية والنوعية من الإبل أو الماعز أو الحبوب والتمور، ولكن بالنظر إلى الواقع والجودة يتم ذلك باسم الرسم فقط. فإذا كان الأمر كذلك،

(1) ومعنى ذلك أن يمكن أن تعطي، وليس من الضروري أن تعطي. لأن وجوب القصاص انتهى بعد أن خفف الورثة وتنازلوا، ولكن لم ينته مبرره. ولذلك فإن للحكومة والمجتمع كل الحق في الإصرار على القصاص ورفض قبول هذا التنازل نظراً لطبيعة الجريمة وظروف المجرم. وللتفصيل راجع مقال: «عقوبة القتل العمد» في كتابنا «مقامات».

فمعنى ذلك أنه لم تقم قيمة لإحسانهم الذين قد عفوا عن شخص بعد أن أصبح لهم سلطة شرعية على حياة ذلك المرء وسامحوه ووافقوا على قبول المال منه.

وكان ينبغي أن يكون رد إحسانهما بالإحسان، أي أن يكون دفع الدية بحسن وكرم وانفتاح بحيث لا يحتملوا صدمة قبولهم الغنم والماعز مقابل دم أحد أحبائهم وأقربائهم كأنه خطأ وهتك⁽¹⁾.

وفي هذا القانون فإن الاهتمام برضا أولياء المتوفى عند تقرير أي تنازل للمجرم أمر حكيم للغاية. وهذا الشيء لا يطفى نار الثأر فيهم فحسب، بل يصبح ترياقاً لهذا السم في المجتمعات التي تسممها جرائم مثل القتل والإصابة. فيكتب الأستاذ الإمام:

«إن السلطة المباشرة على حياة القاتل لورثة المتوفى، من ناحية تخلق شكلاً من أشكال التعويض عن ضررهم الجسيم، ومن ناحية أخرى إذا اتخذوا موقفاً متسامحاً في هذه الحالة، فإنه يكون فضلاً مباشراً على القاتل وأهله، ويمكن أن نتوقع منها نتائج مفيدة للغاية⁽²⁾.

لكن هذا لا يعني أنه إذا لم تقم حكومة نظامية للمسلمين في أي مكان وكان أمر القصاص يتعلق بأقارب المتوفى، فإن لهم أن يتعدوا الحدود في حيثيتهم هذه، وفي التحمس على الانتقام مثلاً يحاولون قتل غير القاتل من أناس بالإضافة إلى قتل القاتل أو المطالبة بقتل حر بعبد وبقتل رجل مقابل امرأة باسم نبالتهم وسيادتهم. أو قتل المجرم تعذيباً أو إخراج غضبهم على جثته بعد قتله، أو استخدام أساليب القتل المحرمة كالحرق بالنار أو الذبح وبالمثلة، وفي حالة الإصابة كهذه عندما يخشى الجاني أنه إذا تم الانتقام منه، فسوف يصاب بأذى أكبر مما قد فعله هو، فإنه يصبر على العضو بالعضو والجرح بالجرح. ولذلك

(1) ٤٣٦ / ١.

(2) ٤٣٦ / ١.

لما كان رسول الله ﷺ بمكة ولم تكن حكومته قد قامت في يثرب بعد، قال الله تعالى:

﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطٰنًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾⁽¹⁾ ولا شك أن القصاص هو الموت ظاهريًا، لكن القرآن يقول إنه في الواقع ضمانه لحياة البشرية جمعاء، ولذلك يجب على الناس أن يظلوا ملتزمين بحدود الله. فكتب الأستاذ الإمام:

«هذه الحياة ليست من حيث الفرد، بل من حيث المجتمع. إذا قُتل شخص بسبب جريمة قتل، فعلى ما يبدو كأنها تتلف حياة ثانية هذه أيضًا بعد حياة قتل، ولكن في الواقع، إذا نظرت في الأمر بعين الواقع، فإن قتله يخلق ضمانه الحياة للمجتمع بأكمله. وإذا لم يتم الاقتصاص منه، فإن الاضطراب العقلي الذي ارتكب فيه هذا القاتل جريمة قتل شخص بريء سيصبح معديًا في المجتمع بأكمله. فهناك فرق بين المرض والمرض. والأمراض التي تسبب جرائم خطيرة

كالقتل والسطو والسرقة والزنا وغيرها، مثالها تلك الأمراض التي يلزم فيها في بعض الأحيان بتر جزء من الجسم لإنقاذ الجسم كله. على الرغم من أن بتر العضو قد يبدو أمرًا قاسيًا، إلا أنه يجب على الطبيب أن يتحمل هذه القسوة. وإذا لم يقبل هذا الطبيب بإجبار طبيعته هذه القسوة، فسيتعين عليه أن يسلم جسد المريض كله إلى الموت عطفاً على ذلك العضو الواحد.

والمجتمع في حالته العامة يشبه الجسد، وفي بعض أجزاء هذا الجسد يحدث أحيانًا نفس النوع من الاختلال والفساد، الذي لا يمكن علاجه بالمراهم والضمادات، بل يمكن استعادته عن طريق إجراء عملية جراحية على العضو المريض للجسم، ولا بد من فصله عن باقي الجسد، فإذا ظن أن هذا العضو

(1) سورة الإسراء، الآية: ٣٣.

مريض فيستحق الرفق والعطف، وربما تكون نتيجة هذا اللطف أن يتسبب هذا العضو يوماً ما في تعفن وخنق الجسد كله»⁽¹⁾.

كفارة قتل الخطأ

﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾⁽²⁾.

يقوم هذا القانون على ثلاثة أجزاء:

أولاً: إذا كان القتيل مواطناً مسلماً في حكومته أو ليس من مواطني حكومته، ولكنه ينتمي إلى دولة معاهدة، فيجب على القاتل دفع الدية وفقاً للدستور إذا لم يُعف عنه. ويجب عليه عتق رقبة مسلمة كفارة من هذه الجريمة وتوبة إلى ربه.

ثانياً: إذا كان مسلماً من أمة العدو فلا مسؤولية على القاتل لأداء الدية. ويكفي في هذه الحالة أن يعتق عبداً مسلماً ليغسل خطيئته.

ثالثاً: إذا لم يوجد العبد في هاتين الحالتين فعليه صيام شهرين متتابعين.

وهذا هو حكم قتل الإنسان خطأ⁽³⁾، لكن من الواضح أن حكم الإصابات

(1) ٤٣٦ / ١.

(2) سورة النساء، الآية: ٩٢.

(3) لذلك، إذا لم يكن هناك خطأ، فلن يرتبط هذا القانون به. وللبخاري حديث: «العجماء جبار والبئر جبار والمعدن جبار» (أي إذا قتلت البهيمة صاحبها فلا ضمان على صاحبها، وإذا وقع في البئر فلا ضمان على صاحبه وإذا وقع حادث في منجم فلا مسؤولية على صاحبه). أي أنه لا توجد مسؤولية في هذه الحالة، عندما لا يكون هناك خطأ من المالك. انظر: رقم ١٤٩٩.

والجراحات أيضًا يجب أن يكون كذلك. ولذلك تدفع فيها الدية أيضًا، ومعه يُصام صيام الكفارة بحسب مقدار الدية أي، مثلاً، إذا كانت دية الجرح على الثلث، وجب صيام عشرين يوماً ككفارة.

وفي قانون قتلي العمد والخطأ هذا أمر القصاص والكفارة واضح، ولكن ما ستكون الطريقة في هاتين الحالتين من القتل والجرح وما هو مقدار الأموال التي سيتم دفعها في الدية؟ ففي الآية المذكورة أعلاه من سورة النساء استخدم لها كلمة ﴿وَدِيَّةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾.

فإذا نظرت إلى كلمة «دية» فقد وردت فيها نكرة. ونعلم عن الاسم النكرة أنه في تحديد معناه لا يحتاج إلى أي شيء آخر غير المعنى اللغوي والعرف وسياق الكلام. ولذلك فإن معنى «دية» هو: ذلك الشيء الذي يعرف باسم الدية، ومقصود الأمر الذي يدل عليه قول «ديةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ»، هو ليس إلا ما هو اسم الدية في عرف المخاطب، فيجب تسليمه إلى ورثة القتيل. وفي سورة البقرة، حيث وصف القرآن الكريم حكم قتل العمد، صرح بنفس الشيء بوضوح باستخدام كلمة «معروف»: فقال: ﴿فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأْتِبَاغٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾⁽¹⁾.

ويتضح من هاتين الآيتين من سورة النساء والبقرة أن حكم القرآن، سواء في قتل الخطأ أو العمد هو أن تدفع الديات وفقاً لقواعد وعادات المجتمع. ولم يحدد القرآن نفسه أي كمية محددة للدية كما أنه ليس من الواجب علينا مراعاة أي فرق بين نظام الدية للرجال والنساء، والعبيد والأحرار، والمسلمين وغير المسلمين، وقد قضى النبي ﷺ أقضيته في الدية حسب الدستور العربي لزمانه. فإن ما جاء من مقادير الديات المذكورة في كتب الفقه والحديث كان وفق ذاك التقليد السائد.

وكان دستور العرب هذا مبنياً على الظروف الثقافية والتقاليد الحضارية

(1) سورة البقرة، الآية: ١٧٩.

للعرب. والآن لقد قلبت حركة الزمن صفحات أربعة عشر قرناً في كتاب التاريخ، وتغيرت فيها الأحوال الحضارية والتقاليد الثقافية تغير الأرض والسماء، فلسنا في وضع تأدية الدية في شكل الجمال والإبل وليس تحديد نظام الدية بحساب الإبل أمراً حكيماً. لقد تغيرت طبيعة العقيلة تماماً وظهرت أشكال قتل الخطأ التي لم يكن من الممكن حتى تصورها في ذلك الوقت، ولكن هدي القرآن الكريم لكل عصر ولكل مجتمع. ولذلك أمر باتباع المشهور والعرف في هذا الأمر، وعلى هذا الحكم القرآني فإن كل مجتمع ملزم بمعرفه.

ثم يتبين من القوانين المعروفة أنها قابلة للتغيير بتغير الظروف والأزمنة، ويمكن لحكام المجتمع إذا أرادوا إعادة تنظيمها حسب مصالحهم الجماعية.

الزنا

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ * الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(١).

إن أول أمر بعقوبة الزنا قد جاء في سورة النساء. ولكن ليس هناك عقوبة محددة مذكورة فيه، نعم قد قيل إن النساء المتعودات على الزنا يجب أن يحبسن في بيوتهن حتى يصدر لهن أمر حتم، وأنه يجب تعذيب مرتكبي هذه الجريمة الشنيعة. إلى أن يستعدوا للتوبة وإصلاح سلوكهم. وتعذيبهم كان يشمل كل شيء من التوبيخ والسب والإهانة والزرع والضرب إلى حد التأديب، فقد قال تعالى:

﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفُحْشَةَ مِن سَائِكُمْ فَاستَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِّنْكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّهِنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ

(١) سورة النور، الآيتان: ٢ و٣.

سَبِيلًا* وَالَّذِينَ يَأْتِيَنَّهَا مِنْكُمْ فَادُّوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا
إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا^(١).

وكان هذا هو حكم الشريعة حتى نزلت عقوبة الزنا المحتومة في سورة النور. وقد أنهته آيات النور التي سيتم مناقشتها فيما يأتي وحددت عقوبة محددة إلى الأبد لمرتكبي الزنا. وتفصيلها كما يأتي:

١. وسواء كان الزاني رجلاً أو امرأة، فإذا ثبتت جريمته يُجلد مائة جلدة عقوبة. ولهذا فإن المنهج الذي سار عليه النبي ﷺ والخلفاء الراشدون، والموضح في كتب الحديث والفقه من خلال بعض تقارير خصوصيات ذلك العصر، فكان كما يأتي على حد بيانها:

أ. سواء استخدم السوط أو العصا للضرب، ففي كلتا الحالتين يجب ألا يكون سميكاً وقاسياً جداً، ولا رقيقاً وناعماً جداً، بل يجب أن يكون متوسط الدرجة^(٢).

ب. ولا يجوز ضرب المجرم عارياً وبربطه بلوحة خشبية^(٣).

ج. ولا ينبغي أن يكون الضرب بحيث يحدث جرحاً، ولا ينبغي الضرب في مكان واحد، بل يجب أن يشمل الضرب سائر الجسد ما عدا الفم والعانة^(٤).

د. وإذا كانت المرأة حاملاً، تتاح لها الفرصة حتى انقضاء فترة النفاس بعد وضع الحمل^(٥).

٢. وتقام هذا العقوبة على المجرم أمام جماعة من المسلمين ليكون عاراً له

(١) سورة النساء، الآيتان: ١٥ و ١٦.

(٢) انظر: أحكام القرآن للجصاص ٢٦٢/٣.

(٣) انظر: أحكام القرآن للجصاص ٢٦١ - ٢٦٢/٣.

(٤) انظر: أحكام القرآن للجصاص ٢٦٠ / أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٣٢٧ وأبو داود رقم ٤٤٩٣ وأحمد رقم ٧٢٧٩.

(٥) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٤٠٦ / ١.

وعظة لغيره. يقول القرآن إنه لا ينبغي لأي حكومة أو محكمة للمؤمنين أن تتساهل في هذا الأمر. وهذا التشدد مع المجرم ضروري لأن استقرار المجتمع يعتمد على طهارة العلاقات الرحمية وحفظها من كل اضطراب واختلال وفساد، وإن الزنا إذا تدبرت، فهو يهدم ذلك ويبدل المجتمع كله إلى طائفة من البهائم والحيوانات فيحرم الحضارة الصالحة من أساسها. ولذا قال: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾.

يقول الأستاذ الإمام في تفسير الآية:

«أي أنه لا يجوز في ما يتعلق بتنفيذه أي تساهل أو تدخل أو إهمال. ولا ينبغي أن يكون هناك رفق مع امرأة، ولا مع رجل، ولا مع غني ولا مع فقير. وإقامة حدود الله من غير رعاية ولا محاباة شرط ضروري لتحقيق الإيمان بالله والإيمان بالآخرة. ومن تعافى وتساهل في هذا الأمر، فلا يصح إيمانه بالله واليوم الآخر. وهنا تجدر الإشارة أيضًا إلى أن ذكر النساء يسبق ذكر الرجال في بيان العقوبة. والسبب في ذلك هو أنه حيث لا يقع الزنا إلا برضا المرأة. هناك أيضًا حقيقة أنه بسبب ضعف الصنف قد يكون هناك احتمال أكبر لظهور التعاطف في أمرها. ولهذا ذكره القرآن مقدمًا ليتبين من أسلوب البيان نفسه أن الله ليس عنده استثناء في هذا الأمر لأحد من امرأة أو رجل⁽¹⁾.

وهذه هي الروح في إقامة حدود الله التي قال عنها النبي ﷺ:

وأيم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها⁽²⁾.

٣. ولا يجوز بعد هذه العقوبة أن يتزوج أي مسلم عفيف أو مسلمة عفيفة من هذا الزاني أو الزانية. يقول القرآن إنه بعد هذا إذا أرادوا الزواج فليجدوا زانيًا أو مشرکًا وزانية أو مشرکةً لهذا الزواج، وعلى الجماعة أن يوافقوا على ذاك التزويج، ولا يحل لمؤمن أن يكون مستعدًا لإدخال هذه النجاسة إلى

(1) تدبر القرآن ٥/٣٦٢.

(2) رواه البخاري، رقم ٤٣٠٤.

بيته. وكل زواج من هذا القبيل باطل. ولذلك فإن كلمة «لا ينكح» في الآية بمعنى النهي، وقد قال الله تعالى في تحريمه: ﴿وَحَرَّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾. ومع ذلك، وكما ذكرنا، فإن هذا الحكم لا ينطبق إلا على الزنا الذي يعاقب عليه بعد إثبات الذنب. وقد جاء في الآية ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ﴾ و﴿الزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا﴾. يدل على ذلك الحكم قاعدة إعادة الصفة معرّفًا باللام بعد «الزانية والزاني» الأولى، ولا يمكن خلق مجال في هذا الأسلوب لأي رأي آخر.

٤. وكمثل السرقة، حيث إنَّ القرآن قد اعتمد ببيان صيغة الصفات في وصف هذه العقوبة أيضًا ولهذا السبب فإن هذه العقوبة هي أيضًا عقوبة نهائية لهذه الجريمة، ولا تطبق إلا على المجرمين الذين ارتكبوا الجريمة في المرة الأخيرة، فهم لا يستحقون أية رخصة وامتياز حسب ظروفهم. ولذلك فإن المعاقين والمكرهين والمحرومين من البيئة والظروف والأمان اللازمة لتجنب الجريمة يكون لهم استثناء من العقوبة.

لقد قال القرآن الكريم بكل وضوح عن هؤلاء النساء اللاتي كان أصحابهن يجبرنهن على ممارسة مهنة البغاء:

﴿وَمَنْ يُكْرِهْنَهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

وبنفس الطريقة، قال عن الإماء المحظيات في زمن النبي أنه بسبب عدم حماية الأسرة وسوء التربية الأخلاقية، لا يمكن أن يحكم عليهن بهذه العقوبة، حتى في حالة قام فيها أصحابهن وأزواجهن باتخاذ الترتيبات الكاملة للحفاظ على طهارتهن وعفافهن، سيتم إعطاؤهن نصف العقوبة. بمعنى آخر بدلًا من المائة يُجلدن خمسين جلدة فقط، كما ما جاء في سورة النساء: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَحْشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾^(٢).

(١) سورة النور، الآية: ٣٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٥.

القذف

﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَمْسَةُ أَنْ لَعْنَتَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَمْسَةُ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١﴾.

هذا هو حكم القذف. ورغم أن هذه الآيات لم تذكر إلا اتهام النساء، إلا أنه هو أسلوب «على سبيل التغليب» في اللغة العربية والذي تم اعتماده لمجرد أن النساء هي الهدف من مثل هذه الاتهامات بشكل عام، والمجتمع يكون أيضًا أكثر حساسية تجاههن في هذه القضية. ولذا على أساس السبب المشترك سيعم حكمه لكل من الرجال والنساء، ولا يمكن جعله خاصًا بالنساء فقط.

وقد وصف فيه شكلان من أشكال القذف:

أحدهما: أن يتهم الإنسان امرأة أو رجلًا شريفًا عفيفًا بالزنا.

والثاني: أن يحدث مثل هذه الحالة بين زوج وزوجته.

في الحالة الأولى، قد أمر القرآن أنه يجب على الشخص المتهم أن يُحضر في كل حالة أربعة شهود عيان. وفي أقل من هذا على كل الأحوال لا يثبت اتهامه. والأدلة القرائية، والظروف، والفحص الطبي، كل هذا لا معنى له على الإطلاق في هذه الحالة، فإذا كان الشخص ماجنًا وخليعًا، فكل من ذلك ذو أهمية كبيرة في إثبات الجريمة، أما إذا كانت سمعته سمعة طيبة، فإن ما يريده القرآن هو أنه حتى لو كانت هناك زلة يجب سترها وعدم فضحها في المجتمع.

(1) سورة النور، الآيات: ٤ - ٩.

لذلك، في هذه الحالة، سيطلب أربع شهادات شهود عيان، وإذا لم يتمكن المتهم من ذلك، يجب إدانته بالقذف.

وعقوبته بحسب القرآن الكريم هي:

١. ينبغي جلده ثمانين جلدة وفقاً لذلك.
٢. يجب أن يُعلن مردود الشهادة إلى الأبد، أي أنه لا ينبغي أبداً قبول شهادته بأي حال من الأحوال، وبالتالي يجب إزالة المكانة المعروفة له في المجتمع تماماً.

وهذا الجلد بثمانين جلدة ورفض الاستشهاد هو العقوبة الدنيوية لهذه الجريمة عند الله تعالى، فسيُعتبر هؤلاء كما مر، فاسقين متجاوزين، إلا إذا تابوا من جريمتهم وأصلحوا أنفسهم.

وفي الحالة الأخرى، أي عندما يحدث هذا الاتهام بين الزوج والزوجة، فيقول القرآن إنه إذا لم تكن هناك شهادة يفصل الأمر بطريق القسم. ويتم استخدام مصطلح «اللعان» لهذا الغرض، فيقسم الزوج بالله أربع مرات ويقول إنه فيما يتهمه صادق وفي المرة الخامسة يقول إن كان كاذباً في هذه التهمة فعليه لعنة الله. ورداً على ذلك، إذا لم تقدم المرأة أي دفاع لها من هذا النوع، تعاقب بنفس عقوبة الزنا التي شرعها لها القرآن الكريم⁽¹⁾، أما إذا لم تعترف بهذه التهمة فلا تبرأ من العقوبة إلا إذا أقسمت بالله أربع مرات وقالت إن هذا الشخص كاذب وقالت للمرة الخامسة إن غضب الله عليّ إذا كان هذا الشخص صادقاً فيما، وهذا هو الحال عندما تتهم الزوجة الزوج.

(1) أي عقوبة الجلد مائة جلدة. وقد جاءت في الآية كلمة «يدرؤ عنها العذاب» مفيدة لهذا المعنى، وقد اعتمد تعبير «عَذَابُهُمَا» في الآية الثانية قبل هذه الآيات. ويعلم علماء اللغة العربية أن هذه القاعدة مسلمة فيها أنه إذا أعيدت المعرفة كانت بعينها الأولى إذا لم تمنعه قرينة مانعة، ولذلك لا يقصد به عقوبة أخرى إلا مائة جلدة.

السرقه

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ * فَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾.

ويرتكز قانون حد السرقة الذي جاء في هذه الآيات على النقاط التالية:

١. عقوبة القطع هذه أي قطع اليد، مخصصة للسارق والساارقة، وقد استخدم القرآن كلمتي «السارق» و«الساارقة» لهذا الغرض. ومن يعرف الأساليب البلاغية في اللغة العربية يعلم أن هذه عبارات صفات تدل على الاهتمام في وقوع الأفعال. لذلك، يمكن تطبيقها على نوع مخصوص من فعل السرقة، والذي يمكن أن يسمى ارتكابه سرقة ويمكن أن يسمى مرتكبه لصًا.

فإذا سرق طفل بضعة روبيات من جيب أبيه، أو سرق امرأة بضعة روبيات من جيب زوجها، أو سرق شخص شيئًا قليل القيمة من شخص ما، أو قطف بعض الفاكهة من حديقة شخص ما، أو بعض الخضار من حقل شخص ما. أو إذا سرق شيئًا من المال موضوعًا في مكان بلا حماية، أو أخذ بقرة أو جاموسة شاردة مطرودة وهي ترعى، أو ارتكب مثل هذا الفعل الشنيع لشيء من الاضطراب والحاجة الضرورية، فإن هذا كله غير لائق أن يفعله إنسان وينبغي تأديبه وتحذيره منها.

ولكن هذه ليست السرقة المنصوص عليها في هذه الآيات، فهي عقوبة شديدة، ولا تعطى إلا إذا كان الجاني لا يستحق أي تنازل بسبب طبيعة جريمته وظروفه.

٢. وعقوبة القطع هذه هي ﴿جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ﴾ ولذلك في جعل المجرم عبرة لغيره يجب أن تكون ملائمة الفعل والقصاص كما تقتضي

(1) سورة المائدة، الآيتان: ٣٨ و٣٩.

قطع يده يقتضي كذلك أن يقطع يده اليمنى، لأنه، إذا فكرت في الأمر، فإن مكانة أداة الكسب بين البشر تتحقق بالفعل من خلال اليد اليمنى ومن الواضح أيضًا أنه نظرًا للتطبيق الدقيق لكلمة «يد»، فسيتم قطعها دائمًا من وصلته.

﴿جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا نِكْلًا مِّنَ اللَّهِ﴾

هذا هو الهدف من هذه العقوبة. أي أنه أيضًا عمل انتقامي وأيضًا درس للآخرين أن يروا هذا العقاب ويعرفوا ما سيفعله عقاب الله في الدنيا مع عصاته في الآخرة. لذلك فلا تضيع آخرتك في طمع الدنيا.

هذا هو الغرض الرئيسي من العقاب، ولكن الحقيقة أيضًا أنه إذا تم تطبيق مثل هذه العقوبات في المجتمع، فإنها تساعد في منع الجريمة. وهذه فائدة جانبية يجب وضعها في الاعتبار أيضًا.

وقد فسرهُ الأستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاح كما يأتي:

«وقد ذكر هنا في قطع اليد سببين: أحدهما أنه عقوبة على جريمة المجرم، والآخر أنه «نكال». ومعنى «النكال» هو معاقبة شخص ما بحيث يتعلم منه الآخرون، وعدم الجمع بالعطف بين الأمرين دليل على أن هذين الأمرين مطلوبان في هذه العقوبة في نفس الوقت. أي أنه مكافأة على العمل وعبرة للآخرين أيضًا. فالناس الذين لا ينظرون إلى هذين الجانبين في نفس الوقت، يتوهمون أحيانًا أن العقوبة أشد من الجريمة. إلا أن هذه العقوبة ليست مجرد عقوبة على الجريمة التي ارتكبها الجاني، بل تشمل أيضًا منع العديد من الجرائم التي يمكن أن يصبح الجاني هو الدافع عليها لفعله إذا لم يعاقب مما يخفض معنويات الآخرين.

كما هو الحال مع الرغبة الجنسية فكذلك إن الجوع للثروة أيضًا قوي جدًا لدى الإنسان. وإذا تهاون هذا الجشع قليلًا، فما يمكن أن تكون نتائجه هناك ما يكفي من البصيرة في الوضع الحالي لتقدير ذلك، بشرط أن تكون هناك عيون

ترى. فإذا تم جمع الجرائم المروعة التي ارتكبت في أية دولة متحضرة من دول العالم المتحضر لمدة عام واحد فقط، والتي حدثت بسبب مجرد السرقة، وكانت كافية لفتح العيون، ولكن جبين الإنسان الذي دهشته الحضارة الحديثة يتصبب عرقاً إذا سمع بقطع يد أحدهم بسبب السرقة، لكن قلبه لا يروع من تلك الآلاف من الحوادث التي تهز القلوب والتي تظهر بشكل مباشر أو غير مباشر من خلال طريق السرقة.

فإن السرقة ليست جريمة واحدة، بل هي مجموعة من الجرائم التي تنبثق عنها جرائم بشعة مختلفة. إذا تم حظر السرقة فسوف تختفي هذه الجنايات تماماً أو سيتم تقليلها بشكل كبير على الأقل. ولذلك فإن التجربة شاهدة على أنه بعقوبة قطع اليد في حالة السرقة لم يتم التخفيف من حوادث السرقة إلى حد كبير فحسب، بل تم أيضاً تقليل الجرائم الأخرى إلى حد كبير. ثم، إذا تم إنقاذ آلاف الرؤوس، وآلاف المنازل، وآلاف الشرف بقطع أيدي قليلة، وتم القضاء على العديد من أسباب القسوة والاعتداء وتدمير الحرث والنسل فإن الفطرة السليمة تقول إن هذا ليس بثمان باهظ لذلك. بل هو صفقة مباركة جداً، ولكن أصحاب الثقافة الحاضرة لا يفهمون هذا⁽¹⁾.

٣. وما هذه إلا عقوبة دنيوية للص، أما في الآخرة فلا خلاص له إلا بالتوبة والإصلاح. وهذا العقاب الدنيوي ليس بديلاً عن التوبة، ولا التوبة بديلاً عنها. ولذلك فبالرغم من التوبة والإصلاح من الجاني فإن الحكومة ستفرض بالضرورة هذه العقوبة، ورغم تلقي هذه العقوبة في الدنيا فإن أمر الآخرة لن يصح إلا بالتوبة والإصلاح، والذي معه يرجى أن تصبح العقوبة مصدرًا لتطهير المجرم من خطيئته.

(1) تدبر القرآن ٢ / ٥١٢.

الأكل والشرب

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾⁽¹⁾.

يريد الدين تطهير النفس البشرية من كل جانب، لذلك يصر دائماً على ضرورة مراعاة الفرق بين الخير والشر في الطعام والشراب إلى جانب التطهير الداخلي على كل حال. ورداً على سؤال بخصوص صيد الحيوانات الأليفة، قال الله تعالى كقاعدة عامة: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبُتُ﴾⁽²⁾ وبهذا تبين أن الخبائث محظورة في جميع الأحوال. ونظراً لغلو والموقف المتطرف الذي تبناه اليهود والنصارى في هذا الأمر فقد بين الله تعالى هذه الحقيقة حين دعاهم الله تعالى إلى الإيمان برسول الله ﷺ وقال:

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾⁽³⁾.

(1) سورة الأنعام، الآية: ١٤٥.

(2) سورة المائدة، الآية: ٥.

(3) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

ولم ترد في الشريعة قائمة شاملة لهذه الطيبات والخبائث والسبب في ذلك أن طبيعة الإنسان عمومًا ترشده في هذا الأمر، فهو يفصل دون تردد ما هو الخير وما هو الشر. لقد كان يعلم دائمًا أن الأسود والفهود والفيلة والعقاب والبازي والغربان وابن آوى والنسور والثعابين والعقارب والإنسان نفسه ليس طعامًا. وهو يعلم أن الخيول والحمير ليست لمتعة المائدة بل مخلوقة للركوب. كما أنه عالم بنجاسة بول وبراز هذه الحيوانات. وحتى في فهم قدرة المواد المسكرة والمخدرة عادة ما يصل عقله إلى النتيجة الصحيحة.

ولذلك ترك شرع الله الإنسان على هدى فطرته في هذا الأمر، وتحريم أكل لحوم البهائم والسباع والطيور ذات المخالب⁽¹⁾ والجلالة⁽²⁾ وغيرها، هو بيان الفطرة لهذا النوع.

وكذلك حكم القرآن في تحريم الخمر. ولما تكرر سؤال الناس عن بعض فوائده في زمن نزول القرآن، قال الله تعالى: إثمه أكبر من نفعه⁽³⁾. ثم في سورة المائدة بين بوضوح أنه من رجس الشيطان الذي ينبغي لكل مؤمن أن يتجنبه فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾⁽⁴⁾.

كل هذه التصريحات هي بيان للفطرة نفسها. ولا شك أن هذه الطبيعة للإنسان تتشوه أحيانًا، لكن دراسة عادات الرجال في العالم تبين أن عددًا كبيرًا منهم لا يخطئون عمومًا في هذا الأمر. ولذلك لم تجعل الشريعة شيئًا من هذا موضوعًا لها.

(1) مسلم، أرقام ٣٤٣٣، ٤٩٩٤.

(2) النسائي رقم ٤٤٥٢. والمراد به هو الحيوان الذي أصبح كرية الرائحة بسبب عادة أكل التراب.

(3) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

(4) سورة المائدة، الآية: ٩٠.

وفي هذا الباب لم يكن موضوع الشريعة إلا تلك الحيوانات وما يتعلق بها، التي لم يكن من الممكن للإنسان بتوجيه من العقل والطبيعة وحدهما أن يفصل في ما إذا كانت طيبة أم خبيثة. فمثلاً الخنزير من الحيوانات التي يقال لها الأنعام والبهائم، ولكنه يأكل اللحوم أيضاً كغيره من البهائم، فهل يعتبر حيواناً يؤكل أم مما لا يؤكل؟ والحيوانات التي نذبحها ونأكلها إذا ماتت ولم تطهر من خلال التذكية فما حكمها؟ فهل دم هذه الحيوانات نجس مثل بولها وبرازها أم أنه يعتبر حلالاً طيباً؟ وإذا ذبحوا باسم غير الله فهل تظل حلالاً؟

ولما كان من الصعب على الإنسان أن يعطي إجابة واضحة ومحددة لهذه الأسئلة، فمن الممكن أن يخطئ في هذا الأمر. وجاء في الآية ﴿عَلَى طَائِعٍ يَطْعُمُهُ﴾ ما يدل على هذه الحقيقة، فهذه هي الحاجة التي أخبره الله تعالى على لسان أنبيائه عن الخنزير والدم والميتة ومما ذبح باسم غير الله أنها أيضاً ليست طاهرة للأكل، ويجب على الإنسان أن يتجنبها. فمن الخنزير لأنه كما تقدم، يأكل اللحم أيضاً مثل البهائم ولأنه يميل إلى الشراسة؛ ومن الميتة لأن الدم يبقى في العروق بعد الموت موتاً جسدياً، ومما ذبح لغير الله لأنه شرك مبين لا يفعله إلا من عصى الله، فحتى لو كان الحيوان طاهراً، لكن النجاسة في العلم والإيمان تجعله نجساً.

وفي هذه المسألة فإن موضوع الشريعة هو في الأساس هذه الأشياء الأربعة. ولذلك جاء القرآن في بعض المواضع بلفظة ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ وفي بعض المواضع بتعبير «إنما». وقال حصرياً إن هذه الأشياء الأربعة فقط هي التي حرمها الله تعالى. أي قد حرمها فيما يأكله الناس ظناً منهم أنها طيبة. وقد سبق أن ذكرنا آية من سورة الأنعام في هذا الفصل، وقد جاء الأمر مصرحاً أيضاً مع تغيير طفيف في الكلمات، في الآيات ١٧٣- ١٧٤ من البقرة (٢) والآية ١١٥ من النحل (١٦). ثم في سورة المائدة أيضاً قد أوضح الله بعض جوانبه.

إن أول شيء فيه هو «الميتة» وقد يطرأ هذا الشك لدى بعض الأذهان هل

سيكون هناك فرق بين الحيوان الذي مات بالموت الطبيعي والحيوان الذي مات بسبب أحداث مفاجئة أم أن كليهما يعتبران ميتين على حد سواء؟ وقد أجاب القرآن بأن حكم الاثنين واحد. وكذلك ما أكله السبع من البهيمة تعتبر ميتة، إلا إذا ذبحت حية؛ لأنه في رأينا لا يمكن القول على وجه اليقين أن موتها كان بسبب الدم المسفوح، وقال القرآن:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ (1).

وقد ورد في هذه الأحكام لفظة «الميتة» برعاية العرف والعادة. ولا شك أن لها معنى حرفياً أيضاً في اللغة العربية، ولكن عندما يتم النطق بها بهذا الاستثناء، فإنها لا تعني كل شيء ميت مثل الكلمة الأردية «ميت» فهي في هذه الحالة نوع من الاختصاص. وهو ينشأ في معنى الكلمة، فالشخص الملم بأنماط اللغة ودقائقها لا يعتبر مثلاً أن الجراد الميت والسمكة الميتة يدخلان فيها. ولماذا نشأ هذا الاختصاص؟ ربما يرجع ذلك إلى حقيقة أن هذه الحيوانات ليس لديها دم مسفوح من شأنه أن يقتلها إذا لم يسفح.

ويقول الزمخشري:

«قصد ما يتفاهمه الناس ويتعارفونه في العادة، ألا ترى أن القائل إذا قال: أكل فلان ميتة، لم يسبق الوهم إلى السمك والجراد كما لو قال: أكل دماً، لم يسبق إلى الكبد والطحال، ولا اعتبار العادة والتعارف قالوا: من حلف لا يأكل لحماً فأكل سمكاً لم يحنث، وإن أكل لحماً في الحقيقة» (2).

وقول النبي ﷺ في البحر: «هو الطهور ماؤه، والحل ميتته» (3) هو أيضاً بهذا التخصيص، وفي هذا أيضاً يراد «بالميتة» الأسماك الميتة وغيرها من الأشياء

(1) سورة المائدة، الآية: ٣.

(2) الكشف ١ / ٢٤١.

(3) «الطهور ماؤه والحل ميتته». النسائي، رقم ٥٩.

التي يمكن أن يطلق عليها كلمة «الميتة» باعتبار اللغة، ولكن لا يمكن تسميتها ﴿الْمَيْتَةُ﴾ مطابقاً للعرف والعادة.

وفي آية المائدة التي ذكرناها أعلاه، يتبين أيضاً من صفة «الميتة» ومن خلال قوله ﴿إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ﴾ بعد ﴿وَمَا أَكَلَ السَّيِّئُ﴾ أنها فقط التذكية التي إذا حدث الموت بها لم يكن الحيوان ميتة، والتذكية: قطع الحلقوم، وهي سنة ثبتت عن الأنبياء ﷺ، ويطلق اصطلاحاً على معنى جرح الحيوان بأداة حادة ونزف دمه بحيث يكون موته بسبب النزيف. وهذه هي الصورة الوحيدة لقتل الحيوان، الذي يخلص فيه لحمه ويظهر من نجاسة الدم، ولم تبق العلة التي بسببها حرمت الميتة.

وطريقتها الأصلية هي الذبح أو النحر. والذبح خاص بالبقر والمعز ونحوهما من الحيوانات، والنحر خاص بالإبل وأمثالها. الذبح يعني قطع الحلقوم والماري (القناة الهضمية) أو الحلقوم والودجين (أوردة الرقبة) بأداة حادة، والنحر هو أن يُثقب في عنق الحيوان بأداة حادة مثل الرمح، بحيث يتفجر منه ينبوع الدم، وينزف الحيوان، فيسقط ميتاً نهائياً.

وإذا لم يمكن اتباع هذه الطريقة فماذا يكون العمل؟ وقد أجاب رسول الله ﷺ عن هذا السؤال بأن إصابة مثل هذا الجرح بشيء تكفي بحيث يخرج منه الدم كله.

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله، أرايت إن أجدنا أصاب صيداً وليس معه سكين، أئذبح بالمروة وشقه العصا؟ فقال: «أمر الدم بما شئت واذكر اسم الله»⁽¹⁾.

كما سيتم تحديد مشروعية وعدم قانونية الصيد بالسهم والبنادق وفقاً لهذه القاعدة. وإذا مزق الحيوان المستأنس الفريسة فقد بين الله في القرآن الكريم أن

(1) أبو داود، رقم ٢٨٢٤.

هذا حكمه أيضًا. وحتى لو لم يتم العثور على مثل هذه الضحية على قيد الحياة فلا ينبغي اعتبارها «ميتة»⁽¹⁾.

وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ أَلْفُ الطَّيْرِ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَنْقُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾⁽²⁾.

وواضح من السياق الذي جاءت فيه هذه الآية من المائدة، أنه لما كان الحيوان الذي مزقته البهيمة قد أبيع في الآية السابقة فقط إذا ذبح حيًا، ولذلك ثار السؤال عنه أنه إذا نهش الصيد حيوان تم استثنائه ويموت الصيد قبل موعد الذبح، فما حكم ذلك؟ وقد تقدم الجواب على هذا السؤال في هذه الآية أن نهشه هو تذكيتة، فيجوز أكله دون ذبحه. ومع ذلك، فمن المهم بالنسبة له أن يحتفظ بها لسيده. فإن أكل منه شيئًا لم يحل صيده، لأنه لم يعد صيد سيده الذي أرسله على الصيد بإسم الله.

وقد جاء في الآية هذا الشرط في قوله تعالى: ﴿مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾⁽³⁾ وفي هذه الحالة لا وجه للتفريق بين صيد الحيوانات والطيور. ومن المعروف أن الصقور والنسور والبزاة والعقبان تقبل التدريب أيضًا بقدر ما تقبله البهائم.

وقد فسر النبي ﷺ هذا الحكم القرآني بما يلي:

إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله عليه، فإن أدركته لم يقتل فاذبح واذكر اسم الله عليه، وإن أدركته قد قتل ولم يأكل كل فقد أمسكه عليك، وإن وجدته قد

(1) لكن إذا لم ينهش، ومات الحيوان من الخوف، فهو أيضًا «ميتة». وكذلك إذا لم ينهش ووجد حيًا، يجب ذبحه. وبدونها لا يمكن تحقيق شرط التذكية بأي حال من الأحوال.

(2) سورة المائدة، الآية: ٤.

(3) ولا يكون فيه مرجع الضمير عندنا إلا ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ والسبب في ذلك أنه إذا كان مرجعها ﴿مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ فإنه يكون مجرد تكرار لما تقدم في ﴿إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ﴾ وإذا كان متعلقًا بـ «فكلوا» إذن فمحل مسألة متصلة بالآداب العامة للطعام لا تتضح هنا بأي حال.

أكل منه فلا تطعم منه شيئاً فإنما أمسك على نفسه، وإن خالط كلبك كلاباً فقتلن فلم يأكلن فلا تأكل منه شيئاً، فإنك لا تدري أيها قتل⁽¹⁾.

وفي الآية قد جاء بعد الميتة الشيطان الثاني والثالث هما الدم المسفوح ولحم الخنزير. ولحم الخنزير منهما لا يحتاج إلى أي بيان، أما الدم المسفوح فينبغي أن يتبين هذا من حرمة أن كلمة ﴿دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ جاءت في الأصل ومعناها هو ما يفهم من هذه الكلمات في الكلام المتداول.

وإن كان يمكن أن يقال عن الطحال والكبد أنهما دم، لكن كما بينا عن الزمخشري، فإن الاستعمال العرفي يقتضي عدم إطلاق الدم عليهما. وكما يعلم من قيد «مسفوحاً» أن الدم الراكد في العروق والشرايين يخرج أيضاً من أمر النهي هذا.

وبعد هذا الشيء الرابع والأخير هو الذبح لغير الله وقد أوضح القرآن في الآية التي نحن نبحت عنها من سورة الأنعام أن سبب حرمتها ليس رجس الحيوان نفسه. بل النجاسة الخارجية وهي فسق الذابح. ولما كان الذبح بغير الله من الشرك فقد سمي بالفسق. ومن الظاهر هنا أنه نجاسة العقيدة والعلم. وما لحقه من هذا النجاسة، فإن العقل يتطلب أن يفهم حكمه على هذا النحو. وقد حرم القرآن أشياء معينة في سورة المائدة وفقاً لهذا المبدأ. فقال:

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْنَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾⁽²⁾.

يقول الأستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاحي في تفسيره:

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾، و«نصب» يطلق على مقامات ودور الأصنام والأوثان. كان هناك عدد لا يحصى من الأماكن والدور في شبه الجزيرة العربية حيث كانت تقدم التضحيات من أجل استرضاء الآلهة والتقرب بها والزلفى إلى الملاك والأشباح والأجنة. فقد حرّم القرآن هذا النوع من الذبائح، ومن

(1) رواه النسائي، رقم: ٤٢٦٨ .

(2) سورة المائدة، الآية: ٣.

كلام القرآن يتبين أن حرمة هذه الذبائح لا تنشأ إلا من ذبحها في أماكن القرب والتقرب للآلهة، بغض النظر عن أنه قد سُمي عليها الله أم يُسمى عليها غير الله. وإن كان منعهما من أجل التسمي بغير الله فلا داعي لذكرهما منفصلين، وقد تقدم ذكر ﴿وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ﴾. فكان كافياً.

وعندنا فإن الذبائح التي تقدم في الأضرحة والقبور تدخل أيضاً في هذا الحكم. فإنه يبتغى فيها أيضاً رضا صاحب القبر وصاحب المزار. وفي وقت الذبح سواء سمي عليها اسم الله أو اسم صاحب القبر والمزار، فليس هناك دخل للاسم في الحرمة بل للمكان.

﴿وَأَن تَسْقِسُمُوا بِالْأَزْلَمِ﴾: والاستقسام يكون لتحديد المصير أو التقدير. ويطلق «أزلام» على سهام الفأل أو سهام الكهانة. وفي جزيرة العرب أيضاً كانت هناك عادة سهام العرافة، حيث كانوا يكتشفون حكم الغيب حسب اعتقادهم، وكانت هناك أيضاً عادة سهام القمار، يحصلون من خلالها على لحم أو أجزاء من شيء ما، وسبق لنا بيان في تفسير سورة البقرة تحت الخمر والميسر أن العرب كانوا يجتمعون على شرب الخمر، فيذبحون أي إبل يريدون وهم سكران، ويقنعون صاحبها بالثمن، ثم يقامرون على لحمها وكانون يلعبون وما كانوا يكسبون من أكوام اللحم يشوونها ويأكلونها ويطعمونها ويشربون الخمر عليها وأحياناً، في هذا الشغل الشاغل الداعر يقومون بخلق مشاجرات بحيث تتشابه عشائر العشيرة مع بعضها البعض لسنوات، ويضحى من أجلها مئات الأرواح، وأعتقد أن هذه هي الطريقة الأخرى هي المقصودة هنا «باستقسام الأزلام»⁽¹⁾.

وأما الذبيحة التي لم يُذكر عليها اسم غير الله، ولا يُذكر عليها اسم الله أيضاً، تدخل ضمن هذا أيضاً. وقد جاء في القرآن الكريم تسميته بـ«الفسق»

(1) تدبر القرآن ٢ / ٤٥٦.

بنفس الطريقة التي عبر بها «وما أهل لغير الله به». وقال الله تعالى في سورة الأنعام داحضًا بعض خرافات العرب بشأن الحيوانات:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُؤْخُونَ إِلَىٰ أُولِيَآئِهِمْ لِيُجْدِلُوَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾^(١).

٤ - ولماذا يكون عدم ذكر اسم الله عند الذبح والصيد من ظلم وفسق أن ينتج منه دخول الحيوان في حكم ﴿وَمَا أَهَلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ يشرح الأستاذ الإمام أسباب ذلك فيقول:

أولاً: ما كان من العمل بغير اسم الله وتكبيره، كما بينا في تفسير آية بسم الله، فهو خالٍ من البركة. ولا بد عند الانتفاع بكل نعمة من نعم الله، صغيرة كانت أو كبيرة، أن يذكر اسمه عليها، حتى يعترف العباد بـمَنه وفضله عليهم. فإذا تصرف عبد بدون ذلك الاعتراف والفضل في شيء فترصفه ذاك يعتبر غصبًا، ولا يثبت حق بالغصب، بل هو اجترأ وتمادٍ يعاقبه عليه الله.

ثانيًا: وحرمة النفس تقتضي أن يذكر اسم الله عند ذبح الحيوان. فإن الحياة في ذاتها شيء محترم لإنسان كان أو لحيوان، ولو لم يأذن الله لنا لما جاز لنا أن نقتل أي حيوان. ولم يُمنح لنا هذا الحق إلا بإذن الله. ولهذا السبب من المهم أننا كلما أخذنا بحياة أي حيوان، ألا نأخذها إلا باسم الله. فإذا لم نذكر اسم الله عليه، أو سميناً أيضًا اسم غير الله مع اسمه، أو نذبحه باسم غير الله، فهذا انتهاك لحرمة حياة الحيوان وتدنيس لخالق الحياة معًا.

ثالثًا: إن هذا يغلق بابًا واسعًا جدًا للشرك. ومن له إلمام بتاريخ الأديان، يعلم أن التضحية بالحيوانات ونذورها وأضاحيها كانت لها أهمية كبيرة في العبادة منذ أول التاريخ، ولهذه الأهمية حظيت باهتمام كبير في الديانات الشركية أيضًا. فأى قوم وقع وابتلي بعبادة وتقديس غير الله ضحى بالحيوانات بطرق مختلفة لإرضاء غير الله ذاك. ففي تهديد الشيطان

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢١.

المذكور في القرآن في باب إضلال الناس، كما بينا في موضعه، قد ذكر الشيطان مصدر الضلال هذا على وجه التحديد.

ولإغلاق كل طرق الشرك هذه، قد وضع الإسلام قفل اسم الله على أرواح الحيوانات، والذي حرم فتحه بأي مفتاح آخر غير مفتاح اسم الله. فإذا حاول أحد فتحه أو كسره بمفتاح آخر دون هذا المفتاح، فقد أتى بفعل حرام، والحيوان الذي يتم عليه هذا التصرف غير المشروع ذلك الحيوان يكون أيضًا محرماً⁽¹⁾.

وكذلك الذبيح والصيد اللذان سُمي عليهما اسم الله، لكن المسمي لا يؤمن بالله، أو يؤمن ولكن يؤمن بمكانة رب واحد في كوكبة الآلهة في العالم. ويجعل الشرك هو الأصل في دينه، ومن الواضح أنه لا يمكن التفريق بين ارتكاب الشرك أثناء الذبح وذبح المشرك. ولهذا السبب أباح القرآن الكريم ذبح أهل الكتاب فقط للمسلمين. لأنهم في الأصل موحدون فقال: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾⁽²⁾.

والاستثناء الوحيد من هذه المحظورات هو في حالة الطوارئ وذلك أيضًا محدد بحد ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي بحيث لا يكون الإنسان راغبًا ولا يتجاوز حد الضرورة. وقد تم بيان هذا الأمر في آيتي البقرة والنحل بنفس الكلمات تمامًا، نعم هناك اختلاف يسير في الألفاظ في المائدة فقال: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾⁽³⁾.

ويقول الأستاذ الإمام في توضيح ذلك ما يلي:

«المخمصة» تعني الجوع. ومعنى المجاعة هو أن يقع الإنسان في شدة الجوع بحيث لم يُترك له في الظاهر سبيل إلا أخذ الحرام أو الموت. وفي مثل هذه الحالة يجوز له أن ينقذ حياته بالاستفادة من شيء من المحرمات. وإلى

(1) تدبر القرآن ٣/ ١٥٧.

(2) سورة المائدة، الآية: ٥.

(3) سورة المائدة، الآية: ٣.

جانب هذا فإن قيد ﴿عَيَّرَ مُتَجَانِفٍ﴾ تظهر نفس المضمون الذي جاء في ﴿عَيَّرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ في مقام آخر. أي لا من حب بالقلب ولا من تجاوز حدود سد الرmq.

ويتضح من قيد «المخمصة» أنه حيثما توجد بدائل غذائية أخرى، لا يكون هناك عذر بسيط، وهو عدم توفر لحوم الذبح الشرعي، كما هو الحال في معظم دول أوروبا وأمريكا، ليحل الحرام، ولا أحد لديه الحق لتبرير ذلك. فإن اللحم ليس عنصراً لا غنى عنه لبقاء الحياة، وليس فقط الحياة ولكن أيضاً الصحة يمكن الحفاظ عليها بمستوى عالٍ جداً بطريق الأطعمة الأخرى. وشرط ﴿عَيَّرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ يدل على أن الإجازة لا تزال إجازة والحرام حرام بأي شكل من الأشكال. لا يمكن أن يصبح شيء محرم كمثّل لبن الأم، ولا الإجازة إذن أبدية.

ولهذا لا يجوز لأحد أن يتجاوز حد الفرج. فإذا أنقذ الإنسان حياته من شيء محرم بمراعاة هذه المحظورات فإن الله غفور رحيم. فإن استغل هذا الإذن وفتح المجال لمصلحته، فمسؤوليته عليه. فلا يكون هذا الإذن حجة له يوم القيامة⁽¹⁾.

وكل هذه الأشياء، كما هو واضح من هذه الآيات القرآنية، حرام للأكل فقط. وأما استعمالاتها الأخرى فهي جائزة تماماً. ولا ينبغي للمؤمن أن يتردد في هذا الأمر أبداً، وفي حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ صرح بذلك في إحدى المرات:

قال: تصدق على مولاه لميمونة بشاة فماتت، فمر بها رسول الله ﷺ، فقال: «هلا أخذتم إهابها فدبغتموه فانتفعتم به؟ فقالوا إنها ميتة فقال: «إنما حرم أكلها»⁽²⁾.

(1) القرآن ٢: ٤٥٨.

(2) رواه مسلم، رقم ٨٠٦.

التقاليد والآداب

تتميز الحضارة الإنسانية بأساليب العيش والمظاهر الحضارية التي نسميها «التقاليد والآداب»، ولم تخل فترة من فترات المجتمع البشري من هذه العادات والآداب. ونراها في كل قبيلة وكل أمة وكل حضارة متساوية منتشرة ومستمرة كدستور عام. يتم تحديد هوية الأمم والأقوام في الغالب مقارنةً ببعضهم البعض. كما أن الأنبياء ﷺ الذين جاؤوا بالدين يلزمون أتباعهم بإقتفاء عادات وآداب معينة. وغاية الدين هي تزكية النفس، ولذلك شرعت عادات الدين وآدابه أيضاً مع مراعاة هذا المقصد. ولما بعث النبي ﷺ كان أغلبها منتشراً في جزيرة العرب كتقليد للدين الإبراهيمي.

ولم تضاف إليها شيئاً إلا بعض الأشياء. وهي متواجدة قبل القرآن ومكانتها كسنة انتقلت إلى الأمة بإجماع وتعامل الصحابة بعد تقرير رسول الله ﷺ وتصويبه. ومصدرها الآن هو إجماع الأمة، وجميعها معترف به كدين في كل مكان في الأمة كلها على هذا الأساس. وسنذكر هنا هذه العادات والآداب التي شرعها الأنبياء ﷺ بالتفصيل.

١. التسمية والأكل والشرب باليمين.

الأمر الأول منها الاعتراف بنعم الله تعالى والاعتراف بها والدعاء لها،

والشيء الثاني التذكير الدائم بأن من ينال نعيم الجنة يوم القيامة فإن كتاب أعمالهم سيُعطى بيمينهم، فالمؤمن إذا راعى الحق في مثل هذه المناسبات يعبر رمزياً عن إرادته أنه يريد أن يدخل في أصحاب اليمين في يوم القيامة أيضاً. وقد أكد رسول الله ﷺ على اتباع سنة الأنبياء هذه في أقواله كما يلي:

«سم الله وكل بيمينك»⁽¹⁾.

إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، وإذا شرب فليشرب بيمينه⁽²⁾.

٢. وبمناسبة اللقاء «السلام عليكم» وردّه.

هذا دعاء للسلام في الدنيا والآخرة، يدعوها المسلمون لبعضهم البعض بمناسبة الاجتماع. ومن يبدأ لهذا الغرض يقول: السلام عليكم، ومن يجب يقول: وعليكم السلام، وقد جاء ذكره في القرآن الكريم وفي الأحاديث النبوية أيضاً. وقد وصف النبي ﷺ أدبه بما يلي:

«يسلم الصغير على الكبير والمار على القاعد والقليل على الكثير»⁽³⁾.

٣. ويقول عند العطاس: الحمد لله، وفي الرد على العطاس يقال: يرحمك الله.

العطاس وسيلة للتخلص من خلل واقع في الوجود الإنساني، وهذه الطريقة لشكر الله عليه والدعاء له بالرحمة قد شرعت في دين الأنبياء ﷺ حتى يتذكر ويسحضر العبد المؤمن دائماً أن رحمة الله في الدنيا والآخرة خاصة بعباده الشاكرين. ويفيد بعض الروايات أنها بدأت مع يقظة سيدنا آدم ﷺ الأولى بعد نفخ الروح فيه⁽⁴⁾. وفي اللغة العربية فإن كلمة (تشميت) لهذه الممارسة دليل على أنها سنة قديمة حافظ عليها رسول الله ﷺ وأجراه في أمته على هذا النحو، قال:

(1) رواه البخاري، رقم ٥٣٧٦.

(2) رواه مسلم، رقم ٥٢٤٥.

(3) رواه البخاري، رقم ٤٢٣١.

(4) الترمذي: رقم ٣٣٦٨.

إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله، وليقل له أخوه أو صاحبه: يرحمك الله، فإذا قال له: يرحمك الله فليقل: يهديكم الله ويصلح بالكم⁽¹⁾.

٤. إبقاء الشارب منخفضًا. ٥. حلق شعر العانة. ٦. تنظيف شعر الإبط. ٧. قص الأظافر الناشئة. ٨. ختان الأولاد.

وهذه الأشياء الخمسة كلها من الأخلاق الكريمة، فالشارب الكبير يخلق نوعًا من الكبرياء في شخصية الإنسان، ثم أثناء وضع الطعام والشراب في الفم فإنه يتلوث بها أيضًا. وبالإضافة إلى تغليف الرخويات فإن الأظافر المتضخمة تعطي انطباعًا بالتشابه مع الحيوانات. ولذلك أمر بأن يكون الشارب منخفضًا، وأن تقلم الأظافر الزائدة. وكل الأشياء الأخرى ضرورية لتطهير الجسد. وكان النبي ﷺ يحبها ويهتم بها خاصة حتى قد حدد لبعضها أجلًا محددًا، فعن أنس:

«وقت لنا في قص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة أن لا نترك أكثر من أربعين ليلة⁽²⁾».

وكان العرب عمومًا يتبعونها وحتى قبل عهد البعث⁽³⁾ و⁽⁴⁾. وهي سنن الفطرة التي جعلها الأنبياء ﷺ ركناً أساسياً من الدين لأهميتها في الطهارة والتطهير. قال رسول الله ﷺ:

«خمس من الفطرة: الختان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الأباط».

٩. تنظيف الأنف والفم والأسنان.

وما أراده الأنبياء ﷺ من إحداث ذوق النظافة والطهارة في المؤمنين، كان من اقتضائه أن جعلوا هذا التنظيف سنة.

(1) رواه البخاري، رقم ٤٢٢٤.

(2) مسلم، رقم ٥٩٩.

(3) رواه البخاري، رقم ٥٨٩١.

(4) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام للأستاذ جواد علي ٦/٣٤٦.

ويذكر ذلك في التاريخ باعتباره الشعار الديني للعرب^(١). ويدل ما نقل عن النبي ﷺ إلى الأمة من سنة الوضوء على أنه كان يقوم بالمضمضة^(٢) و«الاستنشاق»^(٣) عند كل وضوء بعناية شديدة. كان لديه نفس الإحساس لتنظيف أسنانه واهتمام كبير حتى أنه قال:

لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة صلوة^(٤).

١٠. الإستنجاء

كما أن تطهير الجسد بعد الفراغ من البول والبراز بكل حذر ودقة من تقاليد الدين الإبراهيمي^(٥). واعتمادًا على الظروف، يمكن إجراء هذا التنظيف بالماء وأيضًا بالتربة الرخوة أو شيء مشابه. وتفيد الأحاديث والأخبار أن رسول الله ﷺ كان يستعمل الماء عادة لهذا الغرض.

يقول سيدنا أبو هريرة:

كان النبي ﷺ إذا أتى الخلاء، أتيته بماء في تور أو ركوة فاستنجدى ثم مسح يده على الأرض^(٦).

١١. الغسل بعد الحيض

وهذه أيضًا سنة قديمة. وإذا انقطع الدم بعد الحيض والنفاس، وجب على المرأة أن تغتسل هذا الغسل للطهارة. وحتى في القرآن حيث بين الله تعالى حكم العلاقة بين المرأة والرجل في هذه الحالة، ذكر ذلك على النحو التالي:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا

(١) نفس المصدر.

(٢) المضمضة ملء الفم من الماء وتميره.

(٣) الاستنشاق ملء الأنف من الماء واستنثاره لطهارة الأنف.

(٤) (رواه البخاري، رقم ٨٨٧).

(٥) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام للأستاذ جواد علي ٦/٣٤٦.

(٦) أبو داود، رقم ٤٥.

نَقَرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ
الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿١﴾.

يقول الأستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاحي في تفسيره:

«ورد في هذه الآية كلمتان: «طهر» و«تطهر» ومعنى الطهر أن ينقطع الدم
وتتطهر المرأة ومعنى التطهر أن تغتسل المرأة وتصل إلى حالة الطهر. وفي الآية
جعل الطهر شرطاً لمباشرة المرأة، وقيل في نفس الوقت أنها إذا طهرت فأتوها،
ومنه يتبين ذلك بما أن السبب الحقيقي للنهي عن العلاقة الجنسية هو الدم، ولهذا
سقط هذا النهي بعد ايقطاعه، ولكن الطريق الصحيح هو لقاءها إذا اغتسلت
وتطهرت» (2).

١٢. غسل الجنابة

وفي دين الأنبياء ﷺ كان يؤمر بهذا الغسل دائماً. وقد أكد الله تعالى على
ذلك خاصة قبل الصلاة بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ
وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ (3).

وفي سورة المائدة، ورد نفس الحكم في فقرة ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا
فَأَطْهَرُوا﴾ (4).

وتشير الجنابة هنا إلى حالة الجنابة التي تحدث للإنسان عن طريق
الجماع أو الإنزال. وبعد ذلك لا بد من الاستحمام للتطهير. ويجب أن يتم هذا
الغسل على أكمل وجه، فكلمتا «إِطْهَرُوا وَتَغْتَسِلُوا» في القرآن تدلان على ذلك

(1) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

(2) تدبر القرآن ١ / ٥٢٦.

(3) سورة النساء، الآية: ٤٣.

(4) سورة المائدة، الآية: ٦.

من طريق الأسلوب العربي. وما جاء في هذا الغسل من أسوة النبي ﷺ في الأحاديث هو كما يأتي:

يغسل اليدين أولاً.

ثم يغسل الفرج باليد اليسرى وينظف جيداً.

ثم يتوضأ تمام الوضوء إلا أن يترك غسل القدمين في آخره.

ثم يدخل الأصابع في الشعر، ثم يصب الماء على الرأس حتى يصل إلى الجذور.

ثم يجب سكب الماء على الجسم كله.

وأخيراً يجب غسل القدمين.

وفيما يلي نأتي بأحاديث وصلت إلينا عن أمهات المؤمنين عائشة وميمونة في ذلك:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا اغتسل من الجنابة يبدأ فيغسل يديه، ثم يفرغ يمينه على شماله فيغسل فرجه، ثم يتوضأ وضوءه للصلاة، ثم يأخذ الماء فيدخل أصابعه في أصول الشعر حتى إذا رأى أن قد استبرأ حفن على رأسه ثلاث حفنات، ثم أفاض على سائر جسده، ثم غسل رجليه⁽¹⁾.

عن ابن عباس، قال: حدثتني خالتي ميمونة قالت: أدنيت لرسول الله ﷺ غسله من الجنابة، فغسل كفيه مرتين أو ثلاثاً، ثم أدخل يده في الإناء، ثم أفرغ به على فرجه وغسله بشماله، ثم ضرب بشماله الأرض فدلّكها دلّكاً شديداً، ثم توضأ وضوءه للصلاة، ثم أفرغ على رأسه ثلاث حفنات ملء كفه، ثم غسل سائر جسده، ثم تنحى عن مقامه ذلك فغسل رجليه⁽²⁾.

(1) رواه مسلم، رقم ٧١٨.

(2) رواه مسلم، رقم ٧٢٢.

١٣. غسل الموتى

وهذا الغسل أيضًا من سنن الأنبياء^(١).

ومع أن هذا الشرط يتحقق بصب الماء على الجسد جيدًا، إلا أنه نظرًا لأهمية التزكية والتطهير في الدين، ينبغي غسل الميت على أكمل وجه ممكن. ومن الوصايا التي أوصى بها النبي ﷺ في إحدى المرات ما يلي:

«اغسلنها ثلاثًا أو خمسًا أو أكثر من ذلك، إن رأيتن ذلك بماء وسدر، واجعلن في الآخرة كافورًا أو شيئًا من كافور»^(٢).

«اغسلنها وترًا: ثلاثًا أو خمسًا أو سبعة، ابدأن بميامنها ومواضع الوضوء منها»^(٣).

١٤. التجهيز والتكفين.

ومن سنة الديانة الإبراهيمية أيضًا تكفين الميت بعد غسله. ورغم أنه يمكن أن يكون قطعة قماش تلبس عليه، إلا أن إكرام المتوفى يقتضي اعتماد طريقة الترتيب في هذا أيضًا. وفي حديث أم المؤمنين، أن عائشة، كُفّن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب يمنية، من دون قميص ولا عمامة^(٤).

إذا كفّن أحدكم أخاه فليحسن كفنه^(٥). وقال النبي:

(١) في الأحوال العادية يجب إعطاء ذلك الغسل لكل مسلم، ولكن في الحالة غير العادية إذا أصبح غسل الميت وترتيبات دفنه مزعجة، فيمكن دفنه دون غسل ودون تجهيز وتكفين. وعليه قد جاء في البخاري (رقم ١٣٤٧) أن رسول الله ﷺ أمر بدفن شهداء أحد مثل ذلك، وقد قرر فقهاؤنا أنه يتعلق بموت الشهادة في سبيل الله، في حين أن هذا استثناء عام مبني على نفس مبدأ الرخصة في الدين الذي هو متبع في جميع أحكامه.

(٢) (رواه البخاري، رقم ١٢٥٨).

(٣) (رواه البخاري، رقم ١٢٥٤).

(٤) (رواه البخاري رقم : ١٢٦٤. ومسلم رقم : ٢١٧٩).

(٥) مسلم، رقم ٢١٨٥.

١٥. التدفين

ومن أجل إيصال الميت إلى وجهته في دين الأنبياء يتم دفنه في الأرض الذي قبر فيه قبره^(١).

وليس هناك طريقة معينة لذلك، بل ينبغي حفر حفرة مستقيمة ووضع سقف عليها وشق جانبها ووضع الميت فيها أو دفن الميت في قبر. ويمكن اعتماد أساليب التابوت، إلا أن النبي ﷺ كان يكره أن يجعل القبر صلباً ويبني عليه أي بناء^(٢).

١٦. عيد الفطر

١٧. عيد الأضحى

وهذان العידان قد شرعهما النبي ﷺ للمسلمين تنفيذاً لأمر الله. وقبل الإسلام ورد ذكر يوم السبع ويوم السباسب وغيرها من الأعياد في أيام وأحاديث العرب المشركين. وكانت أيام العيد في شريعة بني إسرائيل، ولكن من المعروف من التوراة وغيرها أنها كانت في الغالب مرتبطة بأحداث مهمة في تاريخهم، ولما أنزل الله شرعه الأخير لبني آدم قد أعطاهم عيدين وربطهما بالمظهرين العظيمين الإسلام والتقوى. يتم الاحتفال بعيد الفطر كل عام في نهاية شهر رمضان في أول يوم من شوال بعد الانتهاء من عبادة الصيام ويكون عيد الأضحى في اليوم العاشر من ذي الحجة تذكراً لتضحية سيدنا إبراهيم عليه السلام. ومعلوم من الأخبار أن هذين العيدين قد أقيما في المدينة بعد الهجرة. يقول أنس:

«قدم رسول الله ﷺ المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال رسول

(١) هذه الطريقة أيضاً للحالات العادية، فإذا حدثت الوفاة في سفينة أو قارب وكان هناك خوف من التأخير في الوصول إلى الشاطئ، فلا خيار آخر سوى رمي الجثة في الماء.

(٢) رواه مسلم رقم ٢٢٤٥.

الله ﷺ: ما هذان اليومان؟ قالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية، قال: «إن الله عز وجل قد أبدلكم بهما خيراً منهما: يوم الفطر ويوم النحر»⁽¹⁾.

والأعمال التي صدرت فيهما من السنن والتي قد بينا تفاصيلها في هذا الكتاب تحت عنوان «شريعة العبادات» وهي:

١. صدقة الفطر

٢. الصلاة والخطبة

٣. الأضحية

٤. التكبيرات الزوائد بعد كل صلاة في أيام التشريق.

وهذان العידان عيد الفطر وعيد الأضحى خاصان بالذكر والشكر والترفيه. فعن أم المؤمنين السيدة عائشة أن أباهما أبا بكر الصديق رضي الله عنه نهى الإماماء وهنَّ يغنين في بيته فقال رسول الله ﷺ: يا أبا بكر، إن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا⁽²⁾.

(1) أحمد، رقم ١٣٢١٠.

(2) رواه البخاري، رقم ٩٥٢.

القسم وكفارته

قال الله تعالى:

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَرْتُمْ ۖ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَلِكَ كَفَرُهُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١).

إن أهمية الأيمان في الدين عظيمة للغاية، فالوفاء باليمين من الأخلاق الأساسية في الإسلام. والقسم يعزز هذا العهد في آخر درجته، فإذا أقسم المسلم بالله على شيء من التزاماته أو نواياه أو مواعيقه، فكأنما يشهد ربه وملك الدنيا على كلمته، وقد كانت القسم دائماً مصدر الاستقرار في الأمور والاتفاقات الاجتماعية والسياسية، وقد أشار الله تعالى إلى قسم بني إسرائيل في القرآن الكريم، مذكراً إياهم بعهدهم معه، ومحذراً إياهم من عدم نقضهم. الميثاق الذي عاهدوا به وأشهدوا عليه ربهم.

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٩.

فقال:

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾^(١).

وعلى الرغم من أهمية القسم، إلا أنه في كثير من الأحيان يعجز الإنسان عن الوفاء بيمينه، أو يشعر أنها تهدم حق الله أو نفسه أو غيره. وفي هذه الحالة يمكن الحنث باليمين، ولكن في بعض الحالات يصبح الحنث ضرورياً لضرورة الدين والأخلاق، وقد نصت الشريعة على طريقة الكفارة لذلك. وخلاصة هذا الحكم الشامل للحلف والكفارة هي كما يلي:

١. القسم في بعض الأحيان يكون لا معنى له على الإطلاق، فيكون عديم الفائدة ويميناً لغواً. ولا شك أنه ينبغي للمؤمن أن يتجنب ذلك أيضاً، ولكن من فضل الله تعالى على عباده أنه لا يؤاخذ في مثل هذه الأيمان في الدنيا ولا في الآخرة.

٢. على العكس من ذلك، إذا كانت اليمين بعزم ثابت ونية قلبية، وقد تم العهد بها، ويكون لها أي تأثير على الحقوق والواجبات، أو يكون تأثير على أي تحليل لله وتحريمه. فإن الله تعالى سوف يؤاخذ عليه أكيداً، لذلك في قضية القسم لا ينبغي للرجل أن يكون متساهلاً وغير مكترث على الإطلاق، بل يجب أن يحفظه بمسؤولية كاملة.

٣. وإذا وجب الحنث بهذا اليمين لأي سبب من الأسباب، وجب عليه الكفارة. وطريقتها أن يطعم الحانث عشرة مساكين مثل ما يطعم أهله، أو يلبسهم ثياباً، أو يعتق رقبة، فإن لم يجد ذلك وجب عليه صيام ثلاثة أيام.

وهذا هو حكم القرآن فيما يتعلق بالأقسام. وقد جاء رسول الله ﷺ بهذه الأشياء الثلاثة في بيان حكمه:

(١) سورة النحل، الآية: ٩١.

أولاً: النذر أيضاً نوع من القسم فكفارتها أيضاً ككفارة القسم التي جاءت في القرآن. وقد جاء النبي ﷺ في تفسير هذا الحكم القرآني بإرشادات ثلاث: فقال أولاً:

«كفارة النذر كفارة اليمين⁽¹⁾».

ثانياً: لا يجوز أن تكون اليمين عائقاً عن عمل صالح. فقال:

إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفر عن يمينك وأت الذي هو خير⁽²⁾.

ثالثاً: أن الحلف بغير الله هو أيضاً من الشرك، فلا يكون الحلف إلا باسم الله. وقال النبي ﷺ:

من حلف بغير الله فقد أشرك⁽³⁾.

(1) مسلم، رقم ٤٢٥٣.

(2) رواه البخاري، رقم ٦٦٢٢.

(3) رواه أبو داود رقم ٣٢٥١.

خاتمة الكتاب (١)

أتقدم بالشكر والحمد لله سبحانه وتعالى أني قد أتممت اليوم كتابة وتأليف هذا الكتاب الذي قد بدأت في يوم من عام ١٩٩٠ الميلادية المطابقة لـ ١٤١٠ الهجرية، وبعد سبعة عشر عامًا من الزمن. وهو بيان للدين الكامل الذي قد تم إعطاؤه بواسطة خاتم رُسل الله محمد ﷺ للبشرية جمعاء. وقد قدمته في هذا الكتاب خالصًا من كل شوائب الفقه، والكلام والفلسفة والتصوف، في ضوء الكتاب والسنة وبدون زيادة وحذف. وقُبلت فيه مما روي عن النبي ﷺ من أخبار وأحاديث من حيث المتابعات، وكان قبولها مبنياً على ما وضعه المحدثون من معايير للرد والقبول للأحاديث والأخبار. وعليه فلم تجد رواية أقل درجة منها طريقها في هذا الكتاب.

وللتوصل إلى تعبير الدين للكتاب والسنة، الذي قد تم تقديمه في هذا الكتاب قد حاولت في طريقه البلوغ إلى كل رأي ووجهة نظر وفهمهما العميق، الذي توارثها الخلف من السلف. ثم قبلت ما قبلت منه بناءً على دلائله وبراهينه، لا على اسم وشخصية كبيرة، ولا بناءً على قلة أو كثرة الحاملين له. وإن هذا الكتاب وإن كان مؤسسًا على رشحات فكر الإمام الفراهي والأستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاحين وآرائهما، ولكني لم أقبل ما ذهب إليهما بصفة كونه مذهبهما محضًا، بل فكرت فيه شهورًا ومرات عديدة، ثم قضيت فيه على أساس الدلائل وقوتها وضعفها أن أقبله أو أرده، ولذا فهناك عدة مقامات، حيث قد اختلف موقفني فيها من هذين العالمين الجليلين إلى حد كبير، كما أنه يختلف عن آراء

ومذاهب العلماء والمحققين الآخرين. ولكنه بصفته عملية إنسانية لا يخلو من أخطاء بشرية، ولذا فأنا ما زلت أنظر فيه مرارًا وما زلت أقوم بإدخال تعديلات وتغييرات فيه. وقد صدرت له طبعات وقد خرج بعض أبوابها من حين لآخر، وكل شخص يستطيع أن يرى بالنظر فيها أنني قد قمت بتعديل وإصلاح خطأ ظهر لي ويمت بصلة إلى اللغة والبيان، والعلم والنظر والأخذ والاستنباط في طبعة قادمة من غير تردد ولا ريب. وأنا مستعد بكل وقت أن أقوم بإصلاح وتعديل في أي خطأ إذا تبين لي أو أن يكون موضحًا بالنسبة لي في المستقبل أيضًا إن شاء الله تعالى. فأعوذ بالله من أن أخطأ عن شعور مني في ما يتعلق بالدين أو أن أستمّر على خطأ فيه.

وأريد، مع كل الاعتراف والتشكر لما بذل عليّ من عنايات وألطف من ربي الله سبحانه وتعالى، أن أتوجه بالشكر والتقدير خاصةً للأخ الشيخ أفضال أحمد الذي كان قد أغناني من سائر الكد والجهد المعيشي وتكفل لي كل حاجياتي وضروراتي بكل محبة ورحابة وإخلاص أثناء هذه الفترة الكاملة. كما قد فعلته زوجتي أيضًا، فإذا لم يكن هناك إخلاصها وإيثارها لما أمكن لي هذا العمل بسهولة ويسر مع التعقيدات والقضايا المنزلية المزعجة.

كما أنني مدين بكل قلبي لما ساعدني في إشراف أموري الذاتية الشخصية كل من إخواني وأحبائي الأخ شكيل الرحمن، والأخ الدكتور منير أحمد والأخ محمد أنيس مفتي والأخ أطفاف محمود فشكرًا لهم على خلوصهم وحبهم وتعاونهم. وفي السنتين الماضيتين قد قام بهذه المهمة نفسها كل من الأخوين: شاهد مولود وعمران كريم، فأتقدم إليهما أيضًا بشكري الجزيل.

وكذلك أتقدم أيضًا بشكري وامتناني لجميع تلامذتي وأحبائي الذين جاؤوا بنقادات ومشورات على محتويات الكتاب ومضامينه وبالتالي ساعدوني من خلال نقاداتهم في إزالة أخطاء الكتاب وأخص بالذكر منهم الإخوة من أمثال: الشيخ عمار خان ناصر، ومعز أمجد وطالب محسن ومحمد رفيع مفتي والأخ افتخار تبسم. وقد قام كل من محمد رفيع مفتي وافتخار تبسم بدراسة ناقدة دقيقة

لروايات وأحاديث هذا الكتاب فإعطاء مشورات مفيدة في رد وقبول الروايات. وقبلت أكثر ما جاء به من توصيات فيها. كما أنه من الضروري تقديم الشكر إلى الأخ العزيز شهزاد سليم الذي ما إن تم الكتاب إلا وقد قام بترجمته الإنجليزية.

وتقوم بعملية إخراج الكتاب ونشره الأخ منظور الحسن وفريقه في قسم التصنيف والتأليف لمؤسسة «المورد» وعملهم الذي يتم بإخلاص ومسؤولية وأمانة يوجب الشكر والإشادة وكل تقدير.

وهذا هو ثمرة أفكار ودراسة وتحقيق لطالب علم ويُقدم إلى القارئ الكريم من هذه الحثيثة. وأدعو الله تعالى، إن كان هذا العمل قد قدم خدمةً للدين، أن يقبله ويجعله وسيلةً لمغفرة ذنوبي وأخطائي. والآن هذا هو الرجاء فلم يبق لي أمنية غيرها في قلبي. كما قال شاعر أردني:

أتمنى وأنتظر فقط القبول منه

جاويد

المورد، لاهور يوم الجمعة 27 أبريل عام 2007م

المتوافق بـ 9 من ربيع الثاني سنة 1428 هجرية

(٢)

وهذا الكتاب قد صدر طبعه الأول في عام ٢٠٠٧م، وخرجت له منذ ذلك عشر طبعات.

وهذه هي طبعته الحادية عشر، والتي قد تمت فيها إعادة النظر في كامل الكتاب. وفي نتيجة ذلك، مع أنه لم يكن هناك تعديل خاص من حيث وجهة الفكر إلا ما حصل في مقامات يسيرة، ولكن كانت هناك إصلاحات وتغييرات في المباحث التمهيدية لبعض الأبواب وفي أسلوب البيان وطرز الأداء لبعضها الآخر. كما أن ترجمة آيات القرآن الكريم قد تم نقلها وتطابقها الآن من تفسيري «البيان». وبمثله قد تم وضع الدليل المؤشر لهذا الكتاب أيضًا (في الطبعة الاردية). ما قد تم إصلاح الأخطاء الإملائية وما يتصل بالكتابة ما أمكن. وقد تعاون معنا في عملية إعادة النظر هذه الأخ شاهد رضا فأشكر له شكرًا جزيلاً كما أشكر معه الأخ جواد أحسن الغامدي وفريقه العملي، الذين يهتمون لإخراج الكتاب ونشره في قسم التصنيف والتأليف لمؤسسة «المورد».

جاويد

كواللمفور

يوم الجمعة 14 أكتوبر عام 2016م

المتوافق بـ 12 من محرم الحرام سنة 1438 هجرية

المصادر والمراجع

- ١ - السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (م ٩١١هـ) الإتقان في علوم القرآن، الطبعة الأولى دار الكتاب العربي بيروت ١٩١٤هـ / ١٩٩٩م
- ٢ - أبو حاتم محمد بن حبان البستي، (م ٣٥٤هـ) وضع وترتيب علاء الدين على بن بلبان (م ٧٣٩هـ) الطبعة الأولى دار المعرفة بيروت ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م
- ٣ - أبوبكر أحمد بن علي الرازي الجصاص (م ٣٧٠ هجرية) أحكام القرآن، دار الكتاب العربي بيروت
- ٤ - ابن العربي أبو بكر محمد بن عبد الله (م ٥٤٣هـ) أحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي بيروت
- ٥ - أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقى أخبار مكة، مكتبة الثقافة مكة المكرمة الطبعة العاشرة، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م
- ٦ - ابن عبد البر أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر (م ٤٦٣ هجرية) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، دار الجيل بيروت الطبعة الأولى (١٤١٢هـ / ١٩٩٢م)
- ٧ - جاويد أحمد الغامدي البرهان، المورد لاهور الطبعة الرابعة ٢٠٠٦م
- ٨ - الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر (م ٧٩٤هـ) البرهان في علوم القرآن، دار المعرفة بيروت الطبعة الثانية ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م

- ٩ - الطبري أبو جعفر محمد بن جرير (م ٣١٠هـ) تاريخ الأمم والملوك، دار الفكر بيروت الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م
- ١٠ - ابن عساكر أبو القاسم علي بن الحسن الدمشقي (م ٥٧١ هـ) تاريخ دمشق الكبير بتحقيق: أبو عبد الله علي عاشور الجنوبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ / ٢٠٠١ م
- ١١ - يحيى بن معين (م ٢٣٣ هـ) تاريخه برواية الدوري أبو الفضل العباس بن محمد (م ٢٧١ هـ) تحقيق وتعليق: عبد الله أحمد حسن، دارالقلم بيروت
- ١٢ - أمين أحسن الإصلاحي (م ١٤١٨ هـ) تدبر القرآن مؤسسة فاران لاهور الطبعة الخامسة ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م
- ١٣ - أمين أحسن الإصلاحي (م ١٤١٨ هـ) تركية النفس مؤسسة فاران لاهور الطبعة الخامسة ٢٠٠٦ م
- ١٤ - ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (م ٧٧٤ هـ) تفسير القرآن العظيم أكاديمية أمجد لاهور ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٢ م
- ١٥ - الرازي أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين (م ٦٠٢ هـ) التفسير الكبير دارالكتب العلمية طهران الطبعة الثانية
- ١٦ - أبو الأعلى المودودي، تفهيم القرآن إدارة ترجمان القرآن لاهور الطبعة الثامنة والثلاثون ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م
- ١٧ - السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (م ٩١١ هـ) تنوير الحوالك على مؤطا مالك شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده مصر ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ م
- ١٨ - أمين أحسن الإصلاحي (م ١٤١٨ هـ) توضيحات مطبوعات إسلامية لاهور ١٩٨٦ م
- ١٩ - الطبري أبو جعفر محمد بن جرير (م ٣١٠ هـ) جامع البيان، تحقيق محمود شاكر، دار إحياء التراث العربي بيروت الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م

- ٢٠- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (م ٢٥٦هـ) الجامع الصحيح دارالسلام الرياض الطبعة الثانية ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م
- ٢١- أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري (م ٢٦١هـ) الجامع الصحيح دارالسلام الرياض الطبعة الثانية ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م
- ٢٢- أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي (م ٢٧٩ هـ) الجامع الكبير السنن، دار الغرب الإسلامي بيروت الطبعة الثانية ١٩٩٨ م
- ٢٣- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (م ٢٧١هـ) دار الكتب المصرية القاهرة الطبعة الثانية ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م
- ٢٤- أمين أحسن الإصلاحي (م ١٤١٨ هـ) حقيقت شرك وتوحيد مؤسسة فاران لاهور ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م
- ٢٥- عبد القاهر بن عمر البغدادي (م ١٠٩٣ هـ) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب دار صادر بيروت الطبعة الأولى
- ٢٦- أمين أحسن الإصلاحي (م ١٤١٨ هـ) دعوة الدين ومنهاجها الصحيح (أردو) مؤسسة فاران لاهور الطبعة الثانية ١٤١٠ هـ / ١٩٨٩ م
- ٢٧- عبد الحميد الفراهي (م ١٣٤٩ هـ) الرأي الصحيح في من هو الذبيح ترجمة أمين أحسن الإصلاحي (م ١٤١٨ هـ) مكتبة نادي خدام القرآن المركزية لاهور ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م
- ٢٨- عبد الحميد الفراهي (م ١٣٤٩ هـ) رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن الدائرة الحميدية بسرايمير أعظم جراه الطبعة الثانية ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م
- ٢٩- أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي (م ٥٨١ هـ) الروض الأنف دار إحياء التراث العربي بيروت الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م
- ٣٠- أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (م ٣٦٠ هـ) المعجم

الصغير محمد شكور محمود الحاج امير المكتب الإسلامي بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م

٣١- أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (م ٢٧٣هـ) سنن ابن ماجه دارالكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م

٣٢- أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (م ٢٧٥هـ) سنن أبي داود دارالجيل بيروت ١٤١٢هـ / ١٩١٢م

٣٣- أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (م ٤٥٨هـ) السنن الكبرى دارالكتب العلمية بيروت الطبعة الثالثة ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م

٣٤- أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب (م ٣٠٣هـ) سنن النسائي الصغرى دارالسلام الرياض ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م

٣٥- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (م ٧٧٤هـ) السيرة النبوية دار إحياء التراث العربي بيروت

٣٦- أبو محمد عبد الملك بن هشام (م ٢١٣هـ) السيرة النبوية دار الخير بيروت الطبعة الثانية ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م

٣٧- محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي (م ١٥١هـ) السيرة النبوية دارالكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م

٣٨- محمد بن عبد الباقي (م ١١٢٢هـ) شرح المواهب اللدنية المطبعة الأزهرية مصر الطبعة الأولى ١٣٢٧هـ

٣٩- أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري (م ٣١١هـ) صحيح ابن خزيمة تحقيق وتخريج الدكتور محمد مصطفى الأعظمي المكتب الإسلامي بيروت الطبعة الثانية ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م

٤٠- محمد بن سعد بن منيع كاتب الواقدي (م ٢٣٠هـ) الطبقات الكبرى دار الفكر بيروت الطبعة الأولى ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م

- ٤١- السشاه إسماعيل الدهلوي (م ١٢٤٦هـ) عبقات النسخة القلمية بمكتبة جامعة بنجاب لاهور
- ٤٢- أبو الحسن أحمد بن يحيى البلاذري (م ٢٧٣ هـ) فتوح البلدان دار الكتب العلمية بيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م
- ٤٣- عبد الحميد الفراهي (م ١٣٤٩ هـ) القائد إلى عيون العقائد الدائرة الحميدية بسرايمير أعظم جراه الطبعة الأولى ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م
- ٤٤- عز الدين أبو الحسن علي بن محمد ابن الأثير الجزري (م ٦٣٠ هـ) الكامل في التاريخ دار الكتاب العربي بيروت، ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م
- ٤٥- أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم القاضي (م ١٨٢ هـ) كتاب الخراج دار المعرفة بيروت
- ٤٦- أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (م ٥٣٨ هـ) الكشف دار إحياء التراث العربي بيروت الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م
- ٤٧- أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (م ٤٦٣ هـ) الكفاية في علم الرواية، دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد الدكن ١٣٥٧ هـ
- ٤٨- أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي (م ٧١١ هـ) لسان العرب دار صادر بيروت
- ٤٩- أمين أحسن الإصلاحي (م ١٤١٨ هـ) مؤسسة فاران لاهور الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م
- ٥٠- أمين أحسن الإصلاحي (م ١٤١٨ هـ) مؤسسة فاران لاهور ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م
- ٥١- وحيد الدين خان، مذهب أورجديد جيلنج (الإسلام يتحدى) المكتبة الأشرفية لاهور
- ٥٢- أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (م ٤٠٥ هـ) المستدرک على الصحيحين مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م

٥٣- أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (م ٢٤١ هـ) المسند دار إحياء التراث العربي بيروت ١٤١٥هـ / ١٩٩٤ م

٥٤- أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى التميمي الموصلي (م ٣٠٧ هـ) مسند أبي يعلى تحقيق ظهير الدين عبد الرحمن، دار الفكر بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م

٥٥- أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبه الكوفي (م ٢٣٥ هـ) المصنف في الأحاديث والآثار لابن أبي شيبه دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الثانية ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥ م

٥٦- أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (م ٣٦٠ هـ) المعجم الأوسط تحقيق محمد حسن محمد إسماعيل الشافعي دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩ م

٥٧- جواد علي الدكتور المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام دار العلم للملايين بيروت الطبعة الثانية ١٩٧٦ م

٥٨- أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (م ٣٦٠ هـ) المعجم الكبير، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي مكتبة الزهراء الموصل الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣ م

٥٩- أبو عبد الله مالك بن أنس المدني (م ١٧٩ هـ) برواية يحيى بن يحيى بن كثير المصمودي الأندلسي (م ٢٣٤ هـ) المكتبة الحقانية بشاور

٦٠- عبد الحميد الفراهي (م ١٣٤٩ هـ) نظام القرآن الدائرة الحميدية بسرايمير أعظم جراه الطبعة الأولى ٢٠٠٨ م

61 - Ebrahim Keats, Judaism In Islam Blach publishing company New York ,First Edition 1954

62 - Edward Gibbon, The Decline and Fall of Roman Empire, The modern Library New York

63 - J Neusner, The Talmud of Babylonia: An Academic Commentary Scholars Press Atlanta 1996.

محتويات الكتاب

5	فاتحة الكتاب.....

المقدمة (١)

7	الأصول والمباني.....
8	التقاليد والآداب.....
9	مبادئ تدبر القرآن.....
16	ندرة الأسلوب.....
19	الميزان والفرقان.....
22	خلافات في القراءة.....
28	دلالة الألفاظ.....
29	المحكم والمتشابه.....
31	الحديث والقرآن.....
38	كتابًا متشابهًا.....
40	كتاب أخير للدين.....
45	حكاية إنذار الرسول.....
47	نظم الكلام.....
51	السبع المثاني.....
54	خلفية التاريخ.....
56	مبادئ تدبر السنة.....
60	مبادئ تدبر الحديث.....
61	سند الحديث.....
61	متن الحديث.....
63	ذوق العربية.....

63.....	ضوء القرآن
64.....	الموقع والمكان
65.....	النظر في أحاديث الباب
65.....	العقل والنقل

المقدمة - (٢)

67.....	الدين الحق

الجزء الأول

79.....	الحكمة

الإيمانيات

86.....	الإيمان بالله
91.....	الذات
93.....	الصفات
103.....	السنن
121.....	الإيمان بالملائكة
126.....	الإيمان بالأنبياء
127.....	حقيقة النبوة
129.....	ضرورة نبي
130.....	معرفة النبي
135.....	بشرية النبي
137.....	فطرة النبي
138.....	عصمة النبي
140.....	رياضة النبي
141.....	فضيلة النبي
143.....	إطاعة النبي
145.....	شفاعة النبي
147.....	ختم النبوة
149.....	الإيمان بالكتب
150.....	التوراة
151.....	الزبور

151	 الإنجيل
152	 القرآن
155	 الإيمان بيوم الجزاء
156	 الشواهد
172	 علامات القيامة:
177	 أحوال القيامة
179	 مشاهد القيامة
193	 الأخلاقيات
194	 المباحث النبوية
198	 أصل الأصول
200	 الفضائل والرذائل
205	 عبادة الله تعالى
207	 البر بالوالدين
213	 الإنفاق في سبيل الله
218	 العفة والحشمة
222	 قدسية النفس البشرية واحترامها
223	 الخيانة في مال اليتيم
223	 الوفاء بالعهد
225	 الإيفاء بالكيل والميزان
226	 اتباع الظنون والأوهام
228	 الاستكبار والغرور
235	 الجمال والكمال
236	 الإسلام
237	 الإيمان
239	 القنوت
240	 الصدق
244	 الخشوع
245	 الصدقة
246	 الصوم
246	 حفظ الفروج
247	 الذكر الكثير

الجزء الثاني الكتاب

255	قانون العبادات
255	الصلاة
266	تأريخ الصلاة
268	نصوص من الكتاب المقدس متعلقة بالصلاة
274	مقصد الصلاة
274	شروط الصلاة:
282	أعمال الصلاة
283	رفع اليدين
284	القيام
284	الركوع
284	القومة
285	السجود
285	الجلسة
285	القعدة
286	أذكار الصلاة
287	في القيام
291	في الركوع
291	في القومة
292	في السجدة
293	في الجلسة
293	في القعدة
296	الأذكار بعد الصلاة
298	أوقات الصلاة
302	ركعات الصلاة
303	الرخصة في الصلاة
306	جماعة الصلاة
309	الأذان
311	الإقامة
312	الإمام

313	المقتدي
314	المساجد
315	تحية المسجد
316	السهو في الصلاة
318	آداب الصلاة
326	صلاة الجمعة
328	صلاة العيدين
329	صلاة الجنازة
332	الصلوات النافلة
339	الزكاة
341	تاريخ الزكاة
344	مقاصد وأهداف الزكاة
344	قانون الزكاة
349	الصوم
353	تاريخ الصوم
357	مقصد الصوم
368	الحج والعمرة
374	تاريخ الحج والعمرة
380	مقاصد الحج والعمرة
381	أيام الحج والعمرة
382	مقامات الحج والعمرة
386	طريقة الحج والعمرة
400	الأضحية
404	تاريخ النسك
406	غرض النسك
406	قانون النسك والأضحية
409	التشريع الاجتماعي
412	النكاح
412	المحرمات:
414	النسب
419	الحدود والشرائط:
422	الحقوق والفرائض

428	تعدد الأزواج
434	حدود المباشرة
438	الإيلاء:
439	الظهار:
440	الطلاق
442	حق الطلاق
443	طريقة الطلاق
454	عدة الطلاق
458	وبعد الطلاق
458	الرضاعة:
459	عضل المرأة في النكاح:
460	حضانة الأطفال:
461	وفات الزوج:
463	آداب الاختلاط بين الرجل والمرأة:
473	البر بالوالدين
476	اليتامى
478	فصل في الرق
483	قانون السياسة في الإسلام
484	الأسس النبوية
487	المسؤولية الأصلية
489	الواجبات الدينية
490	حقوق المسلمين
494	نظام الحكومة في الإسلام
499	قانون الاقتصاد
502	أكل المال بالباطل
515	الكتابة والشهادة
520	2 الوصية
539	التشريع الدعوي
540	دعوة النبي
541	الإنذار:
543	الإنذار العام
545	إتمام الحجة

546	الهجرة والبراءة
548	العقاب والجزاء
555	دعوة سلالة إبراهيم
558	دعوة علماء الدين
563	دعوة النظام الجماعي
564	دعوة المفرد
567	استراتيجية الدعوة
571	مراعاة القدرة العقلية
573	رعاية نفسية المخاطب
579	طراز الكلام
583	أسلوب الاستدلال
585	طرائق الدعوة
589	قانون الجهاد
591	إذن الجهاد
592	حكم الجهاد
593	طبيعة المسؤولية
597	الباعث المحفز
600	الحدود الأخلاقية
605	غاية خطوة الجهاد
614	النصرة الإلهية
616	أسرى الحرب
620	غنائم الحرب
625	الحدود والتعزيزات
629	التصليب
629	قطع اليدين والقدمين بشكل عشوائي
629	النفى
633	القتل والجراحة
639	كفارة قتل الخطأ
641	الزنا
644	القذف
646	السرقه
651	الأكل والشرب

663	التقاليد والآداب.....
673	القسم وكفارته.....
677	خاتمة الكتاب (1).....
681	(2).....
683	المصادر والمراجع.....